

الجزء الأول

تأليف
الدكتور حسن إبراهيم حسن

٩٨٧ .

تاريخ الإسلام السياسي

تأليف

الدكتور حسن ابراهيم حسن

دبلوم المعلمين العليا ، وليسانس فى الآداب ، ودكتور فى الآداب (الجامعة المصرية) ، ودكتور فى الفلسفة ، ودكتور فى الآداب (فى التاريخ الاسلامى) جامعة لندن ، وعضو الجمعية الاسيوية الملكية بانجلترا ، وزميل جمعية الفنون الملكية بانجلترا

Ph. D. , D. Litt. (London) , MRAS. , FRSA.

أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية

الجزء الأول

يبحث فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية والحضارة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين

يطلب من المؤلف ومن المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الأولى

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م

مطبعة حجازى بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

مقدمة الكتاب

لهذا الجزء الأول من كتاب «تاريخ الاسلام السياسى» الذى اعتزمت اخراجه فى ستة أجزاء تاريخ يرجع إلى عهد طويل . فانى اشتغلت بمادة التاريخ الاسلامى من سنة ١٩١٥ عند التحاقى بالجامعة المصرية القديمة . فلما سافرت إلى انجلترا سنة ١٩٢٣ والتحقت بجامعة لندن وأتممت الدراسة المقررة لدرجة الشرف، وسمح لى باعداد رسالة الدكتوراه فى الفلسفة فى التاريخ الاسلامى ، اخترت «الدعوة الشيعية» موضوعا لرسالتى . فلما حضرت إلى مصر فى صيف سنة ١٩٢٥ بالاجازة وزرت الدكتور طه حسين وأخبرته باختيارى «هذا الموضوع» موضوعا لرسالتى تكرم علىّ بتبويبه هذا الموضوع وأشار على باختيار «الحركات السياسية والدينية فى العصر العباسى الأول» موضوعا لرسالة الدكتوراه فى الآداب وتفضل على بتبويبه .

فلما عدت إلى انجلترا وعرضت تبويب هذين الموضوعين على الأستاذ المرحوم السير توماس أرنولد أعجب به كل الاعجاب . ولا عجب فان الدكتور طه لايشق له غبار فى تبويب الكتب وتنظيمها . وإليه يرجع الفضل فى تبويب وتنظيم كتابى «عمرو بن العاص» الذى قدمته لنيل شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة سنة ١٩٢١ .

اشتغلت بهذين الموضوعين معاً وجمعت المادة التاريخية من مكاتب القاهرة ولندن واكسفورد وليدن وبرلين . وبدأت أنقح الموضوع الأول وأعده للامتحان لولا أن اتسعت بى دائرة البحث . عند ذلك أشار على أستاذى السير توماس أرنولد بأن أقسمه قسمين: القسم الأول ويتناول الكلام عن الدعوة الشيعية وقيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر ، والقسم الثانى ويتناول الكلام على هذه الدعوة فى مصر .

فلما أتممت دراستى بجامعة لندن وزرت السير توماس أرنولد قبل عودتى إلى مصر أشار على بالكتابة فى تاريخ المغول ، ولاسيما عصر أكبر خان امبراطور الهند العظيم ، لأن مؤرخى العرب لم يتناولوا هذه الناحية من التاريخ الاسلامى بما تستحقه من العناية رغم أهميتها . ولما عدت إلى مصر ألح على المرحوم أبو زيد بك فايد وكيل

مدرسة المعلمين العليا سابقاً بالكتابة فى السيرة النبوية ، لأنه لم يكن فى هذا الموضوع سوى الكتب القديمة كسيرة ابن هشام . وقد عزمت على الكتابة فى أحد هذه الموضوعات لولا أن كلفتنى وزارة المعارف بترجمة كتابى عن الدولة الفاطمية إلى العربية . وقد قضيت فى ترجمته عامين كاملين . وما كدت أنتهى من إخراجه حتى أخذت فى ترجمة كتاب Recherches sur la Domination arabe, le Chi'itisme et les Croyances Messianiques sous le Khalifat des Omayades تأليف فان فلوتن Van Vloten (السيادة العربية والتشيع والاسرائيليات فى عهد بنى أمية) ونقده والتعليق عليه بالاشتراك مع تلميذى الشيخ محمد زكى ابراهيم خريج كلية اللغة العربية بقسم التخصص (شعبة التاريخ) والمترجم بمصلحة المساحة .

وقبل أن يظهر هذا الكتاب اشتغلت بتأليف كتاب العصور الوسطى فى الشرق والغرب للمدارس الثانوية بالاشتراك مع الأستاذ أحمد صادق الطنطاوى ناظر مدرسة بورسعيد الابتدائية الأميرية . عند ذلك عولت على اخراج كتاب الحركات السياسية فى العصر العباسى الأول لولا أن كلفتنى وزارة المعارف بترجمة كتاب Arabic Papyri in the Egyptian Library للدكتور أدولف جروهمان Adolfe Grohmann استاذ الثقافة الاسلامية بجامعة براغ بتشيكوسلوفاكيا . فلما فرغت من ترجمته فى آخر صيف سنة ١٩٣٤ فكرت فى إخراج كتاب تاريخ الاسلام السياسى فى ستة أجزاء : يتناول الجزء الأول منه تاريخ الاسلام منذ البعثة النبوية إلى آخر العصر الأموى ، ويشتمل على الموضوع الذى ألح على المرحوم أبو زيد بك فايد بالكتابة فيه ؛ ويتناول الجزء الثانى التاريخ السياسى للاسلام فى العصر العباسى الأول أو العصر الذهبى للاسلام - أى من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٢٣٢هـ - ويشتمل على الموضوع الذى أشار على الدكتور طه حسين بالكتابة فيه ؛ ويتناول الجزء الثالث التاريخ السياسى للاسلام من وفاة الواثق سنة ٢٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ؛ ويتناول الجزء الرابع الكلام على تاريخ العالم الاسلامى بعد سقوط بغداد ، أى نشأة الأتراك العثمانيين ودول المغول الاسلامية فى فارس والهند وبلاد الغرب ، وهو يشتمل على الموضوع الذى أشار على به الأستاذ المرحوم السير توماس أرنولد ؛ والجزء الخامس ، يتناول

الكلام عن تاريخ بلاد المغرب والأندلس ، ويتناول الجزء السادس تاريخ الاسلام في مصر من الفتح العربي إلى الفتح العثماني .

وقد عولت أولا على أن أتناول الكلام في هذا الجزء عن تاريخ الاسلام السياسي منذ البعثة حتى آخر العصر العباسي الأول لولا أنني لم أكد أنتهي من طبع تاريخ العصر الأموي حتى بلغ ذلك الجزء حول ٦٦٥ صفحة . لذلك قنعت بهذا القدر من البحث وسأفرد الجزء الثاني للكلام على تاريخ الاسلام السياسي في العصر العباسي الأول .

ولعلي قد وفقت بعض التوفيق في هذا البحث ، كما أرجو أن أوفق إلى تقديم الجزء الثاني إلى القراء قريبا إن شاء الله .

ولا يفوتني أن أقدم جزيل شكري وعاطر ثنائي لكل من حضرات : الأستاذ محمود زكي المفتش بمصلحة المساحة ، والأستاذ احمد صادق الطنطاوي ، والأستاذ الشيخ محمد زكي ابراهيم ، وحضرة جمال الدين سرور افندي خريج قسم التاريخ بكلية الآداب ، على جميل معاونتهم لي معاونة صادقة تستحق الثناء والاعجاب ، كما أشكر الحاج مصطفى محمد على عنايته بنشر هذا الكتاب .

القاهرة في يوم الأربعاء ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٥

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

الباب الأول

العرب قبل الاسلام

صحيفة

الباب الثانى

البعثة النبوية

صحيفة

صفحة

الباب الثالث

الخلفاء الراشدون

صحيفة

الباب الرابع

الدولة الأموية

صفحة

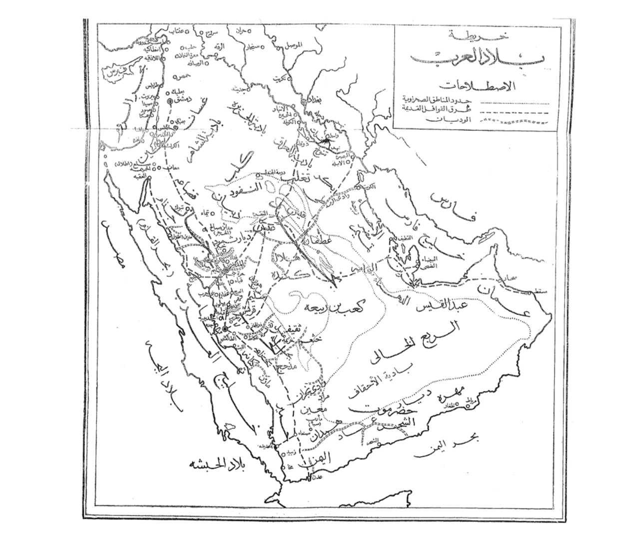
صحيفة

صفحة

الباب الخامس

الحضارة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين والامويين

صفحة



خريطة
بلاد العرب
الاصطلاحات
حدود المناطق الصحراوية
طرق القوافل القديمة
الوديان
فارس
عمان
عبد القيس
الربع الخالي
بادية الأحقاف
مهرة
حضرموت
بحر اليمن
اليمن
بلاد الحبشة
بلاد البجة
مصر
كعب بن ربيعة
النفود
كلب
غطفان
ثقيف
خثعم
مذحج
معين
بغداد
دمشق
حمص
الموصل
تكريت
سنجار
حران
عدن
زبيد

الباب الأول

العرب قبل الاسلام

وصف بلاد العرب :

لما كانت بلاد العرب مهد الدين الاسلامى والدول الاسلامية وجب أن نعرف شيئا عن وصف هذه البلاد الجغرافى ، وعن شعوبها وحالتها الاجتماعية والسياسية والدينية قبل ظهور الاسلام .

يكاد يكون تاريخ العرب القديم مجهولا جهلا تاما لسببين :

١ — انعدام الوَحْدَة السياسية ، فقد كانوا بدواً رحّلا ، متفرقين فى مختلف الأصقاع ، متعادين متنافرين .

٢ — عدم معرفتهم الكتابة ، إذ كان أكثرهم أميين ، ولذلك لم يدونوا حوادثهم إلا فى أواخر عهد الدولة الأموية . أما قبل ذلك فكان اعتمادهم على نقل الأخبار شفويا .

إسم عرب

قد بحث الأستاذ نلدكه لفظ « عرب » فى دائرة معارف تاريخ العالم[١] فقال : « يظهر أن المدلول الحقيقى للفظ عرب هو صحراء كما يظهر أن معنى Arabia يشمل صحراء الجزيرة وسورية وشبه جزيرة سيناء ؛ كما أننا نصادف لفظ Arab ، Arabia فى الكتب اليونانية . ولهيريدوت معرفة تامة بالعرب وكذلك بالجزء الذى بين فلسطين ومصر . وقد درس معاصرو هيريدوت من المؤرخين من أمثال إجزينوفون Xenophon تلميذ سقراط كلمة عرب Arab دراسة تامة . ويطلق لفظ عرب على صحراء بلاد الجزيرة بوجه خاص ، كما كان يطلق على أهل البدو من زمن بعيد لفظ « أعراب » ، وأطلق عليهم أخيراً « العربان » لتمييزهم عن أهل الحضر أى « العرب » .

وقد اختلف المؤرخون فى موطن السّاميين الأصلى ، وهل هم من بلاد العرب أو رحلوا إليها من إفريقية . ومع هذا فإنا نستطيع

(١) Thesdor Naeldeke, Historians' History of the World, vol. VIII, p.p. 2—3

أن نتبين فى اللغتين العبرية والآرامية (كما فى اللغة العربية) شواهد وآثاراً تدل على أن آباءهم كانوا فى وقت من الأوقات أقواما رُحّلا ، بدليل كثرة أسفارهم من بلاد العرب إلى البلاد الشمالية ، أى إلى صحراء الشام والجزيرة التى كانت تمدهم بما لم يجدوه فى صحرائهم الجنوبية لكثرة المطر فيها كثرة نسبية .

العرب وجيرانهم

لا يتورع البدو عن شد رحالهم إلى البلاد الزراعية والصناعية على الرغم من احتقارهم أصحاب المهن والزراعة ، وذلك لما تعودوه فى حياتهم البدوية التى نشأوا عليها ؛ كذلك كان البدو من العرب يخالطون سكان هذه البلاد الزراعية أو الصناعية لأجل الحصول على أرزاقهم إذا ما ألجأتهم الحاجة إلى ذلك ؛ ولهذا كان من أهم صفاتهم التنقل والرحلة إلى حيث يطيب لهم العيش إذا ما نضب معين الرزق من الجهة التى يسكنون فيها . ويقول الأستاذ نلدكه (١) : كان فى القرن الرابع الميلادى قبيلة من النبطيين Nabateans أصلهم أقوام رحل فى جنوب فلسطين ، استطاعت أن تنشىء مملكة مستقلة تمتد من ملك بنى إسرائيل حتى دمشق ، وقد وصلت إلى درجة من الحضارة لا يستهان بها ، وتبعت رومة تبعية محدودة ، وظلت على ذلك حتى أتى الامبراطور تراجان فقضى عليها فى سنة ١٠٦ م .

هذا وقد استقر كثير من القبائل العربية فى أجزاء كثيرة من جزيرة العرب وأصبحوا من رعايا الدولة الرومانية ، وتكلموا الآرامية بدل الاغريقية لأن اللغة العربية لم تكن إذ ذاك صالحة للكتابة ، إذ أن حروفها لم تكن قد تهذبت ووصلت إلى الحالة التى هى عليها الآن .

وقد ظهر منذ ذلك الحين لفظ Saracens, Taits ؛ وقد أطلق

---

(١) Hitorians' History of the World, vol, VIII. p.p. 2—3 Sprenger, Die alte Geogrophie Arabiens, p. 293

أهالى الولايات الرومانية المجاورة لبلاد العرب لفظ Saracens على هذه القبائل بسبب تعديهم على القوافل أوفرضهم مكوساً ثقيلة عليهم ، فأصبح يطلق على البدو من أهل هذه الجهات Saracens ؛ ومن ثم أطلق هذا اللفظ على جميع العرب ، بل وعلى جميع المسلمين من غير تمييز ، ثم تعداه إلى الشرقيين بلا استثناء . أما لفظ Taits فقد أطلق بهذه الصورة على جميع العرب ، وقد أطلقه عليهم السوريون من أهل الرُّهاء Edessa وأهل بابل ؛ وربما اشتق هذا الاسم من لفظ Taits أو طيء سكان شمال نجد الذين انتشروا فى جهات مختلفة خارج بلادهم .

وصف بلاد العرب

تقع بلاد العرب فى الجنوب الغربى من آسيا . وهى شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات : البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج الفارسى . ويطلق العرب على بلادهم جزيرة العرب ؛ وقد تصح هذه التسمية إذا اعتبرنا بلاد الجزيرة والشام من جزيرة العرب باعتبار أن العرب قد سكنوا جزءاً مهما منهما قبل الاسلام .

اقسام بلاد العرب

بلاد العرب صحراء ، ولكنها ليست ككل الصحارى الجرداءالتى لازرع فيها ولا ماء . وأول ما يلاحظ عليها هو طبيعة سطحها . فهى مختلفة الأجزاء ، إذ بعضها مغطى بالكثبان الرملية ، والبعض الآخر بالأحجار ، كما أن بعضها منخفض وبعضها مرتفع . وكانت هذه التفرقة سائدة بين الجغرافيين فى العصور القديمة فقسموا بلاد العرب إلى : Arabia Petrix (أو Petraea كما سماها بطليموس) وهى الأرض الواقعة جنوب غربى بادية الشام وعاصمتها بطره ؛ Arabia Deserta وقد أطلق على بادية الشام فقط كما أطلقه البعض على شبه جزيرة العرب لجدبها بوجه عام ؛ Arabia Felix ، وهى بلاد اليمن التى تسمى الأرض الخضراء أو البلاد السعيدة التى قامت فيها حضارة مَعين وسبأ [١] .

(١) Doughty, Arabia Deserta, vol. II. p. 524.

وتنقسم بلاد العرب بحسب طبيعتها إلى خمسة أقسام :

١ — تهامة : وهى الأراضى الواقعة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر الشرقى ؛ وسميت بهذا الاسم لشدة حرها وركود ريحها ، من التهم وهو شدة الحر وركود الريح ، وسميت كذلك الغور لانخفاض أرضها .

٢ — الحجاز : وتقع شمالى بلاد اليمن أى شرقى تهامة ، وتمتد إلى فلسطين . وسميت حجازاً لأنها تحجز بين تهامة ونجد ؛ وهو – كما وصفه جوستاف ليبون[1] – إقليم جبلى رملى يتكون فى الصقع الأوسط من المنطقة المعتدلة الشمالية تجاه البحر الأحمر ويحتوى على المدينتين المقدستين مكة والمدينة .

٣ — نجد : وتمتـــد بين اليمن جنوبا وبادية السماوة شمالا ، والعروض وأطراف العراق ؛ وسميت نجداً لارتفاع أرضها .

٤ — اليمن : وتمتد من نجد إلى المحيط الهندى ، ويحيط بها حضرموت والشحر وعمان فى الشرق .

٥ — العَروض وتشمل اليمامة والبحرين ؛ وسميت عَروضا لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

ويقول « هل » فى كتابه « حضارة العرب » : وقد تزول هذه الدهشة التى أثارها الاعتقاد السائد بأن بلاد العرب صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء إذا ما بحثنا فى أرض بلاد العرب من الناحيـة الطبيعية (الطبوغرافية) . فشبه الجزيرة هذه لا تشتمل فقط على صحار وسهوب ، ولكنها تشتمل أيضاً على أراض غاية فى الخصب كانت تزرع منذ آلاف السنين ، فيها المدن والقرى الآهلة بالسكان .

---

(١) Justave le Bon, Civilisasion des Arabes, T.I.p. 11.

مواطن الخصب في بلاد العرب

وتمتد هذه الأقسام الخصبة على ساحل شبه الجزيرة بوجه عام : ففي الجنوب الغربي بلاد اليمن ، ويسميها الأقدمون الأرض الخضراء ، وفي الجنوب بلاد حضرموت موطن البخور الكثير الاستعمال في الأزمان الغابرة ؛ وفي الشرق بلاد الأحساء الخصبة الواقعة على الخليج الفارسي - وكانت جميع أرضها صالحة للزراعة عدا جزء قليل جدا — وأما الساحل الغربي فأرضه وعرة حزنة تتخللها التلال والكثبان ، ولكنها تمتاز بمراعيها . وكانت في الأزمان الغابرة أحسن حالا مما هي عليه اليوم . أما أرض بلاد العرب الوسطى المرتفعة — وهي نجد — وما يتخللها من الجبال المرتفعة هنا وهناك ، ووديانها الطويلة وسهوبها التي يرعى فيها أحسن الخيول العربية ، واليمامة الواقعة الى الجنوب الشرقي ، فقد كانتا تسدان حاجة العرب من القمح - كما كانتا في القرنين السادس والسابع — لا تقلان عن أراضي أوربا المزرعة اليوم بل ربما كانت تبذها خصبا في كثير من البقاع . (١)

وقد وصف سديو (٢) بلاد الحجاز فقال « إن وصف الحجاز يجذب النفوس ويشوقها أكثر من غيره ، لاشتماله على أكثر مدائن العرب ، و « يثرب » التي سميت فيما بعد المدينة . ويتخلل أرض الحجاز كثبان من الرمال وآكام خصبة — وهي مساكن القبائل — وحول هذه الآكام قرى وضياع . وعليها قلاع حصينة تقيهم شر هجمات الأعداء ، وينبت بمنحدراتها بعض الحبوب والثمار للمواشي ، وبها عيون ماء نابعة ، وغرب احدى تلك الآكام مدينة الطائف وهي بستان مكة لما الفواكهه من الشهرة العظيمة »

(١) Hell, Cultur der Araber, trans. by Khuda Bukhsh, p. 2—3

(٢) Sédillot, Hiotoire générale des Arabes, tome I. p.p. 41—42

وصف بلاد العرب الطبيعي

هي شبه الجزيرة العظيمة الواقعة فى الجنوب الغربى من آسيا : وسطها مؤلف من سهول قاحلة رملية جنوبا ، حجرية شمالا . وبالجهات القاحلة أماكن جبلية ذات ينابيع مائية وسكان يشتغلون بالزراعة ، ولهم مدن وقرى كثيرة كما هو الحال فى الصحراء الافريقية . وأول من وقف على أحوالها من الأوربيين ووصفها وصفاً تاما سائح اسمه بلجراف (Palgrave) ، فقال عنها « أنها كتلة من الأرض الخصبة حولها منطقة عريضة من الصحارى غير قابلة للسكنى ، تتصل فى كل أرجائها بالمنطقة الجبلية المشرفة على البحر الأحمر ، ويفصلها عنه منطقة أخرى ساحلية رملية شديدة القيظ اسمها تهامة »

وبلاد العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ، ومنها الحرار (١) كما يوجد بها الصحارى الرملية المترامية الأطراف. ويتخلل هذه الجبالَ الوديانُ التى هيأتها السهول ، والأراضى القريبة منها فهى خِصْبة التربة صالحة لإقامة الأهالى الذين يعتمدون على ما تُنبت تربة أرضهم وما يجدونه من ماء يشربون منه ويسومون أنعامهم ؛ وأما ما بَعُدَ عن هذه الوديان فهو قفر غير صالح للسكنى . وأعظم وادٍ ببلاد العرب هو وادى الدهناء الذى يعود على العرب بالخير إذا أخصب؛ غير أن الانتفاع بجميع الماء غير ميسور ، لأن الكثير منها يغيض فى الرمال ؛ وقد يتأخر المطر ، فتشتد الحال بالقبائل التى تعتمد عليه وهى كثيرة . ومع ذلك فقلَّ أن يبقى العرب فى مكان واحد ، لأنهم يتنقلون إلى حيث يوجد الماء . وبلاد اليمن كثيرة الوديان ، كما أن فى بلاد العرب مياها يسمونها الأحْساء . والحساء جمع حسى وهو موضع رمل تحته صلابة ؛ فاذا نزل المطر على ذلك الرمل منعته الصلابة أن يتسرب فى الأرض .

كثرة الجدب وأسبابها

ولما كانت مياه هذه الأودية لا تسد حاجة الجزيرة ، غلب عليها

---

(١) جمع حرة وهى الحجارة النخرة السوداء .

الجدب ؛ لأن الكثير من مائها يغيض فى باطن الأرض ، فلا يمكن الانتفاع به إلا بطرق هندسية لم يكن للعرب المام بها ، اللهم إلا بلاد اليمن التى استطاع أهلها أن يحولوا مجارى الوديان ؛ إذ بنوا سداً محكما يحجز الماء خلفه فى أرض صلبة للانتفاع به وقت الحاجة .

الآبار

ويظن البعض أن المعيشة فى الصحارى غير ممكنة ؛ ولكن الحال على العكس من ذلك لأن جوها ملائم للصحة ، ولسكنى قوم أقوياء خالين من الأمراض فى استطاعتهم أن يتحملوا المشاق التى فرضتها عليهم طبيعة أرضهم . وكمية المطر قليلة أو منعدمة فى بلاد العرب اللهم إلا فى بلاد اليمن ، فانها أكثر بلاد العرب أمطارا ؛ إذ تمر عليها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التى تقابل الجبال ، فتتساقط الأمطار على سفوحها الجنوبية . وقد تتسرب هذه الأمطار الى باطن الأرض ، ثم تتجمع فى بعض الجهات المنخفضة وتظهر على شكل آبار ، وتسمى هذه الجهات بالواحات .

صحراء النفود

وإذا نظرنا إلى خريطة بلاد العرب ، نجد أن فى هذه البلاد جزأين صحراويين : أحدهما فى شمال هضبة نجد واسمه النفود ، ويمتد من شمال هضبة نجد حتى جنوب فلسطين ؛ وهو كثبان رملية يتخللها وديان عميقة لا يصل إليها الماء . ويمكن اختراق النفود من الشرق الى الغرب فى نحو أربعين ساعة مع صعوبة عبورها . والصحراء الأخرى فى الجنوب الشرقى من جزيرة العرب ، وتقع شمال حضرموت واسمها الدَّهناء أو الصحراء الحمراء ، وهى أشق بكثير وأجدب من صحراء الشمال . ولم يعبر أحد تلك الأرض حتى الرحالة والبدو أنفسهم . وما عدا ذلك ترى ببلاد العرب أراضى زراعية وواحات يمكن السكنى فيها .

الدهناء

وقد أكسبت طبيعة هذه البلاد أهلها النشاط والخفة ، وخصوصا البدو منهم ؛ فانهم لا يعتمدون كثيراً على الزراعة ولا سيما إذا انعدم الماء ،

بل إن جل اعتمادهم على أنعامهم وخصوصا الابل ؛ فيأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بأوبارها ، وهى تحملهم وتحمل أمتعتهم إلى حيث يريدون الاقامة إذا انعدم الماء ، أو أرادوا الرحيل إلى جهة من الجهات للتجارة .

الشعوب العربية :

قبل أن نتكلم عن حضارة العرب فى الجاهلية وعن حالتهم الاجتماعية والدينية ، يجب أن نلمّ بشىء عن نسبهم . فى هذه البلاد قبائل شتى ترجع فى أصلها إلى شعبين عظيمين هما قحطان وعدنان ؛

القحطانيون

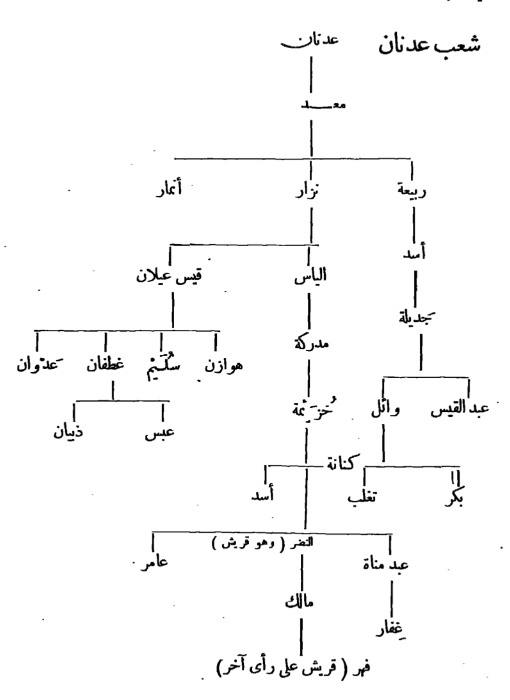
وموطن شعب قحطان بلاد اليمن . وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان . ومنهم بطون حمير وأشهرهم قضاعة ، وبطون كهلان وأشهرهم همْدان ، وطيّ ، ومذحج ، وكندة ، ولخم ، والأزد الذين منهم الأوس والخزرج ، وأولاد جفنة الذين ملكوا الشام . وقد فكر ملوكهم فى الاستفادة بمياه السيول ، ولذلك أقاموا سد مأرب الذى سنتكلم عنه فى حضارة العرب .

هجرتهم الى الشمال والشرق

ولما أخذت بلاد اليمن فى الانحطاط أخذ أهلها يهاجرون إلى أرجاء جزيرة العرب ؛ فسار ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز ، وانتهى إلى المدينة فغلب هو وأهله من كان بها وأكثرهم من اليهود ، وسار حارثة ابن عمرو ـ وهو خزاعة ـ بمن معه فاقتحموا الحرم وأجلَوْا عنه سكانه من جُرْهم [١] ، وسار عِمران بن عمرو نحو عُمان فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عُمان ، وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وأولاده وهو أبو الملوك الغساسنة . ومنهم قبيلة لَخْم بن عَدِىّ الذين منهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة ، ومنهم

(١) هى قبيلة من اليمن .

طيّء الذين ساروا نحو الشمال ونزلوا فى الشمال الشرقى من المدينة المنورة ، ولهم شأن كبير فى تاريخ العرب الطائيين قبل الإسلام لما كان لهم من القوة والمنعة ، ومنهم قبيلة كَلْب بن وَبَرَة من قُضاعة الذين أقاموا ببادية السَّماوة التى فى طرف شمال نجد ، وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادى الدهناء .



هكذا تفرقت القبائل اليمنية واحتلت أخصب بقاع جزيرة العرب في الشمال والغرب. وقد بقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة، وكان لحمير السيادة على هذه البلاد.

شعب عدنان

أما شعب عدنان فوطنه الأصلي مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة. وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في سلسلة نسب عدنان إلى إسماعيل، فقد اتفقوا على أن هذا النسب ينتهي إلى إسماعيل.

رأي نيكلسون

وفي ذلك يقول الأستاذ نيكلسون [١] « لا مراء أن هذه الأنساب خرافية إلى حد ما وأن نسب عدنان لا يزال مثار كثير من الشك على الرغم من أن العرب قد أجمعوا على أنه من ولد إسماعيل، وبنوا على ذلك أنسابهم وظهرت فيه عصبياتهم واضحة جلية. وخير لنا أن نتحدث عما يعتقده العرب ويتخذونه أساساً لنظامهم الاجتماعي ولآثارهم الأدبية صارفين النظر عن نقده وبيان حظه من الخطأ والصواب ».

رأي مرجوليوث

ويقول الأستاذ مرجوليوث: إن الأبحاث الحديثة قد أظهرت على أن نسبة كل من القبائل العربية إلى جدها الأول يشوبها شيء من الشك » [٢].

ومهما يكن من شيء فقد أمر الله إبراهيم [٣] أن يرحل بولده إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة، فأقام مع جُرْهُم من أولاد قحطان

---

(١) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p.p.XVIII, XX, XXI

(٢) Margoliouth, Mohammed and the Rise of Islam, p. 4

(٣) ولد ابراهيم عليه السلام بالعراق. ولما أمره الله تعالى أن يدعو قومه الى التوحيد دعا أباه فلم يجبه، ودعا قومه فأجابوه. ولما نمى خبره الى نمرود أمر به فألقى في النار فكانت عليه بردا وسلاما كما يحدثنا القرآن (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم - سورة الانبياء ٢١ : ٦٨ - ٦٩). وقد سار ابراهيم وزوجته سارة وغيرها ممن آمن بدعوته الى حران، ثم أتى مصر حيث لحق بهم حتى فرعون الذى اطلقه هو

فنشأ معهم . وكانت لغتهم العربية فتعلمها منهم [١] ، ثم صاهرهم وولد له اثنا عشر ولداتفرعت منهم بطون كثيرة [٢] . ويقال لبطون هذا الشعب مَعَدّ ونِزار ، ومن نزار إياد وربيعة ومُضَر ، ومن هذين الأخيرين كثرت البطون .

ربيعة

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة فى التاريخ ، وكانوا ينافسون مضر فى الشرف (ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام) . ومن ربيعة بنو أسد ، وكانوا يسكنون شمالى وادى الرُّمَّة ، وعبدالقَيْس ، ووائل وتنقسم إلى بكر وتغلب .

مضر

وقد تشعبت قبائل مُضر شُعبتين : قَيْس عَيْلان بن مضر ومنهم هوازن وسُلَيم وغَطَفان ، وإلياس بن مضر . ومن غَطفان عَبْس وذُبْيان . ومن أولاد إلياس بطون تميم بن مُرّ وكانت تسكن بادية البصرة ، وهُذَيل بن مُدْركة وكانت تسكن الجبال القريبة من مكة ، وبطون كِنانة بن خُزَيْمة ومنها قريش .

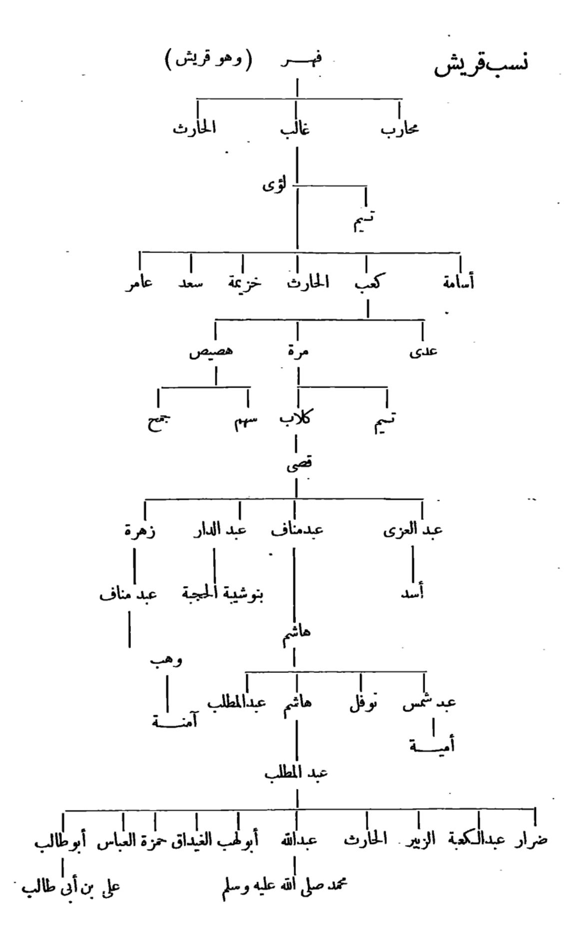
قريش

وقد انقسمت قريش الى قبائل شتى من أشهرها جُمَح وسهم ابنى هُصَيْص بن كعب ، وعَدِىّ بن كعب ، وتَيْم بن مرة . وزُهْرة بن كلاب ، وعبد الدار بن قُصَىّ ، وأسد بن عبد العُزَّى بن قُصَىّ ، وعبد مناف بن قصَىّ ، وكان له من الولد عَبْدُ شَمْس ونَوْفل

وزوجته بعد أن ظهرت على يدابراهيم آيات النبوة ووهب سارة هاجرجارية لها ، ثم سار ثلاثتهم الى الشام واقاموا بين الرملة وايلاء . وكانت سارة لا تلد ، فوهبت ابراهيم هاجر فاولدها اسماعيل ، فحزنت سارة لذلك ، فرزقها الله اسحق . ثم غارت سارة من هاجر وابنها اسماعيل وقالت « ان ابن الامة لا يرث مع ابنى » ، وطلبت من ابراهيم أن يخرجها عنها فسار ابراهيم بهاجر واسماعيل الى بلاد الحجاز وتركهما بمكة . ابو الفداء ج ١ ص ١٣

(١) يظهر لنا أن اسماعيل كان يتكلم العبرانية وأن بنى جرهم كانوا يتكلمون لغة عربية مخالفة بعض الشيء لما هى عليه الآن وأن اللغتين قد امتزج بعضهما ببعض فكانت منها اللغة العربية الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم

(٢) كتاب المعارف لابن قتيبة (طبعة وستنفلد) ص ١٨ .



نسب قريش
فهـــر (وهو قريش)
محارب
غالب
الحارث
لؤى
تيم
أسامة
كعب
الحارث
خزيمة
سعد
عامر
عدى
مرة
هصيص
تيم
كلاب
سهم
جمح
قصى
عبد العزى
عبدمناف
عبد الدار
زهرة
أسد
بنوشيبة الحجبة
عبد مناف
هاشم
وهب
عبد شمس
نوفل
هاشم
عبدالمطلب
آمنـــة
أميـــة
عبد المطلب
ضرار
عبدالكعبة
الزبير
الحارث
عبدالله
أبولهب
الغيداق
حمزة
العباس
أبوطالب
محمد صلى الله عليه وسلم
على بن أبى طالب

وعبد المطلب وهاشم . ومن بيت هاشم النبي صلى الله عليه وسلم ، والعباسيون أولاد العباس بن عبد المطلب ، والعلويون أولاد على بن أبى طالب .

الهجرة العدنانية

ولما تكاثرت العدنانية ورأوا أن البلاد التى كانوا يقيمون فيها قد ضاقت بهم ، تفرقوا حيث الماء والزرع . وممن هاجر منهم قبيلة عبد القَيْس وبطون من تميم بن مُرَّة ، هاجروا الى جهة البحرين . وخرج غيرهم من القبائل الى اليمامة والبحرَيْن وبلاد الجزيرة وبادية البَصْرة ، وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن فى شرق مكة بنواحى أوْطاس [1] بين مكة والبصرة .

وأقامت قريش بمكة وضواحيها ، إلا أنهم ظلوا متفرقين حتى جاء قصى بن كلاب فكوَّن لهم وَحدة وغلب خزاعة على أمر الكعبة ؛ ومن ثَمَّ ظهر أمرهم بين القبائل الأخرى . [2]

الحضارة العربية قبل الاسلام :

حضارة اليمن

لم يذكر لنا المؤرخون شيئا ذا غناء عن الحضارة التى وصل إليها العرب فى الجاهلية ، ولكن مما لاشك فيه أنه كان فى الجزء الجنوبى الغربى من هذه الجزيرة — أى فى بلاد اليمن — مملكة سبأ وحمير . وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بألفى سنة درجة من الحضارة تدل عليها أطلال المبانى الفخمة والنقوش الكثيرة .

وهنالك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والأبهة التى وصلت إليها مملكة سبأ ، منها هذه القصة الخاصة بزيارة الملكة سبأ أو بلقيس

---

(١) اسم واد وقعت فيه موقعة حنين التى أوقع فيها النبي صلى الله عليه وسلم ببنى هوازن

(٢) راجع Wustenfeld, Genealogische Tabellen der Arabischen Stämme und Familien (Gottingen, 1852-1853)

لسليمان بن داود ، وما ظهرت به هـذه الملكة من فاخر الثياب وثمين الحلى ، وما أهدته إلى سليمان من الهدايا الثمينة .

تجارة اليمن

وقد جمع أهل سبأ تلك الثروة الكبيرة من احتكارهم التجارة ، وعلى الأخص فى المواد العطرية كالبخور الذى كان شائع الاستعمال فى الهياكل والمعابد بمصر والحبشة وغيرهما ؛ وكانت قوافل سبأ تحمل هذه الحاصلات وغيرها من حاصلات هذه البلاد إلى الأصقاع الشمالية ، كما كان لهم محطات تجارية تصل بلادهم بغيرها من البلاد .

ويؤيد هذا الرأى ما وجد من النقوش فى شمال الحجاز . فهذه النقوش تدلنا على ما كان هنالك من علاقات تجارية بين اليمن وغيرها من البلاد العربية . ولا شك أيضا فى أن اليمن قد بلغت درجة عظيمة من المدنية والحضارة انتقلت الى غيرها من أجزاء جزيرة العرب وعلى الأخص الجهات التى اتصلوا بأهلها عن طريق هذه الأسفار المنتظمة . بيد أنه لم يستمد من حضارة اليمن أحد من الأمم غير سكان بلاد العرب أنفسهم .

أسباب انحلال اليمن فى رأى العرب

هذا ، ويرجع انحلال هذه البلاد إلى أسباب متباينة ؛ أما مؤرخو العرب فيذهبون إلى أن السبب فى ذلك هو تصدع سد مأرب الذى ما كان لهم غنى عنـــه لرى أرضهم ريا منتظما ، والذى كان السبب الأساسى لرقى بلادهم وتقدمها . أما المستشرقون فيذهبون إلى أن تهدم هـذا السد كان فى حد ذاته نتيجة اهمـال من جانب أمة آخذة فى الانحطاط (١) . ونحن نأخذ بهذا الرأى ، وهو أن هذا الخراب الذى حل بأهل سبأ جاء تدريجيا قبل انهيار السد بزمن طويل ، لأنه لا يعقل أن تهدم مدنية عظيمة دفعة واحدة ؛ وكان من أثر هـذا الخراب والانحلال فى تلك الدولة أن هاجر عدد كبير من أهلها إلى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب .

فى رأى المستشرقين

(١) Historians' History of the World. vol. VIII, p. 5.

سد مأرب

ويظهر لنا أنه لما تطاولت الأزمان على هذا السد وأهمله الملوك تصدعت جوانبه ، ولم يعد يحتمل هجمات السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه ، فانكسر وفاضت المياه على ماحوله من القرى والمزارع فأتلفتها . وكان ذلك سنة ١٢٠ ق . م على ماقاله سديو [١]

هجرة أهل مأرب

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين فى هجرة أهل مأرب من بلادهم . فمنهم من يقول إن هجرتهم كانت قبل أن ينهدم السد ، ومنهم من يقول عكس هذا ، أى أن الهجرة إنما كانت بعد أن انكسر السد وأغرق الأرض والزرع . ويذهب أنصار الرأى الثانى إلى ماجاء فى القرآن الكريم[٢] فى سورة سبأ (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ : بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) . ومن هذا يتضح لنا أن سيل العرم انما أصابهم وبدل أرضهم وهم على حالة إقامتهم بها . وممن سار على هذا الرأى سديو .

عناصر الحضارة اليمنية

وليس لدينا مايدل على أن العرب أخذوا عن الحضارات القديمة - كالحضارة المصرية مثلا - اللهم إلا فى أواخر أيام الجاهلية ، فان هناك ما يثبت اتصالهم بحضارات غيرهم من الأمم ، وخاصة حضارة الفرس ودولة الروم الشرقية أو البيزنطية . وكانت حلقة الاتصال الأراضى الواقعة بين الفرات وسورية . فقد وجدت قبائل عربية استوطنت الأراضى القريبة من حدود الدولة الرومانية والفارسية وتمتعت بالاستقلال

---

(١) Sédillot : Histoire générale des Arabes, Tome I. p. 36.

(٢) سورة سبأ ٣٤ : ١٤

المحدود : أنشأها الفرس والرومان واستعانوا بها على الوصول إلى أغراضهم السياسية التى كانت ترمى الى الوقوف فى وجه القبائل العربية الأخرى التى كانت تغير على بلادهم بقصد النهب والغزو وتهديد الأمن فى القرى الزراعية والمراكز التجارية المجاورة لتلك القبائل كلما أصابهم الجدب ؛ واستعاض الرومان والفرس عن جندهم بجنود أقيال (١) العرب كالغساسنة لأنهم أدرى بمنازلة العرب .

وقد اتخذ الرومان سياسة خاصة إزاء هؤلاء الجيران الذين كانوا يهددون الأمن فى القرى الزراعية المجاورة لهم ؛ كما عبّدوا الطرق وأنشأوا مصلحة حدود أقاموا فيها الجند ، وعقدوا المعاهدات لحفظ الأمن ، كما تفعل انجلترا الآن فى الهند من ابرام المعاهدات مع أمراء الشمال الغربى كالأفغان وتسليح منافذ جبال الشمال الشرقى . وذلك طبعى لأن إبرام المعاهدات مع أقيال العرب لا يؤدى إلى الغاية المرجوة ، إذ ليست لهؤلاء الاقيال سلطة كبيرة على الشعب .

والذى يهمنا فى هذا الصدد هو أن المناذرة والغسانيين حاولوا أن يقلدوا حضارة الفرس والروم ؛ فأحاط ملك الحيرة نفسه بجميع مظاهر البلاط الفارسى ؛ وكذلك كان الحال مع ملك الغسانيين بالنسبة إلى الدولة الرومانية الشرقية . وقد توالت وفود العرب على كسرى وقيصر ، حتى إن بعضهم قد تنصر واعتنق الدين المسيحى .

أثر الفرس والروم فى العرب

وكان من أثر اتصال العرب بالفرس والبيزنطيين أمران : الأول نزول العرب فى المدن الفارسية والرومانية للتجارة ؛ وكان لذلك أثره فى تثقيف عقول العرب الذين شاهدوا الفرق الشاسع بين مدنهم ومدن بلاد فارس والرومان الأمر الذى نقف عليه من الشعر الجاهلى ، كما نقف من هذا الشعر أيضاً على أن العرب وصلوا إلى مدينة

(١) الاقيال هم الملوك التابعون لغيرهم

القسطنطينية نفسها . الثانى : أنهم نقلوا إلى العرب كثيرا من الألفاظ والقصص الفارسية والرومية كما تسرب إلى العرب عن طريقهم بعض أخبار الفرس والروم ومعتقداتهم .

إمارات أخرى

وكان فى جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة ، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة فى الجنوب الشرقى ؛ وقد ملكوا جهات مختلفة من هذه البلاد ، كما كان لهم السلطان والقوة فى بلادهم . ولكن أمر هذه المملكة لم يدم طويلا لأسباب منها :

١ — أن العرب لا يصبرون على قبول الحكم الملكى ؛ لأنهم أهل حِلّ وترحال يغيِّرون أميرهم بتغير موضع إقامتهم .

٢ — لكثرة الحروب التى قامت بين القبائل العربية بسبب النزاع على البقاع الخصبة .

٣ — ولتأجج نيران العصبية بين القبائل مما أدى إلى كثرة حروبهم ومنازعاتهم ، وميلهم إلى الأخذ بالثأر ولو لأسباب واهية قد لا يكون للمعتدى أثر كبير فى إثارتها .

والخلاصة أن سلطة الحكومة عند العرب لم تستطع أن تبدل من هذه العادات الراسخة فى القدم والتقاليد الموروثة ، لأن العرب قد فطروا عليها بحكم البيئة وطبيعة البلاد .

الحالة الاجتماعية :

نعنى بالحالة الاجتماعية علاقة العربى بزوجته وأولاده وبنى عمه ، وعلاقة القبائل المختلفة بعضها ببعض .

وإذا بحثنا تاريخ العرب القديم وجدنا فيه ثلاث مؤثرات عظيمة هى :

أولا : أنهم يتكلمون لغة واحدة هى العربية ، وإن اختلفت لهجاتها .

ثانيا : أنهم يدينون بدين واحد هو الدين الوثنى .

ثالثا : أنهم من جنس واحد هو الجنس السامى .

وتفسر لنا هذه العزلة التى فرضتها الطبيعة على بلاد العرب ، كيف أن الجنس السامى لايزال نقيا حافظا لصفاته .

هذا ، وتشمل بلاد العرب فريقين من السكان : بدو وحضر . فأما البدو فيعيشون فى الصحراء ، وهم — كما وصفهم فى عصر الأسرة التاسعة عشرة سِنْمه Simneh مؤرخ مصر — رعاة يحبون الحرب والسلب والنهب ؛ ولا يزالون على الرغم من مرور القرون والأجيال كما كانوا أيام الأسرة التاسعة عشرة والقرن السادس الميلادى لم يظهر عليهم تغيير جوهرى . أما الحضر فيسكنون المدن ؛ وقد أفرغوا جهودهم الى حرث الأرض ، وتجارة القوافل حتى جنوا من ذلك ثروة عظيمة .

المرأة فى الجاهلية

ومن يتتبع أشعار العرب فى الجاهلية يجزم أن المرأة العربية كانت تتمتع فى ذلك العصر بقسط كبير وافر من الحرية ، فكانت تستشار فى مهام الأمور ، بل وتشارك الرجل فى كثير من أعماله . وعلى العموم فقد كانت علاقتها بزوجها على درجة من الرقى أكثر مما يخيل الينا ؛ يدلك على ذلك ما كان من افتخار الرجل بنسبه لأمه كما يفخر بنسبه لأبيه ، وما كان أيضاً من إعطائهم المرأة قسطها مما تحب من النسيب ، إذا بدأوا قصائدهم التى يفخرون فيها بمحامد قومهم وعظيم فعالهم ؛ ناهيك بما كان للمرأة العربية من الأثر الصالح فى الاسلام .

الزواج

وكان للعرب نظام ثابت فى الزواج ؛ فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات فى أمر زواجهن . وينبغى ألا نخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عُرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هذه الطريقة . وهذا الأمر لم يكن يستحسنه جمهور العرب مع ماعرف عنه من غيرة

على الأهل ومحافظة على الشرف ، حتى إنه كان من النادر أن يرى الانسان بنتا بالغة قد أدركت سن الزواج أو أرملة صغيرة فى السن لم تتزوج ؛ لأنه كان من الضرورى للأسرة أن يكون لها أطفال عديدون كى تكون غنية بأفرادها قوية محترمة . على أن الأمر الذى يؤخذ على العرب فى الجاهلية هو تعدد الزوجات عندهم بلا قيد ولا شرط .

سبى النساء

ومن عاداتهم الاجتماعية المستهجنة أن الرجل كان إذا قابل آخر ليس من قبيلته ولا من قبيلة محالفة لقبيلته ومعه ظعينة (أى امرأة فى الهودج) تقاتلا ، فإن غلبه أخذ هذه الظعينة منه سبية واستحلها لنفسه . وكان بعضهم يستنكر هذه العادة لما يلحق أولاده من المذلة والعار . ولذلك كانوا يدققون فى اختيار الزوجة . ويتحققون أنها حرة عريقة فى النسب لا سبية .

الطلاق

وكانوا يطلقون ؛ والطلاق بيد الرجل ، إلا أنه كان هناك نساء يشترطن عند التزوج أن تكون الفرقة بأيديهن .

وأد البنات

ومن عاداتهم المستقبحة أيضا ما كان من وأدهم البنات أحياء لاعتقادهم أنه ليس بهم من حاجة لتربية نفر غير مفيد ؛ على أن هذا الأمر لم يكن شائعاً عند العرب ، بل كان فى بعض الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر ، وعلى الأخص فى بنى أسد وتميم . وقد نهى عن ذلك القرآن الكريم : (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) .

التعاون بين أفراد القبيلة

أما معاملة العرب لأبنائهم فكانت معاملة تنطوى على الحنان والمحبة . وأما معاملتهم للأخ وابن العم ، فكانوا ينصرونهم أخطأوا أم أصابوا ، عدلوا أم ظلموا ؛ بمعنى أن الرجل كان يصيبه العار إذا قعد عن نصرة أخيه أو ابن عمه . فكان لزاما عليه أن يقوم بنصره سواء

أكان مخطئا أو مصيبا ؛ وفى ذلك قالوا : انصر أخاك ظالما أو مظلوما (١) .

انعدامه بين القبائل والبطون

هذه هى حال العربى مع أهله وابنه وأخيه وابن عمه وأفراد قبيلته . فاذا تشعبت بطون القبيلة الواحدة تنافس أفراد كل بطن فى الشرف والثروة ، ووقفوا لأنفسهم بالمرصاد وعملوا على الاستيلاء على مواردها . وقد يبلغ العداء أشده وتراق الدماء بسبب هذه المنافسة . وقد اشتهر هذا العداء فى الجاهليـــة بين الأوس والخزرج ، وبين عَبْس وذُبيان ، وكذلك بين عبد شمس وهاشم ، وبين ربيعة ومضر ، وبين القحطانية والنزارية (٢) .

والخلاصة أن روح الوئام كانت سائدة بين أفراد القبيلة الواحدة بينما كانت مفقودة تماما بين القبائل المختلفة ؛ وقد انهك ذلك الأمر قواهم فى حروبهم المستمرة وذلك لسببين :

أولا : التنافس على مادة الحياة وهى المراعى وموارد الماء .

ثانياً : تنازع الشرف والرئاسة ؛ فاذا مات أكبر الأخوة نازع ابنه أعمامه . ولذلك نشبت الحروب بين القبائل المتقاربة فى الأنساب أو المتقاربة فى الأمكنة .

اثر الشعراء

ومما كان يزيد نار العداء تصدى الشعراء لتعداد مفاخر قبائلهم ، وتأليب القبائل الأخرى .

وإذا ذل أحد أفراد القبيلة لحق العار القبيلة بأسرها ؛ وقد يكفى النزاع بين شخصين من قبيلتين مختلفتين ليؤدى إلى قيام الحروب بين هاتين القبيلتين ، حتى ولو كان سبب هذا النزاع تافهاً .

---

(١) هذا القول من حكمة الجاهلية . وكانوا يعتبرون النصرة هى الاعانة على الغير . أما فى الاسلام فقد اعتبر من ضمن النصرة نصيحة الظالم لرده عن ظلمه . ولذا قال عليه الصلاة والسلام « أنصر أخاك ظالما أومظلوما » ، كما قال « الدين النصيحة » . قالوا « لمن يارسول الله » ؟ قال « لله ولرسوله والمؤمنين »

(٢) Noeldeke, Historians' History of the World, vol. VIII, p·p· 6-7

وعلى الجملة فقد كان العرب يتكلمون لغة واحدة ، وكان لهم نظام اجتماعى واحد ، كما كانت فيهم فضائل ونقائص ؛ فكانوا شعباً ساذجا لم تدخله مظاهر المدنية . فالعربى يمتاز بقلة الخبث وعدم الرياء والمكر . ولقد أثرت هجرة سكان بلاد اليمن فى أهالى الشمال والشرق ، وبلاد اليمن - كما لا يخفى - هى الجزء الذى قامت فيه مدنية العرب القديمة .

طبقتا الموالى والعبيد

هذا وقد كانت هناك طبقتان أخريان بين العرب هما الرقيق والموالى . وقد يصبح الحر رقيقا بالسبى فى الحروب أو بطرق أخرى ، كما أنه قد يصبح الحر مولى إذا اندمج فى قبيلة أخرى بطريق الولاء ، أو إذا كان عبـــدا فأعتقه سيده . فى هذه الحالة يصبح لمعتقه حق الولاء عليه .

وبهذه الوسيلة أصبح كثير من الأسر الفارسية بعد الاسلام موالى للعرب الذين ملكوا رقابهم فى الحرب ، كما اندفعت أسر أخرى فارسية إلى إبرام عقود الموالاة بينهم وبين الأسر العربية للاحتماء بهم أو للانتفـــاع بشرفهم وجاههم . ثم أطلق لفظ « موالى » على غير العرب من الفرس وغيرهم لأن كثرتهم كانت موالى للعرب عن أحد هذين الطريقين .

الحالة السياسية :

لم يكن للعرب نوع من الحكومات المعروفة الآن ، ولم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه ، أو « بوليس » يقر الأمن والنظام ، وجيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية . كذلك لم يكلفوا بدفع الضرائب لعدم وجود حكومة تقبض على زمام السلطة التنفيذية وتضرب على أيدى المعتدى وتوقع عليه العقاب المتناسب مع جرمه ؛ إنما كان للشخص المعتدَى عليه أن يثأر لنفسه بنفسه ، وعلى قبيلته أن تشد أزره . ولا يصبح

للمعتدى عليه حق فى المطالبة بالثأر إذا دفع المعتدى تعويضا كما كانت الحال مع الجرمانيين فى العصور الوسطى . أما إذا كان المعتدى أحد أقرباء المعتدى عليه ، أخذ الثأر منه وحده لا من قبيلته كلها . ومما يلفت النظر أن العربى لما دخل فى الاسلام لم يغفر لذوى قرباه كفرهم وعدم إيمانهم هذا . (١)

انواع الحكومات التى فى بلاد العرب

وكان الأحرار من العرب يحاربون تحت إمرة الأمير فى وقت الحرب ، أما فى وقت السلم فقد كانت الأسرة هى الشىء الوحيد المنظم .

وكان الحكام فى هذه البلاد قسمين :

الأول : الملوك المتوجون ، وهم تابعون لملوك آخرين ؛ ويسمون أقيالا ، ولم يكونوا مستقلين استقلالا تاما اللهم إلا بعض ملوك اليمن فى عصور ازدهارها .

الثانى : رؤساء العشائر ولهم ما للملوك من الحكم والامتياز ، وليسوا أصحاب تيجان . وقد يكونون على تمام الاستقلال ، وقد يكونون تابعين لملك متوج .

ومن الملوك المتوجين ملوك معين وسبأ من أولاد قحطان باليمن . وكانت حمير وكهلان من قحطان تتنازعان الرياسة ؛ وكان ينبغ منهم فى بعض الأحيان رئيس يوسع سلطانه إلى ما يجاوز مخلافه . وإنما يعظم نفوذه أو يصغر بحسب اتساع مخلافه وخصبه ، أو ضيقه

---

(١) من ذلك ما أشار به عمر بن الخطاب حين استشاره النبى صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة فيما يصنع بأسرى بدر ، إذ أشار عمر بضرب أعناقهم وأشار عبد الله بن رواحة بحرقهم فى واد كثير الحطب : حتى أبو بكر الذى أشار باخلاء سبيلهم وأخذ الفداء منهم ، فانه إنما قصد إلى انتفاع المسلمين واعزاز الدين بما يؤخذ من أموالهم فدية وبما تخسره قريش مما يفت فى عضدها ويثنيها عن قتال المسلمين والصد عن سبيل الله حتى نزل فى ذلك قوله تعالى (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض . تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة - سورة الانفال ٨ : ٦٧) . الطبرى ج ٢ ص ٢٩٤

وفقره . وكان مخلاف صنعاء أضخم هذه المخاليف وأخصبها ؛ فكان رؤساؤه يدعون بالملوك .

الممالك العربية فى الجاهلية :

مملكة معين

من هذه الممالك مملكة لم نسمع عنها فى الكتب العربية ، ولكن نقف على أخبارها من النقوش التى كشفت حديثاً فى جزيرة العرب ، وكذلك من بعض أخبار التوراة . وقد قامت هذه المملكة فى اليمن قبل مملكة سبأ ، وكانت تسمى باسم معين .

ويستدل من النقوش، ومما كتب فى التوراة ، ومما كتبه أيضا بعض مؤرخى اليونان أنها ظهرت فى الألف الثانى قبل الاسلام ، أى بين سنتى ١٢٠٠و٧٠٠ ق . م . وكانت على جانب عظيم من القوة والثروة ، إلا أننا لم نعرف عنها الكثير .

تجارة معين

وقد اشتهرت معين بالتجارة ولا سيما بالبخور والمر ، وكانت سوقهما نافقة فى مصر خاصة ، وذلك لقرب هذه البلاد منها . ونستدل من هذه النقوش أيضاً على أن نفوذ هذه المملكة قد امتد الى غزة الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وأن محطاتها التجارية والحربية انتشرت على طول الطريق . ومن ثمّ كانت مملكة معين أقوى وأغنى من مملكة سبأ . وإنما اشتهر أمر سبأ فى التاريخ لأنها ظهرت فى وقت كان فيه الجزء الجنوبى الغربى لبلاد العرب مزعزعاً وأقل أمناً ولا سيما فى عالم التجارة . أما معين فقد ظهرت فى وقت كانت فيه قبائل الجزيرة العربية على جانب عظيم من القوة .

مملكة سبأ

وقد انتقل سلطان معين الى سبأ التى بدأت قوتها فى الظهور فى أواخر أيام مملكة معين . ولم تؤثر السفن التى بناها البطالسة للسير فى البحر الأحمر تأثيراً يذكر فى تجارة أهل سبأ ، فقد ظلوا يمدون جميع الهياكل المصرية بالبخور . واشتهرت مملكة سبأ بالثروة والقوة

بين ممالك العالم فى ذلك الحين . ولا غرو فقد وقفوا فى وجه إيليوس جالوس Aelius Gallus قائد أوغسطس قيصر الرومانى وأرغموه على الارتداد عن أسوار مأرب والعودة الى بلاده .

ولكن سرعان ما تطرق الضعف الى مملكة سبأ . وقد ذهب المؤرخون فى أسباب سقوطها مذاهب شتى . بيد أن المؤرخين من العرب قد اتفقوا على أن زوال هذه المملكة كان راجعاً أولا وقبل كل شىء الى انكسار سد مأرب (١)

سبأ

وقد ساعد سبأ وحمير ذلك الخصب الذى امتاز به هذا الجزء الذى كانوا يحتلونه من بلاد العرب على الاستقرار ، كما أنه كان لتجارتهم المطردة الواسعة النطاق مع مصر وسورية وبابل أثر كبير فى تدفق موارد الثروة على هذه القبائل . ولا شك أنه كان لهذه الأقاصيص الشائعة بين الأمم الغربية عما بلغته مدن سبأ وحمير من الأبهة والعظمة ، وهذه الستون هيكلا ، وأوانى الذهب والفضة ، وأعمدة الرخام ، وعربات مأرب أساس من الحقيقة . وإن أطلال هذه القناطر المقامة على الأعمدة لتوصيل ماء الشرب الى المدن ، وهذه السدود والأحواض لتثير اعجاب الرحالة والسائحين من الأوربيين من حيث براعة الرسم ومتانة البناء ؛ وهى لا تكشف لنا عن المهارة التى بلغتها سبأ وحمير فى فن العمارة فحسب ، بل تدلنا أيضا على معرفتهم التامة بنظام الرى . ولا غرو فقد حذقوا فن حفر الجداول وإقامة الأحواض من هذه المجارى المتدفقة من الجبال للانتفاع بها فى رى أرضهم .

وإن أطلال الأبنية الفخمة قرب مأرب ونجران والغُراب ونقب الحجرة لتؤيد الروايات العربية والأوربية التى تحدثنا عما بلغته هذه

(١) Hell, Cultur der Araber, pp. 3-4; Encyclopaedia of Islam, ma'rib, S. V.

البلاد من العظمة والمجد فى الأزمان الغابرة . وان النقوش التى وجدت على هذه الأطلال وغيرها فى جنوب غرب بلاد اليمن (وترجع الى نحو سنة ١٢٠ ق . م) لتعطينا فكرة عن حياة القبائل التى تعيش فى جنوب بلاد العرب وما بلغته من الثقافة ؛ كما أن الاشكال الأولى لحروف الهجاء قد اشتقت عن الأشكال البابلية ، ثم سارت معها جنبا لجنب من حيث التطور والرقى . (١)

بلقيس

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ ، وقد ذكرت فى القرآن والتوراة بلقب ملكة سبأ . ونستدل من زيارتها لسليمان عليه السلام على أن ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة والقوة التى ترهب الملوك بدليل تخوفها حين تسلمت رسالة سليمان وقولها لقومها : (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) وبدليل قول سليمان حين أرسل إلى بلقيس مهدداً : (فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)(٢)

وإذا علمنا أن ملك سليمان لم يتجاوز فلسطين وما حوالبها أمكننا أن نتبين مقدار قوة بلاد اليمن إذ ذاك .

ومن الملوك المتوجين ملوك سبأ من أولاد قحطان باليمن ، وقد تشعبت قبائل اليمن من قحطان فى أنحاء بلاد اليمن . وكان لهم رؤساء من قومهم ؛ وكان ينبغ منهم فى بعض الأحيان رئيس يوسع سلطانه إلى ما يجاوز مخلافه .

وكانت حمير وكهلان من قحطان يتنازعان الرياسة ويتنافسان فى الملك ؛ وقد قسموا بلادهم إلى مخاليف ؛ لكل مخلاف رئيس يكبر

(١) Noeldeke, Historians' History of the Worle, vol. VIII. p.p. 104—I05

(٢) سورة النمل ٢٧ : ٣٤ ، ٣٧

ويصغر بحسب زيادة قوة مخلافه وضعفها ، وكان مخلاف صنعاء أضخم هذه المخاليف وأخصبها : فكان رؤساؤه يدعون بالملوك .

المركز التجارى

وكان لسبأ أسطول يجرى بالبحر الأحمر تشحن سفنه بالبخور لإمداد الهياكل المصرية بها ؛ وقد ورثت سبأ من معين هذا المركز التجارى ، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل السلع التجارية بينها وبين البلاد الأخرى (١) .

ولم تبسط سبأ سلطانها على جميع بلاد اليمن لأن حكمها لم يكن عاماً على جميع أرجاء البلاد ؛ فقد كان هناك رؤساء أو ملوك مستقلون كل منهم يحكم جزءاً من الأرض يسمى مخلافاً .

يوسف ذو نواس

ومن ملوك حمير الذين منهم سبأ يوسف ذو نواس . وكان يحكم بلاد نجران التى كانت تدين بالمسيحية ، غير أنه اعتنق اليهودية فى أواخر أيامه واضطهد المسيحيين وأحرقهم بالنار سنة ٥٣٤ م (٢) ، فطلب جستنيان إمبراطور الدولة الشرقية من نجاشى الحبشة غزو هذه البلاد والعمل على إنقاذ المسيحيين ؛ وكان جستنيان يرمى بذلك إلى غرضين :

١ — سياسى : وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقاً لتجارته إلى الشرق إذا وقعت فى يد محالفيه الأحباش ليقضى على تجارة منافسيه من الفرس .

٢ — دينى : وهو جعل السيادة للدين المسيحى هناك .

استيلاء الحبشة على بلاد اليمن

وقد تغلب أرياط الحبشى قائد النجاشى على اليمن وحكمها من قبل ؛ النجاشى إلا أن المنافسة قامت بينه وبين أبرهة أحد قواد الحبشة ، وتحاربا فقتل أرياط ؛ فخلفه أبرهة على اليمن برضاء النجاشى . وقد جرح ابرهة فى هذه المعركة ولذلك سمى الأشرم .

وكان من أول أعمال أبرهة الأشرم أن فكر فى بناء هيكل فى صنعاء

---

(١) Hell, Cultur der Araber, p.p. 3 - 4

(٢) وهم الذين ذكرهم القرآن فى سورة البروج وسماهم أصحاب الأخدود .

عاصمة بلاد اليمن لصرف الحجاج من الكعبة اليه، كما غزا مكة لهذا الغرض ففشل على ما سيأتى عند الكلام عن قُرَيش .

سوء سيرة الاحباش فى بلاد اليمن

وقد توفى أبرهة بعد أن عاد الى اليمن بقليل . فخلفه ولداه « يكسوم » ثم « مسروق » . وقد أذلا أهل اليمن وأساءا معاملتهم ؛ فلجأ سيف بن ذى يزن الحميرى إلى قيصر الروم ، وطلب منه أن يخرج الأحباش من بلاد اليمن وأن يكون له الملك فيها فلم يجبه ؛ فاستنجد بالمنذر ملك الحيرة (التابعة إذ ذاك للفرس) وطلب منه تقديمه إلى كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) . فلما قابله سيف بن ذى يزن فى بلاطه ووجد ذلك التاج العظيم معلقاً على رأسه ، لم تبهره هذه العظمة ، بل تقدم فى شجاعة إلى كسرى وطلب منه مساعدته لاسترداد بلاده من

زهد الفرس فى بلاد اليمن

الأحباش ؛ فأهمله كسرى وقال له : بعدت أرضـــك من أرضنا وهى أرض قليلة الخير ، إنما بها الشاء والبعير وذلك مما لا حاجة لنا به » . ثم صرفه بعد أن أعطاه ١٠٠٠٠ درهم فارسى وخلع عليه . فخرج سيف من عنده غاضباً ورمى الدراهم فتخاطفها الخدم ؛ فلما علم بذلك كسرى غضب وأمر باحضاره وأراد أن يعاقبه لجرأته وعبثه بهيبته . فلما دخل عليه قال كسرى : [1] «عمدتَ إلى حِباء الملك الذى حباك به تنثره للناس » . فأجابه ابن ذى يزن بقوله : « ما أصنع بالذى أعطانى الملك ، ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة ؟ »

استيلاء الفرس على اليمن .

فطمع كسرى فى الاستيلاء على هذه البلاد وعقد مجلساً من ذوى الرأى فى بلاده واستشارهم فى غزوها ؛ فأشار عليه بعضهم برأى يكفل له الاقتصاد فى الأرواح والنفقات التى تحتاجها غزوة كهذه ؛ ولذلك اختاروا الجنود لها من بين المسجونين ؛ حتى إذا انتصروا لم يكلفهم ذلك شيئاً ؛ وإن قتلوا فى تلك الحرب كان فى ذلك خير وسيلة للتخلص منهم ؛ فأخرج ٨٠٠ مسجونا وكان قائدهم اسمه « وَهرز » . ويصفه المؤرخون ، ومنهم المستشرق نلدكه[2] ، بأنه بلغ من الكبر عتيا لدرجة

(١ ، ٢) طبرى ج ٢ ص ١١٦ (٢) فى كتابه الساسانيين ص ٢٢٦

أن جفنيه انطبقا أحدهما على الآخر ، وكان يرى بصعوبة . وسار الجيش وعدده ٨٠٠ مقاتل فى ثمان سفن على كل سفينة مائة مقاتل ، غرق منها اثنتان ووصل ٦٠٠ جندى فقط ؛ فلما علم بذلك أهل اليمن ، وكانوا يقاسون ألوان العذاب وصنوف الخسف من الأحباش ، خرج كثير منهم وانضم إلى الجيش الفارسى .

ترحيب أهل اليمن بجيش الخلاص

وقد أولم وهرز وليمة كبيرة فى صنعاء ، وفى أثنائها أحرقت المراكب الستة ؛ وقال وهرز لجنوده أمامكم أن تختاروا إحدى اثنتين : إما القتال بشجاعة حتى الظفر ، وإما الاستكانة والتخاذل حتى الفشل ، وحين ذاك سيلحقكم العار والخزى العظيم .

ولما نشب القتال بين الفرس والأحباش قُتل نَوْزاذ بن وهرز ، فحنق وهرز على الأحباش وقال : (١) أرونى ملكهم ؛ فقالوا ترى رجلا على الفيل عاقداً تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء ؛ ثم أمر بحاجبيه فعُصبا له ، ووضع فى قوسه نشابة فغمز فيهــا حتى إذا ملأها أرسلها فصك بها الياقوتة التى بين عينيه ، فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه فمات . وهُزم الأحباش وكتب وهرز إلى كسرى : « إنى قد ضبطت لك اليمن وأخرجت من كانَ بها من الحبشة . » ؛ فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها . وفرض كسرى على سيف بن ذى يزن جزية وخراجاً يؤديه إليه كل عام ، وكتب إلى وهرز أن ينصرف إليه ؛ فانصرف إليه . وقد قتل سيف بن ذى يزن كثيراً من الأحباش فى بلاد اليمن ، وانتهى به الأمر بأن قتله رجل حبشى . فلما بلغ ذلك كسرى بعث وهرز إلى بلاد اليمن فى أربعة آلاف من الفرس وأمره أن لا يترك أسودَ ولا ولد عربية من أسود إلا قتله

(١) طبرى ج ٢ ص ١١٧

صغيراً أو كبيراً . فلما دخل وهرز بلاد اليمن لم يترك بها حبشياً إلا قتله ، ثم كتب إلى كسرى بذلك فأمّره عليها حتى هلك فخلفه [1] ابنه المَرْزبان . فلما مات خلفه خرٌّ خُسْرَه بن البينجان بن المرزبان ابن وهرز ؛ وقد غضب عليه كسرى فخلف ليأتينه به أهل اليمن يحملونه على أعناقهم . فلما قدم على كسرى تلقاه رجل من عظماء فارس فألقى عليه سيفا لأبى كسرى ؛ فأجاره كسرى بذلك ونجاه من القتل ونزعه ؛ ولى باذان على اليمن ، وهو آخر ولاة اليمن من قبل كسرى فارس. وقد عاش إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأسلم هو وقومه على إثر مادار بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم من المخاطبات بشأن إسلامه كما سيأتى بعد .

امارتا الحيرة وغسان :

تمهيد

هناك مملكتان قامتا على حدود بادية الشام هما إمارتا الحيرة وغسان ؛ وكانت علاقة الحيرة ببلاد الفرس كعلاقة غسان بدولة الروم ؛ فقد اتخذ الفرس إمارة الحيرة عونا لهم على حروب الروم وحائلا يحول بين العراق وغارات الأعراب على الدولة الفارسية ، كما اتخذ الروم أمراء غسان أعوانا لهم على الفرس وذريعة لحكم قبائل العرب القريبة منهم . وكان للغسانيين مواقف معدودة فى الجاهلية انتصروا فيها للروم على الفرس ، وصدوا عنهم ملوك الحيرة . وقد تأثروا بحضارة الروم كما تأثر المناذرة بحضارة الفرس .

الحيرة

وتقع إمارة الحيرة على بعد ثلاثة أميال من موقع الكوفة على بحيرة النجف موطن الشيعة حتى اليوم ؛ وكانت فى أرض خصبة تمر بها فروع من نهر الفرات .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٢١

أما أهلها فكانوا منذ القرن الثالث الميلادى ثلاثة أجناس:

ا — تنوخ وينزلون غربى الفرات

ب — العِبَاد وهم الذين سكنوا المدينة

حـ — الأحلاف وهم الذين لحقوا بها من غير تنوخ والعباد .

تكوين امارة الحيرة

قد انحطت الدولة الفارسية على أثر هزيمة الاسكندر المقدونى لدارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق . م وقد جزأ الاسكندر بلاد الفرس إلى دويلات صغيرة يحكمها ملوك يعرفون بملوك الطوائف . وقد اتبع الاسكندر هذه السياسة حتى لا يقووا على الاغارة على بلاد اليونان . واستمر ملوك الطوائف يتولون حكم بلاد الفرس إلى سنة ٢٢٦ م ، حين نبغ أردشير بن بابك مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة . واستمر أردشير فى الحكم إلى سنة ٢٤١ م . وقد وحد كلمة الفرس من جديد ، كما أعاد إلى سلطانه الأراضى العربية المتاخمة لبلاده ومنها الحيرة والأنبار ، ومنحهما الاستقلال ليمنعهم من الإغارة على تخوم بلاده ، وليستعين بهم على الرومان وعلى العرب الذين يغيرون على بلاد الفرس .

أثرهم فى الحضارة العربية

ويرجع تاريخ إمارة الحيرة إلى القرن الثالث الميلادى ، وقد استمر إلى ظهور الاسلام . وكان لأهلها أثر كبير فى الحضارة العربية : فقد كانوا يجوبون أرجاء الجزيرة العربية بالتجارة ، وكانوا يشتغلون بتعليم القراءة والكتابة ، وبذلك أصبحوا واسطة فى نشر العلوم والمعارف فى الجزيرة ، كما ساعدوا على نشر النصرانية فى بلاد العرب ، وذلك على أثر اعتناق بعض ملوكهم الدين المسيحى بعد تركهم الوثنية .

وصفوة القول أن أهل الحيرة كانوا واسطة بين الفرس والعرب ، وعلى أيديهم انتقلت الحضارة الفارسية الى بلاد العرب . وقد تعاقب

ملوك الحيرة

على الحيرة خمسة وعشرون ملكا نكتفى الآن بذكر أشهرهم :

عمرو بن عدى

تولى عمرو بن عدى الملك بعد جذيمة الأبرص صاحب القصة المعروفة مع الزباء (١) ؛ وكان عمرو أول من اتخذ مدينة الحيرة حاضرة لملكه .

النعمان بن امرىء القيس

تولى : النعمان بن امرىء القيس الحكم فى أوائل القرن الخامس الميلادى . وهو بانى الخورنق والسدير ؛ وكان شديد الوطأة على العرب . ويقال إنه تنصر وتنسك فى آخر عهده . ويذكر لنا الطبرى (٢) بناءه الخورنق فيقول إن يزدجرد الأثيم بن بهرام بن سابور كسرى فارس لم يعش له ولد ، فسأل عن منزل برىء مرىء صحيح من الأدواء والأسقام ، فدل على ظهر (ظاهر) الحيرة . فدفع ابنه بهرام جور الى النعمان بن امرىء القيس ، وأمره ببناء الخورنق مسكنا له ، وأنزله اياه وأمره باخراجه الى بوادي العرب . وكان الذى بنى الخورنق رجلا

سنمار

يقال له سنمار ؛ فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه واتقان عمله ، فقال لو علمت أنكم توفوننى أجرى وتصنعون بى ما أنا أهله ، بنيته بناء يدور مع الشمس حيثما دارت ، فقال : وانك لتقدر على أن تبنى ما هو أفضل منه ثم لم تبنه ، فأمر به فطرح من رأس الخورنق . وقد سار ماصنعه النعمان بسمنار سير الأمثال حتى قيل « جزاه جزاء سنمار » . وقال الشاعر فى ذلك :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

(١) راجع هذه القصة فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ٢٩٠ - ٢٩١)

(٢) ج ٢ ص ٧٢

قصر الحضر

وإذا امتاز الخورنق بهذه العظمة والوجاهة اللتين يطربهما الكثير من شعراء العرب ، فقد كان هناك قصر يقال له الحَضْر ؛ بناه الضَّيزن بن معاوية بن عمران بن الحاف بن قضاعة بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وكان صاحبه قد ملك تلك الناحية وبلغ ملكه الشام فأغار على فارس فى غيبة سابور وأسر أخته . فلما عاد سابور غزا الضَّيزن فاحتمى منه فى قصره الحضر . فاقام سابور أربعة أعوام لا يستطيع هدمه ولا الوصول إلى الضيزن حتى خرجت النضيرة بنت الضيزن لأمر لها . فلما رأت سابور أعجب كل منهما بجمال الآخر واتفقت معه على أن تعرفه ما يهدم به سور هذا القصر ويقتل أباها ثم يتزوجها ويحتملها ؛ ولكنه قتلها قبل عودته بعد أن فتح الحصن . وقد وصفه عَدى بن زيد فى قصيدته التى وصف فيها الخورنق فقال :

وأخو الحَضْر إذ بناه وإذ دجـ ... لةُ تُجبى إليه والخابورُ

شاده مرمرا وجلَّله كلْـ ... ـساً فللطير فى ذُراه وُكورُ [1]

وزاد الطبرى على هذا أن الأعشى ذكر فى شعره أن سابور إنما أقام على الحصن حولين فقط قال :

ألم تر للحَضْر إذ أهله بنُعْمى ... وهل خالدٌ من نَعَمْ

أقام به شاهبور الجنو ... د حولين يضربُ فيه القُدُم

فما زاده ربه قوةً ... ومثل مجاوره لم يقم

نسك النعمان

قال حمزة الأصفهانى [2] (+ ٣٠٦ هـ) : فلما أتى على الملكِ النعمان ثلاثون سنة ، علا مجلسه على الخورنق وأشرف منه إلى النجف وما يليه

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٦٢ ؛ الاغانى (طبعة دار الكتب الملكية) ج ٢ ص ١٤١

(٢) تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء (برلين سنة ١٣٤١ هـ) ص ٦٨ ، الطبرى ج ٢ ص ٧٣

من النخل والبساتين والجنان والأنهار مما يلي المغرب ، وعلى الفرات مما يلي المشرق ، فأعجبه ما رأى في البر من الخضرة والنور والأنهار الجارية ولُقَاط(١) الكمْأَة(٢) ورعى الإبل وصيد الظباء والأرانب ، وفي الفرات من الملاحين والغواصين وصيادي السمك ، وفي الحيرة من الأموال والخيول ومن يموج فيها من رعيته ، ففكر وقال : أيُّ دَرَكٍ في هذا الذي قد ملكته اليوم ويملكه غدا غيري ؟ فبعث إلى حجابه ونحاهم عن بابه ، فلما جَنَّ عليه الليل التحف بكساء وساح في الأرض فلم يره أحد ، وفيه يقول عدي بن زيد يخاطب النعمان بن المنذر

وتدبَّرْ ربَّ الخَوَرْنَقِ إذْ أشْرَفَ يوماً وللهُدَى تفكير

سَرَّه حالُه وكثرةُ ما يَمْلِكُ والبحرُ مُعْرِضاً والسَّدِير

فارعوى قلبُه فقال وما غِبْطة حيٍّ إلى الممات يصيرُ

ثم بعدَ الفلاح والملك والإمة (٣) وارَتْهُمُ هناك القبورُ

ثم أضحَوْا كأنهم ورقٌ جفَّ فألوَتْ به الصَّبا والدَّبور(٤)

المنذر بن ماء السماء

تولى المنذر الحكم حول سنة ٥٢٠ م . وكان يعاصره كسرى أنوشروان ملك فارس وجستنيان امبراطور الروم والحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني عامل الدولة الرومانية على بلاد الشام الذي اشتبك مع المنذر في نزاع على الأرض المسماة Strata (٥). فقد كان كل من الأميرين

---

(١) لقط السنبل ولقاطه ما يلتقطه الناس

(٢) الكمأة نبات ترعاه الابل

(٣) الامة : النعمة

(٤) الصبا ريح تهب من مطلع الشمس اذا استوى الليل بالنهار ، والدبور هي ريح تقابل الصبا .
انظر الطبري ج ٢ ص ٧٢ - ٧٤ والاغاني (طبعة دار الكتب) ص ٢ - ١٤٤

(٥) هي البادية الواقعة جنوبي تدمر أي الارض الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق الى ما بعد تدمر حتى مدينة سرجيوس Sergiopolis (نلدكه أمراء غسان ص ١٨)

يدّعى السلطة على القبائل العربية النازلة بهـــا . ولم يكد ينتهى مابينهما من نزاع حتى نشبت الحرب بينهما من جديد حول سنة ٥٤١ م ، وفيها أسر المنذر ابناً للحارث ، وانتهت الحرب (سنة ٥٥٤ م) بهزيمة المنذر وقتله فى موقعة مَرْج حَليمة .

غير أن الحرب مالبثت أن نشبت من جديد بين عرب الحيرة والغساسنة وانتهت بموقعة عين أُباغ [1] (٥٧٠ م) التى قتل فيها ملك الحيرة أيضا . [2]

النعمان بن المنذر

تولى النعمان بن المنذر الحكم سنة ٥٨٠ م ، ثم قتله كسرى ابرويز سنة ٦٠٢ م . وكان يخاطب بـ « أبيتَ اللعن » . وقـــد مدحه النابغة الذبيانى فى عدة قصائد ؛ ويروى لنا المسعودى « أن النابغة استأذن على النعمان يوما ، فقال له الحاجب إن الملك على شرابه . قال فهو وقت الملق تقبله الأفئدة وهو جذل للرحيق ، فان تلج تلق المجد عن غرر مواهبه ، فأنت قسيم ما أفدت . قال له الحاجب : ما تفى عنايتى بدون شكرك ، فكيف أرغب فيما وصفت ودون ماطلبت رهبة التعدى ؟ قال النابغة : ومن عنده ؟ قال الحاجب : خالد بن جعفر الكلابى نديمه . فقال النابغة : هل لك الى أن تؤدى الى خالد عنى ماأقول لك ؟ قال وماهو ؟ قال : تقول إن من يدرك وفاء الدرك بك وتأديتى من الشكر ماقد علمت ؛ فلما صار خالد الى بعض ماتبعثه موارد الشراب عليه ، نهض فاعترضه الحاجب فقال يَهْنِكَ التئام حادث النعيم . قال وماذاك؟ فأخبره الخبر . وكان خالد رقيقا يأتى الأشياء بلطف وحسن بصيرة ، فدخل مبتسما وهو يقول :

---

(١) هو واد وراء الانبار على طريق الفرات الى الشام . انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت

(٢) نلدكه : امراء غسان ص ٢٤ و ٢٥

ألا لمثلك أو مَنْ أنت سابقه   سَبقُ الجواد إذا استولى على الأمد

واللاتِ لكأنى أنظر إلى ذى رعين وقد مُدت لهم قضبان المجد إلى معالم إحسانكم ومناقب أنسابكم فى حلبة أنت أبيت اللعنَ غُرتها ، فجئتَ سابقا منهملا وجاءوا لم يلمّ لهم سعى . قال النعمان : لأنت فى وصفك أبلغ إحسانا من النابغة فى نظام قافيته .

ثم أمر النعمان بادخال النابغة ؛ فدخل ثم انتصب بين يديه وحياه بتحية الملك ، وقال أبيت اللعن ! أتفاخَرُ وأنت سائد العرب وغرة الحسب ؟ ثم قال :

أخلاق مجدك جلت مالها خطر   فى الجود والناس بين العلم والخبر

متوجٌ بالمعالى فوق مَفْرقه   وفى الوغا ضيغمٌ فى صورة القمر

فتهلل وجه النعمان بالسرور ، ثم أمر فحشى فوه جوهرا (١).

المناذرة فى أواخر أيامهم

حل الضعف والانقسام بأمراء الحيرة على أثر ما نزل بهم من الحوادث الجسام وما توالى على دولة آل ساسان من ضعف . وكانت أولى تلك الحوادث هزيمة المنذر بن ماء السماء عاهل البيت اللخمى وقتله على يد الحارث بن أبى شمر الغسّانى فى موقعة مرج حليمة ، ثم هزيمة ابنه وقتله على يد المنذر بن الحارث الغسانى سنة ٥٧٠ م ؛ ثم تبع ذلك اضطراب حبل هذا البيت وتنازع أولاد المنذر العرش . وإنه وإن كان النعمان بن المنذر قد فاز به ، فإنه لم ينج من الدس والكيد له فى البلاط الفارسى حتى غضب كسرى عليه ؛ فاستدعاه إلى بلاده فذهب إليه بعد أن عرض نفسه على القبائل ، فلم تجرؤ إحداهن على مناصرته على كسرى وظل هناك حتى مات . ثم أقام كسرى إياس بن قبيصة خلفا للنعمان على بلاد الحيرة ، ولم يكن من أهل بيته ، وأشرك معه رجلا فارسيا فى الحكم اسمه « النخيرجان » .

انفصال البيت اللخمى عن الملك

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٤

ضعف الحكومة

وكان من أثر ذلك أن ضعفت الأداة الحكومية فى الحيرة وقامت حرب « ذى قار » بين إياس بن قبيصة حاكم الحيرة تؤيده حكومة فارس وبين العرب ، فكان النصر للعرب وهزم الفرس وأمير الحيرة . ثم انفرد بالملك فى الحيرة آزاذ به بن يابيان الهمذانى سبعة عشر عاما ؛ ولم يلبث المنذر بن النعمان بن المنذر الذى ملك الحيرة من بعده إلا ثمانية شهور حتى قـــدم خالد بن الوليد الحيرة(١) . بقى علينا الآن أن نأتى بطرف يسير من تلك المناظرة التاريخية ـ التى جرت بين عمرو بن كلثوم سيد تغلب وبين الحارث بن حلزة لسان بكر بن وائل وشاعرها (٢) ـ التى تكشف عن مظاهر هذا الانحلال الذى لحق الحكومة فى بلاد الحيرة . وكان من أثره أن صار الناس فوضى ينهب بعضهم بعضا ، وكذلك أصبح الناس لا يخشون الملك .

ا — فيغلظون له فى القول كما قالت تغلب لعمرو بن هند حين طلب إليهم العَوْنَ فى الثأر لأبيه :

هل نحن لابن هند رعاء ؟

ب — ويجرءون على ماله الخاص فيسلبونه كما فعلت بنو الشقيقة ورئيسهم قيس فى إبل عمرو بن هند . ويشير إلى ذلك قول الحارث :

آية شارق الشقيقة إذ جاءوا جميعا لكل حى لواءُ
حَوْلَ قيسٍ مُسْتَلْئِمين بكبشٍ قَرَظِىٍّ كأنه عَبْــلاءُ
وَصَتِيتٍ من العواتك ما تَنْـ ـهَاهُ إلا مُبْيَضَّةٌ رَعْلاءُ

ويذكر الحارث أيضا أنه كان لبكر اليد الطولى عند ملك الحيرة فى صدهم فى هذه الأبيات (٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥)

فجبهناهم بضربٍ كما يَخْـ ـرُجُ من ضَرْبة المزاد الماء

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٥٦ ، ١٥٧

(٢) شرح القصائد العشر (للتبريزى) (القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ) ص ٢٠٨ - ٢٧١

وحملناهم على حزن ثهلا ن شلالا ودمى الأنساء
وفعلنا بهم كما علم الله وما إن للخائنين دماء

هذا مايكشف عنه كلام البكريين وهم الموالون لحكومة الحيرة.

وأما معلقة ابن كلثوم ، وهو شاعر التغلبيين ، فانها تصوره نداً قويا وخصماً عنيداً لملك الحيرة .

(١) انظر اليه وهو يخاطب الملك عمرو بن هند بهذه الأبيات (٢٠ و ٢١ و ٢٢):

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

(٢) ويقول:

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وأوعدنا . رويداً متى كنا لأمكم مقتوينا
فان قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

(٣) ويقول:

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فينا
ألا لايجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ظلت الحيرة على هذا الضعف إلى بعد ظهور الاسلام حتى فتحها خالد بن الوليد فى عهد أبى بكر ، فانتهى ملك المناذرة بالحيرة ودخلت فى حوزة الاسلام

وقد أخذ عمران الحيرة فى النقصان إلى صدر أيام الخليفة المعتضد

العباسى . وكان بعض الخلفاء العباسيين كالسفاح والمنصور والرشيد ينزلونها لطيب هوائها وصفاء جوها . (١)

مملكة غسان :

سارت قبائل من قضاعة إلى الشام فى الوقت الذى هاجر فيه عرب اليمن إلى العراق ، وسكنت فى شمال غرب الجزيرة العربية فيما يسمى الآن إقليم شرقى الأردُن لخصوبة أرضها ، وكان يسكنها الضجاعمة . وكانت الشام تحت سلطان الدولة الرومانية ؛ فاستعان بهم الرومان — كما قدمنا — على صد هجمات العرب من جهة ، والقيام ضد الفرس من جهة أخرى . وأقام الرومان عليهم ملكا منهم . ولما هاجرت قبيلة أزد من بلاد اليمن على أثر انكسار سد مأرب ذهب بطن منها الى الشمال عُرف بازد غسان . وكان شأن الضجاعمة قد ضعف ، فتمكنت أزد غسّان من اقامة دولة لهم عرفت بدولة الغساسنة ، فولى الرومان منهم جفنة ابن عمرو ملكا على عرب الشام ؛ ولم يزل الغسانيون يحكمون هذه البلاد من قبل الروم حتى جاء الاسلام وحدثت واقعة اليرموك سنة ١٣ هـ .

وقد أجمعت الروايات التاريخية والشعراء المعاصرون على أن جفنة هو جد أسرة الغساسنة ، فقد دعا النابغة الذبيانى أحد أمراء هذا البيت القدماء « بالحارث الجفنى » . ويستنتج من قصيدة متأخرة لحسان بن ثابت أن جفنة كان شيخا من أهل العصور القديمة يفتخر به سكان يثرب (٢)

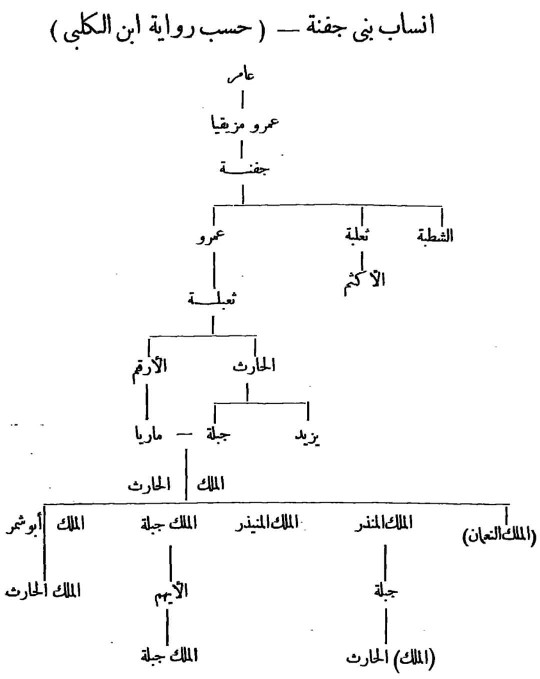
وكان مُلك الغساسنة حول دمشق وتدمر ، وكانوا يتجولون فى الجهات الجنوبية لدمشق ، وخاصة لبنان وفلسطين والبلقاء وحوران . وقد قابل النبى صلى الله عليه وسلم بعض الأعراب من غسان فى غزوة تبوك وأسلم بعضهم على يديه .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٢٩٧

(٢) نلدكه : أمراء غسان ص ٣

انساب بنى جفنة — (حسب رواية ابن الكلبى)



الحارث بن جبلة

كان الحارث بن جبلة أول أمراء بنى جفنة وأعظمهم شأناً . وقد تولى ملك الغساسنة فى أيام الامبراطور جستنيان من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٦٩ م ، وينتهى نسبه إلى جفنة بن عمرو . وقد رقى الأمبراطورُ جستنيان الحارث بن جبلة إلى رتبة ملك ، وبسط سلطته على كل القبائل

العربية فى بلاد الشام . وكان يريد بذلك أن يقيم خصما قويا فى وجه المنذر ملك الحيرة . ومن المرجح أنه لم يكن للروم قبل هذا الأمبراطور عمال كبار من العرب فى سورية وأنه لم تكن لأحد من الضجاعمة أو لأمراء كندة - الذين خضعوا مـــدة من الزمن للدولة الرومانية الشرقية - أو لغيرهم من أمراء العرب سلطة تساوى السلطة التى وصل إليها بنو جفنة فيما بعد (١) .

ويستفاد من أخبار العرب أن بنى جفنة استولوا على سورية بعد أن انتصروا على الضجاعمة من قبائل سليح . وقد ذكر حمزة الأصفهانى وابن قتيبة أن أول أمير جاء بالغسانيين إلى سورية هو ثعلبة بن عمرو ؛ وهذا ما تؤيده الروايات القديمة . وقد وقعت بينه وبين قضاعة حرب انتهت بإرغامه على دفع الجزية لرئيس قضاعة . لكن ما لبثت غسان أن انتصرت على قضاعة ، وأصبح الغساسنة منذ ذلك الوقت أصحاب السيادة . وقد وجد الروم منهم حليفا قويا يقف أمام الفرس وأمام الأعراب المغيرين ؛ وقد اختلف المؤرخون فى الوقت الذى تم فيه الحلف بين غسان والروم . وتعهد الروم بأن يمدوا الغساسنة بعدد من جند الروم إذا حاربوا قوما من الأعراب ، ويقدر هذا العدد بـ ٣٠ ألف أو ٤٠ ألف ، وتعهدت غسان بإمداد الروم بعشرين ألف مقاتل إذا هاجم الفرسُ الروم .

الحرب بين الحارث والمنذر

وقد قامت بين الحارث والمنذر أمير الحيرة حرب سببها النزاع على الأراضى الممتدة على جانبى الطريق الحربية من دمشق الى ما بعد تدمر ؛ ذلك أن أمير الحيرة ادعى أن القبائل العربية النازلة فى تلك الأراضى خاضعة لسلطته ، فنازعه الأمير الغسانى هذه السلطة فنشب القتال بينهما . وكان من أثر ذلك قيام المنازعات بين الدولتين .

---

(١) نلدكة : أمراء غسان ص ١١

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ١٣٣ ، تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٢٣٥

وفى سنة ٥٤١م حارب الحارث فى العراق بجانب الروم تحت قيادة بليزايورس (Belisarius) . ولم يحصل فى حملته هذه على نتائج تذكر . ولهذا لم يمض على هذه الغزوة زمن قصير حتى عاد الأميران العربيان إلى القتال سنة ٥٤٤ م ، ووقع فى هذه الحرب أحد أبناء الحارث أسيراً فى يدى المنذر . وقد استمر القتال بين الاميرين العربيين إلى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصارا حاسما سنة ٥٥٤ م فى معركة وقعت بينهما بالقرب من قِنَّسرين انتهت بقتل المنذر ملك الحيرة . وسافر الحارث على أثر ذلك إلى القسطنطينية سنة ٥٦٣ م لمفاوضة القيصر على من يخلفه من أولاده على سورية وما يجب اتخاذه من التدابير لمقاومة ملك الحيرة ؛ وقد كان لما شاهده الحارث فى العاصمة من مظاهر الترف وسعة العيش وقع عظيم فى نفسه . (١)

ولما توفى الحارث سنة ٥٧٠م خلفه ابنه المنذر بن الحارث ؛ ولم يكد يتسلم زمام الحكم حتى هبَّ لمحاربة عرب الحيرة الذين كانوا قد أغاروا على سورية بعد وفاة أبيه ، فقاتلهم وانتصر على ملكهم قابوس ابن المنذر ؛ ثم وقع شىء من الجفاء بين غسان والروم انقطع على أثره وصول المدد ثلاث سنوات ؛ فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة وأغاروا على سورية ؛ فاضطر الروم إلى استرضاء الأمير الجفنى ، وعقدت محالفة بين امبراطور الروم وملك الغساسنة ، ثم ارتاب فيه الامبراطور ونفاه إلى صقلية . ولكن المنذر لم يلبث طويلا فى منفاه ؛ فقد سخط على الامبراطور أبناء المنذر الأربعة وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم ، ثم أوغلوا تحت قيادة أخيهم الأكبر — النعمان — فى الصحراء ، وأخذوا يشنون منها الغارات على أراضى الدولة . غير

---

(١) نلدكه : أمراء غسان ص ١٨ و ٢٠ - ٢١

أن القائد البيزنطى تمكن من القبض على النعمان وأخذه أسيرا إلى القسطنطينية سنة ٥٨٣ م . [١]

وقد تفرقت كلمة العرب فى سورية بعد أن حمل المنذر أسيرا إلى عاصمة الروم وتفككت عرى وحدتهم ؛ فاختارت كل قبيلة منهم أميرا لها . وكان من أثر ذلك أن التحق بعضهم بالفرس .

ولما كثر التنازع والتطاحن بين القبائل العربية بعد فقد أميرها ، أقام الروم مكان المنذر عاملا جديداً لما كان لهؤلاء الأمراء فى الماضى من الهيبة فى قلوب جميع القبائل البدوية . [٢]

على أن دخول الفرس بلاد الشام سنة ٦١٣ م قضى على ملك بنى جفنة ؛ ففر بعض أمرائهم إلى بلاد الروم ، والتجأ البعض الآخر إلى داخل الصحراء . وقد أنزل الفرس الرعب فى قلوب أهالى بلاد الشام ، وطردوا منها عمال الروم . ولاشك أنهم لم يفكروا فى أن يتركوا فيها عمّال الروم ، وقد ذاقوا الأمرّين على يد هؤلاء العمال ، كما لم يشأ عمال الفرس من العرب أن يتركوا الحكم فى أيدى بنى جفنة الذين أراقوا دماءهم وعاثوا فى ديارهم . [٣]

وفى سنة ٦٢٩ م انتصر الروم على الفرس واستردوا بلاد الشام . وليس لدينا ما يثبت أن هرقل فى ذلك الوقت أسند الحكم فى سورية إلى أحد أمراء بنى جفنة . وقد يتضح لنا من عدم مقاومة قبائل لخم ، انه لم يكن لدولة الروم فى بلاد الشام فى ذلك الحين عامل قوى يحميها ويدفع عنها المغيرين عليها من بلاد الشام .

والواقع أن الغساسنة فى ذلك الوقت كثيرا ما حاربوا المسلمين فى

(١) نلدكه : أمراء غسان ص ٣١ ، ٣٢

(٢) « : « « ص ٣٥

(٣) شرحه ص ٤٦

جانب الروم . وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم[١] ؛ ويقال إنه أسلم فى عهد عمر بن الخطاب على أثر انتصار العرب فى اليرموك (١٣هـ ٦٣٦ م). غير أنه مالبث أن عاد إلى جانب الروم وتحول الى النصرانية وهجر وطنه ليستقر نهائيا فى الامبراطورية الرومانية

حضارة الغساسنة

وقد بلغت دولة الغساسنة درجة كبيرة من الحضارة . فقد كان ببلادها كثير من القلاع الحربية عرفت بالمسالح ، كما كان بها كثير من البيع والكنائس . وكان ملوكها يقتنون كثيراً من الجوارى الروميات ، وكانت مبانيها من الحجر الأبيض المأخوذ من الجبال القريبة منها . وقد تعلموا من محاربتهم الفرس الفنون الحربية وطرق الدفاع وكسبوا المران العسكرى ، كما اكتسبت اللغة العربية كثيرا من الكلمات التى لم تكن معروفة بها مثل الكنيسة والراهب . وقد نبغ فيهم كثير من الشعراء الذين امتلأت أشعارهم بالحماس والقوة .

الحكم عند البدو

كانت قبائل نجد القريبة من بلاد الحيرة تابعة لملك العرب بالحيرة ، كما كانت القبائل القريبة من بادية الشام تابعة للغسانيين . إلا أن هذه التبعية كانت اسمية ؛ لأن العرب لا يطيقون أن تقيد حريتهم التى هى كل شىء عندهم .

وكان لكل قبيلة رئيس منهم حسب نظام القبيلة المسمى

---

(١) كان سبب ارتداده الى النصرانية أن أحد العامة وطىء ذيل إزاره وهو يطوف بالكعبة فلطمه جبلة حتى هشم أنفه . فشكاه الرجل إلى عمر بن الخطاب فحكم بالقود . فعز على جبلة — وهو ملك — أن يصفعه رجل من العامة ويهشم أنفه . فتحايل للهرب ولجأ الى ملك الروم وتبعه خمسمائة رجل من قومه فتنصروا عن آخرهم وفرح بهم هرقل وأكرمهم ، ثم ندم جبلة على فعله . أبو الفداء ج ١ ص ١٦١ - ١٦٢

Patriarchal state الذى كان مألوفا لدى العرب فى جاهليتهم ؛ وكان لهذا النظام مثيل بجزيرة قرسقة (كورسيكا) .

وكان من أهم مزايا رئيس القبيلة أو شيخها : الشجاعة والكرم والحلم ، ثم الثروة والعدد ؛ وهذه الصفات كافية لسيادة القبيلة التى تأتمر بأمره ، فتقيم باقامته وترحل برحيله ولا تتأخر عن الحرب لنصرته . فاذا غنمت القبيلة ، أخذ من الغنيمة حقوق الرئاسة والسيادة ليعدها لما يطرأ من الحوادث ، فكان له :

١ — المرباع وهو ربع الغنيمة .

٢ — الصفىّ وهو مايصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة .

٣ — النشيطة وهى ماأصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل الى القوم الذين عزم على محاربتهم .

٤ — الفضول : وهو مافضل من الغنيمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير و «الفرس» وغيرها .

وقد ذكرها أحد الشعراء فى هذا البيت :

لك المِرْباعُ منها والصَّفايا ... وحُكمك والنَّشيطة والفُضُول

وقد يُورّث الأبُ الرئاسة لابنه ؛ وقد يعظم قدر الرئيس ويقوى أمره ، فيغزو القبيلة الضعيفة ويرغمها على أن تؤدى له جزية كل سنة تُدفع له فى سوق عكاظ حيث كان يجتمع العرب .

وعلى الجملة فقد كانت مكانة رؤساء القبائل فى قومهم كمكانة الملوك ، ولم يكن بينهم وبين الملوك فرق إلا أن هؤلاء الرؤساء لم يُتوّجوا . وطالما كانت تظهر المنافسة وتشتد بين أبناء العم ، فيبالغ كل منهم فى إقراء الضيف والدفاع عن العشيرة ليظفر بمدائح الشعراء .

قريش

بلاد الحجاز

حافظ الحجاز على استقلاله منذ أقدم العصور ؛ فلم يَعبث بحريته الملوك الفاتحون فى الوقت الذى عبث فيه كيرش وقمبيز وغيرهما من ملوك الفرس باستقلال كثير من الأمم . كذلك ظل محافظا على استقلاله أيام الاسكندر المقدونى الذى صده العرب حين أغار على دارا ملك الفرس . وكان من أثر تمتع أهل الحجاز بالاستقلال طوال حياتهم أن ظهرت فيهم طبائع خاصة بهم من حيث عراقة أصلهم وشرف آبائهم وشهامتهم التى كانت ولا تزال مضرب الأمثال ولغتهم التى حافظت على نقائها وصفائها .[١]

مكة

وكان لبلاد العرب دين واحد وعقيدة مشتركة مركزها مكة[٢]، وهى قرية تأسست حول منتصف القرن الخامس الميلادى فى واد ضيق طويل مجدب على مقربة من ماء أُجاج ، وتبعد عن جُدة بنحو ٤٥ ميلا .

قبيلة جرهم

وكان العمالقة أول من سكن مكة ؛ ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية . وفى مدتهم نزل اسماعيل وأمه بوادى مكة ، وصاهرهم اسماعيل . ولما مات تولى البيت بعده ابنه نابت وهو أكبر أولاده ؛ ثم تولى ولاة من جرهم ؛ وقد استمرت ولايتهم الى سنة ٢٠٧ م كما ذكر سديو[٣].

---

(١) Sédillot, Histoire générale des Arabes, vol. 1. pp. 41-42

(٢) قال ياقوت فى معجمه (جـ ٨ ص ١٢٣) : مكة هى بيت الله الحرام ، فيقال مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت . وقال آخر هى بكة . وقيل بالميم الحرم كله وبالباء المسجد خاصة .

وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى تسمية مكة واشتقاقها : فهى أم القرى كما سماها الله تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) ، والبيت الأمين كما فى قوله تعالى (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين) ، والبيت العتيق كما سماها الله تعالى (وليطوفوا بالبيت العتيق) ، والبيت الحرام كما قال الله تعالى (جعل الله البيت الحرام قياما للناس) .

ومكة أو بكا كلمة بابلية سمته بها العماليق ، ومعناها (البيت) كما ذكر البتانونى بك فى كتابه الرحلة الحجازية ص ٥٩ .

(٣) Sédillot, vol. I. p. 41

لبثت ولاية البيت فى جرهم حتى كبر سلطانهم وعظمت شوكتهم ؛ فعثوا فى الأرض فسادًا واستحلوا أموال الكعبة واضطهدوا من دخل مكة من غير أهلها . [١]

قبيلة خزاعة

ولما قدمت خزاعة من اليمن أجلت جرهم وانتزعت منها السيادة بعد تفرق سبأ على أثر حادثة سَيْل العَرِم ، إذ عرَّج على مكة بنو حارثة ابن عمرو الملقب بخزاعة ؛ فاستعان بنو حارثة بكنانة [٢] ، فغلبهم بنو حارثة وكان رئيسهم يومئذ عمرو بن لُحَىّ [٣] . واستمرت خُزاعة على ولاية البيت نحوا من ثلثمائة سنة أحدثوا فيها كثيرا من الأوهام الفاسدة ولا سيما عبادة هُبَل . [٤]

انتقال السيادة الى قريش

وقد استمرت خزاعة على ولاية البيت حتى قويت قريش [٥] وتغلبت عليها فى القرن الخامس الميلادى ؛ وكانت على درجة كبيرة من الرقى . فاستولى قُصَىّ بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٤٠ م [٦] من يد خزاعة ، وأجلاهم عنها بما كان له من العصبية ؛

---

(١) كتاب أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار للازرقى ص ٣٦

(٢) بطن من مر

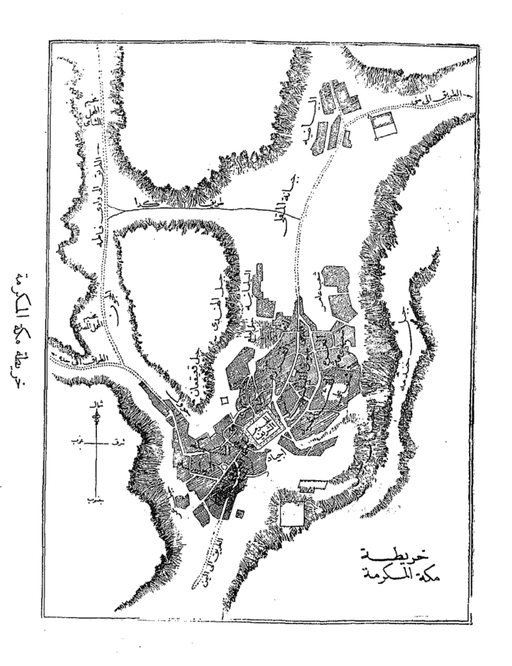
(٣) ابن خلدون جـ ٢ ص ٣٣٢ ؟ مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ١٨٦

(٤) بضم الهاء وفتح الباء : اسم صنم أتى به عمرو بن لحى .

(٥) لانريد أن نقف طويلا ازاء اختلاف المؤرخين فى تسمية قريش بهذا الاسم . على أنه لايجمل بنا أن نمر على هذه المسألة مر الكرام من غير أن نقول فيها كلمة قصيرة . فقريش هم ولد النضر بن كنانة على مايقول البعض . وقدورد مثل ذلك عن الرسول حين سئل : من قريش ؟ فقال : « من ولد النضر » وهم بنوفهر الذى هو قريش ، وان كل من كان من ولد فهر قرشى ، ذلك النسب الذى يتصل بمعد بن عدنان ؛ وقد سموا قريشا حين جمعهم الى الحرم قصى بن كلاب بعد أن نفى خزاعة من الحرم ، من القرش وهو التجمع كما ورد ذلك فى معاجم اللغة ، أو أنهم سموا قريشا لاحترافهم التجارة ، كما قيل أيضا انها سميت قريشا بدابة فى البحر ؛ فشبه بنو النضر بن كنانة بها لانها أعظم دواب البحر قوة .

(الطبرى جـ ٢ ص ١٨٧ ؛ المبرد : نهاية الارب فى معرفة قبائل العرب ص ١٢٩ ؛ العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٠٢)

(٦) Sédillot, vol. I. p. 37



خريطة مكة المكرمة

فرحلت خزاعة ونزلت فى بطن مَرّ (وادى فاطمة) . ومن ثمَّ عظم نفوذه واجتمعت له السقاية والحجابة والرِّفادة واللواء ، ولم تجتمع فى رجل قبله .

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشا الذين منهم قُصَىّ بن كلاب الجد الرابع للرسول عليه الصلاة والسلام هم من ولد كِنانة الذى يرجع نسبه إلى عدنان وينتهى إلى اسماعيل عليه السلام ؛ وإلى ذلك يشير الحديث الذى أثر عن الرسول : « اخْتَارَ اللهُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ ، وَاخْتَارَ قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ ، وَاخْتَارَ بَنِى هَاشِمٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَاخْتَارَنِى مِنْ بَنِى هَاشِمٍ ، فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ مِنْ خِيَارٍ »

الحرم المكى أو الكعبة

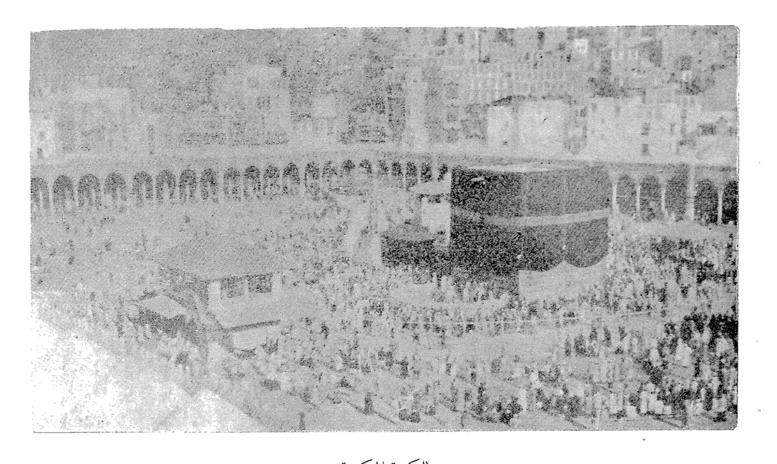
وتحدثنا المصادر العربية ، ومن بينها القرآن ، أن ابراهيم كان يزور ولده اسماعيل من حين لآخر وأن الله أمره ببناء الكعبة — أى البيت الحرام — وأن ابراهيم كان يبنى واسماعيل يرفع له الحجارة حتى أتماه (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(١)

سارت الركبان بذكر الكعبة وخصوصا بعد أن أمر الله ابراهيم عليه السلام بقوله (وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)(٢) . ولولا هذه القصة التى أوردها لنا القرآن الكريم فى سورة ابراهيم وما حوته من الأخبار لما عرفنا عن قريش شيئا ذا غناء .

وقد بُنيت الكعبة فى مكة . وهى بيت صغير مربع الشكل يحيط به بناء مكشوف . وقد أطلق عليها الكعبة لما لشكلها من الشبه بالكعب . وهى رمز لمجد ثلثمائة وستين قبيلة من قبائل العرب ، لكل قبيلة صنمها

(١) سورة البقرة ٢ : ١٢٧

(٢) سورة الحج ٢٢ : ٢٧



الكعبة المكرمة

الخاص . وفيها صور ابراهيم والمسيح والحجر الأسود ـ ويقال انه سقط من السماء ـ وتمثال لهُبل صنم قريش (وهو من العقيق) ، وكان أكثر احتراما وتقديسا من الأصنام الأخرى .

حماية قريش للكعبة

وقد قام حول الكعبة بعض أسر من فهر إحدى بطون قبيلة كنانة عُرفت باسم قريش ـ كما تقدم ـ وأسست حكومة جمهورية من نوع الحكومات التى كانت منتشرة فى بلاد العرب ؛ واتخذوا جزءاً من الأرض المجاورة أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً ، وبنوا به بيتاً حراماً لايحل فيه القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل . وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما أصبحت قبيلة قريش محترمة فى نظر القبائل العربية .

وإلى أهل قريش يرجع الفضل فى إيجاد الروابط التى كانت تربط جميع من كانوا يأمون البيت الحرام كل عام على اختلاف قبائلهم . لهذا لانعجب إذا أصبحت مكة المكان الذى تفد إليه القبائل من كافة أرجاء بلاد العرب حيث يجتمعون للحج والتجارة فى كل عام . وقد جعل هذا الأمرُ لقريش مركزاً خاصاً فى نفوس القبائل وأتاح الفرصة بعد ظهور الإسلام إلى كثير من رجال هذه القبيلة فظهرت مواهبهم ؛ وكان منهم كثيرون يعتبرون بحق من أكبر رجال العالم فى الحرب والسياسة (١)

الحكومة فى قريش :

وقد ذكر المؤرخون أن بنى سهم (ومنهم عمرو بن العاص) كانوا أصحاب الحكومة فى قريش قبل الإسلام . على أننا لاندرى حقيقة

(١) Noeldeke, Historians' History of the World, vol. *VIII*, p. 8.

ونهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب للقلقشندى (خط يد) ، ورقة ١٢٩ ، وصبح الاعشى للقلقشندى ج ٢ ص ٣٢٦ - ٨ ٣



الحجر الأسود

هذه الحكومة ؛ وكل ما نعلمه هو أن العادة قد جرت عند العرب وعند غيرهم من الأمم فى عصورها الأولى قبل الإسلام أن تقسم الأسر الكبيرة منها الأعمال الاجتماعية ؛ فلعلّ هذه الحكومة كانت شيئاً يشبه القضاء ، بحيث يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفدون على مكة من العرب إلى بنى سهم ، أو بعبارة أصح إلى زعماء بنى سهم ، فيما كان يقع بينهم من الخصومات . وكان يلى الحكومة عند قريش أصحاب الرأى والحلم والدهاء فيها ؛ ولا يغيب عنا ما يُروى عن أكثم بن صَيْفى وذى الاصبَع العدْوانى وغيرهما من حكماء العرب .

ولم تكن حكومة قريش قبل قُصى بن كلاب فى يد هذه القبيلة بل كانت فى يد خزاعة ؛ فلما جاء قصى جمع شتات القرشيين ووحد كلمتهم ، ثم أصبح الرئيس الدينى للبيت الحرام الذى كان يفد إليه العرب من كافة أنحاء الجزيرة .

تنظيم مكة

ومن مآثر قصى إنشاء دار الندوة بمكة ؛ وكان له من مظاهر الرياسة أربعة أمور :

١ — رئاسة دار الندوة حيث يتشاورون فى مهام أمورهم ويزوجون بناتهم ؛ وكان لا يسمح بدخولها إلا من بلغ الأربعين .

٢ — اللواء : فكانت لا تُعقد راية الحرب إلا بيد قصى .

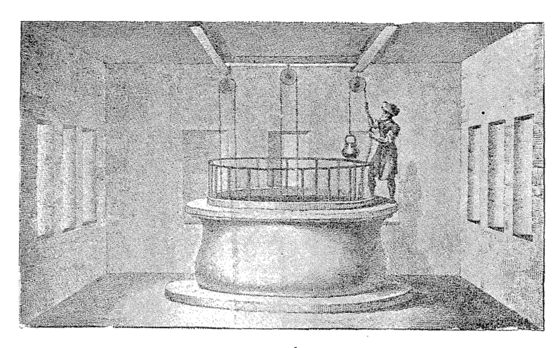
٣ — الحجابة وهى حجابة الكعبة أو سدانتها . فلا يفتح بابها إلا هو ؛ وهو الذى يلى أمر خدمتها [١] .

٤ — سقاية الحاج ورفادته [٢] ؛ ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحجاج أحواضا من الماء يحلونها بشىء من التمر والزبيب . والرفادة

---

(١) وكانت الحجابة فى بنى عبد الدار حتى فتحت مكة فطلبها العباس من النبى صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يعطيه مفتاح الكعبة ، فأنزل الله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، فرد النبى المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن عبد العزى .

(٢) لم تشترك جميع بطون قريش فى الرفادة قبل قصى ، فلما جاء زمن الحج رأى قصى أن يكون لكل قرشى نصيب فى إطعام الحاج لماله أثر قرى الضيف فى نفس مضيفه .



بئر زمزم

طعام كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة . وقد قام بوظيفة الرفادة بعد قصى ابنه عبد مناف[١] ، ثم ابنه هاشم [٢] ، ثم ابنه عبد المطلب ، ثم ابنه أبو طالب ، ثم أخوه العباس ، وجَرى الأمر على ذلك فى الجاهلية والاسلام .

وكانت لقريش مصالح أخرى تلى هذه فى الأهمية وُزعت بين رؤسائهم حتى لايكون هناك مجال للنزاع . على أنهم ، وإن أمنوا الحروب ، فانهم لم يأمنوا المنافسة بين كبراء البيت الواحد ؛ كما حدث بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس الذى كان ينافس عمه فى رئاسة قريش بما لديه من ثروة ، مما ولد الجفاء بين البيتين .

الأشهر الحرم

وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرما يعقدون فيها أسواقهم التجارية حول الحرم ؛ ولم يجرؤ أحد على الإخلال بحرمة البيت . ولما قامت الحرب بين قريش وكِنانَة واضطرت قريش إليها اضطراراً ، سمتها العرب حرب الفجار ، لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم . ومما ساعد على سيادة قريش واحترامهم عند جميع العرب حِلف الفضول ؛[٣]

حلف الفضول

فقد أخذت فيه قريش على نفسها أن ترد كل مظلمة لأهلها ، لافرق فى ذلك بين قرشى وغيره . وكان منهم كثيرون يعتبرون بحق من أكبر رجال العالم فى الحرب والسياسة .[٤]

عبد المطلب

وما زال فضل قريش يزداد بين القبائل حتى كان عبد المطلب الذى اشتهر بحفر بئر زمزم[٥] سنة ٥٤٠ م . وفى عهده خذل الله أبرهة الأشرم وصدَّه عن مكة والبيت الحرام ؛ ونجت مكة فى أيامه من خطر

(١) أعقب عبد مناف بن قصى : عبد شمس والمطلب ونوفلا وهاشما .

(٢) سمى هاشما لهشمه الثريد لقومه بمكة وقد أصابهم قحط .

(٣) وانما سمى حلف الفضول لانهم حلفوا أن يردوا الفضول الى أهلها ، أو لانه يشبه حلف ثلاثة من جرهم كل واحد منهم يقال له الفضل . سيرة ابن هشام ص ١٢٥ - ١٢٧

(٤) Noeldeke, Historians' History of the world, vol. VIII. p. 8. وسبائك الذهب ص ٦١-٦٩

(٥) يقال إن اسماعيل لما عطش ضرب بقدمه الارض فنبع الماء وظهرت بئر زمزم

الأحباش فذاعت شهرته وقصدته القبائل من كافة أطراف الجزيرة .

أبرهة وغزو مكة

فقـــد كتب أبرهة الى قيصر الروم فى ذلك الوقت أنه يريد بناء كنيسة بصنعاء، وسأله المعونة ، فأرسل اليه الصُّناع وأمده بالفُسَيْفِساء والرّخام. فلما تم بناؤها ، كتب أبرهة الى النجاشى أنه يريد أن يصرف اليها حجاج العرب ويُحول تجارة قريش الى صنعاء .

فأثار ذلك حفيظة العرب؛ فخرج رجل من بنى مالك بن كِنانة حتى قدم اليمن ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وانتهك حرمتها؛ فغضب أبرهة وأقسم ليَهْدِمَنَّ الكعبة ، وجرّد جيشا عظيما من الأحباش سيَّر أمامه الفيَلة ،ويمم شطر الكعبة وعسكر بقرب مكة [١] فى مكان يقال له المُغَمَّس [٢] حيث دارت المناوشات بين الأحباش والعرب .

رواية الطبرى

يروى لنا الطبرى [٣] أن أبرهة لما نزل المُغَمَّس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيـــل له حتى انتهى الى مكة ، فساق إليه أموال أهلها من قريش وغيرهم وأصاب مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمَّت قريش وكنانة وهُذَيْل ومَنْ كان بالحرم من سائر الناس بقتاله ورأوا أن لا طاقة لهم به . وبعث أبرهة حِناطة الحميرى الى مكة ، وقال له سَلْ عن سيد هذا البلد ، ثم قل له إن الملك يقول لكم إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم، فان لم يرد حربى فأْتِنى به . فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ؛ فجاءه

---

(١) ذكر سديو (Histoire générale des Arabes, vol.I.p.14) أن عدد هذا الجيش كان أربعين ألفا على حين ذكر غيره أنه بلغ ستين ألفا .

(٢) المغمس بتشديد الميم وفتحها موضع على ثلثى فرسخ من مكة فى طريق الطائف ، يرجم فيه الحجاج قبر أبى رغال الذى كان دليل أبرهة .

(٣) ج ٢ ص ١١١ .

فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ؛ هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم . فقال له حناطة : انطلق إلى الملك فانه قد أمرنى أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر ؛ فلما تقابل مع أبرهة قال لترجمانه : « حاجتى الى الملك أن يرد علىَّ مائتى بعير أصابها لى » . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنتَ أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدتُ فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتُها لك ، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلمنى فيه ؟

ان للبيت ربا سيمنعه

قال له عبدالمطلب « إنى أنا رب الابل وإن للبيت ربا سيمنعه » . ثم عرض على أبرهة ثُلث أموال تِهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت فأبى ، فخرج عبد المطلب حانقاً وجاء إلى الكعبة ومعه جماعة من قريش وقال :

يارَبِّ لا أرْجُو لَهُمْ سِوَاكا   يارَبِّ فامنع مِنْهُمْ حِماكا
إن عَدُوَّ البَيْتِ مَنْ عاداكا   إمْنَعْهُمْ أن يُخْرِبوا قُراكا[1]

الطير الابابيل

صمم أبرهة على دخول مكة وهدم الكعبة ، فعبأ جيشه وهيأ فيله ، وكان اسم الفيل محمود . فلما وجهوا الفيل الى مكة أقبل نُفَيل بن حبيب حتى قام الى جنب الفيل ، ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محمود أو ارجع راشدا من حيث جئتَ فانك فى بلد الله الحرام ؛ ثم أرسل أذنه فبرك الفيل . وخرج نُفَيل بن حبيب يشتد حتى أصعد[2] فى الجبل ؛ وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً الى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه الى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى مكة فبرك . فأرسل الله عليهم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٢ - ٥٣ ؛ الطبرى ج ٢ ص ١١٣ .
(٢) [illegible]

طيراً من البحر أمثال الخطاطيف ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحِمَّص والعَدَس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك . (١)

وقد ورد ذكره فى القرآن فى سورة الفيل . قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) (٢)

هزيمة أبرهة

هكذا هزم أبرهة وجيشه . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى جاءوا منه ويسألون عن نُفَيْل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ؛ فقال نُفَيْل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أين المفرُّ والإلهُ الطالبُ ... والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

وقال أيضا :

ألا حُيِّيتِ عنَّا يا رُدَيْنا ... نَعِمْناكم مع الإصباح عَيْنا

أتانا قابسٌ منكم عِشاءً ... فلم يُقْدَرْ لقابسكم لدينا

رُدَيْنَةُ لو رأيتِ ولم تَرَيْهِ ... لدى جَنْبِ المحَصَّبِ ما رأينا

إذاً لعَذَرْتنى وحَمِدتِ رأيى ... ولم تَأْسَىْ على ما فاتَ بَيْنا

حَمِدتُ اللهَ إذ عايَنْتُ طيراً ... وخِفْتُ حِجارَةً تُلْقَى علينا

فكلُّ القوم يسألُ عن نُفَيْلٍ ... كأنَّ عَلَىَّ للحبشان دَيْنا (٣)

وتصف لنا هزيمة أبرهة تلك الأبيات التى قالها عبد المطلب وهو ممسك بحلقة الكعبة .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٣ - ٦١

(٢) سورة الفيل ١٠٥ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ١١٢ - ١١٤ ؛ وأخبار مكة للأزرقى ص ٨٦ - ١٠٢ بتصرف ؛ وأخبار الأول لابن اسحاق ص ١٩ - ٢١ ؛ Sayed Ameer Ali, p. 41

لا هُمَّ إن العبـــد يمـ ـنع رَحْله فامنَع حلالك

لا يَغْلِبَنَّ صَـــلِيبُهم ومِحَالُهم عَدْواً مِحالك

فلئن فعلتَ فربما أولى فأمرٌ ما بدا لك

ولئن فعلتَ فإنه أمرٌ تُتِمُّ به فعالك

وكُنْتَ إذا أتى باغٍ بِسِلْمٍ نُرَجِّى أن تكونَ لنا كذلكْ

فولَّوْا لم ينالوا غيرَ خِزْيٍ وكانَ الحَيْنُ يُهلِكُهُم هنالكْ

ولم أسمع بأرْجَسَ من رجالٍ أرادوا العزَّ فانتهكوا حرامَك

جرُّوا جموعَ بلادِهِمْ والفيلَ كى يَسْبُوا عيالكْ

عمدوا حماك بكَيْدِهِمْ جَهْلاً وما رقبوا جلالَكْ (١)

أثر هذه الهزيمة

اختلف المؤرخون فيما حل بجيش أبرهة ؛ فقال بعضهم إنه لم ينج منه سوى أبرهة ورجل آخر من الأحباش عاد إلى اليمن ، وتحدث بما صنع الله بأصحاب الفيل . وقد تعقب هذا الرجلَ طائر حلق فوق رأسه ؛ فلما وصل الرجل إلى بلاد اليمن قال للناس هذا نوع الطيور التى هزمتهم . وبينما هو يقص عليهم كيف حلت بهم الهزيمة سقطت الحجارة على رأسه فمات لساعته .

ويقول الأستاذ براون (٢) عن غزو الأحباش للكعبة :

« The year of the elephant marked an epoch in the development of their national life. »

« يعتبر عام الفيل فاتحة عصر جديد فى تاريخ حياة العرب القومية »

ولا شك أن هذه الحادثة التاريخية العظيمة كانت فاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة ، حتى أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم ، فقد

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥١-١١٥ والطبرى ج ٢ ص ١١٢-١١٣

(٢) Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. I. pp. 176-181

مهدت السبيل لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها ونشرين دين توحيد جديد هو دين الحنيفية ؛ إذ لو أتيح لهذا الجيش النصر والظفر لتغير وجه التاريخ ولانتشر الدين المسيحى فى بلاد العرب ولانصرف الناس عن مكة إلى صنعاء .

ولما ذاع نبأ أصحاب الفيـــل بين العرب زاد احترامهم للحرم وقالوا « أهلُ الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم » .

تجارة قريش

عوامل قيامها فى قريش

لما كانت تربة مكة صخرية لاماء فيها ولا زرع ، امتاز أهلها على غيرهم من العرب بالنشاط . أضف إلى ذلك ما كان لهم من احترام فى نفوس غيرهم من القبائل ومكانة لاتنكر ، لأنهم ولاة الكعبة الذابون عن حياضها الحافظون مجدها . على أن تربة بلدهم وإن حالت دون اشتغالهم بالزراعة ، فقد أيقظت فى نفوسهم روح التجارة . وقد ساعدهم على ذلك مركز مكة الجغرافى . لذلك لاندهش إذا أصبحت مكة منذ القرن السادس الميلادى واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام والحبشة

تأمين طرق التجارة

وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب محترمة فى نفوسهم لأنهم سكان مكة وحماة الكعبة التى يحترمها العرب ويقدسونها . فكانوا يسيرون آمنين مطمئنين ؛ فجابت قوافلهم هذه البلاد طولا وعرضاً كما فعل أهل اليمن من قبل ؛ فوصلوا إلى غزة وبيت المقدس ودمشق وعبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة . وكانت ميناء جُدَّة ، وتبعد عن مكة بنحو أربعين ميلا ، واسطة عقد التجارة بينها وبين الحبشة ، فكانت تحمل كنوزها إلى القطيف فى إقليم البحرين ، حيث تنقل فى القوارب مع اللؤلؤ الذى كان يُستخرج من سواحل الخليج الفارسى إلى مصب الفرات .

موقع مكة الممتاز

وتقع مكة فى نحو منتصف المسافة بين اليمن جنوباً والشام شمالا . وبها عين زمزم التى كانت تردها القوافل لتأخذ منها ماتحتاج إليه من الماء .

فيم كانت تتاجر قريش ؟

وكانت إبل قريش تحمل من أسواق صنعاء ومن موانى عمان واليمن الطيب والبخور الكثير الاستعمال فى المعابد والكنائس والقصور فى البلاد الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكذا المنسوجات الحريرية والجلد والأسلحة . كما كان يشترى من أسواق بُصرى ودمشق القمح والمصنوعات وزيت الزيتون والحبوب والخشب . وكانت تأتى التوابل من بلاد الحبشة ، بينما كانت تجىء من مصر المنسوجات التى كانت تسمى بالقباطى . وكانت ترد إلى موانى بلاد اليمن من الهند والصين وغيرهما من بلاد الشرق المنسوجات الحريرية والمعادن النفيسة وغير ذلك من ضروب التجارة .

أثر التجارة فى قريش

وقد استفادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية على جانب كبير من الأهمية . ولا غرو فقد ساعدت ممارسة القرشيين التجارة وكثرة أسفارهم إلى الشام والحبشة ومصر وغيرها ، ومخالطتهم لأقوام مختلفين كالفرس والروم من ذوى المدنيات القديمة والأدب التالد على معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والأدبية ؛ كما كان لها أثر كبير فى تثقيف عقولهم وارتقاء مداركهم حتى وصلوا إلى مستوى فكرى لم يصل إليه أهل البدو وسكان الواحات . ومن هنا حسنت إدارتهم لشئون الكعبة وسهلوا على الناس القدوم إليها وشجعوهم على الحج إلى بلدهم .

رحلتا الشتاء والصيف

وقد بلغ من اهتمام القرشيين بالتجارة أنهم كانوا يرحلون رحلتين فى العام : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام . وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة ؛ فكان هاشم يتوجه إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ،

ونوفل إلى فارس . وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الاخوة الأربعة لا يتعرض لهم بسوء [١] . وكان كل أخ منهم يأخذ من ملك البلد الذى يقصده أمانا له ؛ فكان هذا أشبه بالروابط والعلاقات بين أمراء مكة وغيرهم من الملوك . وقد منّ الله تعالى على قريش فى ذلك بقوله :

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

وكانت بلاد العرب « وَعِرَةً إلاّ عليهم لعلمهم بالصحراء وسبلها ومواضع الأمن والخوف منها ، وقدرتهم على تحمل الغيظ وعناء السير » [٢] ، فلم يكن لأهل الشام والحبشة وغيرهما من سبيل لولوج هذه الفيافى والقفار الكثيرة الوعورة والأخطار . فاحتكروا تجارة البلاد السعيدة (اليمن) والشام وغيرهما واستقلوا بتبادل سلعها . وكان من أثر احتكارهم لتلك التجارة وانتشارها فى مكة أن أثرى أهلها ثراء كبيرا . ولم يكن حب أبناء الأشراف والنبلاء وأهل الشرف فيهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم . [٣] أضف إلى ذلك ما كان من ازدياد عددهم على ممر الأيام لجودة غذائهم بالنسبة لغيرهم من القبائل وعدم تعرضهم للمنازعات والحروب التى أنهكت قوى العرب فى جاهليتهم ، كما ساعدتهم ثروتهم على إقراء الضيف فلهجت بمحامدهم ألسنة الشعراء والوافدون على مكة من كافة أرجاء بلاد العرب .

أثراء قريش من التجارة

وقد أثرت قريش من التجارة ثراء عظيما ، وظهر فيها الكثيرون

---

(١) صبح الأعشى ج ١ صفحة ٣٥٨ ؛ واليعقوبى ج ٢ ص ٢٨٢ ، وسبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب (بغداد سنة ١٢٨٠ هـ) ص ٦٩

(٢) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ١٤

(٣) Gibbon, vol. IX, p. 94

من الأثرياء كأبى سفيان والوليد بن المغيرة وعبد الله بن جُدْعان الذى استطاع أن يجند فى حرب الفجار مائة رجل . وكان القرشيون بمثابة الوسطاء بين أقاليم البحر الأبيض المتوسط فى الشمال ـ حيث الشام وفلسطين وسواحل آسيا الصغرى ومصر الشمالية ـ وبين ذلك الأقليم الموسمى الذى تكثر به الخيرات المعروفة من توابل ومحاصيل أخرى هامة

وبما أن التجارة تقتضى علما بالسياسة العامة والعلاقات التجارية عُنى القرشيون بالوقوف على العلاقات بين فارس والروم وبين اليمن والحبشة وهل هناك ما يعترض تجارتها ؛ وبذلك أصبحت التجارة مدرسة لتكوين أفراد يصعب على المدارس العادية تخريجهم ، كما تقتضى التجارة علما خاصا بالحساب التجارى وكل ما يتعلق بالتجارة من مكاييل ومقاييس. والتجارة من أشرف المهن عند العرب ، فقد ورد فى الحديث الشريف «التَّاجِرُ الصدُّوقُ خَيْرٌ مِنَ الكِرَامِ البَرَرَةِ». وهكذا تولدت فيهم المواهب النادرة ، ونمت وأزهرت ، فتجلت مظاهرها فى جميع أدوارهم وكل فعالهم مما كان له أعظم الأثر فى مواقفهم السياسية والحربية.(١)

الحالة الأدبية :

أثر مكة فى الحالة الأدبية

كانت مكة ـ كما أسلفنا ـ مركز الحركة التجارية والأدبية ببلاد الحجاز . فكان يفد اليها العرب من كل صوب وحدب أيام الحج والمواسم ، فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض ويتناشدون الأشعار الحماسية ويتحدثون بشرف أصلهم وكرم محتدهم ، فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والأدبية فى نفوس أطفالهم المواهب النادرة

(١) Wellhausen. Reste Arabischen Heidenthums, vol. II., p. 39 seq.
أنظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ٢٣ - ٢٤

والقرائح الوقادة والخصال الكريمة ، وتدفع بهم الى جليل الأعمال وأسمى الغايات .

التعليم

على أن التعليم فى هذا العصر لم يكن منتشراً فى بلاد العرب ، لأن العرب لم يكن لهم بالعلوم عهد . وما نظن أن بلاد العرب - وعلى الأخص مكة - كانت تُعنى بتعليم أطفالها الكتابة والقراءة ، إنما كان يشعر الرجل من أهلها بالحاجة الى ذلك فيتعلمها . وكان النبى صلى الله عليه وسلم أول من عُنى عناية خاصة بتعليم العرب الكتابة والقراءة ، بأن عهد الى أسرى بدر الذين يعرفون الكتابة والقراءة والعاجزين عن دفع الجزية بأن يعلم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين هذه الكتابة والقراءة .

أثر العلوم غير العربية فى العرب

ولا يغيب عن أذهاننا ما كان لاجتماع الشعراء فى مكة وفى سوق عكاظ من أثر فى حياة العرب الأدبية ، كما لا نجهل أيضا أن كثيرين من هؤلاء الشعراء كانوا يجوبون البلاد الأجنبية ، فاتصلوا بالفرس عن طريق المناذرة وبالروم عن طريق الغساسنة ، وبالفرس والروم معاً عن طريق التجارة ؛ كما أخذوا بعض الفكر الدينية عن الجاليات اليهودية وعن نساطرة الحيرة .

وقد ظهر أثر تلك الأفكار فى شعر الشعراء كقس بن ساعدة وأمية ابن أبى الصلت ، وفى خطب الخطباء وأقوال الحكماء من العرب مثل أكثم بن صَيْفى وورقة بن نَوْفل .

علوم العرب

أما العلوم التى حذقها العرب بحكم البيئة التى نشأوا عليها وطبيعة البلاد التى درجوا على أرضها فهى علم الأنواء . ولا غرو فقد مهروا فى تتبع الأنواء وتعرّف أوقات نزول الغيث . كما مهروا فى علم الأثر . فقد كانت لهم دراية خاصة بمعرفة آثار الأقدام ؛ وقد ساعدهم على ذلك تلك الصحراء

المغطاة بالرمال التى تنطبع فيها آثار الأقدام بسهولة . ثم علم الأنساب ، فقد كان يسكن جزيرة العرب قبائل متناحرة متدابرة . ومن ثَمَّ دفعتهم الحاجة الملحة الى أن يحفظوا أنسابهم التى يعتمدون عليها فى عقد محالفاتهم أوشن الغارة على أعدائهم أو المنافسة على مركز الرياسة فيهم — وغير ذلك من العلوم التى تنشأ فى مثل هذه البيئة والتى هى أولى بأن يطلق عليها مجموعات من المعارف من أن تكون علوما بالمعنى الذى نعرفه .

اغراض اجتماع العرب بمكة

وكان الغرض الأصلى من اجتماعات العرب دينياً بحتا . وأما تناشدهم الأشعار وتبادلهم الأفكار إنما كان أمراً ثانويا دُفعوا اليه بحكم اجتماعهم فى صعيد واحد ترفرف عليهم ألوية السلام وتظلهم أعلام الهدنة . على أن ذلك الغرض الدينى لم يلبث أن تقهقر وأصبح عرضياً لاقيمة له وشيئاً ثانوياً لا يؤبه له ، بعد أن حلت محله الأغراض الاجتماعية والشئون السياسية . فطالما كانت تُعقد المعاهدات وتمضى المحالفات فى تلك المجتمعات . ومن ثم ظهر الشعراء . وكانت لهم جلسات ممتعة يتبارون فيها فى الشعر ؛ وأصبح تبادل الأفكار والمنافع هو الغرض الأصلى من تلك المجتمعات.(١)

الشعر العربى

لم يحل عدم انتشار التعليم فى بلاد العرب فى الجاهلية دون قيام نهضة أدبية خلال ذلك العصر . ولا أدل على تلك النهضة من ازدهار الشعر ؛ وانه لصورة صادقة للخلق القومى . وهو يختلف تماما عن الشعر فى الشعوب السامية الشمالية فى مادته وتركيبه . ولم نعلم بهذا الشعر إلا فى أزهى عصوره وشدة انتشاره .

(١) Noeldeke, Historians' History of the World vol. VIII. pp. 8-9 ; Wellhausen, Reste Arabischen Heidenthums, vol. II. p. 89 seq.
أنظر تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٩ — ٢٠

وجميع الشعر العربى ُمقّى . على أن القافية ليست خاصة بالشعر ؛ فقد ُتقّى العبارات التى لها علاقة ما بالأمور الدينية والأحاديث ذات الخطر والتى ليست خاضعة لقواعد الشعر الضيقة ، وذلك مثل نبوءات بعض المتنبئين وحكم الحكماء .

رأى نلدكه فى الشعر العربى

يقول نلدكه : « ولما كان هذا النوع من الشعر يرجع الى عصر غير معلوم ، وأنه قد ظهر وانتشر بادىء ذى بدء بين الاغريق والروم فى القرن الرابع الميلادى ، فليس بعيداً أن يكون ثمة ارتباط من وجه ما بين ذلك الشكل من الشعر وبين الشعر العربى ، وخصوصاً فى استعمال تلك الطريقة الفنية التى لا يبعد أن تكون قد وصلت الى العرب فى نفس ذلك الوقت . . على أنه يغلب على الظن أن يكون الشعر العربى قد ابتدأ بالنثر المُقَّى ثم تطور حتى انتهى إلى ما نراه عليه اليوم من البحور والأوزان . ومع ذلك فإن هذه المسألة لا تزال محلا لاحتمالات كثيرة ، ولم تقم للآن أدلة قاطعة نستطيع الأخذ بها . على أن أخذ الشعر العربى أوزانه عن الشعر اللاتينى أو اليونانى لا يحط من قدره ، كما لا ينقص من طرافته تلك الدقة فى مراعاة هذه القافية واستيلائها على النفس ، حتى إن العربى الذى لم يمرن على الأدب والذى لم يكن له من الثقافة حظ كبير أو قليل ، ليحفظ تلك القصائد والمقطوعات الشعرية وينقلها مع الرعاية التامة والمحافظة الشديدة لتلك الأوزان النظمية ، على الرغم من أنها تختلف كثيراً فى وزنها وقافيتها عن المقاييس النظمية للشعر اللاتينى واليونانى » .

ويتناول الشعر العربى الحياة العادية والشئون الحيوية للبدوى . وطالما كان يتغنى الشعر العربى بذكر تلك الحياة وامتداحها وصبغها بجم الألوان من الأخيلة الشعرية . ولم ينس هذا الشعر نصيبه من الحكم الرائعة والأفكار القيمة .

أثر الشعراء في تمهيد الطريق للدين الاسلامي

وقد مهد الطريق للدين الإسلامي بعض مشاهير الشعراء الذين ثقّفت عقولهم الأسفار الطويلة والمشاهدات الجمة ، والذين اختلطوا بالمسيحيين وترددوا على بعض أقيال (١) العرب . وكان العربي يحرص كل الحرص على الامتناع عن القتال في بعض أشهر السنة ، وهي الأشهر الحرم . وكانوا يتهادنون وتضع الحرب أوزارها بين جميع القبائل في تلك الأشهر ، وتوضع جميع الأضغان جنباً إلى جنب ، وتُنسى الحفيظة بينهم – ولو إلى أجل – فلا يراق فيها دم ولا تُنتهك فيها حرمة ، فيتقابل الأصدقاء والأعداء . لا يذكر أحدهم للآخر في تلك الفترة من السلم ضغنا أو موْجده ، ويجتمعون في أوقات معينة وأماكن معروفة للقيام ببعض النسُك (٢) والشعائر الدينية وتكريم الآلهة والزلفى اليها . وكان لهذا النظام أثر كبير في نهضة العرب .

الحالة الدينية :

لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً ذا غناء عن ديانة العرب في الجاهلية . على أن ما لدينا من المعلومات – على قلته – يمكننا من أن نقدم للقارىء بعض ما يهم معرفته .

الوثنية

كان دهمـاء العرب يدينون بالدين الوثني . ويقال إن الذي نقل الوثنية الى العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي . ولا يبعد أن يكون عمرو هذا قد نقل بعض الأوثان من الشام الى الكعبة ؛ وفي ذلك يقول الشهرستاني : « وأول من وضع فيه الأصنام عمرو بن لحي لما ساد قومه بمكة واستولى على أمر البيت ، ثم سار الى مدينة البلقاء بالشام ، فرأى قوماً يعبدون الأصنام فسألهم عنها ، فقالوا هذه أرباب اتخذناها

(١) القيل : هو الملك الصغير أي الخاضع لغيره من الملوك المستقلين

(٢) العبادة

على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية ، نستنصر بها فنُنصر ونستسقى بها فنسقى . فأعجبه ذلك وطلب منهم صنما من أصنامهم ، فدفعوا اليه هُبل ، فسار به الى مكة ووضعه فى الكعبة » .

ولم يكن هبل وحده هو معبود العرب ، فقد انتشرت الأصنام بعد ذلك فى أنحاء الجزيرة العربية على شكل بيوت وأشجار وحجارة مصورة وغير مصورة .

وكان للعرب الوثنيين كثير من الأماكن المقدسة ؛ غير أن اعتقاداتهم الدينية لم تكن من الجد فى شيء كثير . ولا شك أنه كان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير على العادات التى خلفها لهم آباؤهم ، وكانوا محافظين عليها شديدى التمسك بها ، ولو أنهم لم يجهدوا أنفسهم لمعرفة كنهها . ولكن الوثنيين فى شمال بلاد العرب كانوا أكثر حماسة من غيرهم وأشد تعصباً لدينهم لاتصالهم بالمسيحيين فى الشام وفلسطين ، وكذلك كانت الحال فى اليمن لاتصالهم بالأحباش الذين كانوا يدينون بالمسيحية .

وكان العرب يقدمون القرابين لآلهتهم ويسيرون فى مواكب حول معابدهم . وكان المنذر بن ماء السماء (٥٠٥ - ٥٥٤ م) فى الحيرة يقدم كثيراً من أسرى المسيحين تكريما للسيار فينوس Venus « الزهرة » ، كما كان يقدم عرب شبه جزيرة سيناء القرابين البشرية لنفس هذا السيار . وقد سبقهم الاسرائيليون منذ عهد بعيد الى مثل ذلك . ومن المحتمل أن يكون لاتصال العرب الشديد بالمسيحيين وأهل الديانات الأخرى أثر كبير فى احياء الحماس الدينى . وقد تلاشت تلك القرابين البشرية فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .[١]

(١) Noeldeke, Historians' History of the World, vol. VIII. pp. 9-10.

ونقف من القرآن على أن العرب كانوا ـ على الرغم من وثنيتهم ـ يؤمنون بالله بدليل قوله تعالى (مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى)

وقد ذكر القرآن بعض أصنام العرب ، وأشهرها اللّات [١] والعُزَّى [٢] ومَناة [٣] . ومن أعظم أصنامهم هُبَل ، وكان من أصنام الكعبة ، وهو مصنوع من العقيق على صورة إنسان . وقد كثرت الأصنام عند العرب حتى رُوى أن المسلمين أخرجوا من البيت الحرام ٣٦٠ صنما حين فتحوا مكة . وكانوا يستفتحون بالأزلام عند أصنامهم ولاسيما هُبل .

المسيحية

كانت المسيحية منتشرة فى قبائل تغلب وغسان وقُضاعة فى الشمال وفى بلاد اليمن فى الجنوب . وقد دخلت بلاد العرب بفضل جهود أباطرة القرن الرابع الميلادى ؛ إلا أنها لم تجذب اليها أنصاراً كثيرين منهم . وقد تكون الحال على غير هذا لو أن حكومة رومة أخذت على عاتقها نشر هذا الدين . على أن العرب ـ وإن لم يعتنقوا المسيحية ويدينوا بها ـ فقد كان من وراء هذه العلاقات الوثيقة بين العرب والبيزنطيين أن تأثر العرب بالمسيحية إلى حد ما . وقد انتشرت المسيحية فى بلاد العرب من الجنوب عن طريق الحبشة والشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع .

وقد انقسمت الكنيسة فى ذلك الوقت الى جملة فرق ، تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان : النساطرة والعياقبة . فكانت النسطورية منتشرة فى الحيرة ، واليعقوبية فى غسان وسائر قبائل الشام [٤] .

---

(١) اللات : معناه الاله . عرفت فى آثار تدمر والنبط ، وكانت تمثل فى صخرة فى الطائف

(٢) العزى : كانت تمثل فى شجرات فى وادى نخلة عن يمين الذاهب من مكة الى العراق

(٣) مناة : آلهة القضاء ولاسيما قضاء الموت ، وكانت تعظمها قبائل الأزد والاوس والخزرج

(٤) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ٢٩

اليهودية

كان اليهود رغم كثرتهم ببلادالعرب يتكلمون اللغة العربية . وكانت أسماؤهم عربية . وقد اختلف المؤرخون فى أصل هؤلاء اليهود ؛ فذهب بعضهم إلى أنهم عرب اعتنقوا الديانة الموسوية ، وقال بعضهم إنهم يهود هاجروا الى بلاد العرب . ومع كل فإن العرب لم يعرفوا الديانة الموسوية ، وإنما انتقلت الى بلادهم من الخارج .

ويقول « نلدكه » إن هؤلاء اليهود هم من أهالى البلاد العربية الذين اعتنقوا دين اليهودية ، وأنهم لم يكونوا مُزَوَّدين بمعلومات كافية فى التوحيد ولو أنهم كانوا شديدى التمسك بدينهم [١] . وقد انتشرت اليهودية ببلاد العرب قبل الاسلام بقرون ، وتكونت فيها مستعمرات يهودية ، وأشهرها يثرب ـ وهى التى سميت بعد بالمدينة ـ كما تكونت مستعمرات يهودية فى تَيْماء وفى فَدَك وفى خَيْبَر وفى وادى القُرَى وفى يثرب وهى أهمها . وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : بنى النَّضِير وبنى قَيْنُقَاع وبنى قُرَيْظَةَ [٢]

الحنيفية

وكان من بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها ، وذلك لاختلاطهم باليهود والمسيحيين ، ووجد من بينهم أناس دعوا إلى دين توحيد جديد له علاقة كبيرة أو قليلة بالمسيحية ، ودعوا إلى نبذ عبادة الأصنام والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ، وكانوا يعتقدون فى البعث بوجود إله واحد يحاسب ويجازى على أعمال الناس من خير وشر . ويطلق على هذه النزعة التحنف وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون .

وكان من هؤلاء أمية بن أبى الصلت الشاعر المعروف ، وكان

(١) Noeldeke, vol. VIII. p. 10.

(٢) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ٢٧

يؤمل أن يكون النبي المنتظر ؛ فلما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم حقد عليه. ومنهم ورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة الإيادى، وكان أشهر قضاة العرب وفصحائهم وخطبائهم. وقد سمعه الرسول صلى الله عليه وسلم يخطب بسوق عكاظ على جمل له يحث العرب على ترك العادات العربية المرذولة ويبشرهم ببعث الرسول. وقد قال فيه الرسول « يرحم الله قسا! إنى لأرجو أن يُبعث يوم القيامة أمة وحده » (١)

وقد وجد بينهم من أخذ الزندقة عن الحيرة وقالوا بإله النور والظلمة أو إله الخير والشر، كما وجد بينهم صابئة وعبدة للنجوم ومجوس.

الحالة الدينية عند ميلاد الرسول

وعلى الجملة، فانه لما ولد الرسول صلى الله عليه وسلم، أخذت الوثنية لدى العرب فى الضعف، وأخذ البعض منهم يعتقدون بالحياة الآخرة، وانتشرت المسيحية فى بلاد العرب. وكان لليهودية أشياع كثيرون، فضلا عن أنها ساعدت تلك العقيدة القائلة بالتوحيد.

ولم يُقدَّر لأى دين من هذه الأديان الخارجية الفوز والغلبة فى بلاد العرب. فقد كانت المسيحية إذ ذاك مذهباً مُعقّداً تعددت فيه الفرق واختلفت، وكانت اليهودية دين الشعب المختار الذى لم يقبل العرب على أنفسهم أن يضحوا له باستقلالهم، كما ضعف مذهب التوحيد لما لاقاه من المعارضة من العناصر المقتبسة من دين زرادشت (Zoroaster). ومع ذلك فقد مهدت المذاهب والأفكار والآراء المسيحية واليهودية والفارسية الطريق لظهور المصلح المنتظر ألا وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) راجع خطبة قس بن ساعدة فى صبح الاعشى ج ١ ص ٢١٢ وما كتبه ولهوزن Wellhausen عن ديانة العرب فى كتابه Reste Arabischen Heidenthums, vol. II.

الباب الثاني

البعثـــة النبوية

الرسول منذ ولد الى أن بعث :

مولد الرسول

ولد الرسول فى ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ م كما تروى لنا الروايات العربية [١] ، وهى السنة المعروفة بعام الفيل ، من أبوين فقيرين فى مالهما غنيين فى جاههما وحسبهما . وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب . وكان لأولاد هاشم الإشراف على بئر زمزم . وقد مات أبوه قبل أن يولد ، فكفله جده عبد المطلب ، فلما مات كفله عمه أبو طالب من بعده ، وعُهد به وهو صغير لامرأة بدوية تسمى حليمة كما هى عادة أبناء الأشراف من قريش ، فنشأ الطفل فى جو بدوى يتكلم بلغتهم الفصيحة . وتوفيت أمه آمنة وهو فى السادسة من عمره ، ولم يكن له من الميراث إلا القليل .

نشأته

وقد اضطر الرسول أن يرعى الغنم لحساب غيره على تلال مكة (وكان يرعى الغنم وهو طفل فى البادية مع اخوته من الرضاع) . وكان لهذه الحرفة أثر كبير فى نفسه ، إذ أنها ولدت فى قلبه الرأفة والرحمة ولين الجانب وغيرها من الصفات الحميدة .

اشتغاله بالتجارة

وقد ذهب عليه الصلاة والسلام بالتجارة إلى بلاد اليمن والشام .[٢] والتجارة — كما لا يخفى — تربى فى التاجر صفات حربية لا تقل عن صفات القائد فى الجيش ، إذ يحتاج التاجر المسافر فى القافلة لحراسة

---

(١) هذا ما ذكره المرحوم محمود باشا الفلكى وهو أن ولادة الرسول كانت فى صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الاول الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ م

(٢) سافر الرسول التجارة الى الشام أكثر من مرة . فذهب به عمه أبو طالب الى بصرى وهو فى الثانية عشرة من العمر ، وهناك لمح فيه راهب اسمه بحيرا علامات النبوة بعد أن سأله عن أمور فى نومه ويقظته ، ورأى فى بدنه علامات النبوة على ما فى كتب النصارى ، وصنع له ولمن من معه طعاماً أكراماً له . وقد سافر الرسول الى الشام وهو فى الخامسة والعشرين مع ميسرة غلام السيدة خديجة ، فربحت التجارة وأخبر راهب اسمه نسطورا الرسول بأنه نبى .

بضاعته والذَّود عنها اذا هجم عليه بعض الأعراب . كذلك ينبغى أن تكون عند التاجر المهارة الكافية ليستطيع أن يبيع بضاعته بأسهل الطرق ويشترى غيرها بأرخص الأثمان .

زواجه بالسيدة خديجة

وقد أدى اشتغاله بالتجارة ، وما عرف عنه من الصدق والأمانة اللتين كانتا شعاراً له منذ نعومة أظفاره ، إلى معرفته بالسيدة خديجة بنت خويلد ، وهى سيدة موسرة كانت تُدعى فى الجاهلية الطاهرة وسيدة قريش ، فأنفذته فى تجارة لها الى الشام ، فربحت هذه التجارة ضعف ما كانت تربح من قبل ، فضاعفت له الأجر وخطبته لنفسها وهو فى سن الخامسة والعشرين وهى أرملة فى سن الأربعين . وقد دفع صداقه عمه أبو طالب [١] ، وخطب خطبة — شهدها حمزة بن عبدالمطلب عم الرسول — أبان فيها ماعليه محمد من الفضل والنبل على الرغم من قلة ماله فقال : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وبلداً حراماً ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمداً بن عبدالله ابن أخى مَنْ لايُوازن به فتى من قريش، الأرجح [٢] عليه براً وفضلا ، وكرماً وعقلا ومجداً ونبلا [٣]؛ وإن كان المال قُلٌّ [٤] فانما المال ظلٌّ زائل وعارية [٥] مُسْتَرْجَعَة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق [٦] فعلىَّ » .
وقد أعقب الرسول منها ستة أطفال منهم فاطمة التى تزوجت فيما بعد بعلى بن أبى طالب .

الرسول فى الخامسة والثلاثين

ولما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين جددت قريش بناء الكعبة

---

(١) كان المزوج لها عمها عمرو بن أسد ، والمزوج له بها عمه أبو طالب ، والسفير بين خديجة والرسول نفيسه بنت منيه . وكان الصداق اثنتى عشرة أوقية ونصف أوقية (والاوقية أربعون درهما) .

(٢) فاق (٣) ذكاء (٤) قلة (٥) ماتداول الناس بينهم (٦) المهر

لتصدع جدرانها . وكان الرسول ينقل الحجارة مع القرشيين . وقد اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود مكانه ، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل من باب شيبة (١) ، فكان الرسول أول من دخل منه فقالوا : هذا هو الأمين رضيناه حكما ، وأخبروه الخبر فبسط رداءه ووضع الحجر فيه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. فرفعوه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه الرسول ووضعه فى مكانه . وبذلك أرضاهم جميعاً .

أخلاق الرسول

وكان الرسول على جانب عظيم من حسن الخلق . وقد اشتهر بين قومه بالمروءة والوفاء بالعهد وحسن الجوار والحلم ، والعفة والتواضع والجود والشجاعة والصدق والأمانة ، حتى سموه الأمين . وكان يكره عبادة الأوثان فلم يحضر مواسم الحج . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما يُذبح على النُّصُب (٢) ، ولا يحضر مجالس اللهو والسمر .

التبشير بنبوته

وقد عصمه الله قبل النبوة وبعدها . وبشرت بنبوته التوراة والانجيل كما تنبأ الرهبان والكهان بقرب بعثه ، وكثرت بذلك الأخبار حتى سمى بعض العرب أولادهم باسم محمد عسى أن يكون هو النبى المنتظر . وقد قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام (إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَد)

وكانت حياة الرسول قبل النبوة على حد قوله تعالى(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) . وقد يكون المقصود بالضلال الحيرة وعدم الرضا عن الوثنية .

---

(١) وكان يقال له فى الجاهلية باب عبد شمس ؛ ويقال له باب السلام الآن

(٢) وهى حجارة تنصب وتصب عليها دماء الذبائح وتعبد .

دين الحنيفية

وقد أجمع المؤرخون وأصحاب السيرة على أن الرسول ما كان يأنس لهذا النوع من الديانات. فقد كان يخلو بنفسه ويأخذ فى التفكير حتى كانت نفسه منذ نعومة أظفاره تميل الى الآراء والمذاهب الدينية، واستمر كذلك حتى اعتنق دين الحنيفية وهو دين ابراهيم الذى كان يدين به كثيرون من العرب الذين تنبهت عقولهم الى انحطاط الوثنية من أمثال قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى وأمية بن أبى الصّلت.

ويظن بعض المستشرقين أنه أخذ الكثير عن الآراء اليهودية والمسيحية. ولكن ذلك لم يتجاوز المشافهة بتلك التعاليم والقواعد.

البعثة :

غار حراء

وقد آثر الرسول العزلة وألف النسك والعبادة. فكان يتعبد فى غار حراء [١]، وأخذ يتأمل فى عجائب الكون، ويفكر فى البعث والحساب والجنة والنار. فاذا فرغ ما معه من الزاد عاد الى خديجة.

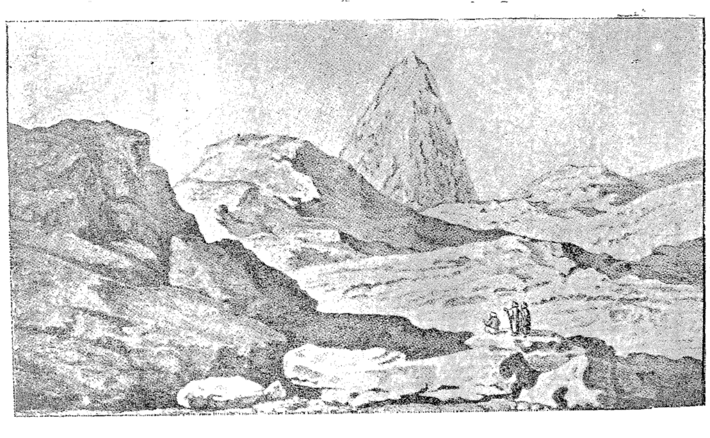
بدء الوحى

وكان أول ما بُدىء به الوحى الرؤيا الصالحة. وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. وبقى الرسول على ذلك ستة أشهر حتى بلغ الأربعين من عمره، فنزل عليه الوحى يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، فرأى جبريل الذى ظهر أمامه وقال له: اقرأ! فقال: ما أنا بقارىء [٢]، فضمّه ضمة قوية حتى بلغ منه الجهد وقال له: إقرأ! فقال: ما أنا بقارىء. فضمه كذلك ثم أطلقه وقال له: « إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » فكانت هذه الآية أول ما نزل من القرآن.

---

(١) وهو جبل على مقربة من مكة.

(٢) لان الرسول كان أميا لا يقرأ ولا يكتب.



جبـــل حـــراء

ولما كان الرسول يصدق سمعه اعتقد أنه مكلف من قبل الله سبحانه وتعالى برسالة الى هذا العالم يعلمه الحقيقة الخالدة ، وهى أنه ليس هناك إلا إله واحد نبيه محمد الذى يدبر ويراقب أعمال الانسان ، ويعاقب ويجازى الطيبين والأشرار بعد الموت كل بمقدار عمله .

وسرعان ما عاد الرسول الى خديجة وهو يرتجف مما أصابه فقال : زمّلونى زمّلونى[1] ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، وأخبر خديجة بما رأى وقال : قد خشيت على نفسى[2] ، فقالت : كلا والله ما يخزيك الله أبداً . ثم انطلقت به الى ابن عمها ورقة بن نوفل ـ وكان شيخاً كبيراً يحفظ الانجيل ـ فقالت له : يا ابن العم ! إسمع من ابن أخيك . فأخبره عليه الصلاة والسلام بما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس[3] الذى نزل على موسى ، ثم قال : يا ليتنى كنت فيها جذعا[4] إذ يخرجك قومك . فقال الرسول : أوَمُخرِجىَّ هم ؟ فقال ورقة : لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودى ، وإن يدركنى يومى أنصرك نصراً مؤزّراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفى .

وعاود الرسول الذهاب الى غار حراء مدة . وقد سمع ذات يوم صوتا من السماء ، فرفع اليه بصره فاذا الملك الذى جاءه أولا بين السماء والأرض ؛ فرجع الى داره وقال : دثّرونى دثّرونى ! فنزل قوله تعالى (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ، وهذا هو بدء رسالته صلى الله عليه وسلم .

دعوة الافراد

اعتنق هذا الدين البسيط السامى أول الأمر الأفراد المتصلون

---

(١) أى لفونى فى ثياب (٢) من شدة ما لاقاه من الملك (٣) أى ملك الوحى

(٤) اى شابا قويا

بالرسول كزوجه خديجة ، وابن عمه على بن أبى طالب ؛ وكان فى كفالة الرسول لأن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال ، فكفل العباس جعفراً والرسول علياً ، وأسلم من الموالى زيد بن حارثة الكلبى الذى وهبته السيدة خديجة الى الرسول فأعتقه وتبناه ، فكان يقال له زيد بن محمد الى أن نزل قوله تعالى (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ) فدعوه زيد ابن حارثة .(١)

ولكن الأمر لم يقتصر على أقاربه ومواليه ، بل تعداهم الى بعض رجالات قريش كأبى بكر الصديق الذى اتصف بصفات قل أن تجتمع فى شخص . فقد كان ثرياً عالماً بقريش وأنسابها ، وكان لإسلامه أثر كبير ، فقد أسلم على يديه رجال عظماء منهم عثمان بن عفان وكان لا يتجاوز العشرين من العمر ، والزبير بن العوام وقد بلغ الحلم ، وسعد ابن أبى وقاص وعبدالرحمن بن عوف (٢) ، وكان اسمه عبد عمرو فسماه الرسول بهذا الاسم ، وطلحة بن عبيدالله . وتلا هؤلاء رجال من أفذاذ قريش كأبى عبيدة بن الجراح والأرقم بن أبى الأرقم الذى اتخذت داره مركزاً لبث الدعوة سراً الى الاسلام ، ولا تزال بمكة الى اليوم .

ولم تقتصر الدعوة على هؤلاء ، بل أسلم رجال يلون من سبقوا فى الرتبة ، وسميت هذه الدعوة بدعوة الأفراد ، لأن الرسول كان يدعو كلا من هؤلاء على انفراد ، وقد سموا السابقين الأولين ، كما سمى من أسلم بعدهم المستضعفين .

---

(١) وقد قيل إن اول من آمن بالرسول من الموالى بلال الحبشى ، وآمنت به أيضا أم بركة الحبشية .

(٢) لما علمت أمه بإسلامه قالت له : والله لا يظلنى سقف من الحر والبرد ، وأن الطعام والشراب على حرام حتى تكفر .

وكان مشركو قريش يسومون المستضعفين من المسلمين سوء العذاب .

٣ ـ الجهر بالدعوة :

ظل الرسول ثلاث سنين يدعو الى الاسلام سراً كل من يثق فيه ويطمئن الى استعداده النفسى لقبول مبادئه . وكان هو وأصحابه فى تلك الفترة يستخفون من قريش فى صلاتهم وفى الدعوة الى هذا الدين . وكان المشركون كلما رأوهم فى صلاتهم ناكروهم وسخروا منهم ومن عبادتهم .

حتى اذا كثر المسلمون وخافت قريش تزايدهم قعدت لهم بكل طريق تصد الناس عن دعوتهم وتحقر من شأنهم وتستهزىء بهم . ولكن الرسول أمر على رأس ثلاث سنين بالجهر بالدعوة وعدم المبالاة بمـــا نصب له المعارضون المستهزئون (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) ، وقال تعالى (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)

صدع الرسول بأمر ربه وأخذ يفكر فيما يُحدِّثُ به قريشا ، ويستشير ذلك النفر القليل الذين آمنوا به وصدقوه . ثم دعا الرسول بنى عبد المطلب الى طعام صنعه علىّ بن أبى طالب ، وتكلم الرسول فقال : يا بنى عبد المطلب ! إنى والله ما أعلم شابا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، [1] ودعا بطون قريش من فوق جبل الصفا بظاهر مكة .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢١٧

فلما اجتمعت إليه قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مُصدِّقىَّ ؟ قالوا نعم ! ما جرَّبنا عليك كذبا . فقال (إنّى نَذِيرٌ لكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) ، فقال أبو لهب : تبّاً لك ! ألهذا جمعتَنا ؟ فأنزل الله تعالى فى أبى لهب وزَوْجه [1] قوله (تَبَّتْ يَدا أبى لَهَبٍ وتَبّْ . ما أغْنَى عَنْهُ مالُهُ وما كَسَبْ . سَيَصْلَى ناراً ذاتَ لَهَبْ ، وامْرَأتُهُ حَمَّالَةَ الحَطبْ فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدْ)

(ا) مناوأة قريش للدعوة :

وهنا بدأت عداوة قريش تظهر ظهوراً جلياً ، لأن الرسول لو قصر كلامه على تطهير النفس وإصلاح الأخلاق لما أثارت دعوته شيئاً من المقاومة أو المعارضة التى لقيها . ولكن جهره بالدعوة الى وحدانية الله ، ودعوته الى تلك الوحدانية فى كل مكان ، وغضّه من شأن الأوثان التى كان مجرد وجودها بالكعبة مصدر ثراء قريش : كل ذلك جعلهم يخشون القضاء على عبادة الأوثان التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ؛ فناصبته قريش العداء وأجمعوا على خلافه والوقوف فى سبيل دعوته ، وإيذاء أتباعه ليفتنوهم عن دينهم ، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانا .

---

(١) كان أبو لهب من أعمام الرسول ، ولكنه كان من أشد الناس عداوة له وأحرصهم على إيذائه . وقد يكون السبب فى ذلك أنه كان متزوجا بأم جميل بنت حرب بن أمية وأخت أبى سفيان بن حرب . وكانت هى الاخرى معادية للرسول تسىء اليه بالقول والفعل . فقد روى أنها كانت تجلس فى مجتمعات النساء وتقوم بدعاية سيئة ضده وضد ما يدعو اليه . كما روى أنها كانت تطرح الشوك فى طريق الرسول لذا سار . وقد سماها القرآن حمالة الحطب . قال البيضاوى « يعنى حطب جهنم ، فانها كانت تحمل الاوزار بمعاداة الرسول ، وتحمل زوجها على إيذائه ، أو النميمة ، فانها كانت توقد نار الخصومة أو حزمة الشوك أو الحسك التى كانت تحملها فتنثرها بالليل فى طريق رسول الله » (تفسير البيضاوى ـ سورة اللهب رقم ١١١) .

إيذاء المسلمين

وقد روى ابن اسحق عن عبدالله بن عباس أن المشركين كانوا يضربون المسلم ويجيعونه ويعطشونه حتى كان لا يقدر على الجلوس من شدة الضرب ، ليرتد عن دينه ويقول آمنت باللات والعزى . وكان بعض المسلمين يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالايمان فرارا من أذاهم . وقد فرق الله بين هؤلاء وبين من ارتد عن الاسلام وانشرح صدره للكفر بقوله (إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالايمان) [١]

تعذيب عمار بن ياسر

ويقول ابن الأثير[٢] إن مشركى قريش كانوا يخرجون عمار بن ياسر وأباه وأمه الى الأبطح[٣] إذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرها ، فيمر بهم الرسول فيقول « صبرا آل ياسر موعدكم الجنة » . وكان أبو جهل [٤] إذا سمع باسلام رجل من ذوى الشرف أنبَّه وقال : « تركتَ دين أبيك وهو خير منك . لنُسَفِّهَنَّ حلمك ، ولنُفيِّلَنَّ [٥] رأيك ، ولنضعن شرفك » ، وإن كان تاجرا قال والله لنكسدنَّ تجارتك ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به . ولما مات ياسر من العذاب ، أغلظت امرأته سمية القول لأبى جهل فطعنها بحربة فماتت . وهى

اول شهيدة فى الاسلام

أول شهيدة فى الإسلام . ثم أمعن المشركون فى تعذيب ابنه عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر على صدره تارة ، ثم بالتغريق تارة أخرى .

بلال

وهذا بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان خلفُ الجُمَحِي من مشركى قريش يلقيه فى الرمضاء على وجهه وظهره إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ، ثم يأمر بالصَّخْرَة الكبيرة فتُلقى على

---

(١) سورة النحل ١٦ : ١٠٦

(٢) ج ٢ ص ٣٠ (٣) الرمل المنبسط على وجه الارض . وهو مكان بين مكة ومنى . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت (٤) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١ (٥) قوله لنفيلن رأيك أى لنقبحنه ولنخطئنه .

صدره ، ويقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يقول : أحد أحد ! فيقول ورقة : أحد أحد والله يابلال . ولم يزل على هذا العذاب حتى اشتراه أبو بكر واعتقه .

خباب بن الارت

أما خباب بن الأرت فقد عذبه الكفار عذابا شديداً ، إذ كانوا يوثقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف[1] ؛ فلم يزده ذلك إلا تمسكا بالإسلام وإخلاصاً له . وقد هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد معه المشاهد كلها .

تعذيب النساء

ولم يقتصر تعذيب قريش المسلمين على الرجال ، بل تعداهم إلى النساء ؛ فقد أسلمت لبينة جارية مؤامل بن عدى قبل إسلام عمر بن الخطاب ؛ فكان عمر يمعن فى تعذيبها حتى يمل ، ثم يدعها ويقول : إنى لم أدعك إلا سآمة . ولم تزل فى هذا العذاب حتى اشتراها أبو بكر وأعتقها[2] .

(ب) حماية أبى طالب للرسول :

ولم تفعل قريش بالرسول أول الأمر ما فعلت بالمسلمين الذين اتبعوه نظراً لمكانة عمه أبى طالب وشرفه وجاهه فيهم .

وقد عطف أبو طالب على الرسول ومنعه وحماه ، فمضى رسول الله على أمر الله مظهرا لدينه لا يرده عن ذلك شىء . فلما رأت قريش منه الجد فى الدعوة ، وسكوت أبى طالب عنه وعدم نهيه عن ذلك الذى يقوله عن آلهتهم وآبائهم ونظمهم ، خشيت أن يتفاقم شره ويعظم أمره .

---

(١) الحجارة المحماة بالنار

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠ — ٣٢

فمشى رجال من أشرافها إلى أبى طالب فقالوا : يا أباطالب ! إن ابن اخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه — فانك على مانحن عليه من خلافه — فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلا، فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو اليه . ثم اشتد الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال ودبت العداوة والبغضاء بين أفراد الأسرة الواحدة ، فمشوا الى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ! إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنته عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

ملاينة أبى طالب لقريش

تهديد قريش أبا طالب

ثم انصرفت قريش عن أبى طالب ، فعظم عليه تحدى قومه له وفراقهم إياه وعداوتهم له ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ولا خذلانه ، وبعث الى رسول الله فقال له : ياابن أخى ! إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فابق علىّ وعلى نفسك ولا تُحَمِّلْنى من الأمر مالا أطيق . فظن رسول الله أن عمه يريد أن يخذله وأنه قد ضعُف عن نصرته والقيام معه ؛ فقال رسول الله : ياعم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته ؛ ثم استعبر فبكى ، ثم قام . فلما ولىّ ناداه أبو طالب فقال : أقبل ياابن أخى ! فأقبل رسول الله ، فقال : اذهب ياابن أخى فقُلْ ماأحببتَ ، فوالله لاأسلمك لشىء أبدا . وبذلك أظهر أبو طالب الجد فى نصرة الرسول .

عرض أبى طالب الامر على الرسول

إصرار الرسول ورفق أبى طالب به

فلما رأت قريش أن أباطالب قد أبى خذلان رسول الله ، وأنه قد آثر فراقهم وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

قريش تساوم اباطالب فى الرسول

ياأباطالب! هذا عمارة بن الوليد أنهدُ فتىً في قريش وأجمله، فخُذه فلك عقله ونصْره واتّخِذه ولدا فهو لك، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل. قال والله لبئس ماتسومونني! أتعْطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله مالا يكون أبدا. فقال المطعم بن عَدِيّ بن نوفل بن عبد مناف بن قُصَي: والله ياأباطالب لقد أنصَفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا. فقال أبو طالب للمطعم: والله ماأنصَفوني، ولكنك قد أجمعتَ خذلاني ومظاهرة القوم عليّ فاصنع مابدا لك. واشتد الجدال وتنابذ الفريقان. فخرجت قريش من عند أبي طالب وقد أجمعت على التنكيل بمحمد وأتباعه ليحولوا دون انتشار دعوته؛ فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب.

بدء النضال

وقد قام أبو طالب في بني هاشم وبني المطلب حين رأى صنيع قريش بالمسلمين فدعاهم الى ماهو عليه من مَنْع رسول الله والقيام دونه، فاجتمعوا اليه وقاموا معه وأجابوه إلى مادعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب. فلما رأى أبو طالب من قومه ماسره، جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم فقال:

بنو هاشم والمطلب ينصر الرسول

إذا اجْتمعَتْ يوْماً قُرَيشٌ لِمَفْخَرٍ ... فعَبْدُ مَنافٍ سِرُّها وصَمِيمُها

فإنْ حَصلَتْ أنسابُ عَبْدِمَنافِها ... ففي هاشمٍ أشرافُها وقديمُها

وإنْ فَخرَتْ يَوْماً فإنّ مُحمّدًا ... هو المصْطَفَى من سِرّها وكَرِيمُها

تداعَتْ قُرَيْشٌ غثُّها وسَمينُها ... علينا فلم تَظْفرْ وطاشت حُلومُها

وكُنّا قديماً لا نُقِرُّ ظُلامَةً ... إذا ماثَنَوْا صُعْرَ الخُدود نُقيمُها

وَنَحْمِى حِمَاها كلَّ يومٍ كَرِيهةٍ ... وَنَضْرِبُ عن أحجارِها من يَرُومُها
بنا انْتَعَشَ العودُ الذواء وإنَّما ... بأكْنافِنا تَنْدَى وتَنْمِى أُرومُها(١)

كيد قريش للدعوة

وقد خشيت قريش أن يستميل الرسول الحجاج الذين كانوا يفدون على مكة فى الحج ، وتشاوروا فيما بينهم للقضاء على الدعوة الاسلامية وهى لاتزال فى مهدها . واجتمع الى الوليد بن المغيرة نفر من قريش وقد حضر الموسم ، وكان الوليد ذا سن وشرف فقال لهم : يامعشر قريش ! إنه قد حضر هـذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيـه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هـذا ؛ فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذِّب بعضُكم بعضاً وَيَرُدّ قولكم بعضُه بعضا . قالوا : فأنت ياأبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقل به . قال : بل أنتم فقولوا اسمعْ . قالوا : نقول كاهن . قال : والله ماهو بكاهن . لقد رأينا

الفضل ماشهدت به الاعداء

الكهان فما هو بزَمْزَمَة الكاهن ولا سَجْعه . قالوا : فنقول مجنون . قال ماهو بمجنونَ . لقد رأينا الجنون وعَرَفناه ، فما هو بخَنْقِه ولا تَخالُجِه ولا وسْوَستِه . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر ؛ لقد عرفنا الشعر كلَّهُ رجزه وهَزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ماهو بساحر ؛ لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم ، فما هو بنَفْثهم ولا عُقَدِهم . قالوا : فما نقول ياأباعبد شمس ؟ قال : والله انَّ لقوله لحلاوةً وإنَّ أصله لعزْقٌ ، وإنَّ فرعه لجَناهُ ، وما أنتم بقائلين من هـذا شيئا إلا عُرِف أنه باطل . وانَّ أقْرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقوله ، هو سحر يُفَرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوْجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنـه وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره (٢)

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٧

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨

وقد روى البيضاوى أن المغيرة هـذا قد مر بالرسول وهو يقرأ السَّجْدَة (١) ، فأتى قومه وقال : لقد سمعتُ من محمد آنفا كلاماً ماهو من كلام الانس والجن . إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوةً ، وإن أعلاه لمُثمِر ، وإن أسفله لمُغدِق ، وإنه ليعلو ولا يُعلى . فقالت قريش : صبأ الوليد . فقال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه . فقعد إليه حزينا وكلمه بمـا أحماه ، فقام فناداهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون إنه كاهن ، فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً ؟ فقالوا : لا ! فقال : ماهو إلا ساحر . أما رأيتموه يُفرِّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ ففرحوا بقوله وتفرقوا عنه متعجبين منه . وقد نعى القرآن ذلك على الوليد بقوله (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ، ثم يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ إِنَّهُ كانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا) (٢)

يقول ابن هشام (٣) : « فجعل أولئـك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا من الناس . وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها . فلما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه ، قال قصيدته التى تعوَّذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودَّد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى ذلك من شـعره ، إنه غير مُسْلِمٍ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ولا تاركه لشىء أبدا حتى

دور العمل

---

(١) سورة السجدة أو فصلت رقم ٤١

(٢) تفسير البيضاوى ، سورة المدثر ٧٤ : ١١ — ١٦

(٣) ج ١ ص ٢٤٩

يهلك دونه ، فلجأوا إلى تعذيب المسلمين عن طريق السفهاء . وهاك بعض أبيات من هذه القصيدة :

ولما رأيتُ القومَ لا وُدَّ فيهمُ * وقد قطعوا كلَّ العُرى والوَسائل

وقد صارَحُونا بالعَداوة والأذى * وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قومًا علينا أظِنَّةً * يَعَضُّون غَيْظًا خَلْفَنَا بالأنامل

صَبَرْتُ لهم نفسى بسمراء سَمْحَة

وأبيضَ عَضْبٍ من تُراثِ المقاول

وأحْضَرْتُ عند البيتِ رَهْطى وإخوتى

وأمْسَكْتُ من أثوابه بالوصائل [1]

هجرة المسلمين الى الحبشة :

لماذا لم يفكر الرسول فى غير الحبشة ؟

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد ؛ وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

ملك الحبشة لا يظلم عنده أحد

ولم يفكر الرسول فى هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية ، لأنها كانت ترفض دعوته فى مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا بدينها الوثنى . كذلك لم يفكر فى الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين فى يثرب ونجران وغيرهما ؛ لأن كلاًّ من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها فى النفوذ الأدبى ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا تقبلان منافسًا ثالثًا خصوصًا إذا كان من العرب أنفسهم الذين يحتقرونهم ويقولون عنهم « لا علينا فى الأميين من سبيل » [2] . أما اليمن — وهى مستعمرة للفرس الذين

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٩

(٢) وقد بدأ هذا الشعور منهم واضحا عند ما هاجر الرسول الى المدينة اذ ائتمروا به مرات وجادلوه غير مخلصين حتى وصل بهم الامر الى أن قالوا لقريش « لدينكم أفضل من دينه »

لم يدينوا بدين سماوى — فلم يطمئن الرسول إلى الالتجاء اليها . وقد برهنت الأيام على بعد نظره . فقد كتب كسرى [١] إلى « باذان » عامله على بلاد اليمن : « ابعث إلى هـذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جَلْدَين من عندك فليأتيانى به »

وكذلك كان شأن الحيرة التى كانت إلى ذلك الحين بعيدة غاية البعد عن مكة[٢]. أما الشام فهى بعيدة كذلك فضلا عما كان يسودها هى والحيرة إذ ذاك من اضطراب . ثم إن كلا من الشام واليمن والحيرة كانت أسواقًا هامة لتجارة قريش ، ولقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات فى أوقات منتظمة . فإذا علمت قريش بوجودهم فى بلد منها ، فإنها تطلب إلى أهل ذلك البلد أن يردهم اليها ويخرجوهم ، كما حاولت ذلك مع النجاشى لولا تسامحه وقوة خلقه .

لذلك اتجه الرسول إلى بلاد الحبشة لما كان يعهده عن ملكها من العدل والتسامح . وفى ذلك يقول الرسول للمسلمين « فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد وهى أرض صدق . . . الخ » . وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان ؛ وكلهم من بطون قريش . وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عُمَيس ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه خالد بن سعيد ابن العاص . وقد اكرمهم النجاشى وأمنهم على حياتهم ، وأصبحوا فى رغد من العيش .

المهاجرون إلى الحبشة

(١) كان ذلك عند ما وصل اليه كتاب الرسول يدعوه الى الاسلام وترك المجوسية ، فغضب ومزق الكتاب وأهان حامله ، ثم كتب الى باذان ليحمل اليه هذا النبى على ما سيأتى مفصلا فى دعوى عموم الرسالة . (٢) ولا يخفى استحالة الهجرة الى مكان قصى كالحيرة والشام على أولئك اللاجئين الذين كانوا يخرجون من مكة فقراء متخفين من قريش لئلا تحول بينهم و بين الخروج .

محاولة قريش إخراجهم

« فلما رأى أهل قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ، ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشى ليخرجهم من بلاده . فبعثوا عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص[1] . ويقال إنه كان معهما معاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة .

رسل قريش إلى النجاشى

سار عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص إلى النجاشى ومعهما الهدايا ، وطلبا مقابلته ثم قالا له : « أيها الملك ! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ؟ وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ؛ فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه » . فقالت بطارقة النجاشى : أيها الملك ! قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم(٢) .

وكان النجاشى بعيد النظر ، فطلب هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم ؛ فتقدم جعفر بن أبى طالب ووصف له حالة العرب قبل الاسلام وبعده ، وشرح له أن دعوة الرسول ترمى الى ترك الأوثان وعبادة الله والتخلق بمكارم الأخلاق . فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شىء ؟ فقال جعفر . نعم ! قال . فاقرأه علىّ ! فقرأ جعفر عليه صدرا من كهيعص (سورة مريم — وفيها حديث ميلاد المسيح) فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكى اساقفته حتى ابتلت مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٢

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٣ — ٣٠٤

عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما [١] . »

عمرو بن العاص يكيد للمهاجرين

ولما خرجا قال عمرو بن العاص : « والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم ، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد » ، وطلب مقابلة النجاشي فى الغد وقال له : « أيها الملك ! إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم وسلهم عما يقولون فيه » . فطلب النجاشي المهاجرين مرة أخرى . فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم . هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . فقال النجاشي : والله ماعدا عيسى بن مريم ، ثم قال : اذهبوا فأنتم شيوم [٢] بأرضى ، من سبّكم غرم [٣] ، فانصرفوا . وقد رجع بعضهم إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة وأقام بعضهم فى الحبشة إلى السنة السابعة للهجرة .

اسلام عمر بن الخطاب :

وفى السنة الخامسة للدعوة أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ؛ وكان لإسلامه أثر يذكر فى ازدياد شوكة الإسلام ؛ إذ أبى إخفاء شعائره الدينية لاعتقاده أنه لم يكن بين القرشيين من يجرؤ على معارضته .

معارضة عمر للدعوة أول الامر

وكان عمر يعارض الدعوة الاسلامية معارضة شديدة فى مبدأ الأمر ؛ ولكنه ما لبث أن صار من أتباع الرسول المتفانين فى نشر الاسلام .

عوامل اسلام عمر

وإليك ما رواه ابن هشام (٤) عن إسلامه : خرج عمر يوما متوشحاً

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ (٢) آمنون

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٦

(٤) ج ١ ص ٣١١ — ٣١٤

بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم .... فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابىء الذى فرّق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله . فقال له نعيم والله لقد غرّتك نفسك ياعمر . أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ . قال : ختنك (١) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب . فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما . فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرتّ معه صحيفة فيها « طه » يُقرئها إياها . فلما سمعوا صوت عمر اختفى خباب فى البيت وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة . . . وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب . فلما دخل قال « ماهذه الهينمة التى سمعت » ؟ قالا له : ماسمعت شيئا . قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه » . وبطش بختنه سعيد بن زيد ؛ فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ! قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع مابدالك . فلما رأى عمر مابأخته من الدم ، ندم على ماصنع ، فارعوى وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ماهـذا الذى جاء به محمد . فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لاتخافى وحلف لهـا بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها ، فقالت له أخته : ياأخى ! إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » . . . فلما قرأمنها صدرا قال : ماأحسنَ هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خباب ، خرج إليه فقال له : ياعمر ! والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة

عمر يسمع القرآن

ما احسن هذا الكلام

(١) الختن كل من كان من قبل المرأة مثل الاب والأخ وجمعها أختان

نبيه . فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم ابن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله ياعمر . فقال له عند ذلك عمر : فدلنى ياخبابُ على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب . فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ؛ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا بالسيف ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال : يارسولَ الله ! هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : فأْذَنْ له ؛ فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه . فقال رسول الله : ائذن له ؛ فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله حتى لقيه بالحجرة ؛ فأخذ بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة وقال : ماجاء بك ياابنَ الخطاب ؟ فوالله ماأرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة . فقال عمر : يارسولَ الله ! جئتك لأومنَ بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . فكبَّر الرسول تكبيرة عرَف أهلُ البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم .

اسلام عمر

ولما وافق إسلام عمر إسلام حمزة اطمأن المؤمنون وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله وينصفانه من عدوه .

مقاطعة قريش بنى هاشم وبنى عبد المطلب

ولما رأت قريش أن مكائدهم التى دبروها للرسول قد فشلت أجمعوا أمرهم على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملوا مع هذين البيتين ؛ فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم من أنفسهم ولا يتجرون معهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ليقتلوه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا لا يصل اليهم شىء إلا سراً مستخفياً ممن أراد صلتهم من قريش [1] »

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٦٩

وقد رثى بعض القرشيين لحال بنى هاشم وبنى المطلب وتعاقدوا على نقض الصحيفة وإخراجهم من الشعب . وكان من بينهم زُهير بن أمية بن عاتكة عمة رسول الله . فقد حرض قومه على الخروج على الصحيفة وقال لهم : يا أهل مكة ! أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة » . فعارضه أبو جهل ، فقام المطعم بن عَدِى – وكان من سادات قريش من بيت نوفل بن عبد مناف – إلى الصحيفة فشقها ؛ وبذلك نقضوا هذه الصحيفة ، فعاد بنو هاشم والمطلب إلى مساكنهم بعد ما ذاقوه من العذاب [1] . وقد روى أن المطعم بن عدى حين قام ليشق الصحيفة وجـد أن الأرضة قد أتت على جميع ما فيها من الكتابة ما عدا اسم الله عز وجل .

وفاة أبى طالب وخديجة

كان الرسول فى ذلك الوقت يجد فى نشر الدعوة الإسلامية . وكان أهل بيته ، مسلمهم وكافرهم ، ينصرونه على الرغم مما لاقوه من الشدائد والأهوال . وما وافت السنة العاشرة من نزول الوحى حتى أصيب الرسول بوفاة عمه وحاميه أبى طالب . وقد مات أبو طالب على الكفر رغم تصديقه لرسول الله ونصرته مخافة العار وخشية المسبة لترك ما كان عليه آباؤه . وقد أثر عن العباس أنه سمع أبا طالب يحرك شفتيه بالشهادتين وهو على فراش الموت ، كما أثر عن أبى طالب قوله :

ودَعَوْتنى وعَلِمتُ أنك صادقٌ ولقد صَدَقْتَ وكُنْتَ ثَمَّ أمينا
ولقد عَلِمْتُ بأن دينَ محمَّدٍ من خير أديانِ البريَّةِ دينا
والله لن يَصِلوا إليكَ بجمعِهِمْ حتّى أوسَّدَ فى التّرابِ دفينا [2]

ثم ماتت خديجة بعد أبى طالب . وكان موتهما قبل الهجرة بنحو

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٧

(٢) ابن الفداء ج ١ ص ١٢٠

ثلاث سنين . وقد فقد الرسول بذلك نصيرين كبيرين ، وأصبح بقاؤه بمكة محفوفا بالمخاطر . يقول أبو الفداء : « وتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بموتهما المصائب . ونالت منه قريش ، خصوصاً أبو لهب بن عبد المطلب ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبى مُعَيْط ابن أبى عمرو بن أمية ، فانهم كانوا جيران النبى صلى الله عليه وسلم . وكانوا يؤذونه بما يُلقُون عليه وقت صلاته وفى طعامه من القاذورات » . (١)

الهجرة : عوامل الهجرة :

اشتداد ايذاء قريش للرسول

ولما اشتد أذى قريش لرسول الله بعد وفاة عمه سافر إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة ، فدعاها الى الاسلام ، فلم يلق منهم أذنا مصغية ، بل قابلوا دعوته بالاستهزاء « وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه الى حائط » ، فعاد الى مكة ولم يتمكن من دخولها إذ علمت قريش أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهلها عليهم . فطلب الرسول حماية المطعم بن عَدِىّ فتسلح مع بنيه ودخلوا معه عليه الصلاة والسلام الحرم حيث طاف وصلى ولم يصبه أحد بسوء . ثم عاود الرسول نشر الاسلام بين أهل مكة .

عرض الرسول نفسه على القبائل

وكان كل اعتماده فى نشر الدعوة على زمن الحج . فكان يعرض نفسه على القبائل فى مواسم الحج ويدعوهم الى الله وعمه أبو لهب ينادى : « إنما يدعوكم إلى أن تَسلخوا اللاتَ والعُزّى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » (٢) . وكان بعض الحجاج يرفض دعوته ، وبعضهم يرد عليه رداً قبيحاً .

---

(١) أبو الفداء ج ١ ص ١٢٠ (٢) شرحه ج ١ ص ١٢٢ — ١٢٣

ترحيب أهل يثرب بدعوة الرسول

ولقد وجدت دعوة الرسول مرعى خصيباً عند أهل يثرب الذين يُظن أنه قد وصل الى علمهم ما كان بين المسلمين وكفار قريش فى مكة من نزاع أدى الى هجرة جماعة من المسلمين ونجاتهم بعقيدتهم الى بلاد الحبشة ، كما يغلب على الظن أنهم علموا باسلام رجال من بطون قريش المختلفة ومن القبائل الأخرى ، كما علم غيرهم من العرب بذلك وهم على اتصال بمكة عن طريق من كانوا يفدون من أهلها على مكة للحج ، وعلى الأخص عن طريق ذلك الوفد الذى أرسلته الأوس سنة ١٠ ه لمفاوضة قريش فى النزول بجوارهم بمكة أو محالفتهم الخزرج . فان الرسول انتهز فرصة وجودهم ودعاهم الى الإسلام ، فأسلم بعضهم وأعرض البعض الآخر .

علمهم بظهور الاسلام

قوة بأسهم فى الحروب

وكان أهل المدينة شعبا قويا صُلْب العود . ولا غرو فقد برهنوا على شدة بطشهم وقوة بأسهم فى تلك الحروب التى لم تهدأ ثائرتها ولم تنطفىء نارها بين الأوس والخزرج . كما كان فيها اليهود من بنى قريظة وبنى النَّضير ، كما كان اليهود أيضا فى فَدَك وتَيْماء ووادى القُرى وخيبر . وقـــد كانت هناك صلات وثيقة بين هؤلاء اليهود وبين من جاورهم من الأوس والخزرج ، حتى إنهم ألفوا أفكار اليهود الدينية ومَرَنوا على استساغة الكثير منها ، وأشربوا بعض المبادىء اليهودية . والحق لقد كان لوجود أديان سماوية بالمدينة لها كتب منزلة من عند الله كاليهودية ، فيها ذكر للوحى والنبوة ووحـــدانية الإله ثم عظمته وقدرته الشاملة ، والبَعْث والحساب وما بعدهما من جنة ونار وغير ذلك ، كان لهذا كله من الأثر ما أضعف الوثنية فى نفوس العرب النازلين بالمدينة .

أثر اليهود الدينى فى أهل يثرب

ولقد عرف أهل يثرب عند ما رأوا محمدا وتعاليمه مبلغ الشبه بينه وبين من توعدهم به اليهود ، فبادروا الى تصديقه حتى لا يسبقهم اليهود

الى اتباعه فيقتلوهم قتل عادٍ وإرم [١] . لهذا لانعجب إذا رأينا أهل يثرب أكثر تحمساً للإسلام .

انقسام أهل يثرب

ولعل حالة المجتمع فى يثرب كانت تدعو الى انتهاز مثل هذه الفرصة ، إذ وجد أهلها فى هذا الدين مايوحد كلمتهم ويجمع شملهم ويقضى على مابينهم من تنازع وبغضاء ، كما وجدوا فى شخصية الرسول ضالتهم المنشودة ، إذ عرفوه رجلا من أكرم بيوتات قريش وساداتها ، ثم هو ابن آمنة من بنى النجار أحد بطون الخزرج . ومع ذلك فهو نبى يستطيعون أن يطاولوا اليهود بما ينزل عليه من وحى . فهو الذى تستطيع الأوس والخزرج أن ينضووا تحت لوائه . ولقد كانوا أحوج الى ذلك بعد يوم بُعاث الذى كان النصر فيه للأوس . ولعل انهزام الخزرج يوم بُعاث قد جعلهم أكثر استعدادا لقبول الدين الإسلامى حتى كانوا أسبق اليه من بنى عمهم الأوس .

يوم بعاث

ففى الموسم التالى ليوم بُعاث أقبل جماعة من الخزرج للحج فيهم ستة من ساداتهم ، وكانوا ينشدون حليفا لتوحيد كلمتهم مع الأوس أو للتغلب عليهم ، إذ كان كل منهما يريد أن تكون له الرياسة ، فلقيهم الرسول عند العقبة (٢) ، فسمعوا لدعوته وأجابوا .

---

(١) ذكر ابن هشام (ج ١ ص ٢٠١) عن رجال من الانصار قالوا : ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود . كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا . وكانت لاتزال بيننا و بينهم شرور فاذا نلنا منهم بعض مايكرهون قالوا لنا : انه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم . فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا الى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم اليه فآمنا به وكفروا به . ففينا وفيهم نزلت الآيات (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ...) الخ — سورة البقرة ٢ : ٨٩

(٢) منزل فى طريق مكة بعد واقصة وقبل القاع لمن يريد مكة . وهو ماء لبنى عكرمة من بكر بن وائل . انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

بيعتا العقبة :

دعوة الرسول الخزرج الى الاسلام

يقول ابن هشام (١) : فبينما الرسول عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا . ولما لقيهم رسول الله قال لهم : من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج . قال من موالى يهود ؟ قالوا نعم ! قال أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى ! فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن . فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم الى الله — وكانوا متأثرين إذ ذاك بما سمعوا من اليهود — قال بعضهم لبعض : ياقوم ! تعلّموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يَسبقنكم اليه . فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم . وعسى أن يجمعهم الله بك . وسَنَقْدُم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجلَ أعزُّ منك . ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا ، وكانوا ستة من الخزرج . فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسول الله ودعوهم الى الإسلام حتى فشا فيهم . فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله .

العقبة الأولى

ولما حل الموسم التالى (٢) وافى مكة إثنا عشر رجلا من أهل يثرب لقوا الرسول بالعقبة وبايعوه فى تلك الليلة . وقد سميت تلك البيعة « بيعة النساء » و « بيعة العقبة الأولى » . قال عُبادة بن الصامت كنتُ فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا . فبايعنا رسول الله صلى

---

(١) ج ٢ ص ٣٠ - ٣٢ ؟ الطبرى ج ٢ ص ٢٣٤

(٢) السنة الثانية عشرة من النبوة .

الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يُفترض علينا الحرب ؛ على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نَعْصيه فى مكروه . فان وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك فأمركم الى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذّب . » [1]

ولعل هذه الغزوة قد سميت بيعة النساء لوجود « عَفْراء بنت عُبيد بن ثعلبة بها » . وهى أول امرأة بايعت الرسول .

وقد أرسل الرسول مع أهل يثرب مُصْعب بن عُمَيْر يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ، ويؤمهم فى المسجد . وكان يسمى المقرىء[2] . وسرعان ما أصبحت الرياسة له على الأوس والخزرج جميعاً ، وأسلم كثير من أهل يثرب حتى لم يبق دار من دورها إلا وفيها مسلمون ومسلمات .

العقبة الثانية أو البيعة الكبرى

وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة اجتمع برسول الله بالعقبة بعد الحج ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج . وكان معه عمه العباس ، وكان لايزال على الشرك . « فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب . فقال : يا معشر الخزرج ! إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه . فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وأنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم واللحوق بكم . فان كنتم تَرَوْن أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم ، فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة من قومه

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٤ ؛ ابن سعد ج ٣ ص ٨٢ .

وبلده . » (١) فقلنا له : قد سمعنا ما قلتَ ؛ فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببتَ ؛ فتكلم رسول الله فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب فى الاسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فأخذ البَراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ! والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنعُ منه أزُرَنا ؛ فبايعْنا يا رسول الله فنحن والله أهلُ الحروب وأهلُ الحلقة ورثناها عن كابر . فاعترض القولَ — والبراء يكلم رسول الله — أبو الهيثم بن التَّيِّهان ؟ فقال : يا رسول الله ! إنّ بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها ؛ فهل عَسَيْتَ إنْ نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدمَ الدمَ والهَدْمَ الهدم (٢) ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربْتُمْ وأسالم من سالمتم . »

نص البيعة

النقباء

وقد طلب منهم الرسول أن ينتخبوا من بينهم اثنى عشر نقيباً ليكونوا رؤساء عليهم ؛ فانتخبوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وقال العباس بن عُبادة بن نَضْلة الأنصارى موجها كلامه إلى الخزرج : هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ! قال : فان كنتم ترون أنكم إذا أنهكتْ أموالكم مصيبةٌ وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إنْ فعلتم خِزْىٌ الدنيا والآخرة ، وانّ كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على تهلكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفّينا . قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك ! فبسط يده فبايعوه . فأما

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٤١ - ٤٢ ؛ الطبرى ج ٢ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) معنى ذلك أن تكون ذمة الرسول ذمتهم وحرمته حرمتهم .

عاصم بن عمر بن قتادة فقال : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العَقْد لرسول الله فى أعناقهم ، وأما عبد الله بن أبى بكر فقال : ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أُبَىّ ابن سَلول فيكون أقوى لأمر القوم (١) » .

تآمر قريش على اغتيال الرسول

ولما وصل نبأ تحالف الرسول مع أهل يثرب تآمروا على اغتياله ، واجتمعوا فى دار الندوة للتشاور فى هذه الحالة الخطيرة ؛ فأشار بعضهم بحبسه ، وبعضهم بنفيه ، وبعضهم بقتله . وانتهى بهم الرأى إلى أن يؤخذ من كل قبيلة فتى جَلد ، وأن يُعطى كل منهم سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبدمناف أن يُحاربوا العرب جميعاً (٢) ، فنزل على الرسول قوله تعالى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (٣)

الهجرة

ذهب الرسول إلى صاحبه أبى بكر وأطلعه على ما أخبره الله به من تآمر قريش به ، وقال له إن الله قد أمرنى بالهجرة ، فطلب منه أبو بكر أن يصحبه . وخرج الاثنان من باب صغير خلف دار أبى بكر . وقد أمر الرسول على بن أبى طالب أن يبيت فى مكانه تلك الليلة ثم جاء القوم ووقفوا على باب بيت الرسول .

رواية ابن هشام

يقول ابن هشام (٤) : فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبابكر بن قُحافة ، فخرجا من خَوْخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمدا الى غار بثور جبل بأسفل مكة فدخلاه . وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبى بكر أن يتسمع لهما مايقول الناس فيهما نهاره ، ثم

(١) ابن هشام ج ٢ ٤٥ - ٤٦ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ٧٣ - ٧٩ (أنظر أيضا كتاب : « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات » ترجمة المؤلف ص ١٦ - ١٧ .

(٣) سورة الأنفال ٨ : ٣٠ (٤) ج ٢ ص ٧٩ — ٨٠ ، ٨٢

يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ؛ وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما» .

وخشى الرسول وأبو بكر أن يلحقهما أذى قريش إلا أنهما تدرعا بالصبر . والى ذلك يشير القرآن الكريم فىسورة التوبة (١)

(إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ، إذْ أخرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ، إنَّ اللهَ مَعَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ اللهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

ولما خرج الرسول من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش مائة ناقة مكافأة لمن يدلهم عليه أو يأتى به (٢) .

الطريق الذى سلكه الرسول من مكة الى المدينة

وقد وصف جغرافيو العرب الأرض التى بين مكة والمدينة بأنها وعرة موحشة ، لايصادف فيها المسافر ما يخفف عنه عناء السفر من زرع وماء . ويتخللها طريقان : أحدهما شرقى محاذ لبلاد نجد ، والآخر غربى محاذ لساحل البحر الأحمر . وقد اختار الدليلُ الطريق الثانى . بيد أنه لم يسلك جادة هذا الطريق المألوفة تماما ، بل كان يلتوى هنا وهناك تفاديا من أن يلحقهم من يقفو أثرهم من القرشيين ممن كان يطمع فى الحصول على المكافأة التى قررتها قريش لمن يأتى بالرسول .

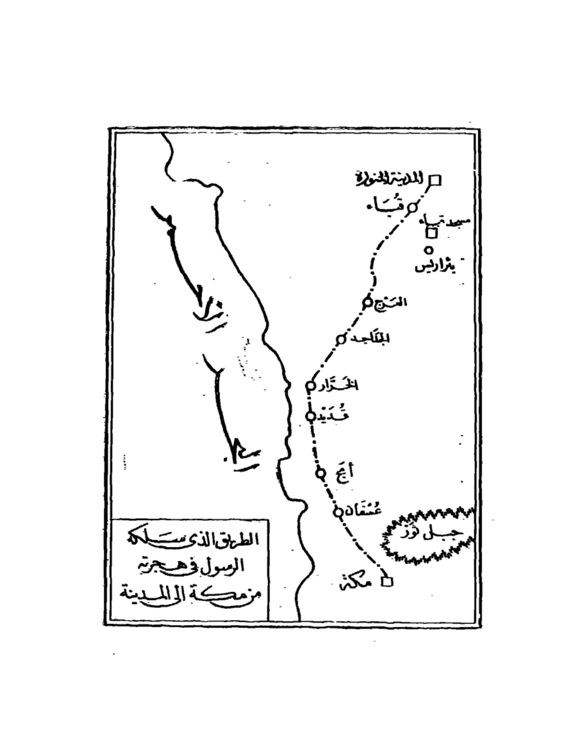
وقد وصف لنا ابن هشام (٣) الطريق الذى سلكه الرسول وصحبه

---

(١) آية ٣٦

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٨٢

(٣) ج ٢ ص ٨٥ - ٨٦ .


المدينة المنورة
قُباء
مسجد قباء
بئر أريس
العَرج
الخَرَّار
قُدَيد
أَمَج
عُسْفان
جبل ثور
مكة
الطريق الذي سلكه
الرسول في هجرته
من مكة إلى المدينة

من جبل ثَوْر (١) الى المدينة ، فقال إن عبد الله بن أرَيْقِط سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما الى الساحل حتى عارض الطريق أسفل عُسْفَان ، (٢) وتبعد عن مكة بستة وثلاثين ميلا ، ثم سلك بهما الدليل على أسفل أمَج ، ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قُدَيْد ، ثم سلك الخَرَّار (٣) وهو واد يقع فى نحو منتصف الطريق بين مكة والمدينة ، ثم أخـــذ بهما الجَداجد (٤) وتقع فى أرض مستوية صلبة ، ثم هبط بهما العَرْج (٥) . ثم هبط وادى العقيق الذى يؤدى الى المدينة ، ثم قدم بهما قُباء على عمرو بن عَوْف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ؛ فأقام بها أربعة أيام ومعه أبو بكر ، وأسس مسجده فى هذه الأيام الأربعة . وبينماهم بقَباء لحق بهم على بن أبى طالب بعد مارد الودائع التى كانت عند الرسول لأصحابها من أهل مكة . وقد غادر الرسول قُباء متحملا كل ألم فى سبيل إعلاء كلمة الله ونُصرة دينه .

الرسول بقباء

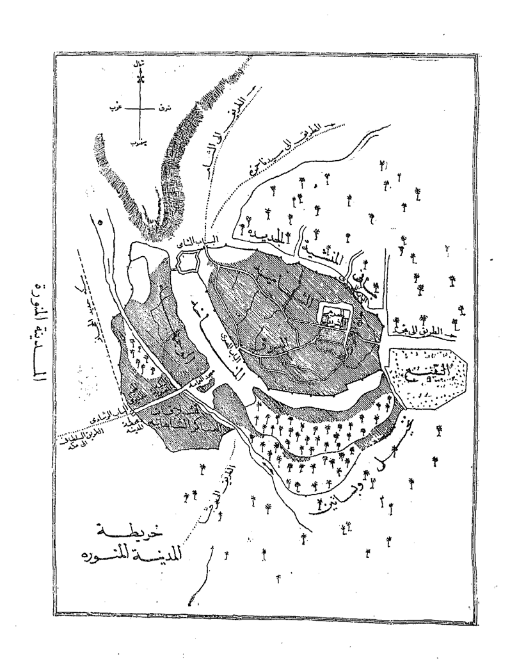
(١) اسم جبل بمكة فيه الغار الذى اختفى فيه الرسول وأبو بكر . وسمى ثورا لان ثور بن عبد مناة ولد عنده فنسب ثور بن عبد مناة اليه . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) بضم أوله وسكون ثانيه ثم فاء وآخره نون . وهى قرية صغيرة قريبة من ساحل البحر الأحمر تقع على حد تهامة على طريق المدينة . ويكثر بها النخيل والمزارع . وسميت عسفان لتسف الطريق . ويسمى الطريق بين عسفان وملل الساحل .

(٣) بضم أوله وتشديد ثانيه وهو موضع بالحجاز قرب الجحفة .

(٤) جمع جدجد وهى الأرض المستوية الصلبة ، ويجوز أن يكون جمع جدجد وهى البئر القديمة . ويظن ياقوت أنها آبار قديمة . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٥) بفتح أوله وسكون ثانيه وجيم . والعرج الكثير من الابل . فاذا جاوزت الابل المائتين وقاربت الالف فهى عرج وعروج وأعراج . وقيل سميت العرج لانه يعرج به عن الطريق . وهى قرية كبيرة فى واد قريب من الطائف ينعرج الطريق عندها بالمسافر .


شمال
شرق
غرب
جنوب
الطريق الى الشام
الباب الشامي
الجديده
المنشية
الطريق الى نجد
البقيع
الباب المصري
الطريق السلطاني الى مكه
محطة المدينه
خريطة
المدينة المنوره

وصل الرسول الى المدينة فى ١٦ ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) . وكان ذلك يوم الجمعة ، فصلى بالناس الجمعة لأول مرة فى الاسلام كما خطب لأول مرة فى المدينة . [1]

نشوء حكومة نظامية فى المدينة :

الرسول فى المدينة

وصل الرسول وصاحبه إلى يثرب فى ١٦ ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) كما تقدم . ومن ثم أصبحت هذه المدينة معقل الاسلام وملجأ جماعة المسلمين وغدت تعرف باسم مدينة النبى ؛ وتسمى اليوم المدينة والمدينة المنورة لوجود قبر الرسول بها [2]

وقد اتخــــذ المسلمون السنة التى هاجر فيها الرسول من مكة الى المدينة مبدأ للتاريخ عندهم ، نسبة الى هذا الحادث العظيم .

سكان المدينة

وقد أصبح بالمدينة فى ذلك الوقت أربعة أصناف من السكان :

الأول : المهاجرون وهم الذين هاجروا فرارا بدينهم من مكة الى المدينة .

الثانى : الأنصار وهم الذين دخلوا الاسلام من سكان المدينة الأصليين ، وسموا بذلك لأنهم نصروا النبى على قريش .

الثالث : فريق كبير من أهل المدينة لم يرغب فى تغيير دينه الوثنى فوقف من المسلمين مواقف متناقضة ، ويسمى المنافقين .

الرابع : اليهود وهم بقية بنى اسرائيل مع من تهود من العرب ، وانتهى بهم الأمر إلى الخروج تدريجيا من جزيرة العرب

وقد استطاع الرسول أن ينشر دينه بين أهل المدينة ، وأن يجد

---

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ٢٥٥

(٢) وقد ذكر ياقوت تسعة وعشرين اسما . فنها المدينة ، وطيبة (لطيب هوائها) والمحبة ، والمحبوبة ، ويثرب ، والناجية ، والمباركة ، والعاصمة ، والشافية

من بينهم أتباعا كثيرين فى فترة قصيرة ، كما استطاع أيضا أن يصلح ذات بينهم ويوطد السلم بين عشائرهم وأنْ يعقد حِلفًا بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين . وقد أورد لنا ابن هشام (١) صورة هذه المعاهد التاريخية نقتطف منها مايلى :

معاهدة الرسول مع أهل المدينة

« بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا كتاب من محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رَبْعتهم (٢) يتعاقلون بينهم وهم يفْدون عانيهم (٣) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكلٌ طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . . ولا يُحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى (٤) دسيعةُ ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولَدَ أحدهم ؛ ولا يقْتل مؤمن مؤمنا فى كافر ولا يُنْصر كافر على مؤمن . وإن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرِينَ عليهم ، وإنّ سِلْم المؤمنين واحدة لايسالِمُ مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلاعلى سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا تُعْقِب بعضُها بعضا ، وإن المؤمنين يُبىء (٥) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على

(١) جـ ٢ ص ٩٤ — ٩٨

(٢) جمعها ربعات وهى المنازل أى على منازل أبيهم . والمقصود كلهم ، كما يقال على بكرة أبيهم .

(٣) العانى هو الاسير

(٤) دسيعه — طبيعه

(٥) يرجع

أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يُجير مشرك (١) مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيّنة فانه قوَد به إلى أنْ يرضى ولىُّ المقتول . وإن المؤمنين عليه كافة . ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه ، وإنه لايحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخِر أن يَنْصُرَ مُحْدِثا ولايؤويه ، وإنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة . . . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ؛ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم . . . . وأنه لايخرج منهم أحـــد إلا باذن محمد (صلى الله عليه وسلم) . وأنه لاينحجز على ثأر جرح . وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم . . . وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فسَاده ، فانمرده إلى الله عزوجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لاتُجار قريش ولا من نصَرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه . وأنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . . . »

وإن الناظر إلى هذا الحلف ليرى أن الرسول :

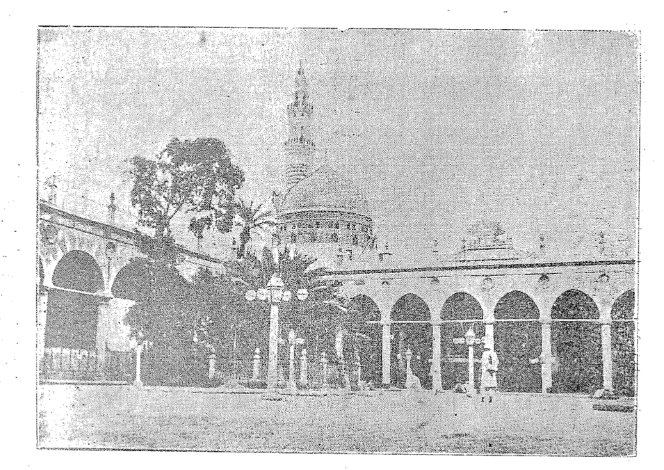
رأينا فى هذه المعاهدة

١ — قد استطاع أن يوحّد بين جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وأن يجعل منهم أمة واحدة وقد ألّف الدين بين قلوب أفرادها المتباينة .

٢ — أوجد التعاون والتضامن بين أفراد تلك الجماعة على أساس أن الزمالة فى الدين مقدّمة على غيرها من الصلات حتى صلة القرابة

---

(١) لعله يقصد من دخلوا فى الحلف من مشركى المدينة .



المســجد النبوى

٣ — ذكر أن للجماعة من حيث كونها جماعة ذات شخصية دينية وسياسية حقوقا على الأفراد أظهرها السهر على الأمن والضرب على يد المفسد .

٤ — شرط لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين من حيث المصلحة العامة ، كما فتح الطريق للراغبين منهم فى الاسلام ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق .

ولم يرد لهذا الكتاب ذكر إلا فى سيرة ابن هشام .

إقامة شعائر الاسلام

كان أول شيء اتجه اليه نظر الرسول عليه الصلاة والسلام حين وصل إلى المدينة العمل على إقامة شعائر دينه الجديد . فبنى فى المدينة مسجده الذى دفن فيه (١)

ولم تكن أهمية المسجد إذ ذاك مقصورة على إقامة الصلاة ، بل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس إلى صحابته فى المسجد يعلمهم الدين ، ويقضى بينهم بما أنزل الله ويشاورهم فى الأمور التى تتعلق بجماعة المسلمين ، كما كان يستقبل فيه سفراء القبائل ووفود العرب .

---

(١) كانت الأرض التى بنى عليها المسجد لغلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة . وكانت مربدا للتمر . وقد أراد أن يهبها لله وللرسول ، فأبى الرسول إلا أن يشتريها بالثمن وأمر بتسوية حفره وقطع ما به من النخل . وشرع الرسول فى بنائه من اللبن ، وكان يبنى فيه بنفسه ، وكان سقفه من الجريد وأعمدته من خشب النخل وارتفاعه قدر قامة . وجعلت قبلته لبيت المقدس الى أن حولت الى الكعبة . وبنى الرسول بجانبه حجرتين لزوجته سودة بنت زمعة وعائشة . وكان كلما تزوج امرأة بنى لها حجرة خاصة بها . وبنى الصفة (وهى موضع مظلل من المسجد) ليأوى اليها فقراء المسلمين وجعل الرسول للمسجد بابين : باب عائشة والباب الذى يقال له باب عاتكة وبابا فى مؤخر المسجد يقال له باب مليكة ، وبنى بجواره بيوتا باللبن وسقفها بجذوع النخل . ثم زاد الرسول فى المسجد بعد فتح خيبر لازدياد عدد المسلمين . ولما ولى عمر الخلافة أراد أن يشترى دار العباس بن عبد المطلب عم الرسول ليدخلها فى المسجد فوهبها العباس لله وللمسلمين ، فأدخلها عمر فيه وجعل طوله مائة وأربعين ذراعا وارتفاعه أحد عشر ذراعا ، وجعل له ستة أبواب وحصبه (١٧ هـ) . ثم بناه عثمان بن عفان بالحجارة المنقوشة والقصة (الجصة ويكسر) وجعل عمده من الحجارة المنقوشة أيضا ، وسقفه بالساج وزاد فيه زيادة كبيرة ونقل اليه الحصباء

الأذان

كان يجتمع المسلمون فى المسجد للصلاة لا ينادى بها أحد فيهم. فتكلموا يوما فى ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى. وقال بعضهم: اتخذوا قرنا (١) مثل قرن اليهود. فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة؟ فقال الرسول: يابلال! قم فناد بالصلاة. فكان بلال إذا جاء وقت الصـــلاة يقول الصلاة جامعة. وكان من بين المنادين عبدالله بن زيد بن ثعلبة الأنصارى. فبينما هو بين اليقظان والنائم رأى شخصا يلقنه الأذان، فحضر الى الرسول وقص عليه مارأى، فقال له: إنها لرؤيا حق، لقنّن ذلك بلالا فإنه أندى صوتا. ولما أذن بلال حضر عمر يجر رداءه فقال: والله لقد رأيت مثله يارسول الله (٢)

ولم يكد الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يبث الدين فى نفوس أصدقائه وأتباعه ويحثهم على الخضوع والإذعان لإرادة الله.

من العقيق (٢٩ - ٣٠ م). وقد أمر الوليد بن عبد الملك الأموى عمر عبدالعزيز عامله على المدينة بادخال حجرات زوجات الرسول فى المسجد وجعله مائتى ذراع فى مثلها، وكتب الى امبراطور الروم يطلب منه العمال لعمارة مسجد الرسول، فبعث اليه أربعين رجلا من الروم وأربعين من القبط، كما أرسل اليه أربعين ألف مثقال من الذهب وأحمالا من الفيسفساء، فبنوا الأساس والجدار والأساطين بالحجارة، وجعلوا عمد المسجد من الحجارة المحشوة بعمد الحديد والرصاص. وجعل المحراب والمقصورة من الساج. ثم تولاه أمراء المسلمين بالعمارة والتجديد. ففى عهد الخليفة المستعصم العباسى احترق منبر المسجد سنة ٦٥٤ هـ، فعمل المظفر صاحب اليمن له منبرا نصب فى موضع منبر الرسول، فبقى الى سنة ٦٦٦ هـ. يقول القلقشندى: فأرسل الظاهر بيبرس (أحد سلاطين المماليك فى مصر) المنبر الموجود الآن بالمسجد. وطوله أربعة أذرع، ومن رأسه الى عتبته سبعة أذرع، ودرجاته سبع بالمقعد. (صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨٧). انظر مدينة يثرب فى معجم البلدان لياقوت.

(١) بوقا

(٢) اختلف الفقهاء فى الطريق الذى ثبت به الأذان. فقال بعضهم انما ثبت عن طريق الوحى. وقال آخرون إنه ثبت عن طريق الرؤيا التى رآها عبدالله بن زيد. ونحن نميل الى الأخذ بالرأى الثانى. فقد وقع فيما رواه عبد الرازق وأبو داود فى المرسل من طريق عبيد بن عمر الليثى أحد كبار التابعين أن عمر لما رأى الأذان جاء يخبر الرسول فقال له: قد سبقك بذلك الوحى (جامع الترمذى - طبعة الهند سنة ١٣١٠ هـ ص ٢٦)

ومن ثَمَّ سمى هذا الدين بالإسلام لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لإرادة الله تعالى . والذين يدينون به يسمون المسلمين ، أى الذين يخضعون لأمر الله ورسوله . وأمر باقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم ، وبصوم شهر رمضان ، وحمى حقوق الملكية ، وجعل للمرأة مركزا محترما لم يكن لها فى الجاهلية . وهكذا مهدت الوحدة الدينية الى وحدة بلاد العرب السياسية .

وقد استطاع الرسول بهذا الجيش الذى جمعه من أنصاره أن يقف من أهل مكة موقف المحارب ، ويدخل مكة دخول الظافر المنتصر ، ويقضى على الوثنية ويطهر الكعبة من الأصنام .

وقد روى البلاذرى أن بلالا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقف ببابه ويقول : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الصلاة يارسول الله ! فلما ولى أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول : السلام عليك ياخليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الصلاة ياخليفة رسول الله . وفى خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يردد هذه الكلمات مبتدئا بقوله : السلام عليك ياخليفة رسول الله .... الخ ومنعا لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبى بكر ، أمر عمر ابن الخطاب أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة أمير المؤمنين ، وأن تزاد عبارة رحمك الله على الأذان (ذكر المقريزى أن عثمان هو الذى أمر باضافة هذه العبارة — الخطط ج ٢ ص ٢١٧) . ويقول ابن خلدون (مقدمة ، طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٢١٧ — ٢١٩) أن المؤذنين كانوا يختمون الأذان بعبارة : "السلام عليك" ، يعنون بذلك الخليفة أو أحد عماله . وظلت الحال على ذلك طول عهد الأمويين وفى الصدر الأول من أيام العباسيين ، حين تولى الخلفاء والولاة الصلاة بأنفسهم . على أن الخلفاء تخلفوا عنها فى أواخر أيام العباسيين ، لوقوعهم تحت سلطان الأتراك ؛ فتخلى الخلفاء عن إقامة الصلاة بأنفسهم فبطل استعمال هذه الكلمات وحذا حذوهم الخلفاء الفاطميون ممن لم يقيموا الصلاة ، فلم تذكر هذه الكلمات الا فى أذان الفجر .
الأحكام السلطانية للماوردى (ص ٩٦ — ٩٩) وابن خلدون ، مقدمة (ص ١٩٧ — ١٩٩)

وقد أورد لنا كاتب « محاسن الملوك » (ورقة ٢٥ — ٢٧ ، وهو مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة — راجع كتاب التاج طبعة أحمد زكى باشا ص ٨٨ — حاشية ٣ ص ٨٦ — ٨٨) عن هذا الاستعمال منذ أيام عمر ما نصه : « قال المغيرة لعمر رضى الله عنهما : ياخليفة الله ! فقال عمر : ذاك نبى الله داود . قال : ياخليفة رسول الله ! قال ذاك صاحبكم المفقود . قال : ياخليفة خليفة رسول الله ! قال : ذاك أمر يطول . قال : ياعمر . قال : لاتبخس مقامى شرفه ، أنتم المؤمنون وأنا أميركم . فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين » .

أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ١٣٢

احلال الوحدة الدينية محل الوحدة القومية

وكان من أظهر آثار الدين الاسلامى أن آخى بين المسلمين على اختلاف قبائلهم ومراتبهم ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية ، فأصبحوا متساوين جميعا — لافرق بين السيد أو العبد ، وغدوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . وقد منّ الله على المسلمين بقوله (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ . لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(١)

وقد ساعد الرسول على توحيد كلمة العرب تلك الديمقواطية التى جاء بها الاسلام والتى تلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التى طالما مزقت شمل العرب . وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)(٢) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » .

وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد فى تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية ثم بين أفراد الشعب . فلما فرغ الرسول من توحيد كلمة العرب فى المدينة حول همته الى نشر الاسلام خارج المدينة . وحينئذ بدأت غزواته الأولى .

زواج الرسول من عائشة

كانت السيدة خديجة عون الرسول على الشدائد كما كانت وزير صدق للإسلام . وقد توفيت فى السنة العاشرة من نزول الوحى قبل الهجرة بثلاث سنين ؛ وسمى هذا العام عام الحزن حيث كانت الفاجعة فيه مزدوجة بوفاة عمه أبى طالب الذى كان يحميه من العرب وزوجه

---

(١) سورة الأنفال ٨ : ٦٣

(٢) سورة الحجرات

التي كان يسكن إليها. يقول ابن سعد [١] «وجدَ الرسول صلى الله عليه وسلم على خديجة حتى خُشى عليه». وكان هذا الحزن يمنعه من التفكير في أمر الزواج حتى ساق الله اليه خولة بنت حكيم. وقد قالت له : يارسول الله ! كأنى أراك قد دخلتك خَلّة [٢] لفقد خديجة فقال: أجل ! أمُّ العيال وربةُ البيت. قالت أفلا أخطب عليك ؟ قال : بلى ! فإنكن معشرَ النساء أرفقُ بذلك. فخطبت عليه سَوْدة بنتَ زَمْعة من بنى عامر بن لؤى، وخطبت عليه عائشة بنت أبى بكر فتزوجها، فبنى بسَودةَ بمكة ولعائشة يومئذ ست سنين [٣]، حتى بنى بها بعد ذلك حين قدم المدينة». وكان زواج الرسول بسوْدَة بنت زمعة فى شهر رمضان سنة عشر من النبوة، ثم تزوج عائشة بنت أبى بكر ودخل بها فى المدينة. وكان صداق الرسول اثنتى عشرة أوقية ونشًا – أى خمسمائة درهم – لأن الأوقية أربعون درهماً والنش عشرون (٤)

سودة بنت زمعة

منزلة عائشة فى قلب الرسول

كان الرسول يحب عائشة حباً جماً ويعطف عليها كل العطف؛ فقد روى عن عائشة أنها قالت : كنت ألعب بالبنات (اللعب) ويجئن صواحبات لى فيلعبن معى فإذا رأين رسول الله صلى الله عليه وسلم انقمعن [٥] منه؛ فكان رسول الله يدخلهن فيغلبن معى [٦]

وعن عائشة أيضًا قالت : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك فهبت ريح فكشفت ناحية من ستر على صفة فى البيت عن بنات لى، فقال ماهذا ياعائشة ؟ قلت بَناتى. ورأى بينهن فرسًا لها

---

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ١ ص ٤١

(٢) حاجة

(٣) الطبرى ج ٢ ص ١٧٥

(٤) ابن سعد ج ١ ص ١١٥، ١٥٧

(٥) أى دخلن فى بيت أو من وراء ستر. وأصله من القمع الذى على رأس الثمرة، أى يدخلن فيه كما تدخل الثمرة فى قمعها. النهاية فى غريب الحديث ج ٣ ص ٣١١

(٦) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥

جناحان من رقاع[١] . قال وما هذا الذى أرى وسطهن ؟ قلت فرس . قال وما هذا الذى عليه ؟ قلت جناحان . قال جناحان ؟ قلت أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه [٢] »

ولا غرو فقد تمتعت السيدة عائشة بمنزلة لم تتمتع بها امرأة غيرها من زوجات الرسول إلا خديجة . وإنا لنجد مظهر ذلك الحب باديا فى كلام الرسول لعائشة وفى كلام عائشة نفسها ، وفى كلام زوجات الرسول والصحابة ؛ فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا عائشة ! حبك فى قلبى كالعروة الوثقى . وكانت السيدة عائشة تسأله من وقت لآخر كيف حال العروة يارسول الله ؟ فيقول لها : إنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل[٣] . وكانت السيدة عائشة تشعر بهذا الحب وتعلم مكانتها عند الرسول . تقول فى حديث لها : ولقد كانت زينب بنت جحش وأم سلمة لهما عنده مكان ؛ وكانتا أحب نسائه إليه فيما أحسب بعدى [٤] . وكانت زوجات الرسول يعلمن هذه المكانة ، فلما كبرت سودة بنت زمعة وخافت أن يفارقها الرسول وهبت يومها لعائشة دون سواها [٥] . وقد غضبت زينب بنت جحش لما رأته من أن عائشة قد ملكت قلب الرسول [٦] .

لم تزوج الرسول بعد عائشة ؟

ولعل قائلا يقول : إذا كانت هذه مكانة عائشة من الرسول ، فلم تزوج عليها وفى هذا مافيه من الاساءة اليها ؟ وقد ظن بعض المستشرقين

---

(١) الرقاع بالكسر جمع رقعة بالضم وهى الخرقة التى يرقع بها الثوب ، يريد أن جناحى الفرس كانا من الرقاع .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٣٠

(٣) روح المعانى ج ٢ ص ٧٥٣

(٤) ابن سعد ج ٨ ص ٨١

(٥) ابن سعد ج ٨ ص ٣٦

(٦) السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين لحب الدين احمد بن عبد الله ص ٣٩

ومن يجهلون حقيقة مايرمى اليه الاسلام ، وهو أن الرسول قد تزوج بعد موت خديجة بغير امرأة ، وعابوا عليه ذلك ، ولم يدروا أن هذا الزواج كان لأغراض دينية وسياسية أكثر منها جنسية. فقد تزوج الرسول جميع زوجاته بعد موت خديجة وهو فى سن الخمسين ، تلك السن التى تتوارى فيهـــا الغريزة الجنسية أمام الأغراض الدينية والسياسية [١]. أضف الى ذلك أنه كان يحب عائشة حباً جماً ، وأنه كان يعمل على إرضائها ، وأنه لم يتزوج بعدها بامرأة لجمال أعظم من جمالها . وبذلك أصبح من اليسير علينا أن ندرك أن ذلك إنما كان لأغراض لا أثر للميول الجنسية فيها .

وكان من أثر تلك الأغراض الانتفاع بالمصاهرة واتخاذها وسيلة لاستجلاب الأفئدة واجتذاب عطف القبائل . ويفسر لنا هذا أن أن أكثر زواجه كان من قريش سيدة العرب . كما كان لتأليف القلوب الى الاسلام دخل كبير فى زواجه عليه الصلاة والسلام . أضف الى ذلك ما كان لرأفته عليه الصلاة والسلام وعطفه على من ذل بعد عز من أثر فى زواجه ببعض زوجاته .

جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي

فقد تزوج من جويرية بنت الحرث سيد بنى المصطلق ، وصفية بنت حُيَيّ سيد بنى النضير ليتم له إسلام قومها ، لا لتأثير جمالها كما يقولون ؛ فهو أعلى نفساً من أن يتأثر بذلك ، وهو الذى يقول فى المرأة «فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك[٢]» ، وهو الذى تُفيض الروايات فى وصف حبه لعائشة طَوال حياته .

أم سلمة

وقد تزوج الرسول أم سَلَمة ، وهى امرأة مسلم مات فى سبيل الله

---

(١) روى الطبرى (ج ٣ ص ٨٣) أن الرسول حين بعث عبد الرحمن بن عوف الى دومة (أو دومة الجندل بلد بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة ، وتقع قرب تبوك . وهى أول غزوات الشام فى السنة الخامسة للهجرة) قال له : « إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم » مما يدل على أن ذلك كان سياسة من الرسول .

(٢) يدعو عليه بالفقر حتى تلتصق يده بالتراب .

والدفاع عن الاسلام ، تطييباً لقلبها و إثابة لها عن زوجها ، كما تزوج حفصة بنت عمر تطييباً لقلبها عن زوجها المتوفى ، ومكافأة لأبيها عمر ، ومكانته فى نصرة الدين على ما نعلم .

زينب بنت جحش

وأما زينب بنت جحش فكان زواج الرسول منها لأغراض تشريعية . فقد كان العرب يحرمون فى جاهليتهم الزواج بزوجة المُتَبَنَّى لاعتقادهم أن زوج المتبنى كزوجة الابن من الصلب . فتزوجها الرسول ابطالا لهذا الزعم . ولما خشى أن يتقول عليه اليهود والمنافقون ويرمونه بأنه قد خرج على هذه التقاليد نزل قوله تعالى (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وطراً ، وكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً)(١)

رأينا فى هذا الزواج

أضف إلى ذلك أن الرسول قد تزوج زينب أيضا للمحافظة على سمعتها بعد زواجها بمولى . فقد كانت بنت عمة الرسول وهى أميمة بنت عبد المطلب . وقد خطبها الرسول لمولاه زيد بن حارثة ، فعز على أهلها أن تتزوج من مولى ، ولكنهم لم يروا بدا من إجابة الرسول . فلما تزوج بها زيد أظهرت له من الشمم والعظمة مالم يتحمله ، فشكا ذلك إلى الرسول ، فأمره بأن يتذرع بالصبر . ولكن الوحى قد نزل على الرسول بالطلاق ، وأمره أن يتزوج هو بها حسما لما بين الزوجين من نزاع ، وحرصا على شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى وهى من أشرف بيوت العرب .

على أننا نرى فى زواج الرسول بزينب بنت جحش مثلا أعلى من مثل الديمقراطية التى امتاز بها الاسلام . فليس أمعن فى تلك الديمقراطية من أن يتزوج رسول الله بامرأة كانت بالأمس زوجة أحد مواليه ، تلك الديمقراطية التى وضع أساسها بخطبة زينب ، وهى بنت عمه

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ : ٣٧

ومن أشراف العرب، لزيد وهو من الموالى ، والذى لم يستنكف من أن يطبقها على نفسه بزواجه منها بعد أن طلقها زيد .

هذا الى ماكان يرمى اليه الرسول من تحميل زوجاته رسالة الاسلام وتبليغها الى الرجال والنساء .

الغزوات والسرايا (١)

الجهاد وأغراضه :

هل انتشر الاسلام بحد السيف ؟

يزعم بعض ذوى الأغراض أن الرسول قد أكره الناس على قبول هذا الدين ، واعتمد فى نشره على السيف . ولكن هذا لا يتفق مع صريح قوله تعالى (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ)(٢) أضف إلى ذلك منافاته لما رواه الثقاة من المؤرخين عن بدء انتشار الاسلام . فقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بدعوة بعض أصحابه ممن كان يثق بهم ، فأسلم أبو بكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وتبعهم غيرهم . وطالما كان يعرض الرسول نفسه فى موسم الحج على القبائل داعيا من أقبل إلى مكة من سائر العرب الى الإسلام . وكان من هؤلاء جماعة من الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فأجابوه الى مادعاهم اليه من اعتناق الاسلام ثم رجعوا الى المدينة ودعوا قومهم الى هذا الدين ، فلم يبق دار من دور أهل المدينة إلا وظهر فيها الاسلام . مضى ذلك فى جزيرة العرب دون أن يستل النبى سيفا أو يقاتل عدواً . كذلك اتبع الرسول الطرق السلمية فى نشر الاسلام خارج جزيرة العرب إذ كتب الى الملوك والأمراء فى ذلك العصر يدعوهم إلى الاسلام بالطرق السلمية .

---

(١) الغزوة هى ماخرج فيها الرسول مع المقاتلين . والسرية أو البعث مالم يخرج فيها بنفسه ، فقد يعقد اللواء لها على رجل من أصحابه . وقد يطلقون على السرية غزوة (ولكن ذلك قليل) ، كما قالوا غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل . وكانت الغزوات التى غزا فيها الرسول بنفسه سبعا وعشرين غزوة ، وكانت السرايا والبعوث ثمانية وثلاثين ، وقيل أكثر من ذلك .

(٢) سورة البقرة ٢ : ٢٥٥

خلفاء الرسول

وإن هذه الفرية التي يرمون الاسلام بها لتتنافى أيضا مع ماسار عليه الخلفاء الراشدون مع أهل البلاد التي فتحوها واحترامهم لحريتهم الدينية ومحافظتهم على حقوقهم المدنية . يدل على ذلك أمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهـــل إيلياء الذي ننقله عن الطبرى [١] :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد »

تغلب الاسلام على قلوب المغول

من هذا يظهر أن الاسلام لم ينتشر في جميع أدواره بحد السيف والارهاب . وإلا فماذا يقولون في انتشار هذا الدين في القرن السابع الهجرى في الوقت الذي ضعفت فيه الدولة الاسلامية بزوال الخلافة العباسية وسقوط بغداد في أيدى التتار ؟ والى القارىء كيف وجد ذلك الدين السمح الطريق الى نفوس هؤلاء الفاتحين المتبربرين من المغول . يقول الأســـتاذ المرحوم السير توماس أرنولد [٢] : « لا يعرف الاسلام من بين مانزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول . فلقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قنن الجبال واكتسحت في طريقها العواصم الاسلامية وأتت على ماكان لها من مدنية وثقافة . على أن الاسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه . ويرجع الفضل في ذلك الى حماس الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين هما المسيحية والبوذية ،

---

(١) جـ ٢ ص ١٥٩

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 218 - 219.

وكانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار . وليس فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام — كل ديانة تنافس الأخرى — لتكسب قلوب أولئك الفاتحين الذين داسوا بأقدامهم تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقاليم والأقطار »

الاسلام يحمى الكنائس وأتباعها

والى القارىء مافعله بعض الحريصين على نشر الاسلام فى أوروبا . كان أزبك خان (Uzbeck Khan) ، الذى كان زعيما للقبيلة الذهبية (١٣١٣ - ١٣٤٠ م) ، والذى اشتهر بتحمسه الشديد للدين الاسلامى وحرصه على تحويل الكثيرين من الأهلين اليه ، أول من جد فى نشر الاسلام فى كافة أرجاء بلاد الروسيا . ويذكر لنا التاريخ أنه رغم تحمسه للدين وتفانيه فى الاخلاص له ، فقد كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين . فقد منحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية ؛ وذهب فى تسامحه معهم الى أبعد من هذا ، فقد سمح لهم بالتبشير لدينهم ونشره فى بلاده . ومما يدل على ذلك التسامح تلك الوثيقة (١) ، وقد جاء فيها : « إن كنيسة بطرس مقدسة ، فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد رجالها بسوء ، ولا أن يستولى على شىء من عقارها أو متاعها ، ولا أن يتدخل فى أمورها . ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها فهو مجرم أمام الله وجزاؤه منا القتل » (ج ٤ ص ٣٩١ - ٣٩٤) .

ولم يكن هذا المرسوم كلمات جوفاء أو مجرد « حبر على ورق » . فقد ظهر ذلك التسامح واضحا جلياً فى كتاب أرسله البابا يوحنا الثانى والعشرون فى سنة ١٣١٨ م إلى أزبك يشكر له عطفه على رعاياه من المسيحيين ويثنى على تلك المعاملة التى كان يعاملهم بها أزبك .

منشور حرية التدين فى الروسيا

وقد ظلت حركة الدعوة للاسلام فى بلاد الروسيا بطيئة حتى سنة ١٩٠٥ ، حتى صدر مرسوم حرية التدين فى الأمبراطورية الروسية .

(١) عن كرامزن (Karamzin) Preaching of Islam, pp. 241-242

ومن ثم نشطت حركة الدعوة الى الاسلام فى تلك البلاد ، وأخذ الكثير من الروس يدخلون فى هذا الدين . ويرجع الفضل فى هذا الى القوة المعنوية التى كان يمتاز بها المسلمون فى هذه البلاد (١).

المسيحية والاسلام فى ظل الحرية

وفى القرن الثامن عشر نشطت الحكومة الروسية من جديد فى تحويل القبائل الوثنية من المغول الى الدين المسيحى . فى سنة ١٧٧٨ أمرت كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثى عهد بالمسيحية على إقرار كتابى يتعهدون فيه بترك الوثنية دينهم القديم والتمسك بالدين المسيحى وعقائده . وعلى الرغم من ذلك فان الذين تعمدوا من المغول لم يدخلوا المسيحية إلا ظاهراً ولم يكونوا مسيحيين إلا بالاسم فقط . وسرعان ما تخلصوا من الكنيسة الأرثوذكسية واعتنقوا الاسلام . ولم يكن هذا الدخول فى المسيحية إلا خطوة تمهيدية لدخولهم فى الاسلام .

من هذا يتبين لنا أن الاسلام إنما وجد طريقه إلى القلوب وخالطت بشاشته النفوس عن طريق الحجة والاقناع . أضف الى ذلك أن النفوس كانت تتطلع منذ مستهل القرن السابع الميلادى الى مصلح جديد . فقد تطرق الفساد الى جميع مناحى الحياة ومال ميزان العدل بين الناس ببلاد العرب والفرس والروم . ومن ثم بادر الناس الى الاسلام لما امتاز به من الديمقراطية الصحيحة والمساواة الحقة (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) (٢)

أغراض الجهاد

مكث الرسول بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة . وقد أذاقته قريش هو والمسلمين كل صنوف الأذى فصبر على أذاهم ، وحثه الله تعالى على التذرع بالصبر بما أنزله عليه من الآيات ، وضرب له الأمثـــال فى الصبر والاحتمال . ومن ذلك قوله تعالى

---

(١) Ibid, pp. 244 - 245.

(٢) سورة الروم ٣٠ : ٣٠

(واصبِرْ كما صبرَ أُولوا العزمِ مِنَ الرُّسُلِ ولا تستعجلْ لهمْ) (١) .
ولما تفاقم أذى قريش للرسول وصحبه أمره الله تعالى بقتال المشركين ،
وهو مايعبر عنه بالجهاد أو القتال فى سبيل الله ، وهو القتال الخالص
لله تعالى . وقد أذن الله لرسوله وللمؤمنين بأن يقاتلوا فى سبيل الله
فى آيات بعضها نزل بمكة وبعضها نزل بالمدينة .

الدفاع عن النفس

وقد أُذن للمسلمين بالقتال لأمور منها :

١ ـ الدفاع عن النفس . وفى ذلك يقول الله تعالى (أُذِنَ لِلّذِينَ يُقَاتَلُونَ بأنّهمْ ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغَيْرِ حَقٍّ إلّا أنْ يقولوا ربُّنا اللهُ) (٢)

وقوله تعالى (وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ . واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وأخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أخْرَجُوكُمْ والفِتْنَةُ أشَدُّ مِنَ القَتْلِ ، ولاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ فإنِ انْتَهَوْا فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وقَاتِلُوهُمْ حَتّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فإنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إلّا عَلى الظّالِمِينَ) ، (٣)

(وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلونَ فِي سَبِيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّسَاءِ والوِلْدَانِ الّذِينَ يَقولونَ رَبَّنا أخْرِجْنا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظّالِمِ أهْلُها واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ ولِيًّا واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً) (٤)

---

(١) سورة الأحقاف ٤٦ : ٣٥
(٢) سورة الحج ١٢٢ : ٣٧
(٣) سورة البقرة ٢ : ١٩٠ — ١٩٣
(٤) سورة النساء ٤ : ٧٤

من ذلك نرى أن القتال لم يُشرع الا دفاعا عن النفس وما إلى ذلك من العرض والمال .

٢ — تأمين الدعوة والدفاع عنها ضد من يقف فى سبيلها ، حتى لايخشى من يريد الدخول فى الاسلام الفتنة عن دينه ، كما حدث لعمار ابن ياسر وبلال وغيرهما من المستضعفين من المسلمين .

ولما تمالأ أهل مكة مع غيرهم من العرب على قتال الرسول أمره الله بقتال المشركين كافة (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) (١) .

ولما نقض يهود المدينة العهد الذى أخذه الرسول عليهم وانضموا إلى مشركى قريش لقتاله نزل قوله تعالى (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (٢)

الروح المعنوية عند المسلمين

وقد وعد الله المسلمين النصر على أعدائهم فى الدنيا وبشرهم بالنعيم فى الآخرة فقال (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) (٣) وقوله تعالى (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ . فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ)(٤) وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (٥)

---

(١) سورة التوبة ٩ : ٣٦
(٢) سورة الأنفال ٩ : ٥٨
(٣) سورة النساء ٤ : ٧٤
(٤) سورة النساء ٤ : ١٠٤
(٥) سورة الأنفال ٨ : ١٥ — ١٦

استطلاع قوة قريش وإرهابها

ذكر الواقدى (١) أن رسول الله عقد فى رمضان من السنة الأولى للهجرة لحمزة بن عبد المطلب لواء فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض عيرا لقريش . وقد لقى أبا جهل فى ثلاثمائة رجل ، فحجز بينهم مَجْدى ابن عمرو الجُهَنى ، فافترقوا دون قتال . وقد أرسل الرسول عدة سرايا بقصد الاستطلاع « والمناورة » ؛ حتى إذا كان شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة خرج بنفسه إلى وُدَّان (٢) يريد قريشا وبنى ضُمْرَة فوادعته بنو ضمرة وعاد الى المدينة .

وفى شهر رجب من نفس هذه السنة بعث رسول الله عبد الله بن جَحْش (٣) ومعه ثمانية من المهاجرين وكتب له كتابا أمره ألا يفضّه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ويمضى لِمَا أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه ففعل ، حتى إذا فتح الكتاب وجد فيه : « اذا نظرتَ فى كتابى هـذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلّم لنا من أخبارهم (٤) » . ثم عرض الرسول الأمر على أصحابه وخيَّرهم بين المضى معه أو الرجوع فمضوا ، ولم يتخلف عنه واحد منهم حتى نزل نخلة ؛ فمرت به قافلة قريش بتجارتها وعليها عمرو بن الحَضْرَمى الذى قتله المسلمون عند ما اشتبكوا بهم ، ثم أسروا منهم عثمان بن عبد الله والحكم بن كيْسان ، وقدموا بهما وبالعير على الرسول بالمدينة فقال لهم : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ؛ ثم وقف العيرَ

---

(١) تختلف الرواية العربية فى أول غزوة وتاريخها وترتيب السرايا التى سبقت بدراً ؛ فيزعم الواقدى أن سرية حمزة كانت فى رمضان من السنة الأولى للهجرة كما يعتبرها الأولى . أما ابن هشام فيعتبرها مسبوقة بغزوة ودان ، وسرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب الى ماء بالحجاز فى أسفل ثنية المرة ، ويعتبران أول غزوة كانت فى صفر من السنة الثانية (الطبرى ج ٢ ص ٢٥٩)

(٢) هى قرية بينها وبين الأبواء ثمانية أميال والأبواء قرية بين مكة والمدينة . وتسمى هذه الغزوة غزوة الأبواء أيضا .

(٣) هو من السابقين الى الاسلام . ولما بعثه النبى سماه أمير المؤمنين ، فكان أول من سمى فى الاسلام بهذا الاسم . وهذا لا يتفق مع القول بأن عمر أول من تسمى به من الخلفاء .

(٤) الطبرى ج ٢ ص ٢٦٢

والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا. وعنفهم اخوانهم المسلمون على ماصنعوا وقالوا لهم: صنعتم مالم تؤمروا به وقاتلتم فى الشهر الحرام» فسقط فى أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا بما صنعوا. فانتهزت قريش هـذه الفرصة ونادت فى كل مكان بأن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال، كما خاض اليهود فى ذلك أيضا حتى غفر الله للمؤمنين ودافع عنهم بقوله (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمَسْجِدِ الحَرَامِ وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ، والفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ولاَ يَزَالونَ يُقَاتِلونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ استَطَاعُوا ومَنْ يَرْتَدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وهُوَ كَافِرٌ فأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ وأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ) (١)

ولما وضعت الحرب أوزارها بعثت قريش فى افتداء الأسيرين؛ فقال الرسول لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا (٢)، فانا نخشاكم عليهما. فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم». فلما قدم سعد وعتبة أفداهما رسول الله. فأما الحكم بن كيسان فقد أسلم وأقام عند الرسول إلى أن استشهد يوم بئر معونة.

تحويل القبلة

وبينما كان الرسول يعمل على نشر الدعوة خارج المدينة، كان يفكر فى أمر القبلة ويقلب وجهه فى السماء ينتظر الوحى من عند الله، وذلك لأنه كان فى مكة يتجه الى الكعبة(٣) فى صلاته. وقد جرت مشيئة

(١) سورة البقرة ٢ : ٢١٧

(٢) يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان، وكانا قد تخلفا عن عبد الله بن جحش فى بحثهما عن بعير ضل منهما.

(٣) تفسير الطبرى والفخرى الرازى سورة البقرة ٢ : ١٤٢. وفيها رواية أخرى عن ابن عباس أنه كان يتجه الى بيت المقدس. ولكنه كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس.

الله تعالى بان يمتحن المسلمين ومبلغ استمساكهم بهذا الدين وإذعانهم لربهم . فأمرهم بالتحول إلى بيت المقدس بدلا من الكعبة ، التى هى بيت ابراهيم ومعقد فخار العرب واحترام قبائلهم جميعا ، والتى ألفوا التوجه إليها عن آبائهم . وقد ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يصلى الى بيت المقدس حتى شعبان من السنة الثانية للهجرة واليهود يجادلونه بما يعلمون وما لا يعلمون ، ويلبسون الحق بالباطل ليفتنوا المسلمين ويوقعوا بينهم ، لما رأوه من قوة شوكتهم وعظم أمرهم ، بعد أن ظنوا إمكان اجتذابهم إليهم والاستظهار بهم على الجالية المسيحية وعلى المشركين من العرب ، فتصبح الجزيرة العربية يهودية كلها أو على الأقل منطقة نفوذ لليهود . فلما خاب أملهم فى ذلك أخذوا يرجفون ويتحدثون بأن من واجب محمد ، وقد جاء مُقفّيا على آثار موسى وعيسى ، أن يذهب الى بيت المقدس كما كان الأنبياء من قبله يفعلون ، ومنهم من يقول نحن علمنا محمدا قبلته ولولانا ما درى إلى أين يتجه (١) ، ومنهم من يتساءل ويعجب لمحمد هذا الذى يخالف دينهم ويتبع قبلتهم .

وقد ألقى فى روع الرسول إذ ذاك أن الله مُحَوِّلُهُ عن قبلتهم هذه ، لأن من سنة الله تعالى أن يجعل لِكُلٍّ وِجْهَةً وقِبْلَةً هُوَ مُوَلِّيهَا . قال تعالى (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)(٢) ؛ ولأن الله ماجعل القبلة إلى بيت المقدس إلا ليمتحن المسلمين ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . لذلك كله توقع الرسول الوحى فى أمر القبلة وانتظر حكم الله فيها فأنزل الله عليه (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢٦٥ ؛ وابن هشام ج ٢ ص ١٩٦

(٢) سورة البقرة

فَوَلُّوا وجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (١) ليقضى على تخرصات اليهود ويدحض حجتهم وحجة المشركين الذين كانوا يقولون إن محمداً يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته . ولقد أشار القرآن الى أن أمر القبلة وتحولها يعرفه أهل الكتاب (٢) ، ولكنهم يثيرون الشبهات ويعرضون على الرسول أنه لوعاد الى قبلتهم لكانوا يرجون أن يكون صاحبهم الذى ينتظرونه . كل ذلك ليفتنوه فيتبع قبلتهم ؛ فأجاب الله عن تُرَّهاتهم بأن لله المشرق والمغرب ، وبأن لكل شريعة قبلة كما يعلمون ، ثم أيأسهم من رجوع الرسول الى قبلتهم ، فقال تعالى (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ (٣)

أهمية القبلة

« أما تعيين القبلة فى الصلاة فقد ذكروا فيه حكما أحدها أن الله تعالى خلق فى الانسان قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات ، وقوة خيالية متصرفة فى عالم الأجسام . وقلما تنفك القوة العقلية عن مقارنة القوة الخيالية ومصاحبتها . فاذا أراد الانسان استحضار أمر عقلى مجرد ، وجب أن يضع له صورة خيالية يحسها حتى تكون له تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعانى العقلية . ولذلك فان المهندس إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقادير وضع له صورة معينة

---

(١) سورة البقرة ٢ : ١١٤

(٢) يقول البيضاوى فى ذلك « لعلمهم بأن من عادة الله وسنته تخصيص كل شريعة بقبلة ، ولتضمن كتبهم أن النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الى القبلتين » . كما يشير الى أن قبلة اليهود الصخرة ببيت المقدس وقبلة النصارى مطلع الشمس . ويروى أيضا أن من أوصاف النبى فى التوراة التى كانت بين أيديهم أن قبلته الكعبة .

(٣) سورة البقرة ٢ : ١١٥

وشكلا معينا ليصير الحس والخيال معينين للعقل على إدراك ذلك الحكم الكلى .

ولما كان العبد الضعيف إذا وصل الى مجلس الملك العظيم ، فانه لابد وأن يستقبله بوجهه ، وأن لايكون معرضا له ؛ وأن يبالغ فى الثناء عليه بلسانه ، ويبالغ فى الخدمة والتضرع له ، فاستقباله القبلة فى الصلاة يجرى مجرى كونه مستقبلا للملك لامُعْرِضا عنه . والقراءة والتسبيحات تجرى مجرى الثناء عليه ، والركوع والسجود يجرى مجرى الخدمة . . . وثالثها أن الله يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين . وقد ذكر المِنَّةَ بها عليهم حيث قال (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (١) . ولو توجه كل واحد فى صلاته الى ناحية أخرى ، لكان ذلك يوهم اختلافا ظاهرا . فعيَّن الله تعالى لهم جهة معلومة وأمرهم بالتوجه نحوها ليحصل لهم الموافقة بسبب ذلك . وفيه إشارة الى أن الله يحب الموافقة بين عباده فى أعمال الخير » (٢)

غزوة بدر الكبرى :

وفى رمضان من السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر الكبرى ، فقد ندب الرسول نفراً من المسلمين لاعتراض قافلة قريش وهى قادمة من الشام . فلما علم بذلك أبو سفيان بن حرب رئيس القافلة بعث إلى قريش من يخبرها باعتراض المسلمين لتجارتهم ويستنفرهم لاستنقاذها ؛ ثم غير طريقه ، وتوجه إلى البحر وسار بحذائه حتى جاوز موقف المسلمين ، ثم انسَلَّ إلى مكة دون أن تمس تجارة قريش بسوء . وقد

(١) سورة آل عمران ٣ : ١٠٣

(٢) تفسير الفخر الرازى : سورة البقرة ٢ : ١٤٢ - ١٥٠

التقى الرسول بقريش عند ماء بدر . وكان عـــددهم بين التسعمائة والألف ، وفيهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول وأبو جهل بن هشام ابن المغيرة . فنصر الله المسلمين وقتل سبعون من رجالات قريش وساداتهم . أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر . (١)

أثر غزوة بدر

كان لهذه الغزوة أثر كبير فى تاريخ الاسلام . فقد كانت أول اصطدام جدى بين المسلمين وقريش انتصر فيه المسلمون على الكفار ، وتجلى فيه للمشركين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتفانيهم فى نصرة دينهم . وقد أحفظ ذلك رجالات قريش ، فأجمعت أمرها على أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين .

وقد بلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم فى تلك الغزوة أن سموها غزوة الفرقان ، لأن الله سبحانه وتعالى قد فرق بها بين الحق والباطل وأعزّ الاسلام وأذل الكفر بقتل صناديد قريش وأسر كبرائهم مع قلة عدد المسلمين وعددهم ؛ كما سموا كل من شهدها من المسلمين بدريا ، وكانوا يعتزون بهذه السمة ويفخرون .

وبلغ من تأثر قريش لهزيمتها فى تلك الموقعة أنها رصدت جميع أموال تلك القافلة لحرب الرسول والقضاء على أصحابه ؛ ومن ثم ابتدأت سلسلة من الحروب كان النصر فيها حليف المسلمين (اللهم إلا فى غزوة أحد) ، وكان يتحرج مركز المسلمين أو يتوطد بعد كل حرب تبعا لنتيجتها ؛ ولكنهم صبروا واطمأنوا إلى نصر الله وكانت العاقبة للمتقين .

الأنفال

اختلف القوم فى النّفل (٢) الذى ساقه الله إلى المسلمين فى غزوة

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٣٠ ؛ الطبرى ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٩٧

(٢) النفل أو الغنيمة هو ما أخذه المسلمون من الكفار قهرا بعد هزيمتهم فى الحرب . وهناك الفيء وهو ايضا مأخوذ من الكفار ولكن عن طريق صلح واتفاق معهم لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب .

[illegible] جمعوه ، كما ادعاه من باشروا القتال ومن أحاطوا بالرسول [illegible] خشية أن يغتاله المشركون . وقد نسى كل فريق [illegible] الآخرين واستحقاقهم فى النفل ، كما أهملوا من وكل اليهم الرسول أعمالا تتصل بالقتال وليست منه ، ومن تخلف عن القتال لأعذار كعثمان بن عفان الذى أبقاه الرسول مع أسامة بن زيد فى المدينة لتمريض رقية ابنة الرسول وزوجة عثمان التى فاضت روحها والمسلمون فى المعركة وأتى البشير بالنصر وهم يوارونها التراب .

ولما رفع الأمر إلى الرسول نزل قوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (١) . ثم أقبل رسول الله الى المدينة واحتمل معه النفل وجعل عليه عبد الله بن كعب ، حتى إذا قربوا من المدينة قسم الرسول الغنائم بين المسلمين على السواء .

غزوة أحد :

[illegible] وقعت غزوة أحد [illegible] من السنة الثالثة للهجرة .

وسببها أن [illegible]

[illegible]

ويختلف النفل عن الفيء بأن أربعة أخماس النفل تقسم على المحاربين . أما أربعة أخماس الفيء فانها تترك للرسول أو لامام المسلمين ليصرفها فى مصالح المسلمين التى منها الجيش . وأما خمس الفيء أو الغنيمة فانه يقسم الى خمسة أسهم أو أقسام : سهم للرسول (فى حياته) ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه فى مصالحه ومصالح المسلمين ، والسهم الثانى لذوى القربى [illegible] والسهم الثالث [illegible] والسهم الرابع [illegible] والسهم الخامس لابن السبيل .

ويدخل فى الفيء الجزية والخراج والعشر من متاجر المشركين ، وهذا كله يختلف عن الصدقات فانها المال الذى يؤخذ من المسلم زكاة كان أو تطوعا .

(٢) [illegible]

(١) سورة الأنفال ٨ : ١

جميع ما كان من مال — فى العير التى اعترضها المسلمون يوم بدر — ليستعينوا به على حرب الرسول وأصحابه .

وقد اجتمع حول أبى سفيان بن حرب ثلاثة آلاف من قريش والأحابيش [١] وعرب كنانة وتهامة . فخرج بهم يريد المدينة ، واصطحب القيان ومعهن المعازف والخمر ، وخرج معه نساء كبرائهم إثارة لحماستهم .

ولم يحضر العباس بن عبدالمطلب عم الرسول يوم أحد . وتحدثنا بعض الروايات بأنه أرسل إلى الرسول سراً من يعلمه بخروج قريش إليه (٢) .

مشاورة الرسول أصحابه

فلما سمع الرسول بقدوم قريش استشار الصحابة فيما يصنع ، فأشار عليه قوم بلقائهم خارج المدينة . وكان يقول بذلك الشباب ومن لم يشهد بدرا ، وهم أكثر أهل المدينة . أما كبار الصحابة فكانوا يرون البقاء فى المدينة . وكان ذلك رأى الرسول أيضا اعتماداً على حصانة المدينة الطبيعية ومناعتها وسهولة الاحاطة بالعدو فى أزقتها ، والانتفاع بمساعدة النساء والأطفال إذ يستطيعون أن يحصبوا المشركين بالحجارة وهم فى دورهم آمنين .

وكان هذا الرأى هو رأى عبد الله بن أُبى بن سلول عندما استشاره

---

(١) كان هؤلاء الأحابيش من الجند المرتزقة . وقد استأجرتها قريش لتدافع عنها عند الحاجة لانصراف أهلها للتجارة . وقد اختلف المؤرخون فى أصل هذه الجماعة وتسميتها بهذا الاسم . فنهم من يقول ان بعض قبائل العرب تجمعت ونزلت عند جبل بأسفل مكة اسمه حبيش ، من تحبش بمعنى اجتمع . ولكن الأب لامانس يقول انهم كانوا من أصل حبشى . ومع كل فسواء أكانت هذه القوة عربا خلصا أو من الاحباش أو من الأرقاء الذين كانوا فى خدمة قريش ، فقد كانوا قوة لقريش يدافعون عنها اذا أغار عليها عدو .

(٢) وليس ذلك بعيدا . فقد كان معروفا عن بنى هاشم أن هواهم مع الرسول ، وما كانوا يخرجون لحربه إلا مستكرهين . ولذلك يشك بعض المؤرخين فى أن العباس قد حضر بدرا (راجع الطبرى ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٨٢)

الرسول ـ وكان ذلك لأول مرة فى أمر كهذا ـ وكان رأى كبار الصحابة أيضا .

وقد قبل الرسول الرأى الأول لما وجد فى أصحابه من كثرة عددهم وقوة بأسهم . فعزم على الخروج ، ولبس لامته وصلى بالناس الجمعة ، وحثهم على الثبات والصبر ؛ فخشى هذا النفر من الصحابة أن يكونوا قد استكرهوا الرسول وتحدثوا إليه بذلك وعرضوا عليه البقاء فى المدينة والنزول على رأيه ورأى كبار الصحابة . فقال : ما كان لنبى لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

خروج الجيش

سار الرسول وقت السَّحَر من ليلة السبت فى ألف من المسلمين . ولم يكد جيش المسلمين يبلغ الشَّوْط (١) حتى رجع عبد الله بن أبىٍّ بثلثهم وقال : عصانى واتبع الولدان . فلما ذكرهم عبد الله بن عمرو بن حرام بحق الله عليهم وقال لهم : (تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، احتجوا بأنه لن يكون قتال وقالوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَ تَّبَعْنَاكُمْ) (٢)

تقاعد المنافقين

وكان لهذا الانقسام أثر كبير فى صفوف المسلمين . فقد كادت أن تفرق كلمتهم وتمزق وحدتهم . وقد وصف الله تعالى حال عبد الله ابن أبى بن سَلول ومن لف لفه من المنافقين بقوله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ

(١) مكان خارج المدينة

(٢) سورة آل عمران

كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا . وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ . قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ، وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ) (١)

موقف المسلمين والكفار

نزل رسول الله الشِّعب من جبل أحد وعسكر على سفحه المواجه للمدينة والمنحدر إلى بطن الوادى الذى عسكرت فيه قريش ، فاحتمى الرسول بالجبل ، وجعل الرُّماةَ فى أعلاه ليحموا ظهر الجيش وأوصاهم بألا يتركوا مكانهم سواء أكانت الغلبة للمسلمين أم عليهم . ثم استعرض الجيش وأخرج منه الأحداث الذين دفعتهم الحماسة إلى اصطلاء نار الحرب؛ ثم ألحَّ عليه فتيان وبكيا فاستبقاهما بعد أن اختبر استعدادهما .

الموقعة

ابتدأت المعركة بالمبارزة . وكان على رأس المشركين أبو سفيان بن حرب ، وعلى الخيل خالد بن الوليد . ثم التحم الجيشان وصمد بعضهما لبعض . واتبع المسلمون خطة الرسول أول الأمر فكان النصر فى جانبهم؛ فقد حَسَوْا أعداءَهُم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر . ويقول الزبير بن العوام فى رواية ابن هشام : والله لقد رأيتنى أنظر الى خدم هند بنت عتبة مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير .

غلطة الرماة

ولما رأى المسلمون تقهقر المشركين أهمل الرماة وصية الرسول إياهم بالثبات فى أماكنهم حتى يُعلَنَ هو انتهاء القتال ، وانكفأوا يجمعون

---

(١) سورة آل عمران ٣ : ١١٨ - ١٢٣

ماتركه العدو وراءهم من الغنيمة والأسلاب . ولقد ذكرهم أميرهم عبد الله بن جُبير بما قال الرسول فلم يسمعوا بل اندفعوا يتعجلون الغنيمة ويستبقون إليها . فانتهز خالد بن الوليد فرصة خلو الجبل من الرماة وأتى المسلمين من خلفهم وأعمل الرماح فى ظهورهم .

اضطرب المسلمون لهذه المفاجأة واختل نظامهم حتى تعرضت حياة الرسول للخطر ، ثم اشتد الخطْب عند ماصرخ ابن قَمِيئة (من المشركين) : « ألا إن محمدا قد قتل » ، فقد تخاذل المسلمون واستولى اليأس على قلوب فريق منهم ، ومن بينهم عمر بن الخطاب (١) ، كما استعمل فريق آخر من أمثال أنس بن النضر (عم أنس بن مالك) الذى قال « ماذا تصنعون بالحياة من بعده ؟ فموتوا على مامات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . »

حرص المسلمين على سلامة الرسول

أما الباقون فقد أحاطوا بالرسول وقاموا دونه يدفعون عنه ويتلقون دونه السِّهام والنبال وطعنات السيوف الموجهة إليه صلى الله عليه وسلم . على أن خبر مقتل الرسول ، وان كان سببا فى انخذال المسلمين واستيلاء اليأس عليهم ، فقد كان سبباً فى نجاته من أيدى المشركين . ولا غرو فقد انخدعت بذلك الخبر واكتفت من الحرب بتلك النتيجة . وقد فطن الرسول نفسه لهذا ، ورأى فى ذلك فرصة أتاحها الله له وللمسلمين لصرف المشركين عنه . ولا غرو فقد أشار الرسول إلى كعب بن مالك الأنصارى بالسكوت حين همّ بأن يصيح فى المسلمين بأن الرسول على قيد الحياة .

---

(١) وقد تدهش أن يستولى اليأس على مثل عمر لما امتاز به من رباطة الجأش وقوة النفس ، لو لم تعلم أن ذلك اليأس طالما يدب الى النفس فى مثل تلك الازمات النفسية الحادة . ناهيك بموقفه رضى الله عنه عندما فوجىء بخبر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعلى الرغم من استبسال المسلمين وتفانيهم فى الذود عن حياته ؛ فقد جرح النبى فى وجنته وكسرت رُباعيته وشُجَّ فى رأسه ، كما أنه وقع فى إحدى الُحفَر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون . واستشهد من المسلمين أكثر من سبعين .

هند وحمزة

وقد مثل نساء قريش بقتلى المسلمين حتى إن هندا بنت عتبة (زوجة أبى سفيان بن حرب) بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب[1]، وأخذت كبده فلاكتها حتى إذا عجزت عن أكلها لفظتها .[2]

وقد أمر الرسول بجمع قتلى المسلمين إلى جنب حمزة وصلى عليهم ثم أمر بدفنهم .

هزيمة المسلمين أبلغ درس لهم

ثم عاد الرسول إلى المدينة . وقد تلقى المؤمنون فى هذه الموقعة أنفع الدروس وأبعدها أثرا فى حياتهم المستقبلة ، اذ كانت أول انهزام حربى حلَّ بهم بعد تلك الانتصارات التى اعتادوها . كما كشفت للمسلمين عن مبلغ ايمان المنافقين واستعدادهم للتضحية ، كما أطمعت قريشا وغيرها من القبائل فى جماعة المسلمين حتى استهانوا بهم وظنوا أنه من اليسير القضاء عليهم . وهكذا شجعت تلك الغزوة المشركين على حرب المسلمين كما سيأتى .

---

(١) هو عم النبى . وقد قتله غلام حبشى يقال له وحشى مولى مطعم بن جبير ، وقد بعثه سيده مع قريش وقال له : ان قتلت حمزة بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق . فأتى وحشى الى حمزة وقد سبقه إليه سباع من بنى عبد العزى . فلما رأى حمزة سباعا ضربه فقتله ، فانتهز وحشى فرصة انشغال حمزة بطعن سباع وصوب حربته على حمزة فأثبتها فى جسمه ؛ فاتجه حمزة الى قاتله ليفتك به ولكنه عجز وهوى الى الأرض . فتركه وحشى حتى مات ثم عاد فانتزع منه حربته ولم يقاتل حتى رجع الى مكة . وقد هرب منها الى الطائف يوم الفتح خائفا من الرسول لعلمه بشدة حزنه على عمه . فلما أخبر بأن الرسول يعفو عمن أتاه ، ذهب اليه فأسلم ، فعفا عنه الرسول . ومما يجدر ذكره فى هذه المناسبة أن وحشيا هذا حارب مع المسلمين جيوش مسيلمة الكذاب بحمية ، وأنه تمكن من قتل مسيلمة نفسه حتى كان يقول : « قتلت خير الناس بعد رسول الله (يعنى حمزة) وقد قتلت شر الناس » (يريد مسيلمة)

(٢) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٨

بين أحد والأحزاب :

اثر انتصار قريش

ظنت قريش بعد أحد أنها قد هزمت محمداً ، وأخذت تعد العدة لغزوة أخرى تقضى بها على ما بقى له من قوة . فكان خروجها يوم الأحزاب (٥ هـ) تنفيذا لهذه الخطة . على أن هذه الفترة بين غزوتى أحد والأحزاب لم تمر من غير أن يشتبك المسلمون فيها مع بعض القبائل العربية الأخرى التى استخفت بقوة المسلمين وتجرأت عليهم ، فاعتدت عليهم لتتقرب بذلك الى قريش زعيمة الوثنية ولتأخذ بنصيبها فى شن الغارة والنيل من هذا الدين الجديد . من ذلك ماصنعت عُضَل والقارةَ يوم الرجيع ، ثم بنو سُلَيْم يوم بئر معونة ، حتى لقد بلغ الاستخفاف بالمسلمين والاستهانة بشأنهم أن فكر بنو النضير من يهود المدينة فى قتل محمد رأس هذه الجماعة للتخلص منها .

سرية بنى الرجيع (سنة ٤ هـ)

قدم على رسول الله وفد من عضل والقارة فقالوا : « يا رسول الله ! إن فينا إسلاما وخيراً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا فى الدين ويقرءونا القرآن ويعلمونا شرائع الاسلام » . فبعث رسول الله ستة من أصحابه ؛ فلما أتوا على الرجيع[1] غدروا بهم ؛ فأخذوا سيوفهم ليقاتلوهم ، وما زالوا يدافعون عن أنفسهم حتى قتل بعضهم وأسر البعض الآخر ، فكانت نهايته القتل . فكان ذلك سبب غزوة بنى لَحْيان[2] .

غزوة بئر معونة (سنة ٤ هـ)

ذكر ابن هشام(٣) أن أبابراء عامر بن مالك قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعرض عليه الرسول الاسلام ودعاه إليه فلم يسلم ؛ ثم قال للرسول : « يا محمد ! لو بعثتَ رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك » . فقال رسول الله : « إنى أخشى عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : « أنا لهم جار فابعثهم

(١) وهو ماء لهذيل بين مكة والطائف .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٤٩ – ٦٠ ؟ الطبرى ج ٣ ص ٢٩ – ٣٣ .

(٣) ج ٣ ص ٤٤ – ٤٥ ؟ الطبرى ج ٣ ص ٣٣ – ٣٦ .

فليدعوا الناس الى أمرك » . فبعث الرسول المنذر بن عمرو فى أربعين رجلا من خيار المسلمين ؛ فساروا حتى نزلوا بئر معونة ؛ فبعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه وعدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه وقالوا : « لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجوارا » . فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم فأجابوه إلى ذلك وخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم وهم فى رحالهم ؛ فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ، وكانوا ـ رضى الله عنهم ـ من أشهر القراء والحفاظ .

غزوة بنى النضير (سنة ٤ هـ)

أما بنو النضير ، فقد أجمع المؤرخون على أن السبب فى حربهم يرجع الى تآمرهم على قتل الرسول . فقد جاءهم يستعينهم فى دية قتيلين قتلهما المسلمون خطأ [١] ، قالوا « نعم يا أبا القاسم [٢] نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه » . ثم خلا بعضهم الى بعض فقالوا « إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه » .

وكان الرسول قد جلس الى جنب جدار من بيوتهم حتى يأتوه بالمال . فقالوا : مَن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحّاش : أنا لذلك . ثم صعد ليلقى بالحجر على الرسول وهو جالس فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، فأتى الرسول الخبرُ من السماء بما أراد القوم . فعاد الرسول الى المدينة من غير أن يعلم أحداً بذلك . فلما استبطأه أصحابه خرجوا يبحثون عنه ، فأخبرهم رجل أنه رآه داخلا المدينة . فأقبلوا عليه يسألونه عن السبب ، فأخبرهم بما ألهمه الله من تآمر اليهود وأمره بالتهيؤ لحربهم . ثم سار اليهم فتحصنوا منه بآطامهم ، فحاصرهم ستة أيام ،

(١) كان بينهم وبين المسلمين حلف يقضى بالتعاون على دفع الدية الواجبة على أحد الفريقين .

(٢) وكانت هذه كنية الرسول .

وأمر بقطع النخيل وتحريقه . ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا الرسول أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن يأخذوا معهم ما تحمل الابل من المال إلا الدروع . فأجابهم الرسول الى ذلك ، فخرجوا الى خَيْبر وسار بعضهم الى الشام . وكان من أشرافهم الذين ساروا الى خيبر سَلاّم بن أبى الحقيق ، وكِنانة ابن أخيه الربيع ، وحُيَىّ ابن أخطب . فلما نزلوها دان لهم أهلها [١] .

غزوة الاحزاب أو الخندق (سنة ٥ هـ) :

تأليب اليهود الاحزاب على المسلمين

لما أجلى الرسول يهود بنى النضير عن ديارهم بالمدينة رحلوا إلى خيبر وعزموا على الانتقام منه ومن أصحابه . ومن ثَمَّ ذهبوا يؤلبون عليه سائر العرب ويحزبون الأحزاب ضده . وكانت قريش قد خرجت من أُحد منتصرة ، وخُيِّل إليها أنها قد هزمت المسلمين أو محمداً ، ولم يبق إلا أن تشن عليه غارة أخرى فتقضى عليه نهائياً . يدل على ذلك صيحة أبى سفيان بن حرب : « إن موعدكم بدرٌ للعام المقبل » [٢]

آمال قريش

ولكن قريشا لم يسعفها الحظ فى ذلك العام لوقوع الجدب بأرضهم والكساد بتجارتهم . فلما جاءهم وفد اليهود [٣] واطمأنت قريش إلى نصرتهم وانضمامهم إليها ، رأت قريش أنهم سوف يحيطون بمحمد داخل المدينة وخارجها ، كما رأوا فى خروجهم محوا لما لحقهم من تهمة الجبن عن قتال محمد . وقد خرج الرسول إلى لقائهم فى الموعد الذى ضربوه وأقام ثمانية أيام فلم يخرجوا إليه . لذلك نشطت قريش لما دُعيت إليه من حرب الرسول واعتبرتها فرصة سانحة .

فلما اطمأن اليهود إلى مناصرة قريش ، ذهبوا إلى غطفان من

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٥١

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٤

(٣) هم سلام بن أبى الحقيق النضرى وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى ، وحيى بن أخطب النضرى فى نفر من بنى النضير ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى وائل

قَيس عَيْلان فدعوهم إلى مثل مادعوا قريشا اليه ، ووعدوهم العون وأخبروهم بانضمام قريش اليهم ، فقبلت غَطَفان ، وتهيأت الأحزاب للخروج الى المدينة . وكان قائد قريش أبا سفيان بن حرب ، وقائدبنى مُرَّة من غطفان عُيَيْنَة بن حِصْن ، وقائد بنى أشْجع من غطفان أيضا مِسْعَر بن رُخَيلة . فلما اتصل بالرسول ماعزم عليه المشركون حفر الخندق . وعمل الرسول بنفسه فى الخندق « ترغيبا للمسلمين فى الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه . فدأب فيه ودأبوا .... وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له « جُعَيْل » فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عَمرًا ، فقالوا :

مسير الاحزاب

حفر الخندق

سَمَّاه من بَعدُ جُعَيْل عَمرًا * وكان للبائس يوماً ظَهرا

فاذا مروا بعمرو قال رسول الله « عمر » ، واذا مروا بظهر قال رسول الله « ظَهرا » . (١)

مكان الخندق وطوله

وكان الخندق شمالى المدينة لأن الجهات الأخرى كانت محصنة بالجبال والنخيل والبيوت . وقد اختلف المؤرخون فى مكان الخندق وطوله . ويظهر لنا أنهم خطوه من الحرة الشرقية إلى الشمال ، فالغرب ثم إلى الجنوب قليلا . وإذا صحت الرواية القائلة بأن الرسول قد وكل إلى كل عشرة من المسلمين أن يحفروا قطعة من الخندق طولها أربعون ذراعا ، فاننا نستطيع أن نستنتج أن طول الخندق قد بلغ اثنى عشر ألف ذراع على الأقل ، إذا فرضنا أنه لم يعمل فى حفر هذا الخندق إلا رجال الجيش الذى اتفقت الروايات على أنهم كانوا ثلاثة آلاف .

تسلل المنافقين

وفرغ المسلمون من حفر الخندق قبل وصول قريش على الرغم من تسلل المنافقين وهربهم أثناء العمل دون استئذان الرسول . « وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لابد له

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٧١

منها يذكر ذلك لرسول الله ويستأذن في اللحوق لحاجته ، فيأذن له . فاذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له . فأنزل الله تعالى في أولئك النفر من المؤمنين (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ . إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ . فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) . ثم قال تعالى في المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا . فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١)

قدوم الاحزاب

أقبلت قريش ومن تبعها من أعراب كنانة وتهامة في عشرة آلاف ، ونزلوا في مجتمع الأسيال من رُومة (٢) . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من نجد فنزلوا بذنب نَقَمَى إلى جانب أُحُد . وخرج الرسول في ثلاثة آلاف وجعلوا ظهرهم إلى جبل سَلْع . وجعل الرسول النساء والأولاد في الآطام (الحصون) والخندق بينهم وبين المشركين . (٣)

نقض بني قريظة عهدهم مع الرسول

وقد جاء حُيَيّ بن أخطب النضري إلى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة ليراوده على نقض ما بينه وبين الرسول من عهد ، فامتنع أولا ثم انتهى إلى أن نقض بنو قريظة ما بينهم وبين المسلمين . فلما علم الرسول بذلك أرسل إليهم أربعة ، منهم سعد بن مُعاذ سيد الأوس ، وسعد بن عُبادة سيد الخزرج ليستيقنوا من هذا

(١) سورة النور ٢٤ : ٦٢ — ٦٣

(٢) بضم الراء وسكون الواو أرض بالمدينة بين الجرف (على بعد ثلاثة أميال شمالي المدينة) وزغابة . وفيها بئر رومة التي ابتاعها عثمان بن عفان وتصدق بها .

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ - ٥١

الخبر . فرأوا منهم الغدر ، فعادوا وأخبروا الرسول فقال : الله أكبر أبشروا يامعشر المسلمين .

تحرج مركز المسلمين

واشتد الخوف وعظم البلاء على المسلمين إذ ذاك ، وظهر نفاق الكثيرين حتى قال مُعتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط » [1] « وأقام الرسول وأقام المشركون عليه قريبا من شهر لم يكن بينهم حرب الا المراماة بالنَّبْل والحصار . فلما اشتد الأمر على المسلمين بعث الرسول الى قائدى غطفان يفاوضهما فى قبول ثلث غَلة المدينة على أن يرجعا بمن معهما ، فقبلا . وكُتب نص المحالفة خلوًا من أسماء الشهود، اذ لم يتم الصلح ولم يكن إلا المراوضة . فتحدث الرسول الى سعد بن مُعاذ وسعد بن عُبادة سيدى الأوس والخزرج وذكر لهما ماوصل اليه مع غطفان ، فلم يرضيا الا أن يكون أمرا من عنـــد الله ، فأخبرهما الرسول بأن هذه فكرة عرضت له للخروج من هذا المأزق الذى كان يحيط بالمدينة ، ثم أعطاهما الكتاب ليمحوا مابه ففعلا ، وعاد الموقف إلى ما كان عليه من تبادل المناوشات التى لم تأت بنتيجة حاسمة لأحد الطرفين» .

مهمـــة الرسول ونجاحه فيها

وكان الرسـول فى ذلك الوقت يدأب على مصابرة المسلمين الذين اشتد بهم البـلاء وزاد تأثير الجوع والبرد فيهم [2] وفى مفاوضة غطفان ابتغاء صرفهم عن قريش ليفت ذلك فى عضدهم فيرجعوا هم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٧٦ ؟ تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥١

(٢) قد بلغ من شدة وطأة الجوع على الرسول وعلى المسلمين أن كانوا يربطون الحجارة على بطونهم . وقد ذكر أن الرسول كان يصلى فى الليلة التى عادت فيها قريش فى مرط (وهو ازار من صوف أو خز) . وقد روى ابن هشام (ج ٣ ص ٨٤) أن حذيفة بن اليمان الذى بعثه الرسول ليتعرف حالة الاحزاب قال : رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى فى مرط لبعض نسائه مراجل (ضرب من وشى اليمن) . فلما رآنى أدخلنى الى رجليه وطرح على طرف المرط .

أيضا . وأما قريش فقد ثقل عليهم الحصار وملوا الانتظار فى البرد القارس والمطر الذى لم تغن عنهم خيامهم منه شيئا .

نعيم بن مسعود يوقع بين الاحزاب

عند ذلك جاء الى الرسول نُعَيْم بن مسعود مُسْلِماً ، وعرض عليه أن يكلفه بأى عمل ليقوم بنصيبه فى جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة ، فقال له : خذّل عنا فان الحرب خُدْعة . فذهب مسعود الى بنى قريظة وحذرهم إن هُزمت قريش فنجت بنفسها وتركتهم تحت رحمة محمد . . . ثم نصحهم بألا يطمئنوا إلا إذا أعطوهم رهائن من ساداتهم وأشرافهم . ثم ذهب إلى كل من قريش وغطفان وأوهمهم أن بنى قريظة قد ندموا على نقضهم عهد محمد ، واتفقوا معه على أن يخدعوا له قريشا وغطفان عن بعض ساداتهم فيأخذونهم على أنهم رهائن ويقدمونهم إلى محمد ليضرب أعناقهم . فاستعجلت قريش وعد قريظة لها ونصرتها . فكان فى جوابهم عليهم مايؤكد عزم بنى قريظة على الغدر بهم .

اسباب انتصار المسلمين

وقد فعلت هذه الوقيعة فعلها فى الأحزاب وتأكدت قريش وغطفان من غدر القرظيين بهم ، فعزموا على الرحيل . وكان للعوامل الطبيعية أيضا أكبر الأثر فى ذلك ، إذ هبت ريح زعزع عاتية جعلت تكفأ قدورهم وتنزع خيامهم ، فأرغمتهم على الرحيل .(١)

وكان لطول أمد الحصار أسوأ الأثر فى نفوس الأحزاب المتحالفة مع قريش ، مما جعل لفشلها ورجوعها تجر أذيال الخيبة وتندب الآمال التى كانت تحلم بها أثرا كبيرا فى سرعة انتشار الاسلام بين قبائل العرب .

كما ظهرت فى هذه الحرب مقدرة الرسول الحربية ومرونته ، إذ أنفذ مشورة سلمان الفارسى بحفر الخندق ، وهو من الاستحكامات الحربية التى لم تعرفها العرب قبل ذلك ، حتى لقد دهشت قريش عندما

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥١

رأته وقال قائلهم : « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » (١) كما تجلت حنكته السياسية فى مساومة غطفان لزلزلتها (٢) عن موقفها الى جانب قريش ، ثم فى التفريق والوقيعة بين هذه الأحزاب وبين بنى قُرَيْظة . هذا الى ما أبداه الرسول من المهارة فى مصابرة المسلمين وتشجيعهم على تحمل هذا الجوع والعُرْى فى تلك الأيام التى عصفت الطبيعة بمعسكر قريش واضطرتهم الى الجلاء

غزوة بنى قريظة

عادَ الرسول من جبل سَلْع بعد رحيل قريش ، فوصل الى المدينة ظهرا . فدخل بيت عائشة ثم خرج ، وأمر بلالا أن يؤذن : من كان سميعا مطيعا ، فلا يصلينَّ العصر إلا ببنى قُرَيْظة . فتلاحق المسلمون وخرج على بالراية — وكانت على حالها لم تُطو بعد . ولا غرو فقد أحفظ قلوبهم وملأها حقدا وموجدة على بنى قريظة نقضهم العهد وممالأة الأعداء عليهم حتى (زَاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ القُلوبُ الحناجِرَ) (٣)

فلما رأى بنو قريظة جيش المسلمين خارت قواهم وأيقنوا بالهلاك ، فتبرءوا مما ارتكبوه من الغدر ، وسألوا الرسول العفو ، فأبى ذلك عليهم وشدد الحصار خمسة وعشرين يوما ، حتى نزلوا على حكمه وسألوا حلفاءهم الأوس أن يتوسطوا فى إطلاقهم ، كما توسط الخزرج فى إطلاق حلفائهم من بنى قَيْنُقَاع . فتواثبت الأوس وقالوا : يارسول الله ! إنهم كانوا موالينا ...» فقال لهم رسول الله : ألا تَرْضَوْن يامعشر

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٨

(٢) لما فاوض غطفان وأطمعهم فى ثلث غلة المدينة ثم عدل عن ذلك ورفضه ، توهمت غطفان أن مركزه قد تحسن ، وأنه مقبل على حرب الأحزاب واجلائهم . ومما زادهذا الوهم تأكد غطفان من عدول بنى قريظة عن مناصرة الاحزاب وعزمها على تقديم سادات قريش وغطفان الى الرسول ليقتلهم .

(٣) سورة الأحزاب .

الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا بلى . قال فذاك الى سعد بن مُعَاذ (١)

فلما جيء بسعد قاموا اليه فقالوا : يا أبا عمرو ! إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين ان الحكم فيهم لما حكم ؛ فأجابوه وأجابه الرسول : أن نعم ! قال سعد : فاني أحكم بأن تُقتّل الرجال وتُقسّم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . فقال له رسول الله : لقد حكمت فيهم بحكم الله . ثم حُفرت لهم الخنادق وضُربت أعناقهم جميعا وكانوا نحوا من سبعمائة . ولم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة تسمى بُنانة زوجة الحكم القرظى (٢) لقتلها خلاّد بن سُوَيد برحىً طرحتها عليه فمات ، فقتلها الرسول فى خلاد .

وقد قسم الرسول أموال بنى قُرَيظة وسباياهم بعد أن عزل الخمس (لله وللرسول) ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

غزوة بنى المصطلق أو المريسيع (سنة ٦هـ) :

بلغ الرسول أن بنى المصطلق من خزاعة (من حلفاء بنى مُدْلج) قد عولوا على حربه بزعامة الحرث بن أبى ضرار أبى جويرية بنت الحرث زوج الرسول . فلما سمع الرسول بذلك خرج اليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع قرب قُدَيْد . وحلت الهزيمة ببنى المصطلق وأسر المسلمون كثيراً من نسائهم وإبلهم .

وكان لهذه الغزوة أهمية كبرى فى تاريخ الإسلام ، لوقوع النزاع

(١) روى ابن هشام (ج ٣ ص ١٩٠) أن على بن أبى طالب صاح وهم على حصار بنى قريظة : يا كتيبة الايمان . وتقدم هو والزبير بن العوام وقال : والله لأذوقن ماذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم ، فقالوا : يامحمد ! ننزل على حكم سعد بن معاذ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٥٩

بين المهاجرين والأنصار وقوعا كاد يؤدى الى انفصام عرى الوحدة بين المسلمين ، وزواج الرسول بامرأة من بنى المصطلق وهى جويرية بنت الحرث سيد بنى المصطلق ، ثم لوقوع حادث الإفك الذى كدَّر حياة عائشة أياما وأرجف به المبطلون ورموها فى أعز شىء لديها .

النزاع بين المهاجرين والانصار

تنازع سنان بن دبر الجُهنى حليف بنى سالم من الأنصار بعد انتهاء موقعة المريسيع مع جَهجَاه بن مسعود الغفارى ، فضربه هذا بيده ، فنادى سنان ياللأنصار ! ونادى جهجاه يالقريش ! يالكنانة ! وشهر المهاجرون والأنصار السلاح كل فى وجه الآخر وكادوا يقتتلون لولا أن تداركهم الرسول وقال « مابال دعوى الجاهلية ! دعوا هذه الكلمة فانها فتنة» . وسرعان ماسكنت الفتنة .

وكان عبد الله بن أُبَىّ بن سلول رأسُ المنافقين يحقد على الرسول ، إذ كان يطمع فى سيادة يثرب قبل هجرة الرسول اليها ، وكاد يلبس التاج أو شارة السيادة . فأحفظه ذلك وعبر عما كان يجيش فى نفسه من حقد على الرسول وكراهة للاسلام والمسلمين ، وحضَّ قومه على طرد المهاجرين وَعوْد الحال الى ماكانت عليه قبل الهجرة ؛ فقال أَوَقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ماعدونا وجلابيب قريش ماقال القائل «سمِّن كلبك يأكلك » . أما والله لئن رَجَعنَا الى المدينة ليخرُجن الآعزُّ منها الأذلَّ » . وسمع بذلك الرسولُ ، وأشار عليه عمر بقتل عبد الله بن أُبَىّ ، فنهاه وقال : كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟

علاج الرسول للموقف

وكان الرسول عليه السلام سياسياً ماهراً . فقد رأى ببعد نظره أن يشغل جنده ليصرفهم عن التحدث فى هذا الأمر . فاذا أخذ منهم التعب ناموا ولم يجدوا فرصة للحديث . حتى إذا ما أخذ الرسول فى المسير لقيه أُسَيْد بن حُضَيْر فحياه بتحية النبوة وسأله عن سبب خروجه وقت الظهيرة فأخبره الخبرَ فقال : يارسول الله ! أرفق به فوالله لقد

جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فانه ليرى أنك قد استلبته ملكا . وكان من أثر تدخل عبد الله بن عبدالله بن أبى فى أمر أبيه والالحاح عليه فى الذهاب إلى الرسول أثر فى اصلاح ذات البين بينه وبين الرسول .

زواج الرسول من جويرية بنت الحرث

كان من بين سبايا بنى المصطلق جُويرية بنت الحرث سيدة القوم ، وكانت قد وقعت من نصيب ثابت بن قيس . فشق ذلك على نفسها واتفقت معه على أن تتحرر بطريق المكاتبة(١) . فلما جاءت الى الرسول تطلب منه العون على الحصول على هذا المال ، رأى أن من الحكمة أن يتألفها بما ينزع من قلبها الحقد على الاسلام . فقدم اليها المال وعرض عليها التزوج منها وتزوجها . وكان الرسول بعيد النظر . فقد كانت بنت سيد قد مات أبوها بسيف الاسلام ، فخشى الرسول أن يجتمع حولها فلول أبيها فتكون بابا من أبواب الشر على المسلمين . وكان من أثر ذلك أن أعتق كل مسلم من كانت بيده من أهل بيتها استعظاما لأن يسترقوا أصهار الرسول . (٢)

حادثة الافك

كانت عائشة مع الرسول فى هذه الغزوة . ولما كانوا بالقرب من المدينة أثناء عودتهم حدثت حادثة الأفك (٣) . وقد وجد دعاة السوء من المنافقين من صدّق قولهم من المسلمين ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد برأها وجعل احصانها قرآنا يُتلى (٤) .

---

(١) المكاتبة هى أن يتفق الرقيق مع مولاه على مبلغ معين من المال فى أجل محدود ، يقدمه اليه فيصبح حرا . ويصير العبد أثناء هذه المدة الحق فى المتاجرة وماتستلزمه من تصرفات كالبيع والشراء وغيرهما مما لايصح له مباشرته لولا ابرام هذا العقد . فاذا أدى العبد المال المتفق عليه صار حرا ، واذا عجز عن أدائه فى الموعد المحدد عاد كما كان ، ولمولاه كل ماجمعه من مال .

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٣٥ ؟ الطبرى ج ٣ ص ٦٣ - ٦٦

(٣) الافك الكذب والافتراء .

(٤) راجع حديث الافك فى فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٤٣ ؟ الطبرى ج ٣ ص ٦٧ - ٧١

الهدنة مع قريش (سنة ٦ هـ) :

وفى السنة السادسة للهجرة خرج الرسول للعُمْرة [١] فى ألف وأربعمائة من المسلمين [٢] ؛ فوقف القرشيون فى طريقه على مقربة من مكة يمنعونه من دخولها . فندب الرسول عثمان بن عفان للذهاب إلى قريش لمكانته فيهم ، واستطلاع أنبائهم وتعرُّف السبب فى منعهم المسلمين من أن يَطَّوَّفُوا ببيت الله ويُعَظِّمُوه . فحجزت قريش عثمان عندها ، وشاع بين المسلمين أنه قتل . عندئذ تأهب الرسول لقتال قريش وبايعه من كان معه من المسلمين على حربها . وتسمى هذه البيعة بيعة الرِّضْوان [٣] .

بيعة الرضوان

ولما علمت قريش بأمر هذه البيعة أسقط فى يدها ، وأرسلت البعوث إلى الرسول تُعارضه فى العدول عن دخول مكة هذا العام . فلما رأت قريش أن تلك البعوث لم تنجح أرسلت إلى الرسول وفدا على رأسه سُهيل بن عمرو خطيبهم المفَوَّه ؛ فقال للرسول « يا محمد ! ما كان من حبس عثمان ومن معه ، وما كان من قتال من قاتلك ، فإنه ليس من رأى عقلائنا ، بل شىء قام به السُّفهاء ، فابعثْ إلينا من أسرتَ » . فقال الرسول « حتى ترسلوا مَنْ عندكم » ؛ فأرسلت قريش عثمان ومن معه وأمر الرسول بإطلاق مَنْ فى يد المسلمين من أسرى قريش .

---

(١) وهى زيارة البيت الحرام فى غير موعد الحج .

(٢) تكاد تجمع روايات الطبرى على أن عدد المسلمين كان ألفا وأربعمائة . ولم يخالف ذلك إلا رواية واحدة ، إذ تقول ان عددهم كان سبعمائة . وقد فصل الطبرى اختلاف الروايات فى اسلام خالد بن الوليد وهل كان اذ ذاك فى جيش المسلمين أو أنه كان لا يزال على الشرك أو أنه كان على خيل المسلمين (ج ٣ ص ٧٢)

(٣) وقد نوه الله بشأن هذه البيعة فى قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة . فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما) ، كما عظم شأن هذه البيعة عند المسلمين . فلما ولى عمر الخلافة ، خشى أن يقدس المسلمون الشجرة التى عقدت تحتها هذه البيعة ، فقطعها لئلا يفتتن بها الناس . ومن هذه الآية سميت هذه البيعة بيعة الرضوان .

شروط الهدنة

وتم الاتفاق بين الرسول وسُهَيْل على :

١ — أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين

٢ — أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلما بدون إذن وَلِيّه

٣ — لا تُلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد

٤ — أن من أحبَّ الدخولَ فى عَقْد قريش وعهدها فله ذلك ؛ ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه

٥ — أن يرجع الرسول هذا العام من غير عُمرة ، على أن يأتى فى العام التالى فيدخل مع أصحابه مكة بعد أن تخرج منها قريش ، ويقيم بها ثلاثة أيام وليس معهم من السلاح إلا السيوف بالقُرُب[1] .

تذمر المسلمين من هذه الشروط

وقد عز على المسلمين أن يعودوا إلى المدينة من غير أن يُعتمروا على الأقل، وقد كانوا واثقين من وعد الله إياهم فتح مكة فى رؤيا رآها الرسول . وكاد الشيطان ينزغ بين المسلمين فى هذه المرة لولا حكمة أم سلمة زوجة الرسول وبعد نظرها. فقد ذكر الطبرى أن الرسول — بعد أن فرغ من صلح الحديبية — «قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . فلم يقم منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة فذكر لها مالقى من الناس ، وما كان من مخالفتهم أمره . فقالت : يانبى الله ! أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لاتكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج ، فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما » . (٢)

---

(١) الاغماد (٢) الطبرى ج ٣ ص ٨٠

كما عز عليهم أن يسلموا برد من يلجأ اليهم من قريش إليها ، على حين أن قريشاً لم تلتزم لهم بمثل ذلك .

ولقد ذاقوا ما فى ذلك من ذلة واستسلام عند تطبيق ذلك الشرط لأول مرة ؛ إذ ما لبثوا أن وجدوا أبا جندل بن سُهيل بن عمرو قادماً عليهم يرسُفُ فى أغلاله الحديدية ، ويستغيث بهم من ظلم قريش وعَسْفها ؛ فلما رآه أبوه (سهيل بن عمرو) التفت الى الرسول وطلب إليه تنفيذ شروط الصلح ، فقد لجّت [1] القضية بينه وبين الرسول ؛ فأجابه الرسول الى ما أراد وردّ أبا جندل إلى قريش وهو يصيح مستنجداً والرسول يقول له : « يا أبا جندل ! أصبر واحتسب فان الله عاجلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلْحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطوْنا عهد الله لا نغدُر به [2] »

---

(١) يقصدان الصلح قد أبرم .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٦٠

وقد وفى الرسول بهذا الشرط الذى شرطه لقريش حتى بعد قدومه الى المدينة . فقد اتاه أبو بصير عتبة بن أسيد . وكان ممن حبس بمكة . فلما قدم على الرسول كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة ، والأخنس بن شريق الثقفى الى رسول الله ، وبعثا اليه رجلا من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى لهم ، فقدما على رسول الله بكتاب الأزهر والأخنس ، فقال رسول الله « يا أبا بصير ! انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . فانطلق الى قومك » . قال : يارسول الله ! أتردنى الى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ قال : ياأبا بصير ! انطلق فان الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . فانطلق معهما . حتى إذا كان بذى الحليفة جلس الى جدار وجلس معه صاحباه . فقال أبو بصير : اصارم سيفك هذا يا أخا بنى عامر ؟ فقال : نعم ! قال : أنظر اليه ؟ قال : انظر ان شئت » . فاستله أبو بصير ثم علاه به حتى قتله وخرج المولى سريعا حتى أتى رسول الله وهو جالس فى المسجد ، فلما رآه الرسول قال ويحك ! مالك ؟ قال : قتل صاحبكم صاحبى . فو الله مابرح حتى طلع أبو بصير متوشحا بالسيف حتى وقف على رسول الله . فقال : يارسول الله ! قد وفت ذمتك وأدى الله عنك . أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى : فقال رسول الله : ويل أمه محش حرب (موقد لهاطن بها) لو كان معه رجال . ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر بطريق قريش

أثر هذا التذمر فى نفوس المسلمين

وقد ثارت نفوس المسلمين ، واستزل بعضهم الشيطان وأخذوا يتساءلون فيما بينهم . على أن أحدا لم يجرؤ على مفاتحة الرسول فى شأن ذلك الصلح ، حتى قام عمر ، وقد طوعت له جرأته أن يسأل الرسول وقال له : «ألست رسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال بلى ! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نُعطى الدَّنيَّة فى ديننا ؟ »

غير أن الرسول عالج هذه الفورة بحكمته وسداده، فأجابه بقوله : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يُضيِّعَني [1] » . ثم عاتب الشاكّين من أصحابه عتاباً خفيفاً وتوجه إلى المدينة . وشرع فى استغلال هذه الهدنة لبث الدعوة وتبليغ الرسالة والعمل على تنظيم شئون المدينة الداخلية . وقد عد الزُّهرى هذا الصلح فتحاً عظيماً للاسلام إذ يقول : « فما فُتِحَ فى الإسلام فتحٌ قبله أعظمَ منه . . . فلما كانت الهُدْنة ووَضعت الحربُ أوزارها وأمن الناس كلهم بعضُهم بعضا ، فالتقوْا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يُكلَّم أحدٌ بالاسلام يَعْقلُ شيئاً إلا دخل فيه . فلقد دَخل فى تينِكَ السنتين فى الاسلام مثلُ ما كان فى الاسلام قبل ذلك وأكثر [2] » .

موقف اليهود من المسلمين :

اسباب كراهة اليهود للمسلمين

نشب النضال بين اليهود والمسلمين منذ رحل النبى الى المدينة واتخذها مركزاً لنشر دعوته . وقد رأوا فى محمد وفى دينه منافساً جديداً [3]

التى كانوا يأخذون عليها الى الشام . وبلغ المسلمين الذين حبسوا بمكة قول رسول الله لأبى بصير (ويل أمة ... الخ) . فخرجوا الى أبى بصير بالعيص ، فاجتمع اليه منهم قريب من سبعين رجلا وكانوا قد ضيقوا على قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر بهم عير الا اقتطعوها ، حتى كتبت قريش الى الرسول تسأله بأرحامها الا آواهم فلا حاجة لهم بهم . فآواهم رسول الله فقدموا عليه المدينة . ابن هشام ج ٣ ص ١٦٤—١٦٦

(١) الطبرى ج ٣ ص ٧٩ (٢) الطبرى ج ٣ ص ٨١

(٣) كان اليهود والنصارى فى بلاد العرب يتنازعون النفوذ الأدبى فى الجزيرة ، ويتنافسون فى كسب احترام العرب وفى الدعاية بينهم كل لدينه .

يوشك أن يقضى على نفوذهم ونفوذ النصارى جميعا وأن ينتزع من الفريقين لواء الزعامة الدينية الذى يتجاذبونه ، فقد كان من صميم العرب ومن أكرم بيوتات قريش ؛ فهو لذلك أقرب الى نفوس العرب الذين يبغضون اليهود ويضيقون ذرعا بافتخارهم عليهم بالعلم وإذلالهم بالتوراة وكتب بنى اسرائيل . لذلك كان أهل المدينـــة أسرع الى قبول دعوة محمد بن عبد الله والانضواء تحت لواء ذلك النبى العربى الذى كان اليهود يستفتحون به عليهم (١) .

حسدهم الرسول

وكان اليهود يكرهون محمدا وينظرون إليه وإلى دعوته بعين الخوف من أول يوم طلع عليهم فى أفق يثرب. ثم ازداد خوفهم منه وظهر حسدهم له عند ما رأوا الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدس والارجاف ثم بالمراء والجدل فيما يعلمون ومالا يعلمون . واذا سئلوا عن شىء مما فى كتبهم حرّفوا الكلم عن مواضعه ، وألبسوا الحق بالباطل ليكسبوا ولاء المشركين بالغض من شأن الاسلام لالسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به من الرسالة . وقد نعى الله عليهم ذلك بقوله (بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) (٢) . وكانوا يسعون فى دين الله معاجزين لكى يفتنوا الناس عن دينهم ويوهنوا عقائدهم بالشبه والأباطيل . وفى ذلك يقول الله تعــالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ

(١) كان اليهود يستنصرون على المشركين فى الجاهلية ويقولون اللهم انصرنا بنبى آخر الزمان . واذا سألهم العرب قالوا ان نبيا قد قرب زمانه وسيكون لمن اتبعه العز والنصر الى يوم القيامة ، ويتوعدون العرب باتباعه والاستنصار به عليهم .

(٢) سورة البقرة ٢ : ٩٠

بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ (١)

مصابرة الرسول لليهود

كل ذلك والنبى يُصابرهم ويصبر عليهم (٢) ويغض الطرف عن نفاق من نافق منهم ، ويُسوِّى بينهم وبين المسلمين فى المصالح ويحترم شعائرهم .وقد وفى لهم بعهودهم مكتفيا بعقاب الأشخاص الذين كانوا يخالفون عهوده ولم يأخذ البرىء منهم بجرم المسىء ، كما فعل بكعب بن الأشرف وسَلاَّم بن أبى الحقيق . فقد اكتفى بقتلهما دون أن يتعرض لجماعة اليهود .

ومع ذلك فقد كان يرفق باليهود إذا نقضوا عهده أو حاربهم فانتصر عليهم ؛ فكان لا يعاقبهم إلا بمقدار مايكف أيديهم عنه ؛ وكان يُحَكِّمُ فيهم من يختارونه بأنفسهم (٣)

وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم كانت أيسر وأخف من معاملته قريشا وغيرها .

كيد اليهود للاسلام

ولما رأى اليهود جماعة المسلمين تتكاثر والاسلام ينتشر ويفتح الله لقبوله قلوب العرب، وأن جميع مصالح اليهود ــ القائمة على ارستقراطية دينية فرضوها على العرب بقولهم إنهم شعب الله المختار وأبناءُ الله وأحباؤه ــ أصبحت مهددة باستقرار الأمر لهؤلاء العرب الأميين ،

---

(١) سورة البقرة ٢ : ١٠٩

(٢) فقد أمر الله تعالى بالعفو عنهم والصفح حتى يأتى أمر الله . قال تعالى (ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم .... فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ان الله على كل شئ قدير) .

(٣) قيل إنه لما أخضع الرسول بنى قينقاع مشى اليه فيهم عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى وجماعة من الخزرج ـ وكانوا حلفاء بنى قينقاع فى الجاهلية فوهبهم الرسول لهم ـ وفى بنى النضير بعد أن قهرهم النبى وأصبحوا فى قبضة يده وسألوه أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم فأجابهم الى ما طلبوا وهم الذين دبروا قتله بالقاء حجر عليه . فكان الرجل منهم يهدم بيته ويخلع بابه فيحمله مع ماله قبل أن يخرج . وقد حكم الرسول فى بنى قريظة سعد بن معاذ وهو سيد الأوس حلفائهم فى الجاهلية والذى اختاروه بأنفسهم .

أيقنوا ألا سبيل للمحافظة على هذه المصالح وضمان اطمئنانهم فى الجزيرة إلا بالقضاء على محمد وأتباعه .

لذلك مافتئوا يكيدون للاسلام والمسلمين بكافة الطرق، وينتهزون الفرص لمحاولة قتل الرسول تارة وتأليب سائر العرب على المسلمين تارة أخرى ، وتحزيب الأحزاب ضدهم ثم خيانة عهود المسلين ونقضها فى أحرج الأوقات ، وممالأة الأعداء عليهم ليستأصلوا شأفتهم ويبيدوهم عن آخرهم .

تأهب اليهود للاغارة على يثرب

فلما فشلت كل هذه المحاولات وأخفق العرب فى القضاء على محمد ، جمع اليهود شملهم وتحزّبوا أحزاباً وقاموا بأنفسهم للاغارة على المدينة ليدهموا المسلمين فيها . فسعى بذلك يهود خيبر الى بنى عمهم فى تيماء وفَدَك ووادى القرى . ولا غرو فإن فى خيبر أشراف بنى النضير الذين ساروا إليها بأموالهم ودانت لهم خيبر وأصبحت بيدهم دفة الأمور فيها [١] .

فلما علم الرسول بتأهب اليهود للاغارة على يثرب والقضاء على الاسلام فى معقله ، عاجلهم وسار إلى خيْبر مَعقد هذا الحلف وصاحبة الزعامة فيه ، والرأس المدبرة له المهيمنة عليه . فقضى عليها ليتفرغ لأداء الرسالة وتبليغ دين الله الى خلقه .

المستشرقون وغزو اليهود

ولعل فيما أوردناه عن موقف اليهود حيال الرسول وعدائهم لدعوته ومكائدهم التى دبروها ضده مايدحض أقوال بعض ذوى الأغراض من المستشرقين الذين دفعهم حقدهم على الإسلام إلى القول بأن الغرض الأول من إغارة المسلمين على اليهود إنما هو

---

(١) سبق أن روينا عن ابن هشام (فى غزوة بنى النضير) أن اشراف بنى النضير خرجوا الى خيبر بما حملت الابل من أموالهم ، ومنهم من سار الى الشام فكان من أشرافهم الذين ساروا الى خيبر سلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وحيى بن اخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها .

الحصول على الغنائم . من ذلك مايقوله مرجوليوث :(١)

رأى مرجوليوث فى غزوة خيبر

« وقد عاش محمد هـذه السنين الست بعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب . ولـكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه . وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية فى المدينة . فقد كان هناك على أى حال سبب ما - حقيقيا كان أومصطنعا - يدعو إلى انتقامه منهم . إلا أن خيبر ، التى تبعـد عن المدينة كل هذا البعد ، لم يرتـكب أهلها فى حقه ولافى حق أتباعه خطأ يعتبر تعديا منهم جميعا - لأن قتل أحدهم رسول محمد لايصح أن يكون سببا يتذرع به للانتقام »

ولم يطمئن مرجوليوث إلى مارواه الواقـدى من أن الرسول قد وصل إلى علمه أن يهود خيبر يعدون العـدة لشن الغارة على المدينة .

ثم ينتهى مرجوليوث من ذلك كله إلى أن المسلمين إنما غزوا خيبر للحصول على ما فيها من الغنائم ، وأن الحجة التى تذرعوا بها ، وهى أن أهلها لم يكونوا على الاسـلام ، ينطوى تحتها شن الغارة على العالم خارج المدينة ، وإلى أن الرسول قـد غير سياسته مع اليهود ومع المشركين حيث يقول : « وهذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذى طرأ على سياسة الرسول منذ أيامه الأولى فى المدينة عند ما أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين ، وأن يترك الوثنيين لا يتعرض لهم بسوء ، طالما كانوا بعيدين عن إظهار عدائهم للمسلمين . أما الآن فان مجرد القول بأن جماعة ما ، مشركة أو يهودية أو غير مسلمة ، يعتبر كافيا لشن الغارة عليها . وهذا يفسر لنا تلك الشهرة التى سيطرت على نفس محمد ، والتى دفعته إلى شن غارات متتابعة ، كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبله ونابليون من بعده » .

---

(١) D. S. Margoliouth, Muhammad and the Rise of Islam, p. 362.

وهذا يبين لنا السبب الذى حـدا بمرجوليوث إلى أن يقول :
«إن استيلاء محمد على خيبر يبين لنا إلى أى حد قـــد أصبح الاسلام خطرا يهدد العالم » (١)

مناقشة رأى مرجوليوث

وإنا لنعجب لهذا الأسلوب والمذهب الذى يذهب اليه مرجوليوث ومن نحا نحوه فى قراءة التاريخ . فاذا حدثه التاريخ بأن الرسول قد أُتى بعين « جاسوس » أقر لهم بأنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم معونة فدك ونصرتها على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر ! أوقال له إن الذى قبض على هذا العين إنما هو علىّ بن أبى طالب الذى ذهب إلى فدَك لما علم الرسول أن لهم جمعا يريدون أن يمدوا يهود خيبر ، شك مرجوليوث فى صدق التاريخ وأمانته ، لأن صدق التاريخ فى هذه الحالة يدحض دعواه ويصد هجماته على الرسول والمسلمين .

وإذا روى التاريخ لكل غزوة أسبابها الملجئة التى كان يصح أن تدعو الرسول وتحمله على أنواع من العقاب أقسى مما كان يفعل ، وروى إلى جانب هذه الغزوات حرص الرسول على الوفاء بعهوده ودَفْعه الديات لمن قتلهم أتباعه خطأ ، وعَفوه عن كل معتد إذا أتاه مسلما (٢) ـ إذا حدثه التاريخ بكل ذلك أصم أذنيه وادعى أن الرسول قد غير سياسته التى أعلنها فى أيامه الأولى بالمدينة .

أما دعواه بأن المسلمين ماهاجموا خيبر إلا رغبة فى الحصول على أموالها ، فلعل فى خروج المسلمين الأولين بمكة عن أموالهم وتحملهم ألوان الفتنة وآلام العزلة ، ثم الاغتراب والهجرة ، ولعل فى إيواء الأنصار إخوانهم المهاجرين وقسمتهم ثرواتهم عليهم (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى

---

(١) Ibid, pp. 362—263

(٢) من ذلك عفوه عن وحشى قاتل عمه حمزة ورفاعة بن سموأل القرظى (ابن هشام ج ٣ ص ٩٦) ، وهند بنت عتبة التى لاكت كبد حمزة ومثلت به ، وعن مالك بن عوف صاحب هوازن الذى قتل فى المسلمين وخدعهم فى عماية الصبح (ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٠) .

أنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) ، ولعل فى الآلام التى تحملوها والفقر والجوع والهول والفزع التى ذاقوا مرارتها فى غزوة الأحزاب وفى غيرها — لعل فى ذلك كله مايدحض تلك الضربة التى رمى بها مرجوليوث المسلمين.

غزوة خيبر [1] (سنة ٧ هـ) :

لما أزاح الله عن المدينة خطر الأحزاب من قريش ومن والاهم ، حول الرسول اهتمامه الى اليهود ليؤدبهم على نقضهم العهود وتحالفهم مع أعدائه من مشركى مكة وغَطَفان . فابتدأ ببنى قُرَيْظة الذين خذلوه ونقضوا عهده ، ثم أمضى شطرا كبيراً من السنة السادسة فى محاربة يهود وادى القُرى و فَدَك ، وأخذ يعد العدة لغزو خيبر التى آوى اليها سادة بنى النضير وأشرافهم ، وأخذوا يعقدون المحالفات ويفاوضون يهود فدك على نصرتهم ، على أن يكون لهم ثمر خيبر [2] ؛ كما أرسل زيد بن حارثة فى رجب من هـــذه السنة فى غزوة إلى وادى القرى ، فجُرح فيها وقُتل كل أصحابه ، فنذر أن يعيد الكرة عليهم إذا شُفى من جراحه . فعاد إليهم فى رمضان من هذه السنة .

فتح خيبر

فلما عاد الرسول من العُمْرة فى شهر ذى الحجة سنة ٦ ، أقام بالمدينة أياما ، ثم سار إلى خيبر (المحرم سنة ٧ هـ) [3] ، فوصل إلى وادى الرَّجيع [4] فى الليل [5] ، وأناخ بها . فلما أصبح ركب إلى خيبر

---

(١) وتقع على طريق الشام على مسيرة خمسة أيام من المدينة - راجع هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت . (٢) الطبرى ج ٣ ص ٨٣

(٣) كان دليل الرسول حسيل بن نويرة الأشجعى (الطبرى ج ٣ ص ٩٣)

(٤) وهو غير وادى الرجيع القريب من الطائف الذى يسكنه بنو الرجيع الذين عدوا على المسلمين فى غزوة بنى الرجيع . قال ياقوت فى معجمه : «وهذا غير الأول ، لأن ذاك قرب الطائف. وخيبر من ناحية الشام على خمسة أيام من المدينة ، فيكون بين الرجيعين أكثر من خمسة عشرة يوما» .

(٥) روى الترمذى فى جامعه (ص ١٩٨) عن مالك بن أنس عن حميد عن أنس أن

دون أن يحس أهلها ، حتى بلغها والعمال قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم (١) . فلما رأوه رجعوا هاربين إلى حصونهم . فلما همت غطفان بنصرة خيبر وجدوا الرسول قد نزل بوادى الرجيع بينهم وبين خيبر ليحول دون مساعدتهم إياهم (٢)، فرجعت . وأخذ الرسول فى مهاجمة الآطام (٣) ، فاستولى على حصن ناعم (٤) ثم حصن القموص وهو حصن ابن أبى الحقيق . وقد امتنع على المسلمين حصن الصعب ابن مُعاذ مدة حتى جهدوا من طول الحصار ونفد ماعندهم .

وقد جاء إلى الرسول جماعة (٥) يسألونه بعض القوت ، فلم يجدوا عنده شيئا ، فدعا لهم . ثم غدا الجيش فى ذلك اليوم ففتح الله عليهم حصن الصَّعْب بن معاذ ، وكان أكثر الحصون طعاما . فتحسن مركز المسلمين وقووا على الحصار والمهاجمة . ثم تداعيت بقية الحصون إلا حصنى الوطيح والسُّلالم . فقد اعتصم بهما اليهود ودافعوا عنهما، حتى قطع النبى عنهم الماء وأيقنوا بالهلاك ، فسألوه أن يسيرهم ويحقن دماءهم ، ففعل . ثم سألوه أن يقيهم على الأرض يزرعونها ، لأنهم أعلم بها وأعمر لها ـ

رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج الى خيبر اتاها ليلا . وكان اذا جاء قوما بليل لم يغر عليهم حتى يصبح .

(١) المسحاة أداة من أدوات الزراعة لجرف الطين . والمكاتل جمع مكتل كمنبر وهو زنبيل يسع خمسة عشر صاعا

(٢) يقول ابن هشام (ج ٣ ص ١٧١) ان غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى اذا ساروا منقلة (مرحلة) سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسا ، فظنوا أن القوم قد خالفوا اليهم (يعنى أنهم خشوا أن يكون الرسول قد عدل عن غزو خيبر الى غزو غطفان نفسها) فرجعوا الى أعقابهم ، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله وبين خيبر

(٣) الحصون

(٤) وقد قتل محمود بن سلمة عند مهاجمة هذا الحصن حيث ألقى اليهود عليه رحى فقتلته .

(٥) وهم بنو سهم من أسلم . وقد بلغت الحال فى جيش المسلمين أن اضطروا الى أكل الحمر الأهلية ، فنهاهم الرسول عن ذلك ، وأجاز لهم لحم الخيل

على أن يكون لهم نصف ماتغله الأرض ويؤتيه النخل - فأجابهم الرسول إلى ذلك وقال لهم : « على إنا إذا شئنا أخرجناكم » .

فلما سمعت فدَك بغزو خيبر ، وبما رضى النبى لهم به بعد الحرب صالحوه على مثل ذلك (١) بدون حرب ولا قتال وكذلك صنع يهود تيْماء إلا وادى القرى فقد استمسكوا وأبوا حتى هاجمهم الرسول واضطرهم الى التسليم .

غزوة مؤتة (٢) (سنة ٨ هـ) :

لما أرسل الرسول الى الغساسنة يدعوهم إلى الاسلام قتلوا رسول النبى ؛ فأنفذ إليهم الرسول فى السنة الثامنة جيشا عدده ثلاثة آلاف بقيادة مولاه زيد بن حارثة . فلقيته جموع هرقل من الروم والعرب عند قرية مؤتة ؛ فقاتل زيد حتى قتل ؛ فتولى القيادة بعده عبد الله بن أبى رواحة ثم جعفر بن أبى طالب ، فقتلا . فاختار المسلمون خالد بن الوليد لقيادتهم ، فقاتل قتالا شديدا ومازال يدافع الروم حتى ردهم على أعقابهم على الرغم من كثرة عددهم . ثم عاد بجيش المسلمين إلى المدينة . وقدنزل الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم بخبر من استشهد من القواد فى هذه الغزوة ، فصعد المنبر وخطب المسلمين خطبة أخبرهم فيها بقتل زيد ومن خلفه فى قيادة الجيش إلى أن قال « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه » . لذلك سمى خالد سيف الله .

وقد قال حسان بن ثابت :

فلا يُبْعِدَنَّ الله قتْلى تتابعوا بموتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيدٌ وعبدُ اللهِ هُمْ خَيْرُ عُصْبَةٍ تَواصَوْا وأسْبَابُ المَنِيَّةِ تَنْظُرُ (٣)

(١) وكان فيمن سعوا فى ذلك محيصة بن مسعود وأطعمه الرسول من غنيمة خيبر ثلاثين وسق (حمل) شعير وثلاثين وسق تمر .

(٢) بالضم ثم واو مهموزة ساكنة وتاء مثناة من فوقها . وهى قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . وكانت تطبع بها السيوف واليها تنسب المشرفية من السيوف .

(٣) أنظر لفظ مؤتة فى معجم البلدان لياقوت .

فتح مكة أو غزوة الفتح (سنة ٨ هـ) :

نقض أهل مكة الهدنة التى عقدت بينهم وبين الرسول فى السنة السادسة للهجرة ، فأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين ؛ فاستجارت هذه القبيلة بالرسول ، فسار إلى مكة فى السنة الثامنة من الهجرة فى عشرة آلاف من المسلمين .

ولما علم أهل مكة بقدوم هذا الجيش ، خرج قادتهم خاضعين . وكان فى مقدمتهم أبو سفيان ، فأكرمه الرسول ، ودخل المسلمون مكة ، وسار رسول الله إلى الكعبة وطاف بها سبع مرات ، ثم أمر بإزالة التماثيل والصور وحطم أصحابه الأصنام وهو يقول (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) . (١)

العوامل التى ساعدت على فتح مكة

ولا يفوتنا أن نبحث العوامل التى ساعدت على فتح مكة بهذه السهولة ، وما كان من انقياد سادة قريش وأصحاب الرأى فيهم الى الرسول بعد ما أذاقوه هو والمسلمين كل ألوان التعذيب حتى هاجر من مكة الى المدينة حيث آواه الأنصار ونصروه على أهله . ومن نظر فى أمر قريش ومسلكها مع الرسول عرف أن شيوخها وشبابها كانوا ذوى حماسة شديدة فى جهاد الاسلام أول الأمر . وكان انتصار الرسول لا يزيدهم إلا شدة وحماسة ؛ فلما تكرر هذا الانتصار وعظم أمره فى جميع البلاد العربية ، وقُتلت سادات قريش ومات ذوو الحلم فيها ، أخذ الشبان وذوو المطامع يترددون ويتساءلون عن أى الأمرين أوفق لهم : رأوا قوة المسلمين وضعف المشركين ، فكانوا يودون لو انضموا الى هذه القوة الناشئة فأفادوا واستفادوا . ولكنهم كانوا يخشون اتهام قومهم إياهم وضياعَ ما كانوا يستمتعون به من الحرية ؛ فنهم من

(١) سورة الاسراء ١٧ : ٨١

تغلّب على هذه الأوهام فذهب الى المدينة وأسلم ، كخالد بن الوليد ، ومنهم من اشتد تردده فاعتزل الطرفين حينا ، حتى اذا ما وضح الصبح لذى عينين وتبين له أن أمر محمد قد ظهر على قريش ، أسرع فأدرك الفرصة قبل ضياعها وأسلم قبل الفتح كعمرو بن العاص . فقد اعتزل البلاد العربية ، وذهب الى أرض محايدة هى أرض الحبشة ليرقب الأمر ، فرأى ما كان من حسن الصلة بين المدينة والنجاشى وأيقن أن أمر الاسلام سينتهى بالظفر ، وأن سقوط مكة قريب ، وأنه إن أراد أن يدخر لنفسه مكانة بين أقرانه الذين سبقوه الى الاسلام ، فليس له بدٌّ من أن يسلم طائعا قبل أن يُسلم كارها .

ولقد روى عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر ابن الخطاب لعمرو بن العاص : « لقد عجبتُ لك فى ذهنك وعقلك كيف لم تكن من المهاجرين الأولين ؟ فقال عمرو : وما أعجبك ياعمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستطيع التخلص منه إلا الى ما أراد الذى هو بيده ! فقال عمر : صدقتَ » .

ولم يكن هذا أمر عمرو وحده ، وإنما كان أمر طائفة كثيرة من الذين أسلموا متأخرين . ولسنا نشك فى أن عمراً حين أسلم ، كان قد وثق بأن أمر الاسلام ليس مقصوراً على بلاد العرب ، بل هو متجاوزها إلى غيرها ، وأنه قد تنبأ بما سيكون للمسلمين من فتح [1] .

أثر فتح مكة

كان فتح مكة واستيلاء المسلمين على البيت الحرام (الكعبة) من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الاسلامية ، فقد اعتقدت القبائل العربية التى رفضت الدعوة بادىء ذى بدء أن المسلمين تلحظهم عناية إلهية لا قِبَل لغيرهم بها ، فسارعوا الى الاسلام ودخلوا فيه أفواجا .

---

(١) أنظر كتاب تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٠ - ٣١

وبعد أن تم للنبي النصر على أهل مكة أخضع فريقا من البدو كان يهدد هـــذه المدينة ، كما أخضع أيضاً مسيحيي نجران وأمراء مَهْرة وعُمان ، وقبائل اليمن ونجد .[١] ولم يأت عام ١٠ هـ (٦٣١ م) حتى كانت بلاد العرب جميعها خاضعة له . وبذلك دالت دولة الأصنام واستؤصلت شأفة الوثنية من بلادالعرب .

رأى نلدكه

يقول نِلدكه « ولو أن القبائل العربية استطاعت أن تعقد فيما بينها محالفات حربية دقيقة ضـــد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية والذّود عن استقلالهم ـ الأمر الذى كان ذا أهمية فى نظرهم ـ لأصبح جهاد محمد فى مناجزتهم جهاداً فى غير عدو ؛ إلا أن عجز العربى القح عن أن يجمع شتات القبائل المتفرقة وأن يُوَحِّدَ بين البطون الممزقة للعمل تحت لواء واحد ـ حتى وإن كان ذلك فى سبيل الظفر بغايات سامية وأغراض خطيرة الشأن ـ قد سمح له أن يخضعهم لدينه القبيلة تلو الأخرى ، وأن ينتصر عليهم بكل الوسائل . فتارة بالقوة والقهر ، وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلمية .

«وإن الهدايا الثمينة التى كان يتألف بها الرسول قلوب الناشئين فى الدين ، وكذلك خاصة القوم وصفوتهم الذين لم يتغلغل الايمان بعد فى قلوبهم كان لها أثر كبير فى قلوب العرب ، حتى أصبحوا يدخلون فى دين الله أفرادا وجماعات » .[٢]

مناقشة عبارة نلدكه

ويتبين لنا مما ذكره نلدكه أنه لم يفطن لما كان من اجتماع العرب على حرب الرسول فى غزوة الأحزاب . فقد حزبوا الأحزاب ضده ، وأغاروا على المدينة وحاصروها ، وضيّقوا على أهلها حتى كادوا يقضون على المسلمين بها ، لولا ما أبداه الرسول من المهارة الحربية

(١) كان من بينهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح وعبد الله بن الزبعرى أحد شعراء قريش .

(٢) Historians' History of the World, vol. VIII.p.11.

والسياسية . فقد أمر بحفر الخندق ليحول بين الأحزاب وبين دخول المدينة ، كما أمر نُعَيم بن مسعود ليُخذِّل عنه غطفان وبنى قُرَيْظة وقريشاً ويوقع بينهم — لما يعلمه من حُسْن صلته بهم — كما سيأتى تفصيل ذلك فى غزوة الأحزاب .

غزوة حنين (سنة ٨ هـ) :

قدوم هوازن وثقيف لمحاربة الرسول

لم يكد يمضى على الرسول بمكة خمسة عشر يوما بعد الفتح حتى سمع بقدوم هوازن وعلى رأسها مالك بن عَوْف (من بنى نصر) ومعهم ثقيف . وقد حشد مالك خلف الجند النساء والأطفال والأموال لكى يحول بينهم وبين الفرار . فلما أشار عليه دُرَيْد بن الصِّمَّة بارجاعهم لئلا يثقلوا الجيش ويعوقوا حركته ، أبى ونزل حنَيْنًا وأوصى رجاله أن يكسروا جفون (١) سيوفهم إذا لقوا المسلمين وأن يحملوا عليهم حملة رجل واحد .

خروج الرسول لحربهم

فلما سمع الرسول بهم ندب من يتعرَّف له أمرهم . فلما استيقن من تجمعهم للحرب وعرف ماأعدوه لها من خطة ، رجع إلى الرسول وأخبره بتجهزهم للقتال . فخرج اليهم الرسول ، ومعه عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار الذين فتح الله بهم مكة وألفان من أهلها ، واستعار الرسول من صَفْوان بن أميَّة (٢) مائة درع بما يكفيها من السلاح ثم خرج بالجيش . حتى إذا بلغوا حنَيْنًا فى عماية الصبح راعهم انقضاض القبائل من هوازن وثقيف عليهم من شُعَب الوادى . ففزع

أخذ المسلمين على غرة

المسلمون واختل نظامهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين ؛ وأقام الرسول ينادى أين أيها

---

(١) أغماد

(٢) وكان لايزال مشركا

الناس ؟ هلموا إلىّ ! أنا رسول الله محمد بن عبد الله . ولم يبق حوله إلا نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيت الرسول منهم العباس بن عبد المطلب ممسكا بعنان بغلة الرسول وأبو سفيان بن الحارث .

واشتد الحال على المسلمين وعظم البلاء (١) حتى كانوا لا يسمعون نداء الرسول لهم . عند ذلك أمر الرسول العباس بن عبد المطلب — وكان جوهرى الصوت بدينا — أن يصيح فى الناس يامعشر الأنصار ياأصحاب السَّمُرة (٢) ! فأجابوه : لبَّيْك لبيك ! وسارعوا ناحية الرسول يتراكضون إليه ؛ حتى كان الرجل إذا عجز عن اقتحام السبيل إلى الرسول على بعيره نحره وقصد إليه راجلا .

يا أصحاب السمرة

اجتمع حول الرسول نحو المائة من الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام ، فاستقبلوا الأعداء بقلوب مطمئنة وقام العباس ينادى : ياللأنصار ! ياللخزرج ! فتكاثر الناس حوله .

هزيمة المشركين

فلما أسفر الصبح وخرج العدو من مكمنه التقوا به وجهاً لوجه ، ثم اجتلد القوم واستحرّ القتال . وقال الرسول : «الآن حمى الوطيس» . وقد أهوى علىٌّ بن أبى طالب إلى صاحب راية المشركين فضرب عُرقوبَىْ جمله ووثب أحد الأنصار على الرجل فقتله ، وتمت هزيمة المشركين وتفرقت فلولهم . فذهب مالك بن عوف ببعضهم إلى الطائف ، وذهب آخرون إلى سهل أوْطاس ونخلة ، فتتبع المسلمون

---

(١) حتى قال كلدة أو جبلة أخو صفوان بن أمية : ألا بطل السحر اليوم . وقد حدثت شيبة بن عثمان بن أبى طلحة نفسه بالانتقام من الرسول وأخذ ثأر أبيه الذى قتل يوم أحد . قال فأردت برسول الله صلى الله عليه وسلم لأقتله فأقبل شئ حتى تغشى فؤادى ، فلم أطق ذلك فعلمت أنه ممنوع منى (ابن هشام ج ٣ ص ٢٧٣)

(٢) وهى الشجرة التى عقدت بيعة الرضوان تحتها . وكان يطلق عليها اسم السمرة أو السدرة ؛ فكان يناديهم بذلك تذكيرا لهم بعهدهم الرسول فى تلك البيعة .

من ذهبوا إلى أوطاس ومن ذهبوا إلى نخلة ، بينما انصرف الرسول من وادى حُنين إلى الطائف فى إثر مالك بن عوف ليحاصرها ؛ وقد أمر بحمل السبايا والغنائم إلى الجِعْرانة (١) حتى يعود من حصار الطائف .

حصار الطائف

سار الرسول الى الطائف مطاردا فلول ثقيف الذين لجأوا اليها ، ومعهم مالك بن عَوْف ، حتى اذا دخلوا مدينتهم أغلقوا عليهم أبوابها واعتصموا بالحصون يرمون المسلمين بالنبال من فوقها . وكان الرسول قد عسكر قريبا منهم ، فأمر أصحابه بالتقهقر قليلا حتى لا يستهدفوا لنَبْل المشركين ، مكتفيا بحصارهم . ولكن ثقيفا صمدت لقتال المسلمين وحصارهم خمسة عشر يوما (أو بضعة وعشرين على رواية أخرى) وظلت تنوشهم بالنبال مطمئنة الى مناعة أسوارها ووفرة الغذاء والمؤنة فيها (٢) ، حتى اضطر الرسول الى أن ينصب المنجنيق (٣) ويرميهم به ، كما سير اليهم جنده فى الدبابات (٤) والضُّبور (٥) ليتقى بها المسلمون النبل الموجه اليهم من عَلُ . فلم يلبثوا — وكانوا أهل حذق ومهارة — أن احتالوا

استعمال المسلمين المنجنيق والدبابات وغيرها

---

(١) بكسر أوله وسكون العين وتخفيف الراء . وبعضهم يكسر العين ويشدد الراء . وهى ماء بين الطائف ومكة ، وهى الى مكة أقرب . وقال أبو العباس القاضى : أفضل العمرة لأهل مكة ومن جاورها من الجعرانة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر منها . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت.

(٢) روى ابن سعد (ج ٢ ص ١١٤) أن ثقيفا رموا حصنهم وأدخلوا فيه مايصلحهم لسنة

(٣) قال ابن هشام (ج ٣ ص ٣٠٢) ان أول من رمى فى الاسلام بالمنجنيق رسول الله صلى الله عليه وسلم . رمى به أهل الطائف والمنجنيق أداة ترمى بها الحجارة على الاعداء.

(٤) الدبابة أداة من أدوات الحرب يدخل المحاربون فى جوفها ويدفعونها الى جدار الحصن فينقبونه وهم فى داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من نبل العدو

(٥) الضبر ويجمع على ضبور كسهل وسهول : أداة كالدبابة تقريبا تصنع من الخشب المغطى بالجلد فيكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن لقتال أهله وهم فيها . وهى أشبه بالسيارات المدرعة اليوم .

لصدها عنهم بالقاء قطع الحديد المحمية عليها ، فأحرقوها واضطروا من فيها إلى الخروج منها ، ثم رموهم بالنبل ، فقتلوا منهم رجالا . فلم يجد الرسول بدا من أن يهددهم باتلاف بساتينهم وتحريق كرومهم ، وهى عزيزة عليهم لما لها من الشهرة وبعد الصيت فى جميع أرجاء جزيرة العرب ، حتى غدت الطائف بفضل هذه الكروم جنة فيحاء وسط هذه الصحراء القاحلة . وأخذ المسلمون فى تنفيذ أمر الرسول فعز على ثقيف كرومها وقد رأت الجد من الرسول وأتباعه ؛ فبعثت اليه من يخبره « بأنه ليس بالطائف مال أبعد رشاء ولا أشـــد مؤونة ولا أبعد عمارة من مال بنى الأسود ، وان محمدا ان قطعه لم يعمر أبدا .. فليأخذه لنفسه أوليدعه لله والرحم . فان بيننا وبينه من القرابة مالا يجهل »[1] . وأقام الرسول على حصارهم حتى اذا دنا شهر ذى القعدة (وهو من الأشهر الحرم) فك عنهم الحصار ليرجع اليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم .

تهديد ثقيف باتلاف كرومهم

عاد الرسول إلى الجِعِرّانة حيث كانت تنتظره أسلاب هوازن وسبيها . وقد وافاه بالجعرانة وفد هوازن مسلمين تائبين وطلبوا منـه أن يرد عليهم أموالهم ومن سبى منهم ، فخيرهم بين أخذ السبى أو الأموال ، فآثروا نساءهم وأموالهم على الأموال . فنزل لهم الرسول عن كل من دخل منهم فى ملكه أو ملك بنى عبدالمطلب ، وقال لهم : إذا صليتُ فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك

عودة الرسول الى الجعرانة

غنائم هوازن

ومما ينبغى الاشارة اليه بهذه المناسبة ما رواه ابن هشام (ج ٣ ص ٢٩٩) من « أن عروة ابن مسعود وغيلان بن سلمة لم يشهدا وقعة حنين ولا حصار الطائف لأنهما كانا يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبورة » مما يدل على مبلغ اهتمام ثقيف بحرب الرسول واعدادها المعدات المختلفة لتلك الحرب التى شنتها عليه وهو فى مكة ، فكانت وقعة حنين .

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣٠٤

واسأل لكم ، ففعلوا . فقال رسول الله : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » ، وقال المهاجرون والأنصار : « وما كان لنا فهو لرسول الله » ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة ابن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سُلَيم فلا » . فأجابه بنو سليم بأنهم نزلوا عمن فى أيديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . (١) فقال عليه الصلاة والسلام لمن احتبس نصيبه من سبى هوازن وضنّ به : ادفعوها ولكم بكل إنسان ست فرائض من أول شىء أصيبه . فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم ، وأنقذ الرسول بحكمته لهوازن كل من أخذ منها .(٢)

ثم أهلّ(٣) الرسول بالعمرة من الجِعْرانة ، فرجع إلى مكة وفرق الغنائم فى المؤلفة قلوبهم من سادات قريش وغيرها من قبائل العرب .

تغير نفوس الانصار

على أن الأنصار قد تغيرت نفوسهم لذلك بعض الشىء وساورتهم الشكوك ، فظنوا أن الرسول وقد لقى قومه صار فى غنى عنهم ؛ فلم يعد يحفل بهم ولا يُعنى بشأنهم كما كان من قبل . فلما بلغ الرسول ذلك أمر سعد بن عُبادة أن يجمع له الأنصار ، فجمعهم وخطبهم تلك الخطبة التاريخية التى يتجلى فيها حسن سياسة الرسول وقدرته على جذب النفوس وتأليف القلوب ، ومهارته فى إعداد سامعيه وتهيئتهم لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم والتأثر به إلى ابعد حد .

فقد بيّن للأنصار فى عبارة سلسة أخاذة نعمة الإسـلام عليهم ، إذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة والبغضاء ،

---

(١) يلاحظ أن هؤلاء الذين رفضوا كانوا من الذين خرجوا مع رسول الله من مكة فى حرب هوازن ، فهم ممن أسلموا يوم الفتح وليسوا من المهاجرين ولا الأنصار الذين خالط الايمان قلوبهم وقام الاسلام على أكتافهم

(٢) ابن هشام (ج ٣ ص ٣٠٧ - ٣٠٩)

(٣) أهل بالحج أو بالعمرة : اذا أحرم من الميقات (وهو المكان الذى يلبس فيه قاصد مكة لحج أو عمرة لباس الاحرام) ونوى الحج أو العمرة

ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم رسالته وإيواءهم إياه ومؤاساتهم له ، ثم عتب عليهم فى كياسة وظرف تطلعهم إلى هذا الفيء الذى أفاءه الله عليهم، ففرقه الرسول فى نفر حديثى عهد بالاسلام تطييبا لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة ، معتمداً على حسن إسلام الأنصار وصدق رغبتهم فى نشر هذا الدين وإعلاء كلمة الله ، ثم أكد محبته إياهم وإيثارهم على غيرهم من العرب ، وأخيراً أعلن اليهم أنه منهم ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم .

فلا عجب إذا بكى الأنصار بعد هـذه الخطبة الرائعة وطابت نفوسهم برضاء رسول الله عليهم وعدوا ذلك غنما عظيما .

رواية الطبرى

روى الطبرى أنه لما اجتمع الأنصار لرسول الله حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ثم قال : « يامعشر الأنصار ! ماقالةٌ بلغتنى عنكم وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ! لله ولرسوله المن والفضل . فقال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ؛ قال : أما والله لو شئتم لقلتم فصَدَقتم ولَصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّبا فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلا فآسيناك. وجدتم فى أنفسكم يامعشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم . أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرا من الأنصار . ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! فبكى القوم حتى أخضَلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قِسْماً وحظا . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا . »

ثم عزم الرسول على العودة إلى المدينة فأقام على مكة عَتّاب بن أُسَيْد (١) ثم سار إلى المدينة ، فوصل اليها فى ذى القعدة سنة ٨ للهجرة .

اسلام الطائف

ظنت ثقيف — وقد رأت جيش المسلمين يتراجع عن الطائف دون أن ينال منهم شيئا أو أن يكرههم على التسليم — أنها قد امتنعت بحصونها على الرسول وأصحابه ، وانتصرت عليهم وهم الذين دانت لهم جزيرة العرب كلها . فاعتزت ثقيف بهذا النصر وفرحت به ثم شمخت بأنفها على من جاورها من القبائل ، وعز عليها أن يقوم عُروة بن مسعود فوق عَـلِيَّة (مكان عال) له ينادى للصلاة ويدعو إلى دين ذلك النبى الذى يغض من شأن طاغيتهم وصنمهم « اللات » ، فرشقوه بالنبال حتى قتلوه . (٢) عندئذ لجأ ابنه أبو مُليح ومعه قارب ابن الأسود إلى الرسول — وقد أسلما — « يريدان فراق ثقيف وألا يجامعاهم على شىء أبدا » . (٣)

قتل عروة وهرب ابنه بسبب اسلامهما

ولا غرو فقد أصبحت ثقيف أشد على المسلمين من قريش فى عهد نضالها مع الرسول . وقد آوى الرسول هذين اللاجئين ، كما آوى

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٣٩

وفى رواية أخرى للطبرى (ج ٣ ص ٣٢) أنه استخلف أبا بكر على أهل مكة وأمره أن يقيم للناس الحج ويعلم الناس الاسلام ، وأمره أن يؤمن من حج من الناس .

(٢) عند ماقدم الرسول المدينة بعد حصار الطائف وفد عليه عروة بن مسعود مسلما . وهو من سادات ثقيف . وكان أثناء حصار الطائف فى جرش (من مخاليف اليمن) يتعلم صناعة الدبابات والضبور التى عزمت ثقيف على أن تعدها لمهاجمة الرسول فى موقعة حنين . فلما علم بانصراف الرسول عن الطائف وذهابه الى المدينة لحق به حتى قيل إنه أدركه قبل أن يصل الى المدينة . فلما أسلم استأذن الرسول فى العودة الى الطائف ليدعو قومه الى الاسلام . فخشى عليه الرسول عنت أهل الطائف وحذره أن يقتلوه ، فعزم على الذهاب معتمدا على شرف بيته فيهم ورفعة شأنه بينهم وقال للرسول : « أنا أحب اليهم من أبكارهم » . فلما وصل الى الطائف دعا قومه الى الاسلام ، حتى إذا كان الفجر صعد الى علية له ودعا من فوقها الى الصلاة والايمان بالله ، فاجتمعوا عليه ورموه بالنبل فمات مغتبطا باستشهاده فى سبيل الله وطلب أن يدفن مع من استشهد من المسلمين فى حصار الطائف فدفن معهم .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٣٥٦

غضب القبائل المجاورة لقتل عروة

العبيد الذين انضموا إليه عند حصار الطائف وأعتقهم . ولم تدر ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد من محاصرة الجند . فقد أصبحت ثقيف منعزلة بوثنيتها فى الطائف عن سائر العرب حولها الذين أسلموا وأصبحوا جميعا يناصبونها العداء ويعتبرون أنفسهم فى حالة حرب معها لمناوأتها للاسلام وتعذيبها من أسلم من أهلها ، كما فعلت مع عروة ومع هؤلاء العبيد .

تفكير ثقيف فى مصالحة الرسول

وقد أحست ثقيف بشدة وطأة هـذا النوع من الحصار وثقله عليها . روى ابن هشام [١] أن عمرو بن أمية أتى « عبد ياليل » — وكان بينهما شىء من الجفاء — فقال له : « إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة . إنه قد كان من أمر هـذا الرجل (يعنى الرسول) ما قد رأيتَ . وقد أسلمت العربُ كلها، وليست لكم بحربهم طاقة . فانظروا فى أمركم » . عند ذلك ائتمرت ثقيف بينها وقال بعضهم لبعض : « أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد الا اقتطع ؟ » . فائتمروا بينهم وأجمعوا على أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا كما أرسلوا عروة . فعرضوا ذلك على عبد ياليل ، فأبى الا أن يكون معه رجال حتى إذا عادوا شغل كل رجل منهم رهطه وحملهم على الالتزام بما التزم به الوفد ، فأجابوه الى ذلك .

شروط ثقيف للصلح

قدم وفد ثقيف على الرسول فى الشهر الذى عاد فيـــه من غزوة تبوك (رمضان سنة ٩ هـ) ، وعرضوا على الرسول إسلامهم . وشرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة وأن يترك لهم طاغيتهم «اللات» لا يهدمها ثلاث سنين . فأبى إلا أن يدخلوا فى الإسلام من غير قيد ولا شرط ، حتى لقد سألوه أن يتركها سنتين بدلا من ثلاث ثم سنة ثم شهراً فأبى . غير أنه أعفاهم من أن يهدموها بأيديهم ، وأرسل معهم

تمسك الرسول بأصول التوحيد

---

(١) ج ٣ ص ٣٥٣

أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعْبة . (١)

وقد أمر الرسول عليهم عثمان بن أبي العاص — وكان أحدثهم سناً ، ولكنه كان أحرصهم على التفقه فى الاسلام وتعلم القرآن .

هدم « اللات »

وكتب لهم الرسول كتاباً . (٢) فلما بلغوا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى وقال له : ادخل أنت على قومك . ولما شرع المغيرة فى هدم « اللات » قام أهله (بنو مُعَتِّب) دونه يحمونه خشية أن يُرمى كما رُمى عُروة بن مسعود . وقد خرجت نساء ثقيف حُسَّراً يبكين على صنمهم

ثبات الطائف على الاسلام

على أن أهل الطائف الذين حرصوا على وثنيتهم كل هذا الحرص ، والذين دافعوا الرسول عنها بهذه الحماسة ، قد أصبحوا بعد إسلامهم من أشد العرب حرصاً على الإسلام وذوداً عنه ، حتى فى محنة الردة حيث أصبح الإسلام مقصوراً على أهل مكة والمدينة والطائف وقبيلة عبد القيس كما سيأتى فى الكلام على ردة العرب .

غزوة تبوك (٣) (سنة ٩ هـ) :

وفى السنة التاسعة للهجرة بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام أن

---

(١) كان المغيرة بن شعبة من بنى ثقيف أنفسهم . وكان كما - وصفه النووى فى تهذيب الاسماء واللغات (ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٠) - موصوفا بالدهاء والحلم . وكذلك كان لابى سفيان بن حرب حرمة ومكانة عند أهل الطائف . وكان له فيهم قرابة ورحم . وقد فقئت إحدى عينيه فى حصار الطائف .

(٢) أنظر نص هذا الكتاب فى ابن هشام (ج ٣ ص ٣٥٧)

(٣) تقع على بعد اثنى عشر فرسخا من المدينة . وقد عزى الى الرسول أنه قال لعلى بن أبى طالب : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، الا انه لانبى بعدى ؟ » . ولهذا الحديث علاقة برحيل الرسول الى تبوك . وقد استخلف عليا على المدينة ، فثقل ذلك على

الروم قد تجمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، ومعهم بعض القبائل العربية ، فدعا المسلمين إلى الجهاد ، وخرج بالجيش فى طريق الشام . فلما وصل إلى تبوك أقام فيها أياما فصالحه أهلها ؛ وجاءت الوفود من أيلة وغيرها وصالحوه على دفع الجزية كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجيش إلى دومة الجندل ، فأسر صاحبها واستولى عليها ، ثم عاد الرسول إلى المدينة — وغزوة تبوك هذه هى آخر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم .

حجة الوداع :

فى السنة العاشرة للهجرة خرج الرسول للحج فى أكثر من مائة ألف من المسلمين . وعند جبل عرفات ألقى على المسلمين خطبته الخالدة التى يعتبرها المؤرخون دستور الاسلام . ولا غرو فقد بيَّن فيها أصول الاسلام وقواعده ، ونادى بالمساواة بين الناس لا فرق فى ذلك بين العبد الحبشى والشريف القرشى إذ يقول : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

ولما ذهب الرسول إلى مكة ليقضى عمرة الحج ، كان فى أكثر من مائة ألف من أنصاره المسلمين .

وقد تم القرآن بنزول قوله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً)(٢)

أهلها ، فتبع على الرسول وشكا ذلك اليه ، واعتذر عن العودة الى المدينة ، فقال له الرسول : «ارجع ياأخى الى مكانك ، فأنت خليفتى فى أهلى ودار هجرتى (يعنى المدينة) وقومى . أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، الا أنه لا نبى بعدى» ؟ أنظر كتاب «الفاطميون فى مصر» للمؤلف ص ٢٣ - ٢٤ .

(١) مكان بين المدينة وفلسطين

(٢) سورة المائدة ٥ : ٣

مرض الرسول

ولم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول عليه الصلاة والسلام بالحمى .

وصية الرسول

فلما رأى الأنصار اشتداد المرض على الرسول أحاطوا بالمسجد ، فأخبره الفضل بن العباس وعلىّ بن أبى طالب بذلك ، فخرج متوكئاً على علىّ ، والعباس والفضل أمامهما . وكان الرسول معصوب الرأس يخط برجليه ، فجلس فى أسفل مرقاة من المنبر وقال بعـــد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ! بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خُلد نبى قبلى ممن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى ، وأنكم لاحقون بى . فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم، فان الله تعالى يقول (والعَصْرِ إنَّ الإِنْسانَ لَفِى خُسْرٍ . إلاّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ) .(١) وإن الأمور تجرى باذن الله . ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد . ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه . فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وتُقَطِعُوا أرْحَامَكُمْ .

« وأوصيكم بالأنصار خيراً - فانهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم - أن تحسنوا اليهم . ألم يشاطروكم فى الثمار ! ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين ، فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا يستأثروا عليهم ؛ ألا وإنى فرَطٌ لكم وأنتم لاحقون بى . ألا فإن موعدكم الحوض (٢) . ألا فمن أحبّ أن يرده علىّ غدا فليكفكف لسانه إلا فيما ينبغى .

---

(١) سورة العصر ١٠٣

(٢) يعنى حوض الكوثر الذى يشرب منه المؤمنون يوم القيامة .

وفاة الرسول

وقد انتقل الرسول إلى جوار ربه فى يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ .(٨ يونية سنة ٦٣٢ م) وهو فى الثالثة والستين من عمره بعد أن بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة على أحسن الوجوه وأكملها .[١]

وقع الخبر على المسلمين

وقد وقع خبر وفاة الرسول على المسلمين وقع الصاعقة ، حتى إنهم ذهلوا ونسوا ما نزل من الآيات التى تشير إلى موت الأنبياء كسائر البشر . حتى لقد وقف عمر بن الخطاب رافعاً سيفه مهدداً بالقتل كل من يقول بوفاة النبى وهو يقول « إن رجالاً من المنافقين زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ، وأنه والله ما مات ، ولكنه ذهب كما ذهب موسى . والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقطع أيدى رجال زعموا أنه مات . »

رثاء أبى بكر

فلما أقبل أبو بكر نزل على باب المسجد وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على الرسول عليه الصلاة والسلام وهو مغطى بثوب ؛ فكشف عنه وقال :

« بأبى أنت وأمى ! طِبْتَ حيّاً ، وطبْتَ ميتاً ! وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموتِ أحدٍ من الأنبياء من النبوّة . فَعَظُمْتَ عن الصفة ، وجلَلْتَ عن البكاء ، وخَصَصْتَ حتى صِرْتُ مَسْلاة [٢] ، وعَمَمْتَ حتى صِرْنا فيك سَواء . ولولا أنَّ موتك كان اختياراً منك ، لَجُدْنا لموتك بالنفس ، ولولا أنك نَهيتَ عن البُكاء ، لأنفدْنا عليك ماء الشئون [٣] ، فأما ما لا نستطيع نَفيَهُ عنا فكمَدٌ وإدنافٌ [٤] يتحالفان

---

(١) ابن سعد ج ٨ ص ١٢١ ؟ السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ص ٥٦

(٢) خص الشىء من باب قعد خصوصا فهو خاص : خلاف عم ' مثل اختص (وكلا الفعلين يستعمل متعديا ولازما) ، والمعنى انك يارسول الله قد صرت بموتك مسلاة للناس ، فانك مع ما اختصصت به من مناقب النبوة قد نزل بك الموت .

(٣) جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين .

(٤) دنف المريض كفرح ، وأدنف : ثقل ، والشمس : دنت للغروب واصفرت

ولا يَبْرحان . اللهم فأبْلِغْهُ عنا السلام ، أذكرنا يا محمد عند ربك ، ولكن من بالك ، فلولا ماخَلفْتَ من السَّكينة لم نُقِمْ لِما خَلَّفْتَ مِنَ الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا ، واحفظه فينا ! » .

خطبة أبي بكر في المسلمين

ثم خرج إلى الناس وخطب خطبته الحكيمة ؛ فثاب الناس الى رشدهم :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أنَّ الكتاب كما نَزَل ، وأنَّ الدِّين كما شرع ، وأنَّ الحديث كما حَدَّث ، وأنَّ القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين . . . ثم قال : أيها الناس ! من كان يعبد محمَّداً فان محمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حيٌّ لا يموت ، وإنَّ الله قد تقدم اليكم فى أمره . فلا تَدَعوه جَزَعاً ، وإنَّ الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابَهُ ، وسنة نبيه . فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر . « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم ، فعاجلوه بالذى تعجزونه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم » (١)

مكان دفن الرسول

وقد روى عن مالك قال : « بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى يوم الاثنين ودفن يوم الثلاثاء ، وصلى عليه الناس أفواجا لا يؤمهم أحد . وقد اختلفوا فى مكان دفنه . فقال بعضهم : ندفنه فى مكة مسقط رأسه ، وقال آخرون بالبقيع مع أصحابه ، وقال غيرهم ندفنه فى مسجده ، فقال أبو بكر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مادفن نبي إلا مكانه الذى توفى فيه ، فحفر له فيه » (٢)

(١) ابن هشام ج ٣ ٤٦٧ - ٤٦٧ ؟ الطبرى ج ٣ ص ١٩٧ - ١٩٨ ؟ زهر الآداب ج ١ ص ٣٥

(٢) تيسير الوصول الى جامع الأصول ج ٤ ص ١٩٥ ؟ سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ٤٧٦)

صفات الرسول

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتدل القامة متوسط الطول ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، كثيف الشعر سبط الأطراف ، عريض ما بين الكتفين ، أبيض اللون مشربا بحمرة ، أكحل العينين أدعجهما : وكان إلى ذلك يعنى بنظافة جسمه وثيابه ويحرص على حسن هندامه . وفى ذلك يقول « النظافة من الايمان » . وكان حاضر البديهة سريع الجواب فى أدب ووقار ، كما كان كثير الانشراح والتبسط مع أصحابه وأهله . وكان شديد الحياء إلا فى حدود الله ، فإنه كان لا يخشى فى إقامتها لومة لائم . روى عن أبى سعيد الخدرى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء [1] .

حسن سياسته

وكان الرسول سياسيًا حكيما ذا رأى صائب وفكر ثاقب . وقد بدت مهارته السياسية فى التأليف بين أهل المدينة ، وهم الأوس والخزرج ، كما ظهر ذلك جليًا فى تصرفاته التى كان يصدرها على البديهة ويخرج بها من أشد المآزق حرجًا .

روى ابن هشام (٢) أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر عند ما تفاقمت روح العصبيـــة بين الأنصار والمهاجرين فى غزوة المُرَيْسِيع — حتى قال عبد الله بن أُبَىّ بن سَلول : ليخرجن الأعز منها الأذل — بالارتحال وسار فى وقت الظهيرة ، ولم يُرِح الجيش حتى وصل الى المدينة لكى لا يترك للرجال فرصة الجدال والانقسام وهم بعيدون عن مدينتهم ، كما رفض ما عرضه عليه عمر من قتل ابن سلول رأس النفاق وسبب هذه الفرقة وترفق بابنه عبد الله ، إذ طلب اليه أن يأذن له بقتل أبيه إذا أراد ، فقال له

(١) صحيح البخارى على هامش ابن حجر العسقلانى ج ٦ ص ٣٧٣

(٢) ج ٣ ص ١٣٥

الرسول : بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا ؛ فكان ابن أبىّ هذا إذا أحدث حدثًا بعد ذلك عاتبه قومه وعنفوه . وقد قال رسول الله لعمر بن الخطاب يومًا كيف ترى ياعمر ! أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .

كما ظهر ذلك أيضًا فى الانتفاع بحسن صلة نُعَيْم بن مسعود بكل من قريظة وقريش وغطفان فى الايقاع بينهم وتخذيلهم بعضهم عن بعض ، حتى أذن الله وأزال عن المدينة خطراً داهمًا .

وكان صلى الله عليه وسلم ذا نفس سمحة تحب الخير وتميل إلى العفو ؛ كثير العطف والود والمجاملة لزوجاته وبناته ، رءوفًا بالفقراء واليتامى من المسلمين مؤثراً لهم عن أولاده .

زهده فى مال الله

قال ابن أبى ليلى [1] : أخبرنا على أن فاطمة اشتكت ماتلقى من الرحى ماتطحن ، فبلغها أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بسبى ، فأتته تسأله خادما فلم توافقه (تجده) فذكرت لعائشة . فجاء النبى فذكرت عائشة له ذلك . فأتانا وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبنا نقوم فقال على مكانكما حتى وجدت برد قدمه على صدرى ؛ فقال ألا أدلكما على خير مما سألتمانى ؟ إذا أخذتما مضاجعكما ، فكبرا الله أربعا وثلاثين واحمداه ثلاثا وثلاثين وسبحا ثلاثا وثلاثين إن ذلك خير لكما مما سألتماه . وقد ورد فى حديث آخر عن علىّ فى هذه القصة وفيه : والله لاأعطيكم وأدع أهل الصُفّة تطوى بطونهم من الجوع لاأجد ماأنفق عليهم ، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم . وفى حديث الفضل بن الحسن الضمرى عن ضباعة أو أم الحكم بنت الزبير قالت أصاب النبى صلى الله عليه وسلم سبياً فذهبت أنا وأختى فاطمة نسأله فقال : سبقكما يتامى بدر .

وكان عليه الصلاة والسلام قنوعا زاهدا صبورا . روى عن أنس قال :

---

(١) صحيح البخارى على هامش ابن حجر العسقلانى ج ٦ ص ١٣٢

قال صلى الله عليه وسلم : لقد أُخِفتُ فى الله وما يُخافُ أحد ، ولقد أُذِيتُ فى الله وما يؤذى أحد . ولقد أتت علىّ ثلاثون من بين يوم وليلة (يعنى ثلاثين يوما وليلة متتابعة) ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال . قال الترمذى فى شرح الحديث : حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال . أى أن ما كان مع بلال من الزاد كان قليلا بحيث يستره بلال تحت إبطه .

وروى عن على بن الجعدى عن .... قال ماعاب النبى صلى الله عليه وسلم طعاما قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه . وعن عائشة قالت : إن كنا آل محمد نمكث شهرا مانستوقد نارا إن هو إلا الماءُ والتمرُ !

وعنها أنها قالت ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما ، فان كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

معاملة أصحابه

ولم يكن أحرص منه على حسن معاملة أصحابه ، حتى لقد كان يُكنّى عن الشخص الذى يريد تنبيهه إلى خطأ لكى لا يُحقَّر بين الأقران . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه مالعن مسلما بذكر (أى بصريح اسمه) ، ولاضرب بيده شيئا قط الا أن يضرب بها فى سبيل الله ، ولا سل فى شىء قط فمنعه الا أن يسأل مأثماً ، ولا يألو جهدا فى أن يضرب لهم المثل وينأى بهم عن مزالق الطمع فى مال الله والاستجداء . روى أن حكيم بن حرام قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطانى ثم سألته ، فأعطانى ثم سألته فأعطانى ثم قال : ياحكيم ان هذا المال خضرةٌ حِلوة (١) من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراق نفس لم يُبارَك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خيرٌ من اليد السُّفلى .

---

(١) جلى العروس زوجها وصيفة أو غيرها أعطاها إياها . والجلوة بالكسر هى الشىء المعطى .

كرمه

وقد كان كريم اليد كثير الاعطاء من سأله حاجة لم يرده الا بها أو بالجميل من القول .

ميله للعفو

ذكر ابن هشام (١) أن كعب بن زهير بن أبى سلمى وفد عليه بعد أن هجاه وهجا المسلمين معتذرا تائبا ، وسأله العفو وأنشده قصيدته المشهورة « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » ، فعفا عنه وأجازه (٢) على شعره كما كان يجيز شعراء المسلمين حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة .

دعوى عموم الرسالة

رسل النبي الى الملوك والأمراء

أرسل الرسول فى السنة السادسة للهجرة الكتب إلى الملوك والأمراء ؛ فبعث دحية بن خليفة الكلبي الخزرجي إلى هرقل امبراطور الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى فارس ، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشي ، وحاطب بن أبى بلتعة اللخمى إلى المقوقس عامل هرقل على مصر ، وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى أمير بلاد اليمامة . وبعث شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى أخى بنى القيس صاحب البحرين ، وبعث عمرو ابن العاص إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى (٣)

ولعل انكار بعض المستشرقين كتب الرسول إلى الملوك والأمراء خارج جزيرة العرب راجع الى عدم عثورهم على مايدل على شيء من

---

(١) ج ٣ ص ٣٢٠

(٢) ذكر كثير من المصادر العربية أن النبي خلع على كعب بن زهير فى ذلك اليوم بردته فبقيت فى أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بن أبى سفيان بعشرين ألف درهم ، ثم بيعت للمنصور العباسى بأربعين ألف ولا زالت فى القسطنطينية إلى اليوم .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٤١٨ - ٤٢٠ والطبرى ج ٣ ص ٨٤ - ٨٥

ذلك فى الوثائق التى خلفها هؤلاء الملوك والأمراء ، وهذا لا ينهض دليلا على صحة هذا الزعم ؛ إذ ليس بعيدا أن تكون الصور الأصلية لتلك الكتب قد فقدت لسبب من الأسباب .

أما مؤرخو العرب فلا يشكون فى إرسال هذه الكتب ؛ فقد ذكر ابن هشام [١] واليعقوبى [٢] والطبرى [٣] ما يثبت بعوث الرسول إلى جيرانه من الملوك والأمراء وكتبه إليهم يدعوهم فيها إلى الإسلام ؛ وفى ذلك يقول الطبرى : «حدثنا ابن حميد قال حدثنى ابن اسحاق عن يزيد ابن أبى حبيب المصرى أنه وجد كتابا فيه تسمية من بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الخائبين [٤] وما قال لأصحابه حين بعثهم ؛ فبعث به (أى بالكتاب) إلى ابن شهاب الزُّهرى مع ثِقَةٍ من أهل بلده فعرفه (أى هذا الكتاب) »

وفى الكتاب أن رسول الله خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم : إنِى بعثتُ رحمة وكافة فأدُّوا عنى يرحمكم الله . ولا تختلفوا علىَّ كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم . قالوا يارسول الله ! وكيف كان اختلافهم ؟ قال دعا إلى مثل مادعوتكم إليه ؛ فأما من قَرُبَ به فأحب وَسلِم ، وأما من بَعُدَ به فكره وأبى ، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عز وجل ، فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بُعِثَ اليهم . فقال عيسى : هذا أمرٌ قد عزم الله لكم عليه ، فامضوا » . قال ابن اسحاق : ثم فرَّق الرَّسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، فبعث سُلَيْط بن عمرو بن العاص . . . . الخ

ويقال إن الكتاب الذى أرسل إلى هرقل كان كما يلى :

كتاب الرسول الى هرقل

« بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل .

---

(١) ج ٣ ص ٤١٨ - ٤٢٠ (٢) ج ٢ ص ٨٣

(٣) ج ٣ ص ٨٥

(٤) الكفار .

السلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسْـلِمْ تَسْلَمْ وأسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أجرك مرتين . وإن تتولَّ فإن إثمَ الأكارين (الأريوسيين) عليك (١) »



كتاب الرسول الى المقوقس

كشفه مسيو إيتين برثليمى . ويعتقد كثير من العلماء أنه الكتاب الأصلى نقله الأستاذ مرجو ليوث (٢) عن مجلة الهلال (نوفمبر سنة ١٩٠٤)

وهاك أيضا نصَّ كتاب الرسول إلى المقوقس :

كتاب الرسول الى المقوقس

بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهُدى . أما بعد فانى أدعوك بدعاية الإسلام . فاسْلَمْ تَسْلَمْ وأسلم يُؤْتك الله أجرك مرتين (يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلا اللهَ

(١) الطبرى ج ٣ ص ٨٧

(٢) D. S. Margoliouth, Muhammed and the Rise of Islam, p. 364.

وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ : فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » [١]

كتاب الرسول إلى النجاشى

وهاك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة . سلام أنت ! فانى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله . وقد بعثتُ إليك ابن عمى جعفراً ونفراً معه من المسلمين ، فاذا جاءك فأقرهم ودع التجبر فانى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغتُ ونصحت فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى » .[٢]

كتاب الرسول الى كسرى

واليك نص كتاب الرسول إلى كسرى فارس :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لااله الا الله ، وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا . أسلم تسلم ، فان أبيت فعليك اسم المجوس » .[٣]

أثر الكتب فيمن أرسلت اليهم

ولننظر الآن فى أثر هـذه الكتب فى الملوك والأمراء الذين أرسلت اليهم ، والذين يمثلون الشعوب التى كانوا يحكمونها . ومن

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (طبعة دار العاديات الشرقية بالقاهرة) ص ٤٢ . أنظر أيضا الطبرى ج ٣ ص ٨٧

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٨٩

(٣) راجع هذه الكتب فى صبح الأعشى للقلقشندى (ج ٦ ص ٣٧٦ - ٣٨٠)

المعلوم أنه لو قبل أحـــد من هؤلاء الملوك دعوة الرسول ودان بالاسلام ، لانتشر هذا الدين بين رعاياه .

على أن التاريخ لم يذكر لنا أن أحدا من الملوك الذين كانوا خارج جزيرة العرب قد دان بالاسلام ، وإن كان بعضهم قد أحسن معاملة الرسل وتجمل فى الرد على كتاب الرسول .

كسرى

فمن الطبيعى أن كسرى — وهو ذلك الملك الذى ورث « الحق الملكى المقدس » عن أجداده من آل ساسان — يأبى أن يكون تابعا للعرب . ومن ثم كان يخشى من هذا الدين على شخصه وسلطانه اللذين كانا موضع قداسة الشعب . هذا إلى ما كان يراه الفرس لأنفسهم من سيادة على عرب اليمن والحـــيرة وهم لايقلون فى نظرهم عن عرب الحجاز .

من ذلك لا نعجب إذا ثارت ثائرة كسرى فمزق كتاب الرسول وأرسل إلى باذان عامله على اليمن :

« ابعث إلى هـذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به » . فبعث باذان رسولين يحملان كتابا إلى الرسول يأمره فيه أن ينصرف معهما إليه ، فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش ، فسألاهم عن الرسول فقالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا ، وقال بعضهم : أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كفيتم الرجل . فخرج الرجلان حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا له : ان كسرى قـــد بعثنا اليك لتنطلق معنا . فصرفهما الرسول على أن يعودا اليه فى الغد . فأتى رسول الله الخبر من السماء « أن الله قـد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله » . فلما قدم الرسولان أخبرهما الرسول هذا الخبر فقالا له : إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟

قال : نعم ! أخبراه ذلك عنى وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ ملك كسرى ..... وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء . فعاد الرسولان إلى باذان فقصا عليه ماتنبأ به النبى فقال : والله ماهــذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبيا كما يقول . ولننظرن ماقد قال ، فلئن كان هذا حقا فانه لنبى مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا . فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه : « أما بعد فانى قد قتلت كسرى . ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما استحل من قتل أشرافهم . فاذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك (يعنى الرسول عليه الصلاة والسلام) ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه » . فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال : إن هذا الرجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن (١) »

رأى مرجوليوث فى هذا الكتاب

ويزعم مرجوليوث (٢) أن عيون الرسول كانت تأتيه بالأخبار بسرعة ، ويستبعد عدول رسولى باذان عن تأدية واجبهما على أثر نبوءة الرســول بموت كسرى ، ثم يقول : وإذا كان تاريخ اغتيال كسرى فارس صحيحا (٣) ، فان كل ما يمكن أن نفرضه هو أن هذا الاضطراب الذى انتشر على أثر مقتل كسرى قد كان السبب فى نقل عيون الرسول نبأ هذا الاغتيال اليه . ويزعم مرجوليوث أن هــذه الرسالة لم تسلم قط إلى كسرى .

على أنه قد فات مرجوليوث أن الرسول قد أعلن موت كسرى يوم اغتياله رغم بعد الشقة بين الحجاز وفارس ، حتى إن خبر موت

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٩٠

(٢) D. S. Margoliouth, Mohammed and the Rise of the Islam, p. 368.

(٣) الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة سنة ٧ هـ وذلك بعد استيلاء المسلمين على خيبر بثلاثة أشهر تقريبا .

كسرى لم يصل إلى بلاد اليمن إلا بعد نبوءة الرسول بمقتله وعود رسولى باذان اليه ، وانتظار باذان وصول الأخبار الرسمية من بلاد الفرس . وأما استبعاد مرجوليوث عدول رسولى باذان عن تنفيذ أمر كسرى لمجرد تنبؤ الرسول بمقتله فهو غير مقبول ؛ ولاسيما إذا علمنا أن عقلية بلاد العرب وما جاورها من بلاد الفرس والروم كانت مهيأة لقبول هذه التنبؤات . ناهيك بما كان من هرقل واشتغاله بعلم النجوم وكتابته الى صاحب ايلياء يستطلع رأيه فى ظهور نبى آخر الزمان .

هرقل

أما هرقل فان الرواية العربية تزعم أنه كان راغبا فى الإسلام ، وأنه تحدث فى شأن هـذا الدين الى أبى سفيان ونفر معه من قريش حين وصل اليه كتاب الرسول . وكأن الظروف قد هيأته لاستقبال كتاب الرسول استقبالا حسنا دعا به الى جمع رجال الكنيسة والافضاء اليهم بما وصل اليه ، حتى اذا نفروا وأنكروا ذلك عليه عدل عن رأيه وتظاهر بحرصه على المسيحية

ولا غرو فقد كان العالم فى ذلك الوقت يتطلع الى ظهور نبى آخر الزمان . وقد عنى هرقل نفسه بهذه المسألة عناية خاصة ؛ فقد كتب الى صاحب ايلياء — وكان مرجعا فى علم النجوم — يخبره بأنه رأى من علم النجوم أن نبى آخر الزمان قد ظهر ويسأله رأيه فى ذلك .

وقيعة أبى سفيان بالرسول عند هرقل

«قال أبو سفيان (١): خرجنا فى نفر من قريش تجاراً الى الشام . . . وواللّه إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته (شرطة هرقل) ، فقال أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) ؟ قلنا : نعم ! قال : انطلقوا بنا إلى الملك . فانطلقنا معه . فلما انتهينا اليه قال : أيكم أمسّ به رحماً ؟ قلت : أنا . فقال : ادنه

(١) صحيح البخارى (طبعة بولاق سنة ١٣١٣ هـ) ٨ ج ١ ص ٨ أنظر أيضا الطبرى . (طبعة القاهرة) ج ٣ ص ٨٥-٨٧؛ فتح البارى (شرح البخارى) لابن حجر العسقلانى (القاهرة سنة ١٣١٩هـ) ج ١ ص ٢٤ - ٣٤ ؛ عمدة القارى (شرح البخارى للعينى) القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ ج ١ ص ٩١

(اقترب) . فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى ثم قال : إنى سأسأله فإن كذب فردوا عليه . فوالله لو كذبت ماردوا علىّ . ولكنى كنت امرأ سيداً أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر مافى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك على ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه . فقال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى مايدعى . قال : فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره وأقول له : أيها الملك ! مايهمك من أمره ، إن شأنه دون مايبلغك . فجعل لا يلتفت إلى ذلك منى ثم قال : أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه . قلت : سل عما بدالك . قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : محض ، أوسطنا نسبا . قال : فأخبرنى هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل مايقول فهو يتشبه به ؟ قلت : لا . قال : فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت : لا . قال : فأخبرنى عن أتباعه منكم من هم ؟ قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ؛ وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : فأخبرنى عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟ (وفى رواية أخرى هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟) قلت : ماتبعه رجل ففارقه . قال : هل يغدر ؟ فلم أجد شيئا مما سألنى عنه أغمزه فيه غيرها . قلت لا ! ونحن منه فى هدنة (١) ولا نأمن غدره . قال : فوالله ماالتفت اليها منى ثم كر على الحديث فقال . سألتك كيف نسبه فيكم فزعمتَ أنه محض من أوسطكم نسبا ، وكذلك يأخذ الله النبى إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا ، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به ، فزعمت أن لا ، وسألتك هل كان له فيكم مُلك فاستلبتموه إياه ، فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء . وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان .

(١) يريد صلح الحديبية

وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه ، وكذلك حلاوة الايمان لاتدخل قلبا فتخرج منه (وفى رواية أخرى وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب) ، وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا . فلئن كنتَ صدقتنى عنه ليغلبنى على ماتحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه . انطلق لشأنك . قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى وأقول : إى عباد الله ! لقد أمر أمر ابن أبى كبشة (يعنى الرسولَ عليه الصلاة والسلام ، وكان يكنيه كفار قريش بأبيه من الرضاع استخفافا به . وأبو كبشة هذا هو زوج حليمة السعدية التى أرضعت الرسول)

عرض هرقل كتاب الرسول على أهل الرأى من دولته

ويحدثنا الطبرى(١) فى إحدى رواياته أن هرقل لما وصل اليه كتاب الرسول وهو بالشام يريد العودة إلى القسطنطينية جمع الروم فقال لهم :

« يامعشر الروم ! إنى عارضٌ عليكم أموراً فانظروا فيما قد أردتها . قالوا ماهى ؟ . قال : تعلمون والله أن هذا الرجل لنبىٌّ مرسل ، إنا نجده فى كتابنا نعرفه بصفته التى وصف لنا . فهلُمَّ فلْنَتّبِعْهُ فتسلَمَ لنا دنيانا وآخرتنا . فقالوا نحن نكون تحت يدى العرب ونحن أعظم مُلْكا وأكثرهم رجالا وأفضلهم بلداً ؟ قال : فهلمَّ فأعطيه الجزية فى كل سنة أكسِرُ عنّى شوكتَهُ وأستريحُ من حربه بمال أعطيه إياه . قالوا : نحن نعطى العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا ونحن أكثر الناس عدداً وأعظمهم ملكا وأمنعهم بلداً ؟ لا والله لا نفعل هذا أبداً . قال : فهلم فلأُصالحه على أن أعطيهُ أرض سورية ويدعنى وأرض الشام ، فقالوا له نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفتَ أنها سرة الشام ؟ والله لانفعل هذا أبداً ؛ فلما أبوا عليه قال : أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه فى مدينتكم ، ثم جلس على بغل له فانطلق

(١) ج ٣ ص ٨

حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال : السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع ، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية . »

من ذلك نرى أن الروايات العربية المختلفة تكاد تجمع على أن هرقل كان يميل الى قبول الاسلام ؛ وأن أهم الأسباب فى رفض الروم لهذا الدين هو أنه دين العرب الذين كان الروم يحتقرونهم ويستصغرون شأنهم ، وأن هرقل كان ضعيفاً أمام اجماع ذوى الرأى من دولته حتى لقد خيرهم بين قبول الدين أولا ثم عدّل رأيه الى مصالحة المسلمين على أن يعطيهم جزءاً من بلاد الشام

مناقشة الرواية العربية

على أنا لانستطيع أن نسلم بجميع ماجاء فى هذه الرواية العربية ولا سيما إذا علمنا — اعتماداً على المصادر التاريخية التى بأيدينا - أن هرقل كانت تحيط به فى ذلك الوقت أخطار خارجية ؛ فإنه — وإن كان قد انتصر على الآفار والصقالبة واسترد بلاد سورية ومصر ، وغزا بلاد الجزيرة وانتصر على الفرس فى موقعة نينوى سنة ٦٢٧ م ودخل بجيوشه فى قلب الدولة الفارسية وهدد عاصمتها المدائن(١) (سنة ٦٢٨م) ؛ فقد كانت جيوش خسرو تتقدم فى آسيا الصغرى وتهاجم البسفور ، وكادت القسطنطينية تقع فى أيديهم .

كما تصف لنا بعض الروايات حال هرقل وما كان يساوره من الأفكار إذ ذاك ، والمخاوف التى كانت تجول بخاطره فترغبه فى اعتناق الاسلام ، وأنه كان لا يريد الوقوع فى حروب مع عدو جديد بعد أن فرغ من حروبه مع الدولة الفارسية ؛ إذ كان يتوقع خطراً جديداً سوف يدهمه من ناحية هذه الدولة العربية الناشئة .

ومما يدل على أن هرقل كان يصدر فى ذلك الأمر عن بواعث

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ١٦١

سياسية أكثر منها دينية ، أنه جمع الجيوش الجرارة لحرب هؤلاء العرب في الشام وفلسطين ومصر ، وغضب على المقوقس واستدعاه إلى القسطنطينية حين علم بأنه دخل في صلح مع العرب ، ثم نفاه وأرسل الى قواد الروم بمصر يوبخهم ويحثهم على مواصلة القتال ضد العرب ؛ وظل كذلك الى أن مات والعرب يحاصرون حصن بابليون سنة ٦٤١ م (١) .

وقد يكون من بين الأسباب التي حملت مؤرخي العرب على الاعتقاد بأن هرقل كان يميل الى اعتناق الاسلام ماذكره الطبري (٢) من «أنه قد أجاز دِحْية الكلبي (سفير الرسول اليه) بمال وكساء كُسَىً» وأن ناساً من جذام بأرض حِسْمى (٣) قطعوا عليه الطريق ، ولم يتركوا معه شيئاً ، فجاء الى الرسول قبل أن يدخل بيته ، فبعث رسول الله زيد ابن حارثة في سرية الى أرض حِسْمى . ومع تسليمنا باحتمال صدق مافي هذا الخبر من الحوادث ، فلا نستبعد أن منح هرقل وحباءه دِحْية لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب السياسة أراد أن يتألف به قلوب المسلمين لما كان يخشاه من ظهور أمر الرسول . وليس أدل على صحة ذلك الرأي أنه جمع رجال دولته وعرض عليهم الإسلام ، فلما أبوا ورأى منهم الجد في الخروج عليه إن هو دخل في ذلك الدين عدل عن ذلك وقال لهم : يامعشر الروم ! إني قد عرضت عليكم وعرضت لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي قد حدث . وقد رأيت منكم الذي أُسر به »

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ج ٢ ص ٦٤ - ٦٦

(٢) ج ٣ ص ٨٧

(٣) أرض بادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان . وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم . قال المتنبي : حسمى أرض طيبة تنبت جميع النبات علوة جبالا في كبد السماء متناوحة ملس الجوانب ، اذا أراد الناظر النظر الى قلة أحدها فتل عنقه حتى يراها بشدة . ومنها مالايقدر احد أن يراه ولا يصعده ، ولايكاد القتام يفارقها ـ أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

المقوقس

وأمّا المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل أمبراطور الروم ، فإنه لم يقلّ عن هرقل فى الاحتفاء بحاطب بن أبى بلتعة رسول النبى اليه . فمؤرخو العرب يكادون يجمعون على أنه قد أحسن استقباله وأجابه بقوله : قد كنتُ أعلمُ أن نبيًّا قد بقى ، وقد كنتُ أظن أن مخرَجه الشامُ — وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله — فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جَهْدٍ وبؤسٍ ، والقبطُ لا تُطاوعنى فى اتباعه ؛ ولا أُحبُّ أن يُعلَمَ بمحاورتى إياك » (١) . وقد رده بهدية إلى النبى صلى الله عليه وسلم اتفق المؤرخون على أن منها مارية القبطية وأختاً لها وشيئاً من خيرات مصر (٢) . ويمكننا أن نثق بصدق هذه الرواية اعتماداً على ما أجمع عليه المؤرخون من أنه كانت عند الرسول جارية تدعى مارية القبطية وأنها هى التى ولدت له ابنه إبراهيم

وكان من أثر استقبال المقوقس لحاطب بن أبى بلتعة ، وهذه الهدايا التى كان من بينها مارية القبطية التى أنجبت للرسول ابنه إبراهيم ، أن أثنى الرسول على أهل مصر من القبط وأوصى بهم خيراً إذ يقول : « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لهم فيكم صِهراً وذمة » (٣)

النجاشى

أما النجاشى ، فعلى الرغم من تأكيد الرواية العربية أنه قد أسلم (٤)

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ج ٢ ص ٤٢

(٢) تختلف الروايات فيضيف بعضها الى ذلك كسوة وبغلة بسرجها ، وبعضهم يضيف خصيا . ذكر الطبرى أنه كان حارسا ودليلا واسمه مابور ؛ كما ذكر البعض الآخر أنه كان من بين الهدية طبيب وأن الجوارى كن أربعا لا اثنتين .

ومما يؤثر عن الرسول أنه قبل الهدية ورد الطبيب وقال : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا اكلنا لا نشبع .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٢٨ . أورد ابن عبد الحكم (ج ١ ص ٢٠١) رواية تشبه هذه .

(٤) متأثرة بما أبداه من حسن استقبال المهاجرين واكرام ضيافتهم وامتناعه عن تسليمهم الى قريش اذ بعثت اليه فى طلبهم .

وعلى الرغم من مظاهر حسن الصلة التى نشأت ودامت بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم طيلة حياته (١)، فإن هذا كله لايحملنا على القول باسلام النجاشى، ولاسيما أن جمهرة المؤرخين وثقاتهم يكادون يجمعون على أن الاسلام لم يظهر فى بلاد الحبشة إلا بعد دولة من الزمن. يدل على ذلك مارواه الطبرى وابن الأثير (٢) من أن الحبشة «كانت قد تطرفت طرفا من أطراف الاسلام (أى أغارت على طرف من بلاد المسلمين) فى زمن عمر، فبعث إليهم علقمة بن مُجَزِّز المدلجى فى البحر فى نفر من المسلمين فأصيبوا؛ فجعل عمر على نفسه (أى عزم) ألا يحمل فى البحر أحداً يعنى للغزو» (٣)

رأى السير توماس أرنولد فى قيمة هذه الكتب

يقول السير توماس أرنولد فى كتابه «الدعاية الاسلامية»: على أنه وإن كانت هذه الكتب قد بدت فى نظر بعض من أُرسلت إليهم ضربا من الخُرْق والغرور الداعى إلى السخرية، فقد برهنت الأيام على أنها إنما صدرت عن يقين ثابت وحماس متقد. وتدل هذه الكتب دلالة واضحة على دعوى عموم الرسالة التى تكررت فى القرآن للحث على الاسلام» (٤). فقد قال تعالى فى سورة (ص):

---

(١) حتى لقد رووا أن النبي قد نعى النجاشى الى المسلمين مما جعل بعض المؤرخين يذهبون الى أن النجاشى كان مسلما (الطبرى ج ٣ ص ٨٩) وقد أورد ابن هشام (ج ١ ص ٣٠٩) عن عائشة أنها قالت: لما مات النجاشى كان يتحدث أنه لايزال يرى على قبره نور. وهذا الحديث - لو صح - يبين لنا مبلغ اعجاب المسلمين بالنجاشى

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٣١؛ وابن الاثير ج ٢ ص ٢٤٠

(٣) ذكر ابن سعد (كتاب الطبقات الكبير ج ٢ ص ١١٧) أن هذه الغزوة كانت فى عهد الرسول (شهر ربيع الآخر سنة ٩ هـ). وسواء صحت روايته أو الرواية التى اتفق عليها كل من الطبرى وابن الاثير، فان ذلك لاينقص قيمة هذه الحادثة فى ذلك الاستدلال الذى ذهبنا اليه.

(٤) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 28; Noeldeke, Sketches from Eastern History, trans. by J. S. Black, p. 73.

(إنْ هُوَ إلّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ، ولَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)(١) وفى سورة يس (ومَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ إنْ هُوَ إلّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مُبِينٌ ، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ، ويَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) ، (٢) وفى سورة الفرقان (تَبَارَكَ الّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) (٣)

(ومَا أرْسَلْنَاكَ إلّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً ، ولَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

(قُلْ يَاأيُّهَا النَّاسُ إنِّى رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ جَمِيعًا)

(ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلَامِ دِينًا ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ) (٤)

(وَمَنْ أحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً) (٥)

(قَاتِلُوا الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ولَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ، ولَا يُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ، وقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يُؤْفَكُونَ ، اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إلّا لِيَعْبُدُوا إلَهاً وَاحِدًا لَا إلَهَ إلّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا

---

(١) سورة ص ٣٨ : ٨٧ - ٨٨
(٢) سورة يس ٣٦ : ٦٩ — ٧٠
(٣) سورة الفرقان ٢٥ : ١
(٤) سورة آل عمران ٣ : ٨٥
(٥) سورة النساء ٤ : ١٢٥

يَشْرِكُونَ ، يُرِيدونَ أنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللهُ إلّا أنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرونَ . هُوَ الّذِى أرْسَلَ رَسولَهُ بالْهُدَى وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ) . (١)

راى المستشرقين

وينكر بعض المؤرخين أن الاسلام قد قصد به مؤسسه فى بادىء الأمر أن يكون دينا عالميا رغم هذه الآيات البينات . ومن بينهم السير وليم ميور (٢) إذ يقول « إن فكرة عموم الرسالة قد جاءت فيما بعد ، وإن هذه الفكرة ، على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التى تؤيدها ، فإن محمداً نفسه لم يفكر فيها . وعلى فرض أنه قد فكر فيهـا ، فقد كان تفكيره تفكيرا غامضا . فان عالمه الذى كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أن هـــذا الدين الجديد لم يُهيَّأ إلا لها ، وأن محمدا لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلاّ للعرب دون غيرهم . وهكذا نرى أن نواة عالمية الاسلام قد غُرِسَتْ ؛ ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك ، فانما يرجع هـذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج » .

وكذلك شك الأمير كيتانى (٣) فى أن يكون النبى قـــد تخطى بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم فى ذلك الوقت إلى هذا الدين .

مناقشة راى المستشرقين

ومن الغريب أن يشك السير وليم ميور فى صحة دعوى عموم الرسالة ، وأن يبنى شكه هذا على أن محمدا ما كان يعرف غير الجزيرة ،

---

(١) سورة التوبة ٩ : ٢٨ — ٣٣

(٢) Sir William Muir, The Caliphate, p.p. 43—44

(٣) Caetani, Annali dell' Islam, vol. v. pp. 323-324

وأنها كانت عالمه الذى لم يفكر فى سواه ، وأن هذا الدين لم يُهيّأ إلا لتلك البلاد ، وأن محمدا من أول حياته إلى آخرها لم يوجه دعوته إلا للعرب دون غيرهم . فهل خفيت على ذلك العالم صلة قريش بدول ذلك العهد وماأتاحته لها التجارة من دربة وخبرة بشئون هذه الأمم وأحوالهم ، وأن محمدا بوجه خاص قد سافر غير مرة للتجارة ببلاد الشام ؟ — فقد سافر وهو صبى مع عمه أبى طالب فى تجاراته ، حتى إذا بلغ خديجة مابلغها عن خبرته وأمانته استأجرته وألقت بمالهابين يديه ؛ فكان من مهارته وحذقه ماجعلها تعرض عليه الزواج منها . ولما تزوج بها استمر يعمل فى هــــذا المال بالتجارة أيضا . أفبعد ذلك يمكن أن يقال عن محمد إنه كان لايعرف غير بلاد العرب وهو رجل عصامى لم يكسب مركزه الممتاز فى مكة قبيل البعثة إلا من ذكاء عقله وكفاية مواهبه ؟ وهل يستبعد على محمد الذى خرج من مكة ناجيا بنفسه ونفس صاحبه أن يتخطفها الناس لائذا بأهــل المدينة الذين آووه ونصروه ، ثم صــبر وصابر حتى عاد إلى مكة بعد ثمانى سنين وهو السيد الآمر فيها وفى الجزيرة ، تُحَوِّم حول شخصه مائة ألف من القلوب أوتزيد ومن ورائهم الكثيرون من أرجاء الجزيرة العربية يدينون له بالطاعة يقدم عليه رؤساؤها وأكابرها ؟ هل يبعد على هذا الرجل أن يرنُوَ بناظره إلى ماوراء الجزيرة ليبسط عليها سلطانه إن كان من محبى السلطة والحكم ، أوليفيض عليها من فضــل الله الذى غمر الجزيرة وملأها عدلا وأمنا ودَعَةً وحبا ؟

لو قيل إن الاسكندر المقدونى كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالم القديم كله وتجعله يلتف حول هذا الشاب الاغريقى لصدقنا . ولو قيل إن نابليون كان يعمل على تكوين امبراطورية تشمل العالمين القديم والجديد ليجلس على عرشها ذلك الفتى الطليانى لصدّقنا .

أما إذا قيل إن محمد بن عبد الله قد فكر فى أن يدعو خلق الله المتاخمين لجزيرة العرب والمتصلين بقريش — اتصالا تعيش عليه قريش وينبنى على أساسه كل شىء فى البيئة القرشية — فذلك أمر يعز على البحث النزيه والعقل الحر أن يقبله إلا أن يكون تفكير ذلك النبى فى هذا الأمر تفكيرا على نحو غامض .

وأما القول بأن هذا الدين « لم يهيأ إلا لبلاد العرب » فان ذلك لن يمنع محمدا من التفكير فى تعميم دينه ، لأن هذا التفكير ، سواء تحقق أو لم يتحقق ، إنما يعتمد على اعتقاده أن دينه صالح لذلك. وقد ثبت من القرآن أنه كان يعتقد أن الاسلام قد هُيىء لكل حالة ، وأن القرآن قد تكفل بتبيان كل شىء إذ يقول الله تعالى لرسوله فى غير آية : (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) و (مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ)

على أننا نلاحظ أن كل ما تمتاز به الحضارة الغربية من قواعد ونظم انما قد وضع أساسها القرآن ، وهو المعين الذى استمد منه الرسول (محمد) دينه ، سواء أكانوا قد أخذوها عنه أم توصلوا اليها بانفسهم .

أحاديث الرسول

ويؤيد دعوى عموم الرسالة للجنس البشرى ما أثر عن الرسول أنه قال عن بلال إنه أول ثمار الحبشة ، وعن صُهَيْب إنه أول ثمار الروم ، وكذلك قال عن سَلْمان الذى كان أول من تحول من الفرس والذى كان رقيقا نصرانيا بالمدينة ، واعتنق هذا الدين الجديد فى السنة الأولى للهجرة .

وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الاسلام ليس مقصورا على الجنس العربى ؛ وذلك قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل .

ومما يدل على دعوى عموم هذا الدين لكل العالم هذه الرواية التى نقلناها عن الطبرى [١] والتى تنص على أن النبى قد أرسل الدعاة لنشر الاسلام بين جميع الأمم.

أثر الاسلام فى العرب

المستشرقون والرسالة:

يعزو بعض المستشرقين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمورا يشمئز منها الذوق السليم ويبرأ منها النقد النزيه، من ذلك مايقوله الأب لامانس (Lammens) [٢] من الأقوال اللاذعة التى ملأ بها بطون كتبه، ونلدكه (Nöeldeke) الذى يقول «كان النبى لا يتحرج فى اختيار الوسائل التى تضمن له النجاح والظفر فى الوقت الذى كان فيه خياليا ولم يكن له سلطان على خياله وعواطفه». ويقول عن القرآن «وإنا ليضايقنا ويقزز نفوسنا ذلك الخيال السقيم والعوز فى المنطق، والفقر المدقع فى الافكار، والاضطراب والنبو وعدم الاتساق الذى نراه فى القرآن.

رأى نلدكه

«وأما أن العرب كانت تقشعر جلودهم وترتاع نفوسهم لذكر الجنة والنار، فلأنهم كانوا ضعيفى الفهم قليلى الادراك لم تشرق عقولهم بعد، ولم تنبثق مخايل ذكائهم فى الوقت الذى كانت تثب على قلوبهم روعة ذلك الوصف وتفعل أفاعيلها فى نفوسهم. على أنهم ماكانوا يسمعون إلا لبعض آى قلقة مضطربة فى وقت واحد وآن واحد.»

مناقشة هذا الرأى

هذا هو رأى بعض مؤرخى الفرنجة فى الرسول عليه الصلاة والسلام وفى القرآن الكريم كتاب الله، الذى لا يأتيه الباطل من بين

---

(١) ج ٣ ص ٨٥

(٢) فى كتابه P. Lammens, Berceau de l'Islam.

يديه ولا من خلفه . وهو رأى غير سديد وقول غير رشيد وحكم خاطىء جائر ، أشبه بحكم رجل لم يقرأ القرآن ولم يتفقّه معانيه ، ويلمس مافيه من حكم بالغة وأسرار عظيمة ، وقواعد قويمة فى التشريع والسياسة ، ونظم عمرانية كان لها جليل الأثر فى صلاح حال الانسانية وتقويم ما اعوج منها ، وتعبيد ما التوى على المصلحين قبله وبعده من طرق الاصلاح وجادّة الفلاح .

على أن الكثيرين من المنصفين قد صرحوا بأن القرآن وحده ، وما فيه من قواعد العمران وأسس المدنية الحقة ، هو الذى أخرج للعالم تلك المدنية التى لايزال الأوربيون يستغلون ثمارها بعد أن وضع لهم القرآن نظمها وأسسها .

شهوة التعصب

يريد بعض المستشرقين أن يقلل من أهمية الرسالة ويحكم على الرسول حكما جائراً يدفعهم إليه التعصب والتحزب وبُغْضُهُم للاسلام ومَقْتُهُم لنبيه ، وذلك بتطبيقهم على التاريخ الاسلامى بعض أنماط من النقد المتطرف وطرقه القاسية . ومن هؤلاء الأب اليسوعى لامانس . فعلى الرغم من أنه أحد أولئك الباحثين المحدثين المبرزين ، ومن أوسع الأخصائيين فى تلك الموضوعات إطلاعا ، إلا أنه - مع الأسف الشديد - من أكثرهم تعصباً وتحيزاً . وقد وقف على مدى هذا التحيز الذى دفعه الى توجيه حملاته ضد الاسلام والمسلمين كاتب فرنسى معتدل فى حكمه هو مسيو « إميل درمنجم » (١) فى كتابه « حياة محمد » قال فى مقدمته :

وشهد شاهد من أهلها

مذاهب لامانس فى البحث ومناقشة درمنجم لها

«إن الأب لامانس يرى مثلا «أنه حين يوافق حديث من أحاديث الرسول بعض آى من القرآن ، فمعنى ذلك فى نظر العالم اليسوعى أن

(١) Emile Dermenghem, La Vie de Mahomet, p·p· V — VI. (Paris, 1929.)

الحديث قد وضع ودُس على محمد اعتمادا على ورود معناه فى القرآن وتأييد الكتاب له . ومن ثمّ لا يعتبره الأب لامانس صحيح الرواية ولا يثق به ولا يعتمد عليه . فحدثنى بربك كيف يمكن تدوين التاريخ إذن ؟ إذا كان كلما اتفقت شهادتان واجتمع دليلان ، فبدلا من أن تقوى إحداهما الأخرى وتزكيها فانها تكذبها وتجرحها . قد يمكن أن يكون الحديث قد وضع لشرح بعض النصوص القرآنية ، وقد يكون للحديث غرض معين فى تحقيقها ، أو للأخذ بظاهر اللفظ القرآنى ؛ ولكن على الرغم من كل ذلك قد يكون مايذكره الحديث حقاً فى كثير من الحالات إن لم يكن صحيحاً فى أغلبها ؛ وليس أمام المؤرخ الذى لا يفكر فى طرق النقد ، ولا علم له بها وسائل أخرى ممكنة يستطيع أن يعتمد عليها ويتصرف بها سوى نقل الخبر وروايته . فمثلا الحديث الذى يعزو إلى محمد (عليه الصلاة والسلام) حبّ العسل يحتمل أن يكون قد وضع بناء على أن القرآن قد امتدح فى العسل خواصه الصحية الشافية ؛ كما يحتمل أن يقال إن محمداً إنما نصح وأوصى بأكل العسل لأنه كان يحبه ويجده صحياً ، وأيضا لأن العسل فى نفسه صحى وجدير بأن يوصى باستعماله . فكيف يستطيع راوى الحديث أن يتصرف فى روايته أكثر من أن يسند الحديث الى الرسول ؟ وكيف يستطيع أن يذكر ذلك بدون أن يقاسى شكوك العالم المحدّث ؟ »

ومهما يكن من نقد هؤلاء المستشرقين ، فلا شك أن الرسول قد نهض ببلاد العرب ووحد كلمة رجال قريش وزعمائهم وأولى الرأى فيهم ، ووجه شعورها الدينى الغامض بعد أن خلع عليه قالباً عملياً واضحاً نحو دين آخر هو أشد صفاء وأكثر نقاء مما ألفوه فى وثنيتهم الأولى .

رأى فنلى

قال فنلى [1] : « قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل

(١) Finlay, Greece Under the Romans, Chapter V. p.2

نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقريته أساس نظام ديني سياسي ما زال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة . إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الأسيوية ، وثبات نظمه مدى أجيال طويلة في كل نواحي الهيكل الاجتماعي ، دليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغوس والاسكندر [١]

القرآن بين عهدين :

مدة نزول الوحي

بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس الأربعين من عمره ، واختاره الله تعالى لجواره وله من العمر ثلاث وستون سنة بعد أن بلغ رسالته وأدى مهمته . وقد ظل الوحي يُواتيه طوال تلك المدة بأحكام الله وما شرّع لعباده ، ينزل عليه بين حين وآخر بالآية أو الآيات في حلّ ما يعرض له من المشكلات وتذليل ما يعترض مهمته من عقبات ، ينير له الطريق ويرسم الخطط .

الهجرة فاصل بين عهدين

وكان من بين هذه الحوادث الجسام التي امتلأت بها حياة الرسول وتخللت كفاحه لتبليغ رسالته حادث عظيم فذ ، هو هجرته إلى المدينة والتجاؤه إلى من آمن به من أهلها ليؤوه وأصحابه وليحموا دعوته مما نصبت لها قريش ، تلك الهجرة قد قسمت حياة الرسول إلى عهدين ،

الرسول قبل الهجرة

تطورت فيهما طرقه في تبليغ الرسالة . فكان الرسول قبل الهجرة يناقش قريشا في المبادىء العامة ويختلف وإياهم في الألوهية وهل أساسها التوحيد أم تعدد المعبودات ؛ ويخوفهم يوم القيامة ويرهبهم بما فيه من بَعث وحساب يتبعه ثواب أو عقاب ، ويطالبهم بانصاف نسائهم وعبيدهم ، ويسوى بين فقيرهم وغنيهم (كلكم لآدم وآدم من تراب) (إنَّ

(١) أنظر كتاب مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام للاستاذ محمد عبد الله عنان ص ١١

أكرمكم عند الله أتقاكم) ويدعوهم إلى أن فى أموالهم حقاً معلوما للسائل والمحروم ، مما أثار حنق قريش وحفيظتها عليه ؛ فأخذته وأصحابه بصنوف التعذيب والتنكيل ليصرفوه عن دعوته ويمنعوه عن الاتصال بالناس حتى تموت الفكرة وتقبر فى مهدها .

بعد الهجرة

فلما هاجر الرسول إلى المدينة أخذ يفصل ما أجمل فى العهد المكى من أمور العبادة ومبادىء الأخلاق ، كما وضع النظريات العامة وشرع للمسلمين نظم المعاملات كالبيع والشراء والزواج والطلاق ، وحرم المنكرات كالخمر والزنا والميسر ، وقرر الحدود والقصاص .

القرآن فى مكة

وصفوة القول أن الرسول أخذ ينظم أمر تلك الجماعة الصغيرة الناشئة التى حاطه أفرادها بقلوبهم وأرواحهم ، ويشرع لها نظما لمعاملاتها ، وهو فى ذلك كله لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً فى بث الدعوة وتبليغ الرسالة . وكان القرآن فى ذلك كله ساعده الذى لا يخذله ومدد الله إليه الذى لا يتأخر عنه عند الحاجة ؛ فيه ناقش المشركين فى مكة فى أمهات مسائل الدين وقضاياه الكلية وسفه آلهتهم وعاب نظامهم الاجتماعى .

القرآن فى المدينة

كذلك كان القرآن رائد الرسول فى المدينة حين كان يناقش اليهود الذين استعانت بهم قريش فى الغض من دعوته ، والذين استكثروا على العرب الأميين أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه ؛ كما كان مرجعه الوحيد حين كان يحاسب هؤلاء اليهود وغيرهم من أهل الكتاب على ما غيروا وبدلوا فى دينهم وكتبهم .

١ — الأثر الدينى :

لم يكن للعرب قوانين معروفة ؛ فقد كانوا يرجعون إلى رؤسائهم فيما ينشأ بينهم من الخلافات ، حتى جاء الإسلام بقانون سماوى هو

القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فنظم المعاملات كما شرع للمسلمين العبادات(١) كالصلاة والصوم والزكاة والحج لتوجههم نحو الخير ولتكون صلة بين العبد وربه.

اركان الدين

الصلاة

شرعت الصلاة لتكون رمزا لشكر المنعم على بعض آلائه وليلتمس بها المسلم العون من الله سبحانه خالق الكون وبارئه؛ كما شرع الصوم لتقوى به الروح على كبح جماح النفس إذا ماطغت المادة، لما فيه من كسر حدة الشهوات الجسمية التى تعوق الروح عن السمو اللائق بالانسان.

الزكاة

ولا غرو فإن النفس لا تكاد تقارب الكمال من تلك الرياضة حتى تحس بألم الجوع والحرمان، فتعطف على الفقير والمحروم، وتتجاوز عن اليسير من المال للعائل والعانى. وهذه هى حكمة مشروعية الزكاة؛ فاذا اطمأنت نفس المسلم وآمن بما عليه من حق نحو بنى جنسه وبذل هذا الحق عن حب ورضا، علم أن هذا الحق ليس مقصوراً على المال؛ بل إنه ثمة أنواع أخرى من التعاون ليست دون المال نفعا.

الحج

ولما كان الإسلام دين وحدة وتعارف وألفة، فقد شرع لهم الحج يجتمع فيه القادرون من المسلمين.

البعث والحساب

ومن بين أصول الاسلام الايمان بالبعث فى يوم القيامة، حيث يبعث الانسان ويجازى عن عمله (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا

---

(١) شرعت الصلاة والزكاة فى مكة. وأما كيفية إقامة الصلاة ومصارف الزكاة ومقاديرها فلم يشرع الا فى المدينة. كما شرع بها الصوم سنة ٢ هـ. وفى ذلك يقول الله تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) (سورة البقرة)، والحج سنة ٦ هـ لقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) (سورة النساء ٣ : ٩٧)

أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (١)

٢ — الأثر الاجتماعي :

صيانة الانفس

حرم الاسلام سفك الدماء ومنع أن يأخذ صاحب الثأر ثأره بنفسه ، بل جعل ذلك إلى الإمام وحده ، وأوصى الامام وحثه على القصاص من القاتل. قال تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب (٢)) ، كما حث على العفو ؛ وفي ذلك يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ؛ فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) (٣) ، كما جعل الدية لولي المقتول خطأ . قال تعالى (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله .) (٤)

صيانة الاموال

وقد نهى الاسلام عن الربا حتى لا تضيع المروءة بين الناس ويفرق الشره والتكالب على المادة كلمتهم ؛ كما نهى عن أكل أموال الناس بالباطل . قال تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) (٥) (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) (٦)

---

(١) سورة الزلزلة ٩٩ : ٦ - ٨
(٢) سورة البقرة ٢ : ١٧٩
(٣) سورة البقرة ٢ : ١٧٨
(٤) سورة النساء ٤ : ٩١
(٥) سورة البقرة ٢ : ٢٧٥
(٦) سورة البقرة ٢ : ٢٧٨ - ٢٨٠

تنظم المعاملات على مبادىء قويمة

ووضع الاسلام الكثير من الأسس والمبادىء العامة التى تنظم المعاملات بين أفراد جماعة المسلمين كالبيع والشراء . وقد عنى عناية كبيرة بالأسرة ، فشرع الزواج والطلاق وفرض النفقة للزوجة على زوجها وللابن على أبيه وللأب على ابنه . وقد سمى عقد الزواج ميثاقا غليظا ؛ كما وصفه بأنه علاقة مودة ورحمة ، وجعل للمرأة على زوجها المهر والنفقة ، ولم يحدد نهايته . ونهى عن الزواج بالمشركات ، وحرم التزوج بالأم والأخت ومن يشبههما . قال تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (١).

الزواج

وأباح الاسلام التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ؛ ولكنه اشترط العدل (فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لاَ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) (٢) ؛ كما بين أن العدل بينهن من أصعب الأمور (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ)(٣)

كذلك حرص الاسلام على أواصر القرابة من أن تعبث بها الغيرة

المرأة :

يظن بعض علماء الاجتماع أن الاسلام هضم المرأة حقها حيث أعطاها نصف نصيب الرجل فى الميراث ، وجعل الرجل يتزوج بأكثر

(١) سورة النساء ٤ : ٢٣

(٢) سورة النساء ٤ : ٣

(٣) سورة النساء ٤ : ١٢٨

من واحدة إلى أربع . وجعل الطلاق بيد الرجل ، ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة فحرمها الكثير من الحقوق التى يتمتع بها الرجل .

مركز المرأة فى غير الاسلام

ويكفى للرد عليهم أن نحيلهم إلى ما كتبه بعض المنصفين . كانت المرأة فى العصور القديمة والوسطى عند اليونان والرومان وغيرهم كالمتاع أو كالحيوان : فلم يكن لها حق فى التملك عن أى طريق ، ولم يكن لها ميراث أصلا ، كما لم يكن لها حظ من التعليم والتهذيب [١]

تسوية الاسلام المرأة بالرجل فى العلم

أما الاسلام فقد أوجب تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس أبناءهم وبناتهم ذكورهم وأناثهم (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ)

شهيرات النساء فى الاسلام

ناهيك بعائشة أم المؤمنين . فقد اشتهرت بالرواية والفقه والفتيا ، والتاريخ والنسب ورواية الشعر ، والطب وعلم النجوم . وقد قال فيها الرسول « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . وقد اشتركت فى الخلاف السياسى وقادت المسلمين يوم الجمل . وأسماء بنت أبى بكر وأم عبدالله بن الزبير التى اشتهرت برواية الحديث[٢] . وقد ظهر كثير من النساء فى الحرب بين على ومعاوية ؛ فخضن غمارها وقدن الجيوش فيها كأم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ، وعكرشة بنت الأطرش ، وأم سنان بنت جُشيمة بن خرشة المذحجية . [٣]

حق المرأة فى الزواج

كما سوى الاسلام بين المرأة والرجل فى جميع الحقوق تقريبا ؛ فقد أباح للمرأة مادامت من أهل التصرف فى مالها أن تتزوج بنفسها ،

---

(١) حقيقة ان الامية فى الجاهلية كانت تشمل الرجل والمرأة على السواء ، وانما المقصود من هذا التعليم والتهذيب هو حرمانها من المجالس والاختلاف الى مجالس التهذيب والثقافة عند العرب .

(٢) ابن سعد ج ٨ ص ٤٥ ، ٤٨ ؟ عمدة القارى ج ١ ص ٣٨ ؟ أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الاثير ج ٥ ص ٥٠٤ ؟ شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٤ ص ٢٧٩ ، ٢٨١

(٣) صبح الاعشى للقلقشندى ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٥٨

وأن توكل غيرها فى زواجها دون اعتراض عليها ، كما جعل الشارع للمرأة أن تشترط فى عقد الزواج أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت .

فى الميراث

وقـــد يعترض معترض على قسمة المواريث التى جعلت للمرأة نصف نصيب الرجل ، فيتوهم أن فى هذا إجحافا بحقوقها . على أننا نجدها قد زاد حظها وجل نصيبها إذا عرفنا أن المرأة عالة على الرجل فى معظم أدوار حياتها ؛ فيجب عليه شرعا أن ينفق عليها ويأتى إليها بمطالبها ؛ فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ، فتقدير الشارع لها حظا من المواريث غاية فى الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها ؛ فأين حجر الاسلام على المرأة وأين التضييق عليها مع هذا التسامح ؟ (١)

فى الطلاق

وقد أباح الاسلام الطلاق على أنه ضرورة ؛ وقد قال فيه الرسول : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . كما اتفق فقهاء المسلمين على النهى عنه عند استقامة الزوجين ؛ فمنهم من قال انه نَهْىُ كراهة ، ومنهم من قال إنه نهى تحريم . وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب مستدلين بأنه إضرار . وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك فى قوله « لاَضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ » . وقد كره الرسول أن يطلق زيد زوجته زينب بنت جحش مع أنها كانت تكثر من إيذائه والاستخفاف به ، وطالما كان يقول له « أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتقِ اللهَ » .

وقد اختلف الفقهاء فى الأسباب التى تسوغ الطلاق . قال ابن عابدين : وأما الطلاق فالأصل فيه الحظر أى الحرمة ، والاباحة للحاجة إلى الخلاص عند تباين الاخلاق ووجود البغضاء ؛ فاذا تجرد عن

(١) الاسلام دين الفطرة للاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ص ٨٦

الحاجة المبيحة له شرعا كان محظورا . قال الله تعالى (فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً) أى لا تطلبوا الفراق .

وقد جعل الاسلام الطلاق بيد الرجل ، لأن الرجل هو المسئول عن الأسرة وتدبير معاشها وتربية الأبناء ، ورباط الزوجية هو أساس كل هذا ؛ فمن الخطر أن يوضع فى يد غير مسئولة .

صيانة حقوق المرأة عند الطلاق

على أن الدين قد عوض المرأة ماعساه أن تخسره من جعل الطلاق بيد الرجل ؛ فوضع الاسلام للرجل قيودا ورسم له خطة من شأنها أن تحول بينه وبين العبث برباط الزوجية والتخلص منه لسبب غير معقول ؛ إذ كلفه أن يدفع للمرأة صداقها ، ومنعه أن يأخذ من ذلك الصداق شيئا عند الفراق ، حتى يكون فى هذه الخسارة المالية وفيما سوف يحتاج إلى بذله للزوجة الجديدة ماقد يحول بينه وبين الطلاق إن كانت له مندوحة (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً) . وقد نصحه أن يعرض ما بينه وبينها من خلاف على نفر من أهله وأهلها رجاء التوفيق (١) (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا) (٢)

كما أمره باحسان معاملتها ورعايتها وخوفه من الاقدام على فسخ عقدة الزواج أو التفريط فى شأنها تخويفا دينيا وماديا (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)(٣). وفى الحديث (إِنَّ أَبْغَضَ الحلَالِ عِنْدَ اللهِ الطَّلَاقُ

رأى علماء التشريع الاوربى فى الطلاق

وقد دان مشرعو أوربا اليوم لما عابوه على الاسلام بالأمس ،

---

(١) سورة النساء ٤ : ٢٠ ٢١

(٢) سورة النساء ٤ : ٣٥

(٣) سورة النساء ٤ : ١٩

فشرعوا الطلاق بعد أن ألجأتهم الى تشريعه الحاجة الملحة والضرورة القصوى ، وبعد أن ظهرت لهم حكمته ووجهة نظر الاسلام فى تشريعه .
واليك مايقوله بعض فقهائهم :

« الطلاق شر . ولكنه شر لابد منه لصلاح المجتمع ، لأنه العلاج الوحيد لشر قد يكون أكثر منه بلاء . وتحريم الطلاق - بما فيه من ضرر - هو بمثابة تحريم ممارسة فن الجراحة ، لأن الجراح سوف يضطر الى بتر بعض أعضاء المريض . على أنه ليس ثمة خطر من شرعية الطلاق ، إذ ليس الطلاق هو الذى يفسد الحياة الزوجية ويحل عراها المقدسة ؛ وإنما هو سوء التفاهم بين الزوجين الذى يعوق بناءها ويدك صرحها . والطلاق وحده هو الذى يضع حدا لما عساه ينشأ بين الزوجين من نفور قبل أن يستفحل ويصبح شرا مستطيرا على المجتمع » .

"Le divorce est un mal, mais c'est un mal nécessaire, parcequ' il est le remède d'un mal plus grave. Intredire le divorce parcequ'il est fâcheux, c'est comme si on voulait interdire l'imputation parce que le chirurgien mutule le malade. Ce n'est pas le divorce qui détruit l'institution sainte du mariage, c'est la mesintelligence des 6pouses et le divorce y met fin." (١)

كما جعل الاسلام للمرأة الحق فى المطالبة بالتفريق بينها وبين زوجها إذا وجدت ضرورة تدعوها الى ذلك ، وأجاز لها أن تتفق مع زوجها على أن يكون من حقها فك رباط الزوجية . ولو فاتتها كل هذه الفرص

---

(١) Planiol et Ripert, Traité élémentaire de Droit Civil (I2 ème éd, Paris, 1932), tome I. p. 404.

فانها تستطيع أن تتفق معه بعد الزواج على الفرقة بشرط أن تعوضه عما يتعرض له من خسائر فى هذا الصدد . قال تعالى : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) .[1] على أن القرآن قد حذر الرجل من مساومة المرأة وإساءة معاملتها لكى يبتز مالها (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ)[2] .

الزواج بأكثر من واحدة

وأما أن الرجل يصح له التزوج بأكثر من واحدة فيرجع إلى :

١ - أن هذا خير طريق للاكثار من النسل إذ كان الرسول يعلم أن المسلمين مكلفون بالجهاد فى سبيل الدعوة ؛ فتزوج بعض الرجال بأكثر من امرأة كفيل بأن يعوض على المسلمين ما يفقدونه فى جهادهم ويعوض الكثير من النساء عن أزواجهن الذين فقدوا فى الحرب ؛ وهو سبيل لتلافى زيادة عدد البنات اللاتى بلغن سن الزواج ولم يجدن الزواج .

٢ - أن المرأة قد تكون عاقراً أو مصابة بمرض ولكن مصلحتهما تقتضى بقاءها معه .

على أن الاسلام وإن كان قد أجاز التزوج بأكثر من واحدة ، فقد أجازه بشرط ليس من اليسير تحقيقه على الوجه الأكمل ، وهو العدل بين الزوجات (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) [3]

الآداب الاجتماعية :

الاستئذان

كما حث الدين على التمسك بالفضائل والآداب العالية كالاستئذان (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا

(١) سورة البقرة ٢ : ٢٢٩
(٢) سورة النساء ٤ : ١٩
(٣) سورة النساء ٤ : ٣

وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) (١) والتحية إذ أمر برد التحية بمثلها أو أحسن منها (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) . (٢) وأمر كلا من الرجال والنساء بغض الطرف (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ (٣) مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .) (٤)

رد التحية — غض الطرف — إبداء الزينة

العهد والميثاق

وقد اهتم الدين كثيراً بمسألة العهد والميثاق . قال تعالى (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) (٥) . وقال (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ

(١) سورة النور ٢٤ : ٢٧ - ٢٨

(٢) سورة النساء ٤ : ٨٥

(٣) الاربة والارب : بالكسر والضم فى الهمزة الحاجة والخبث والدهاء والمنكر والقاقة .

(٤) سورة النور ٢٤ : ٣٠ - ٣١

(٥) سورة النحل ١٦ : ٩١

إلىٰ مُدَّتِهِمْ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَّقِينَ) (١) ؛ وجعل القتيل من القوم المعاهدين للمسلمين فى درجة المقتول من المسلمين أنفسهم فقال: (وإنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) (٢) وهذه دية المسلم نفسه .

الرق :

كان الرقيق موضع الاحتقار والمهانة فى جميع الأزمان والعصور وعند كل الأمم والشعوب . فكانوا لا يمتازون عن البهائم فى المعاملة ، حتى إن فلاسفة اليونان ـ وهم قادة الفكر ورسل الأخلاق الذين نادوا بالفضيلة وقالوا بالمساواة والأخوة الانسانية ـ قد قسموا الجنس البشرى قسمين : حرا بالطبع ، ورقيقا بالطبع ، وقالوا إن الثانى ما خلق إلا لخدمة الأول .

الأسرى فى الاسلام

على أن الاسلام قد عنى بطائفة الأسرى أيما عناية وحاطها بسياج من عدله ورحمته ، حيث خير الامام بين المنّ والاطلاق دون قيد ولا شرط ، وبين الفداء بالمال أو ضرب الرق على من بيده من الأسرى. قال تعالى (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا(٣) . ولم يذكر لنا التاريخ أن إماما من أئمة المسلمين أمر بقتل الأسرى ، اللهم إلا من كان يخشى خطره على المسلمين كما فعل الرسول حين أمر بقتل النضر بن الحارث لشدة إيذائه للرسول والمسلمين بهجائهم والتشبيب بنسائهم بعد أن أمنه قبل ذلك .

---

(١) سورة التوبة ٩ : ٤

(٢) سورة النساء ٤ : ٩١

(٣) سورة محمد ٤٧ : ٤

الاسلام دين المساواة

والى القارىء ما فعله الاسلام بمن ضرب عليهم الرق من الأسرى ، وهو دين قد سوّى بين الناس على اختلاف أصنافها وأجناسها ، فسوّى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والحاكم والمحكوم ، والرجال والنساء وسوّى اليهود والنصارى بالمسلمين ماداموا فى سلم معهم

أنظر الى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو فى مكة يحجون البيت الحرام ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام . أفتجد فيهم من فاضل ومفضول ؟ ولا غرو فقد جعل الله المؤمنين أخوة لا تفاوت بينهم إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق . فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع : « أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » [1] .

وقد روى عن ابن عباس أن أحد الموالى خطب الى جماعة من بنى بياضة ، وأشار عليهم الرسول بتزويجه فقالوا له : يارسول الله ! أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزل قوله تعالى: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [2]

وقد روى فى نزول هذه الآية سبب آخر لا يقل عن هذا السبب فى الدلالة على مبلغ عناية الاسلام بالرقيق . فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا بأن يؤذن على ظهر الكعبة . فغضب الحارث بن هشام وعتّاب بن أسَيْد وقالا : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ؟

(١) الاسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز جاويش ص ٧٧ - ٧٨

(٢) سورة الحجرات

أضف الى ذلك ماكان من تأمير الرسول أسامة بن زيد بن حارثة وهو مولى حديث السن ، على جيش المسلمين وفيه وجوه الصحابة ، وتشييع أبى بكر لأسامة هذا وترجله بجانب فرس أسامة حتى لقد قال له أسامة : ياخليفة رسول الله ! والله لتركبنّ أو لأنزلنّ. فقال أبو بكر : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب (١) .

ناهيك بتزويج الرسول زينب بنت جحش ابنة عمته من مولاه زيد ابن حارثة ، ثم تزوج الرسول بها بعد أن كانت زوجة أحد مواليه كما تقدم (ص ١٣٥ - ١٣٦)

« على أن الشرع لا يبيح أن يُستَرَقّ مسلم أصلا ، ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعيـة لم تقم إلا على إعلاء كلمة الله تعالى ، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . . أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كعبدة الأوثان ، فقال مالك والشافعى وأحمد فى إحدى رواياته إن ذلك لا يجوز مطلقا » (٢)

وقد حاول الإسلام جهده أن يلغى ذلك النظام ويحول دون انتشاره بشتى الوسائل . فقال فقهاء المسلمين إن كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله ، وإن مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبى .

وصفوة القول أن الاسلام قد وضع من الأصول والنواميس ما كاد يقضى على الاسترقاق ، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك على ما نعلم من التمسك بهذا النظام . وبدهى أنه لا يمكن الرسول

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢١٢

(٢) الاسلام دين الفطرة ص ٧٩

عليه الصلاة والسلام أن يزيل أمراً ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء .

على أن الاسلام لم ين فى تعبيد الطريق لالغاء الاسترقاق . فما فتىء الرسول يُرَغب الناس فى العتق ، كما جعل الدين أحوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك إخبار الرسول أصحابه غير مرة بأن العتق من أجل العبادات وأقربها قبولا عند الله ، كما جعل كفّارة لبعض الخطايا والحنث فى بعض الايمان . وفى القرآن غير آية قد جعلت فك الرقاب أولى العبادات التى يتقرب بها المسلم إلى ربه .

الرق عند اليهود والمسيحين

عرف الاسترقاق عند اليهود واليونان والرومان ، كما عرف بين قدماء الألمان . وقد أفرط الأخيرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك . وقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان من الاسترقاق : أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعا أو فى دَيْن عليه . والنوع الآخر استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شىء من عسف اليهود وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة . فكانوا يبيعونهم كما يُباع المتاع ، سواء فى ذلك العبيد المستخدمة فى المنازل وعبيد الحقول والمزارع ، فانهم كانوا يقضون حياتهم محقَّرين مسخرين . ثم جاء المسيح عليه السلام فلم يمنع الاسترقاق، ولم يعمل على إلغائه أو تقليله .

عند الرومان

وكان للرومان فى الاسترقاق وسائل شتى وأساليب مختلفة . فكانوا يملكون الرقيق إما بحرب أو شراء أو اختطاف . وكان للسيد أن يتصرف فى عبده بما شاء ، حتى كان له أن يقتله [1] .

عند العرب فى الجاهلية

وأما مصادر الرق عند العرب فى الجاهلية فلا تكاد تختلف عنها

---

(١) الاسلام دين الفطرة ص ٧٤ – ٧٥

عند الأمم الأخرى . فقد كان بجانب أسرى الحرب مصادر أخرى للاسترقاق ، كالخطف والقرصنة فى البحار والصحراء إلى أن ظهر الاسلام فأخذ الطريق على جميع تلك الوسائل ، ومنع الاسترقاق إلا عن طريق الحرب المشروعة المنظمة . وإنما أبقى عليه :

أولا : لحفظ التوازن بين الدولة الاسلامية وبين أعدائها

ثانياً : لحماية الضعفاء من نساء أكلت الحرب رجالهن . ولو تركن وشأنهن لكن عالة على المجتمع ومصدراً للشرور .

عناية الاسلام بالرقيق

على أن الإسلام ، وإن لم يجد بدا من إباحة الرق ، فانه لم يترك الأرقاء هملا . فقد نظم شئونهم وأخذ بأيديهم فى طريق الحرية ، فسوى بين الرقيق ومولاه فى الطعام والشراب واللباس والتعليم والتهذيب ، وبالجملة فقد سواهم بسادتهم فى معظم الحقوق المدنية ، اللهم إلا فى الولاية (أى الرياسة) ، كما حض على معاملتهم بالحسنى ، ورغب المسلمين فى تحرير من بأيديهم من الأرقاء وحذرهم من إساءة معاملتهم .

وقد اعتبر الاسلام الرق عارضاً . ولذا شرع وسائل عدة للنهوض بالأرقاء ومساعدتهم على استرداد حريتهم واستقلالهم . قال تعالى (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ)(١)

المكاتبة

وقد أجمع فقهاء المسلمين على أن مكاتبة العبد مستحبة . وللامام أحمد بن حنبل فى رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو أكثر ، وأن للعبد الاتجار ليحصل على مايدفعه لسيده من نجوم (٢) الكتابة ، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء .

---

(١) سورة النور ٢٤ : ٣٤ (٢) أقساط

وإذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه مابقى من المال المتفق عليه، فالحنفية تجبره على الأداء حرصا على تحريره. وإذا لم يكن معه مال — ولكنه قادر على الكسب — فالمالكية تجبره على الكسب مادام قادرا عليه. ويشترط الفقهاء أن يراعى فى عقد الكتابة حال الرقيق، كما يرون أن أقل وعد من السيد، أو أقل احتمال للوعد بالتحرير، يجعل التحرير ضروريا.[1] كما رغب الاسلام فى إعتاق الرقيق بدون مقابل ابتغاء وجه الله. قال تعالى (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ. فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) (٢)

التدبير

ولم يترك الاسلام فرصة من فرص التحرير إلا انتهزها، فمن طريقة التدبير، وهى أن يوصى السيد بأن يكون عبده حرا بعد موته.

وقد اتفق الأئمة على أنه لو كان فى يد إنسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام، فالقول للغلام مع يمينه أنه حر. وبتطبيق القاعدة المشهورة «البيّنة على المدعى واليمين على من أنكر»، نجد أن الشرع قد اعتبر أن حرية الانسان هى الاصل وأن الرق أمر عارض، فكلف من ادعاه بالبينة، واكتفى ممن انكره باليمين. ولا يخفى مافى ذلك من شدة حرص الشارع على تحرير الارقاء ماوجد إليه سبيلا. أضف الى ذلك إجماع الفقهاء على أنه إذا التقط شخصان لقيطا: فادعى مسلم أنه عبده وادعى كافر أنه ابنه، فانه يُقضى ببنوته للكافر حتى يكون حراً، ولا يقضى للمسلم حتى لا يكون رقيقا!

ومن هذا يتبين لنا مبلغ تقديس الاسلام للحرية.

---

(١) الاسلام دين الفطرة ص ٨١ (٢) سورة البلد ٩٠ : ٨ - ١٦

وللاسلام ـ عدا ماذكرنا ـ وسائل شتى لتحرير الرقاب . فقد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب مايستعين به على فك رقبته ، أو أن يشترى الحاكم بمال الصدقة العبيد ويعتقهم .

معاملة المسلمين للرقيق

عن واصل الأحدب قال سمعت المعرور بن سُوَيد قال : رأيت أبا ذر الغفارى وعليه حُلة وعلى غلامه حُلة . فسألناه عن ذلك فقال : سَبَبْتُ رجلا فشكانى إلى النبى صلى الله عليه ؛ فقال لى النبى : أعَيَّرته بأمه ؟ ثم قال : « إخوانكم خَولكم جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس . ولا تكلفوهم مايغلبهم ، فان كلفتموهم مايغلبهم فأعينوهم . وقال ، عليه الصلاة والسلام « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه . فان لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فانه وَلِىُ عِلاجه (١) »

وعن ابن مسعود الانصارى قال ؛ بينا أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفى « اعلم ياابن مسعود » مرتين ، فالتفت ، فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فألقيت السوط من يدى فقال : والله لله أقدر عليك منك على هذا » . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول رأى رجلا على دابة وغلامه يسعى خلفه ، فقال : ياعبد الله ! احمله خلفك ، فانما هو أخوك روحه مثل روحك . فحمله »

ولم تكن العناية بالرقيق مقصورة على الرسول ؛ بل لقد روى أن على بن أبى طالب قال : إنى لأستحى أن أستعبد إنسانا يقول ربى الله . ومن أحسن ماروى عن علىّ أنه أعطى غلامه دراهم ليشترى بها ثوبين متفاوتى القيمة ؛ فلما أحضرهما أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة

---

(١) العينى (شرح صحيح البخارى) ج ١٣ ص ٢٧ ؟ الاحياء للغزالى : باب حقوق المملوك .

وحفظ لنفسه الآخر . وقال له : أنت أحق منى بأجودهما ؛ لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل ؛ أما أنا فقد كبرت » .

وقد عنى الاسلام بنفسية الرقيق عناية خاصة . فقال تعالى يطيّب خاطرهم ويفتح باب الامل فى المغفرة وحسن الجزاء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١)

وقال الرسول « العبد إذا نصح سيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين » ، حتى إن كثيرا منهم كان يتمنى أن يعيش رقيقا ليكون له أجران . روى أنه لما أعتق أبو رافع بكر قال : كان لى أجران فذهب أحدهما .

فان دنبرغ ومعاملة الرقيق فى الاسلام

وقد وصف فان دنبرغ معاملة الاسلام للرقيق بقوله : « لقد وضع للرقيق فى الاسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الانسانى النبيل . ففيها تجد من محامد الإسلام مايناقض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها الى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشى فى طليعة الحضارة . نعم ! إن الاسلام لم يلغ الرقيق الذى كان شائعا فى العالم ، ولكنه عمل كثيرا على تحسين حاله ، وأبقى حكم الأسير ، ولكنه أمر بالرفق»(٢) . واليك مثالا لذلك لما أقبل بالاسرى بعد غزوة بدر الكبرى فرقهم الرسول على أصحابه وقال : استوصوا بهم خيرا . وقد قال أبو عزيز بن عُمَيْر : كنت فى رهط من الأنصار حتى أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا . وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين فى بدر .

(١) سورة الأنفال ٨ : ٧٠

(٢) الاسلام روح المدنية للشيخ مصطفى الغلاييني ص ٤٢١

٣ ـ الأثر الأدبي :

رأى العرب في بلاغة القرآن وروعة أسلوبه مابهرهم واستثار إعجابهم ، فانساقوا إلى تقليده ومحاكاته[١]. فشاعت ألفاظه وطرائفه في جميع قبائلهم ، وأصبحت معروفة لديهم فيما ينشئون من خطب وأشعار. فكان لهم بذلك لغة عامة وحدت مشاربهم وخلقت فيهم خيالا متجانسا ومثلا عُليا متحدة .

يقول الأستاذ محمد بك كرد علي في كتابه « الإسلام والحضارة العربية » [٢] « والقرآن أبلغ كتاب للعرب ، ولولاه لما كان لهم أدب ولا شريعة (كتاب فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا) . عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله مع أنهم خُصوا بالتحدي [٣] ، وكان للفصاحة عندهم المقام الأرفع ، فاعترفوا بعد جدال طويل : « أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه على أساليب الكلام المعتاد » [٤] ، جعله

(١) وقد بلغ افتتان العرب بالقرآن وإعجابهم به أن امتنع بعضهم عن قول الشعر ، كما فعل لبيد بن ربيعة أحد أصحاب المعلقات . فانه قدم على الرسول في وفد من قومه ، وأسلم وحسن إسلامه واستغنى بالقرآن وقراءته عن شعره الذى نبغ فيه ، حتى لم يصح عنه في أربعين سنة قضاها في الاسلام الا بيت واحد :

ماعاتب الحر الكريم كنفسه ٭ والمرء يصلحه الجليس الصالح

وهو في رواية الاغاني : ـــ

الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى ٭ حتى لبست من الاسلام سربالا

وكان إذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن وقال أبدلني الله خيرا منه . أنظر ترجمة لبيد في طبقات الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبه والاغاني (ج ١٤ ص ٧٤)

Nicholson, Literary History of the Arabs, pp. 119-120

(٢) الاسلام والحضارة العربية ص ٦٧ ومايليها

(٣) تحدى أقرانه إذا باراهم ونازعهم الغلبة وتحدى صاحبه القراءة والصراع لينظر أيهما أقرأ وأصرع

(٤) الأستاذ محمد بك كرد علي عن كتاب إعجاز القرآن للباقلاني

الله كما قال على بن أبى طالب : رياً لعطش العلماء ، وربيعاً ، لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفلجاً لمن حاج به ، وعلماً لمن وعى ، وحديثاً لمن روى ، وحكماً لمن قضى » .

قال جان جاك روسو فى القرن الثامن عشر : « من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ، ولو أنه سمع محمداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة ، وذاك الصوت المقنع المطرب المؤثر فى شغاف القلوب ، ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان ، لخر ساجداً على الأرض وناداه أيها النبى رسول الله خذ بأيدينا الى مواقف الشرف والفخار ، أو مواقع التهلكة والأخطار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار » . وقال كارلايل (Carlyle) فى القرن التاسع عشر : « إن فرط إعجاب المسلمين بالقرآن وقولهم بإعجازه أكبر دليل على تباين الأذواق فى الأمم المختلفة . والترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة » . وجاهر كلود فارير فى القرن العشرين بأن « آيات القرآن جميلة وتحسن تلاوتها ، فيها نفحة طاهرة عجيبة ، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة ، وتدعوا الى حماية الضعيف والى عبادة إله واحد » [1] .

٤ ـ الأثر السياسى :

جمع الاسلام قبائل العرب تحت لوائه وألف بين قلوبهم وقضى على العصبية الجاهلية ، فزالت الحزازات القديمة والثارات التى بين القبائل ، فخضعوا لحكم النبى وأوامر القرآن بعد أن كانوا يدينون لرؤساء متفرقين . وبذلك قامت فى بلاد العرب حكومة مركزية محترمة عزيزة الجانب ، فانتظمت أحوالهم الداخلية . وكان حماس العربى للاسلام وولاؤه له لا يقل عن حماسه لوثنيته واستبساله فى الذود عنها . ومن ثم

(١) نقلا عن كتاب الاسلام والحضارة للأستاذ محمد بك كرد على ص ٦٩ .

بذل النفس والنفيس فى سبيل نشر الدين وحمايته ، حتى دانت قبائل العرب وأصبحت ترى فى الاسلام رمز وحدتها وشعار مجدها . وقد حرضهم على الاستماتة فى نشر هذا الدين الجديد ما ضمنه لهم من حسن ثواب الدنيا والآخرة . قال تعالى

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) (١)

وقصارى القول إن الاسلام قد غير خلق العرب ، وساعد على نشر الفضيلة بين ظهرانيهم ، حتى ظهر من بينهم رجال كثيرون اشتهروا بالورع والتقوى .

الأعراب

إلا أنه كان هناك فريق سموا الأعراب عرفوا بالنفاق . وقد وصفهم الله تعالى فى قوله (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (٢)

بين الجاهلية والاسلام :

راى براون

قال الأستاذ براون : « لم يكن عمل محمد فى نشر الاسلام سهلا . فقد كانت السنوات الثمان أو العشر التى قضاها فى مكة إلى أن هاجر إلى المدينة سنة ٦٢٢ (٣)م (وهى السنة التى اعتبرها المسلمون مبدأ لتاريخهم ولا زالوا على ذلك إلى اليوم) عصر يأس وقنوط ، إذا استثنينا هؤلاء المسلمين الذين عمر الايمان قلوبهم ، فلم يحفلوا بالتعذيب ولم يجد اليأس إلى قلوبهم سبيلا ؛ ولم يكن يشق على العرب ـ وبخاصة بدو الصحراء ـ أن ينبذوا آلهتهم ويتركوا عاداتهم الموروثة ، لولا أنهم كرهوا هذه التكاليف التى أتى بها الاسلام ، كما شق عليهم ذلك الوعيد

(١) سورة آل عمران ٣ : ١٦٩ - ١٧١
(٢) سورة التوبة ٩ : ٩٨
(٣) يعنى منذ أمر الرسول بالجهر بالدعوة الى عام هجرته

الذى أتى به القرآن . لذلك رفضوا هذه النظم التى أتى بها الاسلام . ولا يزال عربى الصحراء الصميم على بداوته الأولى الى اليوم ، لا يعتقد بشىء ولا يسعى الا وراء المادة . ولم يكن ذكاؤه إلا نشاطا عقليا فى دائرة محدودة . ولم تكن سذاجته وسرعة تصديقه وميله لقبول كل غريب لتدفعه إلى تصديق ماأتى به الدين مما يتصل بالأمور المعنوية. كما أن طبيعته التى فُطرت على الاعتزاز بالنفس والثقة بها لم تكن لتشعر بالحاجة إلى إله يخضع له ويفنى فى عبادته . ولم تكن فكرة التوحيد والانصراف عن هذه الآلهة المتعددة إلى إله واحد اكتشافا حديثا انفرد به الاسلام . ومع أن الاسلام كان يطالب العرب الوثنيين بتكاليف مادية وقرابين أقل مما كانوا يقدمونه لأوثانهم ، فان تلك الأوثان ما كانت لتفرض عليهم تلك الفروض التى أتى بها الاسلام . كما أنهم كانوا لا يلقون إليها بالمودة إلا بقدر ماتصيبهم به من خير ، بخلاف الاسلام الذى كان يطالبهم بالخضوع لله تعالى فى السراء والضراء ويأمرهم بالرضا بالقضاء خيره وشره .

ويقول دوزى : وكانوا يغضبون من الآلهة ويجبهونها بحقيقة مايعتقدون كما كانوا يتحدونها » . وكانوا يهينون الأزلام(١) ويطرحونها فى غضب وازدراء إذا كانت مشورتها على غير ماتهوى نفوسهم . وكانوا يسبون الأصنام ويرجمونها بالحجارة إذا عاكسهم القدر فظنوه من غضب تلك الآلهة وعدم قبولها قرابينهم . وكانوا يسقطون آلهتهم عن عروشها(٢) ويشبعونها سبا بالأقل سبب ومع ذلك فلم تكن هذه الحالة (٣) لتحمل العرب على قبول هذا الدين الجديد الذى يفرض عليهم أوامره ونواهيه . حقاً إن هذه الآلهة ، وإن لم يكن لها سلطان عليهم ، فقد كانت مألوفة لهم ولم تكن لتضرهم فى شىء ، والعرب وان لم تكسب من هذه الآلهة خيرا ، فانها لم تكلف لها شيئا يذكر . يضاف إلى ذلك

(١) الزلم هو القدح وجمعها أزلام . والقداح هى السهام التى كان الجاهليون يستقسمون بها أى يستخيرونها فيما يهمون بالقيام به من سفر أو تجارة أونحو ذلك . (٢) القواعد التى كانوا يضعون عليها التماثيل أوالاصنام (٣) أى عدم احترامهم لتلك الآلهة على هذه الصورة التى وضعها

أن الاسلام لم يسالم هذه الأوثان ولا الذين يعبدونها وألفوا عبادتها؛ بل ناصبهم العداء. والواقع أنه كان من بين الأسباب التى ساعدت على انتشار ذلك الدين الجديد الذى ينهى عن عبادة الأوثان أنه لم يصطدم بعبادة لها مركز فى قلوب أصحابها »

جولدتزيهر

وقد وازن جولدتزيهر فى باب الدين والمروءة [١] بين المثل العليا فى الجاهلية والاسلام فقال : إن الشجاعة الشخصية، والكرم الذى لا يحد، والبذخ والاسراف فى إقراء الضيف، واختصاص ذوى قرباه بنصره وولائه ، وأخذ الثأر من غير مارحمة ولا شفقة إذا ما اعتُدى عليه أو على عشيرته ، كانت أظهر الفضائل فى الجاهلية . أما فى الاسلام فنجد الصبر والاحتمال، وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة شخصية كانت أو قبلية ؛ كما نجد عدم الاكتراث بالأمور الدنيوية والأعراض الزائلة، وتجنب الرياء والفخر وكثيرا غيرها مما جاء به الاسلام . وكانت هذه الفضائل جديرة بأن تبعث المسلم على ازدراء هذه المثل العليا للجاهلية [٢] »

بعض المثل الاسلامية

وإن هذه المثل التى جاء بها الاسلام ليتجلى بعضها فى القرآن [٣] (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

رأى نلدكه

« وإن الأثر الوحيد الجدير بالذكر الذى تركه الاسلام فى العرب

---

(١) Ignaz Goldziher, Muhammedanische Studien.
(٢) Browne, Literary History of the Arabs. vol. I, pp. 189—191.
(٣) سورة البقرة ٢ : ١٧٧

هو القضاء على الاخذ بالثأر ؛ حتى إن كل قبيلة كانت تخضع للاسلام أو تدين له و تعتنقه ، تنزل عن حقها فى الأخذ بثأر من سفكت دمائهم فى الوقائع والحروب ، مع أنا كنا نجد العربى فى غير تلك الظروف يرى أن ترك الأخذ بالثأر أو دية الدم من أحط صفات الذلة والعار . ولكن اتخاذ العرب الرسول زعيما لهم ، ذلك الأمر الذى كان شاقا على نفوسهم وصعبا عليها أن يدينوا لواحد منهم ، قد هيأ ذلك الشعب العربى لقبول تلك الحالة الجديدة ، فألان قناتهم وأسلس قيادتهم فأتمروا بأمره ، حتى إنه لم يعد هناك وثنى إلا ودافع دفاع المخلصين فى الذود عن ذلك الدين الجديد . ومن ثم يتضح لك كيف استطاع عرب ذلك العصر نشر دينهم فى جميع الربوع والأرجاء » (١)

بعض المثل الجاهلية

واليك قصيدة تأبط شرا (٢) التى تصور لنا تلك المثل الجاهلية وكيف كان ينظر العرب اليها . وعلى الرغم من تشكك علماء الشعر فى نسبة هذه القصيدة إلى العصر الجاهلى وحكايتهم عن خلف الأحمر أنها منتحلة ، فان هذا التشكك لا يقلل من قيمتها باعتبارها صورة (٣) للمثل العليا التى كان يتمسك بها عرب الجاهلية . وهذه القصيدة التى نظمها هذا الشاعر على أثر قتل هذيل لعمه و إغارته عليهم ليأخذ بثأره ، قد تحدث فيها بأن دم عمه لن يهدر ، وبأنه سيضطلع بهذا العبء ، وبأن من ورائه ابن أخت له قوى جدير بأن يشد أزره وأن يحل محله .

---

(١) Noeldeke, Historians' History of the World, vol. VIII, p. 20

(٢) واسمه ثابت وكنيته أبو زهير من بنى فهر . وانما لقب بهذا اللقب لأنه تأبط سكينا ذات يوم ، وسئلت أمه عنه فقالت : لا أدرى إنه تأبط شرا وخرج . وقيل غير ذلك . ديوان الحماسة لأبى تمام مختصر شرح التبريزى (القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ ، سنة ١٩١٦ م ص ٢٩٦ - ٣٠٣)

(٣) نرى أن الحجة التى اعتمد عليها من ادعى انتحال هذا الشعر هى أمور تتصل باللفظ وطرق التعبير ؛ اذ قال النمرى : ومما يدل على أنه مولد قوله (فى البيت السادس) جل حتى دق فيه الأجل . فان الأعرابى لا يكاد يتغلغل الى مثل هذا . أما الحجة الأخرى فهى ملاحظة جغرافية تتعلق بلفظ سلع (وهو جبل أو موضع فى الشمال الغربى من المدينة) الذى ورد فى البيت الأول لبعد هذا المكان عن ديار هذيل التى قتل فيها عم تأبط شرا ، أى أنهم يذكروا أن منتحل هذا الشعر قد أخطأ فتمدح بأمور لم تكن مما يتمدح به العرب.

ثم ينتقل من قتل عمه الى وصف مافى هذا الحادث من خسارة فادحة حلت به ، ثم يستطرد فى ذكر مناقب عمه ، ثم يذكر هجوم فتيان هذيل عليهم ، ويعقب ذلك بوصف قوتهم وقدرتهم على دفعهم ، ثم يتسلى عن قتلهم عمه بأن عمه كثيرا مانال منهم ، ويصف حياة عمه فى حالتى السلم والحرب :

إنَّ بالشِّعْبِ (١) الّذِى دُونَ سَلْعٍ ... لقتيلاً دَمُهُ مايُطَلُّ (٢)
خَلَّفَ العِبْءَ عَلَيَّ وَوَلَّى ... أنا بالعِبْءِ لَهُ مُسْتَقِلُّ (٣)
وَوَرَاءَ الثَّارِ مِنِّى إبْنُ أُخْتٍ ... مَصِعٌ (٤) عُقْدَتُهُ مَاتُحَلُّ (٥)
مُطْرِق (٦) يَرْشَحُ سَمًّا كما أطْـــرَقَ أفْعَى يَنْفِثُ السَّمَّ صِلُّ (٧)
خــبرٌ مانابَنَا مُصْمَئِلٌّ (٨) ... جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الأَجَلُّ
بَزَّنِى (٩) الدَّهْرُ وكانَ غَشُوماً ... بأبِيٍّ جَارُهُ مايُذَلُّ
شامِسٌ (١٠) فى القُرِّ حتى إذا ما ... ذَكَتِ الشِّعْرَى (١١) فَبَرْدٌ وظِلُّ
يابِسُ الجَنْبَيْنِ (١٢) منغير بُؤْسٍ ... ونَدِىُّ الكَفَّيْنِ شَهْمٌ مُدِلٌّ (١٣)
ظاعِنٌ (١٤) بالحزم حتى إذا ما ... حلَّ ، حلَّ الحزْمُ حَيْثُ يَحلُّ
غَيْثُ مُزْنٍ (١٥) غامِرٌ (١٦) حَيْثُ يُجْدِى ... وإذا يسطو فَلَيْثٌ أبَلُّ (١٧)

---

(١) الشعب الطريق فى الجبل (٢) مايهدر (٣) استقل بالشيء رضعو بالعبء حمله (٤) المصع بكسر الصاد وتسكينها هو الرجل الشديد أو الضارب بالسيف (٥) لاينثنى عن عزمه

(٦) مرخى عينيه ينظر الى الارض (٧) الصل الخبيث من الافاعى . ومعنى البيت أن ابن أخته شجاع فى الحرب يطرق إطراق الحية الخبيثة التى تقذف السم (٨) المصمئل الشديد . ومعنى البيت أن الذى أصابه ونزل به بخبر موته خطب جليل يصغر عنده العظيم من الحوادث (٩) سلبنى والمراد بجنى فى هذا الراحل الآبى عن الضيم الذى يجعل جاره عزيزا (١٠) شمس يوما كنصر وجلس وكسمع صار ذا شمس ومنه شامس ذو شمس . والمقصود هنا أنه ذو دفء بما يفيضه على ضيفه ويكرمه به من طعام ولباس كالشمس تدفىء المقرور (١١) نجم وذكت الشعرى وضحت وبانت فى السماء ولايكون ذلك الا فى الصيف فى ليلة حرها شديد . ومعنى البيت أنه قد اعد لضيفانه طعاما ولباسا فى الشتاء وظلا ظليلا وماء باردا فى حر الصيف (١٢) يابس الجنبين هزيل ضامر وكانوا يتمدحون بذلك (١٣) المدل الواثق بنفسه وبعدته (١٤) الظعن السفر والانتقال (١٥) الغيث المطر والمزن جمع مزنة وهى السحابة البيضاء (١٦) غمر الماء كثر . وغمر الشىء غطاه (١٧) الليث الابل هو المصمم الماضى على وجهه لايبالى مايلقى

مُسْبِلٌ فِي الحَيِّ (١) أَحْوَى (٢) رِفَلٌّ (٣)

وَإِذَا يَغْزُو فَسِمْعٌ (٤) أَزَلٌّ (٥)

وَلَهُ طَعْمَانِ أَرْيٌ وَشَرْيٌ (٦) وَكِلَا الطَّعْمَيْنِ قَدْ ذَاقَ كُلُّ

رَكِبَ الهَوْلَ وَحِيدًا وَلَا يَصْحَبُهُ إِلَّا اليَمَانِي الأَفَلُّ (٧)

وَفُتُوٍّ (٨) هَجَّرُوا (٩) ثُمَّ أَسْرَوْا (١٠)

لَيْلَهُمْ حَتَّى إِذَا انْجَابَ (١١) حَلُّوا (١٢)

كُلُّ مَاضٍ (١٣) قَدْ تَرَدَّى (١٤) بِمَاضٍ (١٥)

كَسَنَا البَرْقِ (١٦) إِذَا مَا يُسَلُّ (١٧)

فَادَّرَكْنَا الثَّأْرَ مِنْهُمْ وَلَمَّا يَنْجُ مِلْحَيَّيْنِ (١٨) إِلَّا الأَقَلُّ

فَاحْتَسَوْا أَنْفَاسَ نَوْمٍ (١٩) فَلَمَّا

هَوَّمُوا (٢٠) رُعْتَهُمُ (٢١) فَاشْمَعَلُّوا (٢٢)

فَلَئِنْ فَلَّتْ (٢٣) هُذَيْلٌ شَبَاهُ (٢٤)

لَبِمَا كَانَ هُذَيْلًا يَفُلُّ (٢٥)

---

(١) مسبل فى الحى: يسبل ثيابه حينما يكون فى الحى (٢) الاحوى: من فى شفتيه سواد وهو محمود (٣) الكثير اللحم والواسع الثوب (٤) السمع ولد الذئب (٥) الازل: السريع المشى الخفيف لحم العجز والفخذين. فى القاموس المحيط ان (السمع الازل ذئب أرسح يتولد بين الضبع والذئب) والارسح من الرسح وهو قلة لحم العجز والفخذين (٦) الأرى العسل والشرى الحنظل. ويقصد أنه قد أذاق الناس فى كرمه أطيب الاطعمة كرما، كما أنه أذاق أعداءه الصاب والعلقم (٧) السيف المثلم من كثرة الضرب به (٨) جمع فتى على وزن فعول مثل ذكر وذكور (٩) ساروا وقت الهاجرة وهى اشتداد الحر فى منتصف النهار (١٠) الاسراء والسرى السير ليلا (١١) انجاب الليل: انقضى (١٢) أقاموا (١٣) شخص ماض أى ماضى العزيمة (١٤) لبس الرداء والمعنى تقلد السيف أو نحوه (١٥) السيف الماضى: القاطع (١٦) السنا الضوء (١٧) يلمع فى الأفق (١٨) من الحيين (١٩) احتسى الشراب: تناوله متقطعا. ويقصد من احتساء أنفاس النوم وقوعهم فى نوم عميق (٢٠) هوم الرجل: اذا هز رأسه من النعاس (٢١) أى فزعتهم من الروع (٢٢) أسرعوا فى السير. والمقصودون فى هذا البيت هم أعداؤه (٢٣) فل حد السيف: كسره (٢٤) والشباة حد السيف (٢٥) فكثيرا ما كان يفل هذيلا

وبِمَا أَبْرَكَهَا (١) فِي مُنَاخٍ جَعْجَعٍ (٢) يَنْقَبُ فِيهِ الأَظَلُّ (٣)

وَبِمَا صَبَّحَهَا (٤) فِي ذَرَاهَا (٥) مِنْهُ بعد القَتْلِ نَهْبٌ وَشَلُّ (٦)

صَلِيَتْ (٧) مِنِّيَ هُذَيْلٌ بِخِرْقٍ (٨) لاَ يَمَلُّ الشَّرَّ حَتَّى يَمَلُّوا

يُنْهِلُ (٩) الصَّعْدَةَ (١٠) حتى إذا ما نَهِلَتْ كانَ لَهَا مِنْهُ عَلُّ (١١)

حَلَّتِ الخَمْرُ وكانَتْ حَرَامًا وَبِلأْيٍ (١٢) ما أَلَمَّتْ (١٣) تَحِلُّ

فاسقنيها يا سَوَادَ (١٤) بنَ عَمْرٍو إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ خَالِي لَخَلُّ (١٥)

تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ وَتَرَى الذِّئْبَ لَهَا يَسْتَهِلُّ (١٦)

وَعِتَاقُ الطَّيْرِ (١٧) تَغْدُو بِطَانًا (١٨) تَتَخَطَّاهُمْ فَمَا تَسْتَقِلُّ (١٩)

حديث جعفر ابن أبي طالب الى النجاشي

ولنأت بحديث جعفر بن أبي طالب إلى النجاشي حين دبَّرت قريش المكايد لاخراج المهاجرين من بلاد الحبشة وإعادتهم إلى بلدهم ليفتنوهم عن دينهم ، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة لتحريض النجاشي على إخراجهم من بلاده . وقد تقدم القول بأن النجاشي بعث فى طلب المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم ، فتقدم جعفر بن أبي طالب ورد عليه فى هذا الحديث

---

(١) أناخها (٢) الجعجع: الارض الغليظة (٣) ينقب يعني يحفى والأظل هو باطن خف البعير . ومعنى البيت أنه كثيرا ما حمل هذيلا على الارض الصعبة التي تحفى قدم البعير وحملهم الكثير من المشاق (٤) صبحها: أتاها فى الصباح (٥) الذرى : الظل . وذرى البيت ساحته (٦) الشل : الافساد والطرد . أى أنه أعقب تقتيله اياهم بنهب وإفساد فى عقر دارهم فى وضح النهار (٧) صلى النار : قاسى حرارتها (٨) الخرق : الشجاع (٩) النهل : الشرب أولا . والانهال ايراد البعير ليشرب لاول مرة (١٠) الصعدة : القناة نبتت مستوية (١١) العل : الشرب بعد شرب . أى أنه يسقى رمحه من دم خصمه مرة وأخرى (١٢) اللأى : البطء (١٣) والالمام الزيارة الخفيفة . وقد كان من عادة العرب أن يحرم الرجل على نفسه عدة أشياء اذا قتل له قتيل حتى يدرك ثأره مثل شرب الخمر وغسل الرأس . فهو يقول انه قد صار فى حل من شرب الخمر بعد أن حرم ذلك على نفسه (١٤) أصلها ياسوادة فرخم وهو قياسى فى النداء (١٥) مهزول (١٦) يتهلل بالفرح (١٧) عتاق الطير : جوارحها وكواسرها (١٨) ترجع مملوءة البطن (١٩) تطير أى أنها لاتستطيع الطيران لكثرة ما أكلت من قتلاهم .

الذى يعتبر موازنة طريفة بين مُثُل الجاهلية ومثل الاسلام .
وهاك نصه :

« أيها الملك ! كنا قوما أهلَ جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيفَ . فكنا على ذلك حتى بَعَثَ الله إلينا رسولا منا نعرفُ نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلعَ ما كنا نعبدُ نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقولِ الزور ، وأكل مال اليتيم وقذفِ المُحْصَنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. فصدّقناه وآمنا به واتَّبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشركْ به شيئاً ، وحرَّمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث (١) » .

عبارة ابن حزم

ويقول ابن حزم : وكانت العربُ بلا خلاف قوما لقاحا لا يملكهم أحد كربيعة ومضر وإياد وقضاعة ، أو ملوكا فى بلادهم يتوارثون الملك كابرا عن كابر ... فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله ، وهم آلاف آلاف ، وصاروا إخوة كبنى أب وأم ، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسله طوعا بلا خوف غزو ولا إعطاء مال ، ولا بطمع فى عز ، بل كلهم أقوى جيشا من جيشه ، وأكثر مالا وسلاحا منه ، وأوسع بلداً من بلده ... وهكذا كان إسلام جميع العرب ، أولهم كالأوس والخزرج ثم سائرهم قبيلة قبيلة ، لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم به

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ - ٣٠٥

من معجزاته ، وما اتبعه الأوس والخزرج الا وهو فريد طريد ، قد نابذه قومه حسداً له ؛ إذ كان فقيراً لا مال له، يتيما لا أب له ولا أخ ولا ابن أخ ولا ولد ، أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ فى بلاد الجهل يرعى غنم قومه بأجرة يتقوت بها ، فعلمه الله تعالى الحكمة دون معلم وعصمه من كل من أراد قتله » .

عبارة ويلز

وقال ويلز (١) : « كان الاسلام فى أول أمره خالياً من التعقيدات اللاهوتية التى طالما ارتبكت بها النصرانية ، وأحدثت شقاقا قضى على الروح النصرانى . وليس للاسلام كهنة ، بل له علماء ومعلمون ووعاظ ، وهو حافل بروح الرأفة والسخاء والاخاء ، كما أنه ينطوى على عاطفة النجدة التى تنبت فى الصحراء ، ولهذا جاز إلى قلوب عامة الناس دون أن يجد مايصده فى غرائزهم »

عبارة ميور

وصفوة القول أن أثر الرسول صلى الله عليه وسلم كان على ماوصفه سير وليام ميور فى كتابه « سيرة محمد » : « امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه . وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ، ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد » (٢) .

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥ و ٨٩

(٢) Sir William uir, The Life of Muhammad pp. 523 — 528.

أنظر كتاب الاسلام والحضارة العربية للاستاذ محمد بك كرد على ص ٦٤

(١) H. G. Wells, Outline of History, vol. II .pp. 240 — 241.

الباب الثالث

الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصديق

١١ - ١٣ هـ ، ٦٣٢ - ٦٣٤ م

نسبه وتسميته بالصديق

هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة التيمى [1] . كان يسمى فى الجاهلية عبد الكعبة [2] ، فسماه الرسول عبد الله . ولُقِّب عتيقا [3] ، والصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول ولاسيما صبيحة الأسراء . وكنى بأبى بكر لمبادرته الى الاسلام .

مولده ومكانته فى الجاهلية

ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر . وعرف بالخصال الكريمة ، واشتهر بالعفة ولم يكن يشرب الخمر [4] . وكان من سراة مكة فى الجاهلية ، عالماً بأنساب العرب وأخبارهم . وكانت اليه الأشناق وهى الديات والمغارم . وكان بزازا يتاجر فى الثياب . وقد بلغ رأس ماله أربعين ألف درهم . وهو أول من أسلم من الرجال . وسرعان ما ترك التجارة بعد إسلامه ليتفرغ الى شئون المسلمين . وقد أسلم على يديه كثير من العرب الذين اعتز بهم الاسلام كعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

اسلامه

وكان إيمانه بالرسول شديداً ، وكان رفيقه عند ماهاجر الى المدينة. وقد نزل فيه قوله تعالى (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ . إِذْ أَخْرَجَهُ

---

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ج٤ ص١٠١ (٢) السيرة الحلبية لزينى دحلان ج ١ ص ١١٠ وقيل عبد اللات وقيل عبد العزى

(٣) قيل إنه كان لايعيش لامه ولد فاستقبلت به البيت وقالت اللهم هذا عتيقك من الموت . وقيل لسبقه الى الاسلام ، أو لأن الرسول بشره بان الله أعتقه من النار . تيسير الوصول الى جامع الاصول لأحاديث الرسول لابن الديبع الشيبانى ج ٣ ص ٢٦٣

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ج ١ ص ٢٢

الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) [١] . ولما استقر الرسول فى المدينة كان أبو بكر ساعده الأيمن . وقد خصه الرسول بمزايا لم يخص بها أحداً سواه . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « كان يفاوض أصحابه ويشاورهم فى مهماته العامة والخاصة ، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى . فكان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره » [٢] .

مكانته من نفس الرسول

وصفوة القول أن أبا بكر قاسم الرسول مر العيش وحلوه ، وآلام الحياة وما فيها من انتصار وظفر ، وبقى معه لا ينفك عنه كظله . [٣]

صحبته

بيعة أبى بكر :

اجتماع السقيفة

لم يوص الرسول بزعامة المسلمين لأحد من أصحابه بل ترك مسألة الخلافة شورى بينهم .

فلما تطاير نعيه اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى المدينة ، وأرادوا أن يبايعوا بالخلافة رجلا منهم ، هو سعد بن عُبادة سيد الخزرج . وحضر اليهم نفر من المهاجرين ، وكاد يقوم بين هؤلاء وهؤلاء خلاف شديد ، لولا أن قام بينهم أبو بكر خطيباً ، وأدلى لهم بالحجة على أن هذا الأمر لقريش ، وأن أمر العرب لن يصلح إلا إذا وليته قريش ، وحذّر الأنصار إن وليته الأوس أن تنفس عليها

(١) سورة التوبة ٩ : ٤٠

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٦

(٣) روى ابن هشام (ج ٣ ص ٤٦١) والطبرى (ج ٣ ص ١٩٢) أنه عند ماقال النبى صلى الله عليه وسلم فى آخر خطبة له : « إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ما عند الله » فهمها أبو بكر وعلم أن رسول الله إنما يريد نفسه ، وأن قد حانت وفاته فبكى وقال : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا . فقال : على رسلك يا أبا بكر . أنظروا هذه الابواب الشوارع اللافظة فى المسجد فسدوها الا ما كان من بيت أبى بكر . فانى لا أعلم أحدا كان أفضل عندى فى الصحبة يدا منه » .

الخزرج ، وإن وليته الخزرج أن تنفس عليها الأوس . فلما ذكر الأنصار ما كان بينهم فى الجاهلية ، وأن الحال توشك أن تعود الى مثل ما كانوا عليه من عداوة ، اطمأنوا الى رأى أبى بكر ، فعرض عليهم مبايعة عمر أو أبى عبيدة بن الجراح . فخشى عمر أن يترك الناس فيختلفوا على أنفسهم ويضيع الأثر الذى أحدثه كلام أبى بكر ، فقام الى أبى بكر وبايعه بالخلافة[1] وقال له : « ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت ياأبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً »[2] . وقد بايع أبا بكر عمر وأبو عبيدة وسبقهما بشير ابن سعد ، ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه[3] .

بيعة أبى بكر

على والخلافة

حدث هذا بينما كان على بن أبى طالب قد انحاز مع الزبير ونفر من بنى هاشم الى بيت فاطمة ، وقضى هو وأهل بيت الرسول يوم الثلاثاء فى تجهيزه ودفنه . فوجد فى نفسه على أبى بكر ومن بايعوه متجاهلين مكانته وحقه[4] .

توقف على عن البيعة

ومع أن استخلاف أبى بكر قد تم بطريقة ديمقراطية على نحو ما كان مألوفا لدى قبائل العرب فى الجاهلية (Patriarchal State) ، ذلك النظام الذى يقضى بأن تكون السن والفضائل أساساً لاختيار شيخ القبيلة ، فان امتناع كثيرين من علية العرب ، كالعباس عم النبى ،

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٤٦٤ - ٤٧٢

(٢) قال عمر : فارتفعت الأصوات وكثر اللغط . فلما أشفقت الاختلاف قلت لأبى بكر : أبسط يدك أبايعك . فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون والأنصار . . وإنا والله ما وجدنا أمرا هو أقوى من مبايعة أبى بكر . خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة ، فاما أن نتابعهم على مالا نرضى ، او نخالفهم فيكون فساد (الطبرى ج ٣ ص ٢٠٠) .

(٣) وتسمى بيعة السقيفة بالبيعة الخاصة لأنه لم يبايعها الا نفر قليل من المسلمين هم الذين حضروا السقيفة . فلما كان الغد جلس أبو بكر على المنبر فى المسجد ، وبايعه الناس البيعة الكبرى أو العامة .

(٤) أنظر خطبة على فى الطبرى ج ٣ ص ٢٠٢ سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ٤٧٠) والطبرى (ج ٣ ص ٢٠٢)

وطلحة والزبير ، وهم من السابقين الى الاسلام الذين اتحدوا مع على ابن أبى طالب ، ثم ما كان أيضا من عدم إجابة فاطمة الى ما طالبت به من ميراث أبيها ـ كل هذه الأمور آذنت بانقسام الأمة العربية الى سنيين وشيعيين (1) .

على أن عليا قد بايع أبا بكر بعد موت فاطمة ، كما أن عمر أعلن فى خطبة له أن عليا تخلف عنهم هو والزبير ومن كان معهما إلى بيت فاطمة ، وأن الظرف كان دقيقا يتطلب حلا حاسما عاجلا (2) .

سياسة أبى بكر

وقد أعلن أبو بكر سياسته التى عول على انتهاجها فى هذه الخطبة القصيرة الجامعة التى خطبها فى مسجد الرسول على أثر أخذ البيعة العامة له فى اليوم التالى لاجتماع السقيفة . وهاك نصها :

« أيها الناس ! إنى قد وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم . فان أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى . الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوىٌّ عندى حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله ـ لا يدعْ قوم الجهاد فى سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فاذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » (3) .

---

(1) سيرة ابن هشام (طبعة اوربا) ج ٢ ص ١٠١٣ « والفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٣

وقد أثر عن أبى بكر أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا (الأمر) (الخلافة) فقال لى : يا أبا بكر ! هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه ، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يتنفج اليه ، هو لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لى . صبح الأعشى للقلقشندى (ج ١ ص ٢٤٠)

(2) أنظر خطبة عمر فى سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ٤٧٠) والطبرى (ج ٣ ص ٢٠٠) .

(3) ابن هشام (ج ٣ ص ٤٧٣) ؟ الطبرى (ج ٣ ص ٢٠٣) ؟ العقد الفريد (ج ٢ ص ٣٤٧) ؟ وعيون الأخبار لابن قتيبة (ج ٢ ص ٢٣٤)

ردة العرب :

حكومة الرسول

كانت حكومة الرسول حكومة دينية تعتمد ـ الى حد كبير ـ فى سلطتها التنفيذية على عقيدة الناس فى أن هـــذا النبى انما يُصدر فى أحكامه وتصرفاته عن وحى الله وأمره . قال تعالى (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) (١) ، كما كان فى حكمة الرسول وتسويته بين أبناء القبائل المختلفة وعدم خضوعه لنزعات النفس وميلها إلى إيثار الأهل والعشيرة ، واختصاصهم بالفائدة وتقـــديمهم على الأكفاء من غيرهم ، وفى محوه العصبية والشعور القبلى ، واجلاله الوحدة الدينية والقومية الاسلامية محلهما ـ كان فى هذا كله ما سهل على العربى طاعته والاذعان له ، وسهل على القبائل المختلفة أن تنضوى تحت لوائه وأن تدين له بالزعامة . بل لقد بلغ من افتتان بعض العرب بشخصية الرسول أنهم ما كانوا يستطيعون أن يصدقوا بموته .

اشفاق القبائل من تخلف الرسول

فلما انتقل الرسول الى جوار ربه وتحققوا من ذلك ، شك فريق منهم فى أمر هذا الدين الذى خلفه ، وأوجس غيرهم إن وليت قريش أوغيرها هذا الأمر أن تحيله ملكا عضوضا ، فأخذوا يفكرون فى موقفهم وينظرون إلى مصيرهم ، فرأوا أن هذا النبى الذى كان يقوم بالسفارة عن الله عز وجل ، ويبلغهم أمره ونهيه ، ويتمتع بالعصمة عن الخطأ والتنزه عن الزلل ، قد فارقهم الى ربه ، وليس ثمة إنسان فى العالم يتصف بهذه الصفات التى كانت الضمان الوحيد لمساواة القبائل بعضهم ببعض ، وجعل الناس كأسنان المشط .

فمن المحتمل اذاً أن يحكم من يحل محـــل هذا الرسول هواه

(١) سورة النجم ٥٣ : ١ - ٥

وأهله وعشيرته فى رقاب الناس ومصالحهم . كما لا يبعد أن يعلى هذا المركز (الخلافه) من شأن القبيلة التى ينتمى اليها الخليفة. ويغض من شأن غيرها من القبائل ، فيميل ميزان العدل بين الناس .

التنازع على منصب الخلافة

ويفسر لنا هذا تسابق هذه القبائل والبطون عند وفاة الرسول على أن يكون هذا الأمر لها دون غيرها . فتكشف ما فى الصدور وتجلت

الأوس والخزرج

النفس العربية والطبيعة القبلية إذ ذاك : فالأنصار يخافون قريشا والمهاجرين إن استأثروا بالأمر دونهم وهم فيما بينهم يتوجسون . ويخشى كل من الأوس والخزرج صاحبه . ولم يكن الحال فى مكة بأقل منه فى المدينة.

قريش

فقد دب التنافس فى هذا الأمر بين بطون قريش . فلما تم الأمر لأبى بكر وجد عليه بنو هاشم وامتنع علىّ عن مبايعته أشهرا . وسعى أبو سفيان بن حرب ليوغر صدر علىّ بن أبى طالب على أبى بكر الذى

عبد مناف

انتزع الخلافة من بنى عبد مناف [1] ، وقد سمى عليا والعباس « الأذلان والمستضعفان » وتمثل بقول المتلمس :

إنّ الهوانَ حِمارُ الأهل يَعرِفه ... والحرُّ ينكره والرَّسلَةُ الأُجُدُ

ولا يُقيمُ عَلى ضَيْمٍ يُراد به ... إلّا الأذَلّانِ عَيْرُ الحَيِّ والوَتِدُ

هذا على الخسفِ مَعْكوسٌ برمته ... وذا يُشجُّ فلا يَبْكي له أحَدُ [2]

حجة كل فريق

ولئن كان للمهاجرين من بنى هاشم وغيرهم ، وللأنصار أوسهم وخزرجهم من القرابة لرسول الله ، أو الفضل والسبق فى الاسلام ،

---

(١) روى الطبرى (ج ٣ ص ٢٠٢) أن أبا سفيان بن حرب قال لعلى بن أبى طالب بعد أن ولى أبو بكر الخلافة : مابال هذا الامر فى أقل حى من قريش ؟ والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا » . فقال على : ياأبا سفيان ! طالما عاديت الاسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئا . انا وجدنا أبا بكر لها أهلا . وروى أنه قال : والله انى لأرى عجاجة لايطفئها الا دم يا آل عبد مناف . فيما أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ؟ أين الأذلان على والعباس ؟ وقال : أبا حسن ! ابسط يدك حتى أبايعك ، فأبى على عليه وزجره . أنظر تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٤٠

(٢) شرحه

أو النصر والأيواء لدين الله والذود عنه ـ لئن كان لهؤلاء وأولئك سبب من هذه الأسباب يدلون به ويطمعون من أجله فى الخلافة ، فان القبائل العربية الأخرى لم تجد لنفسها من السابقة فى الاسلام ولا من القرابة للرسول ما تعتز به . وقد رأت المهاجرين والأنصار يتنازعون هذا الأمر فيما بينهم ؛ فيقول المهاجرون «منا الأمراء ومنكم الوزراء» ، ويقول الأنصار «بل منا أمير ومنكم أمير» . فيئست هذه القبائل وضاع أملها فى الخلافة ، فأعلنت العصيان ، ورفض أكثرهم أن يخضعوا لسلطان أبى بكر وامتنعوا عن أداء الزكاة التى ظنوها اتاوة . ولا غرو فقد كان بعضهم يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعد ممات زعيمهم ، ولأنهم كرهوا سيادة قريش التى ظنوا أنها قد سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين [1] . ومازال دبيب العصيان ينمو فى النفوس ، والتمرد على الحكومة القرشية ينتشر بين القبائل حتى تزعزع مركز الاسلام وانكمشت أطرافه الى مكة والمدينة والطائف وبنى عبد القيس .

القبائل الاخرى

انقطاع أملها فى الخلافة يدفعها الى التمرد

هذا هو الشعور الذى شاع فى القبائل التى ارتدت عن الاسلام . أما قريش ـ وقد آل إليها هذا التراث المجيد ـ فقد اضطلعت بعبئه وتلقته بما يليق به من العناية والجد فى تحمل مسئولياته ، ولم تضن فى سبيله بفلذات أكبادها وساداتها وأشرافها ، فوجهتهم لمحاربة هذه القبائل ، وبرهنت على أنها زعيمة العرب وأحقهم بهذا الأمر وأقدرهم على الاضطلاع به . يدل على ذلك قول عمر لنفر من الصحابة : «أظن قلتم ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألا يقروا بهذا الأمر» ، ثم قال : «فلا تخافوا هذه المنزلة . أنا والله منكم على العرب أخوف

موقف قريش إزاء المرتدين

اعتداد قريش بنفسها

---

(١) أنظر تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ٢٦ - ٢٧

منى من العرب عليكم . والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب فى إثركم ، فاتقوا الله فيه » (١)

المتنبئون :

أثر العصبية

وليس غريباً أن تحمل العصبية العرب على ركوب هذا الأمر الصعب والارتداد عن دين الله من أجل حرمانهم من الخلافة . فنحن نعلم أن العصبية كانت من أهم العوامل وأبعدها أثراً فى القبائل التى أسلمت أو حاربت الاسلام فى عهد الرسول (٢) ، بل لقد دفعت هذه العصبية بعض القبائل إلى انتحال النبوة ، فتنبأ فيها رجال قبل وفاة الرسول وبعدها ، وشايعتهم هذه القبائل (٣) . وكان أشد هؤلاء

مسيلمة الكذاب وسجاح

المتنبئين خطراً مُسَيْلِمة الكذاب الذى استفحل خطره وتفاقم شره لانضمام الرَّجال (٤) بن عُنْفُوَة من بنى حَنيفة إليه وخديعته سجاح التميمية حتى تزوجته وانضم أتباعها إليه .

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٣١

(٢) فالأوس والخزرج قبلوا الاسلام لأنهم سيعتزون به ويستنصرونه على اليهود الذين كانوا يدلون عليهم بدينهم وكتبهم ويتهددونهم بقتلهم قتل عاد وارم حينما يبعث نبى آخر الزمان . وهؤلاء اليهود — والنصارى أيضاً — أعرضوا عن الاسلام ونفروا منه لأنه لم يوح به الى رجل منهم ، والقبائل الأخرى المشهورة مثل هوازن وثقيف حاربت الاسلام خشية أن يظهر عليها ويخضعها كما أخضع القبائل الأخرى .

(٣) مما يدل على ذلك ما رواه الطبرى عن بعض بنى حنيفة إذ يقول : أشهد أن مسيلمة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر (ج ٣ ص ٢٤٦) وأنه لما مات النبى صلى الله عليه وسلم قام عيينة بن حصن فى غطفان فقال : ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بنى أسد (كان بين غطفان وأسد وطيء حلف فى الجاهلية) وانى لمجدد الحلف الذى كان بيننا فى القديم ومتابع طليحة (الذى ادعى النبوة فى بنى أسد) ، والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب الينا من أن نتبع نبياً من قريش . وقدمات محمد وبقى طليحة (الطبرى ج ٣ ص ٢٣٠)

(٤) كان الرجال (بالجيم على وزن شداد كما فى القاموس المحيط) ومسيلمة فيمن وفد من بنى حنيفة على النبى وأسلم كما اسلموا وقرأ القرآن وتفقه فى الدين . فلما ارتد مسيلمة فى اليمامة بعثه النبى صلى الله عليه وسلم معلماً لأهلها « وليشغب على مسيلمة ، وليشدد من أمر المسلمين » (الطبرى ج ٣ ص ٢٤٤) ، فتابع مسيلمة وشهد له بالاشتراك فى الرسالة مع محمد . فكان « بهذه الشهادة أعظم فتنة على بنى مسيلمة »

وقد كتب مسيلمة إلى الرسول كتابا يدعى فيه مشاركته فى الرسالة ويساومه فى اقتسام الملك والسيادة فى جزيرة العرب . فكتب إليه الرسول « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . »

ثم لم يلبث الرسول أن توفى . فلما ولى أبو بكر الخلافة أرسل إليه عكرمة بن أبى جهل ، وألحق به شُرَحْبيل بن حسنة . فتعجل عكرمة حتى حلت به الهزيمة [١] ؛ فوجه إليه أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش كثيف على مقدمته شرحبيل ، والتحم جيش المسلمين بجيش مسيلمة ، واستماتت بنو حنيفة فى القتال وفى مقدمتهم الرَّجال حتى كاد يتم النصر لهم لولا أن صدق المسلمون فى الجهاد وصبروا فى الحرب ، كما دعا خالد مسيلمة للمبارزة عساه يقتله فيقضى على رأس تلك الفتنة ويخمد جذوتها ؛ ولكن مسيلمة لم يستطع صبراً أمام خالد ، فولى هاربا وحمل المسلمون عليه وعلى أصحابه فهزموه ، وأكثر المسلمون القتل فى بنى حنيفة حتى قتل مسيلمة على يد وحشى [٢] ورجل من الأنصار [٣] .

الاسود العنسى

كذلك ادعى النبوة باليمن الأسود العَنْسى وتابعه قومه ؛ فاشتد بهم ساعده وغزا بلاد نجران فدانت له ، وكذلك دانت له مذحج التى استخلف عليها عمرو بن معد يكرب ، وعدا على شهر بن باذان صاحب صنعاء فقتله وتزوج امرأته ، وألقى الرعب فى قلوب ولاة المسلمين على اليمن . حتى كتبوا للرسول . فكتب إليهم يأمرهم بالقيام على دينهم

---

(١) muir, pp. 29—35

(٢) قاتل حمزة عم النبى فى غزوة أحد كما سبقت الاشارة الى ذلك

(٣) Muir, the Caliphate, pp. 19—20.

ومناهضة الأسود ، فائتمروا به حتى توصلوا إلى قتله غيلة فى الليلة التى مات الرسول فى صبيحتها [١] .

طليحة بن خويلد

وممن ادعى النبوة أيضا طُليْحة بن خويلد، وهو كاهن من بنى أسد . وقد اتبعه قومه ودعوا إليه أحلافهم من طيء والغوث ومن إليهم . فلما توفى النبى ظهر أمره وانضمت إليه غطفان ومن حولها فبعث إليهم أبو بكر عديًا ثم خالد بن الوليد ؛ فأسلمت طيء وجديلة وصبرت معه فزارة وأسد ، حتى إذا استحر القتال وأيقن طليحة بالهلاك فرّ هاربا إلى الشام . [٢]

وذكر الطبرى فى رواية له أن طليحة مضى حتى نزل إلى كلب فاسلم ، ولم يزل مقيما بينها حتى مات أبو بكر . فلما ولى عمر الخلافة أتاه فبايعه . [٣]

هذا ، وقد كان بين من التفوا حول هؤلاء المتنبئين عرب لم يؤمنوا بنبوتهم ، وإنما فكروا فى الارتداد وانحازوا إلى هؤلاء المتنبئين يستنصرون بهم على قريش ليتخلصوا من زعامتها وسيادتها التى فرضتها عليهم .

وهناك فريق من العرب ارتدوا ولم ينضموا إلى واحد ممن ادعوا النبوة ؛ وكان من هؤلاء سكان البحرين الذين ارتدوا بعد وفاة ملكهم المنذر بن ساوى حتى قيَّض الله لهم الجارود بن المعلى العبدى ؛ فنصحهم حتى ثابوا إلى الاسلام ، ولكن وثب عليهم الحُطَم بن ضُبَيْعَة ومن اتبعه من بنى بكر بن وائل ، فأحاط بالمسلمين وحاصرهم حتى بعث إليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمى لقتال المرتدين ؛ فانضم إليه نفر من مسلمى

(١) انظر الطبرى ج ٣ ص ٢١٣ — ٢١٩

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٧ - ٢٣٢

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٣٢ ؟ Muir, the Caliphate, pp. 20—22

بنى حَنيفة ؛ فحارب الحُطَم ومن معه ولم يستطع أن يقهره حتى بدت له فيه فرصة فانتهزها ، وذلك أنهم سمعوا فى معسكر المشركين ضجة فدسوا فيهم من يتعرف خبرهم ؛ فعرف أن القوم سكارى ، فهجم عليهم المسلمون وأعملوا فيهم السيوف واستولوا على ما فى العسكر.[1]

تسيير أبى بكر الجيوش

وقد واجه أبو بكر كل هذه الصعاب بما عرف عنه من حزم وعزم وغيرة على الدين . فبادر بتسيير الجيوش إلى أهل الردة والمتنبئين ، وعقد اللواء لقتالهم على أحد عشر قائداً[2] فى وقت واحد. وأمر كل قائد بالسير إلى ناحية من نواحى بلاد العرب بعد أن كتب له عهدا يأمره فيه : « بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام إلى أمانى الشيطان » ، وأمره « أن لا يرد المسلمين عن قتال عدوهم » ، وأن « لا يقاتل إلا من كفر بالله ورسوله » ، ثم نصحه « بأن لا يُدخل فى المسلمين حَشوًا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، حتى لا يكونوا عيونا ، ولئلا يؤتى المسلمون من قِبلهم ».[3]

كما أرسل أبو بكر لجميع المرتدين كتابا يدعوهم فيه إلى الرجوع الى حظيرة الدين ، ويرد الشبهة التى نشأت عن موت الرسول بأنه بشر يموت كما يموت كل إنسان ، ثم هددهم بالقتل والاحراق وسبى النساء والذرارى إذا لم يراجعوا . فلم تمض سنة واحدة حتى تم له النصر .

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٥٤ - ٢٦١ .

(٢) - ١ - خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد . فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح - ٢ - عكرمة بن أبى جهل ووجهته مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة - ٣ - المهاجر بن أبى أمية ووجهته الاسود العنسى باليمن ومعونة الابناء على قيس بن العاص - ٤ - عمرو بن العاص ووجهته قضاعة ووديعة والحارث - ٥ - سعيد بن العاص ووجهته الحمقتان من مشارف الشام - ٦ - حذيفة بن محصن الغلفانى وأمره بأمر دبا - ٧ - عرفجة بن هرثمة ووجهته مهرة - ٨ - شرحبيل بن حسنة بعثه فى أثر عكرمة بن أبى جهل على أن يلحق بعمرو بن العاص اذا فرغ من بنى حنيفة فى اليمامة - ٩ - طريفة بن حاجز ووجهته بنو سليم ومن معهم من هوازن - ١٠ - سويد بن مقرن ووجهته تهامة باليمن - ١١ - العلاء بن الحضرمى ووجهته البحرين (الطبرى ج ٣ ص ٢٢٥) .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٧

وكانت الغلبة للجيوش الاسلامية ، وعلت كلمة الدين من جديد بعد أن أعمل هؤلاء القواد وجنودُهم السيف فى رقاب أصحاب الفتنة فى جميع أرجاء الجزيرة .

يقول السير وليم ميور فى كتابه الخلافة عن السبب فى نجاح المسلمين فى القضاء على الردة واستئصالها من جميع أنحاء الجزيرة العربية :
« وإنما يرجع الفضل فى تتويج هذه المجهودات بالنصر والظفر إلى تلك الروح القوية التى بثها محمد (صلى الله عليه وسلم) فى نفوس أتباعه المخلصين » (١)

كتاب ابى بكر الى المرتدين

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابى هذا من عامة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه .

سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى . فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله نُقر بما جاء به ونُكَفِّرُ من أبى ونجاهده . أما بعد ، فان الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده الى خلقه (بَشِيراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ .) فهدى الله بالحق من أجاب إليه وضرب رسولُ الله باذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الاسلام طوعا وكرها . ثم توفى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد نفذَ لأمر الله ونصح لأمته ، وقضى الذى عليه وكان الله قد بيَّن له ذلك ولأهل الاسلام فى الكتاب الذى أنزل فقال (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)، وقال (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) وقال للمؤمنين (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

(١) Muir, the Califhate, p. 18.

أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا . وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ) . فمن كان إنما يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، فان الله له بالمرصاد حَيٌّ قيُّوم لا يموت ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، حافظ لأمره منتقم من عدوه يجزيه .

وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله ، وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعتصموا بدين الله. فان كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مُبتَلى ، وكل من لم يُعِنه الله مخذول . فمن هداه الله كان مهتدياً ومن أضلّه كان ضالا .

قال الله تعالى (مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) ولم يُقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقرّ به ، ولم يقبل منه فى الآخرة صَرْفٌ ولا عَدْل .

وقد بلغنى رجوعُ من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) . وقال (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

وإنى بعثتُ إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان ، وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله . فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قَبِل منه وأعانه عليه . ومن أبى أمرتُ أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يُبقى على أحد منهم قدَرَ عليه ، وأن يُحرّقهم بالنار ويقتلهم كل قِتلة ، وأن يسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد إلا الاسلام . فمن اتبعه فهو خير له .

ومن تركه، فلن يعجز الله . وقد أمرتُ رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم، والداعية الأذان . فاذا أذّن المسلمون فأذّنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن أذّنوا سألوهم ما عليهم ؛ فان أبَوْا عاجلوهم ، وإن أقروا قَبِل منهم وحَملهم على ماينبغى لهم . »[١]

وقد بعث أبو بكر هذه الكتب مع الرسل الى المرتدين أمام الجنود

عوامل انتصار المسلمين فى حروب الردة

ومما ساعد على انتصار المسلمين فى حروب الردة قوة إيمانهم التى بعثت فى نفوسهم الشجاعة والاقدام والاستخفاف بردة العرب . يدلك على صحة هذا القول ما رواه المؤرخون عن موقف عمرو بن العاص من قُرَّةَ بن هُبَيْرة من بنى عامر إذ نزل به فأكرمه ، ثم خلا به وقال : يا هذا ! إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة ، فان أعفيتموها فتسمع لكم وتطيع ، وان أبيتم فلا تجتمع عليكم » . فقد أجابه عمرو على الفور جوابا يدل على استهانته بردة العرب فقال : تخوفنا بردة العرب ؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل فى حِفْش (٢) أمك

ولما أُتى بقرة بن هُبَيْرة أسيراً إلى أبى بكر رضى الله عنه ، استشهد قرة بعمرو على اسلامه ؛ فأحضر أبو بكر عمراً فسأله ؛ فأخبره بقول قرة إلى أن وصل الى ذكر الزكاة ؛ فقال قرة : مهلا ياعمرو . فقال : كلا والله لأخبرنه بجميعه ؛ فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه (٣) .

المستشرقون وردة العرب

وقد اتخذ بعض المستشرقين ارتداد بعض القبائل العربية عن الاسلام بعد وفاة الرسول دليلا على أن الاسلام إنما قام بحد السيف ، وأن الخوف وحده هو الذى أدخل العرب فى هذا الدين . وفى الحق أن العرب الذين

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(٢) الحفش بكسر فسكون بيت تنفرد فيه النفساء

(٣) الطبرى (ج ٣ ص ٢٣١) ؟ ابن الاثير (ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧١) .
أنظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٦ - ٣٨

حاربهم أبو بكر وسموا مرتدين لم يكفروا بالاسلام ولم يرفضوه ، كما قد يتبادر الى الذهن من تسميتهم مرتدين . وإنما كانوا فريقين :

أقسام المرتدين

١ ـ فريقاً منع الزكاة فقط زاعما أنها إتاوة تدفع الى الرسول . فاذا ما انتقل الرسول الى جوار ربه ، أصبحوا فى حل من عدم دفعها الى خليفته . وفى شأن هذا الفريق عارض عمر أبا بكر فى حربهم محتجا بقوله عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابُه على الله » . ولكنّ أبا بكر رأى فى امتناع هؤلاء عن دفع الزكاة هدما لركن من أهم أركان الدين . وقد يجر التهاون فيه الى هدم غيره من الأركان .

مانعو الزكاة

والزكاة ـ كما لا يخفى ـ كانت هى المصدر الوحيد لخزانة الدولة .

وقد كان من رأى أبى بكر أن يأخذ هذا الفريق من المرتدين فى غير هوادة حيث قال : « والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال . والله لو منعونى عقالا [١] كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها » ، فقال عمر : « فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه فعرفت أنه الحق » .[٢]

على أن هؤلاء لم يرتدوا عن الاسلام لبغضهم إياه أو كراهتهم له ، وإنما ظنوا أن الاسلام قد انتهى بوفاة الرسول . أضف الى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد التى هى عماد هذا الدين ، بل زعموا أن الزكاة إنما هى إتاوة يدفعونها للرسول . ومن ثم لم يجدوا مبرراً لدفعها بعد وفاته [٣] .

---

(١) العقال الحبل الذى يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى الصدقة ، لأن على صاحبها التسليم وانما يقع القبض بالرباط . وقيل أراد ما يساوى عقالا من حقوق الصدقة اذا أخذ المصدق أعيان الابل . قيل أخذ عقالا ، واذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقدا . وقال المبرد فى الكامل ان المصدق اذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالا ، واذا أخذ الثمن قيل أخذ نقدا .

(٢) صحيح البخارى (طبعة بولاق) ج ٢ ص ١٠٥

(٣) أنظر تعليق المؤلف على كتاب السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ص ٨٧

المرتدون حقا

٢ ـ وأما الفريق الثانى فقد ارتدوا عن الاسلام ولم يكونوا مسلمين حقا. لأن السواد الأعظم منهم كان من هؤلاء الأعراب الذين مَرَدُوا على النفاق ولم يمض عليهم من الزمن ما يكفى لأن يؤثر الدين فى قلوبهم. ولا غرو فالدين عقيدة ومبدأ يملآن القلب ويؤثران فى كل ما يصدر عنه. وقد نعى الله سبحانه وتعالى عليهم هذه الطبيعة الجافية فى غير آية من القرآن. من ذلك قوله تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ (١) مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (٢). وقال تعالى (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(٣)

معاقبة من ارتد بالقتل

وأما معاقبة الاسلام من ارتد عنه بالقتل فذلك أمر اقتضته سياسة الدولة أكثر من الحرص على إسلام هؤلاء، إذ كان أخوف ما تخافه الدولة الاسلامية من الابقاء على هؤلاء المرتدين أن ينقلبوا عيونا عليها. وبذلك يصبحون شراً مستطيراً يهدد كيانها. ولا غرو فان السياسة والدين لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر عند المسلمين (٤).

معاملة الاسلام للمرتدين

على أن الاسلام شديد الحيطة فى أمر المرتدين؛ فهو لا يأخذهم

---

(١) لا ينقصكم من أجور أعمالكم

(٢) سورة الحجرات ٤٩ : ١٤ — ١٦ (٣) سورة التوبة ٩ : ٩٨ — ٩٩

(٤) أنظر Nicholson, Literary History of the Arabs, p. 197.

فى ذلك بالشبه ولا يحكم فيهم بالظنة ، وإنما يمهل المرتد ثلاثة أيام يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما التبس عليه من أمر الدين، وما عرض له من الشبه فى صحته ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيّ عن بينة

اقوال الائمة فى المرتدين

والى القارىء طائفة من أقوال الأئمة فى هذا الموضوع قال أبو حنيفة : إذا ارتد المسلم عرض عليه الاسلام وأجل ثلاثة أيام لأن الظاهر أنه دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها ، فعلينا إزالة تلك الشبهة ، أوهو يحتاج إلى التفكر لنبين له الحق فلا يكون ذلك إلا بمهلة ، فان استمهل كان على الامام أن يمهله ، ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام فى الشرع كما فى الخيار (خيار الشرط وخيار الرؤية فى البيوع) فلهذا يمهله ثلاثة أيام (١)

ويقول بعض فقهاء المالكية مانصه : واستتيب المرتد وجوبا ولو عبدا أو امرأة ثلاثة أيام بلياليها من يوم الثبوت لامن يوم الكفر بلا جوع ولا عطش بل يطعم ويسقى من ماله وبلامعاقبة وإن لم يتب(٢)

ويقول الامام الشافعى : « ويجب استتابة مرتد ذكراً أو غيره لأنه كان محترما بالاسلام ، وربما عرضت له شبهة فتزال . وقيل يمهل ثلاثة أيام » (٣) .

وقال الامام أحمد بن حنبل : « ومن ارتد عن الاسلام من الرجال والنساء وهو بالغ عاقل ، دعى اليه ثلاثة أيام » (٤) .

على أنه لا ينبغى أن يكفر مسلم يحتمل عمله أو قوله الكفر وعدمه إلا اذا كان التكفير بقوله أو بعمله مجمعا عليه . وقد صرح العلماء بأنه

---

(١) كتاب المبسوط لشمس الدين السرخسى القاهرة سنة ١٣٢٤هـ) جـ ١٠ ص ٩٨ - ١٠٠.

(٢) انظر باب الردة وأحكامها فى الشرح الكبير للدردير (طبعة بولاق سنة ١٣١٩) جـ ٤ ص ٢٧٠ حاشية الدسوقى جـ ٤ ص ٢٦٧ .

(٣) انظر باب الردة فى حاشية البجرى على شرح المنهج (طبعة بولاق سنة ١٣٠٩ هـ)

(٤) أنظر كشاف القناع على متن الاقناع (طبعة القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) جـ ٤ ص ١٠٠-١٠٥.

لا يكفر مسلم بقول يحتمل الكفر من تسع وتسعين وجها ويحتمل الأيمان من وجه واحد (١).

من ذلك نرى أن محاربة أبي بكر لمن ارتد من المسلمين بعد وفاة الرسول لم تكن سوى قمع لثورة داخلية أراد بعض من لم يخالط الاسلام قلوبهم القضاء عليه وهو لايزال فى مهده. فلم يكن بد إذاً من أن يقضى أبو بكر على هذه الثورة حتى لا تتصدع أركان الوحدة العربية وتتفرق كلمة المسلمين.

٣ — وأما من دخلوا الاسلام عن اقتناع بصحته وإدراك لسمو مبادئه، فلم يرتد منهم أحد. وقد أجمع المؤرخون على أن أهل مكة والمدينة والطائف ثبتوا على إسلامهم ولم تؤثر فيهم تلك العاصفة التى عصفت بشبه جزيرة العرب على أثر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام

بدء الفتوح

وفى عهد أبى بكر غزت الجيوش العربية بلاد الشام وفلسطين والحيرة وجزءا من بلاد الفرس. غير أن فتح هذه البلاد لم يتم إلا فى عهد عمر. لذلك نرجىء الكلام عليها إلى عهد عمر بن الخطاب.

صفات أبى بكر:

منزلته فى الجاهلية

كان أبو بكر من رؤساء قريش فى الجاهلية وأهل مشاورتهم. وكان رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا؛ وكانت تساق إليه الأشناق. (٢) فى الجاهلية. فكان إذا حمل شيئا من ذلك فسأل فيه قريشا مدحوه وأمضوا حمالته، فان احتملها غيره لم يصدقوه. وكان تاجرا ذا خلق ومعروف، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته كما كان أعلم قريش بأنسابها وما كان منها من خير أو شر.

تسميته بالصديق

فلما جاء الاسلام آثره الرسول على من سواه؛ وقد أخلص فى الصحبة

---

(١) أنظر باب المرتد فى حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين. (طبعة مصر سنة ١٢٧٢ هـ) ج ص ٢٨٣ – ٢٩٢. وهذه هى الروح التى أملت على أبى بكر كتابه الى المرتدين وعهده الى القواد

(٢) وهى الديات التى يتحملها عن يتقرب لذلك من العشيرة

لرسول الله ولم يخالجه شك فى كل ما أتى به حتى سماه الرسول بالصديق . ولقد أجمع أهل السير على أنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشهد من مشاهده ، وكان فيمن ثبت معه يوم أحد وحُنين . (١)

شجاعته وحسن بلائه فى حروب الردة

ولقد اشتهر فى جميع مواقفه بالشجاعة والثبات للخطوب . ولا غرو فقد نهض أبو بكر بإتمـام نشر الدعوة وتوحيد كلمة العرب بعد أن تمزق شملهم أوكاد . ناهيك بما فعله مع المرتدين الذين رماهم بجيوش المسلمين لحربهم وخرج بنفسه للقائهم عند ما هاجموا المدينة وأسامة فى الشـام بجيش المسلمين ؛ حتى لقد ناشده الصحابة ألا يعرض نفسه للخطر ؛ فأبى وقال والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى (٢) وصبر وصابر حتى آتاه الله سبحانه وتعـالى النصر والظفر بهم وأعادهم إلى حظيرة الدين وأعلى شأن الاســـلام ، ثم جعل من المسلمين جنداً لبثّ الدعوة والجهاد فى سبيل الله خارج الجزيرة العربية حتى أديل لهم من دولتى الفرس والروم العظيمتين وفتحوا ما فتحوا من بلادهم حتى قبضه الله .

منزلته فى نفس الرسول

وأحاديث الرسول فى إكرام أبى بكر والاعتراف بأياديه عنده وفضله على الاسلام كثيرة متواترة .

روى البخارى عن أبى الدرداء فى حديث طويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله بعثنى اليكم فقلتم كذبتَ وقال أبو بكر صدقتَ وواسانى بنفسه وماله فهل أنتم تاركوا لى صاحبى (مرتين)(٣).

---

(١) النووى ج ٢ ص ١٨٤ . وقد روى عن عائشة أنها قالت لم أعقل أبوى إلا وهما يدينان الدين ولم يمر عليهما يوم الا يأتيا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرف النهار بكرة وعشيا (النووى : تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٨٣)

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٤

(٣) النووى : تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٨٦ . وفيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبابكر فان له عندنا يدا يكافئه الله عز وجل بها يوم القيامة . وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر . ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . وان صاحبكم خليل الله (ص ١٨٩)

إنفاقه فى سبيل الله

ولقد كان باذلا كريم اليد حتى لقد أنفق ثروته التى يقدرها عروة ابن الزبير بأربعين ألف درهم فى سبيل الله تعالى وقال : أخبرتنى عائشه أنه مات وما ترك درهما ولا ديناراً (١) .

تواضعه وزهده

وقد اشتهر كذلك بالتواضع والزهد مقتدياً فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حتى كان إذا مُدح يقول : اللهم أنت أعلم بى من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم . اللهم اجعلنى خيرا مما يظنون واغفر لى مالا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون .

وكان رضى الله تعالى عنه معروفا بين صحابة رسول الله بالعلم والتفقه فى الدين والفصاحة وإصالة الرأى وصدق الفراسة ودقة الفهم .

رأى على بن أبى طالب فيه

ذكر النووى عن على بن أبى طالب أنه قال : قدّم رسول الله أبا بكر يصلى بالناس وأنا حاضر غير غائب وصحيح غير مريض ولو شاء أن يقدمنى لقدمنى ؛ فرضينا لدنيانا من رضيه الله ورسوله عليه السلام لديننا (٢) .

عمر بن الخطاب

١٣ — ٢٣ ﻫ ؟ ٦٣٤ — ٦٤٤ م

نسبه

هو عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العزى بن رباح ؛ ينتهى نسبه إلى كعب بن لؤى القرشى العدوى (٣) ، ويجتمع نسبه مع الرسول

---

(١) النووى : تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٨٩ ؟ الاصابة فى تميز الصحابة ج ٤ ص ١٠٢ .

(٢) النووى : تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٩١

(٣) وبنو عدى بطن من بطون قريش اشتهروا بالشرف والمجد . وكانت لهم مواقف مشهورة فى الاسلام . ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذى رفض عبادة الاوثان فى الجاهلية والتزم الحنيفية وابنه سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وخارجة بن حذافة الذى ولى قضاء مصر فى عهد عمرو بن العاص .

في الجـــد السابع ، ويجتمع معه من جهة أمه (١) في الجد السادس .
وكنيته أبو حَفْص (٢) .

مولده ونشأته

روى الطبري (٣) أن عمر ولد بمكة قبل حرب الفجار بنحو أربع سنين . وقد نشأ نشأة عالية ، فكان مثال الفصاحة والبلاغة والصراحة في الحق . وكان في صغره يرعى الغنم لأبيه . ثم احترف التجارة وكان يختلف فيها إلى الشام . وكان عمر من الرهط الذين انتهى إليهم الشرف في الجاهلية . وكانت إليه السفارة ، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً وكان عمر عزيز الجانب محـــترما بين قومه ، قوى الشكيمة شديد البأس . فلما أسلم

إسلامه

جهر باسلامه لاعتقاده أنه لم يكن هناك بين القرشيين من يجرؤ على مناوأته . ولا عجب إذا اعتز به الاسلام (٤)

---

(١) كانت أمه من بنى مخزوم . ومنهم الارقم بن أبي الارقم الذى كان يجتمع بداره النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون قبل أن ينتشر الاسلام ، وهشام بن أبي حذيفة وكان من مهاجرى الحبشة . راجع تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٧ - ٥٨

(٢) كناه بذلك الرسول لما رآه فيه من الشدة

(٣) الطبرى ج ٥ ص ١٧ (وروى ابن الأثير في أسد الغابة في معرفة الصحابة) ج ٤ ص٥٣ أنه ولد بعد الرسول بثلاث عشرة سنة (أى سنة ٥٧١ م) ، وذكر أيضا أن عمر قال : ولدت بعد الفجار الأعظم بأربع سنين)

(٤) قد أثر عن الرسول أنه قال : اللهم أعز الاسلام بأحد هذين الرجلين . يعنى عمرو بن هشام وعمر بن الخطاب (الطبرى ج ٥ ص ١٧ وابن الأثير أسد الغابة ج ٤ ص٥٣) . وقد روى ابن الأثير (أسد الغابة ج ٤ ص ٥٨) عن عبد الله بن مسعود قال : كان اسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت امارته رحمة . ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى في البيت . فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا . وقد روى عن على بن أبي طالب . قال : ماعلمت أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا الا عمر بن الخطاب ، فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يديه أسهما ، واختصر عنزته ، ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى متمكنا ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ، وقال لهم : شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هذه المعاطس . من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده ويرمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى . قال على : فما تبعه أحد الا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه . (أسد الغابة ج ٤ ص ٥٨)

صحبته

وقد صحب عمر الرسول بعد إسلامه فأحسن صحبته وبالغ فى نصرته ، ووقف حياته على المدافعة عنه والذود عن الاسلام ، وكان من أشد الناس على الكفار وشهد معه المشاهد (١) . وكان الرسول يستشير أبا بكر وعمر فى كثير من الأمور . وكثيراً ما كان يشير على الرسول بالأمر فينزل القرآن موافقا لما أشار به . وقد أثر عن الرسول أنه قال : عمر معى وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان(٢).

وكان أبو بكر يستشير عمر فى مهام الأمور ويحيل عليه الفصل فى القضايا ، وان لم يتسم باسم القاضى ، وكان ساعده الأيمن فى حروب الردة واليه يرجع الفضل فى جمع القرآن وتدوينه على ما سيأتى :

بيعة عمر :

لما مرض أبو بكر مرض الموت وأحس بدنو أجله ، خشى إن هو قبض ولم يعهد بالخلافة الى أحد يجمع شتات المسلمين ويوحد كلمتهم عاد الاختلاف على الخلافة بين المسلمين سيرته الأولى فيتمكن منهم العدو . فرأى ببعد نظره وثاقب رأيه أن يحتاط لهذا الأمر درءاً لما عساه ينجم عنه من الأخطار .

نظر أبو بكر فى أصحابه ليتخير من بينهم رجــلا يكون شديداً فى غير عنف ولينا فى غير ضعف ، فوجد أن « من توفرت فيه هذه الصفة من الصحابة أحد رجلين : عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب . إلا أن الأول ربما يريد الأمر فيرى فى طريقه عقبة فيدور اليه ، والثانى يرى الاستقامة ولا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه . فهو بهذا إلى الشدة أميل منه الى اللين » (٣) .

(١) شهد عمر مع الرسول بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وخيبر والفتح وغيرها .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٩٢

(٣) اشهر مشاهير الاسلام ص ١٢٣

استطلاع أبى بكر رأى الأمة فى عمر

ولما وقع اختيار أبى بكر على عمر جعل يستشير فيه كل من دخل عليه من الصحابة. فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب. فقال: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى. فقال أبو بكر: وإن. فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل. ولكن فيه غلظة. قال أبو بكر: ذلك لأنه يرانى رقيقا، ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو فيه. ثم دعا عثمان فقال: أخبرنى عن عمر! فقال: أنت أخبرنا به. فقال: علىّ ذلك يا أبا عبد الله؟ أخبرنى عن عمر فقال: اللهم علمى به أنّ سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله. وسأل أسيد بن حُضَيْر فقال أسيد: اللهم أعلمُه الخَيْرَ بعدك، يرضى للرضا ويسخط للسخط. الذى يُسِرُّ خَيْرٌ من الذى يعلن. ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه. واستشار أبو بكر غير هؤلاء سعيد بن زيد صاحب قضاء مصر وغيره من المهاجرين والأنصار فأثنوا على عمر.

كتاب العهد

وقد دعا أبو بكر عثمان بن عفان فأملاه كتاب عهده لعمر. وهاك نصه: بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر. إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب. فإن برّ وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه. وان جار وبدّل فلا علم لى بالغيب. والخَيْرَ أردت. ولكل امرىء ما اكتسب (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

خطبة عمر بعد البيعة

ولما ولى عمر الخلافة صعد المنبر فقال: إنى قائل كلمات فأمّنوا عليهن. فكان أول كلام قاله حين استخلف: « إنما مثل العرب مثل جمل أنف، اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده. وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » [1].

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٤، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٨

الفتوح الاسلامية

عوامل هذه الفتوح

عرفنا كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع أساس السياسة الخارجية للعرب ؛ فأرسل الكتب والبعوث الى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان برسالته وغزا بلاد الروم وحارب الغساسنة الخاضعين للروم على حدود الشام ، لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه

غزوة أسامة

وقد جهز الرسول قبل وفاته حملة لغزو أطراف الشام عقد لواءها لأسامة بن زيد بن حارثة ؛ غير أن وفاته قد حالت دون انفاذ هذه الحملة : فلما انتهى الأمر بمبايعة أبي بكر كان أول شيء قام به أن سير أسامة لغزو الروم ، لأنه رأى فى ذلك مناورة حربية وسياسية تشعر أعداءهم فى الداخل والخارج بقوة الحكومة وثبات مركزها (١) ، ثم التفت إلى إخماد الفتن والثورات الداخلية . ومما يدل على حسن سياسة أبي بكر وبعد نظره أنه شغل العرب بالحروب الخارجية ، لأنها كانت تفي بما أمر به الدين من نشر الاسلام من جهة ولأنها كانت من جهة أخرى استغلالا صالحا لما جبل عليه العربي من حب للنضال . ولو لم يوجه فى هذا السبيل لكان مثار اختلافات وفتن داخلية تقوّض صرح الدولة وتفصم عُرى وحدتها ، وهي لم يجتمع شتاتها ولم يقر قرارها إلا منذ حين .

حرب الردة

بدء الفتوح

لذلك فان أبا بكر ما كاد ينتهي من حروب الردة الطاحنة التي شنها على العرب المارقين حتى بعث تلك الجيوش وأردفها بالامداد يتلو بعضها بعضا لفتح البلاد أمام دين الله وتقويض عروش الظلم والطغيان ؛ فأنفذ خالد بن الوليد الى الحيرة ودعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية للجهاد فى سبيل الله وأنفذهم إلى الشام .

وإن توجيه أبي بكر الجيوش لغزو دولتي الفرس والروم فى وقت واحد مع ما كان لكل من الدولتين من الملك وبسطة النفوذ ووفرة

(١) Muir, the Caliphate, p. 42.

الثروة لمما يدل على قوة عزيمته ؛ غير أننا لا نعجب إذا عرفنا أن هاتين الدولتين وإن كانتا مضرب الأمثال فى الأبهة والعظمة ، إلا أن هذا كله كان أمراً ظاهراً فقط . فقد أضعفهما استبداد الملوك والبذخ والخلافات الدينية والتنافس على الملك على حين ألف الاسلام بين قلوب العرب ، فوجد أبو بكر فى الأمة العربية الفتية المولعة بالحرب المتقشفة فى طعامها ولباسها مع ما عليه رجالها من شدة الايمان والحرص على الاستشهاد فى سبيل نصرة الدين ، خير معين للقضاء على هاتين الدولتين .

وقـــد تمت معظم الفتوح الاسلامية فى عهد عمر بن الخطاب ؛ ففتحت فارس وفلسطين والشام ومصر وزادت الدولة العربية فى رقعـة أملاكها على حساب هاتين الدولتين العظيمتين : الفارسية والرومانية الشرقية أو البيزنطية .

حالة الروم وقت الفتح العربى

ولقد سهل على العرب فتح ولايات الدولة الرومانية الشرقية ما كان بينها وبين العرب من صلة فى الجنس وتقارب فى اللغة وصلات فى التجارة . أضف إلى ذلك ما كان بين الدولة الرومانية والأمم التى تحت سلطانها من النفور بسبب الانقسامات الدينية ، وزيادة الضرائب زيادة ناء تحتهـا الأهلون ؛ فرحبوا بحكم العرب ليتخلصوا من الحكم الرومانى ومن استبداد الكنيسة البيزنطية .

وقد أخذت الدولة الرومانية فى الانحطاط على أثر قيام الفتن والثورات فى أواخر عهد جستنيان إلى وفاة هرقل (٥٦٥ — ٦٤١م) . ومع أن هرقل قد استطاع أن يحول دون توسع الفرس فى فتوحاتهم ، واسترد البلاد التى كانوا قد استولوا عليها بمعاهدة سنة ٦٢٨ م ، فان المسلمين قد اقتطعوا منه أجمل ممتلكاته الشرقيـــة ، وحاصر الآفار القسطنطينية من الشمال ، وجاء معهم البلغار الذين استقروا نهائياً فى شبه جزيرة البلقان سنة ٦٧٩ م حيث لا يزالون إلى الآن . وبذلك لم يعد الدانوب الحد الشمالى للامبراطورية كما كان من قبل .

غارات الآفار والبلغار

غارات القوط

وكان تقهقر البيزنطيين فى الغرب أكثر منه فى الشرق . فقد قام فى أسبانيا القوط الغربيون واستولوا على اشبيلية عنوة سنة ٥٨٢ م ، واضطروا قرطبة إلى التسليم ، واستولى سفنتيلا (Swinthilla) على آخر ممتلكات البيزنطيين سنة٦٢٨م ، ولم يعد للقوط منازع فى كافة أرجاء شبه جزيرة أيبريا ، وأصبح نهوض العرب فى الوقت نفسه أعظم الأخطار التى تهدد كيان الامبراطورية واستقلالها .

حالة الفرس

أما الحال فى بلاد فارس فكان على العكس من ذلك ؛ فقد كان الفرس أمة مستقلة متجانسة فى جنسيتها ولغتها ودينها . ولذلك كانت مقاومة الفرس للعرب مقاومة أمة لأمة أخرى .

ومع ذلك فقد استولى عليهم التوانى والتواكل على أثر انتصار هرقل عليهم . وهناك أسباب أخرى أدت إلى القضاء على الامبراطورية الفارسية ، وذلك أنه كان قد انقضى على تأسيس امبراطورية آل ساسان (سنة ٢٢٦م) على يد أردشير بن بابك أربعة قرون وهو عصر طويل تزعزعت فيه أسس الامبراطورية الفارسية واختل نظامها . وقد اقتبس عنها العرب مذهب مانى [1] (Manes) ، كما انتقلت اليهم بعض

---

(١) المانوية نسبة الى مانى . وقد حاولت هذه الطائفة — كما حاول القدامى من الاشراقيين التوفيق بين المسيحية والوثنية فى الشرق . وقد أخذت عقائدها وطقوسها عن التوراة وعن الفارسية القديمة Parsisme ثم البوذية . ويقول أنصار هذه الطائفة بالاثنينية وهى العقيدة الأساسية لديانة الفرس . ومن ثم يقولون بوجود مصدرين الهين لهذا العالم ، أحدهما اله الخير ويرمزون له بالنور ، والثانى اله الشر ويرمزون له بالظلمة ، ويسمون الاول اله النور والثانى اله الظلمة ، وهو الاله الذى صدر عنه هذا العالم المادى . وقد ندد عليهم بعض شعراء المسلمين بقوله :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

وقد بلغ من احتقارهم للمادة أن كانوا يزعمون أن الشيطان قد خلق منها . وانتشر المانوية فى الشرق ، ولا سيما فى بلاد الفرس والهند . وفى بلاد التبت والصين والتركستان حيث ظلت مزدهرة بها حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم انتقلت الى الغرب حتى وصلت الى جنوب ايطاليا . وقد دعا القديس أوغسطين Saint Augustin الى هذا المذهب وعمل على نشره زهاء ثمان سنوات . وناوأه كل من فالنتيان Valentin سنة ٣٧٢ ثم تيودوسيس الاول Thedosius I. سنة ٣٨١ م مناوأة شديدة وأصدرا ضده المراسيم العديدة .

أنظر دائرة معارف لاروس

آثار الفلسفة والعلوم اليونانية على يد النسطوريين أو الأفلاطونيين الذين طردهم جستنيان من أثينا .

وكان للدولة الفارسية علاقات وثيقة مع الامبراطورية الصينية التى كانت متاخمة لها ، ومع الهند حيث انتشرت الديانة البوذية . وقد ساعد اتصالها بهذه الحضارات على تقدمها فى العلوم والمعارف

استبداد الساسانيين بالحكم

وكان من أثر استبداد الساسانيين بالحكم فى آخر عهدهم أن كرههم الأهلون وأصبحوا ينظرون اليهم نظرة السخط والاستياء . وبذلك أعرضوا عنهم واتسعت مسافة الخلف بينهم لما شجع هؤلاء الملوك ديانة زرادُشت ـ وقد كانت من قبل بغيضة لدى الأهلين ـ وأفسحوا المجال لكهنتها حتى أصبح لهم شيء من السلطة فى الدولة ومنحوهم نفوذا عظيما فى مجالس الملك ، فادعوا بأن لهم نصيبا كبيرا فى سياسة الدولة ، وأخذوا لذلك يضطهدون الأحزاب الدينية المخالفة من يهود ومسيحيين وصابئة وبوذيين ومانويين . وقد ساعدت هذه الأسباب على ضعف الدولة الفارسية وانحلالها (١)

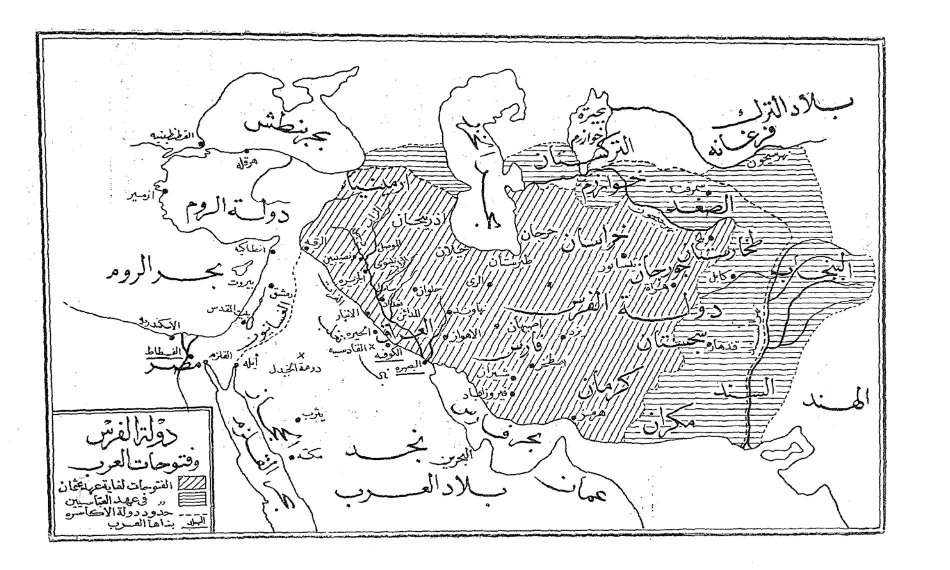
هكذا كانت حالة فارس من الفساد والتفكك السياسى والضعف المعنوى حين اعتلى عرشها يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان الذى اضطربت فى عهده أمور الفرس . وكان قد جلس على سرير الملك وعمره إحدى وعشرون سنة ؛ فقوى حينئذ طمع العرب فى غزو هذه البلاد ، وساعد على ذلك ما كان الرسول يعدهم به من تملك كنوز الأكاسرة (١) .

فتح بلاد العراق وفارس :

فى عهد أبى بكر

كان العرب يرون بلاد الفرس أصعب منالا من بلاد الدولة

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٦ ؟ الفخرى ص ٧٤


دولة الفرس
وفتوحات العرب
الفتوحات لغاية عهد عثمان
" في عهد العباسيين
حدود دولة الأكاسرة
البلاد بناها العرب
بلاد الترك
فرغانة
بحر بنطش
دولة الروم
بحر الروم
أرمينيا
أذربيجان
التركستان
خوارزم
الصغد
طخارستان
خراسان
جرجان
دولة الفرس
فارس
سجستان
كرمان
مكران
السند
الهند
العراق
الشام
بلاد العرب
نجد
الحجاز
بحر فارس
عمان
بحر القلزم
مصر
القسطنطينية
هرقلة
أزمير
أنطاكية
بيروت
دمشق
بيت المقدس
الإسكندرية
الفسطاط
القلزم
أيلة
دومة الجندل
يثرب
مكة
البحرين
الرقة
نصيبين
الموصل
الحيرة
القادسية
الكوفة
البصرة
الأنبار
المدائن
حلوان
نهاوند
الأهواز
الري
طبرستان
جيلان
أصبهان
شيراز
إصطخر
فيروزاباد
يزد
هرمز
نيسابور
هراة
كابل
قندهار
سمرقند
بخارى
بلخ
جيحون
سيحون
بحيرة خوارزم

البيزنطية لمـــا قدمنا من الأسباب ؛ ومن ثم كانوا يتهيبون غزوها ويتجنبونه . وقد وجه أبو بكر جيشا الى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة ؛ فأخضع القبائل العربية التى كانت تقيم جنوبى نهر الفرات ، وانتصر على الفرس واستولى على الحيرة والأنبار . وما لبث العرب أن تقهقروا أمام جيش الفرس الكثيف الذى أعده يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان بقيادة رُستم ، وارتدوا الى أطراف الصحراء . وظلت الحال على ذلك إلى آخر أيام أبى بكر حيث وجه خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين فى قتال الروم بالشام وفلسطين .

فى عهد عمر

فلما ولى عمر بن الخطاب الخلافة وزاد الاضطراب فى بلاد الفرس ، كتب المثنى بن حارثة إلى عمر بذلك وبجلوس يزدجرد على العرش مع حداثة سنه ، وأغراه بانتهاز هذه الفرصة . وكان عمر قد اطمأن من ناحية الروم بعد هزيمتهم فى أجنادين سنة ١٥ هـ ، فوجه همه لغزو بلاد العراق وندب الناس لغزوها وهوّن عليهم فتحها ، وأراد أن يقود الجيش بنفسه . ولكن بعض الصحابة أشاروا عليه بأن يُقيم ويبعث رجلا من كبار الصحابة ويكون هو من ورائه يُمِدُّهُ بالأمداد . فلما سمع ذلك عمر صعد المنبر وقال : « أيها الناس ! إنى كنت عازماً على الخروج معكم ، وإن ذوى اللب والرأى منكم قد صرفونى عن هذا الرأى ، وأشاروا بأن أقيم وأبعث رجلا من الصحابة يتولىّ أمر الحرب [١] . »

وقد وقع الاختيار على سعد بن أبى وقاص ، فاستحسن عمر هذا الرأى واستقدم سعداً وولاه حرب العراق [٢] ، وودّع الجيش . وجعل سعد يتنقل فى الأراضى التى بين الحجاز والكوفة ويستمع الأخبار ، ورسل عمر توافيه وكتبه تأتيه يشير عليه فيها بآرائه ويمده بالجنود .

---

(١) الفخرى ج ١ ص ٧٥

(٢) Muir : The Caliphate, Rise, Decline and Fall, p. 83.

موقعة القادسية
١٥ هـ ؟ ٦٣٦ م

ولما قصد سعد القادسية (١) ـ وكانت باب العراق ـ التقى برستم فى جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل على حين كان جند العرب يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف ، وكان الفرس يضحكون من نَبْل العرب ويشبهونها بالمغازل (٢) .

وقد ترددت الرســـل بين قائد العرب وقائد الفرس . فكان العربى يأتى إلى باب رستم وهو جالس على سرير الذهب وقد زُيِّن مجلسه بالفرش المنسوج بالذهب ، ولبس الفرس التيجان وأقاموا الفيلة حول المكان ، فيجىء العربى وهو متقلد سيفه فيربط فرسه بالقرب من سرير رستم ؛ فيهم الفرس بمنعه . غير أن رستم كان يَستدنيهم ؛ وقد أعجب بهم وبسديد إجاباتهم حتى قال لأصحابه : أنظروا فان هؤلاء لايخلو أمرهم من أن يكون صدقاً أو كذباً ، فان كانوا كاذبين ، فان قوما يحفظون أسرارهم هذا الحفظ ، ولا يختلفون فى شىء ، وقد تعاهدوا على كِتمان سرهم هذا التعاقد بحيث لايُظْهِر أحد منهم سرهم ، لقَوْمٌ فى غاية الشدّة والقوّة ، وإن كانوا صادقين فهؤلاء لا يقف حِذاءَهم أحد . فصاحوا حوله وقالوا : اللهَ اللهَ أن تترك ما أنت عليه لشىء رأيتهُ من هؤلاء الكلاب ، بل صَمِّم على حربهم . فقال رستم : « هو ما أقول لكم ولكنى معكم على ما تريدون » (٣) .

انهزام الفرس

فلم ير رستم بدا من المضى فى حرب العرب ، واقتتلوا أياما انعكس الريح فى آخرها عليه وعلى جنده حتى أعماهم الغبار ، وقتل رستم وعدد كبير من جنده وهرب الباقون ، وغنمت أموالهم ، ثم تبعهم سعد إلى

(١) القادسية موضع على جادة الكوفة على حافة البادية وحافة سواد العراق ، بينه وبين الكوفة ١٣ فرسخا . وقد اختاره عمر لاقامة سعد وجنده لقربه من البادية ، حتى لايقدم الفرس على التوغل فيه لو تقهقر جيش المسلمين أمامهم .

(٢) الفخرى ص ٧٦

(٣ شرحه ص ٧٧)

جلولاء

جلولاء (١٧ ﻫ و ٦٣٨ م) وأوقع بهم وأسر إحدى بنات كسرى وقتل عددا كبيرا من الفرس [١]

تأسيس الكوفة

عند ذلك كتب سعد إلى عمر يبشره بالفتح، فكتب إليه: «قف مكانك ولا تتبعهم واقتنع بهذا، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها ولا تجعل بيني وبينهم بحراً [٢]» (وذلك لأن العرب لم تكن أمة بحرية). فاتخذ سعد الكوفة وأسس بها المسجد الجامع واختط الناس المنازل ومصّرها. [٣]

المدائن

ثم توغل سعد في بلاد العراق واستولى على المدائن [٤] عاصمة الفرس بعد أن حاصرها شهرين، وقد غنم العرب منها غنائم كثيرة من بينها بساط كسرى، وفر يزدجرد الى حلوان.

موقعة نهاوند
٢١ ﻫ ؟ ٦٤٢ م

ولم يستطع يزدجرد أن يلم شعث جنده ويستعد لملاقاة العرب من جديد إلا بعد أربع سنوات: وفي سنة ٢١ ﻫ جمع كسرى جيشا كثيفا يربو عدده على ١٥٠٫٠٠٠ مقاتل، وأرسل عمر الأمداد إلى جيش المسلمين. والتقى الفريقان في نَهاوَنْد [٤]؛ فكتبَ النصر للعرب رغم استماتة الفرس في الدفاع عن بلادهم. وقد عرفت هذه الموقعة بفتح الفتوح لشدتها وأهميتها. وما زال العرب يطاردون يزدجرد الثالث ويستولون على بلاده حتى اضطر إلى الفرار إلى أقصى الحدود الشرقية. وما زال أمره يضعف حتى قتل في سنة ٣١ ﻫ بخراسان [٥]؛ وكان ذلك في عهد عثمان بن عفان. وبموت يزدجرد انقرضت دولة آل ساسان وتحققت دعوة النبي بتمزيق ملك الأكاسرة.

ولا شك أن العرب قد جنوا ثمار هذه الانتصارات على الفرس

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٣٢ - ١٤٠

(٢) الفخرى ج ١ ص ٧٨ ؟ الطبرى ج ٤ ص ١٤١.

(٣) أى جعلها حاضرة المسلمين فى هذه البلاد.

(٤) هى مدينة عظيمة بينها وبين همذان ثلاثة أيام وهى من اقدم بلاد الجبال فى فارس

(٥) الفخرى ج ١ ص ٧٥

فضموا إلى بلادهم بلدا جديدا ، وأثروا وأصبحوا فى رغد من العيش ، بعد أن امتلكوا كنوز الفرس . وقد بهرت تلك النفائس والأموال العربَ الذين اعتادوا التقشف والبساطة . ويحدثنا صاحب الفخرى(١) أن بدويا ظفر بحجر من الياقوت يساوى مبلغا عظيما ؛ فلم يدر قيمته ، فرآه بعض من يعرف قيمته فاشتراه منه بألف درهم ؛ ثم عرف البدوى بعد ذلك قيمته ولامه أصحابه وقالوا له : هلا طلبت فيه أكثر من ذلك ؟ قال : لو علمت أن وراء الألف عددا أكثر من الألف لطلبته . وكان فى العرب من يأخذ فى يده الذهب الأحمر ويقول : « من يأخذ الصفراء ويعطينى البيضاء ؟ » ، يعنى أنه يرى أن الفضة خير من الذهب .

أثر الفتح العربى فى بلاد الفرس :

ترحيب الفرس بالعرب

لقد رحب الفرس بالعرب حباً فى الخلاص من ظلم الحكام أولا ورغبة فى معافاتهم من الخدمة العسكرية ثانيا ، ثم أملاً فى تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر . وذلك لأن الاسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين وزرادشتيين أن يعتنقوا ما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا للمسلمين الجزية . (٢)

ترحيب الفرس بالاسلام

وقد رحب الفرس وخاصة الجنس السامى بالاسلام وحثوا على اعتناقه ، لما يمتاز به من البساطة والحرية والمساواة ؛ فبادر الناس إلى اعتناق هذا الدين الجديد ، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة ، والزراع الذين كان يقع عليهم حيف الطبقات الارستقراطية واستبداد الحكام والكهان بهم فى نظام الفرس الاجتماعى

---

(١) الفخرى ج ١ ص ٧٨

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٣ ؟

Prof. Nicholson, Literary History of the Arabs, p.184.

القديم، ولما فى اعتناقهم الاسلام أيضا من تركهم أحرارا ومساواتهم من حيث المذهب الدينى .[1]

ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت بالأمر الصعب عليهم ؛ فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة ؛ فلم يكن لرجالها سلطة تفرض مذهبها على الناس .

وفضلا عن هذه العوامل التى كانت سببا فى انتشار الاسلام بسرعة مدهشة فى بلاد فارس ، كان ثمة عامل آخر هو شعور الناس السياسى والوطنى أو القومى نحو العرب على أثر زواج الحسين بن على ابن أبى طالب باحدى بنات يزدجرد (شهر بانو) آخر ملوك الأسرة الساسانية . وقد رأى الفرس فى أولاد الحسين خير خلف لملوكهم الأقدمين ؛ وهذا الشعور يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بعلى من جهة ، كما يفسر لنا انتشار مذهب الشيعة هناك من جهة ثانية .[2]

حسن معاملة العرب للفرس

ولم تكن القوة هى السبب فى تحويل الناس إلى الاسلام ، بدليل المعاملة الحسنة التى عامل بها العرب من ظل من الفرس على مذهبه القديم . ولا يزال إلى الآن الجماعات التى تعبد النار فى بعض جهات فارس الذين كان يتمتع أجدادهم منذ الفتح الاسلامى بحرية دينية كبيرة . وكانت معابدهم محترمة . حتى إن أحد القواد المسلمين فى زمن الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ ؟ ٨٣٣-٨٤٢) أمر بجلد إمام ومؤذن ، لأنهما اشتركا فى هدم أحد معابدهم واستخدما حجارته فى بناء مسجد مكانه . وفى القرن العاشر الميلادى — أى بعد فتح فارس بثلاثة قرون — وجدت معابد النار فى العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان

(١) De Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale, vol I. pp. 306 — 360.

(٢) مذاهب الشيعة لاحمد بك عجايف (مقتطفات من المؤتمر التاسع للمستشرقين ج ٢ ص ٥٠٩ - ٥١١ (لندن سنة ١٨٩٣)

وأذربيجان (١) ، وبعبارة أخرى فى جميع جهات فارس ؛ إذ لم تخل أية مـدينة من مدن فارس من تلك الأمكنة التى تقام فيها شعائر عبادة النار . (٢)

ويتبين لنا من ذلك أن اضمحلال ديانة زرادشت لم يكن مصدره أن الفاتحين المسلمين قد استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الاسلام فى السنين الأولى من الحكم العربى ؛ إذ أن فى بقاء المذهب القديم وارتدادالناس عنه تدريجيا أكبر دليل على أن اعتناقهم الاسلام كان بمحض اختيارهم ، وطوعا لمـا هداهم إليه التفكير فى هـذا الدين الجديد والمقارنة بينه وبين غيره من الديانات . وقد تمتع أتباع ديانة زرادشت بالحرية الدينية إلى أواخر عهد الدولة العباسية ، أى إلى أن جاء الفتح المغولى . ومنذ ذلك الوقت ذاق المسلمون من الفرس أشد أنواع البؤس .

انتشار الاسلام فى فارس فى القرن الثانى للهجرة

وقد بدأت فى فارس حول أواسط القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) حركة كانت سببا فى انتشار الاسلام هناك بسرعة مدهشة ، وهى ظهور مذهب الاسماعيليين . وليس هذا مكان البحث فى تاريخ هذا المذهب أو فى مكانته الدينية بين أتباعه ، ولا فى العوامل الاجتماعية والسياسية التى ساعدت على ظهوره ، انمـا المهـم أن نقول إن ظهور هذا المذهب ساعد على انتشار الاسلام ببلاد فارس .

سياسة العرب فى فارس

هذا ، وقد كان العرب أثناء حـكمهم لبلاد الفرس يقومون بحماية أهالى هذه البلاد مقابل مبلغ معين يدفع عن كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية أو جزية الرءوس . وهى ضريبة شخصية يدفعها أهـل الذمة مقابل اعفائهم من خدمة الجيش ، وكانوا يعفون من تلك الجزية

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٤ ص ٨٦

(٢) الاصطخرى ج ١ ص ١٠٠ - ١١٨ ؟ ابن حوقل ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٠

إذا اعتنقوا الاسلام. وكانت الأرض ملكا للفاتحين؛ غير أن هؤلاء كانوا يتركونها للأهالى يزرعونها على أن يؤدوا جزءاً من غلتها ضريبة عقارية تسمى الخراج. ويرجع السبب فى ترك الأرض فى أيدى الأهلين الى الرغبة فى أن يكون كل مسلم جنديا من جنود الاسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعى الجهاد فى كل لحظة على أن يمنح عطاء معينا من بيت مال المسلمين مقابل خدماته (١).

وكانت الحكومة تقوم ببناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من الأعمال الحكومية. وكان من أثر هذه السياسة أن بادر كثير من الأهلين إلى اعتناق الاسلام، كما ساعد العرب على التوسع فى فتح بلاد المشرق.

فتح الشام وفلسطين:

حالة بلاد الشام قبل الفتح

كان حكام الرومان فى آخر أيامهم يعاملون الأهلين بالظلم ويسومونهم العذاب. فتأفف من جورهم أهالى البلاد التى كانت تحت سلطانهم، ومالوا الى الخلاص من ربقة الذل والاستعباد، وتغيير الحال التى أصبحوا فيها على أى شكل كان. ولم تكن الروم وقد ضعف أمرهم وكادت تدول دولتهم من القوة بحيث يتمكنون من دفع العرب عن بلادهم، فخارت نفوسهم وداخلهم شىء من اليأس، فساعد هذا تلك الأمة الطموحة، مع ماعليه رجالها من الشجاعة وقوة الايمان وعدم المبالاة بالموت، على فتح الشام وفلسطين وغيرهما من البلاد.

وقد كانت نيران الانتقام والحقد تأكل قلوب الروم من جراء

---

(١) أنظر Sir Thomas Arnold, Preaching of Islam, Chap. VIII. (The Spread of Islam in Persia and Central Asia) (Ist ed.), pp. 177-187.

الغارة التى شنها على بلادهم أسامة بن زيد؛ فجمع الامبراطور هرقل جيشا جرارا وعسكر به على مقربة من حدود بلاد العرب وفلسطين.(١)

دعوة العرب لفتح الشام وفلسطين

فدعا أبو بكر المقاتلين من جميع أرجاء جزيرة العرب، فلبوا الدعوة بحمية وحماس شديدين، وسرعان ما أنفذ الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة بعد أن عقد لأربعة من الأمراء وهم :

١ - أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ومركز القيادة الجابية .

٢ - عمرو بن العاص ووجهته فلسطين .

٣ - يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق

٤ - شُرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأُرْدُن .

وأمرهم أبو بكر أن يعاون بعضهم بعضا وأن يكونوا جميعا تحت إمرة أبى عبيدة، وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وعليه أن يمد الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك (٢)

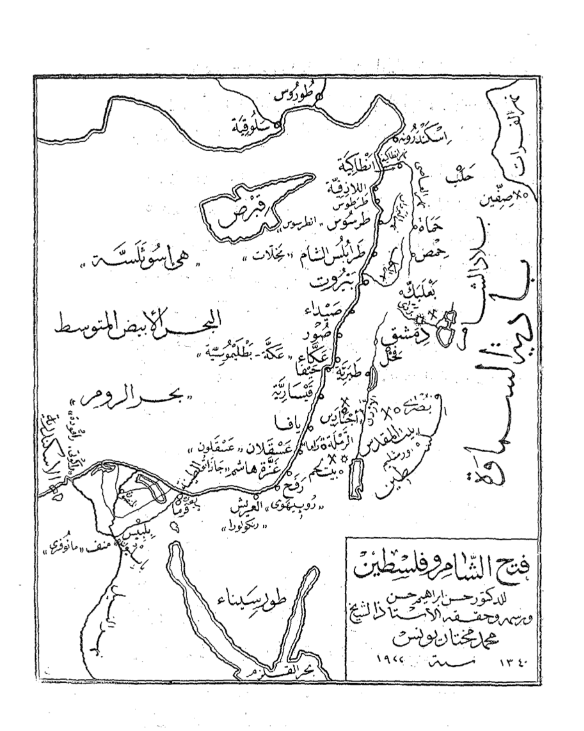
وعند مسير عمرو بن العاص إلى فلسطين أوصاه أبو بكر وصية بليغة . وقد آثرنا أن نقتطف منها بضع شذرات علنا نقف على شىء من أخلاق عمرو وحرص أبى بكر على المسلمين وسلوك الأمراء مع أهالى البلاد التى فتحها العرب .

قال الواقدى : دعا أبو بكر عمرو بن العاص فسلم إليه الراية وقال : قد وَلَّيتُكَ هذا الجيش (يعنى أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب) . فانصرف إلى أهل فلسطين، وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك، ولا تقطع أمرا إلا بمشورته . اتق الله فى سرك وعلانيتك،

(١) تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٨ ؟ وابن الاثير ج ٢ ص ١٩٥

Ameer Aly, A Short History of the Saracens, pp.34-36; Washington Irving, Successors of Mohammed, p.2; Sir William Muir, The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p. 64.


فتح الشام وفلسطين
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الأستاذ الشيخ
محمد مختار يونس
١٣٤٠ سنة ١٩٢٢
طوروس
سلوقية
اسكندرونة
انطاكية
حلب
صفين
اللاذقية
طرطوس
قبرص
حماة
حمص
طرابلس الشام
بيروت
بعلبك
صيداء
دمشق
صور
عكاء
حيفا
طبرية
فحل
قيسارية
بصرى
أجنادين
يافا
بيت المقدس
الرملة
عسقلان
غزة هاشم
بيت لحم
رفح
العريش
بلبيس
منف
طور سيناء
البحر الأبيض المتوسط
بحر الروم

واستحيه فى خلواتك ، فانه يراك فى عملك . وقد رأيتَ تقدمتىَ لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة . فكن من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله ، واسلك طريق إيلياء حتى تنتهى إلى أرض فلسطين . واياك أن تكون وانيا عما ندبتك إليه ، وإياك والوهن ، واياك أن تقول جعلنى ابن أبى قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به . واعلم ياعمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر ؛ فأكرمهم واعرف حقهم . ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول إنما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم . وإياك وخدائع النفس؛ وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة أذن بها إذا دخل وقتها . واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس . ولتكن أنت بعد ذلك مطلعا عليهم . وأطل الجلوس بالليل على أصحابك ، وأقم بينهم واجلس معهم . واتق الله إذا لاقيت العدو ، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك .

« وإذا وعظت فأوجز . وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك . وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر ، فيكون ذلك منك خرا . وألزم أصحابك قراءة القرآن ، وانهم عن ذكر الجاهلية وما كان منها . فان ذلك يورث العداوة بينهم . وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى من سلفك . وكن من الأئمة الممدوحين فى القرآن إذ يقول الله تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) (١) .

ثم قال لعمرو : امض بارك الله فيك وفيهم . فساروا فى تسعة آلاف يريدون أخذ فلسطين . (٢)

(١) سورة الانبياء ١٧ : ٧٣

(٢) فتوح الشام للواقدى ج ١ ص ٩ - ١٠

ومن أنعم النظر فى هذه الوصية التى ترجمها كثير من مؤرخى الفرنج مثل جبون Gibbon وأيرفنج (Irving) ألفاها آية فى البلاغة لما لها من الأهمية فى هذا الظرف. يحذره فيها مغبة الوهن ونخوة الشيطان والمطاولة على من معه، وينصح له أن لا يفرق بينه وبينهم، فيقيم بينهم ويجلس معهم. وأن يكون مثالا حسنا لمن معه، فينصلح أمرهم بصلاح أمره. وألا يباشر عملا حربيا إلا بعد أن يَخْبُرَ قوة عدوه، ويبث العيون حتى لا يؤخذ على غرة أو يطوح بالمسلمين فى مهاوى التهلكة، ويرغبه فى الآخرة ويحذره من الافتتان بالدنيا. ولا ريب أن هذه النصائح الغالية مما يفيد القواد فائدة كبيرة وتؤدى إلى النصر المبين.

عمل عمرو بن العاص بما رسمه له أبو بكر فى وصيته التى كانت أشبه شىء بالخطة الحربية؛ فسار فى طريق إيلياء حتى وصل إلى فلسطين، ونزل « بِغَمْر العَرَبات »؛ فلما علم هرقل بكتائب المسلمين أراد أن يشغل كل طائفة منهم بطائفة من جنده الكثير ليضعف بذلك قوتهم. ولما بلغ عمرا أن جيش الروم يزيد على مائة ألف المسلمين؛ أرسل عبد الله بن عمر بن الخطاب فى ألف فارس داهم بهم عشرة آلاف من الروم، وحمل بنفسه على كبيرهم فقتله. فداخل الفزع والهلع قلوب الأعداء واقتتل الفريقان قتالا أسفر عن انهزام الروم؛ فولوا الأدبار واستولى المسلمون على ما كان معهم من الأسلاب والغنائم عدا ستمائة أسير. وقتل من المسلمين على مارواه الواقدى سبعة. (١)

رواية الواقدى

ولما أصبح المسلمون أشرف عليهم عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف(٢)؛ فأقبل عمرو ورتب الجند وجعل فى الميمنة الضحاك،

(١) لم يرو الطبرى هذه الموقعة ولعله أكثر احتياطا فى رواية الاخبار.

(٢) هذا ماذكره الواقدى. أما الطبرى فقد ذكر أن هذا الجيش كان سبعين ألفا. وذكر « ابن الاثير » أن « هرقل » أرسل الى عمرو تسعين ألفا.

وفى الميسرة سعيد بن خالد ، وعلى الساقة أبا الدرداء ، وثبت هو فى القلب ومعه أهل مكة . وأمر الناس أن يقرءوا القرآن ، وجعل يحببهم فى القتال ويرغبهم فى ثواب الله وجنته وهم كالبنيان المرصوص . فلما شاهدهم روبيس (Robis) بطريق الروم انكسرت حميته وأسقط فى يده .

ولما اشتبك الفريقان فى القتال عمد المسلمون إلى الحيلة فى الأعداء ، فجمعوا دوابهم بالأسنة ، وحملوا عليهم حملة منكرة . وكان شعارهم لا إله إلا الله محمد رسول الله . يارب انصر أمة محمد صلى الله عليه وسلم » . ولم تزل الحرب تضطرم نارها بين الفريقين الى الأصيل إذ أتى الله المسلمين بالنصر ، وولى الروم منهزمين والمسلمون فى أعقابهم مسرعين . وكانت خسارة الروم فى هذه الموقعة خمسة عشر ألفا وخسارة المسلمين مائة وثلاثون . وكان من بينهم سعيد بن خالد أخو عمرو بن العاص لأمه ولما تمت لعمرو هزيمة الروم كتب لأبى عبيدة :

« قد وصلت الى أرض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له « روبيس » فى مائة ألف فارس . فمنّ الله علينا بالنصر ، وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس ، وفتح الله علىّ فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلا . فان احتجت إلىّ سرتُ إليك . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » (١) .

مناقشة هذه الرواية

لا ندرى من أين جاء الواقدى بهذا الكلام الذى يقول فيه عمرو إنه تم له فتح فلسطين لانتصاره فى هذه الموقعة ، والروم مرابطون فى جميع أرجائها ، وغزة والرملة وبيت المقدس وأجنادين وغيرها لاتزال بأيديهم ، ولم يفتحها إلا بعد اليرموك ودمشق . وكيف تغلب المسلمون على مائة ألف من الروم وزيادة ، على حين لم تزد قوة عمرو عن تسعة آلاف

---

(١) فتوح الشام للواقدى ج ١ . ص ١٣

مقاتل ؟ أضف الى ما تقدم أن خسارة المسلمين فى اليوم الذى سبق الموقعة الكبرى (وكانت سبعة) ، وكذا خسارة الروم فى هذه الموقعة قد أغفلت . فكانت خسارة المسلمين مائة وسبعة وثلاثين وخسارة الروم أكثر من خمسة عشر ألفا . وماذكره الواقدى فى هذا الكتاب يناقض ما ذكره الطبرى وابن الأثير وغيرهما من أن عمرو بن العاص حين رأى « هرقل » قيد سيَّر إليهم أربعة جيوش جرارة لسحق جيوش المسلمين الأربعة كاتب أبا بكر ، وشاور قوادالشام عمراً فى أمرهم ؛ فأشار عليهم بالاجتماع ليكون لهم بذلك قوة يدفعون بها العدو - إذ لا يتأتى لهم النصر إلا بالمعونة - ورأى أن يكون اجتماعهم باليرموك ؛ فكتب أبو عبيدة بما كتبوا لعمرو ، فوافاهم كتاب أبى بكر بما رأى عمرو [1] .

ومن هنا يعلم أن عمرو بن العاص ، وإن لم يكن قائد المسلمين فى حرب الشام فقد عرف له المسلمون أصالة الرأى وبعد النظر فاستشاروه فى مهام الأمور . ويكفيه فخراً أن جاء جواب أبى بكر مطابقا كل المطابقة لرأيه . ولا يبعد أن يكون أبو بكر قد علم بما رأى عمرو من كتابه إليه وكذا من كتاب أبى عبيدة فأقره عليه .

مسير خالد إلى الشام

وفى الوقت الذى انشغل فيه المسلمون بفتح بلاد الدولة الرومانية فى الشام وفلسطين ، توجهت قوة صغيرة لفتح العراق ؛ وبينما كانت انتصارات المسلمين تتوالى فى العراق وصلت أنباء الشام بأن أباعبيدة لم يقو على مدافعة الروم ؛ فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد بأن يسير من العراق لمساعدة جيوش العرب فى الشام ، وأن يتولى

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣١ ؟ ابن الاثير ج ٢ ص ١٩٨
Sir William Muir, The Caliphate pp. 67 — 68; Washington Irving, Lives of the Successors of Mohammed, p. 73.

القيادة مكان أبي عبيدة . فولى خالد المثنى بن حارثة الشيبانى جند المسلمين وسار على رأس ألف وخمسمائة (١) من أهل الشجاعة والنجدة حتى وصل إلى بُصرى وهى مدينة تجارية حصينة ؛ وكان أبو عبيدة قد أنفذ شرحبيل بن حسنة إليها . فلم يقو على هزيمة الروم لأن حامية هذه المدينة صوبت سهامها إلى المسلمين من كل جانب ، ولم ينجهم إلا حضور خالد بن الوليد الذى استطاع أن يستولى عليها بمعونة واليها رومانوس (Romanus) الذى اعتنق الاسلام وسلم المدينة للمسلمين بعد أن دلهم على الدخول اليها من سرداب تحت سورها .

واقعة اليرموك . وقد شجع استيلاء العرب على مدينة بصْرى على محاصرة دمشق فى الوقت الذى شتت فيه عمرو بن العاص شمل الجيوش البيزنطية فى فلسطين . ولما سمع عمرو أن الامبراطور قد أرسل أربعة جيوش جرارة لمحاربة جيوش المسلمين الأربعة ، تطورت الحالة وغدا مركز المسلمين من الخطورة والدقة بحيث استشار قوادهم بعضهم بعضا ؛ فأشار عليهم عمرو بالاجتماع فى مكان واحد يواجهون فيه قوى البيزنطيين ، واختار اليرموك . وقد ذكر أيرفنج (٢) أن الذى أشار على المسلمين بهذا الرأى هو خالد بن الوليد ، وهو يخالف ماذكرناه ، لأن خالداً لم يلحق بالمسلمين إلا وهم على اليرموك .

---

(١) هذا ماقاله أيرفنج (Irving) . وفى الطبرى أن جيش خالد كان عشرة آلاف فوز بهم من قراقر الى سوى . ومازال يوقع بما يقابل من المدن الى أن اجتمع ببقية جيوش المسلمين فى اليرموك . تاريخ ابن الاثير ج ٢ . ص ١٩٨ ، Washington Irving. p. 14.
E. Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Emprie pp. 226.
Sir, William Muir, the Caliphate, pp. 70 — 71.

(٢) Washington Irving, Lives of the Successore of Mohammed p. 68

ماهان

وللعلم بذلك « هرقل » عول على أن يشتبك مع العرب فى موقعة فاصلة ، فجيّش الجيوش الجرارة تحت قيادة ماهان (Mahan or Bahan) وهو قائد أرمنى عرف فيه « هرقل » الشجاعة والاقدام .

سار « ماهان » فى ثمانين ألفا ، ولحق به جبلة بن الأيهم ملك غسان على رأس ستين ألفا من العرب المتنصرة خلا الجنود التى كانت مع قواد الروم الآخرين فأصبح عددهم مائة وأربعين ألفا . وقد ذكر الطبرى وابن الاثير وغيرهما أن جيش المسلمين لم يتجاوز أربعين ألفا . (١)

أما قول الواقدى (٢) إنه كان مع « ماهان » ومن هم تحت إمرته خمسمائة ألف أوستمائة ألف أو ألف ألف وستمائة ألف (١٠٦٠٠٠٠) فهو قول مردود ، والمبالغة فيه ظاهرة

جمع العرب جميع قواتهم وعسكروا على مقربة من اليرموك (٣) ؛ وقد زعم الروم أنها محمية من جميع جهاتها وأنها محصنة تحصيناً طبيعيا ، وسيروا اليها جيشهم بلا مبالاة بالعرب الذين عبروا النهر من شماله وجعلوا مركزهم بجانب هذا العنق ، وأصبحوا على تمام الأهبة لضرب الروم إذا ماخرجوا من هذا الشرك الذى نصبه لهم القدر . (٤)

---

(١) Sayed Ameer Aly, p. 48 ; Washington Irving, p. 68 ; Sir William Muir p. 71.

(٢) فتوح الشام للواقدى ج ١ ص ١٢٠

(٣) اليرموك نهر وهبه الطبيعة أسرارا وألغازا . ينبع من مرتفعات حوران ويصب فى الاردن جنوبى بحيرة طبرية بأميال قليلة . وعلى نحو ثلاثين ميلا من التقائه بالاردن يكون فى الطرف الشمالى شرجا على شكل نصف دائرة يحيط بسهل متسع صالح لأن يعسكر به جيش كبير . وضفاف هذا النهر وعرة منحدرة . وعند مضيق هذا الشرج عنق يكون مدخل هذه الأرض المنبسطة التى فى الداخل ، وهذه البقعة تسمى « الواقوصة » ذات الشهرة العظيمة فى الوقائع الاسلامية .

(٤) he Caliphate p. 68 ; A Short History of the Saracens, p. 37.

ماهان يطلب الصلح

وكان « هرقل » قد أوصى « ماهان » بمراسلة العرب بشأن الصلح . فأرسل جبلة بن الأيهم إلى أبى عبيدة ، فأبى أبو عبيدة إلا أن يملك المسلمون الشام وفلسطين . وأرسل إلى جبلة رسلا يؤنبونه لانضمامه إلى الروم وينصحون له أن يرجع إلى الاسلام أو يكف عن قتالهم ويدفع الجزية ، فلم يزده ذلك إلا مكابرة .

قدوم خالد من العراق

ولما قدم خالد بجيشه إلى الشام وجد المسلمين يقاتلون الروم متساندين . فرتب خالد الجيش ، وجعل أبا عبيدة فى القلب ، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ، وعلى الميسرة يزيد بن أبى سفيان . ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين ، واشتركت النساء مع الرجال فى القتال لصد هجمات العدو الذى اضطرهم إلى التقهقر عدة مرات (١)

وقد ذكر الواقدى عن عمرو بن العاص فى قتال اليرموك أن الروم حملوا على المسلمين حملة شديدة ، فولى صاحب لوائهم منهزما . فتسابق لأخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد . فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى انهزمت الروم وولوا الأدبار .

وبعد هذه الانهزامات المتواصلة التى لحقت بالروم فى الأدغال وعلى رءوس الجبال ، جاء يوم الواقوصة ، وهو اليوم الذى خُتم فيه للعرب بالنصر حيث هوى فى الواقوصة من جند الروم مائة وعشرون ألفا (٢)

وكانت خسارة الروم فى اليرموك مائة وأربعين ألفا وخسارة المسلمين ثلاثة آلاف على مارواه السيد أمير على نقلا عن كوسان دى برسيفال (Coussin de Perceval) . وقد تعقب المسلمون الفالة

---

(١) فتوح الشام للواقدى ﺣ ١ ص ١٦٥ ؟ وتاريخ ابن الاثير ﺟ ٢ ص ٢٠٠ ؟ الطبرى ﺟ ٤ ص ٣٢ ، The Caliphate, p.75

(٢) الطبرى ﺟ ٤ ص ٣٥ ؟ فتوح الشام للواقدى ﺟ ١ ص ١٧٢

وقتلوا «ماهان» ، ثم يمموا شطر دمشق حيث أقاموا على أبوابها شهرا للراحة من عناء الجهاد .

وفاة أبى بكر

وبينما كان العرب يقاتلون الروم فى اليرموك أتاهم نعى أبى بكر وتولية عمر الذى خلع خالدا وولى أبا عبيدة عامر بن الجراح مكانه .

فتح دمشق :

لما علم « هرقل » بانتصار المسلمين فى واقعة اليرموك ـ وقد كان بيت المقدس ـ رأى أن بقاءه بها خطر عليه : فأسرع بالرحيل الى حمص ليجعلها مقراً لأعماله الحربية . فخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصُّفَّر ،

مرج الصفر

وهو يريد اتباع الفالة ولا يدرى أيجتمعون أو يفترقون . فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل [1] وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص . فهو لا يدرى هل يبدأ بدمشق أم بفحل من بلاد الأردن . فكتب الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصُّفَّر . فلما جاء عمر نبأ فتح اليرموك أمر الأمراء على ما استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ؛ فإنه ضم خالدا إلى أبى عبيدة وأمر عمرا بمعونة الناس حتى ينتقل الحرب إلى فلسطين فيتولى القيادة فيها .

ولما جاء عمر كتاب أبى عبيدة يستشيره فيما ينبغى أن يبدأ به كتب اليه : أما بعد فابدءوا بدمشق فانها حصن الشام ، واشغلوا عنكم أهل فِحل بخيل تكون بازائهم ، وأهل فلسطين وأهل حمص ، فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فِحْل ، فان فتح الله عليكم

---

(١) ذكرها ياقوت فى معجمه (ج٦ ص ٣٤٠) فقال : فِحل بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره لام موضع بالشام كان فيه وقعة للمسلمين مع الروم .

فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودع شُرَحبيلَ وعَمْرًا ، وأخلهما بالأرْدُن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته (١) . أرسل أبو عبيدة إلى فحل عشرة قواد ؛ فساروا من الصُّفَّر حتى نزلوا قريبا من فِحْل ، فلما رأت الروم أن الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل فوحلت الأرض وتألم المسلمون لذلك (٢)

حصار دمشق

وصلت إلى أهل الشام الأنباء المحزنة بأن جيش الروم قد تبدد ، فاستولى الهلع على قلوبهم . إلا أنهم أخذوا يعدون معدات القتال . وبينما كان إعداد هذه المعدات على قدم وساق ، رأى أهل دمشق جيش المسلمين ينساب من بين الأدغال والحدائق كتيبة عقب كتيبة ، وعلى المقدمة عمرو بن العاص فى تسعة آلاف فارس ، ومن ورائهم كتائب المسلمين وقوادهم ، وعلى السَّاقة خالد بن الوليد مع راية العُقاب (٣)

فلما وصلت جيوش المسلمين نزل عمرو بن العاص بباب الفراديس ، وشُرحبيل بن حسنة بباب توما ، وقَيْس بن هُبَيْرَة بباب الفرج ، وأبو عبيدة بباب الجابية ، وبقى خالد بالباب الشرقى .

شدد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يوما ، ولم تجدهم منَعة حصونهم وما عليها من المنجنيقات وغيرها من آلات الدفاع نفعا . وقد منع المسلمون المدد من أن يصل إليهم ، ونفدت المؤن من عندهم ، فعيل صبرهم وانكسرت حميتهم وجنحوا إلى الصلح .(٤)

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٦

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٦ - ٥٧

(٣) Houart: Histoire des Arabes, Tome I. pp. 234—352
Gibbon's Roman Empire, vol. XX. p. 232.
Irving's Successors of Mohammed, pp. 34.

(٤) Muir, The Caliphate, p. 100.
انظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ٤٦ - ٤٧

فتح دمشق

وقد قيل إنه ولد للبطريريق الذى كان على أهل دمشق مولود ، فأكل القوم وشربوا ، وغفلوا عن مواقفهم ، ولم يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ماكان من خالد فانه كان لا ينام هو ومن معه . وقد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم فتقدم هو ومن معه من جنده إلى الباب ، ثم إلى الباب الذى يليه ، ورموا بالحبال الشرف ، وعلى ظهورهم القرب التى قطعوا بها خندقهم حتى استولوا على السور وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم . ولما شد خالد على من يليه إذ أهل الأبواب التى تلى غيره قد عرضوا على المسلمين الصلح فأجابوهم . فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم . ودخل خالد مما يليه عنوة . فالتقى خالد والقواد فى وسطها هذا استعراضا وانتهابا ، وهذا صلحا وتسكينا ، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح . (١) وقد اختلف المؤرخون فى الوقت الذى فتحت فيه دمشق . فروى بعضهم أنها فتحت فى أواخر سنة ١٣ للهجرة وبعضهم قال فى أوائل المحرم ، وبعضهم قال إنها فتحت فى رجب من هذه السنة .

فحل

سار المسلمون بعد فتح دمشق إلى فِحْل وعليهم شُرَحْبيل بن حَسَنَة ، فبعث خالدا على المقدمة وأبا عبيدة وعمرو بن العاص على الميمنة والميسرة ، وعلى الخيل ضرار بن الأزْوَر . ولما انتهوا إلى أبى الأعور قدموه إلى طبرية فحاصرها . ونزلوا على فِحْل وكان قد أخلاها أهلها حين نزل بهم أبو الأعور ، وساروا إلى بِيْسَان . وصارت المياه والأوحال بينهم وبين الروم .

وقد اقتتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، فانهزم الروم وطاردهم المسلمون إلى الوحل ، ووخزوهم بالرماح حتى أصيبوا جميعا وكانوا ثمانين ألفا (٢) . ولم يفلت منهم إلا الشريد ؛ فانصرف أبو عبيدة وخالد إلى

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٥٧

(٢) معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ٣٤٠

حمص ؛ فاستوليا عليها وعلى حماه وقنسرين واللاذقية وحلب .

بيسان وطبرية

أما شرحبيل وعمرو بن العاص فقد قصدا بَيْسان ؛ فحاصرا أهلها أياما وأرغموهم على طلب الصلح والأمان . ولما علم أهل طبرية ما حل بأهل فِحْل وبيْسان صالحوا أبا الأعور وتم بذلك صلح الأردن وكتب إلى عمر بالفتح (١) .

كان على فلسطين فى ذلك الوقت وال رومانى يدعى «أرطبون» (٢) . وقد وضع جندا كثيرا ببيت المقدس وغزة والرملة بينما عسكر بجنده الكثيف بأجنادين (٣) .

أجنادين

ولما رأى عمرو أن القوة التى مع الروم أقوى مما كان يظن ، كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره الخبر فقال عمر : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب . فانظروا عمَّ تنفرج . وكتب الى القواد أن يسيروا الى قيسارية والرملة وإيلياء كى يشغلوا الروم عن عمرو .

سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة ، وعالج كسر قوة «أرطبون» فلم يوفق ؛ وقد اقتتل المسلمون والروم قتالا شديدا لا يقل عن قتال اليرموك ؛ فانهزم «أرطبون» فى ثمانين ألفا من الروم وآوى بالفالة إلى إيلياء ، وكان ذلك سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) (٤) .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٩ ؟ ابن الاثير ج ٢ ص ٢٠٩ - ٢١١ بتصرف Muir, The Caliphate, p. 105.

(٢) ذكر بطلر p. 215 أن لفظ أرطبون الذى يطلقه مؤرخوا العرب على هذا القائد خطأ والصحيح أريطيون (Arétion)

(٣) ذكرها ياقوت فى معجمة (ج ١ ص ١٢٦) فقال : أجنادين بالفتح ثم السكون ونون وألف هو موضع معروف بالشام من نواحى فلسطين . وهى من الرملة من كورة بيت جبرين ، كانت به وقعة بين المسلمين والروم .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٥٧ ؟ وأشهر مشاهير الاسلام ج ٢ ص ٢٤٦ ؟ Muir, The Caliphate, p. 143.

أثر هزيمة ارطبون

وكان من أثر انتصار عمرو على « الأرطبون » أن أذعن لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة ، والرملة وعكاء وبيروت ولدّ والُجبُلّة . وقد فتحت أبوابها لهم من غير قتال إلا بيت المقدس[1].

فتح بيت المقدس :

حصار بيت المقدس

لما أتم عمرو بن العاص فتح غزة ولدّ ونابلس وبيت جبرين ، قصد بيت المقدس ، وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة ودية ويطلب اليه تسليم المدينة ، والأرطبون يأبى عليه . وقد أنزلت المنجنيقات التى نصبها الروم على أسوار مدينة بيت المقدس الخسائر الفادحة بالعرب الذين قاسوا الأمرين من شدة البرد ، وقد أتاهم الشتاء . وظل المسلمون على حصارهم أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال . وقد عد المسلمون الاستيلاء

(١) اختلف المؤرخون فى السنة التى هزم المسلمون فيها الروم بأجنادين . فذكر بعضهم (كالواقدى وياقوت وجبون وأيرفنج) أن ذلك كان سنة ١٣ هـ عقب فتح بصرى حيث سار العرب لحصار دمشق ، ثم عدلوا عن حصارها ريثما يتم لهم فتح اجنادين . وقد علموا أن هرقل أنفذ اليهم مائة ألف من الروم تحت قيادة وردان وأن موت أبى بكر كان قبيل فتح دمشق سنة ١٣ هـ أيضا . وهو يخالف ماذكره غيرهم (كالبلاذرى واليعقوبى والطبرى وابن الاثير) من أن موقعة اليرموك لاأجنادين هى التى سبقت فتح دمشق : أعنى سنة ١٣ هـ وأن واقعة أجنادين كانت سنة ١٥ هـ . على أن المؤرخين من الفرنجة ، ومعهم الواقدى ، قد ذكروا أن العرب اشتبكوا بأجنادين مرتين : مرة قبل فتح دمشق أى سنة ١٣ هـ ومرة أخرى بعد واقعة اليرموك سنة ١٥ هـ .

فاذا أغفلنا واقعة أجنادين الأولى يتيسر لنا بعض التوفيق بين روايات المؤرخين المتناقضة ، وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع لأن ذلك ليس من شأننا . وقد يكون التخبط فى ترتيبها راجعا لوقوع بعضها فى أوقات واحدة . أنظر كتاب تاريخ عمرو بن العاص المؤلف ص ٤٨ - ٤٩

على أن رواية الطبرى (ج ٤ ص ٤٤) عن ابن اسحق توافق ماذكره الفرنج وهو أن فتح أجنادين كان سنة ١٣ هـ حيث اجتمع المسلمون مددا لعمرو بن العاص . إلا أن الفرنج والواقدى (ج ١ ص ٣٤) يقولون إن عمرو بن العاص أتى مددا لخالد بن الوليد على أثر كتابته له ولغيره من الأمراء المتفرقين بالشام .

Successors of Mohammed, p.75.

A Short History of the Saracens, p. 39.

عليها دينيا أكثر منه سياسيا ، لأنهم كانوا يعظمون بيت المقدس بعد مكة والمدينة ، لكونها مركز الأرض المقدسة .

حال أهل إيلياء

ولما كتب أبو عبيدة إلى اهل إيلياء يدعوهم إلى الايمان بالله وبرسوله أو الدخول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية (١) ، نظروا فى أمرهم فوجدوا أنفسهم فى ضنك عظيم وحصار شديد . وقد أيقنوا بانقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام وأنهم مأخوذون لا محالة ، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين ألا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى ، لكثرة ما لاقى المسلمون فى حربهم من العناء وما بذلوا فى قتالهم من الدماء . وقد خافوا على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون ؛ فأخذ الروع بقلوب أهل بيت المقدس ، فرأوا توكيدا للأمان وتوثيقا لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه ؛ ولم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى ظهر بطريرقهم سفرنيوس (Sophronius) على الأسوار طالبا التسليم، على أن يكون المتولى للصلح عمر بن الخطاب . فكاتبه الأمراء فى ذلك ، فرضى عمرو رحل الى الجابية وكتب لأهل إيلياء كتابا أشهد فيــــه قواد المسلمين ، كما كتب الى سائر كور فلسطين كتابا أورد صورته الطبرى (٢) . وكان فتح ايلياء سنة ١٦ هـ أو أواخر سنة ١٥ هـ (٦٣٥ م) (٣) .

---

(١) Gibbon's Roman Empire, vol. IX. pp. 249-250
Irving, Successors of Mohammed, pp. 75-76.

(٢) جـ ٤ ص ١٦٠

(٣) الطبرى جـ ٢ ص ١٥٨ - ١٦٠ ؟ اشهر مشاهير الاسلام جـ ٢ ص ٢٤٦
A Short History of the Saracens. pp. 39-40

قيسارية

غير أن عمرو بن العاص ظل مع جيشه بفلسطين ردحا من الزمن للقضاء على القوة التى كانت لا تزال مع قسطنطين بن هرقل ؛ فسار إلى قيسارية (قيصرية) حيث عكسر قسطنطين بجيش كثيف . وقد تغلبت على هذا الأمير عوامل الخوف حين علم بسقوط طبرية فى قبضة العرب وهرب والده من أنطاكية ، وتوهم أن عمرو بن العاص اخترق أسوار المدينة ، فانسل من قصره هو وأسرته خفية ، ورحل إلى القسطنطينية كما رحل أبوه من قبل . ولما أصبح الصباح وعلم الأهلون بهرب أميرهم سلموا لعمرو فقبل منهم .

أضمحل بعد ذلك سلطان الروم من البلاد السورية بعد حروب طويلة لاقى المسلمون فى غضونها المشاق والأهوال ، وقاسوا طويلا من شدة بردها ، وقتل من جندهم عدد غير قليل لا سيما فى وقائع اليرموك ودمشق وبيت المقدس وحلب . فكان عدد من قتل فى حروب الشام يناهز خمسة وعشرين ألفا من المسلمين مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غاليا والدماء الغزيرة التى أهدرت فى فتحها عزيزة[١] .

فتح مصر :

حالة مصر قبل الفتح

لكى نقف على مبلغ السهولة التى تم بها فتح مصر على أيدى العرب ، يجب أن نتعرف حالة هذه البلاد من الوجهتين الدينية والسياسية .

الحالة الدينية

كانت مصر احدى الولايات الرومانية . وكانت كغيرها من

---

(١) Butler,The Arab Conquest of Egypt, pp. 166-167
Muir, The Caliphate, pp. 143—144.
Houart : Histoire Générale des Arabes, p. 235.
Muir, The Caliphate, p. 152.
of Mohammed, pp. 105

الولايات تدين بالدين الوثنى إلى أن ولد المسيح عليه السلام فى عهد الامبراطور أوغسطس قيصر مؤسس الامبراطورية الرومانية على أثر انتصاره على جيوش أنطنيوس وكيلوبطرة سنة ٣١ ق . م . فأخذت تتوالى نقم الآباطرة الرومان على الوثنيين الذين اعتنقوا هـذا الدين الجديد ، وظـلوا على ذلك إلى أن اعترف الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) بالدين المسيحى ، وجعل المسيحية (٣٢٣ م) على قدم المساواة مع الأديان الأخرى ، وأعطى المسيحيين بعض الامتيازات ،[1] إلى أن جعل الامبراطور تيودوسيس (٣٧٨-٣٩٥م) المسيحية الدين الرسمى للدولة سنة ٣٨١ م .

بعد ذلك أخذت تتوالى النقم على الوثنيين بعد أن كانت تتوالى على المسيحيين . على أن المسيحيين ما كادوا يتخلصون من الاختلافات الدينية حتى وقعوا فى الاختلافات المذهبية ، ونشأ عن ذلك مايعرف بالمذهب الأرثوذكسى والمذهب الكاثوليكى وغيرهما من المذاهب[2]

---

(١) كان ذلك عملا سياسيا أكثر منه دينيا . وذلك انه أراد أن يربط اجزاء الامبراطورية برابطة أدبية قوية تكون أداة الوحدة التى كان ينشدها . ووجد فى الدين المسيحى تلك الرابطة التى كان يريدها . يدلنا على صحة هذا ما كان من اتخاذه الخلاف بين أريوس (Arius) الذى كان يقول ان المسيح أشرف مخلوق ولكنه دون الله ، وأثنا سيوس (Athanasius) الذى كان يرى أنه من مادة الله ، وأنه يساويه فى اللاهوت ، وأن العلاقة بينهما أبدية (وهو مايعبر عنه بمبدأ التثليث) اتخذ ذلك ذريعة لعقد مجمع نيقيه فى آسيا الصغرى سنة ٣٢٥م للتوفيق بين هذه الآراء . وكان من أثر ذلك أن انقسم المسيحيون الى أرثوذكس (المستقيمو الرأى أو المتمسكون بالدين القويم وهم كأهل السنة عندنا) ، والى كاثوليك وهم أتباع الكنيسة الجامعة أى كنيسة رومة ومن أنصار أثناسيوس . من ذلك يتبين أن المصريين ما كادوا يخلصون من اضطهاد الاباطرة الوثنيين حتى وقعوا فى الاختلافات المذهبية التى كان لها أثرها . فان مسيحى مصر كانوا أرثوذكس بينما غدا الاباطرة فى رومة كاثوليكا . (J. Grafton Milne, History of Egypt Under Roman Rule, p. 96.

(٢) لم يكد تيودوسيس يقبض على زمام الاحكام حتى جعل المسيحية الدين الرسمى للدولة . وكان من أثر هذه السياسة أن لاقى الوثنيون فى مصر (وفى غيرها) مالاقاه المسيحيون من قبل . على أنه قد قام خلاف آخر بين المصريين والروم بسبب ظهور مذهبين جديدين :

وكان هذا الاختلاف سبباً فى إيقاع البؤس والشقاء بالمصريين .

الحالة السياسية

استولى الرومان على مصر سنة ٣٠ ق . م . فجعل أوغسطس قيصر هذه البلاد مخزنا يمد رومة بحاجتها من الغلال . وبذلك انحطت درجة العلم والعرفان فيها . وقد أغلقت أبواب المناصب العالية أمام المصريين ، كما زادت الضرائب فى عهد الرومان زيادة عظيمة حتى شملت — كما يقول المؤرخ « ملن » — (١) الأشخاص والأشياء : فكانت تجبى على الرءوس والصناعات ، وعلى الماشية والأراضي . ولم تكن مقصورة على أنواع خاصة من البضائع ، بل كانت تُجبى من المارة رجالا ونساء — تجارا وغير تجار — ومن صناع السفن ، ومن زوجات الجنود ، وعلى أثاث المنازل . ولم تقتصر تلك الضرائب على الأحياء بل تعدتها إلى الموتى ؛ فكان لا يسمح بدفن الميت حتى تدفع عنه ضريبة معينة .

وزاد الطين بلة ما رُزىء به المصريون من إلزامهم بإيواء من يمر بهم من الموظفين الملكيين والعسكريين من الرومان وتقديم ما يلزمهم من الحاجيات ، وتوفير أسباب الراحة لهم فى حلهم وترحالهم ، كما ألزموا فى الأعوام الأخيرة بأن يقوموا بغذاء الجنود . وكانت هذه الأعباء الفادحة سبباً فى ضعف المصريين وخمولهم وفى ازدياد سخطهم على الحكم الرومانى ، كما كان للاختلافات الدينية نتائج لا يستهان بها . وكان من أثر

اليعقوبى : ويقول أتباعه بامتزاج الطبيعتين الالهية والبشرية فى المسيح ، وذلك بعد التجسد

الملكى : ويعتقد اتباعه أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور وأنه غير مخلوق ثم اتحد بالانسان المأخوذ من مريم ، فصارا واحدا وهو المسيح .

وكان من أثر هذا الخلاف ان عقد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م فى عهد الامبراطور مرقيان (٤٥٠ - ٤٥٧ م)

(١) Graftan Milne, History of Egypt Under Roman Rule, pp. 115-125.

تلك الاختلافات استيلاء الفرس على مصر فترة من الزمن ثم فتح العرب لها على يد عمرو بن العاص . [1]

لذلك لانعجب إذا أصبح المصريون يتطلعون لدولة أخرى تخلصهم من هذه الحالة السيئة وترفع عنهم تلك المظالم . وقد سرهم ماعلموه من استيلاء العرب على الشام كما سرهم ماسمعوه من حسن سيرتهم فى البلاد التى فتحوها . لهذا تمنوا أن يكون خلاصهم من ظلم الرومان على يد المسلمين عسى أن تكون سياستهم معهم أفضل من سياسة الرومان .

ومن ذلك نرى أن مصر كانت قد فقدت كل شخصية سياسية ، وأصبحت لاتعتمد على نفسها فى دفع الظلم عنها واقامة حكومة وطنية معها ، بل كان كل همها أن تجعل دولة جديدة محل تلك الدولة التى سقتها العذاب الهون وأن تقوم فى هذه البلاد مقامها .

والخلاصة أن سوء سيرة الرومان فى مصر من الوجهتين الدينية والسياسية وضعف المصريين كانا من أهم الأسباب التى سهلت لعمرو ابن العاص فتح مصر وانتزاعها من يد الرومان بجيشه الصغير .

الفتح :

طلب عمر الاذن بفتح مصر

لما قدم عمر بن الخطاب الجابية سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) من أعمال دمشق أتى إليه عمرو بن العاص ، وكان من القواد الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لفتح الشام وفلسطين ، وقال له « إئذن لى فى السير إلى مصر » [2] ، وذكر له : أنها أكثر الأرض أموالا ، وأهلها أعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم ، وقال له « إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم » .

---

(١) على أن كل هذه الآلام لم تكن مقصورة على المصريين ، انما كانت شاملة لجميع اجزاء الامبراطورية ، وهى من الاسباب التى سهلت سقوطها وفتح العرب اياها .

(٢) يقول ابن الاثير (جـ ٢ ص ٢٧٧) وابن خلدون (جـ ٢ ص ١١٤) إن عمرو بن العاص سار الى مصر عقب فتح بيت المقدس سنة ٢٠ أو سنة ٢٢ أو سنة ٢٥ هـ . وهو خطأ بدليل التخبط الظاهر فى ذكر السنين .

من العريش لتنيس
للدكتور حسن إبراهيم حسن
ورسمه وحققه الأستاذ
محمد مختار يونس
سنة ١٣٤٠ ١٩٢٢

البحر الأبيض المتوسط

« هي إسوثلسة »

بور سعيد
جبل كاسيوس
سبخة بردويل
الفرع التنيسي
الفرع الطيني
البيلوزي
الطينة
معسكر تبرابس
سربونيس
قرما
بلوزيوم
عفين
قطية
رءوس الأدراب
بئر المساعيد
طريق الفتح
بئر العبد
حصن مجرب
رمال الغرابي
أبو الأصب
العريش
رنكولورا
درسان

فتردد الخليفة فى الأمر وأشفق على المسلمين أن يصيبهم الفشل . ولم يستطع أن يجمع لفتح هـذه البلاد جيشا كبيرا لتفرق جند المسلمين فى الشام والجزيرة وفارس . أضف إلى ذلك ما كان يخشاه عمر من التوسع فى الفتح ، ولا سيما وأن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فى البلاد التى فتحوها . فلم يزل عمرو يهون عليه فتحها ويعظم أمرها طمعاً فيها ورغبة فى خيراتها ، لأنه وقف بنفسه على أحوالها زمن الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة ، وعرف خصوبة أرضها ووفرة خيراتها ، كما بين لعمر أن استيلاء المسلمين عليها معناه تثبيت فتوحهم فى الشام وفلسطين وتأمينها من ناحية الجنوب ، وأن بقاءها فى يد الرم يعرض سيادة العرب فى بلاد الشام إلى الخطر . ومازال بعمر حتى أذن له بقصدها وعقد له على أربعة آلاف رجل .

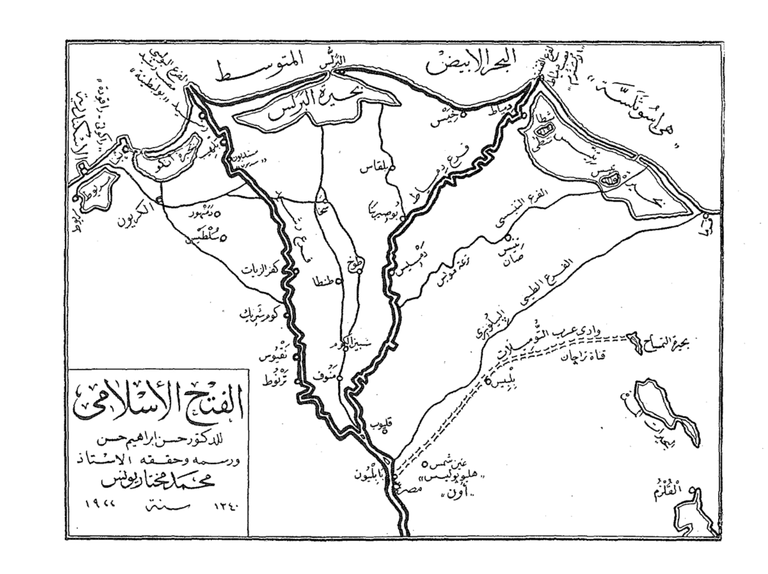
ولما أمر عمر عمرو بن العاص بالمسير قال له : إنى مرسل إليك كتابا ، فان أدركك وأمرتك فيـه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى ، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » . ويقال إن كتاب عمر وصل إلى عمرو وهو برفح ، فلم يتسلمه من الرسول حتى كان قرب العريش ، فأخذ الكتاب وقرأه على أصحابه ، فاذا عمر يأمره فيـه بالانصراف إن لم يكن قد دخل أرض مصر . ثم أمر الجيش بالسير على بركة الله .

العريش

سار عمرو بجنده مخترقاً رمال سيناء حتى وصل إلى العريش[1] سنة ١٨ هـ ، وفتحها من غير مقاومة ، وذلك لأن حصونها لم تكن من المتانة بحيث تقف فى وجه العرب زمنا طويلا ولعدم وجود حامية رومانية بها .

---

(١) ان المسافر من فلسطين الى مصر يسير الى الشجرتين على حدود مصر ثم الى العريش فى قسم الحدود ، ثم الى قرية البقارة ثم الى الواردة الواقعة وسط التلال المرملة ، ثم الى الفرما وهى أول مدينة مصرية يصل اليها ، ثم الى مدينة الجرير ثم الى جيفة ثم الى الفسطاط .



الفتح الإسلامي
للدكتور حسن ابراهيم حسن
ورسمه وحققه الاستاذ
محمد مختار يونس
١٢٤٠ سنة ١٩٢٢
البحر الابيض المتوسط
بحيرة البرلس
البرلس
دمياط
شطا
تنيس
الفرع التنيسى
الفرع الطينى
فرع دمياط
فرع رشيد
بحيرة ادكو
الكريون
دمنهور
سلطيس
كفر الزيات
كوم شريك
نقيوس
ترنوط
منوف
طنطا
طوخ
سمنود
بلقاس
بوصير
دمسيس
زفتى
صان
البلوزى
وادي عرب الطوميلات
قناة تراجان
بحيرة التمساح
بلبيس
قليوب
بابليون
مصر
عين شمس
هليوبوليس
أون
القلزم
مربوط

الطريق الذى يسلكه العرب

غادر عمرو العريش مخترقا الطريق الذى كان يسلكه المهاجرون والفاتحون والتجار والحجاج والسائحون منذ أقدم العصور ؛ وهو طريق إبراهيم عند ماسار إلى بلاد العرب بابنه إسماعيل ، وطريق يوسف عند ماسار من الشام إلى مصر زمن الفراعنة ، وطريق قمبيز ملك فارس حين سار لغزو مصر ، والاسكندر المقدونى الذى مد فتوحاته إلى الهند . ولم يشتبك عمرو مع جند الروم فى قتال حتى وصل إلى مدينة « الفرما » ، وهى مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية وكنائس وأديرة . وكان لها ميناء على البحر يصل اليها جدول ماء من النيل ؛ وكانت بمثابة مفتاح لمصر فى ذلك الزمن . وكانت هذه المدينة منيعة الحصون . ولما فتح الفرس مصر خربوا أسوارها وهدموا بعض كنائسها . وقد رمم الرومان ما دمره الفرس أثناء غزوتهم لمصر ، فعادت هذه الأسوار منيعة على المغيرين ، واضطر المسلمون إلى حصارها شهراً أو نصف شهر [1] صبروا فيه وثبتوا حتى تم لهم فتحها فى منتصف يناير سنة ٦٤٠ (أول المحرم سنة ١٩) . ويحدثنا التاريخ بأن القبط كانوا أعوانا للعرب على حصار الفرما .

الفرما

بلبيس

تقدم عمرو حتى وصل إلى بلبيس ماراً فى طريقه بأرض مغطاة بقشور الصدف البيضاء التى استحالت اليوم إلى رمال ، ثم بمدينة مجدل (Migdol) ، وتلى الفرما فى الصحراء على مقربة من ساحل البحر البحر إلى الجهة المعروفة بالقنطرة على قناة السويس الحالية ، ثم أخذ فى السير إلى الصالحية فوادى الطليات بقرب التل الكبير وإنما اختار عمرو هذا الطريق لخلوه من المستنقعات بخلاف الطريق الآخر الذى كان يسلكه معظم الفاتحين . ولما وصل عمرو إلى بلبيس وجد بها الأرطبون [2] ، فهزمه عمرو واستولى على المدينة بعد شهر لم ينقطع فيه القتال . ويقال إن ابنة المقوقس

---

(١) ذكر ياقوت فى معجمه أن القتال ظل شهرين وهو يخالف ماذكره المقريزى وابن عبد الحكم والسيوطى وابن الاثير وغيرهم من أن النضال دام نحواً من شهر .

(٢) فر الأرطبون إلى مصر قبيل تسليم بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب



حصن بابليون والباب الذى خرج منه المقوقس أثناء الفتح

حاكم مصر من قبل الروم كانت بها حين فتحها المسلمون ، فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة . وإن صح هـــذا فقد اكتسب عمرو بهذا العمل محبة القبط وجعل عندهم فكرة حسنة عن حكم المسلمين لهذه البـــلاد .

أم دنين

سار عمرو بعد استيلائه على بلبيس إلى أم دُنَيْن (١) حيث نشب القتال بين المسلمين والبيزنطيين وقد تحصنوا فى حصن بابليون . ودام القتال عدة أسابيع . ولما أبطأ الفتح على عمرو كف عن القتال وأرسل إلى عمر يطلب منه المدد ، فأمده بأربعة آلاف على رأسهم أربعة من مشاهير الصحابة كل واحد منهم بألف : هم الزبير بن العوام وعُبادة بن الصامت ومَسْلَمَة بن مُخَلَّد والمقداد بن الأسود . وكتب الخليفة لعمرو « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل »

وصل هذا المدد إلى عين شمس ؛ فسار عمرو لملاقاته وتقدم تيودور (Théodore) قائد الروم فى عشرين ألفاً . فوضع له عمرو كمينا فى الجبل الأحمر (٢) وآخر على النيل قريبا من أم دنين ، ولاقاه ببقية الجيش . ولما نشب القتال بين الفريقين وحمى وطيسه خرج الكمين الذى كان فى الجبل الأحمر ، وانقض على الروم ، فاختل نظامهم وعرجوا على أم دنين ، فقابلهم الكمين الذى كان بقرب أم دنين ، فأصبحوا بين جيوش العرب الثلاثة . فحلت بهم الهزيمة ولم يبق منهم إلا عدد قليل سار بعضهم فى النيل وفر البعض الآخر الى حصن بابليون (٣) . وبذلك ثبتت قدم عمرو فى أم دنين وعين

حصن بابليون

(١) وهو موضع بمصر بين النيل والقاهرة وكان اسمها قبل الفتح تندونياس . ذكر هذا الاسم الرومانى بطلر نقلا عن يوحنا أسقف نقيوس . فسماها العرب أم دنين ، ثم سميت بعد ذلك المقس وموضعها الآن الجزء الواقع بين حديقة الأزبكية وقسم الأزبكية . ويقول بعض المؤرخين انها كانت على النيل فى مكان حديقة الازبكية الحالية

(٢) شرق العباسية (٣) ستانلى لينبول ص ٥ ، بطلر ص ٣٢٠ - ٣٢٣



الباب العمومى لحصن بابليون
وهو الباب الذى خرج منـــه المقوقس

حصار حصن بابليون

شمس التى صارت مركزاً لقيادته الحربية ، ولم يبق أمامه سوى حصن بابليون . فسار اليه وحاصره سنة ٢٠ ، وكان ذلك وقت فيضان النيل . وقد طال أمد الحصار إلى سبعة أشهر وذلك لمناعة أسوار المدينة وعدم وجود المعدات الحربية عند العرب

طلب المقوقس الصلح

بعد شهر رأى المقوقس الجد من العرب وصبرهم على القتال وأنهم سوف يقتحمون الحصن بصبرهم وشجاعتهم ، فخرج هو ونفر من قومه ولحقوا بالجزيرة ، وأرسل الى عمرو يطلب منه الصلح وقال له فى كتاب أرسله إليه : « قد جئتم أرضنا وطال مقامكم فيها ، وأنتم عصبة يسيرة . وأخشى أن تغشاكم الروم فتندمون . فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر بيننا على ماتحب وتحبون » . وقد أتت رسل المقوقس بهذا الكتاب إلى عمرو ، فأبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس . ثم قال لهم عمرو : ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث :

شروط العرب

(١) إما دخلتم فى الاسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ماعلينا

(٢) وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون

(٣) وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين

وصف رسل المقوقس العرب

ولما رجع الرسل إلى المقوقس سر بلقائهم وسألهم عن حال المسلمين فأجابوا « رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم ، مايعرف كبيرهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ؛ وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » .

وقد أرهب المقوقس هذا الحديث ، فأشار على قومه بطلب الصلح ،

وأرسل الى المسلمين أن يرسلوا اليه رسلا للمفاوضة فى الصلح . فبعث عمرو عشرة رجال فيهم عُبادة بن الصامت ، وأمر أن يكون هو المتكلم . ودارت المحادثات بين الطرفين وسلك المقوقس طريق الارهاب المصوغ فى قالب النصيحة . وألح على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير هذه الثلاث ، فرفع عُبادة يديه وقال : «لا ورب هذه السماء ، ورب هذه الأرض ، ورب كل شيء . مالكم عندنا خصلة غيرها . فاختاروا لأنفسكم» . فقال المقوقس لقومه «أطيعونى وأجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث . فوالله مالكم بهم من طاقة وإن لم تجيبوا اليهم طائعين لتجيبنهم إلى ماهو أعظم من هذه كرها » (١)

عرض المقوقس الأمر على هرقل

كتب المقوقس بذلك كله إلى هرقل ، فرد عليه يوبخه ويحتقر قوة المسلمين وكتب بمثل ذلك إلى قواد الروم الذين مع المقوقس ، فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم . أما المقوقس فلم يعبأ بهرقل بل أعلم عمرو بن العاص أنه لم يخرج عما عاقده عليه وأن القبط موفون له ماصالحهم عليه . وتحدثنا المصادر العربية أن عمرا طلب من المقوقس أن يضمن له الجسور ويقيم لهم الأنزال والضيافة بين الفسطاط والاسكندرية ؛ فقبل وصار القبط أعوانا للمسلمين (٢) . وقد عد مؤرخو الافرنج هذا العمل خيانة من المقوقس .

فتح الاسكندرية :

كانت الأسكندرية عند استيلاء العرب على مصر قصبة الديار المصرية وثانية حواضر الأمبراطورية الرومانية الشرقية (بعد القسطنطينية) وأول مدينة تجارية فى العالم . وقد أيقن امبراطور الروم أن سقوط هذه المدينة فى أيدى العرب يؤدى حتما إلى زوال سلطانهم

(١) راجع ابن عبد الحكم (ص ٥٩ - ٦٣) ؟ المقريزى : خطط (ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٩٣)

(٢) ابن عبد الحكم ص ٦٥ — ٦٧

من مصر . لذلك بادر بارسال الجيوش اليها ، ونشط الروم للدفاع عن المدينة وأغلقوا أبوابها وتحصنوا فيها .

استيلاء عمرو على الحصون التى بين الفسطاط والاسكندرية

سار عمرو الى هذه المدينة وفتح فى طريقه طرنوط [١] ، ثم نقيوس [٢] ثم سلطيس [٣] ، ثم الكريون وهى آخر حلقة فى سلسلة الحصون الرومانية التى كانت تمتد من بابليون إلى الأسكندرية. وقد تحصن فى حصنها تيودور (Theodore) قائد الحصن الرومانى وقاتل المسلمين قتالا شديدا ، ولما دارت الدائرة عليه ولى هو وفلول جيشه الأدبار حتى وصلوا الى الأسكندرية . وكان على المقدمة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وحامل اللواء وردان مولى عمرو .

حصار الاسكندرية

وصلت فلول الروم الى الأسكندرية وتحصنوا بها ، وكانت منيعة حصينة . وقد عنى بتحصينها الروم والبطالسة من قبلهم ، لتقوى على رد غارات الأعداء وصد هجمات الفاتحين . وكانت الأمداد تأتى اليها من الروم . ولم تقل حاميتها عن خمسين ألف جندى مزودين بالمؤن الوفيرة والعدد الكثيرة ، على حين بلغ جند العرب نحو الاثنى عشر ألفا . وقد أقام عمرو وجنده يردون غارات الأعداء ويقابلون هجمات الروم نحوا من أربعة أشهر . فأقلق هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فبعث الى عمرو كتابا يلومه فيه هو والمسلمين . فقرأ عمرو الكتاب وعقد لعبادة بن الصامت وولاه قتال الروم ، ففتح الله على يديه الأسكندرية ، وهزم الروم برا وبحرا ؛ وتم هذا الفتح عنوة . ولكن عمرو بن العاص جعل أهلها ذمة على أن يخرج من يخرج ويقيم من

(١) وهى على الشاطىء الغربى لفرع رشيد ؛ وتسمى الآن الطرانة وتقع على مقربة من كفر داود على خط المناشى فى جهة الخطاطبة وكوم حماده

(٢) وتقع على النيل الى الشمال من طرنوط بمديرية البحيرة بجهة النخيله مركز كوم حماده

(٣) وتقع على بعد ستة أميال جنوبى دمنهور فى منتصف المسافة بين كوم شريك والكريون

يقيم باختيارهم ؛ شأن العرب من أهالى معظم البلاد التى فتحوها . وإنما فعل عمرو ذلك ، وعاملهم معاملة من فتحت بلادهم صلحا ليستجلب محبة الأهلين ورضاهم .

شروط الصلح

وقـــد أبرم المقوقس نفسه الصلح مع العرب . ويتلخص فيما يلى :

(١) أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين فى كل سنة .

(٢) المهادنة أحد عشر شهرا

(٣) احتفاظ العرب بمراكزهم مدة الهدنة ، وألا يباشروا أعمالا حربية ضد الاسكندرية . كما أن على الجنود الرومية أن يكفوا عن الأعمال العدائية .

(٤) ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء ، وألا يتدخلوا فى أمور المسيحيين .

(٥) أن ترحل الحامية التى بها مع مايملكون من أموال وأمتعة ، وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم .

(٦) بقاء اليهود بالاسكندرية

(٧) ألا يعود أو يحاول استرداد مصر جيش رومى

(٨) أن يكون لدى المسلمين من الروم ١٥٠ جنديا و٥٠ ملكيا بمثابة رهينة لتنفيذ المعاهدة . (١)

انتقاض الروم

على أن الروم ظلوا بعد فتح العرب للاسكندرية يتطلعون الى مصر حيث كان لايزال قوم من المصريين يتطلعون إلى الروم ، فكتبوا

---

(١) راجع فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٧٢ - ٧٤ ؟ فتوح البلدان البلاذرى ص ٢٨٨ ومايليها ؟ وكتاب الولاة الكندى ص ٩ ومايليها ؟ وحسن المحاضرة السيوطى ج ١ ص ٥٣ وما يليها ؟ Gibbon, History of the Decline and Fall of tha Roman Empire, vol. IX, p. 272 ; Washington Irving, Successors of Muhammad, p. 111.

الى قسطنطين بن هرقل يبينون له ماهم فيه من مذلة وما أرغموا عليه من اداء الجزية، ويذكرون له كذلك قلة حامية الاسكندرية من العرب . فبعث قسطنطين جيشا كبيرا تحت قيادة مانويل ؛ فقتل من بالاسكندرية من حامية العرب وسار الى نقيوس . فسار اليهم عمرو واشتبك مع الروم فى القتال، فولوا منهزمين إلى الاسكندرية ، فتبعهم وأعمل السيف فيهم واسترد الاسكندرية . وقتل مانويل فى هذه الواقعة . وهدم عمرو سور الاسكندرية وكان قد خلف ليهدمنه لو قيض له النصر (١) .

أثر الفتح فى مصر :

تخفيف الضرائب

لم يشتط العرب فى معاملة القبط ، بل عاملوهم بمنتهى اللين ، فخيروهم بين الاسلام والبقاء على دينهم . فمن أسلم منهم صار له ما للمسلمين من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات ، ومن بقى على دينه فرضت عليه جزية صغيرة مقدارها ديناران على من بلغ الحلم منهم ، واستثنوا النساء والشيوخ والأطفال . أضف الى ذلك رفع الاضطهاد عنهم ، وعدم تحميلهم ما لا يطيقون . وبهذه الطريقة أتيح لعمرو بن العاص تنفيذ أوامره على أهون سبيل . هذا إلى أنه كان دائما يضع مصلحة المصريين نصب عينيه ، ولم يأل جهداً فى اكتساب محبتهم ؛ فدانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته ؛ فلم ير إحراج القبط لئلا يخرجوا عن طاعته عملا بالمثل القائل « إذا أردت أن لا تطاع فمر بما لا يستطاع » .

إطلاق الحرية الدينية

وقد أطلق لهم العرب الحرية الدينية للقبط . يؤيد ذلك ما فعله عمرو بن العاص بعد استيلائه على حصن بابليون ، إذ كتب بيده عهدا للقبط بحماية كنيستهم ولعن كل من يجرؤ من المسلمين على إخراجهم منها ، وما كان أيضا من كتابته أمانا للبطريرق بنيامين ورده إلى

(٢) راجع كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ١١٨ – ١٢٢

كرسيه بعد أن تغيب عنه زهاء ثلاث عشرة سنة ، فسرّ هذا العمل البطريريق وشكر عمراً عليه . ومما هو جدير بالذكر أن عمرا أمر باستقبال بنيامين بكل حفاوة عند ما سار إلى الاسكندرية ؛ ولما قدم ولقى عمرا ألقى على مسامعه خطابا بليغاً ضمنه كل ما عنّ له من الاقتراحات التى رآها لازمة لحفظ كيان الكنيسة ؛ فتقبلها عمرو ومنحه السلطة التامة على القبط والسلطان المطلق لادارة شئون الكنيسة . وقد لاحظ « بطلر » أن عودة بنيامين الى عرش الكنيسة قد كفاها شر الوقوع فى أزمة خطيرة كانت لا محالة مودية بها إلى الاضمحلال والدمار .

وإن الخطبة البليغة التى ألقاها باسيلى أسقف نقيوس بدير مقاريوس لخير شاهد على أن القبط قد أصبحوا بعد الفتح الاسلامى فى غبطة وسرور لتخلصهم من عسف الروم . يدلك على صحة مانقول رد بنيامين على باسيلى بقوله : « لقد وجدت فى مدينة الأسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون » . فهذه هى الكلمات التى فاه بها البطريريق . ومنها يتجلى للقارىء مبلغ الطمأنينة التى شعر بهـا المصريون فى عهد عمرو . ومما يؤيد هذا القول وصف « ساويرس » القوم بأنهم كانوا فى ذلك اليوم [1] كالثيرة إذا أطلقت من قيودها .

المساواة بين المصريين فى الحقوق

ومما يدل أيضا على حسن سياسة العرب فى مصر أنهم لم يفرقوا بين الملكية واليعاقبة من المصريين ، فلم يتحيزوا لأحد الطرفين ، فكانا متساويين أمام القانون ، وأظلوهما بعدلهم وحموهما بحسن تدبيرهم ، ولم يتبعوا السياسة القائلة « فرق تسد » ، تلك السياسة العقيمة التى ظهر للملأ أنها تؤدى الى أوخم العواقب . لهذا لا ينكر علينا أحد إذا قلنا إن العرب قد نالوا من السلطان فوق ما كانوا يتمنون ؛ فدانت لهم البلاد قاصيها ودانيها وأجمعت على محبتهم .

(١) أى اليوم الذى زار فيه بنيامين دير مقاريوس .

يضاف الى ماتقدم أن العرب تركوا للمصريين أرضهم ، وأخذوا على عاتقهم حمايتهم وأمنوهم على أنفسهم ونسائهم وعيالهم ؛ فشعروا براحة كبيرة لم يعهدوها منذ زمن طويل .

اصلاحات العرب

ولم تقتصر أعمال العرب على ذلك ؛ بل إنهم أعادوا الأمن والنظام إلى البلاد ؛ كما قاموا بالاصلاحات العظيمة ، فنظموا الادارة ونصبوا القضاة ورسموا خطة جباية الخراج ، وعنوا عناية كبرى بالأعمال الخاصة بهندسة الرى من كرى الخلجان وبناء مقاييس للنيل ، وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور ؛ فأقاموا لذلك العمال لا يفترون عن العمل صيفاً وشتاء . وكان من أثر هذه الاصلاحات أن تحسنت حال القبط وازدادت ثروتهم . وينسب اليهم بعض المؤرخين خطأ أو عن سوء قصد إحراق مكتبة الاسكندرية[١] .

مكتبة الاسكندرية :

المؤرخون والمكتبة

خاض بعض المتأخرين من المؤرخين فى مسألة إحراق مكتبة الاسكندرية ؛ فنسبها بعضهم إلى عمرو بن العاص ، وزعم أن عمر بن الخطاب أمره باحراقها . وناقش هـذا الخبر كثير من علماء الفرنجة مثل جبون (٢) وبطلر (٣) وسديو (٤) وجوستاف لى بون (٥) وغيرهم . ولكنهم لم يجزموا برأى فى هذه المسألة ، بل ارتابوا فى صحة هذه التهمة التى وجهت إلى عمرو بن العاص باحراقه هذه المكتبة بأمر الخليفة عمر ،

(١) راجع كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٣٠ - ١٥٣

(٢) Gibbon, vol. IX, pp. 274—276

(٣) Alfred Butler, The Arab Conquest of Egypt, pp. 401—426.

(٤) Sédillot, Histoire générale des Arabes, vol. I. pp. 155—156.

(٥) Justave le Bon, Civilisation Arabe, p. 208.

وقالوا إنها تخالف التقاليد الاسلامية ، ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الاســـلامى مثل أوتيخا الذى وصف فتح مصر باسهاب . ولم يرد فى تاريخه ولافى تاريخ غيره من معاصريه ذكر البتة لهذه التهمة . كذلك لم يرد لهـا ذكر فى تاريخ الأقدمين كاليعقوبى والبلاذرى وابن عبد الحكم والطبرى والكندى ، ولا فى تاريخ من جاء بعدهم وأخذ منهم كالمقريزى وأبى المحاسن والسيوطى وغيرهم .

المؤرخون الذين تكلموا عن حرق العرب للمكتبة

وأول من نسب الحريق إلى عمرو هو عبد اللطيف البغدادى[١] (+ ٦٢٩هـ ١٢٣١م).وجاء بعده ابن القفطى(+٦٤٦هـ؟١٢٤٨م)[٢] وأبو الفرج الملطى (+ ٦٨٥ ؟ ١٢٨٦ م) [٣] . على أنه لا يمكننا أن نلقى التبعة على ابن القفطى وأبى الفرج لاحتمال أن يكونا قد أخذا هذه المقالة عن عبد اللطيف البغدادى الذى رمى بهذه التهمة بغير سلطان أتاه . فلم يذكر لنا من أى تاريخ أخذ ولا من أى مصدر استقى ، بل ذكرها عرضا فى سياق كلامه عن عمود السوارى . غاية ماهنالك أنه سمع بمكتبة فى هذا المكان عفى الزمان على أثرها ، فافترض أن الذى

---

(١) الافادة والاعتبار ص ٢٨

(٢) هو جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن ابراهيم القفطى وزير حلب المعروف بالقاضى الأكرم . ولد فى قفط من بلاد الصعيد سنة ٥٦٥ هـ وتوفى بحلب سنة ٦٤٦ هـ . وقد ألف كتابه «اخبار العلماء بأخبار الحكماء» (لا يبسك سنة ١٣٤٠ هـ ؟ ١٩٠٢ م) ، ومنه نسخة خطية فى دار الكتب الملكية بالقاهرة يرجع تاريخها الى سنة ١١٩٧ هـ .

(٣) أبو الفرج الملطى هو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى . ولد سنة ١٢٢٦ م فى مدينة ملطية بأرمينية الصغرى . وتعلم فى صغره اليونانية والسريانية والعربية ، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت. وقد فر به والده الى انطاكية سنة ١٢٤٣ .وعاش أبو الفرج عيشة الزهد والنسك وانفرد فى مغارة بالبرية ، ثم شخص الى طرابلس الشام وأتم دراسة البيان والطب ، ورقى فى العشرين من عمره الى أسقفية جوباس من أعمال ملطية . وفى سنة ١٢٦٤م انتخب (مفريانا) (كلمة فارسية معناها المثمر . وهذا المنصب من أكبر المناصب بعد البطريرقية وهو أشبه بكبير الاساقفة) على جهات ما بين النهرين والعراق العجمى . وقد ألف أبو الفرج أكثر من ثلاثين كتابا بالعربية والسريانية فى الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها من بينها كتابه مختصر الدول . أنظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٠٧ .

دمرها هو عمرو بن العاص ، وشجعه على ذلك أقوال العامة . فالتبعة واقعة على عبد اللطيف البغدادى لا على ابن القفطى وأبى الفرج ، إذا فرض أن عبد اللطيف هو أول من ذكر هذه المسألة التى لم ترد فى تواريخ المتقدمين كابن عبد الحكم (+ ٢٥٧ هـ) والبلاذرى (+ ٢٩٠ هـ) واليعقوبى (+ ٢٩٢ هـ) والطبرى (+ ٣١٠ هـ) والكندى (+ ٣٥٠ هـ) ، ولا عمن أخـــذ عنهم من المتأخرين كابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ) والمقريزى (+ ٨٤٥ هـ) وأبى المحاسن (+ ٨٧٤ هـ) والسيوطى (+ ٩١١ هـ) . لذلك طرحت هذه الأقوال جانبا لأنها ليست قائمة على أساس متين .

آراء المؤرخين الذين قالوا بحرق العرب للمكتبة

وقد دلل المؤرخون الذين ذهبوا إلى القول بأن إحراق مكتبة الإسكندرية كان على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب :

١ — بأن المسلمين كانت لهم رغبة عظيمة فى محو كل كتاب غير القرآن والسنة .

٢ — وأنهم أحرقوا مكاتب الفرس عند فتحهم بلادهم كما ذكر ذلك حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون .

٣ — وأن هذه الرواية التى تثبت الحريق لم يروها أبو الفرج المتعصب فقط بل رواها أيضا مؤرخان مسلمان هما عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى .

وأن إحراق الكتب كان أمراً معروفا وشائعاً يتشفى به كل مخالف ممن خالفه فى رأيه .

وقد ذكروا أن عبد الله بن طاهر أتلف فى سنة ٢١٣ هـ كتبا فارسية من مؤلفات المجوس ، وحذا حذوه هولاكو التترى سنة ٦٥٦ هـ بإلقاء خزائن الكتب فى دجلة .

مناقشة هذه الآراء

أما الدليل الأول ، فغير مسلم به ، لأن المعروف من أخلاق المسلمين أنهم كانوا يشجعون العلم بدليل ماذكره أبوالفرج من أن عمرو ابن العاص كان يصغى إلى أقوال يوحنا النحوى ويعجب بها كل الاعجاب ويحله من أجلها من نفسه محل الاحترام والاجلال . ومن المعلوم أن هذه الآراء مسيحية . أضف إلى ذلك أن المسلمين بعد غزوة بدر كانوا يجعلون فداء من لم يجد مالا يفتدى به نفسه أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين ؛ وهذا منتهى التشجيع للعلم .

أما الدليل الثانى ، وهو أنهم أحرقوا مكتبة الفرس عند الفتح ، فلم نر من المؤرخين من ذكره إلا حاجى خليفة . ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه فى المسائل التاريخية الهامة ، لأنه كان متأخرا فى الزمن . فقد توفى سنة ١٠٦٧ ﻫ (١٦٥٧ م) . فلو أن المسلمين أحرقوا هذه المكاتب لذكر ذلك المؤرخون الذين تقدموا حاجى خليفة .

أما الدليل الثالث ، وهو أن أبا الفرج لم يرو هذه الرواية وحده بل رواها أيضا عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى وهما مؤرخان اسلاميان عظيمان ، فيمكن دحضه بما أوردناه فى مناقشة أبى الفرج ، لأنهم عاشوا فى عصر واحد وروايتهم واحدة تقريبا . ولا يبعد أن يكونوا قد أخذوا عن مصدر ضائع معاد للعرب والاسلام .

وأما الدليل الرابع فلا يثبت دعواهم ، لأنه على فرض صحة هذه الرواية فان عبدالله بن طاهر كان متأخراً (٢١٣ ﻫ) ، ولا يؤخذ عمله حجة على عمر بن الخطاب المتوفى سنة ٢٣ ﻫ . هذا إلى أن عبدالله بن طاهر قد أحرق هذه الكتب لأنها من كتب المجوس عباد النار ، وفرق بين الكتب المسيحية والمجوسية فى نظر المسلمين الذين يحترمون أهل الكتاب من النصارى واليهود لاتفاق الجميع على غاية واحدة هى

الاعتراف بالله قادر (قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، يَاأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (١) .

وقد أسهب المؤرخون فى تفنيد رواية أبى الفرج . ومنهم جبون وبطلر وسديو وغيرهم ، وذكروا مايدل على أن عمرا وعمر بريئان مما نسب اليهما .

رواية أبى الفرج

وهاك رواية أبى الفرج عن كيفية حريق هذه المكتبة على يد عمرو بن العاص قال :

« كان فى وقت الفتح رجل اكتسب شهرة عظيمة عند المسلمين يسمى يوحنا النحوى ، كان قسيساً قبطياً من أهل الاسكندرية ؛ وفى هذا الزمان اشتهر بين الاسلاميين بيحيى المعروف عندنا (بغرماطيقوس) أى النحوى . وكان اسكندريا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ويشيد عقيدة (ساورى) ، ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث . فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه ؛ فلم يرجع فأسقطوه من منزلته ، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية . ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم ، فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسة ماهاله ففتن به . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر ، فلازمه وكان لايفارقه . ثم قال له يحيى يوماً : إنك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأشياء الموجودة بها . فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به . فقال له عمرو : وما الذى تحتاج اليه ؟ قال : كتب الحكمة التى فى خزائن الملوكية . فقال له عمرو :

(١) سورة آل عمران ٣ : ٦٤

لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها مايوافق كتاب الله ، ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها مايخالف كتاب الله ، فلا حاجة إليه ؛ فتقدم باعدامها . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها ؛ فاستنفدت في ستة أشهر ، فاسمع ماجرى وأعجب ! » .

وهذا ما يستنتج من أقوال المؤرخين :

خلاصة أقوال المؤرخين

١ ـ إذا تأملنا رواية أبي الفرج نجدها بالخرافة أشبه . فقد ذكر فيها أن كتب المكتبة كفت أربعة آلاف حمام ستة شهور . وهذا غير معقول فضلا عن أن عمرا لو قصد تدمير المكتبة لأحرقها في الحال ولم يتركها تحت رحمة أصحاب الحمامات ، والا لتمكن يوحنا الذي بنى أبو الفرج روايته عليه من أخذ ما يلزم من الكتب بثمن بخس .

٢ ـ ذكر « بطلر » أن يوحنا هذا قد مات قبل استيلاء العرب على الاسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة . وان صح هذا كان معناه دحض بعض ما جاء بهذه الرواية خاصا بيوحنا النحوي . واذا تنهدم الرواية والحادثة من أولها الى آخرها .

٣ ـ إن روايات عبد اللطيف وابن القفطي وأبي الفرج ظهرت بعد ستة قرون من وقوع هذه الحادثة . فلو سلمنا جدلا بصحتها لما مر عليها مؤرخان شهيران تقدما عبد اللطيف وأبا الفرج : وهما أوتيخا المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ويوحنا أسقف نقيوس من غير أن يتعرضا لها ، وتاريخهما عن مصر من أهم المصادر التي يعتمد عليها ، فضلا عن أنه لم يذكر هذا الخبر أحد من المتقدمين كابن عبد الحكم والبلاذري واليعقوبي والطبري ، حتى جاء عبد اللطيف وابن القفطي وأبو الفرج في

القرن السابع للهجرة (الثالث عشر الميلادى) فذكروها . فلو أنها حقيقية لتعرض لها هؤلاء المتقدمون .

٤ ـ إن هذه المكتبة قد أصابها الحريق مرتين : الأولى سنة ٤٨ ق . م على أثر حرق أسطول يوليوس قيصر : وفى ذلك يقول المؤرخ الرومانى بلوتارك Plutarck : «بينما كان الأعداء يستولون على أسطوله اضطر (يوليوس قيصر) أن يردهم بالنار فاندلع لهيبها من الحياض وأتلف المكتبة » . وقد ذكر ذلك كثير من المؤرخين . وعلى هذا فالمكتبة الكبرى أحرقت سنة ٤٨ ق . م ، والثانية فى عهد القيصر تيودوسيس (٣٧٨ ـ ٣٩٥ م) سنة ٣٩١ م .

٥ ـ إن قول أورازيوس Orasius انه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته لمدينة الاسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى يثبت عدم وجود هذه المكتبة قبل استيلاء العرب على الاسكندرية . وعلى ذلك فان الكتب التى كانت بالمكتبة من عهد البطالسة لم يبق لها أثر منذ أواخر القرن الرابع الميلادى ، أى منذ عهد الامبراطور تيودوسيس . ومن المعلوم أن حالة مصر قبيل الفتح الاسلامى ـ أى منذ أيام دقلديانوس ـ كانت (على ماسبق) حالة تأخر فى الزراعة والصناعة والعلوم والمعارف والآداب . فمن البعيد اذا أن يهتم الناس باعادة هذه المكتبة الى عهدها الأول .

٦ ـ إن التعاليم الاسلامية تخالف رواية أبى الفرج (وعبداللطيف) ، لأنها ترمى الى عدم التعرض للكتب الدينية ـ اليهودية والنصرانية ـ وكذا غيرها ، لأنه يجوز أن ينتفع بها المسلمون . ومن هنا يتضح أن هذه الرواية منافية لأخلاق العرب ، وقد عرف عنهم أنهم كانوا لا يتعرضون لما فيه ذكر الله .

٧ ـ وإذ ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل سيرابيس ، فمن المعقول أن النيران قد التهمت ما فيه من الكتب فلم تبق عليها ولم تذر .

٨ ـ وفى غضون القرن الخامس والسادس والسابع الميلادى ، أى بعد حريق هذه المكتبة ، لم يرد لها ذكر فى الآداب . ومن المعلوم أن حالة مصر قبيل الفتح الاسلامى ، أى منذ أيام دقلديانوس ، كانت ـ على ما سبق ـ حالة تأخر فى الزراعة والصناعة والعلوم والمعارف والآداب . فغير محتمل اذاً أن يهتم الناس باعادة هذه المكتبة الى عهدها الأول .

فرصة الهدنة

٩ ـ ولو فرضنا أن المكتبة بقيت الى الفتح الاسلامى فلم يكن هناك مايمنع من نقلها على يد الرومان الى القسطنطينية أثناء الهدنة. وقد أجازلهم عمرو فى عهد الصلح أن يحملوا كل مايقدرون عليه . ولديهم من الوقت ووسائل النقل ما يمكنهم من نقل مكاتب لا مكتبة واحدة ، كما أنه لا يعقل أن يحارب العرب العلم مع ما كان من فكهم الأسير إذا علم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

عدم تحرى الحقائق

١٠ ـ وأيضا فإنه لا يمكن الأخذ برواية أبى الفرج على هذه الصورة التى تظهر فيها المبالغة والتلفيق لاحتمال أن يكون متعصبا للنصرانية . وأما عبد اللطيف فانه ذكر هذه المسألة عرضا وبدون تحقيق عند كلامه على عمود السوارى .

فالقول إذاً بأن إحراق مكتبة الاسكندرية كان على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب محض افتراء وتضليل [1] .

صفات عمر :

كان عمر رضى الله تعالى عنه شديداً فى الحق ؛ فقد كان فى أيام شركه من أشد قريش وأخطرهم على المسلمين ، فلما أسلم كان أشد المسلمين مجاهرة برأيه ودفاعا عنه . قال ابن مسعود : « ما عُبد الله

(١) من أراد التوسع فليرجع الى كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٠٦ - ١١٨

في اسلامه — جهرة حتى أسلم عمر (١) » وكان من أقسى المسلمين في التنكيل بالمشركين وإيقاع العقوبة بهم . فقد قال للرسول حين استشاره في أسارى بدر « إدفعهم إلينا يارسول الله فلنضرب أعناقهم » ، وفيهم أقاربه وأقارب أبي بكر ؛ بل كان فيهم أقارب الرسول وفروع بني هاشم ؛ وهو يقول للرسول في شأن صلح الحديبية : « ألست رسول الله ؟ وألسنا مسلمين؟ أليسوا كفارا ؟ » حتى إذا قال له الرسول : نعم ! قال له : وعلام نعطى الدّنية في ديننا ؟

وقد أشهر عمر سيفه وهدد بالقتل كل من قال إن محمدا قد مات .

في مشورته لأبي بكر — فلما تمت البيعة لأبي بكر على خلافة رسول الله وجلس عمر منه مجلس المشير كان صارماً في رأيه ، شديداً على من تأخر عن جماعة المسلمين في البيعة ، كذلك أشار على أبي بكر بقتل خالد بن الوليد في مالك بن نويرة حين علم بأن خالدا قد قتله بعد أن ثاب للاسلام واعترف به ؛ وقد أبى عليه ذلك أبو بكر وقال له إنه تأول فأخطأ . قال له عمر : فاعزله . فرفض أبو بكر وقال : ما كنت لأشيم سيفا سله الله على الكافرين (٢) . فلما ولى عمر الخلافة عزل خالداً عن قيادة الجيش .

في خلافته — وكانت شدة عمر في خلافته من أظهر ماامتاز به ، فكان إذا أمر بشيء أو نهى عنه بدأ ذلك بأهله ؛ فجمعهم وقال لهم : إني نهيت عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير (٣) . وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة .

الأئمة فوق الحكومة — وكان شديدا على ولاته يخشى أن يرهبوا الناس فيذلوا نفوسهم ويعلموهم الجبن ويطبعوهم على الصغار ؛ فكان يفتح صدره لأي شكاية

---

(١) ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ٤ ص ١٧٩

(٢) الطبري ج ٣ ص ٢٤٣

(٣) يقول الطبري ج ٥ ص ٢١ يعني الى اللحم وهو يقصد من ذلك أن الناس اذا رات من أهل الامير وحاشيته تهاونا في أمر اقتدوا بهم وأمعنوا في الاستهتار به .

فى أحد عماله ، فيعلن ذلك لعامة المسلمين فى خطبه[1] ، ويسأل الرعية إذا وفدت عليه فى مناسبات الحج أو غيرها عن حال أمرائهم وسيرتهم فيهم (٢) . وكان لا يولى عاملا إلا إذا كتب له عهدا وأشهد عليه رهطا من المهاجرين والأنصار واشترط عليه ألا يركب بِرْذَوْناً (حمارا) ولا يأكل نَقِيًّا ولا يلبس رقيقا ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس (٣) .

تفقده احوال الرعية بنفسه

والأخبار كثيرة فى أنه كان يجوس خلال دور المسلمين ويتفقد أحوال الرعية بنفسه ، (٤) ويطوف فى الأسواق وهو يقرأ القرآن ويقضى بين الناس حيث أدركه الخصوم . بل لقد عزم على الطواف فى الولايات الاسلامية للوقوف بنفسه على أحوال الرّعية فيها ، ولكن منيته قد حالت بينه وبين ما أراد (٥) .

---

(١) روى الطبرى أنه خطب الناس يوما فقال : أيها الناس ! انى والله ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم (جلودكم) ولا ليأخذوا أعشاركم (أموالكم) ؛ ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم ؛ فمن فعل به شيء سوى ذلك ، فليرفعه الى فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص اذ ذاك بعد هذا التصريح الخطير الذى أعلنه عمر على عامة الشعب وجمهوره وقال: أرأيتك يا أمير المؤمنين ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعية ، فأدب بعض رعيته انك لتقصنه ؟ قال عمر : أى والذى نفس عمر بيده اذاً لاقصنه . وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟ . ثم بين لعمرو ما يخشاه على الرعية من عنف الامراء وظلم الولاة ، فقال : ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم (أى لاتتركوا الجنود فى مواقعهم ازاء العدو أمداً طويلا) فتفتنوهم ، ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفروهم . (ج ٥ ص ٢٠) . ولن يغيب عن القارىء ما فعله عمر بولد عمرو بن العاص وجبلة بن الايهم حين حكم بالقصاص من كل منهم لواحد من السوقة .

(٢) عن الأسود بن أبى يزيد قال : كان الوفد اذا قدموا على عمر رضى الله تعالى عنه سألهم عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ . فيقولون : نعم! . فيقول هل يعود العبد ؟ فيقولون : نعم ! فيقول : كيف صنيعه بالضعيف ؟ هل يجلس على بابه ؟ فان قالوا لخصلة منها : لا عزله (الطبرى ج ٥ ص ٣٢)

(٣) (الطبرى ج ٥ ص ٢١)

(٤) (الطبرى ج ٥ ص ٢٠) ولذلك وصفه فون كريمر بأنه كان Policeman

(٥) ذكر الطبرى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولا فانى أعلم أن الناس حوائج تقطع دونى ، أما عمالهم فلا يرفعونها الى ،

محافظته على أموال المسلمين

وكما كان عمر حريصا على كرامة المسلمين وعزة نفوسهم يحميهم وينتصف لهم من عدوان الولاة والأرستقراطيين منهم ، كان كذلك أحرص الناس على أموال المسلمين ومصالحهم . فكثيرا ما كان يرى وهو يدهن إبل الصَّدقة[1] بالقار أو يطردها ليدخلها حظائرها فى يوم شديد الحر شديد السَّمُوم . وقد قام على بن أبى طالب يوما على رأس عثمان وهما فى الظل يملى عليه مايقول عمر ، وقدلفَّ على رأسه بُرْدا يتقى به حرارة الشمس ، وجعل يعد الابل ويحصيها ويملى عليهم ذلك حتى قال على لعثمان : « نَعَتُ بنت شعيب فى كتاب الله (ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) » ، ثم أشار إلى عمر فقال : « هذا هو القوى الأمين [2] » . روى عن أسلم أنه قال : « إن عمر بعثه مرة بابل من إبل الصَّدقة إلى الحمى ، فوضع رحْلهُ على ناقة منها ؛ فلما رأى عمر أنه قد وضع رحله على ناقة من الابل حسناء قال له : لا أم لك ، عمدت إلى ناقة تغنى أهل بيت من المسلمين . فهلا ابن لبون بوالا أو ناقة شصوصا [3] ؟

ولكنه مال المسلمين

وقد استقرضته هند بنت عتبة وزوجة أبى سفيان وأم معاوية ابن أبى سفيان أربعة آلاف درهم تتجر فيها على أن تضمنها فأعطاها . فلما عادت شكت الوضيعة [4] ، فقال لها عمر : لو كان مالى لتركته ،

وأما هم فلا يصلونالى، فأسير الى الشام فأقيم فيها شهرين ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين . والله لنعم الحول هذا (ج ٥ ص ٢٣) .

(١) (الطبرى ج ٥ ص ٣٣) وابل الصدقة هى ابل كانت مملوكة لبيت المال تربى للتصدق بلبنها على فقراء المسلمين

(٢) الطبرى ج ٥ ص ١٨

(٣) الطبرى ج ٥ ص ١٨ . وابن اللبون هو الذكر من الابل الذى مضى عليه أكثر من عام ، والبوال كثير البول والشصوص التى لا لبن لها

(٤) وضع فى تجارته (على صيغة المبنى للمجهول) ضعة وضعة — خسر والوضيعة الخسارة .

ولـكنه مال المسلمين . وهذه مشورة (صفقة) لم يغب عنها أبو سفيان . فبعث إليه فحبسه حتى وَفّتهُ . (١)

عدل عمر

وقد بلغ من عـدل عمر ان كان يحرص كل الحرص على دفع أعطيات المسـلمين إليهم فى مواعيدها لا فرق بين عامة وخاصة ، (٢) كما كان لا يُعفى أى انسان ـ مهما كانت منزلته مما يستحقه من العقوبة ، وأنه ما كانت تؤثر فى تصرفاته عواطفه الخاصة ونزعات قلبه . روى صاحب الفخرى أن عمر بن الخطاب قال لرجل : إنى لا أحبك . قال : فتنقصنى من حق شيئا ؟ . قال عمر : لا ! قال الرجل : فما يفرح بالحب بعد هذا إلا النساء . (٣)

تواضعه

وكان عمر متواضعاً رغم هذه الشدة التى عرفت عنه . ذكر هشام الـكلبى أن عمر بن الخطاب كان يحمل ديوان أعطيات خزاعة حتى ينزل قديداً ، فتأتيه خزاعة فى قديد فلا تغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن فى أيديهم ، ثم يروح فينزل عُسفان فيفعل مثل ذلك أيضا حتى توفى(٤) . وقد ظهر تواضع عمر فى ملبسه ومظهره عند ذهابه إلى الشام وعند مقابلته للهرمزان قائد الفرس الذى قصد اليه فى المدينة وما كاد يعرفه لبساطة ملبسه وعدم اعتداده بنفسه .

---

(١) قد تقدم القول عن حبسه أبا سفيان بن حرب (وهو من سادات قريش وزعمائها) حتى ردت زوجته هند قرضا أخذته من بيت مال المسلمين . وكذلك نرى عمر مع احترامه للأنصار واتباعه لوصية الرسول بهم يقول لساداتها وكبرائها ـ وقد اجتمعوا فى المسجد يتناشـــدون الأشعار التى قيلت فى هجاء قريش إبان البعثة ـ أرغاء كرغاء الابل ؟ وكذلك لم تمنعه منزلة سعد ابن عبادة فضله فى الاسلام من أن يقول له يوم السقيفة : قتل الله سعد بن عبادة انه منافق (وذلك لانه حاول أنه يأخذ الخلافة لنفسه) فلما بايع المسلمون أبا بكر تخلف عن جماعتهم .

(٢) أثر عنه أنه كان يقول . . . والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال (أموال الفىء) وهو فى مكانه (الطبرى ج ٥ ص ٢٣)

(٣) الفخرى ص ٣٧

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٢٣ .

غضبه لكرامة المنصب

وكان عمر مع تواضعه هذا يثور غضبه على من يجترىء على سلطان الله . أُتِىَ عمر يوما بمال فجعل يقسّمه بين الناس فازدحموا عليه ؛ فأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه ، فعلاه عمر بالدرة وقال : إنك أقبلت لاتهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك . (١)

اجتهاده وفتياه

وكان رضى الله تعالى عنه عالما بالقرآن وتأويله مجتهدا فى دين الله ذا رأى وفُتْيا . روى النَّووى عن ابن عمر أنه سئل من كان يفتى الناس فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر وعمر ، ماأعلم غيرهما (٢)

صراحته مع الرسول

وكان أكثر الصحابة شجاعة وجرأة . فكثيرا ما كان يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ عن التصرفات التى لم يدرك حكمتها .(٣) ولم يفارقه رأيه واجتهاده فى أى ظرف من حياته وعلى الأخص بعد موت الرّسول وانقطاع الوحى الالهى وحرمانهم من شخص الرسول الذى كان المرجع الأخير فى حل المشكلات وتوضيح المبهمات . رُوى عن عمران بن سَوَادة . قال : « صليْتُ الصبح مع عمر فقرأ سبحان (أى سورةالاسراء) وسورة معها ، ثم انصرف . وقمت معه فقال : « أحاجة ؟ » . قلت «حاجة » . قال : « فالحق » . فَلَحِقْتُ . فلما دخل أذن لى فإذا هو على سرير ليس فوقه شىء ؛ فقلت «نصيحة» .

مرحبا بالناصح

فقال « مرحباً بالناصح غُدُوا وعشيا » . قلت « عابت أمّتُك منك أربعا» ؛ فوضع رأس دِرّته فى ذقنه ، ووضع أسفلها على فخذه ثم قال : « هات ! » قلت « ذكروا أنك حرّمت العُمْرة فى أشهر الحج ولم يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر رضى الله تعالى عنه وهى

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٤

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ج ٢ ص ١٩٠

(٣) كما سأل رسول الله يوم الحديبية عن السبب فى قبول هذا الصلح .

رأيه واجتهاده في الدين

حلال » . قال « هى حلال . لو أنهم اعتمروا فى أشهر الحج رأوها مُجزية من حجهم ، فكانت قائبة ، قُوِّبَ عامها فقرع حجهم وهو بهاء من بهاء الله ، وقد أصبت». قلت « وذكروا أنك حرّمت متعة النساء ، وذكر له أشياء أخرى أتى بها عمر من غير أن يسبقه فى ذلك مثل أو قدوة من عهد الرسول أو أبى بكر ، فأجابه عمر عن كل منها وشرح له حكمتها والأسباب التى دعت اليها مما طمأن ابن سوادة وأزال شبهته (١)

فهمه لنفسية العرب

ومما يدل على نفاذ بصيرته وحسن تقديره للأمور ودقة فهمه لنفسية الشعب العربى ماقاله لعمران هذا فى آخر ذلك الحديث حينما شكا من نهره للرّعية وعنفه فى سياقها ؛ إذ شرع الدّرّة ثم مسحها حتى أتى على آخرها ثم قال : أنا زميل محمد ، فوالله إنى لأُرْتِعُ فأُشْبِع وأسقى فأروى وأنهز اللفوت وأزجر العروض وأذُبّ قدرى وأسوق خطوى وأضم العنُود وألحق القَطوف وأكثر الزّجر وأقل الضّرب وأشهر العصى وأدفع باليد . لولا ذلك لأعذرت (٢) . حتى لقد قال معاوية لما بلغه ذلك الكلام : كان والله عالما برعيته .

وقد وصف الأستاذ نيكلسن عمر بن الخطاب فى كتابه « تاريخ العرب الأدبى » فى هذه العبارة : « كان عمر ورعا متقشفا ، لا يخشى فى القيام بواجبه لومة لائم ، ولا يحابى فيه أحدا ، متحمساً للحق الى حد الصلابة رغم عطفه على الضعفاء ، كما كان قاضيا شديد النزاهة نحو غيره وبخاصة نحو نفسه : ولا غرو فقد ولد حاكما بطبيعته ورجلا فى كل خطوة من كل خطوات حياته» (٣)

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٢

(٢) يقصد عمر من ذلك أنه يهد للرعية جيع وسائل الراحة والطمأنينة . بالعدل وصيانة الحقوق ثم يضرب على أيدى المعتدين ويكف المفسدين ، وهو اذا قسا فى عقوبة شخص فانما يفعل ذلك ليزجر غيره عن الوقوع فى المعصية ؟ وهو رفيق برعيته يشهر عليهم العصا ليخيفهم حتى اذ اضطر الى ضربهم أو دفعهم دفعهم بيده .

(٣) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 189

منشآت عمر :

طبيعة أبى بكر تلائم عهده

مضت خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه وانشغل الناس فيها بحروب الردة ثم بحروب الفتح التى لم تؤت ثمارها إلا فى عهد عمر . وكأن الله قد ساق للمسلمين أبا بكر ليتمكنوا فى خلافته من هضم ما تلقوه عن الرسول الأمين . ولا غرو فقد استهل أبو بكر خلافته بقوله : «إنما أنا متبع ولست بمبتدع» ، حتى إذا اتسعت رقعة الاسلام من أثر الفتوح وآذنت الحال بالتغير ، فتعقد من الأمور ما كان بسيطا وجدَّ فيها مالم يسبق له مثال ، ساق الله إليهم عمر بن الخطاب وهو رجل تلك الساعة ؛ إذ لم تمنعه شدة تعلقه بالقرآن (١) ووقوفه عند أوامره ونواهيه واحترامه للرسول وصدقه فى صحبته من الاجتهاد برأيه وإنشاء ماتدعو إليه الضرورة وتقتضيه مصلحة الرعية .

عهد عمر يقتضى الانشاء

تنظيم شئون الدولة الاسلامية

فوجه عمر همه وأعمل رأيه واستهدى بصيرته فى تنظيم شئون دولته التى ترامت أطرافها ونشر العدل فى ربوعها . فأنشأ الدواوين ورتب لها العمال من الفرس والروم والقبط ، وقسم الولايات ومصر الأمصار ، وضرب الدراهم على النمط الفارسى وزاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله ، ووضع التاريخ الهجرى وأنشأ نظام الحسبة (٢) .

---

(١) أخرج عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين انا لما فتحنا المدائن اصبت كتابا فيه كلام معجب . قال : أمن كتاب الله ؟ . قال : لا ! فدعا عمر بالدرة فجعل يضربه بها ويقول (الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين) (سورة يوسف ١٢ : ١ - ٤) ، ثم قال له : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درس وذهب ما فيهما من العلم . (أشهر مشاهير الاسلام لرفيق بك العظم ص ٤١٤) .

(٢) وهى الاشراف على الأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل منعا للغش والمحافظة على الآداب العامة ومراقبة تنظيف الطرق ومالى ذلك من الاعمال التى تقوم بها المجالس البلدية الآن .

وكان عمر أول من عيَّن القضاة وأقام دورا للضيافات وأدر عليها الأرزاق (١) ، كما أنه وسَّع مسجدى مكة والمدينة .

وفاة عمر

قتل عمر بن الخطاب على يد رجل من الموالى اسمه فيرون ويلقب بأبى لؤلؤة ، وهو غلام للمغيرة بن شعبة . قتله بخنجر له رأسان وضربه ست ضربات احداها تحت سرته وهى التى قتلته . وتوفى فى شهر ذى الحجة سنة ٢٣ هـ بعد أن ولى الخلافة عشر سنين وستة أشهر ، ومات وهو فى الثالثة والستين من عمره كما مات النبى وأبو بكر فى هذه السن أيضا . وإن مقتل عمر على يد رجل من الموالى الفرس يبين لنا مبلغ الاستياء والسخط الذى استولى على نفوس الفرس بعد زوال سلطانهم ودخولهم فى حوزة العرب .

عثمان بن عفان

٢٣ — ٣٥ هـ ؟ ٦٤٤ — ٦٥٦ م

نسبه

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن عبد شمس بن أمية بن عبد مناف بن قصى الأموى القرشى ، وأمه أرْوَى بنت كُرَيْز ابن ربيعة ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت توأمة لعبدالله أبى الرسول .

مولده وصفاته

ولد عثمان فى السنة الخامسة بعد ميلاد الرسول بخمس سنين (٢) ، واشتهر بالفقه والحياء والكرم . وكان لين العريكة كثير الاحسان والحلم .

(١) عن ابن سعد اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع ، ووضع فيما بين مكة والمدينة فى الطريق ما يصلح من ينقطع به . وفى بعض الروايات أنه فعل مثل ذلك فى الطريق بين الشام والحجاز .

(٢) وقيل انه ولد بعد عام الفيل بست سنين

« وكان لا يوقظ نائما من أهل بيته إلا أن يجده يقظان فيدعوه فيناوله وضوءه . وكان يصوم الدهر » (١)

إسلامه وبلاؤه فى الاسلام

وقد أسلم عثمان على يد أبى بكر ؛ وزوجه الرسول ابنته رُقَيَّة . فلما آذى مشركو قريش المسلمين ، كان عثمان من أوائل المهاجرين مع زوجته . فلما علم المهاجرون برضاء قريش عن الرسول عاد عثمان إلى مكة ، وهاجر مع الرسول إلى المدينة ، واشترك فى الغزوات إلا غزوة بدر لانشغاله بتمريض زوجته التى ماتت ودفنت فى اليوم الذى انتصر فيه المسلمون ، فعده الرسول من البدريين ، ثم زوجه ابنته الثانية أم كلثوم . ولهذا كان يلقب بذى النورين لزواجه بابنتى الرسول رقية ثم أم كلثوم التى توفيت فى السنة التاسعة من الهجرة .(٢)

بذله المال فى سبيل الاسلام

وقد استعان الرسول بعثمان فى كثير من أمور المسلمين . فقد كان سفيره لدى قريش . فلما ذاع نبأ قتلهم إياه بايع الرسول أصحابه بيعة الرضوان . وقد بذل عثمان كثيراً من ماله فى سبيل الاسلام . ولا غرو فقد كانت له اليد الطولى فى جيش العسرة الى تبوك ، فقد أمد المسلمين بتسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً وألف دينار ، كما اشترى بئر معونة من يهودى بعشرين ألف درهم وتصدق بها على المسلمين ، وحفر بئر رومة . وقد أثر عن الرسول أنه قال : من حفر بئر رومة فله الجنة .(٣)

روايته الحديث

وكان عثمان من رواة الحديث . يقول ابن حجر : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر وعمر ، كما روى عنه أولاده عمر ، وأبان ، وسعيد ، وابن عمه مروان بن الحكم ؛ ومن الصحابة ابن مسعود ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وزيد

---

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣ .
كان عثمان يصوم طوال أيام السنة عدا الأيام المكروهة ، وهى أيام العيدين ويوم الشك فى أول رمضان . (٢) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣

(٣) النووى : تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٣٢٢ ؟ صحيح البخارى ج ٤ ص ١٧٨
وقد أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل نبى رفيق . ورفيقى فى الجنة عثمان .

ابن ثابت ، وأبو هريرة وغيرهم ؛ ومن التابعين الأحنف بن قيس وسعيد ابن المسيب (١) . وقد ذكر النووى (٢) أنه روى لعثمان عن الرسول مائة حديث وستة وأربعون حديثا ، اتفق البخارى ومسلم على ثلاثة منها ، وانفرد البخارى بثمانية ومسلم بخمسة .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه كان عثمان لأبى بكر أمينا وكاتبا يستشيره فى مهام الأمور ، ولما قتل عمر كانت أغلبية الشورى فى جانبه .

وصفوة القول أن عثمان كان على ماوصف نفسه فى هذه الكلمات : « إن الله بعث محمداً بالحق نبيا . وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ، وآمنت بما بُعث به ؛ ثم هاجرت الهجرتين وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونلت صهر رسول الله ، وبايعته . فوالله ماعصيته ولا غششته حتى توفاه الله تعالى ، ثم أبو بكر مثله ثم عمر » .

قصة الشورى أو بيعة عثمان :

لما طعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه نفر من الصحابة فقالوا له : « ياأمير المؤمنين لو استخلفت » . قال : « من استخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته . فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ؛ ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته . فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إن سالما شديد الحب لله . فقال رجل أدلك عليه ؟ عبدالله بن عمر . فقال عمر : قاتلك الله ، والله ماأردتَ الله بهذا . لا إرب لنا فى أموركم . ماحمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى . بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى . وإن أنج كفافا لاوزر ولا أجر إنى لسعيد » . ثم قال : فان استخلف فقد استخلف

رفض عمر ان يستخلف

(١) ابن حجر ج ٤ ص ٣٢٣ (٢) تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٣٢٢

من هو خير منى (يعنى أبا بكر) وان أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم) . ولن يضيع الله دينه ، فخرجوا .

العودة الى الشورى وانتخاب الخليفة

وقد خشى أصحاب رسول الله أن يقضى عمر نحبه دون استخلاف . فذهبوا اليه مرة أخرى وقالوا : ياأمير المؤمنين لو عهدت عهدا ؟ فقال : عليكم بهؤلاء الرهط الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وقال فيهم إنهم من أهل الجنه : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام حوارى رسول الله وابن عمته ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبدالله بن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء . وأوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذى يقع عليه الاختيار من الفريق الذى فى صفه عبدالله بن عمر فى حالة تساوى الأصوات ، ثم قال : « فاذا وليتم واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه » (١) ثم دعاهم عمر وقال لهم « إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم . لا يكون هذا الأمر إلا فيكم . إنى لا أخاف الناس عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس . فاذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ؛ ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم . . ووضع لهم أساس الشورى وبين لهم مايجب أن يتبعوه .

موقف ابن عوف من المتنافسين

فلما مات عمر اجتمع هؤلاء النفر فى بيت المسور بن مخرمة إلا طلحة فانه كان غائبا . ولكن سرعان ماظهر فيهم التنافس ؛ فقال لهم أبو طلحة الأنصارى « أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها » (٢) ؛ ولكن عبد الرحمن بن عوف أخرج الناس من هذا المأزق واقترح عليهم اقتراحا يمنع هذا التنافس ؛ فقال لهم « أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ » فلم يجبه أحد ، فقال : فأنا أخلع منها نفسى » . فرضى القوم بذلك وعلى ساكت ؛ فقال له

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٥ ؟ ابن الاثير ج ٣ ص ٥٧ (٢) الطبرى ج ٥ ص ٦٣

« ما تقول يا أبا الحسن ؟ » ، قال « أعطنى موثقا لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم لرحمه ولا تألو الأمة » . فقال « أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغيَّر وأن ترضوا من اخترت لكم ، على ميثاق الله ألا أخص ذا رحم ولا آلو المسلمين » : فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله . ومن ثم أخذ عبد الرحمن يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشراف الناس فيمن يصح أن يختار خليفة من بين هؤلاء . فكان بعضهم يشير بعلى ، وفريق آخر فى جانب عثمان ؛ وكذلك استشار أصحابه ؛ فقال لعلى « لو لم يكن لك هذا الأمر فمن ترضى ؟ فقال : عثمان » ، وكذلك فعل مع الزبير وسعد ؛ فقالا : عثمان . ثم سأل عثمان ، فاشار بعلى . ومن هنا نجد أن استحقاق الخلافة انحصر فى على وعثمان ؛ إذ كانا محط أنظار الصحابة وأشراف المسلمين .

استشارته الصحابة والقواد والاشراف

ولما انتهى الأجل الذى ضربه عمر ؛ جاء عبد الرحمن – بعد أن طاف هذه الليالى يستأنس برأى الناس – وقت صلاة الصبح إلى المسجد حيث اجتمع بقية أصحابه ، وحضر من عداهم من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد . ولما ازدحم المسجد بالناس ، قام عبد الرحمن فقال : « أيها الناس ! إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم ، وقد علموا أميرهم . »

انقسام قريش

وهنا ظهرت بوادر الانقسام بين أنصار على وعثمان ؛ إذ قام عمار بن ياسر فقال : « ان أردت ألا يختلف الناس فبايع عليا » ، فقال المقداد ابن الأسود « صدق عمار · إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا » . فقام عبدالله بن أبى سرح وقال : « إن أردت الا تختلف قريش فبايع عثمان » . فقال عبدالله بن أبى ربيعة « صدق عبدالله إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا » ؛ فشتم عمار ابن أبى سرح وقال له : « متى كنت تنصح المسلمين » ؟

فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ؛ فقال عمار « أيها الناس ! إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيكم» ؟ فقال سعد بن أبى وقاص «ياعبدالرحمن ! افرغ قبل أن يفتتن الناس » . فقال عبد الرحمن . « إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا » ، ودعا عليا فقال له : «عليك عهدالله وميثاقه لتعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده». قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى » ، وسيرة الخليفتين من بعده . ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قال لعلى ؛ فقال نعم ! فبايعه ، وبذلك نال عثمان الخلافة ، فقال على لعبدالرحمن «لقد حَبَوْتَه حَبْوَ دهر ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ؛ فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون . والله ماوليت عثمان إلا ليرد الأمر اليك. والله كل يوم هو فى شأن[1]»

بنو هاشم وبنو أمية

ومن ثم نرى أن التنافس منذ ذلك الوقت ظهر بين عثمان وعلى ، أو بالأحرى بين بنى هاشم وبنى أمية ، لأن الخلافة انحصرت بينهما تقريبا ؛ إذ أن الناس كانوا لا يعدلون بهما أحداً غيرهما . وقد كاد الأمر يتم لعلى لولا أنه لم يتمشَّ مع عبدالرحمن بن عوف بأن يسير على ماسنه أبو بكر وعمر ، وأراد أن يعمل بمبلغ علمه ، فصُرفتْ عنه الخلافة إلى عثمان الذى رضى عن طيب خاطر أن يتبع سنة من كان قبله . وكان ذلك فى آخر شهر ذى الحجة سنة ٢٣ هـ .

العباس

اختير عثمان للخلافة ، فانقسم المسلمون إلى أمويين وهاشميين أو علويين . فقد كان على هو المقدم فى بنى هاشم لسبقه فى الدين وإخلاصه وتضحيته فى سبيل نصرة الدين ، ولأنه زوج فاطمة بنت رسول الله . أما العباس عم النبى فإنه لم يتطلع إلى الخلافة ، واكتفى بمساعدة علىّ . وكان

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٧ ؟ ابن الاثير ج ٣ ص ٣٠ - ٣١ .

من أثر ذلك الانقسام أن ظهرت الأحزاب كالشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرها من الأحزاب السياسية والدينية .

خطبة عثمان

وبعد أن بويع عثمان خطب الناس هذه الخطبة :

« إنكم فى دار قُلعة (١) ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ماتقدرون عليه . فلقد آتيتم صبحتم أو أمسيتم . ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . واعتبروا بمن مضى ، ثم جدّوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم .

أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا طويلا بها ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله ، واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلا ـ والذى هو خير ـ فقال عز وجل (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ . وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا . الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) (٢) » .

برنامجه السياسى

وهذه الخطبة لا تبين لنا السياسة التى عول عثمان على انتهاجها فى إدارة شئون دولته ، وإنما هى عبارة عن نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة . وكأن عثمان لا يريد أن يلزم نفسه بسياسة خاصة يطمئن اليها المسلمون وغيرهم من أهالى الدولة الاسلامية فى عهده . وقد يرجع سبب ذلك الى شيخوخة عثمان ، وما فطر عليه من اللين والتدين والتعلق بآثار السلف .

على أن عثمان سرعان ما تدارك هذا النقص ، فأرسل الى العمال والقواد وعمال الخراج وعامة المسلمين بالأمصار كتباً يحثهم فيها على الأخذ بالمعروف والنهى عن المنكر والعطف على أهل الذمة وجباية

---

(١) بضم القاف وتسكين اللام أو ضمها أو فتحها . أى دار انقلاع ليست بمستوطن .

(٢) سورة الكهف ١٨ : ٤٥ الطبرى ج ٥ ص ٤٣

الخراج بالعدل والانصاف ، ونصح عمال الخراج فى هذه الكلمات :
« أما بعد ! فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق به . والأمانة الأمانة قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم . الوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم » .

الفتوح فى عهد عثمان :

طبرستان

فتح فى عهد عثمان بلاد طبرستان (١) على يد سعيد بن العاص ؛ . وكان فى الجيش الحسن والحسين ابنا على (٢) ، وعبد الله بن العباس وعبدالله بن عمر ، وعمرو بن العاص ، والزبير بن العوام .

خراسان

وفى سنة ٣١ هـ انتقض على عثمان أهل خراسان ؛ فأرسل اليهم عبدالله بن عامر والى البصرة فى جيش كثيف ؛ فاشتبك مع أهالى هذه البلاد فى مرو وخوارزم وغيرهما ، وفتحها من جديد وصالحه أهالى بعض الجهات الأخرى كنيسابور وبلخ ؛ ثم عاد إلى البصرة .

الثغور

كذلك نشط عثمان فى الضرب على أيدى الثائرين فى سائر الولايات الاسلامية ؛ فجعل على الكوفة الوليد بن عقبة وأمده بأربعين ألف مقاتل للمحافظة على الثغور (٣) حتى لا يستولى عليها العدو ، واعادة أهلها إلى الطاعة إذا حدثتهم أنفسهم بالعصيان . وقد خصص والى الكوفة عشرة آلاف من جنده لغزو هذه الثغور مرة فى كل سنة (٤)

وقد انتقضت أذربيجان ومنعت الجزية التى فرضها عليها المسلمون ؛

---

(١) بلاد واسعة على ساحل بحر الخزر المسمى بحر قزوين وبحر طبرستان .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٢ .

(٣) ومن هذه الثغور الرى وأذربيجان .

(٤) كان يشترك جند الكوفة فى هذه الحروب مرة فى كل أربع سنين .

فغزاها الوليد وأرغمها على دفع الجزية ؛ ولما خرج أهل أرمينية عن طاعة المسلمين سير اليهم الوليد جيشا شتت شملهم .

بلاد الخزر

وفى سنة ٣٢ هـ أغزّ عبدالرحمن بن ربيعة السير فى بلاد الخزر(١) حتى وصل إلى بلنجر، وهى أكبر مدنهم وتقع خلف باب الأبواب ؛ ولكن الترك تجمعوا على المسلمين وهزموهم .

الشام وأرمينية

أما الشام فكان على ولايتها معاوية بن أبى سفيان منذ أيام عمر ؛ وقد أنشأ معاوية أسطولا حارب البيزنطيين حتى وصل الى عمورية فى آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتى قبرص وروس ؛ وفتح كثيرا من الحصون ، وسار إلى أرمينية حتى وصل إلى قاليقلا (٢) ، فصالحه أهلها ثم استمر فى فتوحه حتى وصل الى تفليس (٣) .

فتح إفريقية

وفى سنة ٢٦هـ فكر عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى غزو إفريقية ، واستأذن الخليفة عثمان ، فأذن له بعد أن استشار كبار الصحابة ، وأرسل اليه من المدينة جيشا يضم كثيرا من أعيان الصحابة .

أثر عبدالله بن الزبير فى هذا الفتح

سار هذا الجيش إلى إفريقية وانقطعت أخباره عن مركز الخلافة ؛ فأرسل عثمان عبدالله بن الزبير فى جماعة ليأتيه بأخبار الجند ، ولما وصل ابن الزبير إلى إفريقية لم ترقه الخطة التى سار عليها ابن أبى سرح فى قتال الأعداء ، إذ كان يقاتلهم كل يوم إلى وقت الظهيرة ثم يعود الجيشان إلى معسكرهما فى اليوم التالى . وانما أنكر ابن الزبير على ابن أبى سرح خطته هذه لما رأى فيها من إتاحة الفرصة للعدو للاستعداد . وأشار عليه بتقسيم جيش المسلمين إلى فرقتين : إحداهما

حيلة ابن الزبير

---

(١) وهى بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند .

(٢) قاليقلا أو كيلكيا أو كيلكايا هى البلاد التى فوق زاوية خليج اسكندرونة وتعرف عند العرب باسم قاليقيا .

(٣) مدينة بأرمينية كانت قصبة ناحية جرزان .

تسير لقتال العدو أول النهار ؛ بينما تأخذ الثانية قسطها من الراحة وتستعد لمباغتة العدو عند مايأوى إلى معسكره ؛ فنزل ابن أبى سرح عن قيادة الجيش لابن الزبير ؛ فتولى الجيش وشرع فى تنفيذ خطته . فلما حان الموعد المعهود لانصراف الجيشين استعدت الفرقة التى لم تخرج للحرب أول النهار وهجم بها على العدو الذى أنهكته الحرب فى أول النهار . وغشيهم فى خيامهم ؛ فهزمهم هزيمة منكرة وقتل ملكهم جرجير . وبذلك تم النصر للمسلمين . ولولا خطة ابن الزبير وحيلته لما أحرز المسلمون هذا النصر . وقد غنم المسلمون فى هذه الحرب مغانم كثيرة ، حتى قيل إن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار (١)

عود ابن الزبير الى المدينة

عاد ابن الزبير بالغنائم الى المدينة وأخبر عثمان بانتصار المسلمين وماغنموه من ذلك الفتح . فسر بذلك وطلب من ابن الزبير أن يخطب الناس ؛ فقال : ياأمير المؤمنين ! إنى أهيب لك منى لهم . فقام عثمان فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إن الله قد فتح عليكم إفريقية وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها إن شاء الله . وكان عبدالله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فقام يخطب الناس هذه الخطبة التى رواها لنا ابن عبدربه (٢) :

خطبة ابن الزبير عن فتح إفريقية

«الحمد لله الذى ألف بين قلوبنا وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذى لا يجحد نعماؤه ولا يزول ملكه . له الحمد كما حمد نفسه وكما هو أهله . انتخب محمدا صلى الله عليه وسلم فاختاره بعلمه ، وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا قذف فى قلوبهم تصديقه ومحبته ، فآمنوا

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٣٦ - ٣٧ ؟ البلاذرى ص ٢٣٤ ؟ الكندى ص ١٢

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ . وقد قيل انه أول من خطب الى جانب المنبر

به وعزّروه ووقّروه وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح والبيع الرابح ، وبقى منهم من بقى لا تأخذهم فى الله لومة لائم. أيها الناس! رحمكم الله ! إنا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنا مع وال حافظ حَفِظ وصية أمير المؤمنين، وكان يسير بنا الأبْرَدَيْن[1] ويخفض[2] بنا فى الظهائر ويتخذ الليل جملا يعجل الرحلة من المنزل الجدب ويطيل اللبث فى المنزل الخصب . فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا حتى انتهينا إلى إفريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورُغاء الابل وقعقعة السلاح؛ فأقمنا أياما نُجِم[3] كُراعنا[4] ونصلح سلاحنا، ثم دعوناهم إلى الاسلام والدخول فيه فابعدوا منه . فسألناهم الجزية عن صَغار أو الصلح ؛ فكانت هذه أبعد . فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأنّاهم وتختلف رسلنا اليهم . فلما يئس منهم قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد ومالصاحبه اذا صبر واحتسب، ثم نهضنا الى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك وصبر فيه الفريقان ؛ فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة . واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم . فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التى كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ؛ فأفرغ الله علينا صبره وأنزل علينا نصره . ففتحناها من آخر النهار ؛ فأصبنا غنائم كثيرة وفيئا واسعا بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف. نصفق عليها[5] مروان بن الحكم. فتركت المسلمين قد قرّت أعينهم وأغناهم النفل ، وأنا رسولهم الى أمير المؤمنين أبشره واياكم بما فتح الله من البلاد وأذل من الشرك ؛ فاحمدوا الله عباد الله على آلائه وما أحل بأعدائه من بأسه الذى لا يُرد عن القوم المجرمين . »

غزو بلاد النوبة

ثم وجه ابن أبى سرح همه إلى الجنوب ، فغزا بلاد النوبة من جديد ـ

---

(١) الغداة والعشى (٢) يقيم بنا (٣) نريح (٤) الكراع جماعة الخيل (٥) أغلق عليها أبواب الخزائن .

وكان عمرو قد غزاها من قبل - فبلغ دنقلة سنة ٣١ هـ وقاتل أهلها قتالا شديدا ولكنه لم يتمكن من فتحها ؛ فهادن أهلها وعقد معهم صلحا رواه البلاذري [١] والكندي [٢] وترجمه لينبول في كتابة تاريخ مصر في العصور الوسطى [٣] ؛ وهو أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة ، اشترط فيها أن تمد مصر بلاد النوبة بالحبوب والعدس على أن ترسل بلاد النوبة إلى مصر الرقيق ..

ومما يدل على شدة القتال بين العرب وأهل النوبة (الأساود) هذا البيت :

لم ترعيني مثل يوم دِمقُلة * والخيل تعدو بالدروع مُثقلة

موقعة السواري

وفي سنة ٣١ هـ نشب القتال بين ابن أبي سرح وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين في البحر الأبيض المتوسط على مقربة من الأسكندرية ؛ وكان النصر للعرب في هذه الحرب . وقد عرفت هذه الموقعة بموقعة السَّواري أو ذات السواري لكثرة سواري السفن التي اشتركت في المعركة ؛ حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة منها مائتان للمسلمين .

وقد ساعدت السفن التي استولى عليها العرب في هذه الموقعة على إنشاء أسطول مصري كان له أثر يذكر في المواقع البحرية التي دارت بين المسلمين والبيزنطيين في أيام الأمويين [٤]

الفتنة التي أدت الى قتل عثمان :

لين عثمان وسهولته

كان عثمان في السبعين من عمره حين آلت الخلافة إليه . وكان سهلا

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٤٥ — ٢٤٦

(٢) كتاب الولاة ص ١٢ — ١٣

(٣) Stanley Lane—Poole, History of Egypt in the Middle Ages, pp. 21 — 22.

(٤) أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٢٨ ؟ الطبري جـ ٥ ص ٧٠-٧١ .

لينا ؛ فلم يكن له حزم أبى بكر وعمر . تلك الصفة التى كان لابد منها لادارة دولة مترامية الأطراف كالدولة الاســـــلامية فى ذلك العهد ، وبخاصة فى دور انتقال العــرب من معيشة البساطة والزهـــــد إلى معيشه الغنى والاستمتاع بالأموال المتدفقة من البلاد المفتوحة .

ترحيب الناس بخلافة عثمان

ولقد استروح المسلمون واغتبطوا بخلافة عثمان لما وجدوا فيه من لين وتيسير بعد شدة عمر وتضييقه ؛ فقد سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها ، وترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون . كما بدأت الثروات التى تدفقت على المدينة ومكة تفعل فعلها فى نفوس العرب فتُغريهم بالاستمتاع بها استمتاعا دفع بعضهم إلى حياة البـذخ والترف ؛ فانتشر فى المدينـة بعض أنواع من اللهو [١] فاضطر عثمان إلى الضرب على أيدى أصحابها وكبح جماحهـم ونفى بعضهـم عن المدينة فتذمروا [٢] ، وتذمر ذووهم وذوو فريق من

بوادر الاستياء فى أهل المدينة

---

(١) قال الطبرى جـ ٥ ص ١٣٤ : أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا (أى كثرت الأموال) وانتهى وسع الناس (أى بلغوا من الثروة والترف النهاية) طيران الحمام (أى تطييره) والرمى على الجلاهقات (جمع جلاهق وهو البندق الذى يرمى به الطير) فاستعمل عليها عثمان رجلا من بنى ليث سنة ثمان (من خلافته) فقصها (أى قص الحمام) وكسر الجلاهقـات .

(٢) روى الطبرى جـ ٥ ص ١٣٧ أن عثمان لما عاقب كعب بن ذى الحبكة على لهوه ، غضب ونفر فى الذين نفروا فضرب معهم ثم نفى إلى الشام ، فقال فى ذلك :

لعمرى لئن طردتنى ما الى التى ٭ طمعت بها من سقطتى لسبيل
وان اغترابى فى البلاد وجفوتى ٭ وشتمى فى ذات الاله قليل
وان دعائى كل يوم وليـلة ٭ عليـــك بدنباوندكم لطويل

ولما عاقب ضابئ بن الحارث البرجمى بالحبس وظل فيـه حتى مات عثمان ، خرج ضابئ وهو يقول :

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى ٭ تركت على عثمان تبكى حلائله

وقد ذكر الطبرى أيضا أن نفرا اجتمعوا بالكوفة وفيهم الأشتر وزيد بن صوحان وكعب ابن ذى الحبكة وأبو زينب وأبو مورع ... فقالوا : والله لايرفع رأس مادام عثمان على الناس . فقال عمير بن ضابئ وكميل بن زياد نحن نقتله . فأما عمير فقـد رجع عن عزمه ، وأما كميل فانه

الصحابة كعبد الله بن مسعود وأبى ذر وعمار بن ياسر فقد روى السيوطى (١) أن بنى هذيل وبنى زُهرة حنقوا على عثمان لهناة (إساءة) كانت منه إلى صاحبهم عبد الله بن مَسْعود ، وكذلك غضب بنو غِفار وأحلافها لأبى ذر الغفارى، وبنو مخزوم الذين حنقوا على عثمان لما صنع بعمّار بن ياسر .

مظاهره والدعاية ضد عثمان

ومن ثَمَّ لا نعجب إذا رأينا هؤلاء يسارعون إلى إجابة دُعاة الثورة على عثمان فى الأقاليم . وكان ذوو قرباهم فى المدينة وما حولها أول من استاء من سياسة عثمان ؛ كما كانوا أكثر الناس مجاهرة بالتبرم من أعماله ونقدا لسياسته مما اضطر عثمان ـ وهو صحابى جليل وخليفة المسلمين ـ إلى تبريرها (٢) أمام جمهور المسلمين . فكان تبريره لبعضها كافيا لبيان صحتها واخلائه من المسئولية . ولكن الدعاية السيئة ضده كثيراً ما كانت تتغلب على حججه وأدلته ، وكان تبريره للبعض الآخر ضعيف الحجة (٣) لم يقنع شيوخ الصحابة ولم يخله من لومهم واعتراضهم عليه .

صدى هذه الدعاية وأثرها

جسر وحاول قتل عثمان لولا أن عثمان لكه ... الخ . وقال مالك بن عبد الله فى عثمان وكان من المسيرين :

مضت لابن أروى فى كيل ظلامة ، عفاها له والمستقيد يلام
ولو علم الفاروق ماأنت صانع ، نهى عنك نهياً ليس فيه كلام

(اروى اسم ام عثمان . والفاروق لقب عمر بن الخطاب)

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٠٦

(٢) كان مما عابوه على عثمان أنه حمى الحمى فأجابهم عنه بأن عمر قد اتخذه من قبله ولم يفعل هو إلا أن وسع هذا الحمى لما زادت ابل الصدقة .

وامتنع بعض المسلمين الذين يملكون أرضاً بجوار المسجد النبوى عن تسليمها اليه ليوسع بها المسجد ، فأخذها عنوة وقال : قد فعل ذلك عمر من قبلى .

(٣) قال عثمان حينما سئل عن بذخه وترفه وأكله ألين الطعام وشده أسنانه بالذهب ومقارنة ذلك بما كان يصنع عمر : يرحم الله عمر ومن يطيق ما كان عمر يطيق ، وقوله عن الأموال التى كان يغدقها على نفسه والأعوان من أهله وأقربائه على حين كان عمر يستغنى من بيت المال بالكفاف : كان هذا حقا لعمر وقد تركه وتبرع به للمسلمين وليس على من لا يتبرع بشىء من حقه لوم ولا تثريب . وكذلك كان موقفه من الولاة الذين عينهم من أقربائه ، فاستغاث منهم رعيتهم فلم يرد عنهم ولم يكفهم .

مآخذ على عثمان

وقد ذكر الطبرى والدينورى والسيوطى وغيرهم عدة أشياء استحدثها عثمان فى الدين ، ولم يُسبق بها فى عهد الرسول ولا فى عهد أبى بكر وعمر . فهو أول من أقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالأذان الأول يوم الجمعة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوّض إلى الناس إخراج زكاتهم . . . .

الحالة خارج المدينة

كان هذا فى داخل المدينة وهى حاضرة الدولة وقلبها النابض ؛ أما فى الولايات فقد وُجد إلى جانب هؤلاء المنفيين المتذمرين من عثمان الحانقين عليه طبقتان من الشعب هما : طبقة الأرستقراطيين أصحاب الثروات الضخمة ، وطبقة المقاتلين المتبرمين من فقرهم وحرمانهم .

الارستقراطية القرشية

أوجد الطبقة الأولى عثمان؛ فقد أباح لأعلام قريش - كما أسلفنا - أن يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور فى الولايات الاسلامية المفتوحة كالعراق والشام ومصر ، كما سمح لهم أن يستبدلوا بأملاكهم فى الحجاز أملاكا فى تلك الأمصار [(١)].

وقد تصدّى المسعودى لذكر نفر من هؤلاء الصحابة الذين رحلوا الى الولايات واستقروا بها فقال : « وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه

(١) قال الطبرى (جـ ٥ ص ١٣٤) : « كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان الا باذن وأجل . فشكوه فبلغه فقام فقال : ألا انى قد سننت الاسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعا ، ثم ثنيا ، ثم رباعيا ، ثم سديسا ، ثم بازلا (الجذع من الابل ما كان فى السنة الخامسة ، والثنى ما كان فى السادسة ، والرباعى (منقوص على وزن ثمانى) من الابل ما كان فى السابعة ، والسديس ما كان فى الثامنة ، والبازل ما كان فى التاسعة) . ألا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان ؟ ألا فان الاسلام قد بزل ، ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب فلا . انى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار . فلما ولى عثمان الخلافة لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر ، فانساحوا فى البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس ، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية فى الاسلام . فكان مغموما فى الناس وصاروا أوزاعا اليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك . فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع اليهم ، فكان ذلك أول وهن على الاسلام وأول فتنة كانت فى العامة ليس الا ذلك »

الزبير

الضياع والدور . منهم الزبير بن العوام . بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وابتنى أيضا دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية . وما ذكر من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول الى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ؛ وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة ، وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار . »

طلحة

« وكذلك طلحة بن عبيدالله التيمي ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت المعروفة بالكناس[1] بدار الطلحتين . وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار . وقيل أكثر من ذلك . وبناحية سراة (٢) أكثر مما ذكرنا . وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج

عبد الرحمن بن عوف

« وكذلك عبد الرحمن الزهري ابتنى داره ووسعها . وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم . وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانون ألفا .

سعد بن أبي وقاص

« وابتنى سعد داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات

زيد بن ثابت

« وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار .

---

(١) بكسر أوله موضع من بلاد غنى . عن أبي عبيد قال جرير :

لمن الديار كأنها لم تحلل ٭ بين الكناس وبين طلح الأعزل

والكناسة بالضم هي محلة بالكوفة قتل فيها زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي .

(٢) السراة سلسلة جبال تمتد من عرفة (قرب مكة) الى صنعاء في الجنوب . يسكنها قوم من الازد يقال لهم ازد السراة . وهي جبال النوائية تتخللها أخاديد وتنبت فيها الكروم وقصب السكر والقرظ .

المقداد بن الأسود

«وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف ، وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن

يعلى بن أمية

«ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار » .

ثم يقول المسعودى : وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال فى أيامه (عثمان) . ولم يكن من ذلك فى عصر عمر ابن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة . (١)

وفى ذلك يقول الطبرى (٢) : فى مدينة الكوفة جمعت الأسرات البارزة مبالغ ضخمة مما كانت تدره عليهم الغنائم والأعطيات السنوية ، حتى ان كوفيا رحل الى الحرب ومعه أكثر من ألف جمل لحمل حاشيته ومتاعه

أول وهن دخل الاسلام

خرج هؤلاء السادة من المهاجرين والأنصار الى تلك الأقاليم النائية عن الحجاز وأنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ولحمتها السبق فى الاسلام وصحبة الرسول . وإنا لنستطيع من تلك الثروات — التى وصف لنا المسعودى بعضها — أن نتصور عدد من يحيطون بهذه الشخصيات الغنية ذات الزعامة الدينية ويلتفون حولهم معجبين بأخلاقهم ومحامدهم ، مأخوذين بأحاديثهم عن مواقفهم المجيدة وحسن بلائهم فى نصرة النبى على أعدائه المشركين ، ومفتونين بما يفيضه عليهم هؤلاء الأغنياء من هبات وأعطيات ، حتى أصبح كل فريق منهم يتمنى أن تصير الخلافة فى يد صاحبه

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٤

(٢) طبعة دى غويه ٢ : ٨٠٦

ومن بين هؤلاء الأشياع والأتباع نفر كان يتمنى أن يليَ الخلافة صاحبهم لتكون لهم الحظوة عنده ، فتعظُم مكانتهم ويعلو مقامهم .(١) وان اختلاف الوفود ـ التي أتت من الولايات الاسلامية لخلع عثمان ـ على من تُوليه خلفا له ـ حتى قال أهل البصرة نُولي الزبير وقال أهل الكوفة نولي طلحة . . . الخ ـ أكبر دليل على صحة هذا القول .

تذمر المقاتلة

كما وجـــد إلى جانب هذه الطبقة طبقة أخرى فقيرة معدمة أنشأها عمال عثمان باستئثارهم بالفيء والغنائم لأنفسهم وخزائن دولتهم وحرمانِ المقاتلة منها مدعين أن الفيء لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع اليه . فلما رأى هؤلاء المحاربون ـ وجُلُّهم من البدو ـ هذه الثروات الضخمة والأموال الكثيرة يستأثر بها الحكام والقواد من قريش ، ورأوا أنفسهم قد خرجوا من الصحراء يطلبون الغنى والمجد في ظلال السيوف فاحتكرتهما قريش لنفسها وحرمتهم حتى من الأسلاب التي كانت تُعطى للمحارب في عهد الرسول ثم في عهد أبي بكر وعمر ،

حقدهم على سيادة قريش

حقدوا على قريش واعتبروها مغتصبة لحقوقهم ، وتمنوا الخلاص من سيادتها وحكومتها . لذلك لانعجب إذا أعلن المقاتلةُ من العرب بأن أموال الفيء والغنائم إنما هي لهم وليست للحكومة ، وأن المال مال المسلمين وليس مال الله .

---

(١) روى الطبري ج ٥ ص ١٣٤ عن محمد وطلحة قالا . . . فلما ولي عثمان لم يأخذ الناس بالذي كان يأخذهم به عمر ، فانساحوا في البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولامزية في الاسلام ، فكان مغموما وصاروا أوزاعاً اليهم وأملوهم وتقدموا في ذلك (أي واندفعوا في هذا التأميل وبالغوا فيه) فقالوا : يملكون (أي أنهم تمنوا أن يملك صاحبهم ويلي الخلافة) فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم . فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة . وفي رواية أخرى للطبري عن محمد وطلحة أيضا قالا : لم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا في الأمصار وانقطع اليهم الناس وثبتوا سبع سنين ، كل قوم يحبون أن يلي صاحبهم . فاستطالوا عمر عثمان

تهيؤ النفوس للثورة

من هذا كله يتبين أن حال الدولة الاسلامية قد تغيرت تماما فى عهد عثمان ، وأن هذا التغير قد أثار روح المعارضة لسياسة الحكومة والإستياء من تصرفاتها وبعث على التمرد عليها فى المدينة وفى جميع الأمصار . فكان هذا الجو ملائما تمام الملاءمة ومهيئاً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ ومن لف لفه والتأثر بها الى أبعد حد .

أبو ذر

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابى قديم اشتهر بالورع والتقوى ـ وكان من كبار أئمة الحديث ـ وهو أبو ذر الغفارى[1] الذى تحدى سياسة عثمان ومعاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبدالله ابن سبأ ، وكان يهوديا فأسلم ، ثم أخذ يتنقل فى البلاد الاسلامية ؛ فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة والشام ومصر .

ابن سبأ رأس الفتنة

وقد وفد ابن سبأ إلى الشام وحرض أبا ذر على معاوية وقال له : يا أبا ذر ! ألا تعجب الى معاوية يقول المال مال الله ؟ ألا إن كل شيء لله . كأنه يريد أن يحتجنه[2] دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين[3] ، (أى من ديوان العطاء) .

نشاط أبى ذر

لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا ذر يعلن استياءه من سياسة معاوية ، ويحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الاقلاع عن ادخار الأموال وكنزها ، محتجا بقوله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)[4] كما لا نعجب أيضا إذا ألفينا الفقراء يلتفون حوله ويسيئون الى الأغنياء

---

(١) كان أبو ذر من أهل الصفة (انظر ص ١٢٨) ولا يبعد أن يكون لهذا أثر فى ميوله الاشتراكية (٢) احتجن المال أى ضمه واحتواه .

(٣) الطبرى (١ : ٢٨٥٩) (٤) سورة التوبة ٩ : ٢٤

حتى شكوا ذلك الى معاوية . فلما رفع معاوية الأمر إلى عثمان ، أيقن أن الفتنة قد أخرجت خَطْمها [١] وعينها .

تسيير أبي ذر الى المدينة

وقد بعث عثمان فى طلب أبى ذر الذى آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه السياسة . وكأن أبا ذر قد تنبأ بتلك الثورة التى ذهب عثمان ضحيتها [٢] . ولما دخل المدينة ووجد المجتمعات تعقد بها للتآمر على عثمان ، نادى فى المجتمعين : « بَشِّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مِذكار » .

نفيه الى الربذة

وقد أذن عثمان لأبى ذر بالاقامة فى الرَبَذَة ؛ وهى قرية صغيرة على مقربة من المدينة — أو نفاه إليها على ما ذهب اليه ابن هشام [٣] والخُوارَزمى [٤] — ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات سنة ٣١ هـ وهو كاره لها .

---

(١) الخطم معناه مقدم الانف والفم من الدابة ، والمراد هنا بدأت أوائل الفتنة

(٢) الطبرى (١ : ٢٨٥٩)

(٣) سيرة ابن هشام (طبعة أوربا) ٢ : ٩٧١

(٤) رسائل الخوارزمى ص ١٣١ ؟ ومروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٤٣٨

ذكر المسعودى (مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٩) أن على بن أبى طالب « مضى مع أبى ذر فشيعه ثم ودعه وانصرف . فلما أراد على الانصراف بكى أبو ذر وقال : رحمكم الله أهل البيت . اذا رأيتك ياأبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فشكا مروان الى عثمان مافعل به على بن أبى طالب . فقال عثمان : يامعشر المسلمين ! من يعذرنى من على ؟ رد رسولى عما وجهته له ، وفعل كذا وكذا . والله لنعطينه حقه . فلما رجع على استقبله الناس ، فقالوا ان أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر . فقال على : غضب الخيل على اللجم ، ثم جاء ، فلما كان بالعشى جاء الى عثمان فقال له : ماحملك على ماصنعت بمروان واجترأت على ورددت رسولى وأمرى ؟ قال :

أما مروان فانه استقبلنى يردنى فرددته عن ردى ، وأما أمرك فلم أرده . قال عثمان : أو لم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشييعه ؟ فقال على : أو كل ما أمرتنا به من شىء يرى طاعة لله والحق فى خلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ بالله لانفعل . قال عثمان : أقد مروان ؟ قال : وما أقيده ! قال : ضربت بين أذنى راحلته . قال على : أما راحلتى فهى تلك فان أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل . وأما أنا فوالله لئن شتمنى لاشتمنك أنت مثلها

هذا ، ولقد وجد ابن سبأ ـ وهو أول من حرض الناس على كره عثمان ـ الطريق ممهدة أمامه لخلعه . ولسنا نشك فى حسن نية أبى ذر ، وما كان من أمر استيائه من عثمان ومن سياسته . فقد كان مصدر استيائه ما كان يعتقده فى عثمان من هوادة فى الدين وتهاون فى أحكامه ، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ .

مطاردة الولاة لابن سبأ

وقد صادفت دعوة ابن سبأ فى البصرة مرعى خصيبا ؛ بيد أن عبد الله بن عامر والى عثمان طرده من هذه البلاد ، فرحل الى الكوفة ، حيث [1] تفاقم استياء الناس من عثمان وواليه ، ومن قريش الذين استولوا على أرض السواد [2] واتخذوه بستانا لهم ، وواصل الثائرون الاجتماعات فى منازلهم ، ولُعن عثمان جهاراً ، وخاض الناس فيما ارتكب من عظائم الأمور [3] .

بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقاً . قال عثمان : ولم لا يشتمك اذا شتمته ؟ فوالله ما أنت عندى بأفضل منه . فغضب على بن أبى طالب وقال : ألا تقول هذا القول ومروان تعدلنى ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وامى أفضل من أمك ، وهذه نبلى قد نثلتها ، وهلم فأقبل بنبلك . فغضب عثمان واحمر وجهه ، فقام ودخل داره ، وانصرف على فاجتمع اليه أهل بيته ورجال من المهاجرين والانصار . فلما كان من الغد ، واجتمع الناس الى عثمان ، شكا اليهم علياً وقال انه يعيبنى ويظاهر من يعيبنى ـ يريد بذلك أباذر وعمار بن ياسر وغيرهما ـ فدخل الناس بينهما ، وقال له على : والله ما أردت تشييع أبى ذر الا لله » .

(١) (الطبرى ١ : ٢٩٢٢) يقول هذا المؤرخ إن هذا كان بعد ولاية ابن عامر بثلاث سنين وان توليته كانت سنة ٢٩ هـ (١ : ٢٨٢١) ، وعلى ذلك يكون إبعاد ابن سبأ سنة ٣٢ هـ (١ : ٢٩٢٢) .

(٢) موضعان أحدهما نواحى البلقاء ، سميت السواد لسواد حجارتها والثانى يراد به رستاق العراق وضياعها التى افتتحها المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب . سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والاشجار ، لانه حين تاخم جزيرة العرب التى لازرع فيها ولا شجر ، كانوا اذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع والاشجار فيسمونه سوادا كما اذا رأيت شيئا من بعد قلت ما ذلك السواد ؟ وهم يسمون الاخضر سوادا والسواد أخضر ـ أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) الطبرى (١ : ٢٩١٦) وما يتبعها من الحوادث سنة ٣٢ هـ .

ابن سبأ فى مصر

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضا ؛ فقصد الشام ، فلم يلق من أهلها ما لقى فى البصرة والكوفة ، فرحل الى مصر حيث أخذ ينشر دعوته التى ألبسها لباس الدين . واتصل بالثائرين فى البصرة والكوفة ، وتبادل معهم الكتب والرسل[1] ؛ وبعث الدعاة إلى هذه البلاد يدعون لعلىّ ؛ واستطاع أن يؤثر فى نفوس الناس : فوضع مذهب الرجعة أى رجعة محمد ، ثم نشر مذهب الوصاية ، بمعنى أن علياً وصى محمد ، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين . واتهم أبا بكر وعمر وعثمان بالتعدى على حق على فى الخلافة . كما روج بين المسلمين نظرية الحق الالهى التى أخذها عن الفرس الذين احتلوا قبل الاسلام بلاد اليمن موطنه الأصلى ؛ بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبى ، وأنه يستمد الحكم من الله .

تطور دعوته

وبذلك هيأ ابن سبأ العقول الى الاعتقاد بأن عثمان اغتصب الخلافة من علىّ وصىّ رسول الله . وأخذ يؤلب الناس على عثمان وعلى ولاته ، فقال لهم « إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق . وهذا علىّ وصىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر (٢) » .

نجاح الدعوة فى مصر

وقد سهل على ابن سبأ تنفيذ سياسته فى مصر اشتداد سخط أهلها على عثمان وعلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح عامله على مصر ومن ذوى قرباه . كما ساعد انضمام محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر على إذكاء نيران السخط فى مصر ونجاح ابن سبأ فى سياسته .

محمد بن أبى بكر

ويرجع سبب انضمام محمد بن أبى بكر الى ما كان من صلة النسب بينه وبين علىّ بن أبى طالب وابنه الحسين بن علىّ ؛ فقد تزوج علىّ

---

(١) الطبرى (١ : ٢٩٢٢) .

(٢) الطبرى (١ : ٢٩٤٢) .

بأسماء بنت عُمَيس أم محمد بن أبى بكر بعد وفاة أبيه ، فكان ابن أبى بكر ربيبا فى بيت علىّ ؛ ولأن الحسين بن على ومحمد بن أبى بكر كانا زوجَين لابنتى يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان من الفرس ، ولأن كتاب مروان بن الحكم قد كتب الى ابن أبى سرح بقتل محمد بن أبى بكر والمثلة به وبمن معه من المهاجرين والأنصار .

ابن أبى حذيفة

وأما مسلك ابن أبى حذيفة العدائى لعثمان فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبى سرح فى غزوة السَّوارى التى نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣١ هـ على ما تقدم [١] .

ولما وضعت الحرب أوزارها ، رجع هو ومحمد بن أبى بكر إلى الفسطاط حيث انضما إلى ابن سبأ [٢] . وقد ذكر المقريزى السببَ الذى حدا بابن أبى حذيفة أن يسلك هذا المسلك العدائى نحو عثمان فقال : إن ابن أبى حذيفة تربى فى كنف عثمان بعد وفاة أبيه ؛ فلما ولى عثمان الخلافة ، طلب اليه أن يوليه بعض أمور المسلمين ؛ فأبى ذلك عليه ، إذ نمى إليه أنه شرب الخمر ، فقال له : « لو كنتَ رِضاً لوليتك ، ولكنك لست هناك » . [٣]

رسل عثمان الى الأمصار

وقد أصبحت الحالة فى البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطرت عثمان إلى ندب أربعة من رجاله ليبحثوا عن أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال فى الولايات الاسلامية ، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة . وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله

---

(١) اختلف محمد بن أبى حذيفة مع عبد الله بن سعد بن أبى سرح على التكبير فى الصلاة حين صلى ابن أبى سرح العصر بالناس ، فرفع ابن أبى حذيفة صوته بالتكبير ، فنهاه ابن أبى سرح فلم ينته ، ولما أقيمت صلاة المغرب رفع صوته بالتكبير ثانية ، فنهره ابن أبى سرح وهم بطرده من جيشه . ومن ثم أخذ ابن أبى حذيفة فى اثارة الناس على عثمان وعلى ولاته .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٧٠ – ٧١ ، ١٣٥ .

(٣) المقفى الكبير للمقريزى ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الاول ، ورقة ٢٠٦ (أ)

ابن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وهو أحد أصحاب رسول الله ومن السابقين إلى الاسلام .

وقد عاد هؤلاء إلى الخليفة إلا عمار بن ياسر ؛ فقد استماله الثائرون فى مصر (١). وساعد على ذلك ما كان بين عثمان وعمار حيث أدّبه لقذف حصل بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب . ويبين لنا انضمام صحابى كبير كعمار إلى أصحاب هذه الدعوة مبلغ السخط الذى أثارته سياسة الضعف واللين التى سار عليها عثمان بن عفان .

تحقيق ابن سبأ برنامجه التهيدى

حقق ابن سبأ ما كان يرمى إليه من تأليب الولايات الاسلامية على عثمان وولاته وقد بلغت دعوته الغاية منها . وليس أدل على صحة هذا القول من انضمام كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه من أمثال محمد بن أبى حذيفة ، ومحمد بن أبى بكر ، وعمار بن ياسر .

دور العمل

ولا غرو فقد قام ابن أبى حذيفة بتنفيذ الخطة التى رسمها ابن سبأ . فكاتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة واتفقوا على الشخوص إلى المدينة (٢) ؛ وهو ما يمكن تسميته بدور العمل . وخرج كل منهم فى ستمائة رجل ، وتوافوا خارج المدينة حيث اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعد عثمان ، فمال أهل البصرة إلى الزبير ، وأهل الكوفة الى طلحة ، ورغب أهل مصر — وعلى رأسهم ابن سبأ — فى علىّ بن أبى طالب ؛ وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولمن وقع اختياره عليه دون غيره (٣) .

جهود عثمان لتلافى الانفجار

وقد أجاب عثمان وفد مصر إلى مطالبه ، فقفل راجعا . وبينا هم فى الطريق رأوا راكبا يتعرض لهم تارة ويفارقهم أخرى ؛ ففتشوه

---

(١) الطبرى ١ : ٢٩٤٣ و ٢٩٤٤ .
(٢) الطبرى (١ : ٢٩٥٠) .
(٣) الطبرى ١ : ٢٩٥٥

فاذا هو يحمل كتابا عن لسان عثمان وعليه خاتمه إلى عامله على مصر يأمره فيه أن يستأصل شأفة هذا النفر قتلا وتصليبا ؛ فعادوا إلى المدينة ودخلوا على عثمان ؛ فأغلظ الأيمان على أنه ما كتب ولا أمر بكتابة هذا الكتاب ولا علم له به . فطلبوا إليه أن يسلم اليهم مروان بن الحكم ؛ إذ قام عندهم الدليل على أنه هو الذى بعث بهذا الكتاب ، فأبى عثمان . فحاصروه اثنين وعشرين يوما ؛ فقام فريق من الصحابة يدافعون عنه ، فناشدهم الله أن يكفوا حتى لا يندلع لسان الفتنة ويتفاقم خطرها .

ولما وجد الثوار أن موسم الحج قد انتهى ، وأن المدد الذى طلبه عثمان من الولايات الاسلامية أوشك أن يباغتهم ، جدوا فى أمرهم واقتحموا عليه الدار بعد أن دار القتال بينهم وبين من تصدى للدفاع عنه كمحمد بن أبى بكر والحسن والحسين ابنى على وعبد الله بن الزبير (١) . وقد قتله الغافقى بحديدة كانت معه ؛ وجاء غيره ليضربه بسيفه فأكبت عليه زوجه نائلة وتلقت السيف عنه بيدها ؛ فقطع إصبعها . ثم ضربوا عنقه وانتهبوا بيته وبيت المال (٢) . وكان ذلك فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) . وتولى على بن أبى طالب الخلافة (فى الخامس والعشرين من هذا الشهر ؛ فكان ذلك أول فصول هذه المأساة وما أعقبها من تحزب العرب أحزابا ، مما أضعف الاسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقا .

قتل عثمان

---

(١) روى النووى (جـ ١ ص ٤٢٤) أن عثمان لما حوصر اشرف على المتآمرين وقال لهم : أنشدكم بالله ولا أنشد الا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . ألستم تعلمون أن رسول الله قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزته ؟ ألستم تعلمون أن رسول الله قال : من حفر بئر رومة فله الجنة فحفرتها ؟

(٢) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٤ .

كان عثمان فى الثمانين من عمره على ما ذكره ابن حجر وفى الثمانية والثمانين أو التسعين على ما ذكره النووى (تهذيب الاسماء واللغات ص ج ١ ص ٣٢٢)

الطبرى جـ ٥ ص ١٣٠ — ١٣٢ ؛ العقد الفريد جـ ٢ ص ٢١٦ ؛ المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٠٦ — ٣٠٧

موقف أهل المدينة

ويظهر لنا أن أهل المدينة قد تواكلوا فى الدفاع عن عثمان ، إذ يبعد كل البعد أن يعجزوا عن نصرته وصد تلك الفئة الباغية ، وهم الذين مرنوا على الحروب وبرهنوا فى مواقفهم مع رسول الله وأبى بكر وعمر عن شجاعة نادرة واستبسال فى الدفاع لا يزال مضرب الأمثال . فلو أنهم نشطوا للذود عن عثمان لما تمكن الثوار مع قلة عددهم من قتله والاستبداد بالأمر والتحكم فى المدينة ومن بها .

ولا شك أن كثيرا من علية القوم فى المدينة قد نقموا على عثمان إيثاره بنى أمية على غيرهم من جلة الصحابة . فنفضوا أيديهم من تلك الفتنة لما بلغ الهياج أشده ولم تجد نصائحهم نفعا . فظلوا يشاهدون تمثيل هذه الرواية المحزنة على بعد ، ظنا أن عثمان يخلع نفسه إذا اشتد عليه التضييق (١)

وقد رمى الأستاذ نيكلسون (٢) عليا بالهوادة فى نصرة عثمان وقعوده دون حمايته . على أننا لا نستطيع أن نأخذ بهذا الرأى . فقد ذكر الطبرى أن عليا كلم طلحة حين حصر عثمان فى أن يدخل عليه الروايا وغضب لذلك غضبا شديدا حتى دخلت الروايا على عثمان (٣).

وقد روى ابن قتيبة أن عثمان خرج إلى المسجد فاذا هو بعلى وهو شاك معصوب الرأس فقال عثمان : والله يا أبا الحسن ما أدرى . أشتهى موتك أم أشتهى حياتك . فوالله إن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأنى لا أجد منك خلفا » .

---

(١) لما استعرت نار الفتنة وتفاقم شرها استشار عثمان عمرو بن العاص فقال : ماترى يا عمرو ؟ قال : أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر . فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين . وان الشدة تنبغى لمن لا يألو الناس شرا ، واللين لمن لا يخلف الناس بالنصح ، وقد فرشتهما جميعا اللين .

وقد أقبل عثمان على عمرو بن العاص يوما فقال : ما رأيك (فى الفتنة) ؟ قال : أرى أنك ركبت الناس بمثل بنى أمية ، فقلت وقالوا وزغت وزاغوا . فاعتدل أو اعتزل ، فان أبيت فاعتزم عزما وامض قدما » . أنظر كتاب عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٥٦ ؟ ١٥٧ .

(٢) Lit. Hist. of the Arabs, p. 191

(٣) الطبرى ج ٥ ص ١١٣

وقال صاحب الفخرى [١] : « ومازال على عليه السلام من أكبر المساعدين لعثمان الذابين عنه . وما زال عثمان يلجأ اليه فى دفع الناس عنه فيقوم عليه السلام فى دفعهم عنه القيام المحمود . وفى آخر الأمر لما حوصر عثمان أرسل اليه عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام لنصرة عثمان رضى الله عنه . فقال إن الحسن عليه السلام استقتل مع عثمان . فكان عثمان يسأله أو يكف فيقسم عليه وهو يبذل نفسه فى نصرته » .

وقد وصف الأستاذ نيكلسون [٢] أثر الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان فقال : « لقد مزقت الحروب الأهلية التى تلت هذه الفتنة وحدة الاسلام شر ممزق ، ولم يندمل بعد الجرح الذى أحدثته هذه الحروب »

عثمان وتدوين المصحف :

القرآن فى عهد الرسول

نزل القرآن مُنَجَّماً [٣] فى بضع وعشرين سنة . فكانت تنزل الآية أو الآيات كلما دعت الحاجة . وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من الآيات من تلقاء أنفسهم أو بأمر الرسول على سعف النخل والرقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشاة والابل وأضلاعها وغيرها .

فى عهد أبى بكر

فلما انتقل الرسول الى جوار ربه وقامت حروب الردة وقتل فيها أكثر القراء من الصحابة ، وبخاصة فى يوم اليمامة حيث قتل منهم زهاء سبعين [٤] ، هال هذا الأمر عمرَ بن الخطاب ، وكان مستشار أبى بكر وساعده الأيمن . فذهب الى أبى بكر وقال له : إن القتل قد كثر واستحر بقراء القرآن يوم اليمامة . وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٩٤

(٢) Nicholson, Lit. Hist, of the Arabs, p. 190

(٣) يقال نجم المال تنجيما اذا أداه نجوما أى على أقساط

(٤) وقد قيل إنه قتل مثل هذا العدد فى غزوة بئر معونة فى عهد الرسول

فيذهب من القرآن كثير ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال»(١). وقد ضم أبو بكر الى زيد بن ثابت سالما مولى أبى حذيفة ليعاونه فى جمع القرآن على أن يقوم زيد بتدوينه .

وكان زيد بن ثابت شابا عرف برجاحة العقل وحسن السيرة ، وكان يكتب الوحى للرسول . ولا ريب أن هذا العمل الجليل كان فى حد ذاته مجهودا شاقا يتطلب الكثير من الأناة والصبر . وقد عبر زيد عن خطورة هذا العمل فى هذه الكلمات التى تبين لنا كيف قام به وأتمه : «فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ منه . . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ومن صدور الرجال» . وقال أبو بكر لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على كتاب الله فاكتباه . قال صاحب تاريخ القرآن(٢) : والأقرب الى الظن أن الشاهدين إنما كانا يشهدان بأن ما أتوا به كان مما عُرِض على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام وفاته العَرْضَةُ الأخيرة(٣) وكُتب بين يديه . ولذلك قال زيد بن ثابت : حتى وجدت آخر سورة براءة (التوبة) مع أبى خُزَيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (٤)

ولولا ذلك لما صحَّ معنى عدم وجدانهم هذه الآية لأن زيداً

---

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ٤٦

(١) أبو عبدالله الزنجانى : (تاريخ القرآن) طبع لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٣٥ ص ٤٢

(٢) جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فى آخر سنة من حياته . ولكن لم يضم بعضه الى بعض ؛ وإنما علمهم النبي ترتيب آياته والناسخ منها والمنسوخ . وقد عقد المؤلف فصلا فى كتابه تاريخ القرآن ذكر فيه من جمعوا القرآن على عهد النبي) وفيه ذكر محمد بن اسحق فى الفهرست ان الجماع للقرآن على عهد النبي هم على بن أبى طالب ، وسعد بن عبيد بن النعمان ، وأبو الدرداء عويمر بن زيد ، ومعاذ بن جبل بن أوس ، وأبو زيد ثابت بن زيد ، وأبى بن كعب بن قيس

(٣) هاتان الآيتان هما (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فان تولوا فقل حسبي الله لاإله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) سورة التوبة ٩ : ١٢٩ - ١٣٠

كان جمع قد القرآن وحفظه وأخذه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقَبِل قول أبي خزَيمة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل شهادته شهادة رجلين .

وكان هذا الجمع عبارة عن جمع الآيات المكتوبة فى الأكتاف والعُسُب واللِّخاف ، ونَسْخِها فى الأديم وهو الجلد المدبوغ . قال ابن حجر فى رواية عمادة بن غزية إن زيد بن ثابت قال : فأمرنى أبو بكر فكتبته فى قِطَع الأديم .

أسباب تدوين القرآن فى عهد عثمان

وقد حفظت هذه الصحف عند أبى بكر ثم عند عمر حتى مات ، فحفظت عند ابنته حفصة بنت عمر . وقد لاحظ حذيفة بن اليمان قائد عثمان فى غزو أذربيجان اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن فأشار على عثمان بتدوين مصحف يقرؤه المسلمون . قال ابن الأثير : « فلما عاد

رواية ابن الاثير

حُذَيفة قال لسعيد بن العاص : لقد رأيت فى سفرتى هذه أمرا . لئن ترك الناس ليختلفُن فى القرآن ثم لا يقومون عليه أبدا . قال : وماذاك؟ قال : رأيت أناسا من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد (بن الأسود) ، ورأيت أهل دمشق يقولون إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك ، وأنهم قرءوا على ابن مسعود ، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرءوا على أبى موسى ويسمون مصحفه « لُبَاب القلوب » . فلما وصلوا الى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم مايخاف ، فوافقه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من التابعين ، وقال له أصحاب ابن مسعود : ماتنكر ؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود ؟ فغضب حذيفة ومن وافقه ، وقالوا : إنما أنتم أعراب ، فاسكتوا فانكم على خطأ . وقال حذيفة : والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك . فأغلظ له ابن مسعود ، فغضب سعيد وقام ، وتفرق الناس ، وغضب حذيفة وسار الى عثمان فأخبره

بالذى رأى وقال : أنا النذير العريان فأدركوا الأمة . فجمع عثمان والصحابةوأخبرهم الخبرفأعظموه ورأوا جميعامارأى حذيفة ، فأرسل عثمان الى حفصة بنت عمر أن ارسلى إلينا بالصحف ننسخها . وكانت هذه الصحف هى التى كتبت فى أيام أبى بكر » .

جمع القرآن فى مصحف واحد

فلا عجب إذا لاقت هذه الفكرة قبولا فى نفس عثمان ، فعول على نسخ المصحف تلافيا لما قد يجر اليه التهاون فى هذا الأمر الخطير من العواقب السيئة . وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر إلى عثمان الصحف لتنسخ منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار . وقد قام بهذا العمل زيدبن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، وأمرهم عثمان بأن يكتبوا ما يختلفون فيه بلسان قريش .

عبارة أبى عمرو عثمان الدانى

وقدأشارأبو عمرو عثمان بن سعيدالدانى (٤٤٤ ﻫ) الى سبب اختيار زيد بن ثابت لهذا العمل الجليل فى كتابه « المقنع » فى رسم مصاحف الأمصار الذى نشره حديثا مع كتاب النقط برتزل : « فان قيل فلم خص زيد (بن ثابت) بأمر المصاحف ، وقد كان فى الصحابة من هو أكبر منه كابن مسعود وأبى موسى الأشعرى وغيرهما من متقدمى الصحابة ، قلت إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ، ومناقب اجتمعت له ، لم تجتمع لغيره ، منها أنه كتب الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه جمع القرآن كله على عهد رسول الله ، وأن قراءته كانت على آخر عرضة عرضها النبى على جبريل عليهما السلام ، وهذه الأشياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به ، لامتناع اجتماعهما فى غيره ، وان كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته ، فلذلك قدمه أبو بكر لكتابة المصاحف

---

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٤٥ - ٤٦

وخصه بها دون غيره ، من سائر المهاجرين والأنصار ؛ ثم سلك عثمان رضى الله عنه طريق أبى بكر فى ذلك إذ لم يسعه (لم يستطع) غيره ، وإذ كان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر . فولاه ذلك أيضا وجعل معه النفر من القرشيين ليكون القرآن مجموعا على لغتهم ، ويكون ما فيه من لغات ووجوه على مذهبهم ، دون ما لا يصح من اللغات ولا يثبت من القراءات . . . » [1]

توزيع المصحف على الامصار

وقد أمر عثمان باحراق المصاحف الأخرى ، فعاب عليه ذلك بعض ذوى الأغراض السيئة وبخاصة أهل الكوفة . يقول ابن الأثير : فلما نسخوا الصحف ردها عثمان الى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف وحرق ماسوى ذلك ، وأمر أن يعتمدوا عليها ويدعوا ماسوى ذلك . فكل الناس عرف فضل هذا الفعل إلا ما كان من أهل الكوفة . فان المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن أصحاب عبد الله (بن مسعود) ومن وافقهم امتنعوا من ذلك وعابوا الناس ، فقام فيهم ابن مسعود وقال : ولا كل ذلك فانكم والله قد سبقتم سبقا بينا ؛ فاربعوا على ظلعكم . ولما قدم على الكوفة قام اليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف ، فصاح وقال : اسكت ! فعن ملأ منا فعل ذلك . فلو وليت منه ماولى عثمان لسلكت سبيله . » [2]

رأينا فى جمع عثمان

يتبين لنا مما تقدم أن القصد من التدوين الأول إنما هو جمع القرآن وحفظه من الضياع ، كما كان التدوين الثانى يرمى الى غرض واحد ، هو جمع الناس على وجه واحد فى قراءة القرآن خشية ما قد يقع بينهم

---

(١) راجع مقالة الاستاذ محمد بك كرد على فى مجلة الرسالة عدد ١٠٨ فى ٢٩ يولية سنة ١٩٣٥

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ٤٦

من الخلاف الذى مصدره التحريف الذى يفتح الباب على مصراعيه للزيادة والنقصان والتحريف فى كلام الله سبحانه ، ولاسيما أن العرب قد أخذوا يختلطون مع أهالى البلاد المفتوحة الذين اختلفت لغاتهم وتباينت لهجاتهم . وعندنا أن عثمان قد أحسن كل الاحسان الى المسلمين ، وأن عمله هذا يستحق الثناء والتقدير لا اللوم والتعنيف . ولا يفوتنا أن أثر عمر بن الخطاب فى حفظ القرآن لا يقل عن أثر عثمان ، إذ لو لم يتدارك هذا الأمر بحكمته وبعد نظره لنال القرآن من التبديل والتحريف أكثر مما ناله غيره من الكتب السماوية الأخرى فيضيع اعجازه ويتلاشى بيانه .

وصفوة القول أن الله سبحانه شاء ألا تعبث بالقرآن يد التحريف والتبديل فقال فى كتابه العزيز (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(١) وقال : (لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد) (٢)

صفات عثمان :

كان عثمان تقيا ورعا يصوم الدهر ويحج بيت الله كل عام . روى ابن حجر فى الاصابة أن رسول الله قال : لكل نبى رفيق ورفيق فى الجنة عثمان . وعن عائشة أنها قالت لما بلغها قتل عثمان : «قتلوه وإنه لأوصلهم للرحم وأتقاهم للرب ، ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض » (٣) .

(١) سورة الحجر ١٥ : ١٩

(٢) أنظر ما كتبه السير وليام ميور عن جمع القرآن فى كتابه « سيرة محمد »
Muir, The Life of Muhammad, pp. XIV—XXIV.

(٣) ج ٤ ص ٢٢٣ - ٢٢٤

تواضعه وحلمه

وكان طيب النفس، نقي السريرة، ذا حلم ورفق بالناس، متواضعاً. روى الطبري أنه كان يأتيه وهو في المسجد السقاءان فيفصل بينهما[١] حيث أدركاه، كما كان كريماً كثير البذل. وفي ذلك يقول المسعودي[٢]: كان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته وتأسوا (اقتدوا به) في فعله». وهو الذي جهز جيش العسرة بالمال والابل والأفراس، واشترى بئر رومة، وزاد في مسجد الرسول وعوض الناس عن أرضهم التي أدخلها في المسجد من ماله الخاص.

ثروته وجوده

وكان عثمان غنيا[٣]، ينعم بما ينعم به الأغنياء، فيسكن في داره التي بناها بالمدينة بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر[٤]؛ واقتنى الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها. وإذا حج ضرب له الفسطاط بمنى؛ وكان يأكل ألين الطعام وأطيب أصنافه[٥]؛ كما روى أنه كان يشد أسنانه بالذهب، ويلبس أفخر الثياب.

توسعته على الناس

وكان يحب التوسعة على الناس؛ فلم يقصد في بذل أعطياتهم ولم

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٤٣

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣

(٣) ذكر المسعودي عن عبد الله بن عتبة أن عثمان يوم قتل، كان عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم. وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما ١٠٠٫٠٠٠ دينار، وخلف خيلا كثيرا وإبلا (مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣)

(٤) العرعر هو شجر السرو

(٥) روى الطبري عن عمرو بن أمية الضمري. قال: وإني كنت أتعشى مع عثمان خزيرا (شبه عصيدة بلحم) من طبخ (مطبوخ) من أجود ما رأيت فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن. وعن عبد الله بن عامر قال: كنت أفطر مع عثمان في رمضان؛ فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر، قد رأيت على مائدة عثمان الدرمك الجيد (نوع من الدقيق) وصغار الضأن كل ليلة. كما روى أن عثمان أول من نخل له الدقيق (الطبري ج ٥ ص ٣٦١)

يقتصر على إعطائهم الكفاف من العيش ، كما كان يفعل عمر خشية الفتنة ، ولم يرض عثمان أن يأخذ الناس بأكثر مما فرضه الله تعالى عليهم ؛ فلم يحجر على كبار الصحابة ، ولم يمنعهم من الخروج إلى الولايات ، فالتف الناس حولهم وافتتنوا بهم كما افتتن هؤلاء الصحابة بما رأوه من ألوان النِّعم ومظاهر الحضارة فى البلاد التى خرجوا إليها ؛ وهذا ما كان يخشاه عمر حين منعهم من الخروج إلى الولايات .

اقامة الحدود

ولم يحمل عثمان ولاته على التقشف والبعد عن مواطن التُّهمة والريبة كما كان عمر ، إذ كان يأخذ على الوالى عهداً ألا يلبس رقيقاً ولا يأكل نقياً ولا يتخذ دون حاجات الناس حجاباً .

غير أن ذلك التسهيل من عثمان لم يكن عن تهاون فى حقوق الله وإغضاء عن حرماته ؛ فكثيرا ما كان يحث الناس على التمسك بالدين ويأخذهم بالمحافظة عليه ، ويضرب على أيدى المستهترين حتى كرهوه « واستطالوا عمره » (حكمه) ؛ فمن ذلك أنه عيَّن رجلا من بنى ليث وكلفه مراقبة من يُطيِّرون الحمام ويرمون على الجُلاهقات حتى قضى عليها . وأرسل طائفاً بالعصا يمنع الذين اعتادوا السُّكر ؛ فاشتد فى مهمته وجلد كل من وقع فى يده . وهدَّد عثمان بالنفى عن المدينة كل من عكف على البدع وخطب الناس خطبة حثهم فيها على العُدول عن تلك الأحداث حتى لا يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من أهل الأمصار الأخرى ، ثم حظر عليهم التوَسط أو الاستشفاع عنده لمن يوقع عليه عقوبة من العقوبات ، ونفذ هذه السياسة ، ولم يعف عن واحد ممن كانوا يقترفون هذه الآثام ؛ فضج الناس من الجلد والنّفى .

وقد اتبع عثمان سياسة عمر فى الاستفسار عن الولاة من الوفود وسؤال الرعية عن أمرائها ؛ غير أن ذلك أدى الى عكس ما كان يروم ، إذ كثر الدس على هؤلاء الولاة واتخذ المُغرِضُون من ذلك سبيلا

للحط من شأن الولاة ، كما كان بعض الولاة يدس الى الخليفة من يمدحونه عنده (١) .

ومما يؤخذ على عثمان أنه كان سريع التأثر بأحاديث الناس ، زمامه بيد أقاربه ولا سيما مروان بن الحكم .

وصف السيد أمير على لعثمان

وقد وصف السيد أمير على عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال :

« كان عثمان شيخاً كبيراً ضعيف الارادة ؛ ومن ثمَّ لم يستطع الاضطلاع بأعباء الحكم رغم نزاهته وفضائله الكثيرة » . (٢)

« Osman, though virtous and honest, was very old and feeble in character and quite unequal to the task of governnent. »

على بن أبى طالب

٣٥ - ٤٠ هـ ؟ ٦٥٦ - ٦٦١ م

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب القرشى الهاشمى ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف . وقد أسلمت وهاجرت مع الرسول ؛ وكانت من السابقات الى الاسلام (٣) . ولد بمكة قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة . وكان أبوه كثير العيال . فلما أصاب مكة جدب سأل الرسول عمه العباس أن يخفف عن أبى طالب مشقة العيش بأن يعول عنه بعض ولده . وذهب الرسول والعباس الى أبى طالب وعرضا عليه المساعدة فقبل ، فضم

كفالة الرسول له

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٣٤

(٢) Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p.46

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ١ ص ٥

إسلامه — العباس جعفرا إليه وضم الرسول علياً . ولما بعث الرسول آمن به علىٌّ وهو فى الثالثة عشرة من العمر ، فكان أول من أسلم من الصبيان .

هجرته — وقد بات فى موضع الرسول فى الليلة التى هاجر فيها من مكة الى المدينة (١) ، ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التى كانت عند الرسول لأهلها . وقد زوجه الرسول ابنته فاطمة فى السنة الثانية للهجرة فأعقب منها

اثره فى الاسلام — الحسن والحسين (٢) ، وحضر الغزوات كلها عدا غزوة تبوك ، فان الرسول خلفه على المدينة . وقد اتخذه الرسول كاتباً له .

مركزه فى عهد الخلفاء الذين سبقوه — ولما توفى عليه الصلاة والسلام اشتغل علىٌّ بتجهيزه ودفنه ، واشترك معه العباس بن عبد المطلب والفضل وقُثَم بن العباس ، وأسامة بن زيد (٣) . وكان على يرى أنه أحق المسلمين بالخلافة بعده ، لما له من السابقة فى الاسلام ، ولأنه أقرب الناس إلى الرسول نسباً وصهراً . فلما آلت الخلافة الى أبى بكر لم يبايعه علىّ أول الأمر .

وكان أبو بكر يستشيره فى مهام الأمور . وكان عمر لا يعمل عملا الا بمشورته لما يعهده فيه من الفقه والذكاء والدين . وبعد مقتل عمر دخل على الشورى ، وكان يظن أن الخلافة ستئول اليه ، فلما آلت الى عثمان بايعه على ولازمه . وكان يستشيره فى كثير من الأمور فى صدر خلافته . ولكن استبطان عثمان لذوى قرباه قد أفسد عليه اراءه . فظن الناس أن العلاقة قد توترت بينهما .(٤)

بيعة على — لم يكن انتخاب على بن أبى طالب على الصورة التى تم بها انتخاب من سبقه من الخلفاء . فقد انتخب أبو بكر عن رضا من الصحابة الذين

---

(١) ابن أبى الحديد ج ٣ ص ٢٥٦ — ٢٥٨

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٤٣ (٣) الطبرى ج ٢ ص ٢٦٢

(٤) الطبرى ج ٢ ص ٢٠٤ ؟ وابن أبى الحديد ج ٣ ص ١٩٢

اجتمعوا بالمدينة وإن كانوا قد اختلفوا بعض الاختلاف فى بادىء الأمر . وبعد وفاة أبى بكر لم يكن ثمة اختلاف فى الرأى لأنه كان قد عهد إلى عمر ، فرأى المسلمون وجوب طاعته ؛ ولما توفى عمر انتخب عثمان بمقتضى قانون الشورى الذى سنه عمر .

أما عند موت عثمان فقد مال بعض الثوار إلى تولية على وعلى رأسهم ابن سبأ . وكان أكثر الصحابة متفرقين فى الأمصار ، ولم يكن بالمدينة منهم سوى عدد قليل وعلى رأسهم طلحة والزبير ؛ وقد تردد بعض الصحابة فى بيعة على كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ، وتخلف بعض الأنصار كحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد ، وأبى سعيد الخدرى عن المبايعة إذ كانوا يميلون إلى عثمان ، وهرب البعض إلى الشام كالمغيرة بن شعبة . وعلى ذلك فقد تمت بيعة على بالأغلبية على الرغم من تخلف بعض الصحابة الذين كانوا بالمدينة عن بيعته ، وعلى الرغم من تخلف بنى أمية ولحاق بعضهم بالشام ولحاق البعض الآخر بمكة .[1]

عزل ولاة عثمان

بادر على لما عرف عنه من الشدة فى الحق وعدم الهوادة فيه بعزل الولاة الجائرين الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة وسبب خروج الثوار عليه ، ولم يصغ لنصيحة بعض الصحابة له بابقائهم حتى تهدأ الحالة وتستقر الأمور فى نصابها ؛ كما استفتح ولايته باسترداد الاقطاعات التى كان عثمان قد منحها لبعض بطانته والمقربين من أهل بيته إلى بيت المال . واتبع فى توزيع الأرزاق القواعد التى سنها عمر رضى الله عنه .[2]

---

(١) قال صاحب العقد الفريد (ج ٣ ص ٩٣) : لما قتل عثمان بن عفان اقبل الناس يهرعون الى على بن أبى طالب ، فتراكمت عليه الجماعة فى البيعة فقال : ليس ذلك الحكم ، انما ذلك لأهل بدر . ابن طلحة والزبير وسعد ؟ فأقبلوا فبايعوا . ثم بايعه المهاجرون والأنصار ، ثم بايعه الناس . وذلك يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وعشرين . وكان أول من بايعه طلحة ؟ مروج الذهب (ج ٢ ص ٢) ؟ الطبرى ج ٥ ص ١٥٢-١٥٣ ؟ الاخبار الطوال للدينورى ص ١٤٢ .

(٢) الأخبار الطوال للدينورى ص ١٤٠

كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأى على فقال بعد أن ولى الخلافة « والله لو وجدته (من أخذ) قد تزوج به (بالمال الذى أخذه) وملك به الاماء لرددته فان فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فان الجور عليه أضيق » . وقد أحفظ هذا التصرف من على قلوب أولئك الولاة الذين أثروا فى عهد عثمان على حساب بيت مال المسلمين وزاد فى حنقهم عليه . وقد تخلى الكثيرون من العمال عما يلونه من أمر المسلمين بمجرد عزل على لهم . أما معاوية بن أبى سفيان الذى مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوى من المرتزقة الذين انضموا إليه طمعا فيما كان يفيضه عليهم من الأرزاق وما كان يسبغه عليهم من الأعطيات ، فقد أبى الاذعان لأمر على ونشر لواء الثورة والعصيان .

موقعة الجمل وعواملها :

موقف على من طلحة والزبير وعائشة

وقد استرسل المسلمون فى الفرقة والخصام وفتحوا باب الفتنة على مصراعيه ، فنشبت بينهم الحروب الأهلية وسفكت دماء الأبرياء من المسلمين، وتدخل الأشرار فى أمور الخلافة وتستروا بستار الدين ليبلغوا مآربهم السياسية وغاياتهم الدنيوية .

نصح على بن أبى طالب للقوم الذين قاموا للمطالبة بدم عثمان أن يتريثوا حتى إذا ماهدأت النفوس وعاد الأمن إلى نصابه أجرى الحق مجراه وتمكن من إنزال العقاب بقتلة عثمان. إلا أن نصائحه لم تأت بطائل: فقد ساء عائشة قتل عثمان وانضم إليها سائر بنى أمية ثم طلحة والزبير (١).

---

(١) كان الزبير يطمع فى ولاية العراق ، وطلحة فى ولاية اليمن . فلما أرسل على الولاة ، ولم يكن لهما حظ فى الولاية نقما عليه وتكلما فى شأنه ، وندما على بيعتهما وعزما على الخروج ، فاستأذنا عليا فى الخروج الى مكة لأداء العمرة ، ولكنه لم يخف عليه أمرهما ، فقال لهما : والله ما العمرة تريدان ؟ (الامامة والسياسة لابن قتيبة جـ ١ ص ٤٦)

قال الطبرى « خرجت عائشة رضى الله تعالى عنها نحو المدينة من مكة بعد مقتل عثمان ، فلقيها رجل من أخوالها ؛ فقالت ماوراءك ؟ قال : قتل عثمان واجتمع الناس على علىّ والأمر أمر الغوغاء ؛ فقالت : ماأظن ذلك تاما رُدُّونى . فانصرفت راجعة إلى مكة حتى إذا دخلتها أتاها عبد الله بن عامر الحضرمى (وكان أمير عثمان عليها) فقال : ماردَّك ياأم المؤمنين ؟ قالت : ردّنى ان عثمان قتل مظلوما وأن الأمر لايستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الاسلام ؛ فكان أول من أجابها عبدالله بن عامر الحضرمى . وذلك أول ماتكلمت بنو أمية بالحجاز ورفعوا رءوسهم وقام معهم سعيد بن العاص والوليد ابن عقبة وسائر بنى أمية . وقد قدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة ويعلى بن أمية من اليمن وطلحة والزبير من المدينة . واجتمع ملأهم بعد نظر طويل فى أمرهم على البصرة ، وقالت : أيها الناس ! إن هذا حدث عظيم وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة ، فأنكروه ، فقد كفاكم أهل الشام ماعندهم لعل الله عزّ وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم . (١) »

موقف حفصة بنت عمر

وقد عزمت حفصة بنت عمر وزوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج مع عائشة ولكن أخاها عبد الله بن عمر ثناها عن عزمها ؛ ولم يكن من رأى أم سلمة زوج الرسول أن تمضى عائشة فى هذا الطريق ؛ فأرسلت إليها كتابا طويلا تطلب إليها العدول

وهذا يبين لنا أن خروج طلحة والزبير للطلب بدم عثمان انما كان للمطالبة بالخلافة . فقد قيل ان مروان بن الحكم قال لهما بعد خروجهما : على أيكما أسلم بالامرة وأوذن بالصلاة ؟ فقال عبدالله ابن الزبير على أبى (يعنى أباه الزبير) وقال محمد بن طلحة : على أبى طلحة . وكان هوى عائشة مع ابن أختها عبد الله بن الزبير . فقد أرسلت الى مروان تقول له : أتريد أن تفرق أمرنا ؟ فليصل بالناس ابن أختى ، تريد عبد الله بن الزبير .

(١) ج ٥ ص ١٦٦ .

أم سلمة وخروج عائشة

عن الخروج وتقول لها : « من أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة أم المؤمنين . فانى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد فقد هتكت سُدَّةً (١) بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته حجاب مضروب على حرمته ؛ قد جمع القرآن ذيولك (٢) فلا تسحبيها (٣) وسكر خفارتك (٤) فلا تبتذليها . والله من وراء هذه الأمة . لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك ، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة (٥) فى الدين ؟ فان عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع . جهاد النساء غض الأطراف وضم الذيول وقصر الْمُوَادَة ، ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارضك (٦) ببعض هذه الفلوات (٧) ناصَّةً (٨) قعُودا من منهل إلى منهـــل ؟ وغدا تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأقسم لو قيل لى يا أم سلمة ادخلى الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتــكة حجاباً ضربه علىّ . فاجعليه سترك وقاعة البيت حصنك فإنك أنصح ماتــكونين لهذه الأمة ماقعدتِ عن نصرتهم . ولو أنى حدثتك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لنهشت نهش الرقشاء (٩) المطرقة والسلام . » .

رد عائشة على أم سلمة

فردت عائشة عليها ألا مناص من المضى فيما اعتزمته من المطالبة

---

(١) السدة : باب الدار

(٢) تشير الى قوله تعالى لنساء النبي (وقرن فى بيوتكن)

(٣) فلا تنشريها أى فلا تخرجى من دارك .

(٤) سكر : حبس ، والخفارة شدة الحياء ؛ أى وصان حياءك .

(٥) الفراطة : الافراط أو مجاوزة الحد .

(٦) عارضك : قابلك أو التقى بك

(٧) جمع فلاة وهى الصحراء الواسعة .

(٨) نص البعير أو الفرس استخرج ماأقصى ماعنده من السير — والقعود الناقة .

(٩) الرقشاء من الحيات المنقطة بسواد وبياض .

بدم عثمان . وإليك كتابها : « من عائشة أم المؤمنين إلى أم سلمة . سلام عليك ؛ فانى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد ؛ فما أقبلنى لوعظك وأعرفنى لحق نصيحتك ، وما أنا بمعتمرة بعد تعريج . ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متشاجرتين من المسلمين ، فان أقعد فعن غير حرج وإن أمض فالى مالا غنى بى عن الازدياد منه والسلام . (١) »

محاولة طلحة والزبير استمالة زعماء البصرة

وقد عمل طلحة والزبير على استمالة زعماء البصرة (٢) ، فكتبا الى كعب بن سور ، والأحنف بن قيس ، والمنذر بن ربيعة . واليك كتابهما الى المنذر : « أما بعد فان أباك كان رئيسا فى الجاهلية وسيدا فى الاسلام ، وانك فى أبيك بمنزلة المصلى (٣) من السابق يقال لحق أو كاد . وقد قتل عثمان من أنت خير وجه منه ، وغضب له من هو خير منك والسلام » . فردعليهما المنذر : « أما بعد فانه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيرا من أهل الشر . وانما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس . وقد كان بينى أظهركم فخذلتموه . ومتى استنبطتم هذا العلم وبدا لكم هذا الرأى ؟ » (٤)

محاولتهما استمالة عبد الله بن عمر

وقد عمل طلحة والزبير على استمالة عبدالله بن عمر فأتياه فقالا : ياأبا عبدالرحمن ! إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الاصلاح بين الناس . فاشخص معنا فان لك بها أسوة . فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها فقال: أيها الشيخان ! أتريدان أن تخرجانى من بيتى ثم تلقيانى بين

---

(١) أنظر الكتابين فى العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٩٦ - ٩٧

(٢) هم كعب بن سور سيد اليمن ، والمنذر بن ربيعة سيد ربيعة ، والأحنف بن قيس سيد مضر .

(٣) المصلى الذى يتلو السابق . يقال صلى الفرس اذا جاء مصليا ، وهو الذى يتلو السابق لأن رأسه عند صلاه أى مغرز ذنبه .

(٤) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٠١ — ١٠٢

مخالب ابن أبي طالب ؟ إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وإني قد تركت هذا الأمر عياناً في عافية أنالها . ثم عاود طلحة والزبير عبدالله ابن عمر علّه يعدل عن رأيه الأول ، فلم يكن منه الا التمسك به ، إذ كان يرى في القعود النجاة والخير ، كما كان يرى في انزواء عائشة المحافظة على كرامتها والاشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم . إذ يقول لطلحة والزبير « واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما ، المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف . ولن يقاتل عليا الامن كان خيرا منه . وأما الشورى فقد والله كانت ، فقدّم وأخر تما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها . فاكفياني أنفسكما » (١) .

رأى ابن عمر في هذا الخروج

مسير عائشة الى البصرة

لم يصغ طلحة والزبير لنصح الناصحين ولم يرعيا حرمة لوحدة المسلمين التي كادت تتمزق شر ممزق . بل لم يكن لنصيحة أم سلمة أيّ أثر في نفس عائشة . وسرعان ماخرج طلحة والزبير وعائشة الى البصرة في ستمائة رجل . فلما وصلوا الى « ماء الحوْأب » (٢) نبحتهم كلابه . فسألت عائشة محمد بن طلحة : أي ماء هذا ؟ قال : هذا ماء الحوأب . فقالت ماأراني إلا راجعة . قال : ولم ؟ قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأني باحداكن قد نبحها كلاب الحوأب . وإياك أن تكوني أنت ياحميراء . فقال لها محمد بن طلحة : تقدمي رحمك الله ودعي هذا القول وأتى عبد الله بن الزبير ، فحلف لها بالله أنها غادرته (أي ماء الحوأب) أول الليل . وأتاها ببينة من الاعراب فشهدوا بذلك فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها في الإسلام .

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣

(٢) الحوأب موضع في طريق البصرة — أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

استأنف الجيش السير الى البصرة . وقد عرض لهم سعيد بن العاص والمغيرة بن شُعْبة فى الطريق ونصحا لهم بالرجوع ونصحا الجند فقالا لهم : ان كنتم قد خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيرا لكم ، وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، (يريدانِ طلحة والزبير) وإن كنتم نقمتم على علىّ شيئا فبينوا ما نقمتم عليه . أنشدكم الله فِتْنَتَيْن فى عام واحد فلم يسمع أحد نصيحتهما ولم تؤبه عائشة لقولهما (١) .

ولما علم عثمان بن حنيف والى البصرة بقدوم الجيش ندب أبا الاسود الدؤلى عمرانَ ابْن الحُصَين ليستطلعا سبب قدومه . فقالت لهما عائشة : « إن الغوغاءمن أهل الأمصار ونزاع أهل القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع مانالوا من قتل امام المسلمين بلا تِرة ولاغدر ، واستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، والشهر الحرام وانتهبوا المال الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مُضِرين ، غير نافعين ولا متقين ، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجتُ فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا » . فنصح لهم عمران وأبو الأسود وهدداهم بالحرب فلم يسمعوا لهم .

مسير على بن أبى طالب

سار على بن أبى طالب نحو البصرة ، والتقى الجيشان فى مكان يقال له الخُرَيْبَة (٢) فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ، « ودعا علىٌّ الزبير الى الاجتماع به فاجتمع به فذكره على وقال له : أتذكر يوم

---

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة جـ ١ ص ١٠٥ — ١٠٦

(٢) سميت بذلك فيما ذكره الزجاجى لان المرزبان كان قد ابتنى به قصرا وخرب بعده . فلما نزل المسلمون بالبصرة ابتنوا عنده ، وسموه الخريبة ـ أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

يوم الجمل

مررتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر الى فضحكت وضحك الى فقلتَ لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك رسول الله : ولتقاتلنه وأنت ظالم له ؟ فقال الزبير : اللهم نعم . ولو ذكرته ماسرت مسيري هذا . فقيل إنه اعتزل القتال ، وقيل عدل عن القتال فلما عيَّره ولده عبدالله وقال له : خفتَ من رايات ابن أبي طالب . قال الزبير : إني حلفت ألاّ أقاتله . فقال له ابنه : كفِّر عن يمينك ، فعتق غلامه مكحولا وقاتل . ونشب القتال وعائشة راكبة في هودجها على جمل يسمى عسكراً واقتتل الناس حوله سبعة أيام ، حتى صار كالقنفذ من النشاب ، وثبتت عائشة وحماها مروان بن الحكم في نفر من قيس وكنانة وبني أسد وظل مروان كلما وثب رجل إلى الجمل ضربه بالسيف وقطع يده حتى قطع نحو عشرين يداً ، وأتاه رجل من خلفه وضربه وضرب عرقوب الجمل . وتمت الهزيمة على أصحاب عائشة وطلحة والزبير ، وأسرت عائشة ومروان بن الحكم وقُتل طلحة رماه مروانُ بن الحكم بسهم فقتله ، لما كان يتهمه بالاعانة على قتل عثمان . وفر الزبير ، إلى المدينة وبقيت عائشة في هودجها الى الليل . وأدخلها أخوها محمد بن أبي بكر إلى البصرة . ثم إن علياً سأل عائشة أترتحلي الى المدينة ؟ قالت أرتحل . فجهزها علي بما احتاجت إليه ، وسير معها أولاده مسيرة يوم ، وشيعها الناس . وقيل إنه كانت عدة القتلى يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف . (١)

انتصر علي بن أبي طالب في موقعة الجمل ، وقتل طلحة والزبير وأسرت عائشة . وانه ليدهشنا أن يقابل على اساءة عائشة اليه بالعفو فيحسن اليها كل الأحسان ويجهزها بما تحتاجه في سفرها ويزورها في البيت الذي نزلت فيه ، ويوفد أولاده يشيعونها ، ويودعها بنفسه(٢) . لذلك

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤

(٢) أبو الفداء ج ١ ص ١٧٣ - ١٧٤ ؟ والامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٢٥ - ١٣٠

لا نعجب إذا قالت عائشة يوم رحيلها وسط مشيعيها : «إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي — على معتبتي — من الأخيار » (١) . قال علي : « أيها الناس ! صدقت والله وبرت ، وإنه ما كان بيني وبينها إلا ذلك . وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة (٢) » .

وكان خروج عائشة من البصرة يوم السبت غرة رجب سنة ٣٦ هـ .

رأينا في خروج طلحة والزبير وعائشة

لذلك نرى أنه لا مبرر لعمل طلحة والزبير وعائشة ما دام للامة إمام ينفذ الاحكام ويقيم الحدود . ولا سيما وقد وعدهم علي بن أبي طالب بالنظر في أمر عثمان والبحث عن قاتليه والقصاص منهم عند ما تستقر الامور وتهدأ عاصفة تلك الفتنة الشعواء . على أننا نرى من جهة أخرى أن مجرد قبول علي في جيشه أعوانَ ابن سبأ الذين قتلوا عثمان في الوقت الذي يطالب الناس فيه بدمه كاف لأن تحوم الظنون حوله وتبرر اتهامه بالاشتراك في دمه .

الأحزاب بعد موقعة الجمل

وعلى أثر انتصار علي في موقعة الجمل انحصر النزاع بين حزبين اثنين :

(١) حزب عثمان وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان أعظم قرابة عثمان شأنا والمطالب بدمه .

(٢) حزب علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ورأس بني هاشم الذين كان العداء بينهم وبين بني أمية قديما منذ الجاهلية ولم يزده ظهور الاسلام الا شدة وعنفا ؛ فبنو حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من علي ؛ كما أن بني هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد .

---

(١) الفخري ص ٨٣ - ٨٥ . لهذا القول علاقة بحادثة الافك التي أشرنا اليها في غزوة بني المصطلق . ص ١٦٤

(٢) ابن سعد جـ ٣ ص ٢٠ ، ٥٦

العوامل النفسية فى هذا النزاع

وقد صوّرت أم الخير بنت الحُرَيش البارقيـة الخلاف بين على ومعاوية وذكرت أسبابه فى تلك الخطبـة التى ألقتها يوم صفـين « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » ! إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ونوّر السبيل ، ورفع العـلم ، فلم يدعكم فى عمياء مبهمة ولا سوداء مُدلهمّة . فالى اين تريدون رحمكم الله ؟ أفرارا عن أمير المؤمنين أم فرارا من الزحف ؟ أو رغبة عن الاسلام أم ارتدادا عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)(١) ؟ قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة ، وبيدك يارب أزمة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى . هلموا رحمكم الله إلى الامام العادل والوصى الوفى والصديق الأكبر . إنها إحَنٌ بَدْرية وأحقاد جاهلية وضغائن أُحُدية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس . . . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الُحدود ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه ، فالى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليـه وسلم وزوج ابنته وأبى ابنيـه ؟ (تعنى الحَسَن والُحسَين) خلق من طينته وتفرع عن نبعته وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين وأبان ببغضه المنافقين (٢) ، فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضى على حسن استقامته لايعرج لراحة اللذات ، وهو مفلّق الهام ومكسر الأصنام ، اذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون ؛ فلم يزل

---

(١) سورة محمد ٤٧ : ٣١

(٢) تشير الى حديث النبي صلى الله عليه وسلم (أنا مدينة العلم وعلى بابها) والى قوله عليه الصلاة والسلام انه لايحب عليا الامؤمن ولايبغضه الامنافق . رواهما النووى وابن حجر فى ترجمة على

كذلك حتى قتل مبارزى بدر وأفنى أهل أحد وفرق جمع هوازن . فيالها وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقا وردة وشقاقا . وقد اجتهدت فى القول وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق . والسلام عليكم ورحمة الله . » (١)

موقعة صفين :

بادر على لما عرف عنه من شدة فى الحق بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة وخروج الثوار عليه . وقد أذعن جميع الولاة لأمر على وانصرفوا عما كانوا يلونونه من الولايات .

أسبابها

أما معاوية بن أبى سفيان الذى مكنته ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوى من المرتزقة الذين انضموا إليه طمعا فيما كان يفيضه عليهم من الأرزاق ويسبغه عليهم من الأعطيات . فقد أبى الأذعان لأمر على وشق عصا الطاعة عليه واتهمه بدم عثمان لأنه آوى قتلته فى جيشه .

وقد أصر معاوية على أن يقاتل عليا بجند الشام بعد أن أوغر صدورهم عليه لايوائه قتلة عثمان فى جيشه . فلما بلغ عليا أن معاوية قد استعد للقتال ومعه أهل الشام توجه إلى الكوفة بعد انتصاره فى موقعة الجمل ، ووجه جرير بن عبدالله البجلى إلى معاوية يدعوه إلى بيعته والدخول فى طاعته ، وزوده بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما ، فماطله معاوية واستنظره ، وكتب إلى عمرو بن العاص : « أما بعد فانه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ؛ فقد قدم على جرير بن عبدالله فى بيعة على ، وحبست نفسى عليك حتى تأتينى ، فأقدم على بركة الله تعالى(٢).

ابن العاص واستشارة معاوية عمر

---

(١) تشير الى حديث النبي صلى الله عليه وسلم (أنا مدينة العلم وعلى بابها) والى قوله عليه الصلاة والسلام انه لايحب عليا الا مؤمن ولا يبغضه الا منافق ". رواهما النووى وابن حجر فى ترجمة على

(٢) اليعقوبى ج ١ ص ٣١٥

ولما قدم عمرو على معاوية أشار عليه أن يلزم علياً دم عثمان وأن يحاربه بجند الشام إذا أبى (١).

رجع جرير إلى على بن أبى طالب وأخبره بحال معاوية ، وأنه قد أصر على أن يقاتله بجند الشام الذين بكوا حين وضع لهم معاوية على المنبر قميص عثمان الذى قتل فيه مخضباً بدمه وأصبع زوجه نائلة معلقة فيه. وكتب بالخبر إلى الأجناد فآلوا على أنفسهم أن لا يهدأ بالهم حتى يأخذوا بثأر عثمان ، وأجمعوا على قتال علىّ اعتقادا منهم أنه قعد عن نصرة عثمان وآوى قتلته.

التقاء الجيشين

سار على من الكوفة إلى صفين فى تسعين ألفاً لخمس بقين من شوال سنة ٣٦ هـ ؛ وسار معاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفاً (٢) ، وعسكر فى موضع سهل على الفرات ؛ وبات على وجيشه فى البر عطاشا لأنه حيل بينهم وبين الماء.

ولكن عليا أرسل من أجلى رجال معاوية عن الماء ؛ فأرسل إليه معاوية يستأذنه فى وروده ، فأذن له. وبعد يومين من نزول علىّ فى هذا الموضع بعث إلى معاوية يدعوه إلى توحيد الكلمة والدخول فى جماعة المسلمين. وطالت المراسلات بينهما ؛ فاتفقا على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ ؛ ثم دارت رحى الحرب بينهما من جديد (٣).

الرسل بين على ومعاوية

ومن اطلع على ما كان من أمر رسل على ومعاوية ، لا يسعه إلا أن يحكم بأن عدم التوفيق كان راجعا لقلة خبرة هؤلاء الرسل بالسياسة وشدة ميلهم إلى الحرب مما أفسد القلوب وزاد الفرقة (٤) بين المسلمين. ويظهر

---

(١) هذا ماذكره الطبرى ، وهو يخالف ماذكره اليعقوبى من أن عمرا أشار على معاوية ألا يذكر عثمان لأن معاوية خذله. وأما عمرو فقد ترك عيانا وذهب إلى فلسطين.

(٢) على مارواه المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٧

(٣) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٧٢، مروج الذهب للمسعودى (ج ٢ ص ١٤ — ١٥)

(٤) الطبرى (ج ٥ ص ٢٤٣)

من رواية الطبرى أن رسل علىّ إلى معاوية لم يكونوا ليصلحوا رسل صلح . فقد كانت فيهم غطرسة وشدة ، وكان رسل معاوية يسيئون الرد عليهم ، مما وسع مسافة الخلف بين الفريقين .

وفى اليوم الأول من صفر سنة ٣٧ هـ عاد القتال بين علىّ ومعاوية سيرته الأولى . فكان يخرج قائد من هنا وقائد من هناك للمبارزة حتى إذا مضت سبعة أيام قال علىّ لجنده : حتى متى لا تناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ فباتوا يصلحون أمرهم . وفى ذلك يقول الشاعر :

أصبحت الأمة فى أمر عجب　　والأمر مجموع غدا لمن غلبْ

فقلت قولا صادقا غيرَ كذب　　إن غدا تهلك أعلامُ العرب

قتل عمار بن ياسر

اشتعلت نار الحرب بين الفريقين أياما متوالية . فلما قتل عمار استاء أصحاب علىّ لمقتله ، فزحفوا على جند معاوية حتى أشرفوا على الفتح . فدعا معاوية بفرسه ونادى أهل الشام : الله الله فى الحرمات والنساء والبنات ؛ وقال : هلم مَخْبَأَتك ياابن العاص فقد هلكنا . غـــير أن عمرو بن العاص قد استطاع بما أوتيه من فنون الدهاء أن يفرّق بين جند علىّ فانقسموا على أنفسهم . فقد قال عمرو لجنده : « أيها الناس ! من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه » . فرفعوا المصاحف ؛ وقال قائلهم « هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم » . فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا : « نجيب إلى كتاب الله » [1] . وقد أراد عمرو بحيلته هذه أن يكسر من حدة جند علىّ وحميتهم – وكانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار – وأن يفرق بينهم ويفتّ فى عضدهم فيكفوا عن قتالهم .

رغبة أهل العراق فى الموادعة

ولما رغب أهل العراق فى الموادعة نصح لهم علىّ ألا يغتروا بقول

(١) المسعودى : مروج الذهب (ج ٢ ص ٢٠ — ٢٢) ؛ تاريخ اليعقوبى (ج ١ ص ٢١٨ — ٢١٩) .

معاوية وأصحابه، وقال لهم: إن ذلك لم يكن إلا خديعة أرادوا بها أن يفرقوا كلمتهم ويقضوا على وحدتهم. فأبوا وطلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال؛ فأرسل إليه، فقال الأشتر للرسول: « ليس هذه الساعة التى ينبغى أن تزيلنى فيها عن موضعى. قد رجوت أن يفتح لى فيها فلا تُعْجِلْنى ». فرجع الرسول بالخبر فما انتهى إليه حتى ارتفع الضجيج وعلت الأصوات بين جند الأشتر. فقال له القوم: « والله ما نراك إلاّ أمرته أن يقاتل. إبعث إليه فليأتك، وإلاّ والله اعتزلناك ». فقال على للرسول « ويحك! قل للأشتر أن يقبل فإن الفتنة قد وقعت ». فلم يسعه إلاّ المجىء وترك ساحة القتال.

التحكيم:

أرسل علىّ الأشعث بن قيس إلى معاوية يستطلع رأيه. فقال له معاوية: « نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضونهُ ونبعث منا رجلا. ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله ».

ثم رجع الأشعث إلى علىّ فأخبره برأى معاوية، فقال الناس: رضينا وقبلنا. فاختار أهل الشام عمرو بن العاص. وقال أهل العراق قد رضينا أبا موسى الأشعرى. فقال علىّ « قد عصيتمونى أول الأمر فلا تعصونى الآن »، وبين لهم تخوفه من أبى موسى لأنه كان يخذل الناس عنهُ؛ فأبوا إلاّ إياه؛ فأذعن على كره منه.[1]

عقد التحكيم

اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى بدومة الجندل[2]

(١) أنظر اليعقوبى (ج٢ ص ٢١٨ — ٢١٩؟) والمسعودى (ج ٢ ص ٢٠ — ٢٢؟) والامامة والسياسة لابن قتيبة (ج ١ ص ٢٨٧)؟ الطبرى ج ٦ ص ٣٠

(٢) دومة الجندل بضم الدال وفتحه تبعد عن دمشق بسبعة مراحل وتقع على الطريق من دمشق إلى المدينة.

حيث كتبا عقد التحكيم فى شهر صفر سنة ٣٧ ؛ وإلى القارىء صورة الكتاب نقلا عن الطبرى [١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيى ما أحيا ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل ، وهما أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص القرشى عملا به ، وما لم يجدا فى كتاب الله عز وجل فالسنة الجامعة غير المفرقة : وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس ، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه . وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة ، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ؛ فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يردادها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء إلى رمضان ، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما ، وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط ، وأن مكان قضيتهما الذى يتقاضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، ويأخذ الحكمان من

---

(١) ج ١ ص ٣٣ — ٣٤

أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة ، وهم أنصار على من ترك ما فى هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً . اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة ! » .

اجتماع الحكمين

لما حان وقت اجتماع الحكمين بعث على بن أبى طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثى وعبد الله بن العباس يصلى بهم ويلى أمورهم ، وأبو موسى الأشعرى معهم ؛ وبعث معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل .

رأى المسعودى فى الحكمين

وقد ذكر المسعودى (١) أنه لما دنا وفد علىّ من موضع الاجتماع قال عبدالله بن العباس لأبى موسى : « إن علياً لم يرض بك حكما لفضل غيرك . والمتقدمون عليك كثيرون ، وان الناس أبوا غيرك . وإنى لأظن ذلك لشر يراد بهم ، وقد ضم داهية العرب معك ، إن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ؛ وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة . ووصى معاويةُ عمراً فقال : يا أباعبدالله ! إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبى موسى وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى ؛ فأخذ الجد ولا تَلْقه برأيك كله » . ووافى عمراً سعد بن أبى وقاص ، وعبدالله بن عمر ، والمغيرة بن شعبة وغيرهم من جلة الصحابة الذين تخلفوا عن مبايعة علىّ . ولم يغمسوا أيديهم فى الفتنة . ويتبين لنا مما ذكره المسعودى :

١ — أن علياً أكره على اختيار أبى موسى ، فلم يثق به لأنه فارقه وخذّل الناس عنه . أما معاوية وأهل الشام فكانوا راضين بعمرو .

٢ — وأن أبا موسى لم يكن بالرجل الذى يقف أمام عمرو داهية

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤ — ٢٥ .

العرب هذا الموقف الذى يحتاج الى الحنكة فى السياسة وابتكار ضروب المكر والدهاء ، أكثر مما يحتاج الى استقصاء مسائل الدين .

الحكم

ومع هذا لم يكن ما قاله عبد الله بن العباس لأبى موسى من شأنه أن يرضيه ولا أن يبعثه على الاخلاص والشدة فى نصرة علىّ (١).

اجتمع الحكمان فى شهر رمضان سنة ٣٧ هـ ؛ وفى هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره . إذ استدرج أبا موسى حتى خلع علياً على حين ثبت عمرو موكله معاوية بن أبى سفيان . قال المسعودى : (٢) قال عمرو : يا أبا موسى ! رأيتُ أول ما نقضى به من الحق أن نقضى لأهل الوفاء بوفائهم وعلى أهل الغدر بغدرهم ؛ فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه وذكر الحدث الذى حلّ بالاسلام والخلاف الواقع بأهله ، ثم قال : يا عمرو ! هلم الى أمر يجمع اللهُ فيه الألفةَ ويلم الشعث ويصلح ذاتَ البيْن . فجزاه عمرو خيراً وقال : إن للكلام أولا وآخراً ، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله ، فاجعل ما كان من كلام نتصادر عليه فى كتاب يصير إليه أمرنا . فقال أبو موسى : فاكتب . فدعا عمرو بصحيفة وكاتب . فتقدم اليه ليبدأ به أولا دون أبى موسى لما أراد من المكر به ؛ ثم قال له بحضرة الجماعة : اكتب فانك شاهد علينا ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى يستأمر الآخر فيه ، فاذا أمرك فاكتب ، واذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا . اكتب . . . !

محضر التحكيم

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ، تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ثم قال عمرو نشهد أن أبا

(١) أنظر تاريخ عمرو بن العاص للمؤلف ص ١٦٦ — ١٧٨

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥

بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله إليه ، وقد أدى الحق الذى عليه . قال أبو موسى : أكتب ! ثم قال فى عمر مثل ذلك . ثم قال عمرو : أكتب ! وأن عثمان وَلِىَ هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى منهم ، وأنه كان مؤمناً . فقال أبو موسى : ليس هذا والله مما قعدنا له . قال عمرو : والله لابد من أن يكون مؤمنًا أو كافراً . قال أبو موسى : اكتب . قال عمرو : فظالماً قُتل أو مظلومًا ؟ قال أبو موسى : بل قتل مظلومًا . قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطانًا يطلب بدمه ؟ قال أبو موسى : نعم ! قال عمرو: فهل تعلم لعثمان وليًا أولى من معاوية؟ قال أبو موسى : لا . قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه ؟ قال أبو موسى : بلى ! فقال عمرو للكاتب : أكتب ! وأمره أبو موسى فكتب . قال عمرو : فإنا نقيم البينة على أن عليًا قتل عثمان . قال أبو موسى : هذا أمر حدث فى الاسلام وإنما اجتمعنا لله ، فهلم إلى أمر يُصلح الله به أمة محمد . قال عمرو : وما هو ؟ . قال أبو موسى : قد علمتَ أن أهل العراق لايحبون معاوية أبداً وأن أهل الشام لايحبون عليًا أبداً ؛ فهل نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر ؟ فعمد عمرو إلى ماقاله أبو موسى فصوّبه ، وعدّد له جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر . فأخذ عمرو الصحيفة وطواها بعد أن ختماها جميعاً »

نظرة فى عقد التحكيم

ويتبين لنا مما كتب بتلك الصحيفة مبلغ تفوق عمرو بن العاص على أبى موسى الأشعرى فى الدهاء والسياسة . ولا غرو فقد استدرجه حتى أقر له بأن عثمان قتل مظلومًا ، وأن لمعاوية الحق فى أن يطلب بدمه المسفوك ؛ حتى إن المطلع على هذه الصحيفة ليشك فى

عليّ أكثر من معاوية . وهكذا تمكن عمرو من تنفيذ غرضه والوصول إلى غايته وهو خلع عليّ بن أبي طالب وتثبيت معاوية بن أبي سفيان على الرغم من تشبث أبي موسى بخلع معاوية واستخلاف علي وعبد الله بن عمر دون غيره من الصحابة

رواية الطبرى

قال الطبرى [(١)] : قال عمرو لأبي موسى : (بعد أن عدد أسماء كثيرين من الصحابة لتولية الخلافة) : مارأيك ؟ قال : رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختارون لأنفسهم من أحبوا . فقال له عمرو : إن الرأى مارأيت وقال : ياأبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . فتكلم أبو موسى : إن رأيي ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة . فقال عمرو : صدق ، تقدم ياأبا موسى فتكلم ! فتقدم أبو موسى ثم قال : أيها الناس ! إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولمّ شعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأيه عليه ، وهو أن نخلع عليًا ومعاوية فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت عليًا ومعاوية . فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا . ثم أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه . وقال : إن هذا قد قال ماسمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه وليّ عثمان بن عفان رضي الله عنه والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابذا ، وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة ؛ ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة . [(٢)]

---

(١) ج ٦ ص ٣٩

(٢) روى الطبرى (ج ٦ ص ٣٩) أن عبد الله بن العباس قال لأبي موسى حين أراد عمرو أن يتقدمه : ويحك إني والله لأظن عمرا قد خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه ليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده . فإن عمرا رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه . فإذا قمت فى الناس خالفك .

رأينا فى التحكيم

ونحن نشك فى هذا ونميل إلى ماقاله المسعودى (١) أنه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب فى الصحيفة ، واقرار أبى موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك ، وأنهما لم يخطبا ، وإنما كتبا صحيفة فيها خلع علىّ ومعاوية وأن يولى المسلمون من أحبوا .

على أن المؤرخين يظلمون أبا موسى حين يرمونه بالغفلة وقصور الرأى . وأما نحن فنعتقد أن الرجل قد اختير عن أهل العراق فنصح لهم وصادف أن خالف رأيه رأىَ علىّ وبنى هاشم ؛ فكان هذا مصدر سخط بعض المسلمين عليه . ولاشك أن رأى أبى موسى كان رأى طائفة عظيمة من معاصريه .

ولم يكن ماقام به عمرو بن العاص من مبايعته معاوية كافياً وحده لتثبيت ملك صاحبه ؛ بل كانت هناك أمور جديرة بالذكر فيها :

١ - إضطراب حالة جند علىّ بن أبى طالب الذى أراد معاودة الكرة على معاوية وبخاصة بعد موقعة صفين وانشقاق الخوارج عليه .

الثانى : اتحاد جند معاوية والتفافهم حوله وتفانيهم فى نصرته . ولا غرو فقد عمل منذ ولى بلاد الشام فى عهد عمر على استمارها باتباعه وذوى قرباه وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح .

وإن الناظر فى أمر التحكيم يجد أنه لم يكن قائماً على أساس ، إذ لم يكن من وراء الحكمين قوة من المسلمين تستطيع تنفيذ حكمها . فقد اتفق الحكمان على خلع علىّ ومعاوية ، وأن يستقبل المسلمون أمرهم من جديد فيولون عليهم من يختارونه للخلافة ، ودونا ذلك فى صحيفة ختما عليها جميعا . بيد أننا نرى أن الفريقين لم يذعنا لهذا الحكم ، مع أن الحكمين قد فوض اليهما الفصل فى هذا الخلاف .

وكل ما كان للتحكيم من أثر هو أنه أعطى الفرصة لجند الشام

---

(١) مروج الذهب (ج ٢ ص ٢٧)

بالاستئثار بالأمر بعد أن دب الشقاق بين جند عليّ . ويكاد يشبه موقف الحكمين فى هذا النزاع موقف عصبة الأمم فى الخلاف القائم بين إيطاليا والحبشة الآن . فقد عقدت عصبة الأمم أكثر من جلسة وأصدرت أكثر من قرار ، ولم يكن لها من القوة ما يمكنها من احترام قراراتها .

ولما علم عليّ بهذه الخدعة أراد أن يحكم السيف بينه وبين معاوية ، وأخذ يستعد لقتاله من جديد . فلما تكامل جيشه واعتزم المسير الى الشام ، جاءته الأخبار أن الخوارج ساروا نحو « المدائن » .

ظهور الخوارج :

انتهت موقعة صفّين على النحو الذى تقدم ، وانصرف عليّ من صفين وعاد معاوية إلى دمشق . ولكن شتان بين رجوع أهل الشام وأهل العراق . عاد أهل الشام متفقى الكلمة ، ورجع أهل العراق وقد وقع الخلاف بينهم ودب الانقسام إلى صفوفهم . يقول الطبرى [1] « خرجوا إلى صفين مع على وهم متوادّون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ، ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم . ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط ؛ يقول الخوارج : يا أعداء الله أوهنتم فى أمر الله عز وجل وحكمتم ، وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا » . فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء [2] ، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا ونادى

نزولهم حروراء

---

(١) ج ٦ ص ٣٥

(٢) هى قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين . نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا عليا ، فنسبوا اليها وسموا حرورية (أو خوارج) . انظر لفظ حروراء فى معجم البلدان لياقوت ٢ والفرق بين الفرق للبغدادى ص ٥٧ .

Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 209

مناديهم : « إن أمير القتال شبث بن رِبْعى وأمير الصلاة عبدالله بن الكوّاء اليشكرى ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

وهكذا نجد أن الذين كانوا بالأمس ينادون لتحكيم قد انشقوا على علىّ لأنه قبله ، وأخذوا يلومونه على ذلك ويلومون أنفسهم لانخداعهم بتلك الخدعة وهم قاب قوسين من النصر أو أدنى.

رأى الخوارج فى بيعة على

ويتضح مما تقدم أن الخوارج إنما خرجوا على علىّ وانشقوا عليه مع أنهم كانوا بالأمس من حزبه وأعوانه ، لأنهم كانوا يعتقدون أن عليا إمام بويع بيعة صحيحة ، فلا معنى لقبول التحكيم مع جماعة خرجوا عليه ، بل كان الأجدر به أن يمضى فى حربهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس أو يقتلوا عن آخرهم .

مفاوضة على الخوارج

أخذ علىّ فى مفاوضتهم حتى يرجعوا عن رأيهم ، فأرسل اليهم عبد الله بن عباس ، فناقشهم واقتنع كثير منهم بحجته فرجعوا عن رأيهم وامتنع آخرون فخرج اليهم علىّ بنفسه ثم سألهم « ماأخرجكم علينا ؟ » قالوا : حكومتكم يوم صفين . فقال : « أنشدكم الله ألستُ قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم علىّ رأيى ، ولما أبيتم إلا ذلك ، اشترطنا على الحكمين أن يحكما بما فى القرآن ، فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم بما فى القرآن وإن أبيا فنحن من حكمهما براء ؟ » . قالوا له : « خبّرنا . أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ » . فقال : « إنا لم نحكم الرجال ، وإنما حكمنا القرآن . وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال» . قالوا : خبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ » قال : ليعلم الجاهل ويثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة ، ادخلوا مصركم ! » ، فدخلوا إلى أن ينتهى الحكمان من حكمهما (١) .

---

(١) طبرى ج ٦ ص ٣٧

هؤلاء هم نواة الخوارج الذين كان لهم شأن كبير فى تاريخ الاسلام، وهذا مبدأ ظهورهم . ومن ثم أصبحنا أمام ثلاثة أحزاب بعد أن كنا تجاه حزبين اثنين : حزب علىّ وحزب معاوية أو ان شئت فقل : حزب الشيعة وحزب الأمويين .

وإن الناظر الى هذا الحزب الجديد ـ حزب الخوارج ـ يرى أنهم كانوا من حزب الشيعة أنصار علىّ ، ولكنهم انشقوا على هذا الحزب من أجل التحكيم .

مناقشة بعض آراء الخوارج

ولكن أمر هذا الحزب الجديد يدعو الى العجب والحيرة ؛ فان هؤلاء لم يبنوا خروجهم على أمر معقول يبرر انشقاقهم ، لأنهم هم الذين أشاروا بهذا التحكيم ؛ وإن عليا لم يقبله إلا بعد أن أكرهوه على قبوله . فكيف إذاً يسوغون لأنفسهم أن يخرجوا على ماأبرموه ؟ وأما قولهم إن عليا بقبوله التحكيم قد شك فى خلافته ؛ فهذا أمر غير صحيح لأن صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له ، فاذا رأى من خصمه إنكاراً لهذا الحق وتمسكا بوجهة نظره ؛ فانه لا طريق أمامه إلا أن يرفع الأمر لقاض أو لمحكمين حسما للنزاع .

وصفوة القول أن هذه الفئة الجديدة قد بنت أمرها على مقدمات لم تتضح بعد ، فزادوا كلمة المسلمين تفريقاً وخدعوا بما ظهر لهم أنه الصواب ، كما قال لهم علىّ حين رددوا قولتهم المشهورة « لا حكم إلا لله » « كلمة حق يراد بها باطل » .

يوم النهروان :

لم يستطع على أن يجارى هؤلاء القوم فى رأيهم ، وهو أنه أخطأ أو كفر على الرغم مما أبدوه من الاستعداد للعودة إلى صفوفه ، وقولهم بأن ليس عليه من حرج إذا ما أجابهم إلى ماطلبوه ؛ مع أنه كان يعتبر رجوع هذه الطائفة إلى صفوفه من شأنه أن يزيده قوة أمام

مناوئيه ؛ فقد رأى فى إجابة طلبهم إقرارا بكفره على الرغم من أنه كان يعتقد أنه إنما يعمل للمصلحة العامة ابتغاء مرضاة الله .

اجتمع الخوارج من أهل البصرة والكوفة وقصدوا إلى النهروان واستخلفوا عليهم رجلا منهم هو عبد الله بن وهب الراسبى [١] ، وأخذوا يقتلون كل من لم يشاطرهم عقيدتهم ويعترف بخليفتهم ويلعن عثمان وعليا . قال الفخرى « وقد صدرت منهم أمور متناقضة تدل على أنهم كانوا يخبطون خبط عشواء [٢]. من ذلك أن رطبة سقطت من نخلة فتناولها رجل ووضعها فى فمه ؛ فقالوا له : أكلتها غصبا وأخذتها بلا ثمن ؛ فألقاها . ومنها أن خنزيراً لبعض أهل القرى مرّ بهم فضربه أحدهم بسيفه فعقره ؛ فقالوا : هـــذا فسادٌ فى الأرض ؛ فمضى الرجل إلى صاحب الخنزير وأرضاه . ومنها أنهم كانوا يقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، فقتلوا عبدالله بن خبّاب ، وهو من كبار الصحابة ، وقتلوا كثيرا من النساء وعثوا فى الأرض فسادا . فلما بلغ عليا أمرهم — وكان قد خطب فى الكوفة وندبهم إلى قتال أهل الشام وإعادة الحرب سيرتها الأولى — قالوا : يا أمير المؤمنين ! أين نمضى وندع هؤلاء الخوارج يخلفوننا فى عيالنا وأموالنا ؟ سر بنا إليهم ؛ فإذا فرغنا من قتالهم ، رجعنا إلى قتال أعدائنا من أهل الشام . فسار على بالناس إلى الخوارج ؛ فلقيهم على النهروان وأبادهم ؛ فكأنما قيل لهم : موتوا فماتوا . » [٣] .

---

(١) Brünnow, Dei Charischiten unter den ersten Omayyaden, p. 18.

(٢) نرى أن هذا ليس من التناقض فى شىء وإنما هو أقرب الى أن يكون غلواً فى تطبيق مذهبهم .

(٣) الفخرى ص ٩٠ — ٩١ ، والطبرى ج ٦ ص ٤٦ وما بعدها

Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. 1. pp. 222—223

هزيمة الخوارج

لما التقى على والخوارج بالنهروان ولوا هاربين إلى ناحية الجسر ؛ فظن الناس أنهم قد عبروه ؛ فقالوا لعلى : ياأمير المؤمنين ! انهم قد عبروا الجسر فالقهم قبل أن يبعدوا . فقال على : ماعبروا وان مصارعهم دون الجسر ، ووالله لا يقتل منكم عشرة ولا يبقى منهم عشرة ؛ فشك الناس فى قوله . فلما أشرفوا على الجسر رأوهم لم يعبروا ؛ فكبر أصحاب على وقالوا له : هو كما قلت يا أمير المؤمنين . قال : نعم . والله ما كذبت ولا كُذبت . فلما انتهت الوقعة وسكنت الحرب ، أحصى القتلى من أصحاب على ؛ فكانوا سبعة . وأما الخوارج فذهبت طائفة منهم قبل أن تنشب الحرب وقالوا : والله ماندرى على أى شىء نقاتل على بن أبى طالب ، سنأخذ ناحية حتى ننظر الى ماذا يؤول الأمر ؛ وأما الباقون فثبتوا ، وقاتلوا فهلكوا جميعهم . فلما فرغ على من هزيمة الخوارج ، رجع الى الكوفة وندب الناس الى قتال أهل الشام ، فتثاقلوا ؛ ولما وعظهم وحثهم على الجهاد ؛ قالوا : ياأمير المؤمنين ! كلّت سيوفنا وفنيت نبالنا ومَلِلْنَا من الحرب ، فأمهلنا نصلح أمورنا ونتوجه ، وكان قد عسكر ظاهر الكوفة ، فأمهلهم وأمرهم أن يوطنوا نفوسهم على الحرب ونهاهم عن الرجوع الى أهليهم حتى يعودوا من الشام ؛ فصاروا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى خلا المعسكر منهم ؛ فلم يجد على منهم أذنا مصغية وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين من الهجرة[1].

الدعوة الى حرب معاوية

تثاقل المحاربين عن على

وبينما كان على يلقى الشدائد على يد أصحابه الذى تثاقلوا عنه وتسللوا من جيشه ، كان معاوية قد تمكن من الاستيلاء على مصر سنة ٣٨ هـ على يد عمرو بن العاص [2] ؛ فأقره والياً عليها وأعطاه إياها

استيلاء معاوية على مصر

---

(١) الفخرى : ص ٩١ — ٩٢

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٥٨ — ٦٠

على أن يدفع للجند عطاءهم وما بقى فله . واستقرت ولاية مصر لعمرو ابن العاص من جديد وأصبح له السلطان المطلق فى إدارة شئونها .

نشاطه للاستيلاء على غيرها

ولم يكتف معاوية بذلك ؛ بل أخذ يجهز الحملات إلى أطراف البلاد التى تحت سلطان على لغزوها . وقد أدرك أصحاب على هذا الخطر ، عند ماذهب معاوية إلى بيت المقدس وصار يدعو إلى نفسه بالخلافة ؛ فما كان منهم إلا أن انضموا إلى علىّ وكوّنوا جيشًا بلغ أربعين ألف مقاتل . ولم يكد هذا الجيش يتحرك لقتال معاوية حتى

قتل على غيلة

طعن عليًا عبدالرحمن بن ملجم أحد الخوارج بسيف مسموم ، فتوفى فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ . وذلك أن ثلاثة من الخوارج أجمعوا أمرهم على قتل علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص جميعًا فى يوم واحد لترتاح الأمة الاسلامية من تلك الحروب التى شنوها من أجل الخلافة . فأما ابن ملجم فقد قتل عليًا (١) كرم الله وجهه . وبوفاته انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، ولم يفز الذى ندب نفسه لقتل معاوية . أما ماكان من أمر عمرو بن بكر الذى عزم على قتل عمرو بن العاص ؛ فإنه جلس له فى الليلة المعهودة ؛ فلم يخرج عمرو بن العاص لمرض ألمّ به وندب خارجة ابن حذافة قاضى مصر أن يصلى بالناس . وبينما هو فى الصلاة ضربه الخارجى بالسيف فقتله يظنه عمراً ؛ فلما علم أن المقتول غير عمرو قال : أردت عمرا واراد الله خارجة ؛ فذهبت مثلا . ولما وقف الرجل بين يدى عمرو بكى ؛ فقيل له : أجزعًا من الموت مع هذا الاقدام ؛ فقال : لاوالله ، ولكن غمًا أن يفوز صاحباى بقتل على ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو (٢) »

---

(١) وقد زاد الطبرى ان الرجل عند ماذهب إلى الكوفة لقتل على ، كان مقيما بين إخوانه الخوارج ولم يعلمهم بعزيمته مما يدل على أن هذا العمل كان تدبيرا شخصيا مقصورا على هذا الرجل وزميليه .

(٢) وقد روى السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص ١١٨ رواية اخرى فى قتل على هى أن ابن ملجم إنما قتل عليا لأنه أغرم بامرأة خارجية اسمها قطام وأمهرها ثلاثة آلاف درهم وأن يقدم

صفات علي :

اتصف علي بن أبي طالب بالخصال الحميدة منذ نعومة أظفاره . وليس هذا ببعيد عليه ؛ إذ نشأ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأدب بآدابه العالية وتخلق بصفاته الكريمة ؛ وكان أول من أسلم من الصبيان كما تقدم . وقد أحله الرسول من نفسه المحل اللائق به ؛ فعهد إليه بكثير من أمور المسلمين فأبلى فيها بلاء حسنا وأخلص في نصرة الاسلام ، فعلا أمره ونبه ذكره واشتهر بالشجاعة والبطولة. ولا أدل على ذلك من تعرضه للخطر ليلة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ لبس ثوب النبي وبات في فراشه مع علمه بعزم المشركين على قتل الرسول في تلك الليلة ، واختيار النبي صلى الله عليه وسلم إياه في غزو خيبر للهجوم على الأعداء (على ماذكرناه في صفحة ١٩٨) إذ قال : لأعطينّ الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فيفتح الله عليه . فلما أصبح الناس دعا عليا ووجهه إلى فتح خيبر .

شجاعته

كما اشتهر بالمروءة والوفاء واحترام العهود والحرص على مال المسلمين. يدل على ذلك ماذكره الطبري [1] والفخري من أن أبا رافع خازن بيت المال في عهد علي قال : دخل عليّ يوما وقد زينت ابنته ، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال قد كان عرفها فقال : من أين لها هذه ؟ لله عليّ أن أقطع يدها . فلما رأيتُ جده في ذلك قلت : أنا ياأمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي . ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطها؟ فسكت .

حرصه وتشدده في أموال المسلمين

أضف الى ذلك ماذكره الفخري من أن عقيل بن أبي طالب أخا عليّ

لما رأس علي بن ابي طالب . وفي ذلك يقول الفرزدق :

فلم أر مهرا ساقه ذو سماحة ٭ كمهر قطام بين غير معجم .

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ٭ وضرب علي بالحسام المصمم

فلا مهر أغلى من علي وان غلا ٭ ولا فتك الادون فتك ابن ملجم

(١) الطبري جـ ٦ ص ٩٠

من أبيه وأمه طلب من بيت المال شيئا لم يكن له بحق فمنعه على وقال : ياأخى ! ليس لك فى هذا المال غير ماأعطيتك . ولكن اصبر حتى يجىء مالى وأعطيك ماتريد » . فلم يرض عقيلا هذا الجواب ففارق عليا وقصد معاوية بالشام (١) . وكان علىّ لايعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما . هذا وقد كان يرجع إليه فى كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية الحديث ومسائل الميراث والمشكل من القضايا . روى أن عمر كان يتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن (٢)

علمه بمسائل الدين وتفسير القرآن

كفايته فى القضاء

وكان على يقول : سلونى سلونى عن كتاب الله تعالى فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أم نهار فى سهل أم فى جبل .

بلاغته

وكان على مضرب الأمثال فى الفصاحة ، يلقى القول فيأخذ بمجامع القلوب ويخطب الخطبة فيثير النفوس ويحمسها للحرب ، كما كان أشعر الخلفاء الراشدين . أخرج السيوطى عن الشعبى قال : كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر ، وكان عثمان يقول الشعر ، وكان على أشعر الثلاثة (٣) .

وصف نيكلسون لعلى بن أبى طالب

« كان علىّ يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه ، رغم ما كان يمتاز به من الفضائل الكثيرة . فقد كان نشيطا ، ذكيا ، بعيد النظر ، بطلا فى الحرب ، مشيرا ، حكيما ، وفيا ، شريف الخصومة . نبغ فى الشعر والبلاغة . وقد اشتهرت أشعاره وخطبه فى الشرق الإسلامى ، على

---

(١) الفخرى ص ٨١

(٢) أبو حسن كنية على بن أبى طالب

(٣) الخلفاء للسيوطى ص١٢٢

الرغم من أن الكثير منها مدسوس عليه . ويمكن مقارنته بمونت روز (Montrose)[١] وبيارد (Bayard)[٢] من حيث الشجاعة والنجدة ، وكانت تنقصه الحنكة السياسية وعدم التردد فى اختيار الوسائل أيا كانت لتثبيت مركزه . ومن ثم تغلب عليه منافسوه الذين عرفوا أول الأمر أن الحرب خدعة ، والذين كانوا لا يتورعون عن ارتكاب أى جرم يبلغ بهم الغاية ويكفل لهم النصر » .[٣]

---

(١) اشتهر جيمس جراهام مونتروز James Graham Montrose (١٦١٢ — ١٦٥٠ م) بالبطولة والشجاعة فى الثورات التى قامت فى اسكتلنده سنة ١٦٢٧ م

(٢) كان Pierre Terrail Bayard من مشهورى قواد فرنسا . ولد بمدينة جرينوبل سنة ١٤٧٣ م وأحرز النصر والظفر فى جميع الحروب التى وقعت فى عهد شارل الخامس ولويس الثانى عشر وفرنسوا الأول . وقد أثارت شجاعته وكرمه إعجاب الناس حتى الكثيرين من أعدائه أنفسهم .

(٣) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 191.

الباب الرابع

الدولة الأموية

معاوية ابن أبى سفيان

٤٠ — ٦٠هـ ؟ ٦٦٠ — ٦٨٠ م

نسبه

ينتسب معاوية بن أبى سفيان بن حرب [١] مؤسس الدولة الأموية التى دان لها المسلمون زهاء ثمانين سنة (٤٠ — ١٢٢ هـ) إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَى . وكان أمية هـذا من سادات قريش فى الجاهليـة ؛ وكان فى الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم بن عبد مناف . لهذا لانعجب إذا تنافس هذان البطنان رياسة قريش مما أدى إلى قيام العداء بينهما فى الجاهلية والاسلام

شرف بيته فى الجاهلية

وكان أمية تاجراً كثير المال والعيال ؛ فكان له عشرة من الأولاد امتازوا بالشرف والسيادة ، منهم حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان . وكان حرب بن أمية قائد قريش يوم الفجار ، كما قاد أبو سفيان قريشاً فى حروبها ضد النبى . وهو صاحب العير القادمة من الشام إلى مكة التى وقعت من أجلها موقعة بدر الكبرى . وكان رئيس الجيش النافر وقتئذ لحماية قريش عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه . فكان أبوه صاحب العير وجده صاحب النفير . وبهما يضرب المثل فيقال للخامل « لا فى العير ولا فى النفير » [٢]

مولده واسلامه

ولد معاوية بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة ، وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، واتخذه الرسول كاتباً للوحى . — ولما فتحت مكة فى السنة الثامنة من الهجرة أراد أبو سفيان أن يمنع الأذى والمذلة عن قومه ،

---

(١) وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن قصى . وهى أم اخيه عتبة . وأما يزيد ابن أبى سفيان ومحمد بن أبى سفيان وحنظلة بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان فمن أمهات أخرى .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ١ ص ١١٠

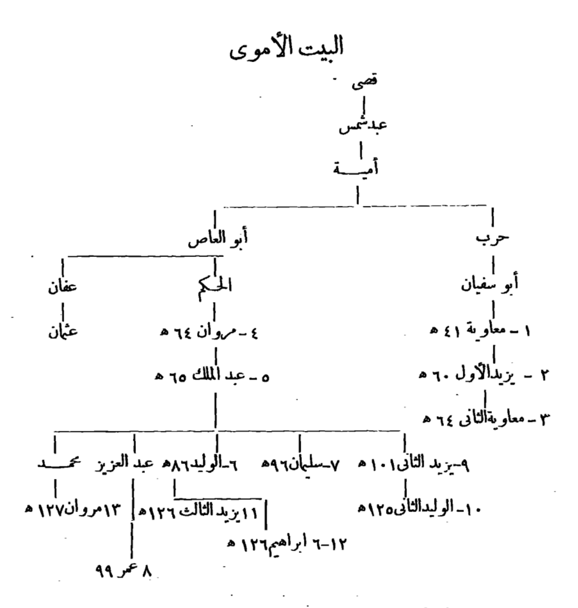
شرف أبي سفيان في الاسلام

وأنهى العباس ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر مناديا ينادي بمكة : من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . وبذلك سوى الرسول بين بيت أبي سفيان وبيت الله ، وهو شرف عظيم لم ينله أحد مثله . فليس من عجب إذا أسلم كثير منهم وأخذوا يعملون على نشر الاسلام ومد فتوحه ؛ فأبلوا في حرب الردة بلاء حسنا ، وسار بعضهم إلى الشام ، فاشتهر أمرهم وعظم ذكرهم . ومنهم يزيد بن أبي سفيان الذي ولاه أبو بكر قيادة أحد الجيوش الأربعة التي أنفذها لفتح الشام ، وولاه عمر دمشق ، كما ولى أخاه معاوية ماوليها من البلاد الشامية . فلما مات يزيد أضاف عمر إلى معاوية ما كان لأخيه ؛ ولما ولى عثمان الخلافة ولاه الشام كلها ، وظل على ذلك حتى قتل عثمان فاستقل معاوية بالشام . ولما بويع علي بالمدينة امتنع معاوية من المبايعة له متهما إياه بالهوادة في أمر عثمان وإيوائه قتلته في جيشه وعدم القصاص منهم ، وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة علي ، مما أحدث الخلاف والانشقاق بين أهل العراق وأهل الشام ، أو بعبارة أخرى بين المسلمين كافة . وقصارى القول أن بيت عبد شمس انتقل من سيادة في الجاهلية إلى سيادة في الاسلام .

معاوية في الشام

خلافة الحسن بن علي

نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة وبالمكيدة والسياسة تارة أخرى . فقد دعا المسلمون الى الحسن بن علي بعد قتل أبيه واستخلفوه ؛ إلا أن خلافته لم تثبت أمام قوة معاوية وما كان من رواج الاشاعة بانهزام جيوشه أمام جند الشام مما أدى إلى تخلي أهل العراق عنه ؛ فلم يجد بداً من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين . على أن الدافع الحقيقي الذي حدا بالحسن الى النزول ، إنما يرجع - على ماذهب اليه اليعقوبي -



فى تاريخه (١) إلى أنه أصبح لاقبل له بمعاوية وجنده ؛ فعقد معه صلحاً نزل له فيه عن حقه فى الخلافة ، على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا . وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق فى كافة الولايات الاسلامية .

نزوله عن الخلافة لمعاوية

وفى الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١ هـ (٢) دخل معاوية

معاوية خليفة

(١) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٥٤

(٢) أنظر هامش ٥ ص ٣١ من كتاب الفاطميين للمؤلف .

الكوفة (١) حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، ورحل الحسن بعد ذلك الى المدينة ولزم منزله حتى مات (٢) .

سياسة معاوية ازاء الخوارج والشيعة :

يقول الأستاذ نيكلسن (٣) : اعتبر المسلمون انتصار بنى أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للأرستقراطية الوثنية التى ناصبت الرسول وأصحابه العداء ، والتى جاهدها رسول الله حتى قضى عليها وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتى نصرهم الله ، فقضوا عليها وأقاموا على أنقاضها دعائم الدين الاسلامى ، ذلك الدين السمح الذى جعل الناس سواسية فى السراء والضراء وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء ويستذلون الضعفاء ويبتزون الأموال . لذلك لا ندهش إذا كره المسلمون بنى أمية وغطرستهم وكبرياءهم وإثارتهم للأحقاد القديمة ، ونزوعهم للروح الجاهلية ولاسيما وأن جمهور المسلمين كانوا يرون أن من بين الأمويين رجالا كثيرين لم يعتنقوا الاسلام إلا سعياً وراء مصالحهم الشخصية ، وأنهم لا حق لهم فى الخلافة . ولا غرو فقد كانت

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦

(٢) اختلف المؤرخون فى سبب وفاة الحسن وتاريخ موته ؛ فذهب بعضهم الى أنه مات حتف أنفه بعد أربعين يوما من وصوله الى المدينة ، وقد ذكر صاحب كتاب البدء والتاريخ أن الحسن توفى سنة ٤٩ من الهجرة ، كما روى لنا أن المؤرخين قد اختلفوا فى سبب موته ، فقال : زعم قوم أنه زج ظهر قدمه فى الطواف بزج مسموم (الزج : الحديدة التى فى أسفل الرمح) . وقال آخرون ان معاوية بن أبى سفيان دس الى جعدة بنت الاشعث بن قيس بأن تسم الحسن ويزوجها يزيد فسمته وقتلته ؛ فقالت لها معاوية . ان يزيد منا بمكان وكيف يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله ، وعوضها عنه مائة ألف درهم (كتاب البدء والتاريخ المنسوب الى أبى زيد أحمد ابن سهل البلخى وهو المطهر بن طاهر المقدسى ج ٦ ص ٥ طبعة باريس سنة ١٩١٩)

(٣) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 193.

سياسة بنى أمية ترمى الى جعل الخلافة مُلكا كسرويا ؛ وليس أدل على ذلك من قول معاوية « أنا أول الملوك » (١) .

المسلمون عند تولية معاوية الخلافة

وكانت الأمة الاسلامية عند تولى معاوية ثلاثة أحزاب :

١ - شيعة بنى أمية من أهل الشام وغيرها من سائر الأمصار الاسلامية وخاصة مصر ؛ وكانوا يرون الخلافة فى قريش وأن أهل البيت الأموى أولاهم بها .

٢ - شيعة على بن أبى طالب ؛ وكانوا ببلاد العراق وقليل منهم بمصر ؛ وهؤلاء يرون الخلافة فى قريش أيضا وأن أحق الناس بها على ابن أبى طالب وأولاده من بعده .

٣ - الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماءهم ويرونهم خارجين على الدين ؛ وقد كان هؤلاء الخوارج يمثلون الديمقراطية الاسلامية ؛ إذ كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم ما دام كفؤا لا فرق فى ذلك بين قرشى وغير قرشى .

كان لكل من هذه الأحزاب أتباع وأشياع يدينون برأيه فى الخلافة . ومنها الديمقراطى كحزب الخوارج . وغير الديمقراطى كبقية الأحزاب الأخرى . وعلى هذا أخذ كل حزب يناضل بقية الأحزاب ليصل إلى غايته . وقد اشتد النزاع بينها جميعا وجرد كل فريق السيف على الآخرين عسى أن ينتزع الخلافة ويستخلصها لنفسه . وقد استمر الكفاح والجلاد بين الأمويين والهاشميين حتى تغلب الآخرون فى النهاية وقامت دولة بنى العباس .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٧٦ .

يروون عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان أول دينكم بدء نبوة ورحمة ثم يكون خلافة ورحمة ، ثم يكون ملكا وجبرية ، وأنه قال : الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك . قال العلماء : لم يكن فى الثلاثين بعده صلى الله عليه وسلم الا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن (السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٦ — ٧)

ولنبدأ الآن بالكلام عن حزبي الخوارج والشيعة في عهد معاوية ، لأن حزب الزبيريين لم يظهر في ميدان السياسة ظهورا جديا إلا في أواخر عهد معاوية بعد أن مكث طوال حياته لا يحرك ساكناً . وإنما عوّل على الظهور إذا ما تهيأت له الفرصة . وكان معاوية يعرف ذلك عن عبد الله بن الزبير ويخاف أن ينزع الخلافة من ابنه يزيد ، فأشار الى ذلك في وصيته لابنه وحذره منه كما سيأتي .

الخوارج :

كان الخوارج أشد هذه الأحزاب خطراً ؛ إذ كان من الصعب ردهم إلى جماعة المسلمين بالحجة والاقناع . ولا عجب فقد كانوا يرون من لم يشاطرهم رأيهم من المسلمين كفاراً دماؤهم وأموالهم حلال ؛ ولذلك لم يكن بد لمعاوية من أن يسلك معهم سبيل القمع والشدة ليأمن شرهم ويقتلع ما يبذرونه من بذور التفرقة التي كادت تودى بالأمة الى الضعف والانحلال .

وكان معاوية أبغض الى الخوارج من علي ، لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين ، ولاتخاذه القصور والحرس والحجاب وما الى ذلك من مظاهر الملك التي أخذها عن البلاط البيزنطي . أضف الى ذلك أنه لم ينل الخلافة عن إجماع من المسلمين ورضى منهم .

النضال بين معاوية والخوارج

فلما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ عوّل الخوارج على قتاله ؛ وكان على رأسهم فروة بن نوفل الأشجعي الذي اعتزل عليا والحسن في خمسمائة من الخوارج بشهرزور (١) ؛ فلما بايع الحسن معاوية قال فروة لأصحابه : جاء الآن ما لا شك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه . فخرج هو وأصحابه الى الكوفة حيث كان معاوية ؛ فأرسل اليهم جيشاً من أهل الشام ؛ فلما هزمه الخوارج ؛ قال معاوية لأهل الكوفة « لا

---

(١) اقليم واسع في الجبال بين اربيل وهمذان بلاد الفرس وأهلها من الاكراد لهم بطش وشدة (أنظر معجم البلدان لياقوت)

أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم؛ فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج يقاتلونهم؛ فقالت لهم الخوارج « ويلكم ما تبغون؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم؟ دعونا نقاتله، فان أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا كنتم قد كُفِيتُمونا؛ فأبى أهل الكوفة إلا القتال حتى يغلبوهم (١).

لم يكن انهزام هذا الفريق ليثنى الخوارج عن عزمهم ولا ليثبط همتهم فى الدفاع عما يعتقدون أنه الحق. فسرعان ما قام فريق آخر بزعامة حَيَّان بن ظبيان السُّلمى وتذاكروا إخوانهم بالنهروان وما لاقوه فى سبيل الدفاع عن مبادئهم.

تفاقم شر الخوارج بعد قتل على

وكان حيان من الذين قاتلوا عليا يوم النهروان، وقد عفا عنه على عند ما أصابه جرح فى هذه الموقعة؛ فلما برىء خرج هو وجماعة من الخوارج إلى الرى وأقاموا بها حتى بلغهم قتل على. فحث حيَّان من معه من الخوارج على المسير إلى الكوفة ومناجزة أعدائهم فى هذه الخطبة: « ... فانصرفوا بنا رحمكم الله إلى مصرنا فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإلى جهاد الأحزاب. فانه لاعذر لنا فى القعود، وولاتنا ظلمة وسنة الهدى متروكة، وثأرنا الذين قتلوا إخواننا فى المجالس آمنون ». وقد كان لهذه الخطبة أثرها. فقد سار الخوارج إلى الكوفة ودخلوها، وكان من حسن حظهم أن كان عليها المغيرة بن شعبة، وكان حسن السيرة يكره اراقة الدماء؛ ولم يتدخل فى شئون الخوارج الذين اجتمعوا فى ذلك الوقت فى دار حيان حيث ولوا أمرهم المستورد بن عَلفة التَّيْمى، واتفقوا على أن يكون خروجهم فى غرة شعبان سنة ٤٣ هـ (٢) هـ.

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٩٥

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٠

المغيرة يتعقب الخوارج

على أن أحلام الخوارج لم تتحقق حين شمر المغيرة عن ساعد الجد للتنكيل بهم واستئصال شأفتهم بما عرف عنه من الدهاء والمكر. ولاغرو فقد كان ثالث ثلاثة اشتهروا بين العرب بالدهاء: وهم عمرو ابن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة هذا الذى كان يقول فيه الناس لوكان الدهاء له ثمانية أبواب استطاع المغيرة أن يخرج منها كلها.

فلما علم المغيرة بأمرهم شدد فى طلبهم وعوّل على القضاء عليهم قبل أن يشتد خطرهم؛ فقبض على جماعة منهم من بينهم حيان بن ظبيان ومعاذ بن جوين الطائى وأودعهم السجن (١)، وضيق على اخوانهم حتى غادروا الكوفة وأخذوا ينتقلون فى البلاد لايلوون على شىء. ثم ساروا الى الصراة (قرب بغداد) ومنها إلى بَهُرَسِير (٢). ولما علم المغيرة بسيرهم جمع لقتالهم جيشا من الشيعة يربو على الثلاثة آلاف، وأمر عليه معقل بن قيس الرياحى (٣) من كبار الشيعة، فأدرك الخوارج بالمذار (٤) ثم بديلمايا، وهى قرية من قرى استان بهرسير إلى جانب دجلة كانت لقدمة بن العجلان الأزدى على مقربة من ساباط، حيث قتلهم عن آخرهم.

تولية زياد بن أبيه البصرة

ولما وجد معاوية تفاقم خطر الخوارج فى العراق ولى زياد بن أبيه (٥)

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٠٤

(٢) بفتح الباء وضم الهاء وفتح الراء وكسر السين. من نواحى سواد بغداد قرب المدائن.

(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٠٨ — ١١٨

(٤) بالفتح وآخره راء. قصبة ميسان بين واسط والبصرة، بينها وبين البصرة أربعة أيام.

(٥) كان زياد واليا من قبل على بن أبى طالب على بلاد فارس، فلما قتل على اعتصم فى ولايته فبعث اليه معاوية: المغيرة، فما زال بزياد حتى ثناه عن رأيه، وأرسل اليه معاوية كتاب الامان. فسار اليه وسلمه مابقى عنده من أموال فارس، واستلحقه معاوية بأبى سفيان الذى اعترف ببنوته فى حياته على ماقيل. وشهد بذلك نفر من الناس، وان كان البعض ينكر صحة هذا النسب، ومنهم عائشة أم المؤمنين، ولهذا يقال له زياد بن سمية نسبة الى أمه وزياد بن أبيه لجهلهم اسم أبيه، وبعضهم يلحقه بأبى سفيان ومنهم معاوية.. وغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع مافى هذا الامر من العار والخزى، وانما هى السياسة تفعل ماتشاء.

البصرة سنة ٤٥ هـ ؛ فقدم البصرة فى ربيع الأول من هذه السنة ، والرذيلة فاشية بين أهلها ؛ فخطبهم خطبته المشهورة بالبتراء ، لأنه لم يحمد الله فيها ، ولِمَا أودع فيها من روائع الكلم وبديع الحكم . وفيها أبان سياسته التى عول على السير عليها فى حكم هذه البلاد ، وهى سياسة حزم وعزم كان من جرائها أن توطدت أركان ملك معاوية فى هذه البلاد واستتب الأمن والطمأنينة فى ربوعها ، واستطاع بذلك أن يضرب على أيدى الخوارج ؛ ذلك أنه أخذهم بالقوة وأوقع فى قلوبهم الرعب فانقادوا له . وحذا حذوه المغيرة فى الكوفة ، وبذلك أمن معاوية جانب أهل العراق .

الكوفة

وفى سنة ٥١ هـ أضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة بعد موت واليها المغيرة بن شعبة ؛ فلما وصل اليها خطب أهلها فُحصب وهو على المنبر ؛ فأغلق أبواب المسجد واستحلف الناس على ذلك . فمَنْ حلف خلى سبيله ، ومن لم يحلف حبسه ؛ فأودع فى السجن ثلاثين رجلا قطعت أيديهم . وكان زياد يقيم بالبصرة ستة أشهر ، وبالكوفة ستة أشهر .

الخوارج فى عهد ولاية زياد بن أبيه

وقد ضعفت شوكة الخوارج بعد المستورد بن عَلفة بفضل ماأبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة فى معاملتهم ؛ فلم تقم لهم قائمة مدة ولايته على العراق ؛ فلم يحدثوا حدثا ولم يفارقوا الجماعة حتى ولى البصرة عبيد الله بن زياد فظنوه سهلا لينا ؛ فتحركوا سنة ٥٨ هـ .

على أن ابن زياد قد قتل منهم جماعة صبرا ، منهم عروة بن أدية .

ويحدثنا الطبرى أن ابن زياد خرج فى رهان له ؛ فلما جلس ينظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة ؛ فأقبل على ابن زياد وقال له « خمس كن فى الأمم قبلنا فقد صرن فينا . (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)[١]. فلما سمع ابن زياد ذلك ترك رهانه وأضمر لعروة الشر ، فهرب عروة. غير أن ابن زياد تمكن من القبض عليه وقتله ؛ فغضب لقتله أخوه أبو بلال مرداس بن أدية ، وخرج إلى الأهواز فى أربعين رجلا من الخوارج ، فبعث اليهم ابن زياد ألفى رجل على رأسهم ابن حصن التميمى فهزمته الخوارج ، فقال شاعرهم :

أألفاً مؤمن منكم زَعَمْتم * ويقتلهم بآسك أربعونا ؟

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم * ولكن الخوارج مؤمنونا

هى الفئةُ القليلة قد عَلِمْتُم * على الفئة الكثيرة يُنْصَرونا[٢]

على أن ما أصابه أبو بلال لم يأت بطائل ؛ فقد عوّل ابن زياد على استئصال شأفته وشأفة من معه ؛ فأرسل إليه ثلاثة آلاف أوقعوا به وقتلوه وكثيراً من أصحابه سنة ٦١ هـ .

الشيعة :

خمدت روح التشيع فى نفوس أهل الكوفة وانضووا تحت لواء معاوية الذى أصبح صاحب السلطان على أثر نزول الحسن له عن الخلافة ومغادرته الكوفة الى المدينة ؛ بيد أن السياسة التى سار عليها معاوية من سب على بن أبى طالب وأهل بيته على المنابر قد أثارت حنق الشيعيين . ذلك أن معاوية لما ولى المغيرة بن شعبة على الكوفة أمره بلعن على ، فأخذ المغيرة يلعن علياً كلما قام خطيبا . وبينما هو يخطب ذات مرة سب عليا ومدح عثمان ؛ فقام حُجر بن عَدِىّ وقال له : « إن من تذمون وتعيرون لأحقُّ بالفضل ؛ وان من تزكون

(١) سورة الشعراء ٢٦ : ١٢٨ — ١٣٠

(٢) الطبرى ج ٦ ص ١٧٤

وتطرون أولى بالذم (١) » . فقال له المغيرة « ويحك ياحجر ! اتق السلطان وغضبه وسطوته ، فان غضب السلطان أحيانا ممـا يهلك أمثالك » .

سب معاوية

وقد ظل حجر على سياسته العدائية ضد سلطان بنى أمية حتى مات المغيرة وولى الكوفه بعده زياد بن أبيه ؛ فاتبع سنة من كان قبله فى سب على ؛ فزاد هذا فى حنق حجر ومن معه ، وأخذوا يعقدون الاجتماعات لسب معاوية . فلما نمى خبر هذه الاجتماعات إلى زياد ، غادر البصرة الى الكوفة وأمر رئيس شرطته أن يأتى بحجر ؛ فلما ذهب إليه سبه أصحاب حجر ومنعوه من أن يصل اليه ؛ فجمع زياد أهل الكوفة وقال لهم : « تشجُّون (٢) بيد وتأسون بأخرى ؟ أبدانكم معى وقلوبكم مع حجر الأحمق . هذا والله من رِجْسِكم . والله لتُظْهِرُنَّ لى براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أَوَدَكم » . فقالوا : « معاذ الله أن يكون لنا رأى إلا طاعتك وما فيه رضاك » . ثم أمر زياد صاحب شرطته مرة أخرى أن يقبض على حجر ويحضره إليه ؛ فتم له ذلك . ولم يلبث زياد أن أرسل حجراً وأصحابه الى معاوية (٣) ، فقتل منهم ثمانية وعفا عن ستة تبرءوا من على بن أبى طالب (سنة ٥١ هـ) .

ضعف الشيعة

وبذلك ركدت ريح الشيعة وأصبح التشيع أمرا نظريا . ولا غرو فقد كان بعضهم ينقصهم الحماس والاخلاص للمبدأ الذى كانوا يعتنقونه ، ولم يكونوا كالخوارج فى شجاعتهم وإخلاصهم لمبادئهم التى كانوا يضحون فى سبيلها بأنفسهم

وقد ظلت نفوس الشيعيين منطوية على حب على وآل بيته ؛ غير

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٢

(٢) من الشج وهو الجرح

(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٥٠

أن سياسة الشدة التى اتبعها معهم زياد بن أبيه لم تمكنهم من أن يعلنوا حب علىّ والتشيع له .

الفتوح فى عهد معاوية :

السند

غزا عبد الله بن سَوَّار الذى كان أميراً على ثغر السند القيقان [١] مرتين قتل فى ثانيتهما ، وغزا المهلب بن أبى صفرة هـذه الجهات ، ووصل إلى لاهور [٢] . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تغير على البلاد الاسلامية لما بينها من الجوار ؛ فرتب معاوية الغزو إليها برا وبحرا .

قبرص ورودس

وقد بلغ أسطول الشام فى عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة افتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص ، وجزيرة رودس ، وبعض الجزائر اليونانية ؛ أما فى البر فقد رتب الشواتى والصوائف . [٣]

محاولة فتح القسطنطينية

وفى سنة ٤٨ هـ جهز معاوية جيشا لفتح القسطنطينية برا وبحرا ، وكان على الجيش سفيان بن عوف ، وقد خرج معه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصارى ، وأمر معاوية ابنه يزيد على الجيش ؛ فساروا حتى بلغوا القسطنطينية ؛ فاقتتل المسلمون والروم . ولم يستطع جيش العرب فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الاغريقية بسفن المسلمين . وفى أثناء الحصار قتل أبو أيوب الأنصارى ؛ فدفن خارج القسطنطينية قريبا من سورها . ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيرا من جنودهم وسفنهم .

افريقية

وفى سنة ٥٠ هـ أرسل معاوية إلى عقبة بن نافع الذى كان مقيما

---

(١) من بلاد السند مما يلى خراسان

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٨ — ٤٣٩

(٣) الجيوش التى كانت تغزو هذه البلاد فى الشتاء والصيف

ببرقةوزويلة منذ أيام عمرو بن العاص عشرة آلاف جندى ؛ فدخل إفريقية وتمكن من فتحها وأسلم على يديه كثير من البربر ؛ وقد عمل العرب على إدخالهم ضمن جيوشهم . وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى اعتناق الاسلام حتى اتصل ببلاد السودان كما يقول ياقوت . وقد كون البربر نواة الجيوش التى أتمت فتح بلاد المغرب تحت قيادة قواد من العرب ، بل ومن البربر أيضا . وبذلك أصبح عقبة بن نافع واليا على إفريقية بعد أن كانت ولايتها تابعة لولاية مصر .

تمصير القيروان

وقد رأى عقبة على أثر انتصاره على البربر أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا ثورة أهل البلاد ؛ فقصد موضع القَيْرُوان (١) وأمر ببناء المدينة ؛ فبنيت كما بنى بها المسجد الجامع. ولم يلبث عقبة أن عزل وولى مكانه أبو المهاجر مولى مَسْلَمَة بن مُخَلَّد الذى ولاه معاوية مصر وإفريقية (٢)

ولاية العهد ليزيد :

بدء الفكرة

كان المغيرة بن شعبة أول من أشار على معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ، وذلك أن معاوية أراد فى سنة ٥٦ هـ أن يعزل المغيرة عن الكوفة ويستعمل عليها سعيد بن العاص ؛ فبلغ الخبر المغيرة . فذهب إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وقال له : « إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم . وإنما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال : أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم ! »

---

(١) هى مدينة مصرت فى الاسلام أيام معاوية .

(٢) أنظر كتاب البلدان لليعقوبى (طبعة دى غويه) ص ٣٤٧ — ٣٤٨ ؟ معجم البلدان لياقوت ج ٧ ص ١٩٣ — ١٩٤ ؟ كتاب الولاة للكندى ص ٣٦

ترحيب معاوية بالفكرة

ولما اختمرت الفكرة عند يزيد أعلم أباه بها ؛ فأحضر معاوية المغيرة وسأله عن هذا الأمر وما قاله يزيد ؛ فقال له : مايقول يزيد ؟ فقال يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف ، فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة . قال : ومن لى بهذا ؟ قال : أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك . » (١)

رد معاوية المغيرة إلى الكوفة وعدل عن عزله وطلب منه أن يمهد لهذا الأمر ؛ فعاد إلى الكوفة وحبب إلى الناس هذا الأمر ، فبايع أنصار الأمويين ليزيد . وأوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية فزينوا له البيعة ليزيد وطلبوا منه أن يعهد اليه ؛ وبذلك قوى عزم معاوية على البيعة ليزيد ؛ فأرسل إلى زياد بن أبيه ؛ فنصح لمعاوية أن يتريث فى هذا الأمر لعدم توافر شروط الخلافة فى يزيد وقال : « ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ماقد أولع به من الصيد . » وعاد الرسول إلى دمشق وأخبر يزيد برأى زياد فيه ؛ فكف عن كثير مما كان يصنع . وكتب زياد إلى معاوية يشير عليه بالتأنى فى هذا الأمر ؛ فعمل معاوية بمشورة زياد .

استطلاع رأى زياد ابن أبيه

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول « إنى قد كبرت سنى ودق عظمى وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى . وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك . فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك . » (٢)

استطلاع رأى أهل المدينة

---

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٢١٤

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ٢١٥

حزب المعارضة

عرض مروان الأمر على الناس فوافقوا ؛ فأخبر معاوية بموافقتهم . ثم أرسل معاوية إلى مروان كتاباً يعزم فيه على البيعة لابنه يزيد، فقرأه على الناس فى المسجد ؛ فهاج القوم وماجوا . فقال عبد الرحمن ابن أبى بكر : «ما الخيار أردتا لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل » ، وقام الحسين بن على فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله بن الزبير . (١)

وفود الأمصار

ومن ثم ظهر حزب المعارضة الذى أنكر البيعة ليزيد ، وعلى رأسه عبد الرحمن بن أبى بكر ، والحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ؛ على أن معاوية لم يأبه لهذه المعارضة وكتب إلى عماله أن يمهدوا لبيعة يزيد فى الأمصار وأن يرسلوا اليه الوفود بدمشق لاعلان رضاهم عن تلك البيعة . وقد تكلم فى هذه الوفود الضحاك بن قيس الفهرى ودعا لبيعة يزيد ، وتحققت سياسة معاوية . فأعلن البيعة لابنه بعد ماخطبهم معاوية والضحاك بن قيس وغيرهما فى تعظيم الاسلام وحرمة الخلافة ، وفضل يزيد وعلمه بالسياسة وما يترتب على مبايعته من جمع كلمة المسلمين .

أثر هذه السياسة

ويظهر أن كثيراً من هؤلاء القوم لم يرضوا عن هذه السياسة ؛ فقد انبرى له رجل عرف بالصراحة ، لا يخشى فى الحق لومة لائم هو الأحنف بن قيس فقال : «نخافكم إن صدقنا ، ونخاف الله إن كذبنا . وأنت ياأمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه . فان كنت تعلمه لله تعالى وللامة رضا فلا تشاور فيه ، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا » (٢)

---

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٢١٦

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ٢١٦

على أن معاوية قد استعمل كل أنواع الحيل والدهاء ؛ وكان «يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس» ؛ وبايعوا ابنه يزيد. فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق، ذهب الى المدينة لأخذ البيعة لابنه؛ فقابله الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله ابن عمر؛ فأساء وفادتهم. ثم دخل على عائشة أم المؤمنين فشكاهم اليها وهدد بقتلهم إن لم يجيبوه إلى بيعة يزيد؛ فنصحت له أن يرفق بهم ويحسن معاملتهم؛ فقبل النصيحة. ثم عاد معاوية إلى المدينة ولقى عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن على وأغدق عليهم الهبات، وتكلم معهم فى شأن البيعة، فقال ابن الزبير: «نخيرك بين ثلاث خصال. قال: أعرضهن. قال: تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر. قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف. قالوا: صدقت، فاصنع كما صنع أبو بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه. قال معاوية: هل عندك غير هذا. قال: لا. ثم قال: فأنتم؟ قالوا: قولنا قوله. قال: فانى قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، إنى كنت أخطب منكم، فيقوم إلىّ القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح. وإنى قائم بمقاله، فأقسم بالله لئن رد علىّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه؛ ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم، فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف؛ فان ذهب رجل منهم يردّ علىّ

مسير معاوية إلى المدينة

راى ابن الزبير

الاكراه على البيعة ليزيد

كلمة تصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفهما . ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله . فبايع الناس ؛ وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر . ثم انصرف الى المدينة ، فلقى الناس أولئك النفر ، فقالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلم رضيتم وأعطيتم وبايعتم . ؟ قالوا : والله ما فعلنا . فقالوا : ما منعكم أن تردّوا على الرجل ؟ قالوا : كادنا وخفنا القتل . » (١)

اخذ البيعة ليزيد

هكذا بايع الناس يزيد عدا هؤلاء النفر ؛ فقسا معاوية عليهم هذه قسوة شديدة ، وخالف شروط الخلافة ، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية .

وفاة معاوية

لما مرض معاوية المرض الذى مات منه سنة ٦٠ هـ أوصى الى ابنه يزيد وصية تدل على سداد رأيه وخبرته بالأمور ومعرفته بالرجال.

وصية معاوية ليزيد

واليك هذه الوصية : « أنظر الى أهل الحجاز منهم أصلك وعترتك ، فمن أتاك منهم فاكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده . وانظر أهل العراق فان سألوك عزل عامل فى كل يوم ، فاعزله ؛ فان عزل عامل واحد أهون من سل مائة ألف سيف لا تدرى على من تكون الدائرة . ثم انظر الى أهل الشام ، فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فان رابك من عدوك ريب فارمه بهم . ثم اردد أهل الشام إلى بلدهم ولا يقيموا فى غيره ، فيتأدبوا بغير أدبهم . لست أخاف عليك إلا ثلاثة : الحسين ابن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر . فأما الحسين بن على فأرجو أن يكفيكه الله فانه قتل أباه وخذل أخاه . وأما ابن الزبير فانه خب(٢) ضب ، فان ظفرت به فقطعه إربا إربا . وأما ابن عمر فانه

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٢١٧ - ٢١٨ (٢) الخب بالفتح والكسر هو الرجل الخداع

رجل قد قرقره الورع فخل بينه وبين آخرته يخل بينك وبين دنياك »(١)

أخلاق معاوية وصفاته :

كان معاوية داهية من دهاة العرب ومن أوفرهم حظا فى السياسة .

رأى مؤرخى العرب

وفى ذلك يقول صاحب الفخرى(٢) : كان معاوية عاقلا فى دُنياه ، لبيباً عالماً ، حليماً ، مَلِكاً قويا ، جيِّدَ السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا ، عاقلاحكيماً ، فصيحاً ، بليغاً يحلم فى موضع الحلم ويشتدُّ فى موضع الشدَّة إلا أن الحِلْمَ كان أغلب عليه ، وكان كريماً باذلاً للمال محباً للرياسة مشغوفاً بها ، كان يُفضل على أشراف رعيته كثيرا . فلا يزال أشراف قريش - مثل عبد الله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبد الله ابن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وأبان بن عثمان بن عفان وناس من آل أبى طالب رضى الله عنهم - يفدون عليه بدمشق فيُكرم مثواهم ويُحسن قِرَاهم ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدِّثونه أغلظ الحديث ويَجْبَهونه أقبح الجَبْهِ وهو يُداعبهم تارةً ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنيَّة والصلات الجمَّة . قال يوما لقيس بن سعد بن عُبادة رضى اللهُ عنهُ وهو رجل من الأنصار « ياقيس والله ما كنت أوَدّ أن تنكشف الحروب التى كانت بينى وبين علىّ عليه السلام وأنت حىّ » ، فقال قيس « والله إنى كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب وأنت أمير المؤمنين » ؛ فلم يقل له شيئاً . وهذا من أجمل ما كانوا يخاطبونه به . »

رأى نيكلسون

وقد وصف لنا معاوية الأستاذ نيكلسن «Nicholson» فى كتابه

---

(١) العقد الفريد لابن عبدربه ج ٣ ص ١٣١ - ١٣٢

وأما رواية هشام عن عوانه ، فليس فيها عبد الرحمن بن أبى بكر وكذلك العقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) . والرواية الصحيحة هى الخالية من ابن أبى بكر لانه مات قبل وفاة معاوية

(٢) ص ٩٩ - ١٠٠

تاريخ العرب الأدبى فى تلك العبارة : « كان معاوية سياسيا محنكا لا يقل فى مضمار السياسة عن ريشيليو « Richelieu » . فقد مكنته معرفته التامة بالطبائع البشرية من أن يجذب إليه الرجال ذوى الآراء المعتدلة فى جميع الأحزاب المعارضة له »

« Mu'awiya was a crafty diplomatist; he had been well compared to Richelieu, whose profound knowledge of human nature enabled him to gain over men of moderate opinions in all the parties opposed to him » (١)

وقد آتت هذه الصفات أكلها طوال خلافته . فبها استطاع أن يكبح جماح المسلمين عامة والخوارج خاصة وأن يسوس الأمة العربية سياسة تدل على الحكمة وحسن التدبير . وبذلك أصبح — على ماذهب إليه صاحب الفخرى — خليفة العالم وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى بالخلافة (٢)

الدارمية

وليس أدل على ماامتاز به معاوية من بالحلم من ذلك الحوار الذى دار بينه وبين الدارمية : فقد روى القلقشندى (٣) أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل الحجُون يقال لها الدارمية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها فجىء بها ، فقال ماحالك يابنة حامٍ ؟ قالت لستُ لحامٍ أدّعى ، إن عبتنى أنا امرأة من بنى كنانة . قال : صدقتِ أتدرين لِمَ أرسلت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : بعثت إليك لأسألك عــلام أحببتِ عليا وأبغضتينى ، وواليته وعاديتينى ؟ قالت : أو تعفينى ياأمير المؤمنين؟ .

---

(١) Nicholson, Literary History of the Arabs, p.195

(٢) الفخرى : الآداب السلطانية ص ١٠٠

(٣) صبح الأعشى ج١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

قال لاأعفيك . قالت أما إذا أبيت ، فانى أحببت عليا على عدله فى الرعية وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتالك مَنْ هو أولى بالأمر منك ، وطلبك ماليس لك بحق ، وواليتُ عليا على ما عُقد له من الولاية ، وعلى حبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجوْرك فى القضاء ، وحكمك بالهوى . قال ولذلك انتفخ بطنُكِ ، وعظم ثديكِ ... قالت ياهذا بهند كانت تضرب الأمثال لا بى . قال : ياهذه اربَعِى ، فإنا لم نقل إلا خيرا . إنه إذا انتفخ بطن المرأة تمَّ خلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروى رضيعها . قال لها فهل رأيت عليا ؟ قالت : لقد كنت رأيته . قال : كيف كنت رأيتيه ؟ قالتْ رأيته لم يفتنه المُلك الذى فتنك ، ولم تشغله النِّعمة التى شغلتك . قال لها : فهل سمعتِ لكلامه ؟ قالت : نعم ! والله كان يجلو القلوبَ من العمى ، كما يجلو الزيت الطّست من الصدا . قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟ قالت : وتفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم . قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فَحْلها وراعيها . قال تصنعين بها ماذا ؟ قالت أغذّى بألبانها الصغار ، وأستحيى بها الكِبَارَ ، وأصلح بها بين العشائر . قال : فان أعطيتك ذلك فهل أحُلُّ عندك مَحلَّ علىّ ؟ قالت : ماءٌ ولا كصَدَّاء . ومرعى ولا كالسَّعْدَان ، وفتىً ولا كمالك ، ياسبحان الله أودُونَهُ ، فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعُدْ بالحلم منى إليكمُ ... فمن ذا الذى بعدى يُؤَمَّلُ للحلمِ ؟

خُذِيها هنيئا واذكرى فِعلَ ماجدٍ ... جزاكِ على حربِ العَداوةِ بالسِّلمِ

ثم قال : أما والله لو كان عليا ما أعطاكِ منها شيئا . قالت والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين .

رأى المسعودى

وقد ذكر المسعودى شيئا عن حياة معاوية الخاصة وشغفه بالعلم فقال : « كان من أخلاق معاوية أنه كان يؤذن فى اليوم والليلة

خمس مرات . كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ أجزاء ثم يدخل الى منزله فيأمر وينهى ، ثم يصلى أربع ركعات . ثم يخرج الى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم الى العشى . ثم يؤتى بالغداء الأصغر : وهو فضلة عشائه من جدى بارد أو فرخ أو ما يشبهه ، ثم يتحدث طويلا . ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول يا غلام أخرج الكرسى فيخرج الى المسجد فيوضع ، فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسى . ويقوم الأحداث فيتقدم اليه الضعيف والاعرابى والصبى والمرأة ومن لا أحد له . فيقول ظلمت فيقول أعزوه ، ويقول عُدى على فيقول ابعثوا معه ، ويقول صنع بى ، فيقول انظروا فى أمره ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ، ثم يقول ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلنى أحد عن رد السلام . فيقال كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟ فيقول بنعمة من الله . فإذا استووا جلوساً قال ياهؤلاء إنما سميتم أشرافا لانكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس . ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا فيقوم الرجل ، فيقول استشهد فلان فيقول افرضوا لولده ، ويقول آخر غاب فلان عن أهله فيقول تعاهدوهم اعطوهم اقضوا حوائجهم اخدموهم . ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب ، فيقوم عند رأسه ، ويقدم الرجل فيقول له اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثاً والكاتب يقرأ كتابه ، فيأمر فيه أمراً ؛ فيقال ياعبدالله أعقب . فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتى على أصحاب الحوائج كلهم . وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء . ثم يرفع الغداء ويقول للناس أجيزوا فينصرفون ؛ فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلى ، ثم يدخل فيصلى أربع

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٠ - ٧١

ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة . فإذا كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكنانج ، والأقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميذ ، والكعك المنضد والفواكه اليابسة . وإن كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة ؛ ويدخل اليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا اليه بقية يومهم . ويجلس إلى العصر ثم يخرج ، فيصلى العصر ثم يدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع . حتى إذا كان فى آخر أوقات العصر ، خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ماينادى بالمغرب ولا ينادى له بأصحاب الحوائج ، ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب ، فيخرج فيصليها ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة خمسين آية يجهر تارة ويخافت أخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلى ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرًا من ليلتهم . ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم ، وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة . ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، ثم يخرج فيصلى الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا فى كل يوم »

شغفه بالعلم

يزيد بن معاوية

٦٠ - ٦٣ هـ ؟ ٦٨٠ - ٦٨٣ م

نشأته

ولد يزيد من امرأة بدوية ، تزوج بها معاوية قبل توليته الخلافة . غير أنها لم تحتمل المعيشة فى دمشق فردها معاوية إلى أهلها ؛ فنشأ يزيد على ماعودته عليه أمـــه من معيشة البدو وحب اللهو وعدم مراعاة القوانين . وكان فصيحاً كريما وشاعرا مُفلقا ، حتى قالوا «بدىء الشعر بملك وختم بملك » يعنون امرأ القيس ويزيد

توليته الخلافة

لمـــا مات معاوية بايع الناس يزيد بالخلافة . وقد قعد عن بيعته الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن العباس ، وعبدالله ابن عمر . فكتب يزيد إلى الوليد بن عتبة واليه على المدينة أن يأخذ له البيعة من هؤلاء النفر ، فبايعه عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن عمر . أما عبد الله بن الزبير فانه أبى وفرّ إلى مكة واستعاذ بالبيت ؛ وأخذ يعمل على الدعوة لنفسه ؛ ولكنه وجد فى الحسين بن على منافسا قويا ، فلم يجرؤ على مناوأته [١]

ولما طلب والى المدينة من الحسين بن على أن يبايع يزيد بالخلافة قال : «أما البيعة فان مثلى لا يعطى بيعته سرا ولا أراك تجتزىء بها منى سرا دون أن نظهرها على رءوس الناس علانية ... فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحدا» ، فقال له الوليد - وكان يحب العافية - فانصرف على اسم الله .

خروج الحسين بن على :

وعلى أثر هذه المقابلة توجه الحسين إلى مكة وكاتب الشيعة بالكوفة ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه كتابا جاء فيه « . . . أما بعد فالحمد لله الذى قصم

(١) الدينورى ص ٢٣٠ ؛ والطبرى ج ٦ ص ١٨٩

ظهر عدوك الجبار العنيد الذى اعتدى على هذه الأمة . فانتزعها حقوقها واغتصبها أمورها وغلبها على فيئها ، وتأمر عليها على غير رضى منها ، ثم قتل خيارها واستبقى أشرارها ، فبعدا له كما بعدت ثمود . إنه ليس علينا إمام ، فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى ، فان النعمان ابن بشير فى قصر الامارة ، ولسنا نجتمع معه فى جمعة ولا نخرج معه إلى عيد . ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام» . ثم اتبعوا هذا الكتاب بكتب أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذين حضروا الاجتماع ، وطلبوا منه فى هذه الكتب المبادرة بالذهاب إلى الكوفة » [1]

خروجه الى الكوفة

فلما وصلت اليه هذه الكتب أرسل اليهم ابن عمه مُسْلم بن عَقيل ليتبين حقيقة الأمر ، ويخبره بما يراه من أمرهم ؛ فسار مسلم إلى الكوفة حيث التف حوله كثير من الشيعيين وبايعوه على النصر ، فاغتر بما شاهده منهم وأرسل إلى الحسين يستحثه فى القدوم الى الكوفة .

قتل مسلم بن عقيل

وفى هذه الاثناء عزل يزيد النعمانَ بن بشير عن الكوفة لضعفه عن قمع الفتنة ، وولى مكانه عُبَيْدَ الله بن زياد ؛ فأخذ الشيعة بالشدة ، حتى تفرق كثير منهم عن مسلم بن عقيل . فلما رأى مسلم تفرق أهل الكوفة عنه استجار بهانىء بن عروة المرادى فقتلهما عبيد الله بن زياد جميعا . وفى ذلك يقول الفرزدق :

وَإِنْ كُنْتِ لاَ تَدْرِينَ ما الموتُ فانظُرِى
إلى هانِىءٍ فى السُّوقِ وَابنَ عَقِيلِ

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣ - ٤

وقد قيل إن الحسين تسلم نحوا من مائة وخمسين كتابا من مختلف الجماعات . وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٠ هـ (٦٠٠ م) . أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٣٢ نقلا عن مخطوط رقم ١٩٧٩ ورقة ١٢ (ب) ، مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٤٥ بمكتبة الجامعة بليدن

إلى بَطَلٍ قَدْ هَشَمَ السَّيْفُ وَجْهَهُ
وآخَرُ يَهْوِى مِنْ طِمَارٍ قَتِيلِ (١)

حال أهل الكوفة

أما الحسين فانه لم يعتبر بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ؛ بل ولم يصغ إلى قول الفرزدق الشاعر حين سأله عن أهل الكوفة ، وكان الحسين فى طريقه إليها : « خلَّفْتُ قلوبَ الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية عليك» (٢) ، ولم يأبه بنصيحة عبدالله بن العباس عند ماعلم بعزمه على المسير إلى الكوفة ، إذ قال له « أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا دَعُوك إليهم ، وأمير عليهم قاهر لهم وعماله تجبى بلادهم ، فانهم إنما دعوك للحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك » . فقال له الحسين « إنى أستخير الله وأنظر (٣) »

مقتل الحسين بن على

لم يلتفت الحسين إلى نصح الناصحين ، فسار إلى الكوفة ، على رأس فئة قليلة لم يتجاوز عددها الثمانين رجلا . ولم يعلم بقتل مُسلم بن عقيل وخذلان الشيعة له

فلما دنا الحسين من الكوفة وعلم بقتل مسلم بن عقيل وخذلان أهلها له ، قابله الحر بن يزيد التميمي وقال له : « ارجع فانى لم أدَعْ لك خلفى خيرا أرجوه ؛ ومن ثم داخل الحسين الشك وهمَّ بالرجوع ، غيرأن إخوة مسلم بن عقيل صمموا على أن يأخذوا بثأر أخيهم أو يقتلوا دونه ، فنزل الحسين على رأيهم وسار حتى لقيه خيل ابن زياد ، فعدل

---

(١) الفخرى ص ١٠٧

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٦٥

(٣) الطبرى ج ٦ ص ٢١٦

إلى كربلاء (١) . وهناك نشب القتال بين الفريقين فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، فأوقع بهم العدو وأبادهم عن آخرهم. يقول صاحب الفخرى (٢) : «ثم قتل الحسين عليه السلام قتلة شنيعة. ولقد ظهر منه عليه السلام من الصبر والاحتساب والشجاعة والورع والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة ، ومن أهله وأصحابه رضى الله عنهم من النصر له والمواساة بالنفس وكراهية الحياة بعده ، والمقاتلة ، بين يديه عن بصيرة مالم يشاهد مثله . ووقع النهب والسبى فى عسكره وذراريه عليهم السلام ، ثم حمل النساء ورأسه صلوات الله عليه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة »

أثر مقتل الحسين

وكان لمقتل الحسين فى أرض كربلاء التى أصبحت ملطخة بدمائه ودماء أهل بيته أثر كبير فى إذكاء نار التشيع فى نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم ، وكانوا قبل ذلك متفرقى الكلمة مشتتى الأهواء ؛ اذ كان التشيع قبل مقتله رأيا سياسياً نظرياً لم يصل إلى قلوب الشيعة . فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم وتغلغل فى أعماق قلوبهم وأصبح عقيدة راسخة فى نفوسهم .

وعلى أثر مقتل الحسين انتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم به رابطة المصاهرة ، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة ثم أولاده من بعده ، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى وأنقى دم فارسى . لذلك لا نعجب إذا أخذ شعور العداء منذ ذلك الوقت يثور بركانه لأوهى الأسباب . يؤيد هذا ما كان من عبد الله بن عفيف الأزدى . فانه لما قتل الحسين وصعد ابن زياد المنبر وخطب خطبته التى جاء فيها « الحمد لله الذى

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٢٠

فى طرف الصحراء عند الكوفة

(٢) الفخرى ص ١٠٧

أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب بن الكذاب وشيعته » ، قام عبد الله بن عفيف وأخذ يفند قوله بهذه الكلمات المملوءة حنقاً المفعمة سخطاً على بنى أمية وولاتهم « ياعدو الله ! إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه . تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين (١) » ؟

عبارة الفخرى

وقد وصف صاحب الفخرى (٢) موقعة كربلاء فقال : « هذه قضية لا أحب بسط القول فيها استعظاماً لها واستفظاعاً . فانها قضية لم يجر فى الاسلام أعظم فُحْشاً منها . ولَعَمْرى إن قتل أمير المؤمنين عليه السلام هو الطامة الكبرى . ولكن هذه القضية جرى فيها من القتل الشنيع والسبى أو التمثيل ما تقشعر له الجلود . واكتفيت أيضا عن بسط القول فيها بشهرتها فانها أشهر الطامات . فلعن الله كل من باشرها وأمر بها ورضى بشىء منها ، ولا تقبّل الله منه صرفاً ولا عدلا ، وجعله من (الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

عبارة السيد امير على

ولنأت الآن برأى مؤرخ شرقى مسلم عن هذه الموقعة وما كان لها من الأثر فى نفوس الشيعة خاصة والمسلمين عامة ، وهو السيد أمير على قال : « لقد ألقت مذبحة كربلاء الفزع والهلع فى جميع البلاد الاسلامية ، كما اذكت نفوس أهل بلاد الفرس ذلك الحماس الوطنى الذى ساعد بنى العباس على ثل عرش الأمويين وإسقاط دولتهم . » (٣)

عبارة براون

وقد علق الأستاذ براون (٤) على موقعة كربلاء بقوله :

(١) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٢٣ نقلا عن مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٨٠ (أ) ابليدن

(٢) الآداب السلطانية ص ١٠٦

(٣) Sayed Ameer, Ali, A Short History of the Saracens, p. 87.

(٤) Lit. Hist. of Persia, vol. I. p. 226.

« إن فريق الشيعة أو حزب على كان — على مارأينا — ينقصه الحماس وبذل النفس . بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين ، وغدت ذكرى أرض كربلاء الملطخة بدم ابن بنت النبي مع ماقاساه من شدة العطش ، وإحاطته بجثث ذوى قرباه ، كل ذلك غدا منذ هذا الوقت كافيا لأن يثير — حتى عند أكثر الناس فتورا وتراخيا — العواطف التى بلغت الصميم ، والأحزان التى تملكت النفوس . وأصبحت هذه الروح لا تبالى بالآلام والأخطار ، بل ولا بالموت »

عبارة نيكلسون

ويجدر بنا أن نقتبس أيضاً ماذكره الأستاذ نيكلسون[١] : « يعتبر جميع المؤرخين الاسلاميين الذين يكادون يجمعون — بعد استثناء القليل النادر منهم — على بغض الأمويين والعداء لهم ويعتبرون الحسين بن على شهيداً فى الوقت الذى يعتبرون فيه يزيد بن معاوية سفاكا ؛ بينما يرى جمهرة المؤرخين المحدثين رأى السير وليم ميور الذى يذهب إلى أن الحسين « بانسياقه إلى تدبير الخيانة سعياً وراء العرش قد ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع وتطلبت من أولى الأمر (فى الدولة الأموية) التعجيل بقمعها » . وكان هذا بطبيعة الحال وجهة نظر الفريق الذى كان بيده النفوذ والسلطان . وعلى القارئ بعد هذا أن يكوّن لنفسه رأيه الخاص فى هذه المسألة ؛ وهو إلى أى حد يبرر وجهة نظر الأمويين ما ارتكبوه فى تلك الموقعة من شدة وقسوة . أما فى نظر المسلمين الذين اعتادوا الاحتكام إلى الدين فى جميع الأمور ، ولاسيما فى مسألة مثل هذه تعتبر بحق من أعضل مسائل التاريخ الاسلامى وأعقدها ؛ فإن علاقة الأمويين بالدين ومقدار تمسكهم به أو انحرافهم عنه ـ كل ذلك كفيل بالفصل فى تلك المسألة . فقد كان الأمويون فى نظر المسلمين طغاة مستبدين لانتهاكهم قوانين الاسلام وشرائعه وامتهانهم لمثله العليا

(١) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 197

ووطئها بأقدامهم. وإذ كانوا كذلك، فلا يحل لهم أن يقتلوا المؤمنين الذين امتشقوا الحسام ضد الغاصبين لسلطانهم. وأما حكم التاريخ فى هذا الموضوع - إذا ماتصدينا لبحثه وتمحيصه - فلن يعدو أن يكون حكم الدين ضد الملوكية أوقضاء الحكومة الدينية ضد الامبراطورية العربية؛ وعلى هـذا الأساس يحكم التاريخ بحق بإدانة الأمويين. على أنه يجمل بنا أن نذكر أن انفصال الدين عن الحكومة لا وجود له فى نظر المسلمين.»

ويجدر بنا أن نقتبس أيضاً ماذكره الأستاذ نيكلسن فى هذا الصدد: «لقد اتخذ بنو أمية من يوم كربلاء سبباً كافياً يدعوهم إلى أن يندموا على مافرطت أيديهم، إذ أن هذا اليوم وحد صفوف الشيعة، فصاحوا صيحة واحدة: الاخذ بثأر الحسين؛ هذا النداء الذى دوى فى كل مكان، وعلى الأخص عند الموالى من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب»

هـذه العبارات تصف حال الأمة العربية وصفاً دقيقاً فى ذلك الوقت، حتى إن العداء بين الأمويين والعلويين غدا شديد الخطر بعد قتل الحسين وقتل نفر من ذوى قرباه (١)

واقعة الحرة (ذو الحجة سنة ٦٣ هـ):

نهب المدينة المنورة

لم تنته مصائب يزيد عند حد كارثة كربلاء؛ فقد نهبت المدينة المنورة فى عهده. ويرجع ذلك إلى ما كان من كراهة أهل هذه المدينة حكم يزيد وخلعهم إياه وطردهم عامله وتضييقهم على من كان بها من بنى أمية؛ (٢) فبعث إليهم يزيد مسلم بن عقبة المرّى وكان من جبابرة العرب ودهاتهم؛ وقد طعن فى السن. فسار إليها وهو مريض وحاصرها من جهة الحرة

---

(١) Nicholson Lit. Hist. of the Arabs, pp. 197-198.

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٠٤ وما يليها.

وهو موضع بظاهر المدينة ، وما زال حتى فتحها ، ثم أباحها ثلاثة أيام ، وأسرف هو وجنوده فى القتل والنهب والسلب ؛ فسمى مسرفا لذلك[1]

عبارة السيد أمير علي

ويصف لنا سيد أمير على فى كتابه موجز تاريخ العرب تلك الموقعة وصفا دقيقاً ، كما يذكر لنا مافقده المسلمون فيها من خيرة رجالهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار الذين نصروه فى ساعة العسرة وأوقات الشدة فيقول : « ولما وصلت الأخبار إلى يزيد بخروج أهل المدينة عليه وخلعهم إياه وطردهم عامله ، جن جنونه وثارت ثائرته . فأرسل إليهم من فوره جيشا كبيرا من المرتزقة ، ومن أنصار بنى أمية من أهل الشام تحت قيادة مسلم بن عقبة المعروف فى تاريخ العرب بالمسرف " The accursed murderer ". وقد تقابل أهل المدينة مع جند الشام بمكان يقال له الحرة ، حيث وقعت بين الفريقين معركة حامية غُلب فيها المسلمون وهزموا هزيمة منكرة على الرغم مما أظهروه من الشجاعة والاستبسال فى القتال . . . . وقد استشهد فى تلك المعركة التى كانت وبالا على الاسلام والمسلمين من نواح عدة زهرة أهل المدينة من الفرسان ومن خيرة أصحاب الرسول . وهكذا أباح الأمويون المدينة ودنسوها ؛ ذلك البلد الذى آوى الرسول مدة حياته ، والذى كان مهبط رسالته كما قاسى أهلها الذين آووا الرسول وبذلوا أنفسهم دونه فى ساعة العُسْرة أقسى ألوان العذاب

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٢ ؟ الفخرى ص ١٠٨

يقال إن أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاف فأخذ سيفه وخرج الى كهف هناك ليدخل اليه ويعتصم به . فتبعه بعض أهل الشام ، فخافه أبو سعيد وسل سيفه عليه ليروعه ، فسل الآخر سيفه ؛ فلما وصل الى أبى سعيد قال له : (لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك) (سورة المائدة ٥ : ٢٨) فقال له الشامى : من أنت ؟ قال : أنا أبو سعيد . قال : صاحب رسول الله ؟ قال : نعم ! فمضى وتركه » الفخرى ص ١٠٨

وأشد أنواع الفظائع ؛ هذه الفظائع التى لم يكن لها مثيل فى التاريخ سوى تلك التى ارتكبها كنستبل Constable الفرنسى وما يماثلها من ضروب الوحشية التى قام بها اللوثريون من أنصار جورج فرندسبرج Georges Frundsbergh عند حصار رومة .

ولا غرو فقد حول جند الشام المسجد الجامع إلى اصطبل لخيولهم ، وهدموا الحرم والأماكن المقدسة لسلب مافيها من أثاث ومتاع . وهكذا شاء القدر أن تنتصر الوثنية ولو مرة ضد الاسلام ، تلك الوثنية التى كان ثأرها ورد فعلها ضد الاسلام فى تلك المرة ، على مايقوله مؤرخ أوربى ، قاسيا مؤلما . وهكذا رد الأمويون إلى الاسلام ماأظهره نحوهم من رحمة ورفق ساعة انتصاره عليهم ! وأما خيرة أهل المدينة ، فمنهم من قتل ومنهم من فر لينجو بحياته إلى بعض الأقطار النائية . وأما القليل منهم ممن ظل بالمدينة . فقد أصبحوا سبايا وعبيداً ليزيد بن معاوية ؛ ومن أبى منهم ذلك كان يكوى بالنار على رقبته ليوسم بتلك السمة المخزية ؛ ولم ينج من تلك الفضيحة وذلك العار سوى على بن الحسين زين العابدين وعلى بن عبد الله بن العباس . وأما دور العلم والمبانى العامة التى بنيت فى عهد الخلفاء الراشدين فمنها ما أغلق ومنها ما تهدم . ولم تستعد المدينة ما كان لها من حضارة ومجد . وهكذا كانت تبدو تحت حكم الأمويين كأنها مدينة لاماضى لها أو مدنية ذات ماض مجهول حتى إن المنصور ثانى الخلفاء العباسيين حين زارها احتاج إلى مرشد ليهديه إلى الأماكن التى كان يعيش فيها السابقون من أبطال المسلمين من رجال ونساء (١) »

---

(١) Ameer Ali, A Short History of the Saracens, pp. 88—89.

غزوة الكعبة «المحرم سنة ٦٤ هـ» :

أمر يزيد قائده مسلم بن عقبة بطل الحرة بالمسير إلى مكة بعد فراغه من إخضاع أهل المدينة ، وردهم إلى الطاعة . فتوجه مسلم إليها – وكان عبد الله بن الزبير قد دعا إلى نفسه فيها – وتبعه أهلها . وقد مات مسلم فى الطريق ، فتولى قيادة الجند الحُصَين بن نُمَيْر وكان يزيد قد أوصى بتوليته إذا مات مسلم ، فسار بالجيش إلى مكة وحصرها ؛ فخرج إليه ابن الزبير فى أتباعه ، ودارت رحى القتال بين الفريقين ، وإذا هم فى ذلك ورد عليهم نعى يزيد . فرأى الحصين بن نُمير قائد الأمويين فى مكة أن يأخذ البيعة لابن الزبير إذا انتقل إلى الشام : فأبى ابن الزبير لأنه أراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة . فرجع الحصين هو وأتباعه ورفعوا الحصار عن مكة بعد أن ألحقوا بالكعبة الخسائر الفادحة . (١)

رأى فان فلوتن

وقد علق فان فلوتن على حصار الأمويين للمدينة وغزو الكعبة بقوله : «كان السواد الأعظم من العرب يرى فى حزب بنى أمية حزب الدين والنظام ، كما أن عددا كبيرا من المسلمين كان لا يرى فى الاستيلاء على المدينتين المقدستين الاضرورة دعا إليها موقف أهل الحجاز العدائى دون أن يرى فى ذلك أى انتهاك لحرمتيهما (٢).

معاوية الثانى

٦٣ هـ ؟ ٦٨٠ م

كان معاوية صبيا ضعيفا ، ليس له من الأهمية مايستحق الذكر ،

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٥٥

(٢) السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ترجمة المؤلف ص ٦٩ – ٧٠ أنظر أيضا الايات ١٧ ، ٣٠ ومايليهما من قصيدة أبى صخر الهذلى . ديوان هذيل (طبعة Wellhausen) ص ٩٢

إذ لم يزد عهده على أربعين يوما ؛ فلم يتمتع بالملك لمرضه ، ولم يكن بد من انزوائه فى داره . ذكر لنا صاحب الفخرى (١) أنه فكر فى ترشيح رجل للخلافة كما فعل أبو بكر مع عمر ؛ فلم يجد الرجل الذى يصلح لها ؛ فاقتدى بعمر بن الخطاب فى اختيار ستة ينتخب الخليفة من بينهم فلم يفلح . فترك الأمر شورى للناس يولون أمرهم من يشاءون ، وقال لهم : « فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم» فقالوا : ولِّ أخاك خالدا ؛ فقال : والله ماذقتُ حلاوة خلافتكم فلا أتقلد وِزْرها ثم صعد المنبر وقال : «أيها الناس ! إن جدى معاوية نازعَ الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بن أبى طالب ، وركب بكم ماتعلمون حتى أتته منيَّته ؛ فصار فى قبره رهينا بذنوبه وأسيرا بخطاياه . ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه وأخلفه الأملُ وقصر عنه الأجل ، وصار فى قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بجُرمه ؛ ثم بكى حتى جرت دموعه على خدَّيه وقال : « إن من أعظم الأمور علينا عِلمَنا بسوء مَصْرعه وبئس مُنْقَلبه ، وقد قتل عِتْرَة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحُرم وخرَّب الكعبة . وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمّل تَبِعَاتكم فشأنكم وأمركم . والله لئن كانت الدنيا خيرا فلقد نلنا منها حظا ، ولئن كانت شرا فكفى ذرية أبى سفيان ماأصابوا منها ؛ ألا فليُصل بالناس حسان بن مالك ، وشاوروا فى خلافتكم رحمكم الله » . ثم دخل منزله وتغيَّب حتى مات فى سنته بعد أيام . » (٢)

---

(١) الآداب السلطانية ص ١٠٩

(٢) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ١ ص ١٦٤

مروان بن الحكم

٦٤ — ٦٥ هـ ؟ ٦٨٣ — ٦٨٥ م

سيرته قبل الخلافة

كان مروان من ذوى الرأى والفصاحة والشجاعة ، وكان ساعد عثمان وكاتبه ومدبر أمره . وكان كثير التلاوة للقرآن . وقد روى الديار بكرى « أن مروان كان من رجال قريش وكان من أقرأ الناس للقرآن » (١) . وقد روى عن كثير من الصحابة كعثمان بن عفان وعمر ابن الخطاب وزيد بن ثابت .

ومما يؤخذ عليه اتهامه بالكتاب المكذوب على عثمان ، وان لم يقم الدليل بعد على ذلك ، وحمله عثمان على مخالفة الصحابة . والى مروان يرجع الفضل فى ضبط المقاييس والموازين حتى لا يقع الغبن فى البيع والشراء .

وقد اعتزل مروان السياسة بعد موقعة الجمل وبايع عليا وأقام بالمدينة ، وظل على ذلك حتى آلت الخلافة الى معاوية ، فولاه المدينة مرتين . ولما مات معاوية قرب يزيد مروان اليه وأكرمه فظل بالشام إلى أن ولى الخلافة بعد معاوية بن يزيد وشد أزره عبيد الله بن زياد وعمرو بن سعيد بعد أن كاد يبايع لابن الزبير (٢)

الحروب الأهلية :

العصبية فى الجيش

ولما مات معاوية هاج عرب الشام وكانوا عصب الدولة وقوتها بفضل اتحادهم وتماسكهم . غير أن هذه الوحدة مالبثت أن تفككت أوصالها حين مال كلب إلى بنى أمية ، وأصبح قيس ضلعهم مع عبدالله ابن الزبير . وانقسم كلب أنفسهم : فمال فريق منهم الى خالد بن يزيد

(١) الخميس فى أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٠٧

(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٥ ص ٢٦

ابن معاوية وهو ـ وان كان صغيرا إلا أنه كان فصيحا بليغا ضرب في الكيمياء بسهم ـ ومال فريق آخر إلى مروان بن الحكم بن العاص ابن أمية لسنه وشيخوخته .

مؤتمر الجابية

من ذلك نرى أن النزاع قد احتدم بين عرب الشام بسبب المنافسة بين أفراد البيت الأموى ؛ اذ أصبح كل منهم يطمح الى الخلافة ويرى نفسه أحق بها دون سواه .

وقد استمر النزاع بين أنصار بنى أمية حتى عقدوا مؤتمرا بالجابية، بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة (ذى القعدة سنة ٦٤ هـ)(١) ثم خالد ابن يزيد ثم عمرو بن سعيد بن العاص من بعده » . وبهذه الطريقة أرضوا الذين يتطلعون الى الخلافة . ومن ثم اتحدت كلمة اليمنية من كلب

وأما قيس فانها اجتمعت بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى بمرج راهط وبايعت عبد الله بن الزبير؛ فانحصرت الخلافة بينه وبين مروان .

موقعة مرج راهط

وقد سار مروان الى الضحاك وهزمه فى موقعة مرج راهط (المحرم سنة ٦٥ هـ) . وبذلك انتصر العنصر اليمنى على المضرى (٢)

وقد أذكت هذه الموقعة نار العصبية من جديد، ليس فى الشام فقط، بل فى سائر الولايات الاسلامية وخاصة خراسان . فظهر العداء بين اليمنية والمضرية فى صورة نزاع متواصل بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وامتد لهيب العصبية إلى أقاصى البلاد التى وصلت اليها الفتوح العربية فيما شنه هؤلاء وأولئك من حروب أهلية ومعارك دموية .

استرداد مصر

وقد تابع مروان بن الحكم نشاطه بعد هذه الموقعة ؛ فجرد جيشا بقيادته إلى مصر لطرد عبد الرحمن بن جحدم عامل عبد الله بن الزبير؛ وسار ابنه عبد العزيز فى جيش إلى أيلة (عند العقبة) ونشط ابن

(١) وانتقل بذلك الملك من الفرع السفيانى الى الفرع المروانى .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٣٤ - ٣٩

جحدم لحربه، وأشار عليه بعض رجاله بأن يحفر خندقا(١) ؛فتم حفره في شهر واحد . وفى ذلك يقول ابن أبى زمزمة الشاعر :

وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم　　وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفا قد أثاروا ترابه　　وخدُّوه فى شهر حديثُ مصدَّقِ

وبعث ابن جحدم الجيوش والمراكب لحرب مروان وابنه عبد العزيز ؛ فانهزمت جيوش والى ابن الزبير ، ولم ينفعه خندقه ، ودخل مروان عين شمس ثم الفسطاط فى أول جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، وبنى الدار البيضاء لتكون مقراً له ، وبايعه الناس إلا نفرا ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير فضرب أعناقهم (٢) ، وكانوا ثمانين رجلا من المعافر ، وقتل أيضا سيد لخم (الأكدر بن حمام بن عامر ابن صعب) فأتى زهاء ثلاثين ألفا من لخم وهم مدججون بالسلاح ، ووقفوا بباب مروان ثائرين ، فتوسط بعضهم فى الصلح وانصرف الثائرون ، وتصادف أن توفى عبد الله بن عمرو بن العاص فى اليوم الذى قتل فيه الأكدار (١٥ جمادى الآخر سنة ٦٥) ؛ فلم يستطع القوم أن يخرجوا بجنازته لتألب الجند على مروان ، فدفن فى داره . (٣)

حملاته الى الحجاز والعراق

ثم عاد مروان إلى الشام حيث أعد حملتين سير إحداهما إلى الحجاز حيث دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه بالخلافة والأخرى إلى العراق . فهزمت الأولى ؛ وأما الثانية فإنها لم تقم بشىء يذكر فى حياة مروان ؛ فقد عاجلته المنية سنة ٦٥ هـ بعد أن عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز .

---

(١) موقعه الآن بجهة القرافة .
(٢) الكندى ص ٤٠ - ٤٥ ؛ المقريزى خطط جـ ٢ ص ٣٢٧ - ٣٢٨
(٣) الكندى ص ٤٥ - ٤٦

وفاة مروان

تقدم القول بأن أنصار الأمويين اتفقوا فى مؤتمر الجابية على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة ، على أن يخلفه خالد بن يزيد بن معاوية ، ثم سعيد بن العاص من بعده . غير أن مروان نقض ذلك العهد وبايع ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وأخذ يحقر من شأن خالد ليصرف أهل الشام عنه . وقد دخل خالد بن يزيد على مروان يوماً؛ فشتمه مروان ووصفه بالحمق فخجل خالد بن يزيد ودخل على أمه - وكانت قد تزوجت من مروان بعد وفاة أبيه - وأخبرها بما حدث ؛ فقالت له «لا يعرفنّ ذلك منك واسكت فإنى أكفيكه (١) » . ولما نام عندها مروان وضعت على وجهه وسادة ولم ترفعها حتى مات . وعند ما علم بذلك ابنه عبد الملك أراد أن يقتلها ، فأشير عليه بالعدول عن رأيه حتى لا يتحدث الناس أن امرأة قتلت أباه فيلحق به العار .

عبد الملك بن مروان

٦٥ - ٨٦ ﻫ ؟ ٦٨٥ - ٧٠٥ م

عبد الملك قبل ان يلى الخلافة

هو عبـــد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية (٢) ، فيجتمع نسبه من جهة أبيه وأمه فى أبى العاص . وكان يضرب بأمه المثل فى الخصال الحميدة والصفات الكريمة ، وفيها يقول عبيد الله بن قيس الرقيات يمتدحا عبد الملك :

أنتَ ابنُ عائشةَ التى فَضَلَتْ أَرُومَ نِسائها
لم تَلْتَفِتْ لِلِداتها ومضت على غُلَوائها
وَلَدَتْ أغرَّ مُبَارَكا كالشمس وَسط سَمائها

(١) الطبرى ج ٧ ص ٨٣

(٢) الطبرى ج ٨ ص ٥٧

ولد عبد الملك بالمدينة سنة ٢٦ هـ فى خلافة عثمان بن عفان (١). وقد نشأ نشأة عالية فعرف بالشجاعة والنجدة. وكان فصيحا بليغا، صريحا فى الحق لايخشى فيه لومة لائم. وقد حفظ الكتاب الكريم ووقف على أسراره.

روى ابن سعد (٢) أن أهل المدينة قالوا: قد حفظ عبد الملك عن عثمان، وسمع من أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا غرو فقد أصبح فقيها وعالما مشغوفا بالعلم. وكان فقيها أديبا ضرب فى الأدب والشعر بسهم وافر.

عبد الملك المؤسس الثانى للدولة الأموية

كادت الأمة العربية عند وفاة مروان بن الحكم تمزقها العصبية القبلية التى دأب النبى صلى الله عليه وسلم على إخمادها حتى أشرفت الدولة الأموية على الزوال زوالا لارجوع بعده؛ لولا أن أتاح الله لهذه الدولة عبد الملك بن مروان الذى يعتبر بحق المؤسس الثانى للدولة الأموية، لما امتاز به من رجاحة العقل والقدرة على تصريف الأمور، فانتشلها من هذه الفوضى التى وصلت اليها، وأقام صروح مجدها على أسس لم يسبقه إليها من جاء قبله من الخلفاء.

أخذ عبد الملك فى مبدأ عهده يشن الغارة على أعدائه؛ ولم يمض سبع سنين حتى استقامت له الأمور وهدأت الأحوال وساد السلام فى البقية الباقية من عهده وعهد من جاء بعده من أولاده. وكان أشد أعداء عبد الملك خطرا عبد الله بن الزبير والمختار بن أبى عبيد.

حالة الدولة الاموية فى أول عهده

وقد روى لنا المسعودى (٣): أن عبد الملك سار فى سنة ٦٦ هـ على رأس الجنود الشامية لقتال المختار بالكوفة. وبينا هو فى الطريق

(١) ابن سعد ج ٥ ص ١٧٥؛ الطبرى ج ٨ ص ٥٧؛ ابن الأثير ج ٤ ص ١٩٨
(٢) كتاب الطبقات الكبير ج ٥ ص ١٧٣
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣

أتاه فى إحدى الليالى خبر مقتل عبيدالله بن زياد وانهزام جنده ، وأتاه فى تلك الليلة أيضا مقتل القائد الذى أرسله لحرب ابن الزبير بالمدينة ، ثم جاءه خبر دخول جند ابن الزبير أرض فلسطين ولحاق أخيه مصعب بهم ، ثم جاءه خبر مسير إمبراطور الروم ونزوله المَصِّيصة(١) فى طريقه إلى الشام ، ثم جاءه أن عَبِيدَ دمشق وأوباشها خرجوا على أهلها ، وأن المسجونين فيها فتحوا السجن وخرجوا منه ، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك وغيرهما — إلى آخر ما هنالك من أخبار السوء التى تذهب بعقل الحليم وتبعث فى النفس اليأس والقنوط .

عوامل انتصار عبد الملك

كان عبد الملك — على الرغم من كل هذا — رابط الجأش شديد الايمان بكفاءته ومقدرته « فلم يُر عبد الملك فى ليلة قبلها أشـــد ضحكا ، ولا أحسن وجها ولا أبسط لسانا ، ولا أثبت جنانا من تلك الليلة تجلدا وسياسة للملوك (٢)» . ولننظر الآن كيف تغلب على هذه الصعاب :

التوابون

بينا قَبْلُ أن شعور العداء اشتد بعد مقتل الحسين وازداد سخط سائر المسلمين وحنقهم على بنى أميــة وولاتهم . وفى عهد مروان بن الحكم على مرجل هذا العداء وتحركت الشيعة بالكوفة سنة ٦٥ هـ ؛ فتلاقوا وندموا على ما فرطوا فى حق الحسين وخـذلانهم إياه وعدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم ، وتابوا عما فعلوا ؛ فسُمُّوا التوابين . ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم فى الأخذ بثأره ومقاتلة قتلته ، وإقرار الحق فى نصابه بتنصيب رجل من أهل البيت ، وأمَّروا عليهم رجلا منهم اسمه سُلَيْمان بن صُرَدْ . ثم دعوا الناس للأخذ بثأر الحسين ، ونظموا القصائد فى رثائه والتحريض على القتال — من ذلك قول عبد الله بن الأحمر :

(١) بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم بقرب طرسوس

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١١٣

صَحَوْتُ وقدْ صَحَوْا الصبى والعواديا
وقلتُ لِأَصْحَابِي أجيبوا المُنَادِيا
وقُولوا له إذْ قامَ يَدْعو إلى الهدى
وقبـل الدعا لبَّيْكَ لبَّيْكَ داعيا
ألاَ وانعَ خَيْرَ النَّاسِ جَدًّا ووالداً
حُسَيْنًا لِأَهْلِ الدِّينِ إنْ كُنْتَ نَاعِيا
وأضْحى حُسَيْنٌ لِلرِّماحِ دَرِيئَةً
وغُودِرَ مَسْلُوبًا لدى الطفِّ ثاويا
فيَا ليْتَني إذْ ذَاكَ كُنْتُ شَهِدْتُهُ
فضَارَبْتُ عَنْهُ الشَّانِئِينَ الأَعاديا
سقَى اللهُ قَبْراً ضَمَّنَ المَجْدَ وَالتُّقَى
بِغَرْبِيَّةِ الطفِّ الغَمَامَ الغَواديا
فيا أُمَّةً تَاهَتْ وَضَلَّتْ سَفَاهَةً
أنِيبُوا فأرْضُوا الوَاحِدَ المُتَعَالِيا (١)

موقعة عين الوردة

اجتمع التوابون وساروا بكامل عدتهم حتى وصلوا إلى عَيْنِ الوردة في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ، حيث اشتبكوا بعبيد الله بن زياد الذي أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق وأقرَّه عبد الملك بن مروان، ولحق بالشيعة كثيرون من أهل البصرة والمدائن؛ ولما تلاقى الجيشان انهزم الشيعة بعد أن أبلوا بلاء حسنا وقُتل رئيسهم سليمان بن صُرَد وفر المنهزمون الى بلادهم (٢).

المختار بن أبي عبيد :

ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي في ميدان السياسة سنة ٦٦ هـ، وكان

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ١١٠ — ١١١
(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٧٣ — ٧٩

ذا أطماع كبيرة تقلب كثيرا فى الأحزاب ، واتصل أخيرا بعبد الله بن الزبير وأراد أن يكون وزيرا له . ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به ، نظراً لما أبداه من التقلب : فقد كان أمويا ثم زبيريا . ولما لم يجد من ابن الزبير ما كان يؤمل رجع الى الكوفة وانضم الى الشيعة ، واستغل ثورة التوابين لنيل أغراضه ومراميه ضد ابن الزبير والأمويين ، واستتر وراء ابن الحنفية وادعى أنه أمينه ووزيره ، وذلك لتنفيذ أغراضه والوصول الى الخلافة . وبذلك وقف فى وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك ابن مروان ؛ فانضوت الشيعة تحت زعامته وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفية عن الدخول فى الدعوة التى قام بها ابن الزبير فى مكة .

المختار والكيسانية (١)

قد فت إباء ابن الحنيفة عن الدخول فيما قام به عبد الله بن الزبير فى عضد هذه الدعوة ، وهيأ للمختار فرصة سانحة لتكوين حزب شيعى

عقائد الكيسانية

(١) تنسب الطائفة الكيسانية على رواية الطبرى (طبعة دى غويه ١ : ٢٣٩٣) ، والبغدادى (الفرق بين الفرق ص ٢٧) ، والشهرستانى (الملل والنحل ج ١ ص ١٩٦) الى كيسان مولى على بن أبى طالب الذى قتل فى موقعة صفين سنة ٣٧ هـ . وتنسب هذه الطائفة ، على ما أورده المسعودى (مروج الذهب ، طبعة بولاق ج ٢ ص ٧٩) وابن عبد ربه (العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩) الى المختار بن أبى عبيد . ولكن كلام المسعودى لا يعتمد عليه غير جازم بذلك اذ يقول : « أو هو غير المختار » .

على أننا نجد كثيرا من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار ، فيقول ابن حزم : (الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤) ان هناك شخصين مختلفين ، هما المختار بن أبى عبيد وكيسان أبو عمرة . ويقول الشهرستانى (ج ١ ص ١٩٦) ان هناك طائفتين مختلفتين ، هما الكيسانية والمختارية : الأولى تنسب الى كيسان مولى على ، والثانية الى المختار بن أبى عبيد (راجع كتاب فرق الشيعة للنوبختى ص ٢١) .

وذكر الطبرى (٢ : ٦٧١) فى مكان آخر ، أن أبا عمرة كيسان مولى بجيلة هو رئيس شرطة المختار بن أبى عبيد . ووافق على هذا أحمد بن يحيى المرتضى (كتاب غايات الأفكار ، مكتبة المتحف البريطانى ، مخطوط ٣٧٧٢ ورقة ١٣٧ ب). على أن ابن المرتضى لدين الله لم يجزم بذلك

جديد ، هو حزب الكيسانية . بيد أن المجهودات التى بذلها المختار لم تلق

حيث قال كما قال الطبرى (٢ : ١٣٩٣) : ويقال ان لفظ كيسان يطلق على مولى على بن أبى طالب .

وقد يؤخذ بما ذكره الطبرى اولا ما جاء فى رواياته من تناقض وتضارب ، مما يجعل الاهتداء الى أصل الطائفة الكيسانية من الصعوبة بمكان . على أن هذا الاهتداء يمكن الوصول اليه من مصدرين آخرين : هما كتاب الطبقات لابن سعد (+ ٢٣٠ ﻫ و ٨٤٤ م) (ج ٥ ص ٧٧) وكتاب الاخبار الطوال للدينورى (+ ٢٨٢ أو ٢٩٠ ﻫ و ٨٩٥ أو ٩٠٣ م) طبعة ليدن (ص ٢٩٦ — ٢٩٧) .

فقد أتى ابن سعد باسم أبى عمرة كيسان ضمن أسماء غيره من الرجال الذين شهدوا بأن ابن الحنفية سمح للمختار بأن يبث الدعوة باسمه (ابن الحنفية) ، وان كان هذا القول مشكوكا فيه لأنه غير ثابت تاريخيا بأن ابن الحنفية مالأ المختار بن أبى عبيد ، بل عرف أنه بايع يزيد بن معاوية لانه لم يكن يثق بأهل الكوفة .

وقد روى الدينورى عن الشعبى فى سياق كلامه على المختار عبارة تدل صراحة على أن المختار وكيسان شخصان مختلفان . والشعبى هذا من أكابر المحدثين والفقهاء ، وهو مشهور بالورع وصدق القول وتحرى النقل . قال الدينورى : « وكان على الكوفة يومئذ من قبل عبد الله بن الزبير ، عبد الله بن مطيع ، فأرسل ابن مطيع الى المختار يقول :

ماهذه الجماعات التى تغدو وتروح اليك ؟ فقال : المختار مريض يعاد . فلم يزل كذلك حتى قال له أصحابه : عليك بابراهيم بن الاشتر فاستمله ، فانه متى شايعك على أمر ظفرت به وقضيت حاجتك . فأرسل المختار الى جماعة من أصحابه ، فدخلوا عليه وبيده صحيفة مختومة بالرصاص ، فقال الشعبى : وكنت فيمن دخل عليه فرأيت الرصاص يلوح ، فظننت أنه انما ختم من الليل ، فقال لنا : انطلقوا بنا حتى نأتى ابراهيم بن الاشتر . قال فمضينا معه ، وكنت أنا وزيد بن أنس الازدى ، وأحمد بن سليط ، وعبد الله بن كامل ، وأبو عمرة كيسان مولى بجيلة الذى يقول الناس قد جاوره أبو عمرة ، وكان من بعد ذلك على شرط المختار » .

وقد حاول فريدليندر (Friedlaender) فى تعليقه على « شنع الشيعة على ماجاء فى كتاب ابن حزم » (Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm) المنشور فى مجلة الجمعية الامريكية الشرقية فى العدد التاسع والعشرين (Journal of the American Oriental Society, vol. XXIX. pp. 29-30) الاهتداء الى أصل الكيسانية . وعلى الرغم من أن هذا الكاتب أخذ عن غير « الملل والنحل » لابن حزم ، فانه قال ان « ما ذكره ابن حزم عن هذه المسألة ، هو بلا شك القول الصحيح حقا من بين أقوال المؤرخين على اختلافهم » .

على أن ابن حزم (ج ٤ ص ١٧٩) انما قال ان الكيسانية هم أنصار المختار بن أبى عبيد . وهذا لايستلزم أن الكيسانية هم المختارية ، لانه لاتوجد ثمة صلة بين لفظ المختار ولفظ الكيسانية . وعليه فانه من المحتمل كثيرا أن يكون لفظ الكيسانية نسبة الى كيسان مولى بجيلة ورئيس حرس المختار ، ويبعد أن يكون نسبة الى كيسان مولى على ، لانه مات قبل قيام الكيسانية بنحو ثلاثين

عطف ابن الحنفية وتأييده، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل (١)

بين السبئية والكيسانية

قامت ثورة المختار بن أبي عبيد فى خلافة عبد الملك بن مروان. وقد قارن فان فلوتن (Van Vloten) بين مذهب السبئية ومذهب الكيسانية فقال: «يظهر أن عقيدة السبئية قد بُنيت على الرأى القديم القائل بتجسد الألوهية. وزاد هذا المؤرخ على ماتقدم أن السبئية يختلفون عن الحزب الشيعى الآخر، وهو حزب الكيسانية الذى ظهر فى بادىء أمره بالكوفة تحت زعامة المختار (٢) حين ثار بالكوفة. وعلى الرغم من

سنة. يضاف الى ماتقدم أن ابن حزم (ج ٤ ص ٩٤) قد ميز بجلاء ووضوح بين لفظى المختار وكيسان عند الاشارة الى الطائفة الكيسانية فى سياق كلامه على الامام الثانى عشر فقال: وكان رئيسهم المختار بن أبى عبيد، وكيسان أبو عمرة وغيرهما يذهبون الى أن الامام بعد الحسين هو أخوه محمد المعروف بابن الحنفية. وعليه فان ما أورده ابن سعد والدينورى — لا ابن حزم أو غيره — هو القول الصحيح.

أنظر كتاب «الفاطميون فى مصر» للمؤلف ص ٣٤ — ٣٥

(١) ذكر المقريزى فى كتابه «المقفى الكبير» (ليدن، مخطوط ١٣٦٦، المجلد الثانى، ورقة ١٢٨ أ) ان فريقا من أهل الشام، وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المرى، ساروا الى الحجاز لقتال أنصار ابن الزبير، وأن فريقا آخر ممن شايعوا ابن الزبير فى الكوفة وعلى رأسهم عبد الله ابن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة وعبد الله بن عمر بن الخطاب، جاءوا الى محمد بن الحنفية فقالوا له: اخرج معنا نقاتل يزيد، فقال: على ماذا أقاتله ولم أخلعه؟ قالوا: انه كفر... وشرب الخمر. فقال لهم: ألا تتقون الله؟ هل رآه أحد منكم يفعل ماتذكرون، وقد صحبته أكثر مما صحبتموه فما رأيت به سوءا؟ قالوا: انه لم يكن يطلعك على فعله. قال: أفأطلعكم أنتم عليه؟ فخافوا أن يثبط قعوده الناس عن الخروج، فعرضوا عليه أن يبايعوه اذ كره أن يبايع ابن الزبير، فقال لست أقاتل تابعا أو متبوعا. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك. قال: وأين مثل أبى اليوم؟ فأخرجوه كارها ومعه بنوه مسلحين، فخذل أهل الشام عليه، فضارب بنوه دونه، فقتل ابنه القاسم محمد، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه فقتله، ثم خرج ابن الحنفية الى مكة من فوره».

(٢) كان المختار بن أبى عبيد ممن بايعوا ابن الزبير، وقد أوفده ابن الزبير الى الكوفة ليبث الدعوة باسم الطالبيين. على أن المختار لم يلبث أن خلع طاعة ابن الزبير ودعا لابن الحنفية. انظر «مروج الذهب» للمسعودى (ج ٢ ص ٥٥ — ٧٧). وقد ذكر الشهرستانى (ج ٢ ص ١٢) أن الكيسانية بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة

عقيدتهم الأصلية ، وهى القول بامامة محمد بن الحنفية بعد على أبيه ، فان الكيسانية يغالون فى اعتقادهم باحاطة الأئمة بالعلوم الالهية ، فتذهب الى أن محمد بن الحنفية هو الامام ، ويعتقدون أنه قد أحاط بالعلوم كلها(١) ، وأن أخويه الحسن والحسين قد عهدا اليه بالاسرار ، وبعلم التأويل والباطن (٢). وقد انتهى اعتقاد الكيسانية بوجوب انفراد الامام بتأويل الشريعة الى القول بضرورة طاعته ، إذ أن طاعته لم تكن إلا طاعة للقانون الالهى (وهذا مايميزهم عن غيرهم من المعتدلين من الشيعة)

ويعتقد الكيسانية فى البداء ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يغير ماأراد ؛ وفى تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها

فى بلاد الفرس قبل ظهور الاسلام (فى القرن الخامس الميلادى) ، والبراهمة فى الهند ، والفلاسفة القدماء والصابئين .

(١) أنظر كتاب فان فلوتن Van Vloten : Recherches sur la Domination Arabe, le Chiitisme, etc, p. 41 (السيادة العربية والشيعة ترجمة المؤلف ص٧٩ - ٨٠) مقتبسا من كتاب Mokhtar تأليف Van Gelder (ص ٨٢ وما يتبعها) . لقد قيل ان ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد ، وحذا حذوه غيره من الأئمة . وقد أصاب فان فلوتن فى تعليقه على ذلك بقوله : وهنا يتساءل المرء : بأى مظهر من مظاهر الترحاب قابل الأئمة هذه المعتقدات المفرقة فى الغلو ، التى كانت أشخاصهم السبب فى ظهورها ؟

ولاغرو فان عليا أنكر على السبئية هذه الصفات التى نسبوها اليه ، ورى فى النار من دعوه إلها ، ونفى عبد الله بن سبأ الى المدائن . ثم جاء ابنه محمد بن الحنفية ، فشارك اباه فى عواطفه وآرائه الدينية ، فتبرأ ممن اعتقدوا فى احاطته بعلم التأويل والباطن . يدلك على صحة هذا القول ماذكره ابن سعد فى كتابه « الطبقات الكبير » (ج ٥ ص ٧٧) أن ابن الحنفية لما علم باعتقاد الطائفة الكيسانية أن آل على يلمون بجميع العلوم قال : « والله ماورثنا من رسول الله الامابين هذين اللوحين (يعنى القرآن) ، ثم قال : اللهم حلا ، وهذه الصحيفة فى ذؤابة سيفى » .

وهذا التصريح من ابن الحنفية يدل دلالة واضحة على أن آل على لم يختصوا بميراث شىء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لم يرثوا منه الا ماورثه عامة المسلمين .

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق (ص ٣٦) ، والشهرستانى : الملل والنحل (ج ٢ ص ١٩٦ — ١٩٨) .

فى جسد آخر ؛ وفى الرجعة ، أى رجعة محمد بن الحنفية ؛ كما يعتقدون أيضا بنبوة على والحسن والحسين وابن الحنفية . على أنهم يختلفون فى أن ابن الحنفية ورث الامامة عن على مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين . ويقول النوبختى : (١)

« وفرقة قالت بامامة محمد بن الحنفية ، لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة دون أخويه ، وادعى (المختار) أن محمد بن الحنفية أمره بذلك وأنه الامام بعد أبيه ... وكان يقول إن محمد بن الحنفية وصى على ابن أبى طالب ، وأنه الامام وأن المختار قيمه وعامله

فكرة الرجعة عند الكيسانية

أما عن الرجعة فقد أنكر جماعة من الكيسانية موت ابن الحنفية ؛ واستفزتهم الأخبار التى ذاعت عن موته ، فاعتقدوا أنه يقيم فى جبل رضوى (على مسيرة سبعة أيام من المدينة) (٢) ، وأن عودته ستكون من هذا المكان . وقد نظم كُثَيِّر عزة والسيد الحميرى فى هذا الاعتقاد أشعارا كثيرة حتى غدا هذا النوع من الشعر يعرف بالشعر الكيسانى .

وفى ذلك يقول كثير عزة المتوفى سنة ١٠٥ ﻫ (٧٢٣ م) :

أَلاَ إِن الأَئِمَّـةَ مِنْ قرَيْشٍ ... وُلاَةَ الحقِّ أَرْبَعةٌ سـوَاء

عَلِيٌّ وَالثَّلاَثة مِنْ بَنِيـــهِ ... هُمُ الاسْباطُ لَيْسَ بِهِمْ خفاء

فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيمَانٍ وبِر ... وَسِبطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاَء

وَسِبطٌ لاَيذوقُ الموْتَ حَتى ... يَقودَ الخيْلَ يَقْبَعُهَا اللِّوَاء

تَغَيَّبَ لاَ يُرَى عَنْهُمْ زَمَانا ... بِرَضْوَى عِنْدَه عَسَلٌ وَمَاء

ويقول السيد الحميرى المتوفى سنة ١٧٣ ﻫ (٧٨٩ — ٧٩٠ م) ، وكان كيسانيا :

سِنِينَ وَأَشْهُراً وَيُرَى بِرَضْوَى ... بِشِعْبٍ بَيْنَ أَنمَارٍ وَأُسْدِ

(١) كتاب فرق الشيعة ص ٢٠ — ٢١

(٢) هو جبل قرب ينبع منيف ذو شعاب وأودية وبه أشجار ومياه كثيرة حتى ليرى من ينبع أخضر اللون . أنظر لفظ رضوى فى معجم البلدان لياقوت .

مقيمٌ بينَ آرامٍ وعَينٍ وحَفّانٍ تَرُوحُ خلالَ رُبْدِ
تُرَاعِيها السِّبَاعُ وَليسَ منها مُلاقِيهِنَّ مفترساً بحَدِّ
أمنٌ بهِ الرَّدَى فرتَعنَ طَوْراً بِلاَ خَوْفٍ لدَى مَرْعًى وَوِرْدِ

وإن هذه الأبيات لتمثل عقيدة السيد الحميرى فى محمد بن الحنفية : من أنه قام بشعب من شعاب رضوى سنين وأشهراً كثيرة ، ومن حوله الأنمار والآساد ، والظباء وبقر الوحش ، وأنواع الشاء ، من غير أن يعدو أسد عليها بظفر أو بناب ، لاحترامها له وتقديسها إياه .

ويقول السيد الحميرى أيضاً :

ألاَ حَيِّ المقيمَ بشِعْبِ رَضْوى
وَأَهْدِ لهُ بمَنزِلِه السَّلاَمَا
أَضَرَّ بِمَعْشَرٍ وَالَوْكَ مِنَّا
وَسَمَّوْكَ الخَلِيفَةَ وَالإِمَامَا
وَعَادَوْا فيكَ أَهْلَ الأَرْضِ طُرًّا
مُقَامُكَ عَنْهُمُ سَبْعِينَ عَامَا
لقَدْ أَمْسَى بِمُورِقِ شِعْبِ رَضْوَى
يُرَاجِعهُ الملاَئِكَةُ الكَلاَمَا
وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ
وَلاَ وَارَتْ لهُ أَرْضٌ عِظَامَا
وَإِنَّ لَهُ بِهِ لَمَقِيلَ صِدْقٍ
وَأَنْدِيَةً تحَدِّثهُ كِرَامَا (١)

معتقدات الكيسانية

ويقول الشهرستانى « إن جميع الكيسانية يعتقدون أن الدين طاعة رجل ، وأن طاعتهم لذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الاسلام (كالصلاة والصوم والحج وهكذا » (٢)

(١) النوبختى : كتاب فرق الشيعة ص ٢٧
(٢) الشهرستانى (ج ١ ص ١٩٦) .

الامام فى نظر السبئية والكيسانية

وقد تكلم فان فلوتن (١) عن الامام حسب معتقدات السبئية والكيسانية فقال : إن السبئية ، وإن كانوا يعتبرون إمامهم شخصاً مقدسا بطبيعته ، فان الكيسانية يبذلون له الطاعة باعتباره رجلا رفيع المنزلة ، محيطا بعلوم ماوراء الطبيعة »

(Si les Sabâia considéraient leur imâm comme un être divin par sa nature, les Kaisânia lui prêtaient obéissance comme à un homme supérieur, possédant des connaissances surnaturelles)

هذا موجز عما بثه المختار بن أبى عبيد فى نفوس الشيعة الكيسانية من عقائد وبدع لايخفى على القارىء بطلانها وبعدها عن تعاليم الدين الاسلامى .

انضمام التوابين الى المختار

أما ماكان من أعمال المختار الحربية ؛ فانه بعد ماانضمت إليه فلول جيش التوابين والموالى الذين تعلقوا بحب آل البيت ؛ وثب على عامل الكوفة من قبل ابن الزبير فطرده . ولما أتيحت له الفرصة أرسل إلى الكوفة جيشا بقيادة ابراهيم بن الأشتر لقتال ابن زياد وللأخذ بثأر الحسين بعد أن عجز التوابون عن أن يثأروا له منه .

قتل ابن زياد

سار ابراهيم حتى لقى ابن زياد ومن معه من أهل الشام على نهر الخازر (٢) ، فدارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وكثير من أشراف أهل الشام (٣) وحملت رأسه إلى المختار ، فبعث بها الى ابن الزبير بمكة. وكان من أثر انتصار المختار على ابن زياد أن ازداد تعلق الشيعة به والتف حوله كثير منهم .

قتل المختار

ولما استفحل أمر المختار عمل ابن الزبير على الايقاع به ؛ فأرسل إليه جيشا بقيادة أخيه مُصْعَب بعد أن ولاه العراق . وقد عمل مصعب

(١) السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ترجمة المؤلف ص ٨٢

(٢) بفتح الزاى وكسرها وبعدها راء . وهو نهر بين إربل والموصل ثم بين الزاب الأعلى والموصل ويصب فى دجلة .

(٣) المسعودى : مروج الذهب (ج ٢ ص ١١٤)

على استخلاصها من المختار ، فوقعت بينهما موقعة بالقرب من الكوفة سنة ٦٧ ﻫ كان النصر فيها حليف مصعب بعد أن قتل المختار وسبعة آلاف من أتباعه ممن طالبوا بدم الحسين . وبذلك استولى مصعب ابن الزبير على الكوفة .

موقف عبد الملك من هذا النزاع

ظل عبد الملك فى الشام يرقب الحوادث ، فترك ابن الزبير يقاتل الشيعة والخوارج دون أن يتعرض لهم . ولا شك فى أنه كان يرمى بسياسته إلى اضعاف قوة ابن الزبير ؛ فلم يكد مصعب بن الزبير يفرغ من قتال المختار حتى خرج إليه عبد الملك بن مروان بعد أن هادن امبراطور الروم حين أغار على المصيصة سنة ٧٠ ﻫ حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيوغل فى بلاد الشام ، وقد بعث إليه عبد الملك الأموال والهدايا وصالحه على أن يؤدى اليه نحو خمسين ألف دينار فى كل عام ؛ غير أنه عاد فقطعها عند ما انقشعت سحب الصعاب التى كانت تحيط به .

خروج عمرو بن سعيد بن العاص

ولما وثق عبد الملك من أن الروم سوف لا يغيرون على بلاده أثناء محاربته ابن الزبير ، سار من الشام إلى العراق محاذيا نهر الفرات . وقد انتهز عمرو بن سعيد بن العاص فرصة اشتغال الخليفة بحرب ابن الزبير فى العراق وشق عصا طاعته ودعا إلى بيعته ؛ فلم يكن بد من رجوع عبد الملك إلى دمشق ، وما زال بعمرو حتى ثناه عن رأيه بعد أن مناه بولاية العهد (١) .

وقد عرف عمرو بن سعيد بالفصاحة والبلاغة والشهامة والاقدام . وكان يرى أحقيته بالخلافة دون عبد الملك ؛ فكتب اليه عبد الملك :

كتاب عمرو بن سعيد الى عبد الملك

«إنك لتطمع نفسك بالخلافة ولست لها بأهل . فرد عليه يهدده ويتوعده فى ذلك الكتاب الذى ينم عن الازدراء والاستهتار : استدراك النعم

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٠٤ ؟ المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٨ ؟ ابن الاثير ج ٤ ص ٥٨

إياك أفادنى البَغْى ، ورائحة الغَدْرة أورثتك الغَفْلة . زَجَرْت عما وافَقْتَ عليه ، وندبت إلى ما تركتَ سَبِيلَه . ولو كان ضَعْف الأسباب يُؤْيِسُ المطالب ، ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز . وعن قريب يتبيَّن مَنْ صريعُ بَغْى وأسيرُ غَفْلة » .(١)

من هذا يتبين ان وعد عبد الملك لعمرو بولاية العهد لم يكن إلا حيلة دبرها عبد الملك للقضاء عليه . فقد أرسل إلى عمرو أن يحضر ، فحضر عمرو وهو مطمئن بما أعطاه من الأمان . بيد أن هذا لم يلتفت إلى ما قطعه على نفسه من العهود والمواثيق ، وأمر رجاله بضرب عنقه ، ورمى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا . (٢)

وبذلك قضى عبد الملك على ما بذره عمرو بن سعيد من بذور الشقاق والانقسام فى البيت الأموى . وقد عيب عليه غدره بعمرو؛ وكان أول غدر حصل فى الاسلام .

مسير عبد الملك إلى العراق

ولما تم لعبد الملك القضاء على فتنة عمرو بن سعيد سار إلى العراق، فحاصر زُفَر بن الحارث زَعيم القيسية ، فى قرقيساء (٣) يدعو إلى عبد الله بن الزبير ، ثم نزل على إمامته وبايعه بعد أن تصالحا على وضع الدماء والأموال . (٤)

انضواء القيسية واليمنية تحت لواء عبد الملك

وبذلك انتهى النزاع بين القيسية واليمنية ، وانضووا جميعاً تحت لواء عبد الملك . على أن نار العداء لم تخمد بل كمنت فى النفوس ؛ وطالما كانت تظهر كلما سنحت الفرصة .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٦ — ١١٧

(٢) الطبرى ج٧ص ١٧٥- ١٨٠

(٣) بالفتح ثم السكون وقاف اخرى وياء ساكنة وسين مكسورة وياء أخرى وألف ممدودة . بلد على مصب نهر الخابور فى الفرات قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٨ ؟ ابن الاثير ج٢ ص ١٤١ — ١٤٢

حزب الزبيريين

نشأة حزب الزبيريين

يرى كثير من المؤرخين أن نشأة هذا الحزب ترجع الى الوقت الذى دعا فيه عبد الله بن الزبير الى نفسه بمكة سنة ٦٣ هـ . على أننا نرى أن نواة هذا الحزب قد ظهرت على أثر الفتنة التى أدت الى قتل عثمان وخروج طلحة والزبير وعائشة على على بن أبى طالب .

عبد الله بن الزبير فى عهد عثمان

فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من تأمير عثمان له على داره سبباً كافيا لأحقيته بالخلافة ، لأن استخلاف عثمان له دون أصحابه الذين كانوا معه يدل على كفاءته ومقدرته على القيام بمهام الأمور . وقد استند فى ذلك على تأمير الرسول أبا بكر للصلاة وهو فى مرضه الأخير مما عده المسلمون كافيا لاسناد الخلافة اليه . وفى ذلك يقول صاحب العقد الفريد (١) « كان عثمان استخلف عبد الله بن الزبير على الدار يوم الدار ، فبذلك ادعى ابن الزبير الخلافة » . فلا عجب إذا صار ابن الزبير يتحين الفرص من ذلك الوقت للسعى وراء الخلافة

فى عهد على

أما فى عهد على فقد كان عبد الله بن الزبير يرى أحقيته بالخلافة . وقد عمل على تحقيق أغراضه ، فأوقع بين معاوية وبين على الذى وقف على ما تنطوى عليه أغراضه ؛ فخاطب أباه الزبير فى شأن ابنه عبد الله وقال له « لقد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا (٢) » ، كما عمل ابن الزبير على تقوية حزب الزبير وطلحة وعائشة طمعا فى الخلافة . ولا غرو فقد كان يد هذا الحزب ولسانه الناطق ، وكان لا يألو جهدا فى جمع كلمته . وكان ربيبا فى بيت خالته عائشة أم المؤمنين ، وكانت تسعى لتحويل الخلافة إليه . وقد قيل إنه لما سار مروان بن الحكم إلى طلحة والزبير وقال لهما على أيكما

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٦٠

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٢

أسلم بالامرة وأؤذن بالصلاة ، أرسلت إليه عائشة رسولا يقول له « فليصل بالناس ابن أختى (١) » تريد عبد الله بن الزبير .

وقد بينا قبل كيف ثنى عبد الله بن الزبير عزم خالته عائشة عن العودة إلى المدينة حتى نبحتها كلاب الحوأب ، وكيف ألح على أبيه الزبير بالعدول عن رأيه حين همّ بالانصراف والعودة إلى المدينة ، ورماه بالجبن حتى كفَّر عن يمينه وخاض غمار الحرب (٢) .

في عهد معاوية

على أننا لانعلم أن ابن الزبير قد عارض معاوية قبل توليته يزيد العهد أو خالفه فى شىء ، بل بالعكس نراه جنديا من جنود معاوية يشترك مع الجيوش فى محاربة الأعداء . فكان فى الجيش الذى سار لغزو القسطنطينية سنة ٥٠ ﻫ بقيادة يزيد بن معاوية . ولا ريب أن معاوية كان يلمح فى ابن الزبير ناحية المعارضة ، فكان يترضاه ويتودد اليه ويحسن وفادته ويغدق عليه العطايا والمنح . وطالما كان يقول له : « مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حوارىّ رسول الله ويأمر له بمائة ألف » . وليس ذلك بعيدا على معاوية الذى عرف بالمكر والدها .

ومهما يكن من شىء فقد كمن ابن الزبير فى عقر داره طوال عهد معاوية تقريبا . ولعل هزيمة حزب طلحة والزبير وعائشة فى موقعة الجمل كان لها أثر فى انزواء ابن الزبير وعدم معارضته . على أنه لم يظل على هذه الحال من الجمود والاستكانة طويلا . فانه لما علم بولاية العهد ليزيد هب من سباته وقاد حزب المعارضة الذى وقف فى وجه معاوية ، وعمل على إحباط مساعيه فى توليته العهد لابنه يزيد .

بعد موت معاوية

تطورت دعوة ابن الزبير بعد موت معاوية بن أبى سفيان . فقد خلا له الجو بعد مقتل الحسين بن على ـ على ما تقدم ـ فدعا إلى نفسه سنة ٦٣ ﻫ ، وصادفت دعوته نجاحا عظيما فى بلاد العرب والعراق .

---

(١) ابن الاثير ج٤ ص ٨٨

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ١٠٢

على أن امتناع محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب عن مبايعة ابن الزبير — وكان قد بايع يزيد بن معاوية — قد فتَّ فى عضد ابن الزبير وساعد على ظهور حزب الكيسانية بزعامة المختار بن أبى عبيد الذى قام فى الكوفة بعد قتل الحسين .

العوامل التى ساعدت على ظهور حزب الزبيريين

وعلى الرغم من ذلك كله فقد ظهر حزب الزبيريين واستطاع أن يعكر صفو الأمويين مدة من الزمن . وكانت هناك عوامل عدة ساعدت على اثارة المسلمين على بنى أمية وأتاحت الفرصة لظهور هذا الحزب . وكان من بين هذه العوامل :

١ — تحول الخلافة من طريق الشورى والانتخاب إلى التعيين والوراثة ، ومن الحكم الجمهورى إلى الحكم الملكى ، ذلك النظام الذى جرى عليه الأكاسرة والقياصرة ، وما أذاعه أعداء الأمويين عن صفات يزيد الخلقية مما أحط من قدره وباعد بينه وبين أحقيته بالخلافة فى نظر المسلمين .

٢ — الحوادث الجسام التى وقعت فى عهد يزيد من مقتل الحسين ابن على ، وغزو مكة والمدينة . فقد اتخذ عبد الله بن الزبير من هذه الحوادث وسيلة لاثارة شعور المسلمين على بنى أمية والدعوة لنفسه بالخلافة فى الحجاز .

٣ — معاملة ولاة بنى أمية أهالى الولايات بالقسوة والعنف حتى كرهوا حكم الأمويين وانضموا إلى أعدائهم .

٤ — هذا إلى ماعرف عن عبدالله بن الزبير من الصلاح والتقوى والتمسك بالدين فاكتسب محبة المسلمين وظفر بتأييدهم .

بيعة ابن الزبير

وسرعان ماظهر أمر ابن الزبير بمكة . وقد روى الطبرى عن هشام عن أبى مخنف فى خطبة لعبد الله بن الزبير أنه قال عن أهل العراق بعد مقتل الحسين « . . . إنهم دعوا حُسَيناً لينصروه ويولوه عليهم . فلما قدم عليهم ثاروا إليه وقالوا له : إما أن تضع يدك فى أيدينا فنبعث

رواية الطبرى

بك الى ابن زياد بن سُمَيَّة سلما فيُمضى فيك حكمه ، وإما أن تحارب . فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل فى كثير ، وإن كان الله عز وجــل لم يُطلع على الغيب أحدا أنه مقتول . ولـكنه اختار الميتة الـكريمة على الحياة الذميمة . فرحم الله حسينا وأخزى قاتل حسين . لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان فى مثله واعظٌ وناه عنه . ولـكنه ماحُمَّ نازل (ماقدر يكون) . وإذا أراد الله أمرا لن يُدفع . أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهدا ؟ لا ! ولا نراهم لذلك أهلا . أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيراً فى النهار صيامه ، أحق بمـا هم فيه منهم ، وأولى به فى الدين والفضل . أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى تطلاب الصيد (يعرض بيزيد) . فسوف يلقون غيا » . فثار اليه أصحابه فقالوا أيها الرجل ! أظهر بيعتك فانه لم يبق أحد إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر (وقد كان يبايع الناس سرا ويظهر أنه عائذ بالبيت) . فقال لهم : لا تعجلوا ! وعمرو بن سعيد ابن العاص يومئذ عامل مكة ، وقد كان أشد شىء عليه وعلى أصحابه؛ وكان مع شدته عليهم يدارى ويرفق . فلما استقر عند يزيد بن معاوية ماقد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة ، أعطى الله عهداً ليوثقنه فى سلسلة . فبعث بسلسلة من فضة ، فمر بها البريد على مروان بن الحكم بالمدينة ، فأخبر ماقدم له بالسلسلة ، وبالسلسلة التى معه . فقال مروان :

خُذْها فَلَيْسَتْ للعَزِيزِ بِخُطَّةٍ   وفيها مقالٌ لامرئٍ مُتَضَعِّفِ

ثم مضى من عنده حتى قدم على ابن الزبير ، فأتى ابن الزبير فأخبره بممر البريد على مروان وتمثل مروان بهذا البيت . فقال ابن الزبير : لا والله لا أكون أنا ذلك المتضعف ؛ ورد ذلك البريد ردا رفيقا . وعلا أمر

ابن الزبير بمكة وكاتبه أهل المدينة . وقال الناس : أما إذ هلك الحسين عليه السلام ، فليس أحد ينازع ابن الزبير » . (١)

انتشار الدعوة لابن الزبير

بهذا استطاع ابن الزبير أن يزكى نار الفتنة فى المدينـة ضد ولاة يزيد حتى ثار أهلها سنة ٦٣ هـ وطردوا عامل يزيد . وقد بينا ماترتب على هذا من حصار مسلم بن عقبة المرى لها من ناحية الحرة وفتحها واباحتها ، وما تلا ذلك من حصار الحصين بن نمير مكة حيث دعا ابن الزبير إلى نفسه ، ووقوع القتال بينهما وحرق الكعبة . ثم توفى يزيد بن معاوية وانقسم الأمويون على أنفسـهم وكادت تضيع الخلافة من أيديهم ، واتسع نطاق الدعوة لابن الزبير بعد موت معاوية الثـانى فى الحجاز والعراق واليمن ومصر ، كما انضم بعض أهل الشام اليه : فقد انضم اليه أهل مكة والمدينة عدا عبد الله بن العباس ومحمد بن الحنفية ، إذ كانا يعتقدان أن بنى هاشم أحق بالخلافة ، ودعا الى ابن الزبير سلمة بن حنظلة التميمى فى البصرة (٢) ، كما دخل أهل الكوفة فى طاعته . وسرعان مادخل فى طاعته أهل العراق بعد أن نقضوا بيعة عبيـد الله بن زياد الذى أقام نفسه نائب خليفة بعد موت يزيد وبايعوه بيعة مؤقتة .

أما فى بلاد الشام فإن دعوة ابن الزبير لم تظهر إلا بعـد موت معاوية بن يزيد حيث انقسم أهل هذه البلاد إلى أمويين وزبيريين . يقول صاحب العقد الفريد (٣) : «فلما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأُرْدُن . وبايع أهل مصر أيضاً ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهرى على أهل الشام»

قوة مصعب ابن الزبير

سار عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير بعد أن صالح القيسـيين .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٧٣ - ٢٧٤
أنظر ايضا الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٦٠ ؟ وابن الأثير جـ ٤ ص ٤٣

(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٢٠ ؟ ابن الاثير جـ ٤ ص ٥٦٤

(٣) العقد الفريد جـ ٣ ص ١٤٥

فلما علم مصعب بمسيره إلى الكوفة أخذ يستعد لملاقاته . ولم يستطع جند مصعب الوقوف أمام جند عبد الملك ، لأن جزءاً كبيراً من جيشه — وعلى رأسه المُهَلب بن أبى صُفرة — قد أنهكته محاربة الخوارج . أضف إلى ذلك سخط الشيعة عليه لقتله المختار بن أبى عبيد

استمالة عبد الملك جند مصعب اليه

وقد راسل عبد الملك قواد مصعب وأعيان الكوفة ومناهم بمختلف الأمانى حتى أفسدهم عليه إلا إبراهيم بن الأشتر . فقد أعطى كتاب عبد الملك اليه لمصعب . وفى ذلك يقول ابن قتيبة [(١)] : « فكلهم أخفى الأمر عن مصعب إلا ابراهيم بن الأشتر ؛ فانه لما جاءه كتاب عبد الملك أخذه وأعطاه لمصعب فوجده يُمنّيه بولاية العراق ، وأخبره خبر القواد وأنهم أخفوا كتب عبد الملك ، وطلب من مُصْعب أن يقتلهم حتى لا يفسدوا الجيش ؛ فأبى مصعب ثم رجا منه حبسهم حتى يتبين الأمر ؛ فأبى ذلك عليه أيضا . »

من ذلك نرى أن مصعب بن الزبير لم يتمتع باخلاص جنده ، مما أتاح لعبد الملك فرصة مراسلة قواده واستمالتهم إليه بالأمانى ، كما نرى أيضاً قصر نظر مصعب الذى سمح لهؤلاء الساخطين عليه بالبقاء فى جيشه وعدم أخذه برأى ابراهيم بن الأشتر بعد أن أدلى إليه بالحقيقة . وقد كان لهذه السياسة أثرها ، فتفرق أصحاب مصعب عنه وترك فى

قتل مصعب بن الزبير

عدد قليل . وعلى مقربة من باخمرا (٢) نشب القتال بين الفريقين فقُتل مُصعب بعد أن أبلى بلاء حسنا وهُزم من كانوا معه . ودخل عبد الملك الكوفة فبايعه أهلها سنة ٧١ هـ ، وولى على البصرة والكوفة عمالا من قبله (٣) .

وبذلك صفا لعبد الملك الجو فى العراق ، ولم يبق فى يد عبد الله بن

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠

(٢) تقع بين الكوفة وواسط . وهى أقرب الى الكوفة منها الى واسط ، وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخا . راجع معجم البلدان لياقوت .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٨٧ — ١٨٨

محاصرة الحجاج بن يوسف مكة

الزبير إلا بلاد الحجاز المجدبة . فلما توطدت سلطته في العراق أعد جيشا كثيفا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي للقضاء على ابن الزبير .

خرج الحجاج إلى الطائف ، ومنها إلى المدينة حيث انضم إليه عاملها ومن معه من الجند . ثم سار إلى مكة وحاصرها وضَرَب الكعبة بالمجانيق (١) ، وأرغم أهلها على طلب الأمان ؛ فانضم بعض أتباع ابن الزبير وغيرهم من ذوى قرباه إلى الحجاج ؛ وبقى عبد الله بن الزبير فى عدد قليل من أنصاره . ولما أيقن أنه مقتول لامحالة ، دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر فقال : ياأماه ! قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة . والقوم يعطوننى ماأردت من الدنيا ! فما رأيك ؟ فقالت « أنت أعلمُ بنفسك . إن كنتَ تعلمُ أنك على حق ، وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمانَ بنى أمية يلعبون بها . وإن كنتَ أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وإن قلتَ كنتَ على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن . فقال : ياأمَّاهَ ! أخاف إنْ قتلنى أهلُ الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى » . فقالت : يابنى ! إن الشاة لاتتألم بالسلخ بعد ذَبْحها . فامض على بصيرتك واستعن بالله . فقبل رأسها وقال هذا رأيى ؛ فطفقت أمه تدعو له وتشجعه (٢) »

شهامة المرأة العربية

قتل عبدالله بن الزبير

خرج عبد الله بن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالا شديدا ، وأظهر شجاعة نادرة حتى حمل عليه العدو وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

(١) لم يرد عبد الملك بن مروان أن يحط من شأن الكعبة . وإنما اضطر الى قتال ابن الزبير فحدث ماحدث عن غير قصد . وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة ، اذ كان الامويون يعتبرون ذلك بدعا فى الدين

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٧ — ١٤٨

أسباب اضمحلال حزب الزبيريين :

انصراف اهل الحجاز عن النزاع السياسى

اتخذ عبد الله بن الزبير مقر حكومته فى الحجاز الذى أصبح بعد أن انصرفت عنه العناصر السياسية الى الشام والعراق مأوى الطبقة الارستقراطية التى انصرفت عن النزاع السياسى الذى كانت تضطرب به العراق وتموج به دمشق ، ومالت الى عيشة اللهو والمجون لما تدفق عليها من الثروة . لذلك لم تلق دعوة ابن الزبير نجاحا فى تلك البلاد .

ويظهر أن ابن الزبير كان متأثرا بهذه الفكرة القومية ، وهى اعادة النفوذ والسيطرة الى بلاد الحجاز كما كان فى عهد النبى وأبى بكر وعمر وعثمان ، حتى إنه لم يسر الى بلاد الشام حيث دعاه الحصين بن نُمَير ليبايع له بعد وفاة يزيد بن معاوية ، فأبى ابن الزبير أن يغادر الحجاز .

تواكله فى نشر دعوته

أضف الى ذلك أن عبد الله بن الزبير قد تواكل فى نشر الدعوة لنفسه ، فظل بالحجاز وترك أمرها الى أنصاره كالضحاك بن قيس ، وزُفر بن الحارث ، وأخيه مصعب ، على حين كانت السياسة الحكيمة تقضى عليه بأن يتولى ذلك بنفسه فى الولايات الاسلامية كبلاد العراق ومصر وغيرهما .

قيام الشيعة والخوارج فى وجه ابن الزبير

على أنه كان لظهور الشيعة والخوارج وقيامها فى وجه ابن الزبير أثر كبير فى قتله . فقد توزعت قوته ، فانشغل فريق من رجاله المحنكين بقتال حزب الخوارج ، وتعقب فريق آخر المختار ، وحارب فريق ثالث بنى أمية . ولو أن هذه الفرق قد تجمعت ضد بنى أمية ، لما تمكن الأمويون من القضاء على الزبيريين .

سجية البخل

أضف الى ذلك ما اشتهر عن عبد الله بن الزبير من البخل . وقد ذكر لنا صاحب العقد الفريد (١) أن مصعب بن الزبير لما قتل المختار ابن أبى عبيد الثقفى وفد على أخيه عبد الله ومعه وجوه أهل العراق ، فقال : ياأمير المؤمنين ! جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرا

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٠٩

لتعطيهم من هذا المال . فقال له : جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله . والله لا فعلت . أما خلفاء بنى أمية فقد كانوا على العكس من ذلك . فقد اجتذبوا الناس اليهم بالأموال الضخمة والعطايا . والناس عبيد الدرهم والدينار كما يقولون .

عدم اهتمامهم بالدعاية لأنفسهم

ولا عجب إذا تفوق الأمويون على الزبيريين فى ناحية الدعاية واجتذاب الناس اليهم ، حتى كثر الشعراء الذين لهجوا بمحامد الأمويين وبثوا الدعاية لدولتهم رغبة فى الحصول على أموالهم وأعطياتهم التى كانوا يبذلونها فى سخاء . وكانوا يفيضون على الشعراء وعلى القبائل التى ينتمى اليها هؤلاء الشعراء ، على حين أنا لا نجد فى جانب الزبيريين أكثر من شاعر واحد أخلص لهم ودام على ولائه لهم حتى بعد سقوط حزبهم . وهذا الشاعر هو عبيد الله بن قيس الرقيات[1] الذى يقول عنه الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الأربعاء : « كان صاحبنا من أنصار عبد الله بن الزبير ، وكان مغاليا فى نصر الزبيريين يحبهم أشد الحب [2] ويبغض خصومهم من بنى أمية بغضاً شديداً جاهد معهم

---

(١) هو عبيد الله بن قيس (والرقيات جمع رقية) . سمى ابن قيس الرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة كان اسم كل منهن رقية . وهو شاعر قرشى يؤثر العصبية القرشية ويختص منها بحزب الزبيريين الذين اتصل بهم ومدحهم ودافع عنهم حتى قتل مصعب بن الزبير ثم اخوه عبد الله واختفى حزبهم من ميدان السياسة . (٢) مدح عبد الله بن الزبير فقال :

وابن أسماء خير من مسح الر كن فعالا وخيرهم بنيانا
واذ قيل من هجان قريش ؟ كنت أنت الفتى وأنت الهجانا

ديوان قيس الرقيات . ورقة ٢٧ (مخطوط رقم ٥١١ دار الكتب الملكية) امرأة هجان كريمة .
وقال فى مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أفلح من كان همه الاتقاء

ويقول :

لمصعب عند جد القول أكثرها وأطيبها
وأمضاها بألوية يسد الفج منقبها
بنصر الله يعلوها ويعربها ويغلبها
ويذكيها بكفيه اذا ما لاح كوكبها

شرحه ورقة ٢٢

بسيفه ولسانه أشد جهاد ، ومدحهم أحسن مدح ، حتى إن عبد الملك بعد أن عفا عنه لم يستطع أن يغفر له حسن قوله فى مصعب بن الزبير . وقد خرج مع مصعب هذا فى العراق على عبد الملك ، ولزمه حتى أحس مصعب أنه مقتول ، فأذن له فى أن ينصرف وحباه مالا كثيرا . ولكن الشاعر أقسم لا يريم حتى يعرف سبيل مصعب . فما زال معه حتى قتل ، ثم فر فبلغ الكوفة فلجأ الى أول دار لقيته » (١)

كما يصف الدكتور طه حسين اندفاع هـــذا الشاعر فى ذلك النضال السياسى ومناصرة الزبيريين وإخلاصه لهم فيقول : « خطرت له السياسة وخلبت عقله فغرق فيها الى رأسه ، واحتمل من آلامها وأثقالها شيئاً كثيراً جدا . وأثر ذلك فى شعره وفى حياته تأثيرا ظاهراً غلب على كل شىء من الأشياء التى يمكن أن تعمل فى حياة الشعراء (٢) .

انظر الى ابن قيس يخاطب عبد الله بن الزبير وقد خرج اليه وافداً :

أَنْتَ ابنُ مُعْتَلِجِ البِطَاحِ كُدَيِّهَا فَكَدَائِهَا
فالبيتِ ذى الأَرْكانِ فالمُسْـتَنِّ مِنْ بَطْحَائِهَا
فَمَحَلِّ أَعْلاَهَا إلى عَرَفَاتِهَا فَحِرَائِهَا
مِنْ سِرِّهَا فِيهَا ومَعْدِنِ بِرِّهَا وَوَفَائِهَا
أَوْ فى قُرَيْش بالعُلاَ فِى حُكْمِهَا وقَضَائِهَا
وَلاَ أَنْتَ أَعْلَمُهَا بِهَا وَأَصَحُّهَا مِنْ دَائِهَا
وأَتمهَا نسبا إذا نُسِبَتْ إلى آبَائِهَا
وَلَدَتْ أَغَرَّ مُبَارَكاً كالبَدْرِ وَسْطَ سَمَائِهَا
إِنَّ البِلاَدَ سِوَى بِلاَدِكَ ضَاقَ عَرْضُ فَضَائِهَا

وقال فى نصرة مصعب :

على بيعة الاسلام بايعن مصعبا كراديس من خيل وجمعا ضباركا
نفيت بنصر الله عنهم عدوهم فأصبحت تحمى حوضهم برماحكا
تداركت منهم عثرة نهكت بهم عدوهم والله أولى كذلكا

ورقة رقم ٢٨ من المخطوط (١) كتاب حديث الأربعاء ج ٢ ص ٨٧

(٢) شرحه ص ٨٢

فاجْمَعْ بَنِيَّ إلى بَنِيكَ فأنتَ خيرُ رِعَائِها
نشْهدْكَ منّا مَشْهدًا ضَنْكًا على أعْدائِها
نَحْنُ الفَوارِسُ مِنْ قُرَيْشٍ يَوْمَ جِدَّ لِقائِها

ويقول فى موقعة الحرة :

إنَّ الحوادِثَ بالمدينةِ قد أوْجعْنَنِي وقَرعْنَ مرْوَتِيَهْ
وَجَبَبْنَنِى جَبَّ السَّنَامِ ولمْ يَتْرُكْنَ رِيشًا فى مَناكِبِيَهْ
ونَعى أسامةَ لى وإخْوتَه فظَلِلْتُ مُسْتَكًّا مَسامِعِيَهْ
كالشَّارِبِ النَّشْوانِ قَطَّرَهُ سَمَلُ الزقاقِ تفيضُ عبْرَتِيَهْ
كَيْفَ الرُّقادُ وكلَّمَا هَجَعَتْ عَيْنِي ألَمَّ خَيالُ إخْوتِيَهْ
واللهِ أبْرَحُ فى مُقَدِّمةٍ أهْدِى الجُيُوشَ عَلَى شَكِيَّتِيَهْ
حتَّى أُفَجِّعَهُمْ بإخْوتِهِم وأسُوقَ نِسْوتَهُمْ بنِسْوتِيَهْ (١)

ويقول عن قتل مصعب بن الزُّبَيْر وقعود مضر عن نصرته ضد ربيعة التى ما قتلته لتنصر بنى أمية فحسب ، بل لتدرك ثاراتها الجاهلية قِبَل مضر :

إنَّ الرَّزِيَّةَ يَوْمَ مَسْكِنَ والمصيبةَ والفجيعهْ
بابنِ الحَوارِى الذى لم يَعْدُه أهلُ الوقيعهْ
غَدَرَتْ به مُضَرُ العِرَاقِ وأمْكَنَتْ منه رَبِيعهْ
فأَصبْتِ وتْرَكِ يا ربيعَ وكُنْتِ سامعةً مُطيعهْ
يالَهْفَ لو كانتْ له بالطَّفِّ يَوْمَ الطَّفِّ شِيعهْ
أوْ لَمْ يخونوا عَهْدَهُم أهلُ العراقِ بنو اللكيعهْ
لَوَجَدْتُموه حينَ يَغْضَبُ لا يُعرِّجُ بالمَضِيعهْ (٢)

ويقول أيضا فى قتل مصعب وفى دعوة قريش إلى توحيد صفوفها :

لقدْ أوْرَثَ المِصْرَيْنِ خِزْيًا وذِلَّةً قَتيلٌ بدَيْرِ الجاثليقِ مُقيمُ
فما نَصَحَتْ للهِ بَكْرُ بنُ وائِلٍ ولا صَبَرَتْ عند اللقاءِ تَميمُ

(١) حديث الأربعاء للدكتور طه حسين جـ ٢ ص ٨٩

(٢) الكامل للمبرد (طبعة أوربا) ص ١٠٣

ولوْ كانَ بَكْرِياً تعطَّفَ حَوْلَه ... كتائِبُ يَغْلِى حَمْيُها ويدوم

لكِنَّهُ ضاعَ الزِّمامُ ولم يَكُنْ ... بها مُضَرِيٌّ يَوْمَ ذاكَ كَرِيمُ

جَزَى الله كُوفياً هناكَ مَلاَمَةً ... وبَصْرِيَّهم إن المُليمَ مُلِيمُ

وإنّ بني العَلاّتِ أخلَوْا ظُهورَنا ... ونَحْنُ صَرِيحٌ بينهم وَصَمِيمُ

فإنْ نُفْنَ لاَ يَبْقَوْا أولئك بَعْدَنا ... لذى حُرْمَةٍ فى المُسْلِمينَ حَرِيمُ(١)

ومما يذكر لهذا الشاعر أنه مع انفراده فى صف الزبيريين وكثرة الشعراء الموالين لبنى أمية قد استطاع أن يغيظ بنى أمية ، وان يسلك الى إغضابهم طريقاً ابتدعه وسبق اليه الشعراء . وذلك أنه كان - كما يقول الدكتور طه حسين - « .. يتغزل حينا آخر لا للهو ولا لوصف حب صادق ، بل ليعبث بخصومه السياسيين ؛ إذ يذكر نساءهم بما يحسن وبما لا يحسن ..... وبلغ من هذا الغزل الهجائى مالم يبلغه أحد من شعراء العصر الأموى . فلم يكن يكتفى بالنسيب المألوف يذكر فيه المرأة التى يريد أن يهجو أهلها كما كان يفعل العرجى ، وانما كان يتخيل القصص والأخبار فيقصها فى شعره مسرفا فى تفصيلها إسرافاً شديداً . . . كان يخاصم بنى أمية . فتغزل بام البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان ، يريد من غير شك أن يغيظ عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز وغيرهم من رجالات بنى أمية . » وقد نقل الدكتور فى آخر حديثه قصيدة لابن قيس « ذكر فيها أم البنين ذكرا مفصلا تفصيلا من شأنه أن يؤذى ويسىء . ولكن احتاط لنفسه ولأم البنين ، فزعم أن هذه القصة الطويلة المفصلة إنما وقعت له فى المنام » ليصون كرامة أم البنين وليبقى على نفسه أن يقع تحت طائلة العقاب ، ثم تخلص بعد هذا كله الى مدح مصعب وهى القصيدة التى مطلعها :

أَلا هَزِئَتْ بِنَا قُرَشِـ ... ـيَّةٌ يَهْتَزُّ مَوْكِبُها (٢)

---

(١) الطبرى (طبعة دى غويه) ٢ : ٨١٢

(٢) حديث الاربعاء ج ٢ ص ٩٠ وفيها يقول :

الى أم البنين ! متى ... يقربها مقربها

والحق أن عبيد الله بن قيس قد وصل من هذا الغزل الهجائى الى كل ما كان يريد ، فاحفظ بنى أمية عليه حتى هدروا دمه وتوعدوا من آواه ، فلم يستطع أن ينال منهم بعد الاحتيال والشفاعة من أم البنين وعبد الله بن جعفر لدى عبد الملك . لم ينل إلا الأمان وحُرِم العطاء من بيت مال المسلمين ولم يقبل منه شعره فى بنى أمية (١)

لذلك لا نعجب إذا انصرف الناس عن ابن الزبير وكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب . وقد عرف فيه عبد الملك هذا الخبل ، فتنبأ له بأفول نجمه وأنه سوف لا يسود . وقد قال عبد الملك لمصعب عند ماطلب منه أن ينضم اليه ويترك أخاه : « والله إن فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبدا : عُجْبٌ قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه . فلا يسود رجل فيه تلك الخصال . »

هذا الى اخراج عبد الله بن الزبير بنى أمية من المدينة بدون مبرر وتحامله على بنى هاشم وحطه من شأنهم ، وهدمه الكعبة لاصلاحها ، فاتخذ الحجاج بن يوسف من ذلك وسيلة لاثارة الناس على ابن الزبير (٢)

وبذلك سقط حزب الزبيريين بعد أن بسط سلطانه على كثير من الولايات تسع سنين (٦٤ - ٧٣ هـ) ، ولم تقم له قائمة بعد ذلك .

أثر هزيمة ابن الزبير

وإن لهزيمة ابن الزبير مغزاها السياسى . فانها ليست هزيمة شخص أو حزب ، ولكنها هزيمة ذلك الاقليم الذى كان مبعث النهضة ، والذى حمل لواءها مدة من الزمن . وكانت تلك المحاولة آخر المحاولات التى بذلها الحجاز لاسترداد نفوذه الأدبى والسياسى .

أتتنى فى المنام فقلـ ـت هذا حين أعقبها
شربت بريقها حتى نهلت وبت أشربها
فكانت ليلة فى النو م نسمرها ونلعبها
فايقظنا مناد فى صلاة الصبح يرقبها

وفيها : لمصعب عند جد القو ل أكثرها وأطيبها

(١) أنظر ترجمة ابن قيس الرقيات فى الاغانى جـ ٥ ص ٧٣ — ١٠٠ (طبعة دار الكتب الملكية)

(٢) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٣٠٤ — ٣١١

الحجاج بن يوسف والعراق

صفا الجو لعبد الملك فى الشام وفلسطين والعراق بعد ماوقع بها من حوادث كادت تودى بالدولة الأموية إلى الزوال ، لولا ماأوتيه عبد الملك من رباطة جأش وكفاءة نادرة . حتى إذا ماتم له القضاء على منافسة عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ ندب الحجاج بن يوسف لاخضاع بلاد المشرق .

تولية الحجاج بن يوسف بلاد العراق

تولى الحجاج بن يوسف بلاد الحجاز بعد مقتل عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ وبقى بها الى سنة ٧٥ هـ حيث ولاه عبد الملك العراق ، فسار اليها فى جيش من أهل الشام . ولما بلغ القادسية أمر الجيش بالاستراحة ، وسار هو فى اثنى عشر راكبا إلى الكوفة ، فدخلها وصعد المنبر متلثما . ولما غُصّ الجامع بأهله كشف اللثام عن وجهه وخطبهم خطبته المشهورة فى ميدان الأدب والتاريخ ، وكلها إطناب واستهتار بأهل العراق ، وتوعد لهم لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بنى أمية :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة ! إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها . وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى . . . الخ » . أما بقية الخطبة فلا تختلف فى معناها ولهجتها عما تقدم .

ولما فرغ الحجاج من خطبته لم يفه أحد ممن كان بالمسجد ، وفيهم أهل الشرف والرياسة ، بكلمة يعترض فيها على قوارص كلمه وشديد زهوه بنفسه ، أو يظهر استياءه لما لحق أهل بلده من مذلة وما حاق بهم من مهانة . وبعد هذه المقدمة الطويلة المفزعة أمر الحجاج غلامه بأن يقرأ على الناس كتاب عبد الملك فقرأه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم ».

غير أن أحدا من الحاضرين لم يرد سلام الخليفة ؛ فأمر الحجاج غلامه بالكف ، وأخذ يثخن الناس ويتهددهم ويتوعدهم ، فقال « والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن » ؛ ثم أمر غلامه فأعاد الكرة . فلما قرأ سلام الخليفة قال الحاضرون : « على أمير المؤمنين السلام » (١)

ومن هذه الخطبة نتبين السياسة التى رسمها الحجاج للسير عليها مع أهل العراق ؛ وهى سياسة حزم ممزوج بالظلم والجبروت . ولا غرو فقد أخذ الناس بغير هوادة وقتلهم على الريبة والظِّنّة .

ولما فرغ الحجاج من أهل الكوفة ، سار إلى البصرة وخطب الناس فيها خطبة لاتختلف فى معناها ومرماها عن خطبته فى الكوفة . ومن ثم عمل على معاونة المهلب بن أبى صُفرَة فى حرب الخوارج . وهنا يجب أن نرجع قليلا إلى الوراء لنرى ما كان من أمر حزب الخوارج مع عبدالله بن الزبير ، ثم مع عبد الملك بن مروان :

الخوارج :

انضمامهم إلى عبدالله ابن الزبير بالحجاز

لما اشتد ابن زياد على الخوارج فى العراق وسد فى وجوههم كل طريق ، اجتمعوا وتذاكروا مالاقوه من الإيذاء على يد الأمويين ؛ فقال لهم نافع بن الأزرق « إن الله قد أنزل عليكم الكتاب وفرض عليكم الجهاد واحتج عليكم . وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف . فاخرُجوا بنا إلى هذا الذى قد ثار بمكة(٢) . فان كان على رأينا جاهدنا معه ، وإن يكن على غير رأينا دافعناه عن البيت » . ثم سار الخوارج إلى مكة حيث لحقوا بابن الزبير ؛ فعول على اجتذابهم نحوه ، واتخذ

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٣٢ - ١٣٣ ؟ الطبرى ج ٧ ص ٢١٠

(٢) كان عبد الله بن الزبير فى ذلك الوقت قدقام يدعو الى نفسه ، فسير اليه يزيد بن معاوية جيشا لقتاله .

من قدومهم عليه وانضمامهم إليه فرصة سانحة للوصول إلى غايته. وسرعان ما أخبرهم أنه يرى رأيهم؛ فقاتلوا معه أهل الشام حتى مات يزيد.

تفرق الخوارج عن عبد الله بن الزبير

ولما وضعت الحرب أوزارها اجتمعوا وقالوا «إن الذى صنعتم أمس ليس رأيا ناجعاً. تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على مثل رأيكم»؛ ثم اتفق الخوارج على أن يأتوا ابن الزبير ويسألوه عن رأيه فى عثمان وعلىّ وما أحدثه كل منهما. فلما كاشفوه بذلك قال لهم أشهدكم ومن حضرنى أنى ولىٌّ لابن عفان وعدو أعدائه». ولما تبين الخوارج أن ابن الزبير ليس على رأيهم رحلوا من مكة؛ فأقبل نافع ابن الأزرق الحنظلى وعبد الله بن الصفّار السّعدى وعبد الله بن إباض وحَنْظَلة بن بَيْهَس حتى أتوا البَصْرَة. وانطلق أبوطالوت من بنى بكر ابن وائل وأبوفَدَيك وعطية بن الأسوَد اليشكرى إلى اليمامة [1].

الخوارج بالبصرة

وعند ما دخل نافع بن الأزرق وأتباعه البصرة، اجتمع هو وأصحابه يتذاكرون الجهاد، ثم خرجوا وكسروا باب السجن وأخرجوا مَنْ فيه من الخوارج الذين حبسهم ابن زياد. وساعدهم على ذلك خروج أهل البصرة على ابن زياد وضعف نفوذه على أثر قيام ابن الزبير بعد موت يزيد.

ازدياد نفوذ نافع فى السواد

ولما استفحل أمر نافع تجرد أهل البصرة لقتاله، فلحق بالأهواز (شوال سنة ٦٤ هـ) [2] حيث اقتتل الفريقان؛ فقتل نافع وقتل مسلم ابن عبيس قائد الأمويين. فأمّرَ كل منهما عليه قائدا من قِبَلَه، فلحق بسابقه. وهكذا أصبحت الحرب سجالا بين الأمويين والخوارج حتى حلت الهزيمة بأهل البصرة فى جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٨٠

(٢) لحق نافع بالاهواز واستولى عليها وجبى خراجها فكثرت أتباعه وانتشر عماله فى السواد حتى أوقع الفزع فى قلوب أهل البصرة.

تولية المهلب بن أبي صفرة حرب الخوارج

ولما بلغ خبر الهزيمة أهل البصرة ورأوا أن خطر الخوارج قد اشتد، طلبوا إلى الأحنف بن قيس أن يتولى حربهم، فأشار عليهم بالمهلب بن أبي صفرة لما يعلمه فيه من الشجاعة وحسن الرأى والتدبير والمعرفة بالحرب. فعرض أهل البصرة على المُهَلَّبِ أن يكفيهم شر الخوارج؛ فقبل على أن تكون له ولاية ماغلب عليه، وأن يعطى من بيت المال مايقوى به هو ومن معه على محاربتهم، وأن ينتخب من وجوه الناس وفرسانهم وذوى الشرف من أحب؛ فأجابوه إلى ماطلب.(١)

ودارت رحى القتال بين الخوارج وبين أهل البصرة بقيادة المهلب ابن أبي صفرة والأحنف بن قيس، فدارت الدائرة على الخوارج وقتل زعيمهم؛ فانحازوا إلى نواحى كرمان وأصفهان. ولم يزل المهلب يطارد الخوارج حتى تولى مصعب بن الزبير العراق، فولاه الجزيرة وولى على حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر؛ فحاربهم مدة حتى أجلاهم إلى أصفهان. حيث جمع الخوارج شملهم؛ وأتوا سابور فسار إليهم قائد ابن الزبير وهزمهم، غير أنه لم يكن فى حزم المهلب؛ فقوى أمر الخوارج وعاثوا فى الأرض فسادا وقتلوا الأطفال والنساء وجبوا الخراج. ولم ير أهل العراق بدا من أن يطلبوا

قطرى بن الفجاءة

إلى مصعب رجوع المهلب إلى قتالهم. وسرعان ماتلاقى المهلب مع الخوارج وعلى رأسهم قطرى بن الفُجاءة، واقتتل الفريقان ثمانية أشهر صمد فيها المهلب لقتالهم.(٢)

ظهور الخوارج من جديد

على أن قتل مصعب ابن الزبير وعود النفوذ لعبد الملك بن مروان فى العراق قد هيأ الفرص لظهور الخوارج من جديد. ذلك أن عبد الملك لما ولى خالد بن عبد الله بن أسيد بلاد العراق، صرف

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٨١

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١١٨ — ١٢٠

المهلب عن حرب الخوارج وأرسل أخاه عبد العزيز بن عبد الله لحربهم ؛ فهزمه الخوارج هزيمة منكرة وأسروا امرأته .

على أن سياسة هذا الوالى لم ترق عبد الملك ؛ فكتب إليه يقبح رأيه ويؤنبه على إبعاده المهلب ، الذى عرف بقوة الشكيمة وشدة البأس ، والذى حنكته الحروب حتى أوقع بالخوارج غير مرة ، ويأمره بإسناد حربهم إليه وقال له : « قبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابيا من أهل مكة على القتال وتدع المهلب يجبى الخراج ، وهو الميمون النقيبة المقاسى للحرب ابنها وابن أبنائها . أرسل إلى المهلب يستقبلهم . وقد بعثت إلى بشر بالكوفة ليمدك بجيش ؛ ولا تعمل فى عدوك رأيا حتى يحضره المهلب والسلام » . وكان ذلك سنة ٧٢ هـ . ومن ثم أصبحت الحرب سجالا بين المهلب والأزارقة من الخوارج ؛ فكانت تواتيه الأمداد من الكوفة .

استفحال خطر الخوارج

وعلى الرغم من ذلك كله فقد استفحل خطر الخوارج فأبلوا فى كثير من المعارك ، لما اشتهر به ولاة العراق من الضعف ووهن العزيمة . لذلك لم ير عبد الملك بدا من تولية الحجاج بن يوسف على العراق - كما أشرنا - فأخذ أهلها بالشدة حتى تهافتوا على المهلب ، وصار يرسل اليه البعوث فقوى أمره . وبذلك تمكن من أن يطرد الخوارج إلى كرمان . وأقام هو بفارس ، ثم تبعهم إلى بجيرفت [1] حيث قاتلهم أكثر من سنة صبر فيها على قتالهم حتى دب الشقاق بين الخوارج ، وذلك أن رجلا منهم يقال له المقعطر قتل أحد أصحابه من ذوى البأس والنجدة فطلبوا من قطرى أن يمكنهم منه ليقتصوا

قيام الشقاق بين الخوارج

---

(١) بكسر الجيم وفتح الراء وسكون الفاء بعدها تاء مثناة فوقية . وهى مدينة كبيرة من أشهر مدن كرمان وأوسعها . بها خيرات ونخل وفواكه ، ويتخللها نهر ، وحرها شديد . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

منه لصاحبهم فقال لهم : ما أرى أن أفعل . رجل تأول فأخطأ فى التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذى الفضل منكم والسابقة فيكم . وقد قيل إن المهلب أرسل رجلا نصرانياً إلى جيشهم وأمره أن يسجد لقطرى ففعل ؛ فقال الخوارج لقطرى « إن هذا قد اتخذك إلها » ووثبوا على النصرانى فقتلوه . وسواء أكان السبب فى اختلافهم هذا ام ذاك ، فقد اختلفوا وتفرقوا ، فبقى فريق مع قطرى وانحاز فريق آخر إلى عبد ربه الكبير ، ووقع القتال بين الفريقين ومكثوا على ذلك شهراً حتى ضعفوا . وتركهم المهلب على حالهم لا يحركهم ثم ارتحل قطرى إلى طبرستان ، وأقام عبد ربه بكرمان ، فحاصره المهلب بجيرفت وقضى عليه واستولى على ما فى عسكره سنة ٧٧ هـ (١)

ولما علم الحجاج بمسير قطري ومن معه إلى طبرستان أرسل إليهم جيشاً عظيما قاتلهم بها حتى قضى عليهم وقتل قطرى . ومن ذلك الوقت ضعفت شوكة الأزارقة (٢) .

الصفرية

وقد حارب الحجاج أيضا الصفرية من الخوارج وعلى رأسهم صالح ابن مسرح التميمى من بنى امرىء القيس بن عبد مناة . وكان صالح عابدا فقيها ، له أصحاب يقرئهم القرآن ويعلمهم الفقه . وكان يقيم فى بلاد الموصل والجزيرة ويتردد على الكوفة . فلما علم به الحجاج شدد فى طلبه فهرب الى الموصل حيث عزم على الخروج ، وحث أصحابه على التضحية وبذل النفس فى طاعة الله « وقتال أولئك الكفار » . وانضم اليه شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى فى جماعة من أتباعه (صفر سنة ٧٦هـ) . وبينما هم فى طريقهم إلى الموصل صادفوا دوابا لمحمد بن مروان عامل الجزيرة ، فأخذوها وحملوا عليها أصحابهم وهزموا الجيش الأموى

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٨٢

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ١٨٣

فى حران ـ وكان يبلغ مائة ألف ـ هزيمة منكرة وغنموا مامعه من سلاح ومال ، وأوقعوا بالأمويين فى كثير من المعارك .

أسباب انتصارات الخوارج

وعلى الرغم من قلة عدد الخوارج وقتل صالح بن مسرح ، فإنا نراهم يهزمون جند الأمويين على كثرتهم .

فقد ذكر ابن خلكان (١) أن قَطَرِىّ بن الفُجاءة خرج فى بعض حروبه وهو على فرس أعجف وبيده عمود خشب ؛ فدعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل من الأعداء . فحسر قطرى عن وجهه ؛ فلما رآه الرجل ولى هاربا ؛ فقال له قطرى : إلى أين ؟ . فقال الرجل : لا يستحى الانسان أن يفر منك .

وليس غريبا أن يولى مثل هذا الرجل أمام قطرى وهو الذى يقول : ـ

أقول لها وقد طارت شَعَاعاً ... من الأبطال ويحك لن تُراعى
فإنك لو سألتِ بَقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تُطاعى
فصبراً فى مَجالِ الموتِ صبراً ... فَما نَيْلُ الخُلُودِ بمُستَطاعِ
ولا ثَوبُ الحياة بثوب عزٍّ ... فيطوى عن أخى الخَنَعَ اليراع
سبيل الموت غاية كل حى ... وداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لا يُعْتَبَط يَسْأَم ويَهْرَم ... وتُسْلِمْه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خـــير فى حياةٍ ... إذا عد من سَقَطِ المتاعِ (٢)

ولاغرو فقد بلغ من جرأة شبيب وعدم اكتراثه بجيوش الحجاج أن دخل الكوفة وطاف فيها وقتل كثيرا ممن كانوا فى مساجدها ، وأدخل الفزع والهلع فى قلوب أهلها حتى أغلقوا بيوتهم .

ولما رأى الحجاج ضعف أهل الكوفة عن مقاومة الخوارج وتثاقل أهل العراق عن حربهم ، سأل عبد الملك أن يمده بجيش من أهل الشام ؛ فبعث إليه ستة آلاف حمل عليهم شبيب أكثر من ثلاثين

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٣٠

(٢) شرحه

حملة ؛ فصمدوا حتى اضطروا الخوارج إلى عبور جسر على دُجَيْل فهوت بشبيب رجل فرسه فغرق فى النهر ؛ فحمل أهل الشام على بقية أصحابه وأفنوهم على بكرة أبيهم(١) . واستراح الحجاج من خطر هؤلاء الخوارج . وقد طويت بموت شبيب صحيفة من صفحات الفروسية النادرة .

ويعتبر هذا العصر أشد عصور الخوارج قوة . ولا غرو فقد كان مليئا بالحروب المتتابعة التى أضرموا نارها فى كل مكان ، وأظهروا فيها شجاعة نادرة واستبسالا ممتازاً ، ولا سيما منذ أن فارق بعضهم الزبير بمكة ، وأغار بعضهم ـ كالأزارقة والنجدية والصفرية ـ على بلاد الدولة الأموية فى عهد عبد الملك بن مروان الذى يرجع إليه الفضل فى إضعاف أمرهم وفلّ شوكتهم . ولو أنهم اتحدوا وكونوا جبهة واحدة لكان لهم شأن غير هذا .

فرق الخوارج وتعاليمها :

يحسن بنا بعد أن تكلمنا عن مناوأة الخوارج لعبد الملك وقضائه عليهم ، أن نأتى بكلمة عن فرقهم ومبادئهم :

كان الخوارج أول الأمر حزبا سياسياً لا يعدو بحثه الخـــلافة وما يتعلق بها ؛ وكانوا يقولون بصحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان فى سنيه الأولى وعلىّ إلى أن حكم الحكمين .

نظريتهم فى الخلافة

ويمثل الخوارج أو الجمهوريون (كما يسميهم فان فلوتن) (٢) المبادىء الديمقراطية المتطرفة . ويمكن تلخيص نظريتهم فى الخلافة فى أنها : حق لكل عربى حُر ، وأنه إذا ما اختير الخليفة لا يصح له أن ينزل عنها . وإذا جار الخليفة استحلوا عزله أو قتله إذا قضت الضرورة بذلك (٣) .

---

(١) كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٦٩ .

(٢) شرحه ص ٦٩ ؛ Browne, Lit. Hist. of Persia, p. 220.

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٠ — ١١١

وقد أدخل الخوارج بعض التعديل على الشرط الأول ، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم الى صفوفهم الكثيرون من المسلمين من غير العرب . لذلك جعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين للأحرار والارقاء على السواء . وقد خالفوا بهذا الرأى نظرية الشيعة التى تقول بانحصار الخلافة فى آل بيت النبى .

من كان يتكون الخوارج

وقد انضم إلى الخوارج وغذى صفوفهم أولئك العرب الخلص من رجال الصحراء ، وبخاصة بعض القبائل العربية ذات الخطر والشأن ، مثل قبيلة تميم وأبطال القادسية ورؤساء الجند الذين انضم إليهم أولئك المتطرفون فى الاسلام من أهل الصيام والصلاة كما سماهم بذلك الشهرستانى . وقد رأوا أن جماعة المسلمين قد أصبحت فى خطر من جراء المطامع الشخصية ، وأن مصالحهم قد أصبحت خاضعة وتابعة لمصلحة بعض الأحزاب تعبث بها كما تشاء .

وانضم إليهم أيضا بعض القراء من جند على ، ولا سيما بعد ما رأوا من فشل الحكمين فى حكمهما وخيبة الأمل فى حقن دماء المسلمين وإعادتهم إلى الوئام .

أفكار الخوارج الدينية

كانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية محضة على عكس ماذهب إليه الأستاذ نيكلسون فى كتابه تاريخ العرب الأدبى (١) ؛ وقد ظلت كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث مزجوا تعاليمهم السياسية بالأبحاث الدينية ؛ فقالوا إن العمل بأوامر الدين من صلاة

---

(١) يرى الاستاذ نيكلسون أن الدافع الاصلى للخوارج على تلك الحركة وتركهم جند على انما هو دافع دينى رغم ما كان يشو به من المظهر السياسى .

(Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 210.)

وقد نقل هذا الرأى عن الاستاذ فلهوزن فى كتابه الاحزاب السياسية والدينية فى الصدر الاول للاسلام .

وصيام وصدق وعدل جزء من الايمان ، وليس الايمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب ؛ فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم لم يعمل بما يفرضه الدين وارتكب الكبائر فهو كافر . وهكذا كانت أفكار الخوارج في الدين لا تقل شدة عن أفكارهم في السياسة . فقد صبغت روح تعصبهم السياسي وجهات نظرهم الدينية أيضا ؛ فكانوا أشداء في الدين غير متسامحين لا تعرف المرونة ولا اليسر إلى نفوسهم سبيلا .

ومما امتازوا به شـــدة تمسكهم بالقرآن واتباع أحكامه وتنفيذ أوامره ؛ وكان خوفهم من عـذاب الله يوم القيامة يثير في نفوسهم التحمس للحق وشدة التمسك به والائتمار بأوامر الله واجتناب نواهيه ، حتى ليصفهم الشهرستاني لذلك بأنهم « أهل صيام وصلاة » ؛ إلا أنهم قد غلوا في أفكارهم حتى عدّوا مرتكب الكبيرة - بل مرتكب الصغيرة أيضا - كافرا ، وخرجوا على أئمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبونها . ويتشدد كثير منهم في النظر إلى مخالفيهم من المسلمين فعدوهم كفارا ، بل كانوا يعاملونهم بما هو أقسى من معاملة الكفار . يحكون أن واصل بن عطاء - رأس المعتزلة - وقع في أيديهم، فادعى أنه مشرك مستجير ، ورأى أن هذا ينجيه منهم أكثر مما تنجيه دعواه أنه مسلم مخالف لهم [1]

معاملتهم لمخالفيهم في المذهب الديني

وقـــد اشتدوا في معاملة المخالفين لهم ، حتى كان كثير منهم لا يرحمون المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني . وهكذا كانوا لا يتورعون عن ارتكاب أشد الأمور وحشية وقسوة ، رغم ما كان من ظهورهم بمظهر العُبَّاد والزُّهَّاد ، وتورعهم عن تافه الأشياء ، وتحرجهم في صغائر الأمور أشد التحرج ، ويأتون أفظع المنكرات وأكبر الكبائر ، كأنهم لا يدينون بالله ولا يعرفون شفقة ولا رحمة ، وهم مع ذلك لا يعجزون عن الاتيـان بالآيات البينات من كتاب الله

---

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٠٦

وأحاديث الرسول يستدلون بها على تبرير عملهـم على الرغم من أن فريقا منهـم قد شذ عنها ؛ ففهموا من قولهـم « لاحكم إلا لله » أن المراد لاحكومة - أى لاحاجة إلى امام - بدليل ماقاله على بن أبى طالب حين سمعهم يقولون هـذه العبارة « كلمة حق يراد بها باطل » . نعم إنه لاحكم إلا لله . ولـكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ؛ وإنه « لابد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل فى إمرته المؤمن ويستمتع فيها الـكافر ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفىء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى »

وصفوة القول أن نظرية الخوارج الأساسية فى الخلافة تكاد تـكون مشتركة بين جمهورهم على الأقل

فرق الخوارج :

وقد تفرق الخوارج إلى عشرين فرقة ، كل منها تخالف الأخرى فى تعاليمها كلها أو بعضها . والآن نتكلم عن أشهر هذه الفرق ، وما كان لها من تعاليم .

الأزارقة

الأزارقة : وهم أصحاب نافع بن الأزرق المكنى بأبى راشد ، وكان من أكبر فقهائهم . ولم تكن من الخوارج قط فرقة أكثر عدداً منهم ولا أشد شوكة . وقد كفر هو وأصحابه على بن أبى طالب وجميع المسلمين ؛ وقال نافع إنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحدا من غيرهم إذا دعاهم للصلاة ، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم . وهم فى نظره مثل كفار العرب وعبدة الأوثان . وقال عن بلادهم إنها دار حرب . ويحل قتالهم وقتل أطفالهم ونسائهم (١) . وكان لا يجيز التقية فى قول ولا فى عمل ، لأن الله تعالى يقول (إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً) . وكان يستحل الغدر بمن خالفه ويكفر القعدة

(١) لأنهم كانوا يعتقدون أن أطفال مخالفيهم مشركون وأنهم مخلدون فى النار .

ممن كانوا على رأيه عن القتال مع قدرتهم عليه ، أو عن الهجرة اليهم . وأوجب امتحان من ينضمون اليهم (١) . وهم يكفرون أيضا مرتكب الكبيرة مستدلين بكفر ابليس الذى يقولون عنه إنه لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فأبى وقال : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) . وزاد نافع على ذلك أن أسقط حد الرّجم عن الزانى المحصن (٢) ، وأسقط الحد كذلك عمن قذف الرجل المحصن ، ولكنه أقامه على من قذف المحصنات من النساء ، وحكم بقطع يد السارق فى القليل والكثير .

وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التى استحدثوها (٣)

النجدية

النَّجْدية : وهم أتباع نَجْدَةَ بن عامر الحنفى . ومن تعاليمه التى انفرد بها أن المخطىء بعد أن يجتهد معذور ، وأن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ، وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب أموالهم والاقرار بما جاء من عند الله (٤) جملة . وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله إلى أن تقوم عليهم الحجة . ومن أداه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور . ومن خاف العذاب على المجتهد المخطىء قبل قيام الحجة عليه فهو كافر ، وعظم جريمة الكذب (٥) على الزنا وأسقط حد شرب الخمر (٦) ، وأجاز التَّقية واحتج بقوله تعالى إلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً) ، وقوله تعالى (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) ، كما قال إن القعود عن القتال جائز ،

---

(١) كانوا يدفعون اليه واحدا من أسرى مخالفيهم ويأمرونه بقتله . فان قتله صدقوه وان لم يقتله قالوا هذا منافق ومشرك وقتلوه (الفرق بين الفرق للبغدادى ص٦٣)

(٢) لانه لم يرد نص عليه فى القرآن (الشهرستانى ١٦٤)

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٦٢ - ٦٦ ، والملل والنحل للشهرستانى ج١ ص ١٦٣ - ١٦٥

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٦٨

(٥) حتى قال من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشرك . ومن زنى وسرق وشرب الخمر غير مصر عليه فهو مسلم اذا كان من موافقيه (الفرق بين الفرق ص ٦٨)

(٦) الفرق بين الفرق ص ٦٨ . ولكن الشهرستانى يحكى أنه غلظ على الناس تغليظا شديدا (ج١ ص ٦٦)

والجهاد إذا أمكن كان أفضل . واستدل بقوله تعالى (وَفضَّلَ اللهُ المجَاهِدِينَ عَلى القَاعِدِينَ أجْراً عَظِيمًا) ، واستحل دماء أهل الذمة وأموالهم ، وحكم بالبراءة ممن حرّمها ، وأجاز عدم إقامة إمام وإنما على الناس أن ينصف بعضهم بعضًا فيما بينهم . فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز (١)

البيهسية

البَيْهَسِيَّة : وهم أصحاب أبى بَيْهس بن جابر . ومن تعاليمه أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله . ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، والولاية لأولياء الله . وكان يكفر الواقفية (٢) ، لأنه يعتبر أن من ضمن الأشياء التى جاء بها النبى والتى تجب معرفتها ، المحرمات التى جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها ؛ فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحترازُ عنها . ويقول إن هناك أشياء أخرى لا يجب على المسلم أن يعرفها إلا باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها . وكان يقول إن الايمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل . أما مخالفوهم فهم كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل الاقامة معهم كما فعل المسلمون فى إقامتهم .

الاباضية

الإباضِيّة : وهم أتباع عبد الله بن إباض التميمى . ويختلفون عن غيرهم من فرق الخوارج فى أنهم لم يغلوا فى الحكم على مخالفيهم (٣) ؛ بل قالوا إنه يحل التزوج منهم ، ويتوارث الخارجى وغيره . وهم إلى المسالمة أميل حتى قالوا إنه لا يحل قتال غير الخوارج غيلة ولا سبيهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال . فاذا قاتلوهم وغنموا أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل . أما الذهب والفضة أو غيرهما فانهم يردونه إلى أعدائهم ، وكانوا يرون أن بلاد مخالفيهم من المسلمين هى ديار توحيد إلا معسكر السلطان (يقصدون

---

(١) الشهرستانى ج ١ ص ١٦٨ — ١٦٩

(٢) وهم الذين يقولون انا نقف فيمن اقترف فعل الحرام وهو لا يعلم أحلال أم حرام

(٣) ولعل هذا يرجع إلى طبيعة ظروف نشأتهم . فان صاحبهم عبد الله بن إباض لم يخرج الا فى أيام مروان بن محمد بعد أن قضى الامويون على الخوارج أو كادوا ، وبعد أن يئس الاحزاب تقريبا وتحول نضالهم حول الحكم الى آراء ومذاهب علمية بحتة تقريبا .

منها حاكم بني أمية أو غيره من الأمراء الجائرين) ، فانه دار بغي . كما قالوا إن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة مُوحِّد لامؤمن ، فهو كافر كفر نعمة لا كفر ملة (١) ، وإن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعا ومكتسبة للعبد حقيقة لامجازا ؛ ولم يعتبروا أوامر الله ونواهيه موجهة إلى المؤمن فحسب ، بل إن الكافر مطالب بها أيضاً. وليس في القرآن تخصيص الأمر أو النهي بواحد منهما ؛ وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم (٢)

الصفرية

الصُّفرِّيَة : وهم أصحاب زياد بن الأصفر. وهو لايكفر الذين قعدوا عن القتال ماداموا متفقين في الدين والاعتقاد . وقال إن التقية جائزة في القول دون العمل ، ولم يحكم بقتل أطفال المشركين ولا بتكفيرهم أو تخليدهم في النار ؛ وفرَّق بين الكبائر التي يلزم فيها الحد والتي لاحد عليها (٣) ؛ فلم يكفر مرتكب الأولى (٤) ، إنما كفر مرتكب الثانية (٥)

---

(١) أى أنه مؤمن بالله وبوحدانيته وبالرسول، ولكنه مقصر فى شكر نعمة الله عليه فهو كافر فضل الله عليه وجاحد له والا لما ارتكب مانهاه عنه الله .

(٢) هم أربع فرق : الحفصية والحارثية واليزيدية وأصحاب طاعة لايراد بها الله (أى من يرون أن النفاق والرياء فى طاعة الله لايكفر). غيرأنهم أجمعوا على أمور منها ماذكرنا، ومنها القول بامامة عبد الله بن اباض ، وبأن كفار هذه الامة أو كفار أهل القبلة (ويعنون مخالفيهم من المسلمين) ليسوا مشركين وليسوا مؤمنين ، ولكنهم كفار (أى كفروا بنعمة الله وجحدوها ولو أنهم مؤمنون بألوهيته) وأجازوا شهادة هؤلاء عليهم فى القضايا (الفرق بين الفرق ص ٨٢ — ٨٣

(٣) لعظم قدرها وفظاعة الجريمة فيها حتى لايكفر عن الانسان سيئتها أى عقوبة فى الدنيا ومثلوا لهذا النوع من الكبائر بترك الصلاة

(٤) وقالوا لايصح أن يسمى الا باسم الحد الذى يوقع عليه؛فاذا سرق أو قذف قيل انه سارق أو قاذف ؛ ولايصح ان يسمى كافرا أو مشركا

(٥) روى الشهرستانى أن زيادا (امامهم)قال : الشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان، والكفر كفران : كفر بالنعمة . وكفر بانكار الربوبية . والبراءة براءتان : براءة من أهل الحدود (من يرتكبون جريمة السرقة أو جريمة الزنا أو القذف ...) وهى سنة وبراءة من أهل الجحود وهى فريضة (جـ ١ ص ١٨٤ — ١٨٥) . وقد ذكر البغدادى أصنافا ثلاثة من الصفرية وقال انهم جميعا يقولون بموالاة عبد الله بن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير وأتباعهما من المحكمة الاولين ، ويقولون من بعدهؤلاء بامامة ابى بلال مرداس

رأينا فى مبادىء الخوارج

هؤلاء هم أشهر فرق الخوارج . وإن الناظرَ إلى مبادئهم ليجد أنهم قد اشتطوا جميعا فى الحكم على مخالفيهم، حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الاوثان . فلا عجب إذا اشتطوا فى حربهم وبذلوا نفوسهم فى سبيل الذود عن مبادئهم . وقد ضربوا المثل فى الشجاعة النادرة والبطولة الفذة ، وشغلوا ـ كما رأينا ـ الحزب الأموى وغيره مدة غير قليلة من الزمن حتى كلفوا الأمة الاسلامية ثمناً غاليا من الأرواح والأموال .

الخوارج فى نظر نيكلسون

يرى الأستاذ نيكلسون(١) أن الخوارج كانوا المثل الأعلى فى الدفاع عن العقيدة والاستماته فى سبيل الانتصار للمبدأ رغم ما كان من اعتسافهم فى ذلك المبدأ واشتطاطهم فى تلك العقيدة مما عاد بالفشل عليهم وقد لانت قناتهم قليلا وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب إلى نفوسهم ويسود فى أفكارهم ، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهى بإبادتهم وإستئصال شأفتهم .

كما يرى أنه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون الى تحقيقها من وراء حركتهم هذه ، كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة وأمويين وزبيريين .

الخارجى الذى خرج ايام يزيد بن معاوية ، ثم بامامة عمران بن حطان الذى رثى بلالا لما صلب . وكان عمران هذا ناسكا شاعرا شديدا فى مذهب الصفرية ، وبلغ من خبثه فى عزوة على كرم الله وجهه أنه رثى عبد الرحمن بن ملجم وقال فى ضربه عليا :

ياضربة من منيب ما أراد بها　　الا ليبلغ قردى العرش رضوانا

انى لأذكره يوما فأحسبه　　أوفى البرية عند الله ميزانا

فأجابه العلويون بقول شاعرهم :

ياضربة من كفور ما استفاد بها　　الا الجداء بما يصليه نيرانا

انى لألعنه دينا والعن من　　يرجو له أبداً عفواً وغفرانا

وذاك ابن ملجم أشقى الناس كلهم　　أخفهم عند رب الناس ميزانا

(١) Nicholson , Lit. Hist. of the Arabs, p. 211.

ولقد صدق الأستاذ نيكلسون فيما ذهب اليه . وليس أدل على زهد هؤلاء الخوارج فى حطام الدنيا وزينتها بما ذكره الطبرى عن شبيب الخارجى وقد انتهى الى إحدى المدن ؛ فندب من أصحابه من يأتيه برأس عاملها . فساروا حتى أتوا دار العامل ونادوا : أجيبوا الأمير ؛ فقالوا : أى الأمراء؟ قالوا : أمير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق شبيبًا ، فاغتر العامل بذلك وخرج اليهم ، فضربوا عنقه ، وقبضوا على ما كان فى دار الامارة من مال ولحقوا بشبيب . فلما انتهوا اليه قال : ما الذى أتيتمونا به ؟ . قالوا جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال ، والمال على دابة فى بدره ؛ فقال شبيب . أتيتمونا بفتنة للمسلمين . هلم الحربة ياغلام ، فخرق بها البدر وأمر فنخس بالدابة والمال يتناثر من بدره حتى وردت الصراة ؛ فقال إن بقى شيء فاقذفه فى الماء . (١)

خروج ابن الاشعث :

وقد تفاقم خطر المشرق حين خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج ثم طاعة عبد الملك ، وانقاد اليه أهل كرمان والرى « والجبال ». وما لبث أن دخل البصرة والكوفة ، وقوى أمره فاستنجد الحجاج بعبد الملك وألح عليه فى إرسال المدد . يدلك على ذلك قوله فى ختام كتابه الى الخليفة « واغوثاه ! يالله ! » ثلاث مرات . فأمده عبد الملك بالجيوش .

موقعة دير الجماجم

« التقى الحجاج وابن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، فوقعت بينهم أكثر من ثمانين واقعة دارت الدائرة بعدها على ابن الأشعث ، فهرب الى بلاد الهند ،

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٢٤٨

فاحتال الحجاج فى قتله وأتى اليه برأسه فى الكوفة . وأسرف الحجاج فى قتل أسرى دير الجماجم ، وفى إعطاء الأموال لمن نصروه على عدوه .

وهكذا أخضع الحجاج بلاد العراق وما والاه من بلاد المشرق لسلطان عبد الملك بن مروان الذى توطدت دعائم ملكه وانتشر الأمن فى بلاده بفضل يقظته ودأبه على العمل لخير رعاياه . فقد كان يميل إلى إقرار العدل ، ويكره تخطى حدود الاعتدال فى عقوبته . يدلك على ذلك مادار بينه وبين الحجاج من مكاتبات حين بلغه إسرافه فى قتل أسرى دير الجماجم ، واعطائه الأموال لرجاله ، إذ كتب اليه ذلك الكتاب الشديد اللهجة على الرغم مما أصابه هذا الرجل من البلاء فى سبيل تثبيت دعائم ملكه :

عدل عبد الملك

« أما بعد فقد بلغ أميرَ المؤمنين سرفك فى الدماء ، وتبذيرك فى الأموال .ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ؛ وقد حكم عليك أمير المؤمنين فى الدماء والخطى الدية ، وفى العَمْد القَوَد (١) ، وفى الأموال ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه . فإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسيان عنده مَنْعُ حق وإعطاءُ باطل. فان كنتَ أردتَ الناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم . وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لين وشدة ؛ فلا يؤنسك إلا الطاعة ، ولا يوحشنك إلا المعصية ، وظنَّ بأمير المؤمنين كل شىء إلا احتمالك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على قوم ، فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا . وكتب فى أسفل كتابه أبياتا نقتطف منها :

---

(١) القود : القصاص

إذا أنتَ لمْ تَطلُبْ أُموراً كَرِهتَها ... وَتَطلُبْ رِضَاى بالذى أنتَ طَالِبُهْ
وَتَخشَى الذى يَخشَاهُ مِثلى هَارِباً ... إلى اللهِ مِنهُ ضَيَّعَ الدَّرَّ(١) حَالِبُهْ
فإنْ تَرَ مِنِّى غَفلَةً قُرَشِيَّةً ... فيا رُبما قد غَصَّ بالماءِ شَارِبُهْ
وَإنْ تَرَ مِنِّى وَثبَةً أُمَوِيَّةً ... فَهَذا ، وَهَذا كُلُّ ذا أنا صَاحِبُهْ
فلا تَلُمْنِى والحوادث جَمَّةٌ ... فإنَّكَ تُجْزَى(٢) بما أنتَ كَاسِبُهْ(٣)

وصل إلى الحجاج كتابُ عبدالملك ، وكان كتاب رجل لا تأخذه لومة لائم فى الحق والعدل ، وإيثار صالح شعبه واكتساب محبتهم . وقد رد عليه الحجاج بهذا الكتاب الرقيق يبرر فيه تصرفه : « أما بعد! فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الدماء ، وتبذيرى فى الأموال . ولعمرى مابلغت فى عقوبتى أهل المعصية ماهم أهله ، وماقضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه . فان كان قتل أولئك العصاة سرفا ، وإعطائى أولئك المطيعين تبذيرا ، فليس على أمير المؤمنين ماسلف ، وليحد لى فيه حداً أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله. ووالله ماعلى من عقل ولا قود ماأصبت القوم خطأ فأفديه ولا أعطيتهم إلا لك ، ولا قتلت إلا فيك . وأما ما أنا منتظره من أمريك فألينهما عنده وأعظمهما محنة فقد عبأت للعدة الجلاد ، وللمحنة الصبر ؛ وكتب فى أسفل كتابه هذه الأبيات

إذا أنا لمْ اتبع رِضَاكَ واتَّقى ... أذاكَ فيَوْمِى لا تَزولُ كَوَاكِبُهْ
وَما لِامْرِئٍ بَعدَ الخَليفَةِ جُنَّةٌ ... تَقِيهِ من الأمْرِ الذى هو كاسِبُهْ
أُسَالِمُ مَنْ سَالَمتَ مَنْ ذِى قَرَابَةٍ ... وَمَنْ لَمْ تُسَالِمْهُ فانى مُحَارِبُهْ
إذَا فارَقَ الحجَّاجُ مِنكَ خَطِيئَةً ... فَقَامَتْ عليه فى الصَّبَاحِ نَوَادِبُهْ
إذَا أنَا لمْ أُدْنِ الشَّفِيقَ لِنُصْحِهِ ... وَأُقْصِى الذى تَسْرِى إلى عقاربهْ

(١) توالى نزول اللبن (٢) يجازى
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦ .

فَمَنْ ذا الذى يَرْجُو نوالى ويَتَّقِى مُصَاوَلَتِى والدَّهْرُ جَمٌّ نوائبهْ
فَقِفْ بي على حَدِّ الرِّضَا لا أجوزه مَدَى الدَّهرِ حتى يَرْجِع الدَّرُّ حالبُهْ
وإلاّ فدعني والأُمورَ فإنَّنِي شَفِيقٌ رَفِيقٌ أحْكَمَتْني تجاربُهْ (١)

ويتبين لنا من كتاب عبد الملك للحجاج مبلغ بغضه للظلم والتعسف

سياسة الحجاج ازاء الموالى فى العراق :

يقول « فان فلوتن » : كان يرى الحجاج أن تعود بلاد العراق ـ مهد المعارضة التى قام بها الموالى ـ معقلا للجيوش العربية كما كانت من قبل . وهكذا اضطر الموالى الذين كانوا يتطلعون إلى مُساواتهم مساواةً تامة باخوانهم فى الدين من العرب ، للعودة الى أرضهم ودفعهم الجزية كما كانوا يدفعونها من قبل .

وقد بين لنا فون كريمر (٢) كيف استطاع الحجاج أن يرغم هؤلاء الجدد فى الاسلام على دفع الضريبة التى كان يدفعها الكفار ، ثم تلك المقاومة العنيفة التى قاوموه بها وانضمامهم الى صفوف عبد الرحمن ابن الأشعث الذى أشعل نار الثورة على بنى أمية ، كما ذكر لنا طرفا من شدة الحجاج فى قمع تلك الثورة .

وقد روى لنا مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة القاسية التى كان الغرض منها العودة بنظام الضرائب إلى ما كان عليه من قبل . فقد أجمع هؤلاء على القول بأن بلاد العراق كانت بعد الحجاج أسوأ البلاد حالا (٣) . من ذلك ماذكره اليعقوبى (٤) : « وكان (الحجاج) أول من

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦

(٢) Von Kremer, Kulturgeschichte des Orients, trans. by Khuda Bukhsh, p. 203.

(٣) ويمكن المقارنة بين هذه الأرقام وبين الأرقام التى نقلها لنا ابن خرداذبة (طبعة دى غويه) ص ١١ . فان هذه المبالغ وان كانت صحيحة فيما يتعلق بالسواد فقط ـ فان الأرقام التى نقلها ابن خرداذبه تكشف لنا عن حالة البلاد بعد الحجاج . ومع ذلك فانى لا أعلق أهمية كبيرة على تلك المبالغ بقدر ما أعلق على الملاحظات التى أبداها المؤرخون عنها .

(٤) (طبعة هوتسما ج ٢ ص ٣٤٨ وما يليها)

أخذ بالقذف والظنة وقتل بهما الرجال . وانكسر الخراج فى أيامه فلم يحمل كثير شىء ، ولم يحمل الحجاج من جميع العراق إلا خمسة وعشرين ألف ألف درهم » . وكان خراجها فى عهد معاوية ١٢٠ مليونا من الدراهم .

كذلك ما رواه الطبرى (١) من « أن يزيد بن المهلب نظر ، لما ولاه سليمان (بن عبد الملك) ما ولاه من أمر العراق ، فى أمر نفسه فقال: إن العراق قد أخربها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق . ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه ، صرت مثل الحجاج أدخل على الناس وأعيد عليهم تلك السجون التى عافاهم الله منها » . (٢)

هذا ، ويجدر بنا أن نذكر أن الحجاج، وان كان قد قسا فى معاملة الموالى خاصة وأهل العراق عامة ، فإنه كان مخلصا فى خدمته بنى أمية ؛ وقد تفانى فى خدمتها زهاء عشرين سنة حتى مات فى عهد الوليد بن عبد الملك ؛ ولم يترك وراءه غير القرآن وسلاحه وبضع مئين من العملة الفضية .

صفات عبد الملك :

فصاحته

وصف الشعبى عبد الملك بن مروان فى هذه الكلمات: ما جالست أحدا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان . فانى ما ذاكرته حديثا إلا وزادنى فيه ، ولا شعرا إلا وزادنى فيه»(٣). وكان عبد الملك فصيحا . وقد قيل له : لقد أسرع اليك الشيب. قال : شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن » . وقيل له يا أمير المؤمنين عجل اليك الشيب ، فقال : وكيف لا وأنا أعرض عقلى على الناس كل جمعة » (٤)

---

(١) ٢ : ١٣٠٦

(٢) أنظر كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٤٢ — ٤٣

(٣) ابن سعد ج ١ ص ١٦٦ ؟ تاريخ الخلفاء للسيوطى ج ١ ص ٨٤

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ج ١ ص ٨٥

حزمه

وقد اشتهر عبد الملك بالحزم واصالة الرأى . قال العينى (١) : كان يقال معاوية أحلم وعبد الملك أحزم . وقال صاحب العقد : ومن هذا يتبين لنا فضل عبد الملك واصالة رأيه والتفاف الناس حوله

وقد تولى عبد الملك القضاء والفتيا فى المدينة بعد زيد بن ثابت سنة ٤٢ . (٢) وولاه أبوه هجر فأقام فيها العدل ونظم أمورها ، وفى سنة ٦٥ ولى الخلافة بعد أبيه مروان بن الحكم

وقد روى صاحب العقد (٣) أن عبد الملك بن مروان خطب الناس يوما فقال : أيها الناس ! إنى والله ما أنا بالخليفة المستضعف - يريد عثمان ابن عفان - ولا بالخليفة المداهن - يريد معاوية - ولا بالخليفة المأمون - يريد يزيد بن معاوية . فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا ثم نزل » . وخطب أيضا على المنبر : أيها الناس ! إن الله حد حدودا وفرض فروضا ، فما زلتم تزدادون فى الذنب نزداد فى العقوبه حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف ثم نزل »

آدابه الاجتماعية

ويتبين لنا مقدار ما اتصف به عبد الملك من الآداب الاجتماعية فيما ذكره المسعودى (٤) من أن بعض جلسائه قال له يوما : أريد الخلوة بك ، فلما خلا به قال له عبد الملك : بشرط ثلاث خصال : لا تُطر نفسى عندك فأنا أعلم بها منك ، ولا تغتب عندى أحدا فلست أسمع منك ، ولا تكذبنى فلا رأى لمكذب . قال : أتأذن فى الانصراف ؟ قال : إذا شئت .

---

(١) عقد الجمان مجلد ٤ ص ١١

(٢) كتاب البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى ج ٦ ص ٢٧

(٣) ج ٢ ص ٢٨٨

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٦

الوليد بن عبد الملك

٨٦ - ٩٦ هـ ؟ ٧٠٥ - ٧١٥ م

لما مات عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ خلفه ابنه الوليد . وقد ظل فى الخلافة عشر سنين . وكان عهده عهـــد فتوح ويسر ورخاء ؛ فاتسعت فى أيامه رقعة الدولة الأموية شرقا وغربا ، كما خفف أعباء الحياة على جمهور المسلمين ، وذلك بعطفه على الفقراء والمعوزين ، واهتمامه بأحوال رعيته وسهره على مصالحهم ، وعمله على تخفيف آلام مرضاهم ، وتخصيصه أعطيات للمجذومين لمنعهم عن سؤال الناس ، كما أعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره ، وكل ضرير قائدا يسهر على راحته .

وكان الوليد لحانا ، فقال له أبوه « إنه لا يلى العرب إلا من يحسن كلامهم ؛ فدخل الوليد بيتا وأخذ معه جماعة من علماء النحو وأقام مدة يشتغل فيه ، فخرج أجهل مما كان يوم دخوله . فلما بلغ ذلك أباه عبد الملك قال : قد أعذر . (١)

الفتوحات فى عهد الوليد :

تمكن الوليد بفضل السلام الذى انتشرت ألويته بين ربوع بلاده من إعادة عهد الفتوحات التى تمت فى عهد من سبقه من الخلفاء ؛ فاتسعت رقعة أملاكه فى المشرق والمغرب .

وقد اشتهر فى عهد الوليد ثلاثة من القواد كان لهم أثر عظيم فى هذه الفتوحات : وهم قتيبة بن مسلم الباهلى ، ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفى ، وموسى بن نصير .

---

(١) الفخرى ص ١١٦

قتيبة بن مسلم فتح بلاد ماوراء النهر

فأما قتيبة بن مسلم فقد ولاه الحجاج على خراسان سنة ٨٦ هـ . فخرج قتيبة إلى بلخ — وكانت أول جهة هاجمها (١) — فتلقاه دهاقينها وعظماؤها وساروا معه ، ولما عبر النهر قابله ملك الصغانيان وأهداه كثيراً من الهدايا وسلم إليه بلاده .

وفى سنة ٨٧ غزا قتيبة بيكند (٢) حيث أغار على الصغد وقاتلهم قتالا شديدا ؛ فانهزموا وتفرقوا ثم طلبوا من قتيبة الصلح ، فصالحهم وولى عليهم والياً من قبله . غير أن أهل بيكند انتهزوا فرصة غياب قتيبة وغدروا بعامله وقتلوه ، فرجع إليهم قتيبه بن مسلم وفتح المدينة عنوة ، وغنم منها مغانم كثيرة ثم عاد الى مرو .

وفى ربيع سنة ٨٨ هـ استخلف قتيبة على مرو أخاه بشار بن مسلم وواصل فتوحاته ؛ فكان النصر حليفه فى بلاد كرمينية (٣) ؛ ثم سار الى بخارى فلقى فى فتحها عناء كبيراً ، ولكنه تمكن من فتحها فاضطر أهلها إلى مصالحته

وفى سنة ٩٣ هـ فتح قتيبة مدائن خُوارَزْم صلحا ، ثم غزا سمرقند ففتحها بعد قتال شديد واستخلف عليها عبد الله بن مسلم ، ثم رجع إلى مرو (٤) . وفى العام التالى توجه إلى فرغانة (٥) وسار حتى بلغ خُجَنْدة (٦) ، فاشتبك

---

(١) Muir, The Caliphate, Rise, Decline and Fall, p.439

(٢) بكسر الباء وفتح الكاف وسكون النون . وهى بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى . وقد خربت قبل أيام ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الميم بعدها ياء مثناة من تحت ساكنة فنون مكسورة وياء أخرى مفتوحة غير مشددة . وهى بلدة من نواحى الصغد تقع بين سمرقند وبخارى ؛ وبينها و بين بخارى ١٨ فرسخا (معجم البلدان لياقوت)

(٤) فتوح البلدان البلاذرى ص ٤٢٧ ، الطبرى ج ٨ ص ٨٩ .

(٥) اقليم متاخم لبلاد تركستان ومن مدنه خجندة .

(٦) هى مدينة مشهورة على نهر سيحون بينها وبين سمرقند عشرة أيام شرقا

مع أهلها فى حرب طاحنة أحرز فيها نصراً مبينا (١)، ثم انصرف إلى كاشان (٢) ففتحها وعاد إلى مرو . وفى أثناء اقامته بها أتاه كتاب الوليد ابن عبد الملك وفيه « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك فى جهاد أعداء المسلمين . وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك كالذى يجب لك. فأتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأنى أنظر إلى بلادك والثغر الذى أنت به (٣) »

لم يكتف قتيبة بما فتحه من البلاد فى إقليم ماوراء النهر ، بل سار فى سنة ٩٦ هـ الى حدود الصين على رأس جيش كثيف . وبينما هو فى طريقه اليها جاءه نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك ؛ فلم يعقه ذلك عن الغزو ، وواصل سيره حتى قرب من الصين . فأرسل الى ملكها وفدا برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابى . وبعد أن دارت بينهم وبينه عدة مراسلات قال ملك الصين موجهاً كلامه إليهم « انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه . وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه ». فقال له هُبَيْرة « كيف يكون قليل الأصحاب من من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فانَّ لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافهُ » . فأجابه ملك الصين « فما الذى يرضى صاحبك ؟ » فقال له هبيرة « إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » . فقال الملك « فانا نخرجه من يمينه . نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها (٤)» .

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ٩١

(٢) عاصمة فرغانة

(٣) الطبرى ج ٨ ص ٩٦

(٤) الطبرى ج ٨ ص ١٠٠ — ١٠١

ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد ، فساروا حتى قدموا على قتيبة ، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ثم عاد إلى مرو .

من هذا يتبين مقدار ماوصل إليه هذا القائد العظيم فى فتوحاته ، وذلك بفضل شجاعته وسياسته مع جنده. إلا أنه على الرغم من ذلك لم ينل رضاء سليمان بن عبد الملك ، وانتهت حياته على أسوأ مايكون كما سنبينه بعد .

انتشار الاسلام فى بلاد ما وراء النهر

لما وصل قتيبة بن مسلم إلى سمرقند وجد كثيراً من الأصنام. وكان عبّاد هذه الأصنام يعتقدون أن كلّ من اعتدى عليها مات لساعته ؛ فأمر قتيبة باحراق جميع هذه الأصنام . وكان من أثر ذلك أن اعتنق الاسلام عدد كبير من عبدتها (١) . على أن بعضهم قد ارتد عن الاسلام على أثر انسحاب جنود المسلمين من بينهم إلى أن فتح قتيبة مدينة بخارى للمرة الرابعة ، فأرغم أهلها على اعتناق الاسلام . وقد لقى الذين أسلموا من أهالى هذه البلاد مقاومة عنيفة من مواطنيهم، حتى اضطر كل مسلم أن يحمل سلاحًا أنى سار ليحافظ به على حياته ، ولم يجسر المسلمون على الظهور بالمساجد أو الأماكن العامة إلا بتلك الأسلحة . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كثر عدد الجواسيس لمعرفة العائدين إلى الاسلام

وقد بذل الفاتحون جهداً كبيراً لجذب الناس إلى الدين الاسلامى، وشجعوهم بمكافآت مالية لحضور صلاة الجمعة، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلاً من اللغة العربية حتى تكون معانيه قريبة إلى نفوسهم .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٠٧

محمد بن القاسم وفتحه بلاد السند

أما محمد بن القاسم فإنه سار إلى بلاد السند سنة ٨٩ هـ بعد أن جهزه الحجاج بكل مايحتاج اليه ؛ فنزل بثغر الديبُل [١]، وظل يحاصره حتى تمكن من الاستيلاء عليه [٢] . ثم اتجه إلى بيرون فاستقبله أهلها استقبالاً حسناً ، وأخـذ فى مواصلة الفتح والتوسع حتى بلغ مهران [٣] ، حيث التقى بداهر ملك السند فاقتتلا قتالا شديداً . وانتهى الأمر بقتل داهر وهزيمة اتباعه [٤] .

على أن هذا لم يكن كل ماقام به محمد بن القاسم من الفتوحات. فقد تابع فتوحاته حتى وصل الى مولتان [٥] فقاتله أهلها ، فانتصر عليهم وغنم منهم مغانم كثيرة . وفى ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج ، فرجع عن المولتان واستمر فى الفتح حتى دانت له جميع بلاد السند . ولما مات الوليد سنة ٩٦ هـ وتولى سليمان بن عبد الملك الخلافة ، استدعى محمد بن القاسم وولى على هذه البلاد يزيد بن أبى كبشة السكسكى [٦]

(١) مدينة على الساحل الغربى للهند تعرف الآن باسم كراتشى

(٢) فتوح البلدان البلاذرى ص ٤٤٢ — ٤٤٣

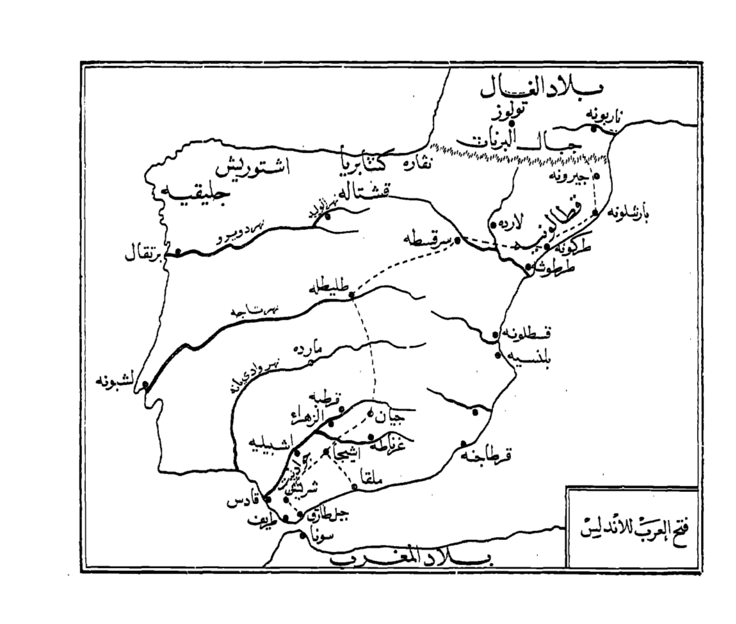
(٣) وهو نهر السند

(٤) Muir, the Caliphate, Rise, Decline and Fall,p.353

(٥) أوملتان مركز مشهور للحجاج من الهنود يقع فى جنوب بلاد البنجاب

قال ياقوت فى معجمه : « وبها صنم يعظمه الهند وتحج اليه من أقصى بلدانها ، ويتقرب الى الصنم فى كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمتعكفين عليه منهم . وسمى المولتان بهذا الصنم . وقد ألبس جميع بدنه جلدا يشبه السختيان الاحمر ، لايبين من جثته شىء إلا عيناه . وعيناه جوهرتان . وعلى رأسه أكليل ذهب ، وهو متربع على ذلك السرير ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه . وعلى المولتان حصن منيع وهى خصبة . وانما سمى المولتان فرج بيت الذهب ، لأنها فتحت فى أول الاسلام . وكان بالمولتان ضيق وقحط ، فوجدوا فيها ذهبا كثيرا ، فاتسعوا به » . انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٦) فتوح البلدان البلاذرى ص ٤٤٥



بلاد الغال
تولوز
ناربونه
جبال البرنات
اشتوريش
كنتابريا
نفاره
جليقيه
قشتاله
جيرونه
نهر دويرو
برتقال
قطالونيه
لارده
سرقسطه
بارشلونه
طركونه
طرطوشه
طليطله
نهر تاجه
قسطلونه
بلنسيه
مارده
نهر وادي يانه
لشبونه
قرطبه
الزهراء
جيان
اشبيليه
غرناطه
استجه
قرطاجنه
ملقا
شريش
قادس
جبل طارق
طريف
سبتة
بلاد المغرب
فتح العرب للأندلس

الفتوح فى الأندلس

حالة الأندلس قبل الفتح الإسلامى

ظلت بلاد أسبانيا تحت حكم الرومان الى أن أغارت عليها قبائل الوندال Vandals فى القرن الخامس الميلادى . ومن ذلك الوقت أطلق على هذه البلاد فاندلوسيا أى بلد الوندال ؛ ويسميها العرب بلاد الاندلس ، كما يطلقون عليها اسم الجزيرة .

وفى سنة ٥٠٧ م أغارت على هذه البلاد قبائل القوط الغربيين Visigoths وطردوا الوندال الى افريقية ، وكونوا دولة لهم فى بلاد الاندلس . وكانت دولتهم قوية فى بادىء الامر ؛ غير أنهم مالبثوا أن ضعف أمرهم وسرت فيهم روح التخاذل ؛ فقسم الأشراف ورجال الدين البلاد إلى اقطاعات كبيرة وسكنوا القصور الفخمة ، وصرفوا أوقاتهم فى اللهو ، وتركوا الصناعة والزراعة فى يد الارقاء الذين كانوا يعيشون فى ذل وضعة ؛ كما أثقلوا كاهل الطبقة الوسطى من الزراع والتجار بالضرائب ، فآلت حالة الشعب إلى الخراب والبؤس . وقد حاول اليهود الثورة مرارا لما نزل بهم من الضيق والعسف ، ولكنهم أخفقوا ونهبت ديارهم واضطر الكثير منهم إلى اعتناق المسيحية .

تلك هى الحالة التى كان عليها أهل بلاد الأندلس فى الوقت الذى كان يتمتع فيه أهل شمال إفريقية بحكم العرب وينعم بعدلهم . فلا عجب إذا تمنى الأسبان ، وبخاصة اليهود ، الخلاص من نير الحكم القوطى الجائر .

محاولة العرب غزو أسبانيا

وقد حاول العرب فى العقد الثانى من القرن السابع الميلادى غزو اسبانيا من ناحية افريقية ، فأغاروا على السواحل الأسبانية فى عهد الامبراطور

القوطى فمبا Vamba (٦٧٢ — ٦٨٠ م) . وقد خلفه فى الحكم إرفنج Erving . وفى عهده وضع تشريع خاص لاضطهاد اليهود . ثم تولى الأمر من بعده إجيسا Egica ؛ وفى أيامه دبر يهود أسبانيا (سنة ٦٩٤م) مؤامرة واسعة النطاق (١) لقلب النظام السياسى فى أسبانيا بمعاونة العرب الذين استولوا على افريقية الشمالية . ولما اكتشفت هذه المؤامرة شرّعت عدة قوانين ترمى إلى حملهم على التنصر واستعباد من لم يعتنق منهم المسيحية ؛ غير أن هذه السياسة كانت بعيدة عن الصواب فأنتجت ثمرا مرا .

تغلب موسى بن نصير على بلاد المغرب

كل هذا جعل العرب يتطلعون لفتح أسبانيا التى كانوا يتحينون الفرص لغزوها من قبل . وفى هذه الأثناء كان موسى بن نصير قد تمكن من فتح بلاد المغرب عدا مدينة سبتة الحصينة التى كانت فى يد الكونت جوليان Julian حاكمها من قِبَل القوط . وقد حدث فى نهاية سنة ٧٠٩ م . أن عزل الامبراطور Witica الذى يسميه العرب «غَيْطَشَة» ، وكان قد تولى عرش أسبانيا بعد إجيسا Egica ؛ فتولى مكانه آخيلا Achila فى أوائل سنة ٧١٠ م ، ثم عزل فى ربيع هذه السنة على يد نبلاء القوط ورجال الكهنوت الذين ولوا مكانه رودريك Roderic (٢) قائد الجيش القوطى ، وهو آخر أباطرة الدولة القوطية فى أسبانيا . وقد ظهر فى عهده حزب قوى بزعامة آخيلا Achila حاول استرجاع العرش اليه ، وحزب آخر ناصر الملك .

وقــد تحالف الكونت جوليان مع حزب آخيلا للتخلص من

---

(١) Bradley, the Goths, pp. 350 — 355

(٢) Dozy, Moslems in Spain, p. 231.

و يسميه العرب لذريق

رودريك بسبب العداء الذى كان بينهما (١). ثم استعان بموسى بن نصير على التخلص من رودريك ، فرحب موسى بهذه الفكرة واستشار الوليد بن عبد الملك ، فتردد أولا ثم أذن له أن يغزوها - ولكن فى حيطة - كما تحدثنا بذلك المصادر العربية ، كما أمره أن يرتاد الطريق أولا حتى يتأكد من أن جوليان لم يرد التغرير بالمسلمين . فأرسل موسى « طريف بن مالك » على رأس خمسمائة مقاتل سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) ؛ فغزا بعض الثغور الجنوبية فى بلاد الأندلس بمساعدة جوليان وعاد بالغنائم . وقد شجع هذا موسى بن نصير فأعد جيشا مكوناً من سبعة آلاف مقاتل معظمهم من البربر ، وولى قيادته مولاه طارق بن زياد حاكم طنجة .

عبور طارق البحر

عبر طارق البحر سنة ٩٢ هـ فى سفن جوليان ونزل باقليم البحيرة فى جنوب أسبانيا ؛ وكان الامبراطور رودريك مشغولا بقمع ثورة قام بها ضده آخيلا وحزبه فى الشمال . ولما عرف بغارة العرب على أسبانيا أدرك خطرها ، وأسرع الى الجنوب لانقاذ بلاده ، وجمع جيشا كبيراً بلغ عدده زهاء مائة ألف مقاتل . ولولا ما كان ينقصه من النظام والاخلاص ، لقضى على جيش طارق .

انتصار طارق على ضفاف وادى بكة

ولما رأى طارق كثرة عدد العدو طلب المدد من موسى ؛ فأمده بخمسة آلاف . والتقى طارق بجيش رودريك على ضفاف وادى نهر بكة (٢) « Wady Bekka » (سنة ٩١ هـ ٩ يوليه سنة ٧١١ م) ؛ وهناك أخذ طارق وجنده يحملون على العدو حتى تم له النصر . ومما ساعد على هذا الانتصار انضمام ابنى غيطشة وأنصارهما الى العرب أثناء المعركة ، كما استطاع جوليان أن يستميل اليه كثيرا من جند رودريك وأن يبذر بينهم بذور الشقاق والتفرق .

---

(١) Bradley, the Goths, p. 358.

(٢) Dozy, Moslems in Spain, p. 232.

اشبيلية وقرطبة وطليطلة

وعلى أثر انتصار طارق فى هذه الموقعة أخذ يزحف على مدن أسبانيا ، فاستولى على أشبيلية Seville ، وقرطبة Cordova وطليطلة Toledo التى أخلاها القوط ، ولم يجد فيها إلا اليهود وبعض رجال الدين . وقد ترك لهم طارق الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية .

ولما علم موسى بن نصير بما ناله طارق من النصر فى موقعة وادى بكة ، دبت إلى نفسه الغيرة وأراد أن يكون له شرف فتح بلاد الأندلس ، وأن يكون له نصيب من الغنائم . فأخذ يعد جيشاً كبيراً لاتمام فتح بلاد الأندلس ، وكتب إلى طارق يأمره بالبقاء حيث هو حتى يلحق به . ولكن طارقاً لم يذعن لهذا الأمر ؛ لأنه رأى بعد استشارة رؤساء جيشه أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر ويعطى للقوط فرصة لجمع كلمتهم ولمّ شعثهم ، فواصل فتوحه حتى وصل الى طليطلة كما تقدم .

لحاق موسى بن نصير بطارق

أما موسى بن نصير فإنه خرج بجيشه سنة ٩٣ هـ (يونيه ٧١٢) (١) ففتح أشبيلية بعد أن حاصرها شهراً — وكانت قد ثارت — ثم سار إلى مارده (Merida) واستولى عليها ، ثم واصل السير حتى لقى طارقاً فأنبهُ على مخالفته أمره ، وطالبه بالاموال والنفائس التى غنمها ثم سجنه .

حبس طارق

غير أن طارقاً استطاع وهو فى سجنه أن يبث شكواه إلى الخليفة الوليد ؛ فكتب هذا إلى موسى يأمره بتخلية سبيله ورده إلى عمله ، ثم سار موسى وطارق لفتح شمال بلاد الأندلس ؛ ففتحا أقاليم

أرغونة وقشتالة وكتالونيا

أرغونة (Aragon) وقشتالة (Castile) وكتالونيا ؛ واستوليا على سَرَقُسْطة وبَرْشلونة ، ثم سارا حتى بلغا جبال البرانس . فتم بذلك

---

(١) Dozy, Moslems in Spain, p, 233.

فتح شبه الجزيرة عدا الأقاليم الجبلية فى الشمال الغربى التى التجأ اليها أشراف القوط وكبراؤهم

محاولة جعل البحر الابيض بحيرة عربية

ولم تقف أطماع موسى عند جبال البرانس ، بل عزم على مواصلة الفتوح فى جنوبى بلاد فرنسا الحالية على أن يتجه شرقاً حتى يصل الى القسطنطينية التى عجز العرب عن فتحها ، وبذلك يجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية . ولما بلغ الوليد ذلك أمره بالكف عن التوسع واستدعاه هو وطارقا ، لأنه لم يرد أن يعرض المسلمين للخطر ، ولما كان يخشاه من ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد إذا ما تم له فتحها . فرحل موسى إلى دمشق. وقبل وصوله إليها مرض الوليد مرض الموت ؛ فطلب سليمان بن عبد الملك (ولى العهد) إلى موسى أن يبطىء السير الى دمشق حتى يموت الوليد — وذلك طمعا فى الحصول على الغنائم والتحف التى كان يحملها موسى — غير أن موسى لم يعمل بهذا الرأى ؛ فحقد عليه سليمان كما سيأتى .

عودة موسى الى دمشق

تولية عبد العزيز بن موسى بلاد الاندلس

وقبل رحيل موسى الى دمشق أقام ابنه عبد العزيز والياً على بلاد الأندلس . فنظم الحكومة وكون مجلساً خاصاً لاستنباط الأحكام الشرعية التى تتفق وحالة السكان ، وعنى بالزراعة وتنظيم الطرق ، ورفع عن الاسبانيين مظالم القوط ، فخفف الضرائب التى أثقلت كاهلهم وساوى فيها بين طبقات الأمة من غير تفرقة فى الدين والجنس ، كما أمن الأهلين على دينهم وأموالهم وأنفسهم وحريتهم ، وشجع العرب على الاختلاط والتصاهر معهم ، وتزوج هو بأرملة رودريك التى بقيت على دينها .

وكان من أثر مغالاة عبد العزيز بن موسى فى إرضاء المسيحيين أن نقم عليه بعض أعدائه ووشوا به عند الخليفة سليمان بن عبد الملك ؛ فدبر الخليفة قتله لذلك ، ولما كان يخافه من خروجه عليه انتقاماً لأبيه .

وبعد قتل عبد العزيز بن موسى أقام الجند قائدهم أيوب بن حبيب

(ابن أخت موسى بن نصير) واليا على بلاد الأندلس ؛ فأخذ يطوف البلاد وينشر لواء العدل فى أرجائها ، واتخذ قرطبة عاصمة لولايته . غير أن مدة ولايته لم تطل ، فقد عزل لعدم موافقة والى افريقية على تعيينه ، إذ كان لهذا الوالى حق تعيين الأمراء على بلاد الأندلس .

حروب العرب فيما وراء البرانس :

ولاية السمح بن مالك

لم يتم لموسى بن نصير تحقيق فكرته الجريئة التى كانت ترمى إلى فتح جنوب أوربا ، فلم تتعد فتوح العرب جبال البرانس ، إلى أن ولى بلاد الأندلس السمح بن مالك الخولانى (١٠٠ – ١٠٢ هـ) ، فجدد عهد الفتوح واخترق جبال البرانس ، وزحف على مقاطعتى سبتمانيا وبروفانس ، ثم أغار على أكيتانيا (١) Aquitaine وحاصر تولوز (طُلُوشة) ؛ فقابله يودو Eudo دوق أكيتانيا بجيش كبير . ونشبت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها السمح وأكثر رجاله ، فتولى عبد الرحمن الغافقى قيادة الجند ، فانسحب بفلول الجيش إلى مدينة نربونة Narbonne .

حصار تولوز

ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى

وفى سنة ١٠٤ هـ تولى على بلاد الأندلس عَنْبَسَة بن سَحيم الكلبى ، فعاد الى غزو بلاد غالة واستولى على سبتمانيا ووصل إلى حوض الرون ، وتوغل فى اقليم برغندية حتى بلغ مدينة ليون واستولى عليها . ولكنه قتل أثناء عودته ، فاضطر العرب إلى التقهقر ثانية إلى نربونة سنة ١٠٧ هـ .

استيلاؤه على ليون

ووقف تيار الفتح أربع سنوات بسبب قيام الاضطرابات الداخلية فى بلاد الأندلس ، إلى أن تولى حكم البلاد عبد الرحمن الغافقى سنة ١١١ هـ فى عهد هشام بن عبد الملك ، فوطد النظام فى أنحاء البلاد ، وأصلح الخلل الذى أصاب الادارة والجيش ، ثم تفرغ للقتال فى بلاد غالة ، فخرج فى ثمانية آلاف مقاتل واستولى على دوقية اكيتانيا .

تولية عبد الرحمن الغافقى

---

(١) مقاطعة مستقلة فى جنوب اللوار

موقعة تور

استعان دوق اكيتانيا بالفرنجة ؛ فجمع شارل مارتل جيشا ضخما لقى العرب بالقرب من بواتييه Poitiers ، ودارت بينهم المعركة المشهورة بموقعة تور (Tours) . وكانت الغنائم التى غنمها جند المسلمين فى أكيتانيا من الكثرة بحيث خشى عبد الرحمن أن تشغل الجند وتعطل حركات الجيش . وبعد مناوشات دامت ثمانية أيام دارت رحى القتال إلى أن غابت الشمس . وفى اليوم التالى هجم المسلمون على الأعداء ، وكاد النصر يتم لهم لولا ماأشيع فى صفوفهم من أن ماخلفوه من الغنائم قد نهبه العدو . فهرول الجند لحمايتها ووقع الاضطراب فى صفوفهم ، وأصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته ، فتفرقت كلمة المسلمين ، واختلف رؤساء الجند فيما بينهم واضطروا إلى الانسحاب فى ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون . ولم يتعقب شارل مارتل فلول جيش المسلمين خشية أن يكون انسحابهم تدبيرا للايقاع به .

أثر هذه الموقعة

وتعتبر موقعة تور من المواقع الحاسمة فى التاريخ ، إذ لو تم النصر للعرب لوقعت أوربا فى يدهم وانتشر فيها الاسلام . ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة ؛ بل بدأوا يتراجعون تدريجيا إلى بلاد الأندلس ، حتى لم يبق لهم فيما وراء البرانس إلا مقاطعة سبتمانيا . ولم تكن حروبهم بعد ذلك إلا غارات لا أهمية لها .

أثر فتح الاندلس :

غيّر الفتح الاسلامى حال بلاد الأندلس بوجه عام من سىء إلى حسن ؛ فقد افترق الاسبان فرقتين ربحت احداها وخسرت الأخرى . ذلك لأن السياسة اقتضت أن يعامل فريق منهم معاملة خاصة اعترافا لهم بما قدموه من مساعدة للعرب فى أثناء الفتح .

من ذلك ما كوفىء به جوليان من إعادته حاكماً على سَبْته ورد أملاك أبناء غيطشة إليهم (١)

هذا إلى أن الاسبانيين لم يكونوا على قدم المساواة ؛ بل كانت هناك حواجز اجتماعية تجعلهم طبقات متفاوتة وهى :

١ — طبقة الأشراف ورجال الكنيسة .

٢ — اليهود .

٣ — العبيد ورقيق الأرض .

طبقة الاشراف

أما طبقة الأشراف ورجال الكنيسة فلم تستفد من هذا الفتح ؛ ففر كثير من نبلاء الاسبان إلى الشمال . وكذلك كان شأن رجال الكنيسة ؛ فهاجر كثير منهم إلى الجهات الشمالية التى لم يصل إليها العرب . وكان طبيعيا أن تصير أموال الفارين وأراضيهم إلى الفاتحين . وعلى الجملة فهذه الطبقة لم تستفد من هـذا الفتح شيئاً ، بل كان عليها شراً وهوانا بعد أن كانت تروح وتغدو بين أنواع الترف .

طبقة اليهود

وأما اليهود فقد نظروا الى العرب باعتبارهم شعباً فاتحاً يشاركهم فى جنسهم السامى ورأوا فيه المنقذ لهم من الاضطهاد ؛ فوضعوا أنفسهم تحت إمرة العرب الفاتحين ؛ فكانوا لهم عيونا وجواسيس . من ذلك أنهم دلوهم على طرق المقاومة فى حروبهم وكشفوا لهم عن طبيعة الأرض ؛ فاطمأن إليهم العرب وسمحوا لهم بحرية التجارة التى كانت محرمة عليهم قبل الفتح وكذلك حرية الملكية . وبهذا أخذت الفئة اليهودية تنتعش وتقوى . ولا أدل على ذلك من أن التاريخ الاسبانى قد سجل لنا أسماء الكثيرين منهم بين أعلام أسبانيا الاسلامية ضربوا بسهم وافر فى العلوم والآداب والطب والفلسفة . وما ذلك إلا من تنسمهم ريح الحرية فى كنف العرب الفاتحين .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج١ ص ١٢١

طبقة العبيد ورقيق الأرض

كذلك أفاد الفتح طبقة العبيد ورقيق الارض التي رحبت بالعرب، لاعتقادهم أنهم سوف يخلصونهم من تلك القيود التي وضعهم فيها أسيادهم القوط. ولم يقتصر الامر على ذلك، بل اعتنق كثير منهم الاسلام، ونالوا فى عهد العرب بعض الحقوق المدنية التي كانوا محرومين منها. من ذلك أنهم أصبحوا يزرعون بعض الاراضى لحسابهم الخاص على أن يؤدوا عنها خراجا للدولة.

هذا وقد وجهت الحكومة العربية همها إلى توطيد أركان السلم فى ربوع أسبانيا، ولم تعمل على إرغام أهالى البلاد على الدخول فى الاسلام، كما أنها أبقت لهم قوانينهم وشرائعهم؛ فأقبل الاسبان على حكم العرب دون تذمر لما شاهدوا فيه من التسامح العظيم الذى كانوا ينشدونه.

سليمان بن عبد الملك

(٩٦ — ٩٩ هـ ٧١٥ — ٧١٧)

تكلمنا فيما تقدم عن اتساع رقعة أملاك الدولة الاموية فى الشرق والغرب فى عهد الوليد. أما فى عهد سليمان، فلم يكن هناك من فتح غير بلاد جرجان وطبرستان على يد يزيد بن المهلب أمير بلاد المشرق، وكذا محاصرة القسطنطينية.

حملة القسطنطينية

كان الوليد قد شرع فى إرسال حملة إلى القسطنطينية للاستيلاء عليها؛ لكنه توفى قبل قيام هذه الحملة. فلما ولى أخوه سليمان الخلافة، وجه هذه الحملة ورابط فى مرج دابق (١) شمالى الشام؛ وكان على الدولة البيزنطية الامبراطور انستاسياس الثانى Anastasias II، فدافع عن حاضرة ملكه بكل ما أوتى من قوة، وأرسل حملة إلى الثغور الشامية لتحول

---

(١) هو مرج عند قرية دابق بكسر الباء أو فتحها. ودابق قرية بينها وبين حلب أربعة فراسخ. والمرج معشب نزه كان ينزله بنو مروان إذا غزوا الصائفة إلى ثغر المصيصة. وبه قبر سليمان بن عبد الملك. أنظر معجم البلدان لياقوت.

دون وصول الاقوات والمؤن إلى جند المسلمين، ولكنها عادت بالفشل.
وقد انضم إلى جيش المسلمين فى آسيا الصغرى رجل من البيزنطيين كان يطمع فى الملك، ويدعى Leo the Isurians ، اتحد مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان أمير هذه الحملة. ومن ثم أخذ جند المسلمين يستولون على بلاد آسيا الصغرى مدينة تلو مدينة حتى عبروا البحر ووصلوا إلى أسوار القسطنطينية، وتبعهم الأسطول الاسلامى من الثغور الشامية والمصرية ، فاشترك فى حصار حاضرة البيزنطيين. غير أن ليو هذا خرج على صفوف المسلمين وأعلن نفسه امبراطورا بدلا من انستاسياس الذى كان مكروهاً عند الأهلين. وقد اشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر ؛ وهاجمها أسطولهم ، فعمل ليو على استدراج سفن المسلمين. ففتكت بها النار الاغريقية ونفدت أقواتهم ، فتحملوا آلام الجوع والمرض، حتى فنى أكثرهم بعد أن دمرت أكثر سفنهم وعادت الحملة تجر ذيل الفشل، كما فشلت الحملة التى سبقتها فى عهد معاوية

حالة البلاط

وقد دب الترف والبذخ فى البلاط أيام سليمان بن عبد الملك ، وتسرب اليه الفساد ، فأكثر من الخصيان فى القصر. وقد تعدت هذه الرذائل إلى الولاة والأمراء. ولا غرو فالناس على دين ملوكهم.

تنكيله بولاة أخيه الوليد

هذا الى ما كان من تحزبه وانتصاره لبعض الولاة ، وعمله على النيل من البعض الآخر. ومن هؤلاء محمد بن القاسم فى الهند، وقتيبة ابن مسلم فيما وراء النهر، وموسى بن نصير فى الأندلس، وأسرة الحجاج فى العراق.

الحجاج

وكان سليمان بن عبد الملك يبغض الحجاج وأهله وولاته ، حتى إن الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع فى يد سليمان ، وذلك لما كان من إجابة الحجاج الوليد إلى ما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز. فلما ولى سليمان الخلافة ولى يزيد بن

أبي كبشة السكسكي السند فأخذ محمد بن القاسم (ابن أخت الحجاج) وقيده وحمله إلى العراق؛ فبكى أهل السند على محمد (١). ولما وصل الى العراق حبسه في واسط، ثم عذبه صالح بن عبدالرحمن ثم قتله (٢). وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لأهواء الخليفة الذي تناسى ماقام به من عظيم الأعمال.

قتيبة بن مسلم

وكان سليمان بن عبد الملك يحقد على قتيبة بن مسلم أيضاً، لأنه كان ممن وافق الوليد على عزله من ولاية العهد. وأما

موسى بن نصير

موسى بن نصير فقد تعجل بالذهاب إلى الخليفة الوليد ومعه الأموال والغنائم، ولم يتريث كما طلب منه سليمان حتى يموت الوليد وتؤول اليه هذه الأموال والغنائم فيستولى عليها لنفسه. ومن ذلك نرى أن سليمان كان مدفوعا في هذه الأمور كلها بعوامل شخصية ليس غير. ومن ثم لم يكن سبيل إلى نبوغ القواد واخلاص قلوبهم لأمرائهم بعد أن رأوا أن نتيجة أعمالهم إنما كانت وبالا عليهم وشرا مستطيراً على حياتهم.

وفاة سليمان

ولم يعمر سليمان في الخلافة أكثر من سنتين. وقد اشتهر بالفصاحة والبلاغة بعكس أخيه الوليد؛ وكان فوق ذلك نهما محبا للطعام والنساء. وقد قيل عن وفاته إنه لبس يوما حلة وعمامة خضرا ونظر في المرآة وقال: أنا الملك الفتى؛ فنظرت إليه جارية من جواريه وقالت:

أنت نعمُ المتاع لو كنتَ تبقى ... غير أنْ لا بقاء للإنسان

ليس فيما علمته فيك عيبٌ ... كان في الناس غير أنك فان

ولم يمض أسبوع واحد على ذلك حتى مات (٣).

---

(١) Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 122.

(٢) الطبري ج ٢ ص ١٠٣

(٣) الفخري ص ١١٦

عمر بن عبد العزيز

٩٩ — ١٠١ هـ ؟ ٧١٧ — ٧٢٠ م

تولية الخلافة

لما مرض سليمان بن عبد الملك مرضه الذى مات فيه ، عزم على مبايعة بعض أبنائه ، فنهاه سالم السُّدى أحد خاصته ، وأشار عليه بأن يختار رجلا صالحاً ؛ فاستشاره فى عمر بن عبد العزيز ، فأثنى عليه . فكتب سليمان عهده ، وختمه بدير سمعان من أعمال حمص (١) ، ودعا أهل بيته وقال لهم : « بايعتُ لمن عهدتُ اليه فى هذا الكتاب » ، ولم يعلمهم به ، فبايعوا . ولما مات سليمان جمعهم ذلك الرجل الذى أشار بمبايعة عمر بن عبد العزيز ، وكتم موت سليمان عنهم وقال لهم : بايعوا مرة أخرى ! فبايعوا . ولما رأى أنه قد أحكم الأمر أعلمهم بموت سليمان (٢) فبايعوه ، ولم يتخلف إلا سعيد وهشام ابنا عبد الملك .

وقد ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة فى شهر صفر سنة ٩٩ هـ فى اليوم الذى مات فيه سليمان بن عبد الملك ، وظل فيها سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام إلى أن توفى فى شهر رجب سنة ١٠١ هـ .

عمر بن عبد العزيز فى نظر التاريخ

كان البون شاسعاً بين عمر بن عبد العزيز ، وبين غيره من خلفاء بنى أمية ، حتى اعتبر بعض المسلمين حكمه «غرة فى جبين ذلك القرن الذى امتلأ بالزَّيغ عن الدين ، وتلطخ بالاستبداد وسفك الدماء»(٣)

ويعتبر المسلمون خلافته كخلافة عمر بن الخطاب فى عدله وزهده . ولا عجب فى ذلك ، فقد كانت أمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧

(٢) الفخرى ص ١١٧

(٣) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 209.

ولما ولى عمر الخلافة جاءه سالم السُّدِّى — وكان من خاصته — فقال له عمر : أسرك ماوليتُ أم أساءك ؟

فقال : سرنى للناس وساءنى لك .

قال عمر : إنى أخاف أن أكون أوْبَقْتُ نفسى

قال السُّدِّى : ما أحسن حالك إن كنت تخاف . إنى أخاف عليك ألا تخاف .

قال عمر : عِظْنى !

فقال السُّدى : أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة .

ولم يكن للشعراء والخطباء فى عهد عمر بن عبد العزيز نصيب فى بلاطه الذى امتلأ بأهل التقوى والزهد من المسلمين ؛ وقد وصفه المسعودى (١) فقال : « كان عمر فى نهاية النسك والتواضع ، صرف عمال من كان قبله من بنى أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته وترك لعن على عليه السلام على المنابر » . ولم تحل الاعتبارات السياسية بينه وبين إقامة العدل ، ولقد بلغ من زهده أنه كان يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الخاصة .

اصلاحات عمر :

رفع الجزية عن اسلم

قام عمر ببعض الاصلاحات ، ولكنها كانت فى مصلحة الاسلام أكثر منها فى مصلحة بيت المال . فقد رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، وخفف الضرائب عن عامة المسلمين ، وبخاصة عن الموالى من الفرس . ومن السهل جداً أن نتنبأ بنتائج تلك السياسة الجديدة التى كان من أثرها أن ازداد اعتناق الناس للاسلام بينما نقص إيراد بيت المال نقصاً محسوساً . ولتحاشى ذلك

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ . وأوبقت بمعنى أهلكت

الخطر اشترط بعض الولاة الختان وحفظ شيء من القرآن . على أن ذلك لم يجد نفعاً . ومن ثم كان لزاماً العود إلى فرض الجزية كما كانت من قبل أوضياع ثمار مافتحه المسلمون من البلاد . ويظهر أن عمر بن عبد العزيز قد فطن الى أبعد النتائج التى قد تجر اليها تلك السياسة . لذلك لم يتقهقر أمامها .

وقد رأى بعض ولاته ، عندمانقصت جزية الروس على أثر دخول الناس فى الاسلام ، رفع الجزية عمن أسلم ، فأبت عليه شدة إيمانه وحرصه على دخول الناس فى الاسلام أن يجيب هؤلاء الولاة الى ماطلبوه . يدلك على ذلك جواب عمر على كتاب واليه على مصر الذى شكا اليه أن الاسلام أضر بالجزية واستأذن فى أن يفرضها على من أسلم . وهو جواب يدل على ورعه وصدق ايمانه حيث يقول له : « فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ! فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام على يديه » .

فلا عجب اذا نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبر عمر بن عبد العزيز . ويذكر لنا المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ ﻫ أن قبر عمر بن عبد العزيز كان فى أيامه معظماً يغشاه الكثير من الناس .

سياسة عمر بن عبد العزيز ازاء الخوارج :

لم يحرك الخوارج ساكنا فى عهد الوليد بن عبد الملك وعهد أخيه سليمان . فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز خرج رجل من الخوارج من بنى يشكر يدعى شَوْذب ، التف حوله جماعة ممن كانوا يرون رأيه . ولكن عمر ، بما جبل عليه من الأخلاق الفاضلة وحبه للسلم وجمع

الكلمة ، لم يشأ أن يأخذ الخوارج بالشدة والقسوة ، بل أراد أن يعاملهم باللين وأن يقارعهم بالحجة ؛ فأرسل إلى شوذب كتابا يقول له فيه : « بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولنبيه . ولستَ أولى بذلك منى . فهلم اناظرك ؛ فان كان الحق بأيدينا دخلتَ فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا » . ولم يكن من شوذب إلا أن كتب إلى عمر : « قد أنصفتَ ، وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » .

وكان عمر بن عبد العزيز يرمى بهذا العمل الى إزالة الخلف بين الفريقين عن طريق الاقناع بالحجة والبرهان . ولم ير — بما عرف عنه من كره لإراقة دماء المسلمين — الا أن يسلك سبيل اللين . وقد آتت سياسة عمر أكلها ؛ فقد شهد أحد هذين الخارجين المتناظرين بأن عمر على حق . وقد ذكر المسعودى [1] أن أحد هذين الرسولين قال لعمر : « ماسمعتُ كاليوم قط حجة أبين وأقرب مأخذا من حجتك . أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا برىء ممن برىء منك » . فقال عمر للرسول الآخر « فأنت ماتقول » ؟ قال « ماأحسن ماقلتَ وأبين ماوصفت ! ولكنى لاأفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض عليهم قولك فأنظر ماحجتهم » ؛ ثم مضى أحد الرسولين الى شوذب وأتباعه ليعلمهم نتيجة المناظرة . ولكن لم يلبث عمر أن عاجلته منيته (٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ)

الخوارج فى العراق والجزيرة

هذا وقد نصب الخوارج أنفسهم فى بلاد العراق والجزيرة منذ خلافة عمر بن عبد العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين وحربا على المستبدين والطاغين (٢) . لذلك لانعجب إذا مد هؤلاء الخوارج البربر

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٣٠ — ١٣٦

(٢) الطبرى (طبعة دى غويه) ٢ : ٦١٣٤

من أهل إفريقية المتذمرين من حكم الأمويين بالأسلحة التى استعانوا بها على قتال ولاتهم فى تلك البلاد (١)

يزيد بن عبد الملك

١٠١ - ١٠٥ هـ ؟ ٧٢٠ - ٧٢٤ م

تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة فى اليوم الذى توفى فيه عمر بن عبدالعزيز ، وذلك فىشهر رجب سنة ١٠١ هـ ، وبقى فىالخلافة الى أن مات فىشهر شعبان سنة ١٠٥ . وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

الخوارج

وعلى أثر توليتـه الخلافة أعلن شَوْذب الخارجى الحرب على الأمويين . وقد هزمهم فى عدة وقائع إلى أن ولى مَسلمة بن عبد الملك الكوفة من قبل يزيد ، فأرسل الى شوذب سعيد بن عمرو الحريشى فى جيش كثيف ؛ فدارت الدائرة على شوذب ومن معه منالخوارج ؛ ولم يفلت منهم الا القليل . وكان ذلك سنة ١٠١ هـ (٢)

خروج يزيد بن المهلب

وفى أيامه خرج يزيد بن المهلب بن أبى صفرة . وقد فر من سجن عمر بن عبد العزيز ؛ فسار الى البصرة وأسر واليها ، ثم واصل السير إلى الكوفة ؛ فانضم اليه الأزد كما انحاز اليه أهله وخاصته ، فعظم أمره واشتدت شوكته ؛ فبعث اليه يزيد أخاه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد فى جيش عظيم . فلما التقى الجيشان اقتتلوا قتالا شديدا ؛ فولى أصحاب يزيد عنه ، فقتل فىالمعركة .(٣)

أخلاق يزيد

وقد اشتهر يزيد بن عبد الملك باللهو والخلاعة والتشبب بالنساء . قيل انه شُغف بجاريتين إحداهما تسمى سَلامة والأخرى حُبابة ؛ وقد غنت حُبابة يوما ليزيد :

---

(١) الطبرى ١ : ٢٨١٥

كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٧٢ — ٧٣

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦

بينَ التَّراقي (١) واللّهاةِ حَرارةٌ ما تَطمئِنُّ ولا تَسُوغُ فتبرُدُ

فطرب يزيد ثم قال : أريد أن أطير ! فقالت له حبابة : على من تدع الأمة وتدعنا ؟ قال : عليك ؛ وقبّل يدها . فخرج بعض خدمه وهو يقول : سَخِنَتْ عينك فما أسخفك !

فانظر إلى هذا و إلى أبيه عبد الملك حين خرج إلى قتال مصعب بن الزبير وصدته زوجه عاتكة فلم يلتفت إليها واستشهد بقول كُثيِّر عَزة :

إذا ماأرادَ الغزوَ لم يثن همَّهُ حَصَانٌ (٢) عليها دُرُّ نَظْمٍ يزينُهَا
نَهتْهُ فلما لم ترَ النَّهْيَ نافعًا بكت فبكى مما شجاها قَطينها (٣)

وقد ذكر المسعودى (٤) أن أبا حمزة الخارجى كان إذا ذكر بنى مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال : أقعد حُبَابة عن يمينه وسلامة عن يساره ، ثم قال : أريد أن أطير ؛ فطار إلى لعنــــة الله وأليم عذابه .

ولما اعتلت حُبابة أقام يزيد أياما لا يظهر للناس . فلما ماتت مكث معها أياما لا يدفنها جزعا عليهـا . فقال له بعض خاصته : إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ؛ فدفنها وأقام بعدها أياما قلائل ومات .

انقسام البيت الأموى

وفى أيام يزيد ظهر النفور بينه وبين أخيه هشام لمـا كان من سوء سيرة يزيد . ولمـا بلغه أن أخاه هشاما ينتقصه ويتمنى موته ويعيب عليه لهوه كتب إليه : أما بعد ! فقد بلغنى استثقالك حيـاتى واستبطاؤك موتى . ولعمرى إنك بعدى لواهى الجناح أجذم الكف . وما استوجبتُ

(١) موضع القلب (٢) امرأة تحصن زوجها لشدة جمالها فلا ينظر الى غيرها

(٣) القطين : من يسكن مع الانسان والمراد بها هنا الزوج

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ١٧٥ ؟ الفخرى ص ١١٨ — ١١٩

منك مابلغنى عنك» . فأجابه هشام : أما بعد ! فان أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنان (١) وأعداء النعم ، يوشك أن يقدح ذلك فى فساد ذات البين و تقطع الأرحام . وأمير المؤمنين بفضله ، وما جعله الله أهلا له ، أولى أن يتعهد ذنوب أهل الذنوب . فأما أنا فمعاذ الله أن أستثقل حياتك أو استبطىء وفاتك » ؛ فكتب اليه يزيد : نحن مغتفرون ما كان منك ، ومكذبون مابلغنا عنك . فاحفظ وصية عبد الملك أبانا وقوله لنا فى ترك التباغى والتخاذل ، وما أمر به من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء ، فهو خير لك وأملك بك . وإنى لأكتب إليك وأعلم أنك كما قال الاول :

ستقطع فى الدنيا إذا ماقطعتنى يمينك فانظر أى كف تبدل
وإن أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقل

فلما أتى الكتاب هشاما ارتحل إليه ، فلم يزل فى جواره مخافة أهل البغى والسعاية حتى مات يزيد[٢] .

هشام بن عبد الملك

١٠٥ — ١٢٥ هـ ؟ ٧٢٤ — ٧٤٣ م

ولى هشام بن عبد الملك الخلافة فى شهر شعبان سنة ١٠٥ هـ فى اليوم الذى مات فيه أخوه يزيد ، وبقى فى الخلافة إلى أن توفى بالرصافة من أرض قنسرين فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ ، بعد أن مكث فى الخلافة تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأياما .

خروج زيد بن على زين العابدين

وفى أيامه خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على . وكان يحدث نفسه بالخلافة ويرى أنه أهل لها ، حتى كانت أيام هشام بن

(١) الكراهة والبغض
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٧٩

عبد الملك . وقد ذكر المسعودى (١) أن زيداً دخل على هشام ، فلم يحفل به هو ولا رجال بلاطه ، فجلس حيث انتهى به مجلسه فقال ياأمير المؤمنين ! ليس أحد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله . فانتهره هشام وقال له : أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة وأنت ابن أمة ؟ وقد اتهمه هشام بوديعة لخالد بن عبد الله القسرى أمير الكوفة من قَبْلُ ، فبعث به إلى يوسف بن عمر أمير الكوفة فى ذلك الوقت ، فاستحلفه ؛ فحلف أنه ليس عنده مال لخالد ، فخلى سبيله (٢) . فلما خرج زيد عائدا إلى المدينة تبعه أهل الكوفة وحرضوه على الخروج ، وتبعه منهم زهاء خمسة عشر ألفا ، وقيل أربعون ألفا (٣) . ولما ظهر أمره حاربه يوسف بن عمر ، فتفرق أصحاب زيد عنه وخذلوه ، وحارب فى نفر قليل ، فأصابه سهم فى جنبه فمات من ساعته ، ودفنه أصحابه فى ساقية وأجروا الماء على قبره خوفا أن يمثل به . وقد دل يوسف عليه بعض العبيد ، فنبش القبر وأخرج جثة زيد وصلبها ، ثم أحرقها وذر رمادها فى الفرات . (٤)

الزيدية

وإلى زيد تنسب جماعة الزيدية من فرق الشيعة . وقد تفرعت من الزيدية جماعة الرافضة .

وسبب تسميتهم بالرافضة أن زيدا لما اشتبك مع يوسف بن عمر الثقفى والى العراق من قبل هشام بن عبد الملك قالوا له : « إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب » . فقال زيد : « إنى لا أقول فيهما إلا خيرا ، وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرا . وإنما خرجت على بنى أمية لأنهم

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨١

(٢) الفخرى ص ١١٩ — ٢٢٠

(٣) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٤٣ — ٤٤

(٤) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٤٣ — ٤٤

قتلوا جدى الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار » ؛ ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم : رفضتمونى . وقد بحث فريدلندر أصل هذا اللفظ بحثا مسهبا فى مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية فى المجلد التاسع والعشرين فقال : من المرجح كثيرا أن يكون شيوع إطلاق هذا اللفظ على الشيعيين إنما هو نتيجة العداء الشديد لهم ويطلقه بعض الكتاب على جميع فرق الشيعة بلا استثناء .(١)

ويريد فريدلندر أن يقول : إن هذا اللفظ جرى فى العرف العام مجرى الذم ؛ فانهم إذا أرادوا أن يحتقروا شخصا ويصفوه بأقبح أوصاف الذم يقولون « رافضى » . ولا يزال هذا اللفظ جاريا على ألسنة العامة بعد تحريفه إلى « رفضى » ، حتى كان هذا اللقب فى بعض الأحيان يطلق على كل من يبدى ميلا لآل البيت ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

إنْ كان رفضاً حُبُّ ال محمد فليشهد الثقلان أنى رافضُ

يحيى بن زيد

انقسم الزيدية بعد موت زيد إلى طوائف عدة : فظل فريق منهم على ولائه لزيد، وبايعوا ابنه يحيى وقاتلوا معه فى خراسان سنة ١٢٥ﻫ (٧٤٣م). الا أن أمره آل إلى ما آل إليه أمر أبيه من قبل ، إذ أصابته نشابة فمات ، وحز رأسه وصلب ، ثم أحرق حتى صار رمادا تذروه الرياح .(٢)

---

(١) Journal of the American Oriental Socity, vol. XXIX, pp. 137—159

(٢) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٤٣ — ٤٤

كانت الزيدية ثمانى فرق : الأولى : الجارودية وهم أصحاب أبى الجارود زياد بن المنذر العبدى ، وذهبوا إلى أن الامامة مقصورة فى ولد الحسن والحسين دون غيرهما ، الثانية : المرثدية ، الثالثة : الأبرقية ، الرابعة : اليعقوبية وهم أصحاب يعقوب بن على الكوفى ، الخامسة : العقبية ، السادسة : الأبترية وهم أصحاب كثير الأبتر والحسن بن صالح بن جنى ، السابعة : الجريرية وهم أصحاب سليمان بن جرير ، الثامنة : اليمانية وهم أصحاب محمد بن اليمان الكوفى . وقد غلا هؤلاء فى المذهب وفرعوا مذاهب على ما سلف من أصولهم — مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٨٣ ؟ كتاب فرق الشيعة لأبى الحسن النوبختى ص ١٩ ، ٤٩ ، ٥٠ — ٥١

سياسة هشام ازاء الموالى :

بادر الخلفاء بعـــد موت عمر بن عبد العزيز إلى فرض ضرائب فادحة لسد ذلك النقص الذى جرته سياسة عمر ازاء الموالى وإعفائهم من الجزية . فقد فاجأ هشام بن عبد الملك الموالى بضريبة خراجية لاقبل لهم باحتمالها ؛ فثار على بنى أمية الحارث بن سُرَيْج ، وحارب الأمويين لما كانت تثقل به كاهل الأهلين من الضرائب . وكان يزعم أنه المهدى الذى بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين . وكان له أنصار من العرب (من مضر واليمن) والفرس . وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطئ نهر سيحون .

تولية أسد بن عبدالله القسرى

ولما تولى أسد بن عبد الله القسرى هذه البلاد بعد عاصم بن عبد الله استرد من الحارث البلاد التى استولى عليها من الأمويين ، واضطره إلى الانسحاب إلى طخارستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر حيث انضم الى الأتراك ضد العرب .

تولية نصر بن سيار

وفى سنة ١٢٠ هـ ولى هشام بن عبد الملك نصر بن سَيَّار بلاد خراسان ؛ وكان نصر أكثر الموالين للعرش الأموى كفاءة . لذلك استطاع أن يوطد دعائم السلم فى بلاد ماوراء النهر سنة ١٢٣ هـ [١]

المرجئة :

تكلمنا قبل عن طائفتين من أقدم الطوائف الإسلامية وهما : الخوارج أو الجمهوريون ، والشيعة أو الملكيون . وسنتكلم الآن عن طائفة أخرى لايقل أثرها فى اتجاه السياسة الإسلامية عن هاتين

(١) كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٦١ — ٦٣

الطائفتين ، وهى طائفة المرجئة التى ظهرت فى دمشق عاصمة الأمويين تحت تأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثانى من القرن الأول الهجرى (٧١٤ - ٧٤٨ م) .

تسمية المرجئة

وقد سميت المرجئة بهذا الاسم من الارجاء أو التأجيل ؛ لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث(١) ، كما يتحرجون عن إدانة أى مسلم مهما كانت الذنوب التى اقترفها .

على أن فان فلوتن Van Vloten يرى أن تسمية المرجئة إنما ترجع إلى بعض آى القرآن ، وأنها مأخوذة من قوله تعالى (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). وعلى ذلك تكون تسمية المرجئة مشتقة من أرجأ بمعنى بعث الرجاء والأمل (٢)، وذلك لأنهم كانوا يقولون إنه لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

عقيدة المرجئة

كانت العقيدة الأساسية عند المرجئة عدم تكفير أى انسان أيا كان ، مادام قد اعتنق الاسلام ونطق بالشهادتين مهما ارتكب من المعاصى ، تاركين الفصل فى أمره لله وحده .

وقد غلا جهم بن صفوان أحد رءوس المرجئة ؛ فزعم أن الايمان عقد بالقلب ، وان أعلن الكفر بلسانه بلا تقية ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية (٣) فى دار الاسلام وعبد الصليب ، وأعلن التثليث فى دار الاسلام ومات على ذلك . فهو مؤمن كامل الايمان عند

---

(١) أنظر Lane's Arabic-English Lexicon, vol. I.p.1033.

(٢) أنظر Nicholson, Literary History of the Arabs, p. 221.

Van Vloten, Irdjâ (Z. D. M. 45. p. 161 seq)

(٣) ابن حزم (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٠) ج ٤ ص ٢٠٤

الله عز وجل ، وليٌّ لله عز وجل من أهل الجنة » وعلى ذلك فقد ذهب جهم إلى القول بأن الاسلام الصحيح والايمان الحق شيء واحد. وكان من الطبيعي أن تدفع مثل هذه العقيدة أصحابها الى احتقار الفرائض العملية للاسلام (١) ، ووضعهم واجبات المرء نحو من يحيط به من الناس ، فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن على الوجه الأكمل.

وهؤلاء هم فى الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بنى أمية ، مخالفين فى ذلك الشيعة والخوارج. ومع ذلك فانهم يتفقون فى العقيدة إلى حد ما مع طائفة المحافظين وهم أهل السنة ، وان كانوا ـ كما يرى فون كريمر ـ قد ألانوا من شدة عقائد هؤلاء السنيين ، باعتقادهم « أنه لا يخلد مسلم مؤمن فى النار » (٢). وعلى العموم فهم يضعون العقيدة فوق العمل.

وكانت آراؤهم تتفق تماما مع آراء رجال البلاط الأموى ومن يلوذ به ، بحيث لا يستطيع أحد من الشيعيين أو الخوارج أن يعيش بينهم ، فى الوقت الذى تمكن فيه المسيحيون وغيرهم من غير المسلمين أن ينالوا الحظوة لديهم وأن يشغلوا المناصب العالية ، حتى كان من الصعب اعتبار تلك الطائفة من المسيحيين أكثر من خدام ضرورة وأغراض يدورون مع الزمن أنَّى دار ويميلون مع الرياح كيفما دارت. وكانوا فى ذلك أشبه بقسيس برِى (Bray) (٣)

---

(١) Zeitschrift, A. D. M. G. II. p. 170.

لئن صح هذا فان الدولة الاموية باتباعها هذا النظام قد بعدت البعد كله عما دعا اليه الاسلام من المساواة بين جميع المسلمين فى جميع الحقوق السياسية والمدنية ، لافرق فى ذلك بين عربى وعجمى. يؤيد ذلك قوله تعالى : (انما المؤمنون إخوة) سورة الحجرات آية ١٠ ، وقوله تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) سورة الحجرات آية ١٣.

(٢) Gesch d. Herrsch. Ideen, p. 25.

(٣) قسيس Bray اسم لقسيس كان مضرب المثل فى التقلب. فقد اشتهر مذهبه حسب تغير الأحوال. وبذلك استطاع أن يعيش فى عهد شارل الثانى وجيمس الثانى ووليم الثالث والملكة آن وجورج الأول ، وذلك بتقلبه وتغييره مذهب الزمن الذى كان يعيش فيه. أنظر لفظ Bray فى Cassel's Encyclopaedia

انظر Browne, Lit. Hist. of Presia, vol. II. pp.280—281

أفول نجم المرجئة

وبزوال الدولة الأموية أفل نجم طائفة المرجئة ، ولم تصبح بعد حزبا مستقلا . ومع ذلك فقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب المذهب المشهور الذى لا يزال باقيا إلى اليوم (١)

ويقول فون كريمر (٢) « ومما يؤسف له كثيرا أنه ليس لدينا غير القليل من الأخبار الصحيحة عن هذه الطائفة . فقد ظلوا طيلة ذلك العصر ، وذاقوا حلوه ومره . وقد ضاعت جميع المصادر التاريخية العربية عن عهد الأمويين ، حتى إن أقدم المصادر التاريخية التى وصلت إلينا إنما ترجع إلى عهد العباسيين . ومن ثم كان لزاما علينا أن نستق معلوماتنا عن المرجئة من تلك الشذرات المبعثرة فى مؤلفات كتاب العرب فى ذلك العصر الثانى »

اشهر شعراء المرجئة

وممن اشتهر من شعراء بنى أمية بالقول بالارجاء ثابت قطنة . وكان فى صحبة يزيد بن المهلب . وله قصيدة فى الأرجاء تعد وثيقة تاريخية قيمة فى توضيح مذهبهم ؛ وقد رواها صاحب الأغانى ومنها :

يَاهِنْدُ فَاسْتَمِعِى لِى إنَّ سِيرَتَنَا	أنْ نَعْبُدَ اللهَ لَمْ نُشْرِكْ بِهِ أحَدَا
نُرْجِى الأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مُشَبَّهَةً	وَنَصْدُقُ القَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أوْ عَنَدَا
المُسْلِمُونَ عَلَى الإِسْلاَمِ كُلُّهُمُوا	والمُشْرِكُونَ اسْتَوَوْا فِى دِينِهِم قِدَدَا
وَلاَ أرَى أنَّ ذَنْبًا بَالِغٌ أحَدًا	مِ النَّاسِ شِرْكًا إِذَا مَا وَحَّدُوا الصَّمَدَا
لاَ نَسْفِكُ الدَّمَ إلاَّ أنْ يُرَادَ بِنَا	سَفْكُ الدِّمَاءِ طَرِيقاً وَاحِدًا جَدَدَا
مَنْ يَتَّقِ اللهَ فِى الدُّنْيَا فإِنَّ لَهُ	أجْرَ التَّقِىِّ إِذَا وَفَّى الحِسَابَ غَدَا
وَمَا قَضَى اللهُ مِنْ أمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ	رَدٌّ وَمَا يَقْضِ مِنْ شَىْءٍ يَكُنْ رَشَدَا
كُلُّ الخَوَارِجِ مُخْطٍ فِى مَقَالَتِهِ	وَلَوْ تَعَبَّدَ فِيمَا قَالَ وَاجْتَهَدَا

---

(١) Herrsch-Ideen, p. 26 .

(٢) ص ٣

أمَّا عليٌّ وعُثمانٌ فإنهُما عبْدانِ لمْ يُشرِكا باللهِ مُذْ عبَدا
وكانَ بينَهُما شغْبٌ وقدْ شهدَا شقَّ العصَا وبعَيْنِ اللهِ ما شَهِدَا
يُجزى عليًّا وعُثمانا بِسعْيِهِمَا ولسْتُ أدرى بحَقٍّ أيَّةً وَرَدَا
اللهُ يعْلَمُ مَاذَا يَحضُرَانِ بِهِ وكُلُّ عَبْدٍ سيَلْقَى اللهَ مُنفرِدَا(١)

أخلاق هشام :

كان هشام غزير العقل ، حليما عفيفا ، اشتهر بالتدبير وحسن السياسة ، حتى قيل إن السواس من بنى أمية ثلاثة : «معاوية وعبد الملك وهشام» . وقد ذكر المسعودى أن المنصور العباسى كان يقتدى بهشام فى أكثر أموره ، وفى سياسته وتدبيره لشئون الدولة .

اصلاحاته

ومن اصلاحاته اهتمامه بتعمير الأرض وتقوية الثغور ، وحفر القنوات والبرك فى طريق مكة ، وغير ذلك من الآثار التى أتى عليها داود بن على بعد أن قامت الدولة العباسية . وفى أيامه ظهرت صناعة الخز والقطيفة . وكان هشام كلفا بالخيل ؛ وهو أول من أقام لها الحلبات من الخلفاء ، كما عنى بعدد الحرب ولامتها .

امعانه فى الانتقام من العلويين

ومما يؤخذ عليه إمعانه فى الانتقام من العلويين والتنكيل بهم كلما أمكنته الفرصة من ذلك . ناهيك بما فعله بزيد ويحيى . هذا الى ما عرف عنه من الغلظة وخشونة الطبع وشدة البخل . ومما يدل على بخله أن رجلا أهدى إليه طائرين فأعجب بهما . فقال له الرجل : أين جائزتى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له هشام : وما جائزة طائرين ؟ قال ما شاء أمير المؤمنين . قال : خذ أحدهما . فقصد الرجل لأحسنهما فأخذه . فقال له وتختار أيضًا ؟ قال: نعم ، والله أختار ، فقال : دعه وأمر له بدريهمات .

وقد دخل هشام بستانًا له ، ومعه ندماؤه فطافوا به ، وبه كل

---

(٢) الأغانى ج ٧ ص ٩٢

الثمار ؛ فجعلوا يأكلون ويقولون : بارك الله لأمير المؤمنين . فقال هشام : وكيف يبارك لى فيه وأنتم تأكلونه ؟ ثم نادى حارسه فقال له : اقلع شجره ، واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه أحد شيئًا (١) .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك

١٢٥ ﻫ ؟ ٧٤٣ م

بويع الوليد بن يزيد فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ﻫ فى اليوم الذى توفى فيه هشام ، وبقى فى الخلافة سنة وشهرين وأياما إلى أن قتل بقرية من قرى دمشق فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ﻫ .

شعره

وقد اشتهر الوليد باللهو والخلاعة والمجون ؛ وكان شاعراً محسنا له أشعار حسنة فى العتاب والغزل ووصف الخمر . فمن جيد شعره ما كتبه إلى هشام بن عبد الملك ، وقد عزم على خلعه لما رآه من استهتاره وعكوفه على الخلاعة والمجون :

كفرتَ يدا من مُنْعِم لو شكرتَها جزاك بها الرحمنُ ذو الفضل والمن

رأيتكَ تَبْنى جاهدًا فى قطيعتى ولو كنتَ ذا حزم لهدَّمْت ماتبنى

أراك على الباقين تجنى ضغينَةً فياوَيْحَهُمْ إنْ مُتَّ مِنْ شر ماتجنى

كأنى بهم يوما وأكثرُ قولهم ألا ليت أنا حين ياليتَ لا يُغنى

وقد بلغ من استهتار الوليد بالمعاصى أن قال له أخوه هشام يوما : والله لا أدرى إن كنتَ على الاسلام أم لا . ومما يحكى عن الوليد أنه استفتح فألا فى المصحف فخرج (وَاسْتَفْتَحُوا وخَابَ كلُّ جبَّارٍ عَنيدٍ) ؛ فألقاه وجعله هدفا ، وأخذ يرشقه بسهامه وهو يقول :

تهددنى بجبارٍ عنيدٍ نعم أنا ذاك جبارٌ عنيدُ

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٨٤ — ١٨٥

إذا ماجئت ربك يوم بعث ... فقل يارب خرقني الوليد

انقسام البيت الاموى

فلم يلبث بعد هذا طويلا حتى قتل . وكان السبب فى قتله أنه كان قبل أن يلى الخلافة ـ على ماذكرنا ـ من سوء السيرة وانتهاك حرمات الله عز وجل . فلما أفضت اليه الخلافة لم يزدد إلا انهماكا فى اللذات واستهتارا بالمعاصى ، وإغضاب أكابر أهل بيته والاساءة اليهم . فاجتمعوا عليه مع غيرهم من رجالات دولته وهجموا عليه . فلما أحس بهم دخل داره وفتح المصحف وقال : يوم كيوم عثمان بن عفان ؛ ثم تقدم اليه يزيد بن الوليد وقتله . (١)

يزيد وابراهيم ابنا الوليد بن عبدالملك

١٢٦ — ١٢٧ هـ ؟ ٧٤٤ — ٧٤٥م

اضطراب حبل بنى اميه

ولى يزيد بن الوليد الخلافة بدمشق فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ . وتوفى فى ذى الحجة من هذه السنة بعد أن بقى فى الخلافة خمسة أشهر ؛ وقام بالأمر من بعده أخوه ابراهيم بن الوليد ، فلم يمكث فى الخلافة أكثر من شهرين .

ميل يزيد الى تعاليم المعتزلة

وكان يزيد بن الوليد أحول ، يظهر التنسك ، وقد سمى الناقص لأنه نقص أرزاق بعض الجند ، وخاصة جند الحجاز . وكان يميل إلى تعاليم المعتزلة .

المعتزلة :

تكلمنا قبل عن الشيعة والخوارج والمرجئة من حيث أثرها فى تاريخ الاسلام السياسى . والآن نتكلم عن طائفة رابعة لا يقل أثرها

(١) الفخرى فى الاداب السلطانية ص ١٢١ — ١٢٢
المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٩

عن تلك الطوائف الثلاث فى اتجاه السياسة الاسلامية وهى القدَرية أو المعتزلة .

نشأة المعتزلة :

يقول البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق : « حدث فى أيام الحسن البصرى خلاف واصل بن عطاء الغزال فى القدر وفى المنزلة بين المنزلتين ، وانضمّ إليه عمرو بن عبيد بن باب فى بدعته ، فطرَدَهما الحسن عن مجلسه فاعتزلا عن سارية من سوارى مسجد البصرة . فقيل لهما ولأتباعهما معتزلة لاعتزالهم قول الأمة فى دعواها أن الفاسق من أمة الاسلام لامؤمنٌ ولا كافرٌ[1] . »

ويقول الأستاذ براون [2] عن نشأة المعتزلة : « وكل مااتصل بنا بوجه عام عن نشأة المعتزلة وتسميتهم بهذا الاسم هو أن واصل بن عطاء الغزال الفارسى الذى كان من تلاميذ حسن البصرى الفقيه المشهور ، قد اختلف مع استاذه فى مسألة المؤمن العاصى الذى ارتكب ذنباً كبيراً ؛ هل لايزال يسمى مؤمنا أم لا ؟ . ويقول واصل إن مثل هذا الشخص لايمكن أن يسمى مؤمنا أو كافرا ، بل يجب أن يوضع فى منزلة وسط بين المنزلتين . وقد انتحى واصل ناحية بعيدة من المسجد وأخذ يشرح رأيه لزملائه من التلاميذ الذين اتبعوه . فكان حسن البصرى يقول للذين التفوا حوله بان واصلا قد « اعتزل عنا » . ومن ثم أطلق خصوم واصل عليه وعلى أتباعه اسم « المعتزلة »

ويظهر من هذه المعلومات التى وصلت الينا أن مولد تلك الطائفة ومهدها كان بلاد العراق ، وهى بابل القديمة — حيث تقابل الجنسان

---

(١) ص ١٥

(٢) Browne, Lit. Hist. of Persia, p. 281

السامى والفارسى واختلطا — التى أصبحت بعد قليل كعبة العلم ، ثم غدت بعد قليل أيضاً مقر الحكومة فى عهد العباسيين » [١]

« Cette antique Babylonie, où la race sémitique et la race perse se rencontraient et se mélangeaient, et qui devint bientôt le centre de la science, puis, peu de temps après, sous les Abbàsides, le siège du gouvernement. »

ويرى فون كريمر (٢) أن الاعتزال قد نما وانتشر فى دمشق تحت تأثير رجال الدين من البيزنطيين ، وبخاصة يحيى الدمشقى وتلميذه تيودور أبو قره (Abucarra). أما ذلك الاسم الآخر الأكثر وضوحا وهو — القدرية — (٣) الذى عُرف به أهل هذه الطائفة ، فانه يرجع إلى مذهبهم القائل بحرية إرادة الانسان . وإلى ذلك الحديث المكذوب على النبى صلى الله عليه وسلم وهو « القدرية مجوس هذه الأمة »، وذلك لأنهم — كما يقول Steiner — يبررون وجود الشر . فقد وضعوا قاعدة أخرى ، هى إرادة الانسان ضد إرادة الله) . وهو ماعزاه اليهم خصومهم ؛ حتى إننا لنجد الشاعر الصوفى الفارسى محمود الشَّبَسْتَرى يشير فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى إلى ذلك الحديث فى كتابه المشهور عن التصوف المسمى گُلْشَنى راز (٤) بما يأتى : « كل رجل لايعتقد بالقضاء والقدر فهو مجوسى (أى من عباد النار) ، كما قرر ذلك الرسول فى سنته » .

ويرى فون كريمر إن معبد الجهنى (٨٠ هـ ؟ ٦٩٩م) يدين بمذهب

---

(١) Dozy, Histoire de l'Islamisme, p. 201

(٢) Streifzüge, pp. 7—9

(٣) أنظر Steiner, Mu'taziliten, pp. 26—28 لمعرفة المعانى المختلفة لكلمة « قدر »

(٤) طبعة Wüstenfeld ١ : ٥٣٨ (ص ٣٢ ، ٣٤)

حرية الارادة فى دمشق فى آخر القرن السابع الميلادى وإنه تلقاه عن فارسى يسمى سنبويه (Sinbūya) الذى قتله عبدالملك بن مروان. وفى رواية أخرى الحجاج بن يوسف [١]

عقائد المعتزلة

تتكون عقيدة المعتزلة من خمسة أصول : التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

التوحيد

أما القول بالتوحيد ، وهو الأصل الأول ، فقد ذهب المعتزلة من بصريين وبغداديين وغيرهم أن الله عز وجل لا كالأشياء وأنه ليس بجسم ولا عَرَض ، ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر ؛ وأن شيئاً من الحواس لا يدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة . وأنه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار ، بل هو الذى لم يزل ولا زمان ولا مكان ، ولا نهاية ولا حد . وأنه الخالق للأشياء المبدع لها لا من شىء ، وأنه القديم ، وأن ماسواه محدث .

العدل

وأما القول بالعدل ، وهو الأصل الثانى ، فمعناه أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كره ، وأنه ولى كل حسنة أمر بها ، برىء من كل سيئة نهى عنها . لم يكلفهم مالا يطيقونه ، ولا أراد منهم مالا يقدرون عليه . وأن أحداً لا يقدر على قَبْض ولا بَسط إلا بقدرة الله التى أعطاهم إياها . وهو المالك لها دونهم يُفنيها إذا شاء ويُبقيها إذا شاء . ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطراريا عن معصيته ، ولكان

(١) راجع Browne, Lit. Hist of Persia, vol. II. pp. 279—281.

على ذلك قادراً . غـــير أنه لا يفعل ، إذ كان فى ذلك رفعٌ للمحنة وإزالة للبلوى .

الوعد والوعيد

وأما القول بالوعيد ، وهو الأصل الثالث ، فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة ، وأنه لصادق فى وعده ووعيده ، لا مبدل لكلماته .

المنزلة بين المنزلتين

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو الأصل الرابع ، فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر ، بل يسمى فاسقاً على حسب ما ورد التوفيق بتسميته ، وأجمع أهل الصلاة على فسوقه .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو الأصل الخامس ، فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم فى ذلك بالسيف فما دونه ، وإن كان كالجهاد . ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق (١) .

ويقول المعتزلة أيضا بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما شرع ، وأن للشىء صفة فيه جعلته حسنا أو قبيحا . ويشبه هذا المذهب من بعض الوجوه المذهب الذى ساد فى أوربا فى عصر النهضة وهو مذهب العقليين Rationalistes . ومن ثَمّ سماهم الاستاذ نيكلسون بذلك الاسم فى كتابه تاريخ العرب الأدبى (٢).

يقول الأستاذ براون فى كتابه « تاريخ الفرس الأدبى » (٣) : القدرية هم أشياع حرية الارادة أو المعتزلة (المنشقين) التى يقول عنها الدكتور شتينر (Steiner) بأن فكرتهم الأصلية هى « اقامة البرهان العقلى والحجج الفكرية على عكس تعاليم أهل السنة . وقد سموا أنفسهم

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩١

(٢) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 224

(٣) Browne, Lit. Hist. of Persia, p. 281

« أهل العدل والتوحيد » أو « انصار العدل الالهى والتوحيد الالهى »(١).

وأما من حيث العدل الالهى ، فلأن عقيدة أهل السنة فى القضاء والقدر تنتهى بأن الله يعاقب الانسان على ذنوب لامناص له من ارتكابها ؛ لأنها مقدّرة عليه من سلطان لا قِبل له بمقاومته . وبذلك جعلت المولى سبحانه وتعالى مستبدا لارحمة عنده . وأما من حيث التوحيد الالهى فانهم يقولون ان أهل السنة الذين يذهبون إلى أن القرآن قديم ومساو لله فى الوجود ، والذين يعتقدون بان الصفات الالهية منفصلة أو يمكن انفصالها عن الذات الالهية ، فهذا فى الحقيقة قول بالتعدد أو الإشراك

آراء المعتزلة السياسية

ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها فى السياسة على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة ؛ الا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة فتكلمت فى الامامة وشرط الامام . يقول المسعودى (٢) : « يذهب المعتزلة إلى أن الامامة اختيار من الامة ؛ وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وان اختيار ذلك مفوّض الى الأمة تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه سواء كان قريشا أو غيره من أهل ملة الاسلام وأهل العدالة والايمان . ولم يراعوا فى ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك . والذى ذهب إلى أن الامامة قد تجوز فى قريش وغيرهم من الناس هو

---

(١) معنى كونهم أنصار العدل أنهم يقولون بحرية الارادة وأن الانسان مختار فى أفعاله . ولذلك كان من العدل أن يكون مسئولا عن نتائج عمله ، بخلاف ماذهب اليه أهل السنة من قولهم انه لايقع فى ملك الله الا مايريد . وهذا فى ظاهره القول بالجبر . ومن ثم كان من الظلم — على ما ذهب اليه المعتزلة — أن يعاقب الانسان على عمل ساقه اليه القدر الالهى . والكلام على ذلك مستفيض فى كتب التوحيد . وأما معنى انهم أهل التوحيد ، فانهم ذهبوا الى نفى صفات المعانى والمعنوية ، لانهم يرون القول بها تعددا للقدماء ، وهذا ينافى القول بالتوحيد . وذلك خلافا لما ذهب اليه أهل السنة من اثبات تلك الصفات . وهذا قول بالتعدد فى نظر المعتزلة .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ — ١٩٢

المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن جنى .
ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الاباضية وغيرهم إلا النجدات من فرق الخوارج ؛ فزعموا أن الامامة غير واجب نصبها . ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر ؛ إلا أنهم قالوا إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج إلى إمام . وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها، منها قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو أن سالما حى ماداخلنى فيه الظنون ، وذلك حين فوض الأمر إلى أهل الشورى . فلو لم يعلم عمر أن الامامة جائزة فى سائر المؤمنين لم يطلق هذا القول ولم يتأسف على موت سالم مولى أبى حذيفة .
وقد صح بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة منها قوله : اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع . وقد قال عزوجل (إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتقَاكُمْ) »

علاقة المعتزلة بالشيعة

وإلى القارىء طرفا مما كتبه جولتزيهر عن علاقة المعتزلة بالشيعة :
« ومما تجب ملاحظته أن طوائف الشيعة رغم تشعبها قد سادت فيها مبادىء المعتزلة فى كثير من المسائل، ولاسيما لم يتأثر منها بعقيدة الامام أو المهدى . فقد استطاع فقهاء الشيعة وعلماء التوحيد منهم أن يستفيدوا من أفكار المعتزلة ويستخدموها لتدعيم عقائدهم ومذاهبهم الخاصة . يبين لنا ذلك أجلى بيان أن الشيعة قد آثروا أن يسموا أنفسهم أهل العدل ؛ وهذا — كما رأينا — هو نفس التسمية التى تسمى بها المعتزلة .

ويظهر التشابه بين المعتزلة والشيعة فيما يدعيه الشيعة أن عليا والأئمة من آل بيته هم أول من قالوا بحرية الارادة ، وأن المعتزلة لم يزيدوا فى ذلك شيئاً أكثر من شرحهم تلك العقيدة التى وضع أساسها الأئمة من بيت على .

ومن أجل ذلك نرى فى كتبهم التى كتبوها فى علم الكلام تلك الظاهرة الغريبة، وهى أنهم كانوا يطلقون لقب الأئمة على فقهاء المعتزلة

حين يعرضون لشرح عقائدهم ، ذلك اللقب الذى كانت تطلقه الشيعة على فقائهم ، والذى أخذوه عن على رضى الله عنه ، وهو المؤسس الأول لذلك المذهب فى رأيهم .

ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيـــدة الشيعة الرئيسية ومـــذهب الاعتزال ما نلاحظه من تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة فى عقيدتهم: ان الامام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد . وهذا هو بعينه عقيـــدة المعتزلة . والزيدية أكثر شبهاً بالمعتزلة فى ذلك من الامامية ، إذ تتفق مع المعتزلة فضلا عن ذلك فى كثير من النقط والتفاصيل . ولا يزال الاعتزال ظاهراً فى أدب الشيعة حتى اليوم ؛ ومن ثم كان من الخطأ البين — سواء من وجهة التاريخ الدينى أو من حيث التاريخ الأدبى - أن نظن أن انتصار مذهب الأشاعرة المؤزر على مذهب المعتزلة قد قضى عليه القضاء الأخير وأنه لم يبق له وجود بعد ذلك .

وقد بلغ من شدة التشابه بين المعتزلة والشيعة أن اختلط الأمر على المؤرخين ، فلم يميزوا بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة فى التوحيد ، وذلك لانقسامها الى قسمين رئيسيين :

١ - قسم يحتوى على الفصول التى تبحث فى التوحيد .

٢ - والقسم الآخر يتضمن البحوث المتعلقة بالعدل .

على أن كتب الشيعة لم تخل من ذكر نظرية الامام وعصمته ، وهى العلاقة الوحيدة التى كان يميز بها المؤرخون تلك الكتب عن المعتزلة ويعرفونها بها .

على أنه يجمل بنا ألا نهمل القول بأن النّظام — وهو من كبار أئمة المعتزلة — كان يوافق الشيعة فيما يتعلق بتلك النقط الأخيرة (وهى نظرية الامام وعصمته) . ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم البراهين التى استدل بها الشيعيون على نظرية الامامة قد قامت على أسس من مذهب

الاعتزال البحت . فالقول بضرورة وجود إمام فى كل عصر ، ووجوب عصمة ذلك الامام عن الخطأ يتفق تماما مع رأى المعتزلة وقولهم بوجوب ارسال الرسل بما أن الله حكيم وعادل . ومن ثم يقول الشيعة : «إن الله يجب عليه أن يبعث للناس فى كل عصر مرشدا وهاديا معصوما من الخطأ . وهكذا نرى الشيعة تقيم قواعدها الرئيسية على نظريات عقائد المعتزلة [1] »

علاقة المعتزلة بالخوارج

تتفق المعتزلة مع الخوارج فى القول بأن الامامة تجوز فى قريش وفى غيرهم من الناس ، كما تتفق معهم أيضاً فى القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين ، كما يفهم ذلك من قول الخوارج «لا حكم إلا لله» . إلا أن المعتزلة لا تجيز هذا إلا فى حالة واحدة وهى : أن يكون جميع المسلمين عدولا ليس بينهم فاسق . ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعـــة للخروج على بنى أمية وإثارة الفتن والاضطرابات ، ولاسيما فى افريقية وبلاد المغرب ، تلك المبادىء التى كانت تتفق فى كثير من المسائل ـ وبخاصة فيما يتعلق منها بالعقيدة الأساسية ـ مع مول الخوارج [2].

اضطراب حبل بنى أمية

وفى عهد يزيد بن الوليد ابتدأ حبل بنى أمية فى الاضطراب . ولما مات بويع أخوه ابراهيم بيعة لم تأت بطائل ؛ فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالامارة ، وناس ربما لا يسلمون عليه بواحدة منهما » . ولم يلبث طويلا حتى سار إليه مروان بن محمد بن مروان وخلعه . وهرب ابراهيم من دمشق فظفر به مروان فقتله وصلبه وقتل من مالأه ، ومن بينهم

(١) Goldziher, Le Dogme et la Loi de l'Islame, (tans· by Dr. Félix Arin), pp. 188—189.

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ ؟

Goldziher, Le Dogme et la Loi de l'Islam, p. 189.

عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسرى. عند ذلك اشتعلت نار العصبية بين النزارية أو المضرية ، وبين القحطانية ، وتحزبت القبائل وثارت العصبية فى البدو والحضر ، وتعصب مروان بن محمد لنزار على اليمن ، وانصرف اليمن عنه ومالوا الى الدعوة العباسية .(١)

مروان بن محمد

١٢٧ — ١٣٢ هـ ؟ ٧٤٤ — ٧٤٩ م

بويع مروان بدمشق فى شهر صفر سنة ١٢٧ هـ ؛ وبقى فى الخلافة إلى أن قتل فى المحرم سنة ١٣٢ هـ بعد أن مكث بها خمس سنين وثلاثة أشهر . وكان يلقب بالحمار « لأنه كان لايجف له لبد فى محاربة الخارجين عليه ، فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكاره الحرب . ولقب الجعدى نسبة الى مؤدبه الجعد بن درهم » (٢) . وكان يكنى أبا عبد الملك (٣) . وقد اشتهر بالشجاعة والدهاء والمكر .

قيام الفتن

ولما ولى الخلافة ثارت الفتن والقلاقل ؛ فنشطت الشيعة فى بث دعوتها التى أجهزت على البيت الأموى ، وظهرت عقيدة المهدى التى كان لها أثر كبير فى سقوط الدولة الأموية

وقد تفاقم فى عهد مروان شر الخوارج واشتد أمر أبى مسلم . فقد انتهز الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى فرصة انقسام حزب بنى أمية على نفسه عقب قتل الوليد بن يزيد وإذكاء نار العصبية بين القبائل ، فخرج على بنى أمية وانضم إليه الخوارج . وقد زاد الحالة سوءاً عزل مروان

(١) الفخرى ص ١٢٣ ؟ المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٩٣

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٦٩ ؟ والفخرى ص ١٢٣

(٣) الطبرى جـ ٩ ص ١٣٧ ؟ والمسعودى جـ٢ ص ١٩٧

ابن محمد عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عن العراق وتوليته النضر بن سعيد الحريشي؛ فامتنع عبد الله بالحيرة، فسار إليه النضر وانضمت قيس الى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وطالبوا مروان بدم الوليد — وكانت أمه من قيس — كما انضمت إليه اليمنية لاشتراكهم في قتل الوليد.

الخوارج

فلما رأى الضحاك ذلك الخلاف زحف على الكوفة سنة ١٢٧هـ؛ فانضم اليه عبد الله بن عمر وسليمان بن هشام. وهكذا ظهر الانقسام بين أفراد البيت الأموى ظهوراً بينا، وأخذ بعضهم ينضم إلى الثائرين ليكيد للفريق الآخر.

وقد اشتد خطر الضحاك فى الكوفة وبلغ أنصاره زهاء مائة ألف، وغدا يهدد سلامة الدولة الأموية. وسرعان ماغادر الكوفة إلى الموصل ثم إلى نصيبين. فكتب مروان إلى ابنه عبدالله أن يسير اليه، فحاصره فى نصيبين؛ ولحق به مروان وقضى عليه وهزم أتباعه عند ماردين سنة ١٢٨ هـ (١)

أبو حمزة الخارجى

على أن قتل الضحاك لم يضع حداً لثورات الخوارج فى العراق. فقد ظهر زعيم جديد هو أبو حمزة الخارجى؛ وكان يفد إلى مكة كل سنة لتأليب الناس على مروان وحثهم على قتاله، فتبعه كثير منهم. وبلغ من اشتداد أمره أنه جاء إلى عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق (سنة ١٢٨ هـ) وقال له: «اسمع كلاماً حسنًا. إنى أراك تدعو إلى حق؛ فانطلق معى فانى رجل مطاع فى قومى». فخرج معه حتى أتيا حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا الى قتال مروان وآله. (٢)

وفى سنة ١٢٩ هـ خرج أبو حمزة إلى مكة فى سبعمائة رجل من

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٣٥ ؟ ١٤٠ - ١٤١

(٢) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٤١

قبل عبدالله بن يحيى ، ففزع الناس حين رأوهم . وكان على مكة والمدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، فراسلهم وطلب منهم الهدنة حتى ينتهى موسم الحج .

فلما انتهى الحج سار عبد الواحد إلى المدينة ، وزاد أهلها فى أعطياتهم ، وأمر عليهم عبدالعزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان (١) ، فخرج لقتال أبى حمزة . فلما كان بالعقيق جاءته رسل أبى حمزة يقولون « إننا والله مالنا بقتالكم حاجة . دعونا نمضى الى عدونا » ، فأبى ذلك عليهم وأصر على الحرب وسار حتى نزل قدَيْدا ، فأعمل فيهم أصحاب أبى حمزة السيف وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

دخول أبى حمزة المدينة

ولما اتصل نبأ هذه الهزيمة بعبد الواحد هرب إلى الشام ؛ فدخل أبو حمزة الخارجى المدينة فى صفر سنة ١٣٠ هـ ، وأحسن السيرة فى أهلها ؛ وأقام بها ثلاثة أشهر . ثم سار إلى الشام ، فأرسل إليه مروان بن محمد أربعة آلاف مقاتل بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى ؛ فالتقوا مع الخوارج فى وادى القُرى حيث تقاتل الجيشان ، فقُتل أبو حمزة وكثير من أصحابه . ثم سار عبد الملك إلى المدينة ثم إلى اليمن ، وهزم عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق الذى نصبه أبو حمزة خليفة ، وقتله وكثيرا من أتباعه سنة ١٣٠ هـ (٢) .

وبذلك قضى مروان بن محمد على أبى حمزة وأتباعه كما قضى على الخوارج الذين ظهروا قبله . وكانت ثورة أبى حمزة آخر ثورات الخوارج فى عهد بنى أمية بعد أن حاولوا قلب نظام الحكم فيها فلم يفلحوا .

ويرجع إلى مروان الفضل فى القضاء على هذا الحزب : فانه لم يشغله

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٥٧

(٢) ابن الأثير جـ ٥ ص ١٥٨ ؟ والطبرى جـ ٩ ص ١١٠

تفكك عرى مملكته عن الضرب على أيدى الخوارج الذين عاثوا فى الأرض ردحا من الزمن .

العلويون

وكان من بين الخارجين على مروان عبد الله بن معاوية بن عبدالله ابن جعفر بن أبى طالب الذى ادعى الخلافة ونصره أهل الكوفة وبايعوه . وقد سار عبد الله إلى المدائن وعبر دجلة واستولى على حلوان، ثم توجه إلى بلاد العجم ، فاستولى على همذان وأصفهان والرى ، وبقى على ذلك مدة . ولما قويت شوكته سار اليه أبو مسلم سنة ١٢٨هـ وقتله .

اشتداد أمر أبى مسلم

اشتد أمر أبى مسلم بعد أن أوقع بين النزارية واليمنية فى خراسان ؛ وتمكن من هزيمة نصر بن سيار أمير هذه البلاد . ولما استولى عليها سار إلى العراق ودخل الكوفة وكان بها بنو العباس ـ وقد فروا من حران بعد مقتل ابرهيم الامام ـ وسلم على أبى العباس السفاح بالخلافة ؛ فندب أبو العباس عمه عبد الله بن على لقتال مروان بن محمد ، فلقيه بالزاب (أحد فروع دجلة) . وكان مع مروان مائة وعشرون ألفا ؛ فاوقع به عبد الله ؛ فعبر دجلة ومضى إلى الموصل ، فقطع أهلها الجسر ومنعوه العبور . فسار إلى حران ، فدمشق ، فمصر ؛ فتبعه عبد الله بن على وقتله فى بوصير بالفيوم . وانقضت بذلك الدولة الأموية وقامت على انقاضها الدولة العباسية[١]

(١) الفخرى ص ١٢٣ — ١٢٤

أسباب سقوط الدولة الأموية :

١ — جعل ولاية العهد لاثنين :

كان من بين الأسباب التى أثرت فى اضمحلال البيت الأموى وذهاب ريحه ولاية العهد لاثنين يلى أحدهما الآخر . فقد بذر هذا بذور الشقاق والمنافسة بين أفراد ذلك البيت وأورث بينهم الحقد والبغضاء . ولا غرو فإنه لم يكد يتم الأمر لأولهما حتى يعمل على إقصاء الثانى من ولاية العهد وإحلال أحد بنيه مكانه ، مما أوغر صدور بعضهم على بعض . ولم يقتصر هذا النزاع بين أفراد هذا البيت بل تعداهم إلى القواد والعمال . فإنه لم يكد يتم الأمر لثانيهما حتى كان ينكل بمن ظاهر خصمه من القواد والعمال وساعده على إقصائه من ولاية العهد .

مروان

وأول من سَنَّ هذه السنة مروان بن الحكم ؛ فقد ولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ولم يأبه بما كان فى مؤتمر الجابية وما أجمعوا عليه حينذاك من البيعة بعده لخالد بن يزيد وعمرو بن سعيد . وكان من أثر ذلك خروج عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك وقضاء الأخير عليه .

عبد الملك

وقد اتبع عبد الملك سنة أبيه مروان ، فقد أراد خلع أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد وتولية ابنيه الوليد ثم سليمان ، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون ما كانت تحدثه به نفسه من خلعه . أجل ! لم يمنعه ذلك من ارتكاب تلك الغلطة التى أورثت البغض والعداوة بين الأخوين ، بل وتعدتهما إلى القواد والعمال . فإنه لما ولى الوليد بن عبد الملك الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها لابنه عبد العزيز ، وكتب

الوليد

إلى العمال بذلك . فأجابه الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق [١] ، وقتيبة بن مسلم عامل خراسان ، ومحمد بن القاسم والى السند . وأجزل الوليد العطاء للشعراء للإشادة بفضل عبد العزيز . ولم يجن الوليد من وراء ذلك سوى الكراهة والبغضاء بينه وبين أخيه . فلما ولى سليمان الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد انتقم ممن كان لهم ضلع فى خلعه . وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريباً وأضحت خطراً على الدولة . فقد كان الخليفة ينتقم من القواد والعمال لمجرد اتهامهم بممالأة الخليفة السابق على خلعه .

سليمان

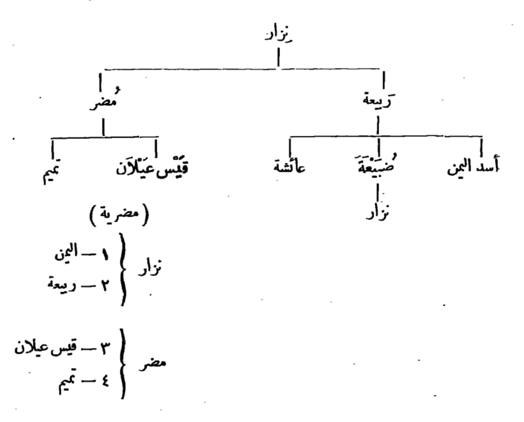
هكذا بدأ سليمان عهده بالانتقام من كبار القواد وخيرة العمال والتشفى منهم . وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل الوليد . على ان ذلك لم يصرف سليمان عن الانتقام من أهل بيته ، فقد أمر يزيد ابن المهلب — وهو عدو الحجاج اللدود — وصالح بن عبدالرحمن أن يذيقا آل الحجاج أشد صنوف العذاب . كذلك انتقم سليمان من محمد ابن القاسم ذلك القائد العظيم الذى بسط نفوذ الدولة على الهند والسند . وكذلك كان نصيب قتيبة بن مسلم .

٢ — ظهور روح العصبية :

بعد وفاة يزيد ابن معاوية

بعثت روح العصبية بين القبائل العربية عقب وفاة يزيد بن معاوية . غير أنها لم تكن من القوة والشدة بحيث تؤثر فى انحلال الحزب الأموى ؛ فقد ظل حافظا لكيانه كحزب سياسى يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى إلى أن كانت خلافة عمر بن عبدالعزيز التى تعتبر فترة انتقال بين حال القوة والتماسك وحال الضعف والتفكك الذى اعترى ذلك الحزب . فقد كان عمر صالحا عادلا قضى فترة خلافته فى

(١) الطبرى ج ٨ ص ٩٩



إصلاح ماأفسده من سبقه من خلفاء بنى أميـة حتى نال رضاء جميع العناصر الثورية، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يول واليا إلا لكفاءته وعدالته سواء كان من كلب أو من قيس؛ فسكنت فى عهده العواصف التى كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحها.

بين مضر واليمن

فلمـا توفى عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك، فاستقبل يزيد بخلافته فتنة كان لها أسوأ الأثر فى حزب بنى أمية، وتعتبر فى الحقيقة نضالا بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن. ولمـا كان الخليفة من عرب الشمال فانه لم يتورع عن خوض غمار هذه الفتنة، وتعرف هـذه الفتنة بفتنة يزيد بن المهلب الذى فر من سجن عمر بن عبد العزيز وخرج يريد البصرة خوفا من يزيد بن عبد الملك.

بين يزيد بن عبد الملك ويزيد بن المهلب

وقد اختلف المؤرخون فى سبب العداوة بين يزيد بن عبد الملك

ويزيد بن المهلب . فالطبرى (١) وابن الأثير (٢) يذكران أن السبب هو أن يزيد بن المهلب قد تولى تعذيب آل الحجاج أصهار يزيد بن عبد الملك ، إذ كان متزوجا أم الحجاج ابنة محمد بن يوسف الثقفى . وكانت أم الحجاج ممن أخذهم يزيد بن المهلب فشفع فيها زوجها ؛ فلم يقبل ابن المهلب شفاعته . فقال له يزيد بن عبد الملك . «أما والله لئن وليتُ من الأمر شيئا لأقطعن منك عضوا»، فقال له ابن المهلب: «وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف» . ويظهر لنا أن ماذكره الطبرى وابن الأثير معقول ، ويرجح فى نظرنا أن يكون ذلك سبب تلك العداوة بين الرجلين .

وقد ذكر ابن الأثير سببا لا يقل عن الأول فى قوته ووجاهته ، وهو أن ابن المهلب خرج يوما من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية ، فمر بيزيد بن عبد الملك وهو إلى جانب عمر بن عبد العزيز . فقال يزيد « قبح الله الدنيا لوددت أن مثقال الغالية بألف دينار فلا ينالها إلا كل شريف » . فسمع قوله ابن المهلب فقال له « بل وددت أن الغالية لا تكون إلا فى جبهة الاسد فلا ينالها إلا مثلى » . فقال له يزيد لئن وليت يوما لأقتلنك » ، فقال له ابن الملهب : « والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حى لاضربن وجهك بخمسين ألف سيف »

قتل ابن المهلب

فر ابن المهلب من السجن ـ كما تقدم ـ ولحق بالبصرة حيث انضم إليه أهل بيته وكثير من يمنية العراق ؛ فغلب على البصرة وما جاورها ، واشتد خطره وأصبح يهدد كيان الدولة ، وأضحى جيشه يربو على مائة ألف مقاتل . فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشا عظيما بقيادة أخيه مسلمة . فتقابل الجيشان عند قرية يقال لها العقر بجوار البصرة . واستمر

---

(١) ج ٨ ص ١٣٦ (٢) ج ٥ ص ٢٣

القتال بين الفريقين ثمانية أيام ، قُتل فى خلالها كثير من الجند وانتهت الحرب بقتل يزيد بن المهلب .

القضاء على بيت المهلب

كانت هذه الفتنة سبباً فى القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبى صفرة . فقد قتل بعضهم فى الحرب على حين حمل البعض الآخر بالأغلال الى يزيد بن عبد الملك ؛ فلم تأخذه الشفقة ولم يلتفت الى شفاعة كُثَيِّر عزة فيهم إذ أنشده

حَكيمٌ إذا مانالَ عاقب مجملا   أشد العقاب أو عَفا لم يثرب
فعفواً أميرَ المؤمنين وحسبة   فما تأته من صالح لك يكتب (١)

فأجابه إجابة تنم عن الحقد والعداوة « هيهات يا أبا صخر لا سبيل الى ذلك » ، وأمر بهم فقتلوا جميعا .

أثر بيت المهلب فى الدولة الأموية

هذا وقد درجت أسرة المهلب بن أبى صفرة فى خدمة بنى أمية ، فأبلى رئيسها المهلب ابن صفرة وأبناؤه فى حرب الأزارقة بلاء حسنا . كما حارب أهل خراسان والخزر والترك . وخلفه أبناؤه ، فكانوا أمثاله فى النبل والفضل ؛ فمدحهم الشعراء وتغنى بفضلهم الركبان ، وقصدهم الشعراء وذووا الحاجات ، فأجزلوا لهم العطاء ووصلوهم بالصلات الجمة ؛ فعظم أمرهم وبعد صيتهم ونبه شأنهم ، فكانوا غرة فى جبين الدولة الأموية . وكانوا كالبرامكة فى دولة بنى العباس ، كما كانوا معقل اليمنيين لأنهم السبب فى رفعتهم . لذلك لا ندهش إذا انحاز إليهم العنصر اليمنى فى تلك الفتنة . وكان القضاء عليهم سبباً فى اشعال نار العصبية فى قلوب ذلك العنصر وحقده على الدولة . وقد أصبح العنصر اليمنى منذ ذلك الوقت خطراً يهدد كيان حزب بنى أمية . وقد زج الخليفة ـ لسوء الحظ ـ بنفسه فى تلك العصبية التى عادت سيرتها الأولى يوم مرج راهط . وقد

سخط اليمنية على البيت الأموى

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ٣٥

أخذ الخلفاء يعملون على توسيع مسافة الخلف بين هذين العنصرين اللذين كانا عصب دولتهم ومصدر قوتهم. فنراهم ينضمون إلى القيسية حينا وإلى اليمنية حينا آخر.

انتصار يزيد للقيسية

كان طبيعيا بعد هذه الحادثة أن يأخذ يزيد جانب القيسيين ، فولى أخاه مسلمة الذى قضى على ثورة ابن المهلب على المشرق ، ثم ولى عمر ابن هبيرة وهو قيسى . وقد اصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية ، وأصبح العنصر اليمنى ضعيفا لا يملك من الأمر شيئا .

هشام بن عبد الملك انحيازه الى اليمنية

ولما توفى يزيد وتولى هشام بن عبد الملك الخلافة رأى أن القيسية قد اشتد أمرها وعلت قوتها ، فخاف من ارتفاع شأنها وازدياد نفوذها على الدولة ، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية كى يعيد التوازن بين العنصرين اليمنى والقيسى ، فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين : فولى خالد بن عبد الله القسرى على العراق وولى أخاه أسدا على خراسان . وبذلك أخذ العنصر اليمنى يعلو شأنه ويستعيد قوته بعد أن ضعف أمره بعد القضاء على المهلب ، بينما أخذ العنصر الآخر فى الاضمحلال . وقد تعصب خالد وأخوه أسد لعنصرهم فأخذوا ينتقمون من المضريين [١] .

انضمامه الى المضرية

على أن هشاما لم يتبع سياسة ثابتة بازاء القبائل المختلفة . فانه بعد أن انحاز الى جانب اليمنيين حتى رجحت كفتهم العنصر الآخر تحول عنهم وانضم إلى المضريين وولى منهم العمال : فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ونصر بن سيار خراسان ، وكذلك فعل فى الأندلس . ولم يكتف بذلك ، بل أطلق يده فى تعذيب خالد بن عبد الله القسرى زعيم اليمنية

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٩٢ — ١٩٣

مقتل خالد القسرى زعيم اليمنية

وكان مقتل خالد بن عبد الله من أقوى الأسباب التى عجلت بسقوط حزب بنى أمية . فإن اليمنية ، الذين لم ينسوا للدولة قضاءها على آل المهلب ، قد فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسرى لاتهامه بموالاة العلويين واغداقه الأموال عليهم حتى خرج زيد بن على زين العابدين ، كما اتهم أيضا بالزندقة والالحاد ، فعادت القلاقل سيرتها الأولى وعمل اليمنية على التخلص من سيادة الأمويين

كان خالد بن عبد الله أمير العراق من قبل هشام بن عبد الملك . وقد مكث خمس عشرة سنة يلى أمور تلك البلاد . ولكن هشاما كان متقلبا فى أحواله كما تقدم .

وبعد أن قتل خالد لزم الوليد بن يزيد بن عبد الملك جانب المضريين ـ لأن أمه كانت منهم ـ وأقصى العنصر اليمنى ؛ فأثار هذا العمل عوامل السخط والغضب فى نفوس اليمنية على الوليد ، لأن عمله كان بمثابة تحد لهم ؛ إذ قتل زعيمهم وأقصاهم عن الأعمال . فلا عجب إذا عمل اليمنيون على التخلص من الوليد انتقاما منه لما ارتكبه ضدهم وأملا فى أن تعود لهم السيطرة فى الدولة ؛ فأخذوا يجمعون شملهم ويدبرون المكائد لقتله ، كما أخذ شعراؤهم يلهبون شعورهم ويستفزونهم بروائع القول للانتقام من الوليد . وكان من حسن حظهم أن عامة الناس كرهوا الوليد فانتهز اليمنيون هذه الفرصة ، وثاروا ضده ، وانضم اليهم يزيد بن الوليد ابن عبد الملك ، وكان يظهر التنسك والتواضع ؛ فوثبوا على الوليد وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ [1] وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك من بعده . وكان قتله نتيجة للمنافسة التى اشتدت بين أفراد البيت الأموى والعصبية التى أشعل نارها خلفاء بنى أمية بسوء تصرفهم وانحيازهم لفريق دون آخر .

الوليد

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١١٥

يزيد بن الوليد

لم يضع قتلُ الوليد وقيام يزيد بن الوليد بأمر الخلافة حداً للشقاق الذي قام ، سواء أكان بين أفراد البيت الأموى أم بين العنصرين اليمنى والمضرى ؛ بل كان ذلك سببا حافزا لاشتداد النزاع . فانه لم يكد يزيد يعتلى عرش الخلافة حتى أخذ بسيرة خلفائه ، فانضم إلى اليمنيين ولزم جانبهم ، وأخذ يولى العمال منهم لأنهم هم الذين ساعدوه على نيل الخلافة

انضمامه الى اليمنية

وأطلق اليمنيون يدهم فى تعذيب المضريين ، فأثار ذلك ثائرتهم فأشعلوا نار الثورة فى حمص ، وانضم اليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وغيره من البيت الأموى ؛ كما ثاروا فى فلسطين بزعامة يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وحذا أهل الأردن حذوهم بزعامة محمد بن عبد الملك . غير أن يزيد بن الوليد استطاع بمساعدة اليمنيين أن يتغلب على هؤلاء جميعا ، فأخضعهم وعمد الى زعمائهم من أهل بيته وزجهم فى أعماق السجون. (١)

من هذا يتبين مبلغ الاختلاف فى البيت الأموى ، اذ أصبح كل منهم يكيد للآخر ، وتقطعت بينهم أسباب المودة وأصبح لكل شخص منهم شيعة تؤيده عسى أن تصل به إلى عرش الخلافة فيغدق عليهم العطاء ، فانقسموا على أنفسهم وصاروا فرقا مما أودى بدولتهم

لم يلبث يزيد أن عاجلته المنية سنة ١٢٦ هـ بعد أن حكم ستة أشهر ؛ فولى الخلافة بعده أخوه ابراهيم . وكان يزيد قد عهد له بالخلافة . غير أن الحال قد تغير وفقدت الخلافة ما كان لها من الهيبة فى نفوس المسلمين ؛ فلم يلق ابراهيم من الاحترام الذى كان لمن سبقه من الخلفاء . فكان الناس تارة يسلمون عليه بالخلافة ، وطورا بالامارة ، وتارة لا يسلمون عليه بواحدة منها ، وظل على هذه الحال إلى أن جاء مروان بن محمد عامل الجزيرة وأرمينية فخلعه منها . (٢)

---

(١) ابن الاثير جـ ٥ ص ١١٧ — ١١٨

(٢) ابن الاثير جـ ٥ ص ١٢٥

مروان بن محمد

سار مروان بجنوده من الجزيرة وأقبل يريد الشام مطالبا بدم الوليد ابن يزيد ، كما تظاهر بعزمه على إرجاع الخلافة إلى ابنيه . وسرعان ما انضمت إليه القيسية ليكيدوا لليمنية التى تولت قتل الوليد ؛ فأخذ ابراهيم بحشد الجيوش لقتال مروان بقيادة بعض القواد من أهل بيته ومن اليمنيين . ولكن مروان كان قائداً شجاعا حنكته الحروب مع الخزر والترك ، فاستطاع بحزمه أن يتغلب على جنود ابراهيم ؛ فهزمهم شر هزيمة ودخل الشام ، ففر ابراهيم هو وكثير من أنصاره .

وكان مروان يريد أن تكون الخلافة فى ولد الوليد . ولكن اليمنيين عمدوا إلى ابنى الوليد فقتلوهما فى السجن خوفا من أن يليا الخلافة فيقتصّان منهم . فلما قتلا شهد محمد السفيانى بأنهما جعلا الخلافة بعدهما لمروان (١) ، ثم قال السفيانى لمروان : ابسط يدك أبايعك . فبايعه وتبعه أهل الشام . وبذلك أصبح مروان خليفة المسلمين (سنة ١٢٧هـ) . وقد ثارت روح العصبية فى جميع أنحاء الدولة فى الوقت الذى تقوض فيه بناء البيت الأموى وأشرف على الزوال .

تعصبه للقيسية

على أن مروان قد سار سيرة سلفه؛ فتعصب للقيسية وولى منهم العمال . فثارت اليمنية وأحدثوا القلاقل والاضطراب ، لأن مروان كان يطالبهم بدم الوليد الذى قتلوه انتقاما لخالد بن عبد الله القسرى . فانتقض أهل حمص بزعامة ثابت بن نعيم ، وانضم إليهم أهل تدمر برياسة الأصبغ ابن ذؤالة الكلبى . غير أن مروان استطاع أن يتغلب عليهم ويهزمهم شر هزيمة (٢)

ثورة يزيد بن خالد القسرى

كما ثار يزيد بن خالد القسرى بدمشق وانضمت إليه اليمنية ، فأرسل إليه مروان جيشاً هزمهم وقتل يزيد ؛ فخلصت دمشق له . وحذت اليمنية حذوهم فى فلسطين فأرسل اليهم مروان جيشاً قضى عليهم . (٣).

---

(١) ، (٢) ، (٣) ابن الاثير جـ ٥ ص ١٣١

لم يكد الأمر يستتب لمروان فى الشام حتى خرج عليه بها سليمان ابن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها الى خلع مروان ؛ فانضمت اليه اليمنية . فسار إليه مروان بنفسه وهزمه بعد حروب طويلة ؛ وفر سليمان الى العراق والتحق بالخوارج ليكيد لمروان ، كما انضم اليهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز .

هذه هى حال العصبية فى الشام . وقد ساعد على قيام الثورة فيها أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمنى . وربما كان ذلك هو السبب فى أن مروان لم يتخذها مقر ملكه . وانتقل إلى الجزيرة اذ كان أكثر من فيها من القيسية الذين كانوا عماد دولته .

العصبية فى العراق

وأما العراق فان الحالة فيه لم تكن أحسن منها فى الشام ؛ فقد اشتعلت نار العصبية فى هذه البلاد حتى ظهر الضحاك بن قيس الخارجى ، فاستولى عليه كما استولى فريق من الخوارج على اليمن والحجاز بقيادة المختار بن أبى عوف (١)

وهكذا أصبحت البلاد كلها مرتعاً للفتن والاضطراب . وقد شغل اخماد هذه الفتن مروان عن أن يتنبه إلى خراسان وما يجرى فيها من بث الدعوة العباسية التى اشتد أمرها وعظم خطرها ؛ فلم يلبث أن باغتته الرايات السوداء من خراسان ، فطاردته وقضت على جيشه ، ففر إلى مصر حيث أدركه عبدالله بن على العباسى ثم أخوه الذى قتله صالح سنة ١٣٢ هـ . ويعتبر القضاء على بنى أمية قضاء على العرب . إذ كان الأمويون يعتمدون على العرب دون سواهم .

٣ — انغماس بعض الخلفاء فى البذخ والترف :

كان لانصراف بعض خلفاء بنى أمية إلى حياة البذخ والترف أثر

(١) ابن الاثير جـ ٥ ص ١٣٥

يزيد بن معاوية

كبير فى سقوط دولتهم. فقد أخذوا ذلك عن البلاط البيزنطى فشغلهم عن تدبير أمور الدولة . فقد اشتهر يزيد بن معاوية بحبه للهو . ويقول المسعودى فى كتابه مروج الذهب (١) : كان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وفهود ومنادمة على الشراب .

يزيد بن عبد الملك

أما يزيد بن عبد الملك فلم يكن أحسن حالا من يزيد بن معاوية . ويصف لنا صاحب كتاب البدء والتاريخ يزيد الثانى بقوله « وكان يزيد صاحب لهو وقصف وشغف بحبابة . واشتهر بذكرها ، ثم عزم على الرشد والتشبه بعمر بن عبد العزيز ؛ فخشيت حبابة على حظها منه ، فسألت الأحوص أن يعمل لها أبياتا تزين له اللهو والطرب فقال :

ألا لا تلمه اليومَ أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا

ركبتُ الصبى جهدى فمن شاء لا مَنى ومن شاء آسى فى البلاد وأسْعدا

فلما غنته بهذه الأبيات أقبل يرددها وعاد الى ما كان عليه من الشغف بها (٢)

الوليد بن يزيد بن عبد الملك

كذلك اشتهر ابنه الوليد بالمجون واللهو . وكان شاعرا محسنا له أشعار كثيرة فى العتاب والغزل (٣)

٤ — تعصب الأمويين للعرب :

الشعوبية

كانت الدولة الأموية دولة عربية لحما ودما . ومن ثم تعصب الأمويون للعرب والعربية ، وبدءوا ينظرون الى الموالى نظرة الاحتقار والازدراء، مما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوبية فى الاسلام. وكان منشأ تلك الحركة اعتقاد العرب أنهم أفضل الأمم ، وأن لغتهم

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٤

(٢) كتاب البدء والتاريخ المنسوب الى أبى زيد أحمد بن سهل البلخى وهو لمطهر بن طاهر المقدسى (طبعة باريس) ج ٦ ص ٤٨ — ٤٩

(٣) الطبرى ج ٨ ص ٢٨٨ — ٢٨٩

أرقى اللغات . وإذا نظرنا إلى حركة الشعوبية هذه ألفيناها حربا سلمية اشتبكت فيها الألسنة والأقلام اشتباكا لا يقل أثرا عن اشتباك الأسنة والرماح . وترجع هذه الحركة — على ما يظهر — الى الوقت الذى دخل فيه العرب بلاد الفرس وغيرها من بلاد الأعاجم . ولما جاء الأمويون حملوا لواء تلك الحركة طيلة خلافتهم ، وانحازوا للعرب ولم يساووا بينهم وبين الموالى . فاجمع هؤلاء أمرهم ، وثاروا على الأمويين فى عهد عبد الملك بن مروان ، فأرسل إليهم الحجاج بن يوسف الثقفى للتنكيل بهم . (١)

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر عماله بوضع الجزية عمن أسلم ، سواء كان عربيا أو غير عربى وخاصة الموالى من الفرس . وقد نجحت سياسته فى حياته ؛ ولكن سرعان ما عادت الحالة أسوأ مما كانت عليه فى عهد من أتى بعده من الخلفاء .

سخط الموالى

فلا عجب أن أثارت هذه المعاملة حنق الموالى وسخطهم على الأمويين وأخذوا يتلمسون الفرص للإيقاع بهم ، فانضموا إلى المختار ، ثم الى الخوارج ، واشتركوا فى فتنة عبد الرحمن بن الأشعث ، كما ثاروا مع يزيد بن المهلب يريدون بذلك القضاء على هذه الدولة . فلما نشط دعاة بنى العباس انضموا إلى الدعوة العباسية ، فاعتنقوا مذهب التشيع وجدوا فى نشر الدعاية لبنى العباس عسى أن ينالوا بذلك شيئا من حقوقهم المهضومة .

وقد فطن الأئمة من العباسيين الى بغض الموالى لبنى أمية ودولتهم فعولوا عليهم فى نجاح دعوتهم .

---

(١) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, pp. 280—281

٥ ـ الحركات السياسية والدينية فى عهد بنى أمية وأثرها فى سقوط دولتهم :

كانت معارضة الأحزاب لبنى أمية أولا وبالذات معارضة سياسية بحتة ؛ فقد كان اعتلاء معاوية كرسى الخلافة انتصارا للشام على بلاد العراق . وبذلك أصبحت دمشق حاضرة الامبراطورية الاسلامية بدلا من الكوفة . ومن ثم كانت أقوى الثورات وأشدها خطراً على الأمويين ـ على مايقول الاستاذ فلهوزن Wellhausen ـ [1] فى بلاد العراق أكثر منها فى أى جهة أخرى من الولايات الاسلامية ، حيث كانت تذكى نارها جمهرة المسلمين من العرب لما كان من تحول السلطان عن أهالى هذه البلاد إلى بلاد الشام .

وقد اتخذ ذلك الشعور العدائى لبنى أمية شكلا دينيا وغدا جزءاً من الدعوة الاسلامية الكبرى . لذلك لانعجب إذا سقطت الدولة الأموية لما كان يعوزها من تلك العصبية الدينية .

حزب التقاة

وكان من بين الأحزاب التى كانت حربا على حكم بنى أمية ودولتهم :

حزب التقاة من المسلمين ممن ليسوا شيعة أو خوارج . ومن بينهم الفقهاء والقراء والصحابة وأعقابهم الذين كانوا يبغضون تلك الحكومة الملكية .وقد أثار الكثيرون منهم نار الثورة على تلك الحكومة لبغضهم بنى أمية .

الخوارج

الخوارج : وقد وجه الخلفاء الأمويون همهم لاخماد الثورات التى أثارتها عليهم تلك الطائفة مما استنفد قواهم وشغلهم عن التفرغ لشئون الدولة ، وأدى الى انحلالها .

(١) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p.207 نقلا عن Wellhausen. Das. Arabische Reichundsein Sturz, p. 38.

الشيعة

الشيعة : ويرون وجوب الخلافة لعلى ثم أولاده من بعده بمقتضى الحق الالهى كما تقدم . وكان لترويج الشيعة عقيدة المهدى المنتظر بين المسلمين أثر كبير فى سقوط العرش الأموى .

عقيدة المهدى :

يقول فان فلوتن « إن الاعتقاد بظهور المهدى وانتظاره لم يقتصر بادىء الأمر على آل البيت وحدهم ، بل بدأ ذلك الاعتقاد يذاع وينتشر بين المسلمين على حسب ازدياد نفوذ الشيعة وانتشاره [1] . وقد انتشرت فكرة المهدى المنتظر لدى أهل السنة حتى محت ذكر غيره من المهديين ممن كان يتنبأ بهم ، مثل السفيانى والقحطانى وغيرهما. ولا شك أن التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماما من نفوس المسلمين ، وإنما صار هؤلاء بالنسبة إلى المهدى المنتظر كالدجال بالنسبة الى عيسى بن مريم . لذلك كان من المعقول أن يظهر عليهم ذلك المهدى ويهزمهم هزيمة حاسمة وينتصر عليهم انتصاراً مبيناً . » [2]

كان البون شاسعاً بين تلك السعادة التى كان ينشدها الناس على يد المهدى المنتظر وتلك الآلام التى كانوا يعانونها فى ذلك الحين حيث الحروب الأهلية التى أذكى نارها انقسام خلفاء بنى أمية على أنفسهم ، والتى كانت تلهب نارها تلك الأحن والأحقاد القديمة بين مضر وقحطان ، تلك الحروب التى خربت بلاد الشام حيث اندلع لهيبها أول الأمر ، ثم تطاير شظاها إلى غيرها من الولايات الاسلامية .

وقد ساد الاضطراب فى كل أنحاء الدولة الأموية واستولى على العرب من جديد الميل الى الحرب والكفاح . فرفع الشيعة والخوارج

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن الناس كانوا يلقبون كلا من موسى بن طلحة وعمر بن عبد العزيز بالمهدى .

(٢) السيادة العربية (ترجمة المؤلف) ص ١٢١ - ١٢٢

رءوسهم . وظلت الحاميات السورية وحدها على ولائها للعرش الأموى على حين أن كان المرابطون من الجنود العربية يشايعون أعداء الحكومة، حتى كادت تلك الفتن تأتى على ذلك التراث الذى خلفه النبى صلى الله عليه وسلم وتودى بذلك الاصلاح الذى قام به كل من أبى بكر وعمر . وهكذا كان ذلك العصر عصراً محزناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤما بالمستقبل . وقد وصف لنا هذه الحالة السيئة الحارث بن عبد الله الجعدى الشاعر فى هذه الأبيات :

الحارث الجعدى الشاعر يصف سوء حالة الدولة

أَبِيتُ أَرْعَى النُّجُومَ مُرْتَفِقًا (١) إذَا اسْتَقَلَّتْ تَجْرِى أَوَائِلُهَا

مِنْ فِتْنَةٍ أَصْبَحَتْ مُجَلِّلَةً (٢) قَدْ عَمَّ أَهْلَ الصَّلَاةِ شَامِلُهَا

مَنْ بِخُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَمَنْ بِالشَّامِ كُلٌّ شَجَاهُ (٣) شَاغِلُهَا

فَالنَّاسُ مِنْهُمْ فِى لَوْنِ مُظْلِمَةٍ دَهْمَاءَ مُلْتَجَّةٍ (٤) غَيَاطِلُهَا (٥)

يُمْسِى السَّفِيهُ الذِى يُعَنَّفُ بِالْـ جَهْلِ سَوَاءً فِيهَا وَعَاقِلُهَا

وَالنَّاسُ فِى كُرْبَةٍ يَكَادُ لَهَا تَنْبِذُ أَوْلَادَهَا حَوَامِلُهَا

يَغْدُونَ مِنْهَا فِى كُلِّ مُبْهَمَةٍ عَمْيَاءَ تُمْنَى (٦) لَهُمْ غَوَائِلُهَا

لَا يَنْظُرُ النَّاسُ فِى عَوَاقِبِهَا إِلَّا الَّتِى لَا يَبِينُ قَائِلُهَا

كَرَغْوَةِ البَكْرِ (٧) أَوْ كَصَيْحَةِ حُبْـ لَى طَرَقَتْ حَوْلَهَا قَوَابِلُهَا

فَجَاءَ فِينَا أَزْرَى (٨) بِوِجْهَتِهَا فِيهَا خُطُوبٌ حُمْرٌ زَلَازِلُهَا (٩)

عباس بن الوليد يصف حرج الدولة الاموية

كذلك تصف لنا هذه الأبيات التى نظمها عبّاس بن الوليد حرَج الدولة الأموية وما وصل اليه الخلفاء الأمويون من يأس وقنوط :

---

(١) المرتفق الواقف الثابت . والمراد منها السهر .

(٢) مجللة : شاملة . وما بعدها يفسرها

(٣) شجاه : حزنه وطربه .

(٤) ، (٥) الملتجة من العيون الشديدة السواد . والغيطلة (بفتح الغين والطاء) الظلمة المتراكمة

(٦) تمنى بمعنى تقدر . (٧) البكر ولد الناقة . (٨) بمعنى عاب

(٩) الطبرى ٢ : ١٨٥٧

إنّي أُعِيذُكُمْ باللهِ مِنْ فِتَنٍ   مِثْلَ الجِبَالِ تَسَامَى ثُمَّ تَنْدَفِعُ
إنَّ البَرِيَّةَ قَدْ مَلَّتْ سِيَاسَتَكُمْ   فاسْتَمْسِكُوا بِعَمُودِ الدِّينِ وارْتَدِعُوا
لاَ تُلْحِمُنَّ (١) ذِئَابَ النَّاسِ أَنفُسَكُمْ   إنَّ الذِّئَابَ إذَا مَا أُلْحِمَتْ رَتَعُوا
لاَ تَبْقُرُنَّ بِأَيْدِيكُمْ بُطُونَكُمُ   فَثَمَّ لاَ حَسْرَةٌ تُغْنِي ولاَ جَزَعُ (٢)

يقول فان فلوتن (٣) : هل كان الناس يعتقدون إزاء تلك الحالة السيئة بقرب ظهور المهدى (المخلص) ؟ كل ذلك ممكن ؛ بل من المحتمل جداً أن هذا الأمل كان العزاء الوحيد للتقاة من المسلمين (أهل السنة) . ومع ذلك فلا ندهش إذا رأينا نبوءة أخرى تشغل الأذهان فى ذلك الحين . لذلك كان من الضرورى ظهور رجل يهدم كل قديم ويأتى عليه ليعبد السبيل لذلك المهدى المنتظر . وهكذا ظهرت بجانب تلك النبوءات القديمة نبوءة أخرى هى نبوءة الرجل ذى الأعلام السود (٤)

---

(١) لا تطعموا   (٢) شرحه ٢ : ١٧٨٨

(٣) السيادة العربية (ترجمة المؤلف) ص ١٢٣ — ١٢٤

(٤) كان البياض شعار الأمويين إلى ذلك الحين ، فاتخذ العباسيون السواد شعاراً لهم حدادا على الشهداء من آل البيت(De Sacy, Chrestomathie Arabe, 2 è ed. I. 48 Suiv. II. 26. Suiv, Weil. Geshichte der Khalifen, II. 216. n. 3.)

على أنه لا يبعد أن يكون الأمويون قد اتخذوا البياض شعاراً لهم بعد أن قامت الدولة العباسية ، وبعد أن اتخذ الخلفاء العباسيون السواد شعارا لهم (مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٤٤) . وقد اقتبس فون كريمر عبارة عن الأغانى (ج ٦ ص ١٤١) مؤداها أن الخليفة الوليد كان يصلى فى « ثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة » وأن الامويين كان شعارهم البياض . وعلى الرغم من أن البياض هو رمز النظافة — على ما يظهر — فلدينا من النصوص التاريخية ما يدل على أن الامويين لم يقتصروا على الثياب البيض . فقد كانت العمامة السوداء شعارهم الرسمى . واما أن السواد كان شعارا الحزن والحداد فقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة الى الملابس السوداء (الملابس الرسمية فى عهد العباسيين) ، لاسيما وأن الروايات التاريخية تؤيد ذلك

أما الألوية السود فلم تكن يوما ما شارة الحداد . فقد اتخذ الحارث بن سريج اللواء الاسود شعارا له حين ثار على بنى أمية سنة ١١٦ هـ ، وكذا بهلول الخارجى سنة ١١٩ ، ثم أبو حمزة

الذى يخرج من المشرق ويزيل عرش بنى أمية (أنظر الكامل للمبرد ص ٥٨٥ والطبرى ٢ : ١٩٢٩ وما يليها).

على أن دعوته هذه لم تصادف شيئاً من النجاح . فقد ظلت الحكومة ، أو بالأحرى العرب اليمنية ، صاحبة النصر والظفر . بيد أن ذلك الأمل الذى كان الحارث أول من بعثه فى النفوس لم يخب بعد ، كما كان العامل الوحيد الذى جذب إلى الدعوة العباسية جميع هؤلاء الذين كانوا يشاطرون الحارث ميوله وآراءه السياسية . وليس بعيداً أن يكون الحارث بن سريج قد اعتمد فى دعوته هذه على هذا الحديث المشهور الذى رواه أبو داود « يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطىء أو يمكن لآل محمد ، كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجب على كل

الخارجى أيضاً سنة ١٢٨ (الطبرى ٢ : ١٥٧ ، ١٦٢٤ ، ١٩٨١ ؟ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٨٥ ؟ صحيح مسلم ج ٢ ص ١٥٧٥) . على أن أحداً من هؤلاء لم يكن فى حداد على أحد من آل البيت . ونستطيع أن نتبين السر الحقيقى فى اتخاذ اللواء الاسود من قصيدة الكميت الشاعر التى وجهها إلى الحارث بن سريج فى سنة ١١٧ هـ ، والتى نكتفى منها بهذا البيت :

وإلا فارفعوا الرايات سوداً على أهل الضلالة والتعدى

ومن هنا يتبين لنا أن هناك علاقة بين الالوية السود ومحاربة الضلالة (والمراد بها الضلالة على حسب مافى القرآن) والعدوان (والمراد به الخروج على القانون الالهى) . وهنا يبين لنا معنى هذه المسألة التى أشار اليها هماكر (Hamaker) وهى أن الالوية المذكورة تمثل لواء الرسول الذى كان يحمله فى حروبه مع الكفار ذلك اللواء الذى اتفقت جميع المصادر على أنه كان اسود (كتاب الخراج لابى يوسف ص ١١٩ ؟ فتوح البلدان البلاذرى ص ١١٢ ؟ اليعقوبى ج ٢ ص ١٥١) .

ولهذا كان الخوارج ينشرون الالوية السود فى حروبهم مع الامويين كما كان يفعل ابن سريج . وكان هذا اللواء الاسود يذكرهم بعهد الرسول ، ذلك العهد الذى كانوا يعتبرونه المثل الأعلى الكامل .

ومن ثم كان لزاما على من يبشر بالمهدى الامام الحق ، أو بعبارة أدق الامام الذى يزول على يديه سلطان بنى أمية ، أن يتخذ تلك الالوية السود شعارا له . وفى سنة ١٢٨ هـ أدعى الحارث بن سريج أنه ذلك المهدى المنتظر (الطبرى ٢ : ١٩١٩)

نصره » . ولم يلبث هذا الحديث أن أصبح نبوءة من تلك النبوءات التى وردت فى كتب التكهن [1]

عبارة المسعودى عن سبب سقوط الدولة الأموية

وقد وصف لنا المسعودى سبب سقوط الدولة الأموية قال : «سئل بعض شيوخ بنى أمية ومحصليها عقيب زوال الملك عنهم الى بنى العباس : ما كان سببُ زوال ملككم ؟ قال : انا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقُّده يلزمنا . فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وامضَوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا . وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا . وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا» (٢)

انتقال الخلافة إلى العباسيين

دامت الخلافة الأموية بعد وفاة الوليد بن عبد الملك (٩٦ هـ) ستا وثلاثين سنة أصبحت فيها على شفا جرف هار ؛ إذ بدأ دعاة بنى هاشم من ولد العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم يعملون فى الخفاء لنشر الدعوة العباسية . ومما ساعد على نجاح هذه الدعوة عوامل الضعف التى تغلغلت إذ ذاك فى جسم الدولة الأموية

كيف انتقل صولجان الخلافة من آل على الى بنى العباس ؟

أثار قتل الحسين حماسة المسلمين ، فتوحدت صفوف الشيعة وعملوا على الأخذ بثأره ، وزادت الدعوة لآل على قوة واشتد العداء بين الأمويين

(١) كتاب السنن لأبى داود ج ٢ ص ١٣٥

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٩٤

والعلويين عن ذى قبل ؛ وقامت الثورات فى وجه الأمويين فى العراق وخراسان ومصر .

على أن الأمويين ، وان استطاعوا القضاء على ثورات العلويين ، فقد زاد ذلك فى سخط المسلمين - وبخاصة الموالى من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب - لبنى أمية لما ارتكبوه من وسائل الشدة والعنف فى جميع تلك الثورات ، وعطفوا على بنى هاشم ولا سيما حين قتل يزيد ثم ابنه يحيى .

تأثر الولايات الاسلامية بالديانات الأخرى

وقد تأثر أهل الولايات الاسلامية فى الشرق بالديانات التى كانت قبل الاسلام ، وبخاصة فى بلاد الفرس حيث كانوا يعبدون الملوك ؛ فاعتقدوا بامامة آل البيت ولقبوهم بالمهديين (جمع مهدى ومعناه الهادى إلى الطريق المستقيم) ، وظهر الاعتقاد بأنه ليس ثمة صلاح لهذه الأمة إلا على يد أحد الأئمة من آل البيت . وقد ظهر بين الشيعة طائفة من الغلاة اعتقدوا بقداسة آل البيت ؛ وكان العراق مهد الدعوة الهاشمية .

وقد حدثت حادثة فى تاريخ الشيعة هى انتقال حق الخلافة من بيت على الى بيت العباس على يد أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه « ميراث الكيسانية . »

وفى سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) استدعى سليمان بن عبد الملك أبا هاشم عميد الشيعة الكيسانية الى دمشق حيث أكرم وفادته . بيد أن هذا الخليفة دبر موته - على ماقيل - لما رآه من ذلاقة لسانه وفكاهته وشخصيته الجذابة ؛ فخاف أن يدعو إلى نفسه ويجد من مواهبه أكبر معين على نجاحه ؛ فدس له من قعد له على طريق الحميمة بلبن مسموم ، وتلطف له حتى سقاه منه وهو فى طريقه إلى اقليم الشراة ، حيث كان يقيم محمد

ابن على بن عبدالله بن العباس فى الحميمة ، وهى قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة .

وفاة ابى هاشم

وقد قيل إن أبا هاشم لما أحس بدنو أجله ، عرج على محمد بن على العباسى وأفضى إليه بالدعوة وأسرارها ، وأمده بكتب يسلمها إلى داعى دعاته فى الكوفة وغيره من الدعاة ، ونزل له عن حقه فى الامامة ، وأوصى بأن تكون من بعده لابنه ابراهيم بن محمد الملقب بالامام ، وأن يبدأ ببث الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة (٨١٧ م) .

ولقد أورد لنا المقريزى فى مخطوطه « المقفى الكبير » أن أبا هاشم قال لمحمد بن على عند ما أفضى اليه بسر الدعوة : « هذا أمر أنت أول من يقوم به ، ولولدك آخره » .[1] وبهذا تحول حق الامامة من بيت على إلى بيت العباس بمقتضى وصية أبى هاشم .

على أن أبا الحسن النوبختى قد أورد لنا فى كتابه فرق الشيعة عبارة يستدل منها أن رجلا من آل على قد ادعى أن أبا هاشم قد بايعه ، وأن العلويين والعباسين اختصموا الى رجل قضى لمحمد بن على . قال النوبختى : « وفرقة قالت : أوصى أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . الخارج بالكوفة . . . وهو يومئذ غلام صغير ، فدفع الوصية الى صالح بن مدرك وأمره أن يحفظها حتى يبلغ عبد الله بن معاوية فيدفعها اليه . فلما بلغ دفعها اليه . فهو الامام وهو العالم بكل شىء ، حتى غلوا فيه وقالوا إن الله عز وجل نور ، وهو فى عبد الله بن معاوية . وهؤلاء أصحاب عبد الله بن الحارث . فهم يسمون الحارثية . وكان ابن الحارث هذا من أهل المدائن . فهم كلهم غلاة يقولون : من عرف

---

(١) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٣٨ — ٤١

(٢) المسعودى : كتاب التنبيه والاشراف (طبعة دى غويه) ج ٨ ص ٣٢٨

الامام فليصنع ماشاء ... وفرقة قالت : أوصى عبد الله بن محمد بن الحنفية الى محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، لأنه مات عنده بأرض الشراة بالشام ، وأنه دفع اليه الوصية الى أبيه على ابن عبد الله بن العباس ، وذلك أن محمد بن على كان صغيرا عند وفاة أبى هاشم ، وأمره أن يدفعها اليه إذا بلغ . فلما بلغ دفعها اليه . فهو الامام ، وهو الله عز وجل ، وهو العالم بكل شيء . فمن عرفه فليصنع ماشاء . واختصم أصحاب عبد الله بن معاوية وأصحاب محمد بن على فى وصية أبى هاشم ، فرضوا برجل منهم يكنى أبا رباح -وكان من رؤسائهم وعلمائهم- فشهد أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى الى محمد بن على ابن العباس . فرجع جل أصحاب عبد الله بن معاوية إلى القول بامامة محمد بن على . [1] »

محمد بن على العباسى يقوم بالدعوة

وقد أجمع المؤرخون على أنه عند تمام المائة سنة للهجرة ، قام الامام محمد بن على بتنفيذ وصية أبى هاشم ، فأرسل إلى الدعاة يكشف لهم عن السياسة التى ينبغى أن يسيروا عليها . وهنا نتساءل : ما الذى حدا بأبى هاشم إلى أن يحول الخلافة إلى بنى عمه ، ويترك بنى أبيه من العلويين مع كثرتهم وعلو شرفهم ؟

وإذا فرضنا أنه ترك أبناء أبيه لأنه لم يكن حوله حينذاك أحد منهم ، فلماذا لم يوص إلى أحد من بنى أبيه ، ويسلم وصيته الى أحد أولاد عمه ليوصلها إليه ؟ ولعل ذلك لما كان هنالك من اختلاف بين مبادىء الكيسانية شيعة أبى هاشم ، والامامية شيعة أولاد فاطمة .

اختيار خراسان لنشر الدعوة

ولقد أدرك الامام شعور أهالى الولايات الاسلامية المختلفة

(١) أبو محمد الحسن النوبختى : كتاب فرق الشيعة ص ٢٩ — ٣٠

وميولهم، كما نتبين ذلك من وصفه الدقيق فى إحدى خطبه للأهواء والميول التى كانت سائدة بين أهالى الولايات فى ذلك الحين :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية صادقة ، وأعراب كأعلاج ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية ، وعداوة راسخة وجهل متراكم . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد . وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة . وبعد فانى أتفاءل إلى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق . »(١)

ويتبين لنا أيضا من تلك الخطبة أنه كان من بين الأسباب التى حملت محمد بن على على اختيار خراسان هو ما يعلمه من أن قلوب أهلها لم تتأثر بعد بالاختلافات الدينية . على أن هناك سببا آخر قد يكون أبعد أثرا ، وإن لم يعلق عليه الامام أهمية كبيرة فى خطبته : ذلك هو تألم الخراسانيين من بنى أمية . ولقد صدق فان فلوتن إذ يقول تعليقا على خطبة الامام : ولكن هناك أمرا آخر — وإن لم يدل عليه كلام الامام — قد جعل اختيار خراسان بوجه خاص اختيارا موفقا ، ذلك هو أن الخراسانيين الأقوياء الأشداء كانوا يقاسون أسوأ صنوف الاستبداد من نير الأمويين » . ولا شك فى أن هذا الأمر قد سهل على العباسيين القيام بنشر دعوتهم . (٢)

(١) أحسن المقدسى : التقاسيم فى معرفة الاقاليم (طبعة دى غويه) ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤

(٢) فان فلوتن كتاب السيادة العربية والشيعة ترجمة المؤلف ص ٩٣-٩٤

الدعاة فى خراسان

أنفذ محمد بن على دعاته من الحميمة : فوجه ميسرة إلى العراق ، وكذلك وجه ثلاثة من الدعاة أحدهم أبو عكرمة السراج (١) ، وعهد إليهم بنشر الدعوة فى خراسان لمحمد بن على بن عبد الله بن العباس وآل بيته . وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة للعباسيين تحت طى الخفاء ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج .

واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين رجلا ، من بينهم اثنا عشر نقيبا ؛ فشمر الكل عن ساعد الجد فى بث الدعوة لبنى العباس ، ولم يبالوا بما لاقوه من ضرب وصلب وقتـــل وتشريد . وفى سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) مات ميسرة ، فخلفه رجل ذو بأس وجاه هو بُكَير بن ماهان (٢)

وإنه وإن كان هناك من الأدلة مايثبت صحة قول الإمام بأن قلوب الخراسانيين لم تزعزعها الاختلافات الدينية ، فانه ينبغى ألا يعزب عن البال وجود فريق يميل إلى العلويين بنوع خاص . ولا غرو فقد هددت جهود غالب ، وهو داع علوى متطرف ، نجاح الدعوة لبنى العباس ، وأدت إلى تغيير يذكر فى نص تلك الدعوة .

ذلك أنه لما وصلت أخبار غالب إلى مسامع الامام ، بعث هذا إلى خراسان سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) بزياد أبى محمد مولى بنى همدان ، وأوصاه أن يتجنب غالبا ما استطاع . فلما سمع غالب بوصول زياد أتاه فى مرو ، وقامت بين الرجلين مناظرة عدائية : هذا ينتصر لبيت العباس ، وذاك لبيت على .

الرضا من آل محمد

لذلك لانعجب اذا دعا الدعاة بعد ذلك الحين الى الرضا من آل

(١) الطبرى (طبعة دى غويه) ٢ : ١٣٥٨ — ١٣٨٨ .

(٢) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٣٣٦ ؟ الطبرى ٢ : ١٣٦٧

محمد ، وذلك لما كان يراه العباسيون من شمول هذا اللفظ لأولاد على والعباس . أضف الى ذلك ما كان فيه من عدم تعيين المدعو اليه حتى لا يقتله الأمويون كما فعلوا بابراهيم الإمام ، ولم يكن يعلم بشخص المدعو له إلا النقباء وخاصة الدعاة ؛ وبذلك تسنى للعباسيين أن يوجهوا الدعوة اليهم تحت طي الكتمان (١) .

وقد قدر للعباسيين الفوز من وراء هذه المجهودات التي بذلها دعاتهم ، والتي أدت إلى انضمام كثيرين من ذوى الرأى والجاه اليهم ، مثل سليمان بن كثير ، وأبى مسلم الخراسانى . حتى إذا مامات الامام محمد ابن على سنة ١٢٥ ﻫ كانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطا عظيما فى سبيل النجاح . وفى عهد ابنه وخلفه ابراهيم دارت رحى الحرب بين الفريقين ، بمعنى أن النزاع بين بنى أمية وبنى العباس دخل فى طور جديد ، هو دور العمل ، وذلك فى سنة ١٢٧ ﻫ :

انضمام أبى مسلم الى الدعوة

ولما تسلم أبو مسلم الخراسانى مقاليد الدعوة العباسية فى خراسان سنة ١٢٨ﻫ ، عمل على تفريق كلمة العرب فى هذه البلاد . فأرسل نصر ابن سيار إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يكشف له عن قوة أبى مسلم وضعف جند خراسان ويستمده ، وختم كتابه بهذه الأبيات

أَرَى بَيْنَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... فَأَحْجِ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

فَإِنَّ النَّارَ بِالعُودَيْنِ تُذْكَى ... وَإِنَّ الحَرْبَ أَوَّلُهَا الكَلَامُ

فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِى ... أَأَيْقَاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ

فأجابه مروان بقوله : يرى الشاهد مالا يراه الغائب ، وأمره بأن يحفظ ناحيته بجهده .

فلما ورد عليه الخطاب قال لأصحابه : أما صاحبكم (يعنى مروان)

---

(١) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, p. 250.

فلا نصر عنده. كتب بعد ذلك نصر إلى يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق كتابا يطلب فيه المعونة والمدد، وختمه بهذه الأبيات:

أبلغ يزيد، وخيرُ القول أصدقُه وقد تبينتُ أن لا خيرَ فى الكذب
أنّ خراسانَ أرضٌ قد رأيتُ بها بيْضًا لو افرخ قد حُدِّثتَ بالعجب
فراخُ عامين إلا أنها كبرت لما يطرن وقد سُربلن بالزغب
فإن يطرنَ ولم يُحتلْ لهنّ بها يُلهبْنَ نيرانَ حربٍ أيمَّا لهب

فرد عليه يزيد بما لم يَشْفِ غُلة؛ فيئس نصر من النصر وقال: « لا غلبة إلا بكثرة وليس عندى رجل » (١)

قيام الدولة العباسية

فى الخامس عشر من شهر رمضان سنة ١٢٩ هـ، نشر أبو مسلم الخراسانى الذى تولى أمر الدعوة العباسية بعد سليمان بن كثير، اللواء الأسود على ربوع سفيذنج، وهى قرية صغيرة من ضواحى مرو؛ وقد كتب عليه (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) (٢)

وقد ضم أبو مسلم الخراسانى إلى لقبه « صاحب الألوية السود » لقبا آخر ليس بأقل أهمية من ذلك، لما يدل عليه من شرف الانتساب إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم.

ولم تكن الحالة فى خراسان لتساعد على انتشار الثورة بمثل هذه السرعة. نعم! كان الموالى من سكان القرى يفدون من كل جانب وراء الدعاة العباسيين، كما ثار المسودة فى جميع أنحاء بلاد خراسان: فى نَسا، وبلخ، وهَراة، ومَروروذ، وفى الجملة فى كل ناحيه قامت فيها الدعوة لبنى العباس. ولكن بُعد الشقة بين هذه النواحى قد حال دون

---

(١) الطبرى ٢ : ١٩٧٣ — ١٩٧٤؟ المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٤٥ — ١٤٦ أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٣٨ — ٤٣

(٢) سورة الحج آية ٣٩.

توحيد وجهة الثائرين . أضعف إلى ذلك أن العرب - حتى من خرج منهم على الحكومة الأموية وشق عصا طاعتها - قد أبوا أن يشتركوا أول الأمر مع أولئك الموالى ممن لا نسب لهم . ولا غرو فقد كانوا يعتبرونهم أعداء ألداء للأسلام ؛ كما كان يقول عنهم نصر بن سيار انهم أموات(١) فى نظر العرب احتقارا لهم وسخرية بهم .

أسباب قوة المسودة

وترجع قوة المسودة الى حماسهم الشديد وإخلاصهم للدعوة لآل البيت ، إذ كانوا يعتبرونها رمز أمانيهم السياسية . وكان صفوة جند أبى مسلم من الكفّية أو أهل الكف ، وهم الذين كانوا يأخذون أرزاقهم من القمح بالكفة (الحفنة) .

أبو مسلم يحول دون اتحاد العرب المنقسمين بخراسان

أما العرب فكانت تعوزهم العاطفة الوطنية ؛ وقد حاولوا غير مرة أن يتحدوا ضد هذا العدو المشترك لولا أن حال أبو مسلم بدسائسه دون ذلك . ولا غرو فقد كان كلٌّ(٢) لايعنيه سوى مصلحته الخاصة أو بالأحرى مصلحة قبيلته . وأما الاخلاص للعرش الأموى فلم يعن به أحد ، حتى إن اليمانية من أهل مرو - إذا صح لنا أن نأخذ بما ذكره اليعقوبى - قد انضموا الى الشيعة واعتنقوا مبادئهم . ولم يبق على ولائه للبيت الأموى فى ذلك العصر الممتلىء بالأنانية والخيانة والغدر إلا نصر ابن سيار . وقد ذكرنا أنه ألح بدون جدوى فى طلب المدد من الخليفة . ولا غرو فقد كان مروان الثانى فى حاجة شديدة إلى آخر جندى من جنوده ؛ ولذلك رد عليه الخليفة بقوله : « احفظ ناحيتك بجهدك » ، فدهش نصر وقال « أأيقاظ أمية أم نيام ؟ »

وقد عرف أبو مسلم بما أوتيه من الدهاء والمهارة الحربية ، كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذى ساد فى هذه البلاد ؛ فبذر بذور الشقاق بين جنود بنى أمية . وبذلك استطاع أن يرابط بجنده سبعة أشهر بظاهر مدينة مرو ، استمال خلالها اليمانيين وضمهم إلى صفوفه ، وتمكن

من الاستيلاء على خراسان دون أن يعرض جيشه الصغير للهزيمة. ولم يكد يتم له النفوذ فى هذه البلاد حتى عمل على التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة، فقتلهم عن آخرهم.

ذيوع الثورة

عندئذ عمت الثورة وانتهت بزوال الدولة الأموية. وإلى القارىء ماذكره أبو حنيفة الدينورى (١) عله يتبين منه حال الأمة العربية فى ذلك الحين قال: «وانجفل الناس على أبى مسلم: من هراة، وجوشنج، ومروالروذ، والطالقان، ومرو، ونسا، وأبيورد، وطوس، وسرخس وبلخ، والصاغنيان، وطخارستان، وخُتّلان، وكش، ونَسف؛ فتوافوا جميعا مسودى الثياب، وقد سوّدوا أنصاف الخشب التى كانت معهم وسموها كافر كوبات (٢)، وأقبلوا فرسانا وحمّارة يسوقون حميرهم ويزجرونها هرّ مروان، يسمونها لمروان بن محمد، وكانوا زهاء مائة ألف رجل»

يقول فان فلوتن «(٣): ولن نعرض هنا لوصف تلك الدولة الأموية فى ساعات احتضارها، ولا لتلك الانتصارات المتتابعة للجيوش الخراسانية. على أننا قد ندهش لتلك الهزائم التى أنزلتها جند العباسيين بأمهر القواد من الأمويين، لو لم نعلم أن مقاومة تلك الأمة المحتضرة لم تصدر عن وطنية صادقة أو قوة معنوية صحيحة، تلك القوة التى طالما يثيرها اليأس فى قلوب الجند فى ساعتهم الأخيرة، ولا عن أية عاطفة قوامها الشعور بوجود نظام ثابت. فضلا عن أن الظفر الذى أحرزته الجيوش العباسية - ذلك الظفر الذى لم يكن إلا قضاء من الله باستئصال شأفة أولئك الأمويين وزوال دولتهم — قد أضعف ما بقى لديهم من الاستماتة فى الدفاع عن دولتهم.»

---

(١) الاخبار الطوال ص ٣٦٠

(٢) الاغانى ج ٥ ص ١٢٣

(٣) السيادة العربية والشيعة (ترجمة المؤلف) ص ١٢٩ — ١٣٠

هذه هى حال بنى أمية فى ذلك الحين وما كان يستولى على نفوسهم من يأس وقنوط .

انكشاف الامر :

ظل أمر العباسيين سراً لا يعلمه إلا النقباء من شيعتهم ، حتى وقع فى يد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية خطاب من إبراهيم الإمام الى أبى مسلم الخراسانى يأمره فيـــه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان . فأدى هـذا الحادث الى القبض على الإمام وسجنه وقتله ؛ فتولى أمر الدعوة أبو سَلمة الخلال خليفـة بُكَيْر بن ماهان وصهره . وبعد ذلك بسنتين أو يزيد حلت الهزيمة بابن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة ، وأرغم على السير إلى واسط . فجاء أبو سلمة ونزل بجنده بمدينة الكوفة فى أوائل سنة ١٣٢ هـ من غير أن يلقى مقاومة تذكر . وكان أبو العباس وأخوه أبو جعفر وغيرهمـا من العباسيين مختفين فى هـذه المدينة ، وقد هربوا اليها بعد قتل إبراهيم الإمام فاهتم بأمرهم أبو سلمة ، لكنه أبقاهم على ذلك عدة أسابيع ، فأثار هذا الأمر عوامل الريبة والشك فى نفوس أشياعهم فأخرجوهم من مكمنهم (عن رضا من أبى سلمة طبعًا) ، وبايعوا أبا العباس ، لأن أمه كانت عربية ـ وكانت أم المنصور أم ولد ـ ولأنه أثر عن إبراهيم الإمام أنه أوصى إلى أخيه أبى العباس عنـــد القبض عليه . هذا ويقول بعض المؤرخين إن أبا سلمة قصـــد إبقاء بنى العباس على عزلتهم حتى تنجلى الحال فى واسط التى كان يحتلها ابن هبيرة بجند كثيف من الأمويين ؛ ويقول البعض الآخر إن أبا سلمة أراد تحويل الامر إلى العلويين بعد أن سبر حال العباسيين

وفى أواخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) رفرف العلم الأسو وهو

شعار العباسيين فوق حصون دمشق ، بعد أن دالت فيها دولة الأمويين (١) .

ولما صارت الخلافة إلى السفاح ولى عمه عبد الله بن على لمقاتلة الخليفة الأموى (مروان الثانى) فتبعه حتى أوصله إلى الموصل ، فهزم مروان وفر الى حران ومنها رحل إلى دمشق وفلسطين وسار فى طريقه حتى أتى الفسطاط ؛ فكتب العباس إلى عمه بتولية صالح بن على أمر تتبع مروان وقتله ، فسار حتى لحقه فى قرية «بوصير» . وهناك قتل مروان واحتز رأسه ، وأرسل إلى السفاح فى الكوفة فسجد شكراً لله على أخذه الثأر لأخيه ابرهيم الامام . وانتهى بذلك سلطان بنى أمية وتأسست الدولة العباسية على يد أبى العباس السفاح .

---

(١) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٤٣

الباب الخامس

الحضارة العربية

فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين

النظم الاسلامية

النظام السياسي : الخلافة :

معنى الخلافة

« الخلافة لغة مصدر خلف . يقال « خلفه خلافة ، كان خليفته وبقى بعده . والخليفة السلطان الأعظم والجمع خلائف وخلفاء [١] » .
فالخلافة فى الأصل موضوعة لكون الشخص خلفا لأحد ؛ ومن ثم سمى من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اجراء الأحكام الشرعية خليفة ؛ ويسمى أيضا إماما . فأما تسميته اماما فتشبيها بامام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ، ولهذا يقال الامامة الكبرى . وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبى فى أمته ، فيقال : خليفة باطلاق ، وخليفة رسول الله . واختلف فى تسميته خليفة الله ؛ فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى ((إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ، وقوله (جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ) ومنع الجمهور منه . وقد نهى أبو بكر عنه لما دُعى به ، وقال : « لست خليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ولأن الاستخلاف إنما هو فى حق الغائب ، وأما الحاضر فلا [٢] .

أما الخلافة فى الاصطلاح : فهى رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبى صلى الله عليه وسلم . يقول ابن خلدون فى ذلك : « والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به [٣] »

---

(١) القاموس المحيط
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦
(٣) شرحه ص ١٦٦

جمع الخليفة بين السلطتين الزمنية والدينية

وان منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ؛ فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه . وله بالأولى حق القيام على شئون دنياهم أيضا ، بيده وحده زمام الأمة . فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية فهى متفرعة عن منصبه . فهو الحاكم الزمنى وهو الحاكم الروحى ؛ وهذا بخلاف ما نجده فى الغرب فى العصور الوسطى .

الخلافة والبابوية

وقد ذكر السير توماس أرنولد فى كتابه «الخلافة» [1] أوجه الشبه والاختلاف بين هذين النظامين اللذين قاما خلال العصور الوسطى : وهما الخلافة فى الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب فقال : إن كلا النظامين يستند على قوة الدين : فكلاهما دين عالمى يعمل على ضم العالم تحت لوائه . بيد أن الامبراطورية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود ، بل كانت استمراراً لامبراطورية وثنية سابقة ، حتى إن الامبراطور شرلمان تلقب بألقاب الأباطرة الوثنيين ، كما نجد فى الغرب حاكمين أحدهما زمنى وهو الامبراطور ، والآخر روحى وهو البابا . أما الخلافة فانها لم تقم على نظام سياسى سابق ، بل هى نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التى نشأت على أثر ظهور الاسلام وبسط سيادة العرب على بلاد فارس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية . والخليفة حاكم سياسى ، بمعنى أنه حاكم واحد يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ، ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين . ويستطيع

---

(1) The Caliphate, pp. 9—18

Henry Osborn Taylor, The Mediaeval Mind, vol. II, p. 303

Goldziher, Muhammedanische Studien, vol. II. p. 19 seq.

باعتباره حامى الدين أن يعلن الحرب على الكفار ، ويعاقب الخارجين على الدين، ويؤم الناس فى الصلاة، ويلقى خطبة الجمعة ؛ بخلاف البابا فانه يعتبر قسيساً أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وهو المرجع الأعلى فى الأمور الدينية .

شروط الخلافة

والخلافة ضربان : اختيارية وقهرية . فالاختيارية [١] هى التى تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها برضاها ويشترط فيمن يكون مستحقا لها أن يكون جامعاً للصفات المطلوبة والشروط اللازمة لها . وهى — كما ذكر الماوردى وغيره — أربعة : العلم، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل . واختلف فى شرط خامس هو النسب القرشى . والقهرية هى التى نالها صاحبها بالغلبَ والقوة ويرى الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها .

أما العلم فالمراد به العلم المؤدى الى الاجتهاد فى النوازل والأحكام .

وأما العدالة فالمراد بها ههنا أن يكون الخليفة صاحب استقامة فى السيرة والسلوك ، وأن يكون متجنبا للمعاصى . يقول ابن خلدون فى ذلك : « ولا خلاف فى انتفاء العدالة فيه بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها . وفى انتفائها بالبدع الاعتقادية خلاف [٢] »

والمراد بالكفاية ، أن يكون الخليفة قادرا على إقامة الحدود ، بصيرا بالحروب ، كفيلا بحمل الناس عليها ، صاحب رأى وتدبير .

أما قرشية النسب ، فالمراد بهـا أن يكون الخليفة من قبيلة قريش ، بدليل إجماع كثير من الصحابة يوم السقيفة [٣] على ذلك ، واحتجاج قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عُبادة

---

(١) تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام لبدر الدين بن جماعة المنشور بمجلة Islamica الالمانية العدد الرابع لسنة ١٩٣٤ (الاحكام السلطانية ص ٤ مقدمة ابن خلدون ص ١٥٢)

(٢) ص ١٥٢ شرحه

(٣) هى ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عبادة يجتمعون فيها : وكانت له الرياسة

بقوله صلى الله عليه وسلم : الأئمة من قريش ، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن الى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم ، ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم . فحاجوا الأنصار حتى عدلوا عما هموا به من بيعة سعد . وثبت فى الصحيح أيضا : « لا يزال هذا الأمر فى هذا الحى من قريش » ، كما أثر عن النبى أنه قال : « الملك فى قريش والقضاء فى الأنصار والأذان فى الحبشة » ، كما قال « الخلافة فى قريش والحكم فى الأنصار والدعوة فى الحبشة » . على أن أكثر هذه الأحاديث مبتور أو مدسوس على الرسول . فقد ذكر السيوطى (١) أن الرسول قال « الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ، ووعدوا فوفوا ، واسترحموا فرحموا » ، مما يدل على أن الامامة فى قريش إذا استوفوا هذه الشروط » . على أن هناك أيضا من الأحاديث النبوية ما يبيح إطلاق الخلافة إطلاقا وعدم قصرها على قريش . فقد أثر عن الرسول أنه قال : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة »

ابن خلدون والشيعة

ولا يتفق ابن خلدون (٢) مع ماذهبت إليه الشيعة (٣) من أن الخلافة ركن من أركان الدين ، وأن تعيين الامام واجب بدون الرجوع الى الأمة ، كما لا يسلم برأى الخوارج وهم الجمهوريون الذين كانوا يقولون باختيار الخليفة أنى كانت الطبقة التى ينتمون اليها . فيرى وجوب استناد الخلافة على العصبية ، ويقول : إذا كان المسلمون قد خصوا

الخلافة والعصبية

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٣ - ١٥٤

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٦

(٣) يقول عبد الغنى سنى بك فى كتابه « الخلافة وسلطة الأمة » (ص ٢٠) إن الخوارج وأكثر علماء المعتزلة لا يسلمون بهذه النظرية وهى أن الخليفة من قريش ، ويقولون إنه لا دخل للنسب فى أمر يعود على الامة كالخلافة . ويظهر لنا أنه أخذ هذا الرأى عن المسعودى (مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ - ١٩٢) . وقد أفضنا الكلام عن ذلك فيما كتبناه فى هذا الكتاب (ص ٥١٥ - ٥١٦) عن رأى المعتزلة فى الامامة وموافقتهم الخوارج فى هذا الرأى .

قريشاً بالخلافة ، فما ذلك إلا لأنها هى التى تستطيع سَوْق الناس بعصا الغَلَب ، ولا تستطيع قبيلةٌ أخرى أن تفعل هذا ، تعترف لهم العرب بالتقدم ولا ينكرون عليهم الرياسة فيهم » . ولكن مادام القرشيون قد عجزوا عن حماية الدين وقيادة الأمة الاسلامية ، فيجب أن تسند الخلافة إلى من يستطيع القيام بهذه المهمة . ويرى ابن خلدون أن الخلافة الأولى مَثلٌ أعلى ، وأنها قد تطورت وتحولت عما كانت عليه فى صدر الإسلام ، وأنه لم يكن بأس أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصبية أياكانت جنسيتهم ، وذلك تمشيا مع مبدأ المساواة الذى أقره الإسلام .

واليك مايقوله ابن خلدون (١) فى ذلك :

«إن الأحكام الشرعية كلها لابد لها من مقاصد وحِكم تشتمل عليها وتشرَّع لأجلها . ونحن إذا بحثنا عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشى ومقصد الشارع منه ، لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبى صلى الله عليه وسلم كما هو فى المشهور ، وإن كانت تلك الوُصلة موجودة والتبرك بها حاصلا . لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت . فلا بد إذن من المصلحة فى اشتراط النسب وهى المقصودة من مشروعيتها . وإذا سبرنا وقسمنا ، لم نجدها إلا اعتبار العصبية التى تكون بها الحماية والمطالبة ، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب ؛ فتسكن إليه الملة وأهلها ، وينتظم حبل الالفة فيها ؛ وذلك أن قريشًا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم . وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف ؛ فكان سائر العرب يعترفون لهم بذلك ويستكينون لغلبهم . فلو جُعل الأمر فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادها ، ولا يقـــدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة بيروت) ص ١٧٠

الخلاف ولا يحملهم على الكره؛ فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة. والشارع يحذر من ذلك ، حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم لتحصل اللحمة والعصبية وتحسُن الحماية، بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى مايراد منهم . فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة ، لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها ، فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب — وهم أهل العصبية القوية — ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة. وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع ، فأذعن لهم سائر العرب ، وانقادت الأمم سواهم إلى إحكام الملة ، ووطأت جنودهم قاصية البلاد ، كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة وتلاشت عصبية العرب . ويعلم ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر مَن مارس أخبار العرب وسيرهم وتفطّن لذلك في أحوالهم »

طريقة انتخاب الخليفة :

انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه ولم يوص بالخلافة الى أحد من ذوى قرباه أو غيرهم من الصحابة ، بل ترك الأمر شورى للمسلمين من بعده . وبذلك أصبح للمسلمين الحرية في أن يختاروا من نظم الحكم ما يلائم . أحوالهم ويتمشى مع تطور حياتهم. وكل ما أثر عن الرسول في ذلك قوله « الأئمة من قريش » وقوله « اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » . وقد يكون ترك الرسول الأمر للمسلمين لما يعرفه من طبيعة النزاع (١)

(١) Sir Thomas Arnold, the Caliphate, p. 190.
Lammens, Le «Triumvirat» Abou Obaida. Mélanges de la Faculté Orientale, Beyrouth, tome iv. p. 113.

بين القبائل العربية التى كانت حديثة عهد بالاسلام ، فرأى أن يسيروا فى هذا الأمر على مايحبون ، وخاصة لأن الطبيعة العربية لا تعرف التوارث فى الحياة السياسية ، إذ لم يكن هناك توارث فى اختيار شيخ القبيلة » ، فرأى أن الأمر سيجرى على ما يلائم طبيعة العرب .

ولم ير المسلمون بداً من إقامة خليفة للنبى يقوم بنشر الدين ويدبر شئون المسلمين ، كما كانت الحال بالنسبة إلى شيخ القبيلة ، مع مراعاة ذلك الفارق الذى جدّ بظهور الاسلام وإدماج القبائل كلها تحت إمرة زعيم واحد . ولم يضع القرآن ـ وهو دستور الاسلام ـ نظاما خاصا للحكم ، بل اقتصر على وضع المبادىء العامة .

لمن تؤول الخلافة ؟

قام النزاع بين المسلمين على الخلافة على أثر وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وقبل دفنه . وذهب أهل المدينة فى الخلافة ثلاثة مذاهب : فمنهم من كان يرى حصر الخلافة فى قريش لأن العرب لا تدين الا لها ، ولان المهاجرين كانوا أول من آمن بالرسول وصبر على أذى المشركين من أهل مكة . أضف الى ذلك أنهم قومه وعشيرته ؛ لذلك كانوا أولى بالخلافة من غيرهم (١) ؛ ومنهم من يرى قصرها على آل بيت النبى وجعلها فى القرابة القريبة من الرسول . وكان أولى الناس بهذا الامر العباس عم النبى (ويمتاز بأنه العاصب الوحيد للرسول) وابنا عمه على وعقيل ، لولا قوله عليه الصلاة والسلام « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . على أن العباس لم يكن من السابقين إلى الاسلام ؛ فقد حضر غزوة بدر مع المشركين ، ولم يسلم الا أخيرا . ويمتاز علىّ بسبقه إلى الاسلام ، وشهوده مشاهد الرسول ، وزواجه بابنته فاطمة .

ومنهم من كان يرى اختيار الخليفة من الأنصار الذين آووا الرسول ونصروه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ؛ وتوفى الرسول وهو عنهم راض .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٠

انتخاب أبى بكر

اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ورشحوا للأمر سعد بن عُبادة ، وهو سيد الخزرج . فسمع بذلك بعض المهاجرين ، فعجَّل إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح . وقام بين المهاجرين والانصار نقاش طويل (١) ، وأدلى كل فريق منهم بالحجة على أن هذا الامر له دون غيره . وقد انتهى هذا النقاش بأن بويع أبو بكر بالخلافة بفضل ما أوتيه عمر من المهارة والشجاعة (وتعرف هذه البيعة بالبيعة الخاصة) ، وأقر عامة المسلمين هذه البيعة فى مجلس عام بمسجد الرسول (وتعرف بالبيعة العامة)

رأى السير توماس أرنولد فى هذا الانتخاب

ويقول السير توماس أرنولد فى كتابه الخلافة « : وقد لوحظ فى انتخابه أبى بكر ما يلاحظ فى انتخاب شيخ القبيلة العربية ، لانه انتخاب يتفق والروح العربية (٢) » . ويزعم بعضهم أنه انتخاب غير منظم ، إذ لم يتخذ المسلمون مكانا يجتمعون فيه ، ولم يؤذن الناس به من قبل ؛ إلا أن حرص الصحابة وكراهتهم أن يظلوا بعض يوم وليس لهم إمام يجمع كلمتهم هو الذى حملهم على المبادرة الى الاجتماع فى سقيفتهم » . وكذلك كان حرص عمر فى مبادرته ببيعة الخليفة .

رأينا فى هذه البيعة

نعم ! إنه قد أثر عن عمر أنه قال : « إنه بلغنى أن قائلا منكم يقول : لو قد مات أمير المؤمنين بايعت فلانا ، فلا يغرنَّ امرأ أن يقول : إن بيعة أبى بكر كانت فلتة . فقد كانت كذلك ، غير أن الله وقى شرها ، وليس منكم من تقطع اليه الاعناق مثل أبى بكر » (٣)

رأينا فى هذا الانتخاب

إن بيعة أبى بكر فى نظرنا تتمشى مع نظام الشورى ، إذ قد حصل اجتماع يضم أصحاب رسول الله ، تبادلوا فيه الآراء وأقيمت

---

(١) الطبرى (ج ٣ ص ٢٠٧ - ٢١٠) وابن الأثير ج ٢ ص ١٢١ - ٢٢٤

(٢) The Caliphate, Sir Thomas Arnold, p. 20

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢٠٠

الحجج ورجحت حجة على حجة . ونحن لانستطيع أن نتفق مع الذين يطعنون فى هـذا الانتخاب بقولهم إنه لم يعلن أن اجتماعا سيعقد للانتخاب ، وأنه لم يحضره أكثرية المهاجرين . فقد حضر هذا الاجتماع أكثر الصحابة بقطع النظر عن كونهم أنصاراً أو مهاجرين أو من هؤلاء وهؤلاء . ويظهر أن الذين عابوا هـذا الانتخاب — وبخاصة المحدثين من المؤرخين — أرادوا أن يقيسوا ماحدث منذ ألف وثلاثمائة وخمسين عاما بما يحدث الآن ، وهو قياس مع الفارق .

انتخاب عمر

ولى أبو بكر الخلافة وظل فيها عامين ونيفا . وقبل موته عين عمر خلفاً له (١) . وهنا أيضا تتمشى الشورى وعدم التوريث مع الطبيعة العربية . وقد جعلت هذه السنة التى سنها أبو بكر الحرية للخليفة فى انتخاب من يخلفه من غير قيد ولا شرط . وهـذه الطريقة تخلو من المخاطر ، إذ قد يخطىء الخليفة أو يحسن الظن بمن لا يحقق ظنه . فليس كل خليفة كأبى بكر ولا كل ولى عهد كعمر . ولا يستطيع أحد أن يطمئن إلى حسن نتيجة مثل هذه الطريقة لما فيها من احتمال الخطأ فى الاختيار على الأقل .(٢)

انتخاب عثمان

وقد تكون الطريقة فى رأينا صالحة ، لو وجدت البيئة الصالحة لها . ويزعم بعض المؤرخين أن هذه الطريقة ناقصة أيضا ، لانها ضيقت دائرة الناخبين إلى حد بعيد فجعلتهم ستة وأهملت جمهور المسلمين .

انتخاب على

انتخب عثمان ثم قامت الفتنة التى أدت إلى قتله وأنتخب على ، ولو أن انتخابه لم يكن عاما . فقد كان شوريا ، إذ لم يكن انتخابه وراثيا .

---

(١) Sir Tomas Arnold, the Caliphate p. 20

(٢) Sir Tomas Arnold, The Caliphate, p. 21
Caetani, Annali dell'Islam, vol, v. p. 48

انتخاب الخلفاء الراشدين

ونرى أن انتخاب الخلفاء الراشدين ، وان كان انتخاباً غير منظم ، فقد كان فى بيعتهم فكرة الشورى التى تتمشى مع الروح العربية ، و تبعد كل البعد عن النظام الوراثى . فان قيل إنه لم يبين فى الطريقة الأولى الذين يصح أن يرشحوا لهذا الأمر حتى يتخير الناس واحدا منهم ، فالجواب أن الأنصار رشحوا سعدا ورشح أبو بكر أباعبيدة وعمر ، وسارع عمر الى بيعة أبى بكر فبايعه الحاضرون ، ثم أقر هذه البيعة عامة المسلمين .

وكذلك الطريقة الثانية صحيحة . وإن قيل إنه ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس غالبا ويكون قادرا على حمايتهم ، وإنها اشبه بولاية العهد أو التعيين ، فنستطيع الرد على ذلك بأن أبا بكر لم يستبد برأيه ولم يرغم جماعة المسلمين على قبول خلافة عمر ، بل استشار الصحابة فيه فأجمعوا على حسن هذا الاختيار .

أما الثالثة فهى أقرب إلى الشورى من الثانية ، إذ قد تعدد المرشحون للخلافة . وكان للمجتمعين بمسجد المدينة من الصحابة وغيرهم أثر كبير فى توجيه الانتخاب وحصر الخلافة فى واحد من اثنين : وهما عثمان وعلى . وكذلك بيعة على فقد بايعه أهل المدينة فصار خليفة بهذه المبايعة . وان لم يبايعه جمهور المسلمين فقد بايعته الأكثرية . وأما قول من يقول إنه لم يبايعه الا أهل المدينة ولم يؤخذ فى ذلك رأى غيرهم من المسلمين فى الحواضر الاسلامية ، فيمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك برمته مبنى على رأى أهل المدينة .

الأمويون والخلافة

على أن انتقال السلطة إلى معاوية بن أبى سفيان قد غير نظام الشورى الذى كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين ، وتحولت الخلافة الى ملك آل الى صاحبه بقوة السيف والسياسة والمكايد . ولما ولى معاوية ابنه يزيد العهد ظهر نظام التوريث . وعلى هذا النظام سار

العباسيون (١) فحرموا المسلمين من هذا الحق الطبيعي - وهو الشورى - التى ألفها العرب والتى جاء بها القرآن وأيدتها الأحاديث النبوية ، وغلوا فى ذلك حتى أصبحوا يولون عهدهم اثنين - بل ثلاثا - على أنه ينبغى ألا يعزب عن أذهاننا أثر البيئة فى تطور نظام البيعة . إذ أنه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربى . وقام ذلك النظام الذى يتفق وطبيعة العرب كما أسلفنا . فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية تأثر العرب بالبيئة التى عاشوا فيها ، وغدا نظام الخلافة أشبه شىء بالنظام الملكى أو القيصرى (٢) . ومن ثم زادت الصفة الزمنية فى الخليفة .

العباسيون والخلافة

ولما قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس تأثرت الخلافة بنظم الحكم عند آل ساسان من ملوك الفرس الذين كانوا موضع قداسة الشعب ، والذين كانوا يعتقدون أن حقهم فى الملك مستمد من الله ، وأن لهم وحدهم حق حمل التاج الفارسى . لذلك ازدادت الصفة الروحية فى الخليفة لاعتقاد الفرس بنظرية الحق الملكى المقدس the Divine Right of kings وغدا البلاط العباسى أشبه ببلاط الأكاسرة ، فصار الخليفة شخصا مقدسا ، وأصبح ظل الله فى الأرض ، وأخذ الناس يقبلون الأرض بين يديه .

ألقاب الخليفة

كان أبو بكر يلقب بلقب خليفة رسول الله ، إذ كان يقوم مقام الرسول فى حكم الدولة الاسلامية والمحافظة على الدين . وكان عمر يلقب بلقب خليفة خليفة رسول الله . ومنعا لتكرار لفظ خليفة بالنسبة الى من

---

(١) Sir Thomas Arnold, the Caliphate, p. 22

(١) Sir Thomas Arnold, the Calphate, pp. 24—25

يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبى بكر ، أمر عمر أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة « أمير المؤمنين » (١) . فكان عمر أول من تلقب بهذا اللقب الذى كان يتمشى مع عهد الفتوح ، لما فى هذا اللفظ من معنى السلطتين الحربية والادارية . أما لفظ الامام فانه تتمثل فيه الصفة الدينية من حيث الامامة فى الصلاة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالدين . ولذا نرى الشيعة يستعملون هذا اللفظ لأنهم يعتقدون أن الأفراد البيت العلوى الذين يرون أحقيتهم بالخلافة قوة إلهية مقدسة ، كما يعتقدون فى المهدى أى الهادى إلى الطريق المستقيم . وقد ورد لفظ إمام فى القرآن بمعنى الزعيم أو الدليل (٢) أو الرئيس ، كما فى سورة الأنبياء (٣) (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) . وكان النبى يؤم الناس فى الصلاة باعتباره زعيما للمسلمين . ولسنا نجهل أن النبى فى مرضه الأخير قد ندب أبا بكر ليصلى بالناس بدلا منه . ولا غرو فقد كانت إمامة المسلمين فى الصلاة من أهم الأدلة التى استند اليها السنيون فى أحقية أبى بكر بالخلافة بعد النبى دون غيره من المسلمين . وقد أخذ الخلفاء بعد النبى يحافظون على وظيفة الإمامة فى الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة ، حتى لقد أصبحت الامامة فى الصلاة من أهم أعمال الولاة فى الأمصار الاسلامية .

وصفوة القول أن الخلفاء الأول كانوا يلقبون بألقاب ثلاثة : الخليفة ، أمير المؤمنين ، الامام

صلة الخلافة بالدين

يقول السير توماس أرنولد فى كتابه « الخلافة »(٤) . إن الفقهاء

---

(١) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ١٣٢

(٢) Sir Thomas Arnold, the Caliphate, pp. 29—33

(٣) ٢١ : ٧٣

(٤) Sir Thomas Arnold, the Caliphate, p. 42,

لما أخذوا يبحثون على سند لاستعمال الألقاب التى أشرنا اليها ، لم يوفقوا التوفيق كله ؛ فلم يظفروا بلفظ «إمام» بالمعنى الذى أرادوه .
وعلى الرغم من أنهم قد ظفروا بلفظ « خليفة » ، فان ذلك اللفظ لم يرد فى القرآن بالمعنى المقصود فى الاسلام . وقد بحث فقهاء المسلمين عن سند فى القرآن يبنون عليه نظريتهم فى الخلافة ، كما رجع رجال الدين المسيحى الى الانجيل للاهتداء الى الأغراض البابوية والامبراطورية .
ومع أن لفظ خليفة قد ورد فى القرآن فإننا لانستطيع مع ذلك أن نستدل منه على وجود نظام سياسى لحكم المسلمين . ومن ذلك ماورد فى سورة (ص) ٣٨ : ٣٦ (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ)
وفى سورة البقرة [١]

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) ؟ والمقصود هنا آدم

وكذلك استند الفقهاء على السنة . ويرى السير توماس أرنولد أن كثيراً من الأحاديث قد دس على النبى صلى الله عليه وسلم لتبرير ذلك النظام ، وأن فقهاء المسلمين يستندون على الحديث فى تأييد النظرية القائلة بأن الأئمة من قريش :

الخلافة عند الفقهاء

بدأ الفقهاء يبحثون مسألة الخلافة نظريًا فى عصر انحلال الدولة العباسية ، فلم يعد للخليفة العباسى من الأمر شىء سوى سلطته الدينية للأسباب التى أشرنا اليها . وفى طليعة هؤلاء الفقهاء أبو الحسن على الماوَرْدى الذى ولد فى عهد الطائع ومات فى عهد القائم (سنة ٤٥٠ هـ ١٠٨٥ م) . على أننا — مع ذلك — نرى الماوردى يبحث الخلافة

(١) سورة البقرة ٢ : ٣٠

بحثاً نظرياً لا يتفق وهذه الحوادث التى وقعت فى عصره وقبل عصره فنراه يقول إن مركز الخليفة انتخابى ، كما نراه لا يتورع عن أن يضع شروطاً لابد من توافرها فيمن يرشح لهذا المنصب الخطير ،[١] ثم يسرد لنا تاريخ البيعة منذ أيام أبى بكر ، ويدلى بالحجة على أن بيعة كل من الخلفاء الراشدين صحيحة شرعاً بمعنى أنه لا تنتفى منها صفة الانتخاب [٢] . ثم يسرد لنا الماوردى الشروط التى يجب مراعاتها فى أهل الامامة وواجبات الخليفة الدينية والادارية والقضائية والحربية[٣].

ولا شك أن الماوردى يتجاهل فى هذا البحث النظرى حقيقة ماوصلت اليه الخلافة فى عهده .

البيرونى والخلافة

على أن فقيها آخر من المعاصرين للماوردى ، وهو أبو الريحان البيرونى (٤٤١ هـ) ، قد أعلن فى صراحة حقيقة الموقف ، وقال إنه لم يبق للخليفة من الأمر شىء اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته ؛ كما تناول موضوع الخلافة كاتب متأخر عن الماوَرْدى والبيرونى وهو « نظامى عَروضى » ، فشرح مركز النبى ووظيفته ، وذهب إلى ضرورة قيام من يخلفه بعد وفاته للمحافظة على الشريعة . وهذا القائم يجب أن يكون خير المجتمع حتى يستقيم له الأمر . ويضيف هذا الكاتب إلى ماتقدم أن الخليفة لا يستطيع أن ينشر نفوذه ولا أن يدير دولته إدارة حازمة لاتساع رقعتها . ولا بد إذاً من أن يكون له نواب يمثلونه فى الولايات النائية (٤) ؛ وكل من هؤلاء يكون ملكاً

نظامى العروضى والخلافة

(١) كتاب الأحكام السلطانية ص ٤ — ٦

(٢) الأحكام السلطانية ص ٨ — ١٢

(٣) شرحه ص ١٣ — ٢٠

(٤) هذا يذكرنا بذلك النظام الذى سنه دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) من تقسيم الدولة الرومانية إلى قسمين شرقى وغربى ثم من جاء بعده من الاباطرة الى أن جاء تيودوسيس ، فانقسمت بعد وفاته الى أربعة اقسام يلى كل قسم منها أحد أولاده الأربعة :

أو سلطاناً ينوب عن الخليفة . والخليفة نائب عن النبيّ ، والنبيّ نائب عن الله .

ومن الذين تكلموا عن الخلافة رجل من كبار المؤرخين والفقهاء وعلماء الإجتماع هو عبد الرحمن بن خلدون المتوفى (سنة ٨٠٨ هـ ؟ ١٣٨٢ م)(١) الذى تكلم عن المجتمع البشرى ووقف على خصائصه وميوله . ويرى فى السياسة الدينية الخير للبشر ، لان هذه السياسة تؤدى إلى إسعاد المجتمع فى جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الانسانى . ومماذكره ابن خلدون يتضح لنا أن الحكومة الدينية هى خير أنواع الحكومات ، وأن غايتها هى المصلحة العامة ومنفعة المجتمع ، كما يرى أيضا أن الحياة الدنيا يجب أن تتخذ وسيلة للحياة الآخرة . وأما القوانين التى تصدر من عند الله فهى خير مايضمن سعادة الانسان فى الدنيا والآخرة . والخلافة فى نظر ابن خلدون وكالة عن النبى ، والخليفة يمثل النبى فى السلطة السياسية والدينية ، ولا يمتاز عن سائر المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارسا للدين .

الخلافة عند الفلاسفة والأخلاقيين

وقد تناول موضوع الخلافة فريق من الفلاسفة والأخلاقيين من العرب ، ممن تأثروا بعلوم اليونان وفلسفتهم ، وبخاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون . ومن بين هؤلاء أبو نصر الفارابى الذى تأثر فى كتابه « المدينة الفاضلة » بما كتبه أفلاطون فى جمهوريته عن المثل الأعلى للدولة ، إذ يقول إن الحكومة الرشيدة يجب أن يتولاها رجل يعرف ماهية السعادة ، وينبغى أن يكون فاضلا ذكيا عادلا .

إخوان الصفاء

كذلك تعرض إخوان الصفاء لمسألة الخلافة من الناحية الفلسفية ، فقالوا إن الملوك خلفاء الله فى الأرض يستمدون منه السلطة على العباد والبلاد ، وأن الملك هو حارس الدين وحاميه ، كما يقولون إن القضاة خلفاء الأنبياء .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٥ — ١٧١

شهاب الدين سهراوردى

وهناك أيضا شهاب الدين سُهْراوَرْدى (× ١٣٩١ م) الذى تأثر فى كتابه « حكمة الأشراف » بما كتبه أفلاطون فى جمهوريته، فيقول إن العالم لا يصلح بدون الفلسفة وبدون رجل فيلسوف حكيم يطبق الفلسفة والحكمة عمليا. وهذا الفيلسوف والحكيم الصوفى هو الخليفة الذى يملأ الأرض عدلا ونوراً .

نظام الملك

كذلك تناول نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى موضوع الحكومة فى كتابه « سياسة نامه »، فبحث مسألة إعدادالحكام وادارة الدولة وإقامة العدل وضبط الخراج وتنظيم الجيش وغير ذلك من مرافق الدولة. يضاف إلى ماتقدم ماذكره نصر الدين الطوسى الشيعى

نصر الدين الطوسى

الذى دخل فى خدمة هولاكو التتارى والذى حثه على ازالة الخلافة العباسية؛ فقد وصف الامام كحاكم مثالى كما فعل أفلاطون وأرسطو من قبله [١] .

ولاية العهد

وفى عهد الأمويين صار الخليفة يعين ولى عهده ويأخذ البيعة له من وجود الناس وكبار القواد فى حضرته، كما كانت تؤخذ البيعة فى الأقاليم بحضور الوالى نيابة عن الخليفة. وهذه الطريقة - كما يقول السيد أمير علىّ - قد جمعت فى نفسها كلا من النظام الديمقراطى والنظام الاستبدادى فى آن واحد مع تجردها من مزايا كل منهما، إذ كانت البيعة تتم بأية طريقة سواء أكانت بالوعيد أو الوعود وبالرشوة أو الرهبة ويصبح الانتخاب على أى حال شرعياً [٢]

---

(١) Sir Thomas Arnold, the Caliphate pp. 121-126
A. Von Kremer, Geschichte der herrschenden Ideen des Islams, pp. 92—94.

(٢) Sayed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 185.

أعوان الخليفة :

قال ابن خلدون فى مقدمته « إعلم أن السلطان فى نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلا . فلا بد من الاستعانة بابناء جنسه . وإذا كان يستعين بهم فى ضرورة معاشه وسائر مهنه ، فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده » . . . قال بعض الأشراف من الحكماء « لمعاناة نقل الجبال من أماكنها أهون علىّ من معاناة قلوب الرجال » .
ولذلك طلب موسى من الله سبحانه وتعالى أن يمده برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم فقال « واجْعَلْ لِى وزِيراً مِنْ أهْلِى هَارُونَ أخِى اشْدُدْ بِهِ أزْرِى وأشْرِكْهُ فِى أمْرِى » (١)

الوزير

« والوزير مشتق من الوِزر وهو الثقل لأن الوزير يحمل اعباء الحكومة ، أو من الوزَر وهو الملجأ والمعتصم، بمعنى أن يرجع ويلجأ الى رأيه وتدبيره . والوزارة فارسية الأصل وليست من مستحدثات الاسلام ، بل هى أقدم عهداً من ملوك آل ساسان ، فقد عرفت فى بنى إسرائيل

أما إذا أريد بها استعانة الأمير أو السلطان بمن يشد أزره أو يعاونه فى الحكم فهى تتصل بصدر الإسلام . لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يشاور أصحابه فى الأمور العامة والخاصة ويختص أبا بكر بأمور أخرى حتى إن العرب الذين اختلطوا مع الفرس والروم قبل الاسلام وعرفوا هذا الاسم عنهم كانوا يسمون أبا بكر وزير النبىّ صلى الله عليه وسلم .

ولكن لفظ الوزير لم يكن معروفاً عند العرب فى ذلك العصر لبساطة الاسلام وبعده عن أبهة الملك (٢) . »

---

(١) سورة طه

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٨

ولما أفضت الخلافة إلى بنى أميه وأصبح بقاء ملكهم يعتمد على السياسة والدهاء ، اتخذوا المشيرين من رجالات دولتهم ، ومع إنهم كانوا لا يلقبون صاحب هذه الرتبة بالوزير ، ومع ذلك فإنا نجد زياد ابن أبيه يلقب بقلب الوزير فى عهد معاوية بن أبى سفيان .

مجلس الصحابة

ويقول السيد أمير على إن الخليفة كان يستعين فى إدارة شئون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة ورؤساء القبائل . وكانوا يجتمعون فى مسجد المدينة . وكان الخليفة لا يقطع أمراً دون استشارتهم . وكان نظام الحكم فى الثلاثين سنة الأولى للإسلام أقرب ما يكون إلى النظام الجمهورى .

علاقة المسجد بإدارة الدولة

وقد بحث السير توماس أرنولد(١) علاقة المسجد باعتباره مكان العبادة (أى المكان الذى يؤم فيه الخليفة أو الوالى الناس فى الصلاة) بادارة شئون الدولة السياسية والاجتماعية ، وكيف يجمع الخليفة أو الوالى بين إمامة المسلمين فى الصلاة وبين إدارة شئون الدولة أو الولاية فيقول « لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية . فكان النبى يستقبل فى المسجد السفراء ويدير شئون الدولة ، ويخطب جماعة المسلمين من على المنبر فى الأمور السياسية والدينية . . . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين فى العراق واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد . ومن على المنبر أيضاً وقف عثمان يدافع عن نفسه ، كما كان الخليفة عند استخلافه يلقى من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التى هى بمثابة بيان عن سياسته فى الحكم » . فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش يُلقى منه بيان سياسة الدولة فى الأمم الدستورية » .

ونستطيع أن نضيف إلى ماتقدم أن المساجد كانت تستخدم منذ

---

(١) The Caliphaet, pp. 36—38.

ظهر الاسلام لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . بعد ذلك استخدمت المساجد معاهد للتعليم يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ، كما اتخذها القضاة مكاناً لعقد جلساتهم. وصفوة القول أنه لما لم يمكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المكان الذى تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالصالح العام .

ويستطرد السير توماس أرنولد الكلام عن المساجد فيقول إنها سرعان مافقدت أهميتها السياسية والاجتماعية . فلم تعد تمثل عرش الخليفة وكرسى الوالى ولا منصة القاضى - وغدا عمل المسجد مقصوراً على إقامة الخطبة الدينية ، يمجد فيها الله ويُصلى على النبىّ ويُترحم على الصحابة ويُدعى للخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله فى المحافظة على الدين . ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ليكون ذلك أشبه باعتراف الولايات الاسلامية لسلطة الخلفاء الاسمية .

وكان يعهد إلى بعض الصحابة القيام بواجبات خاصة : فكان عمر فى خلافة أبى بكر يقوم بالقضاء وتوزيع الزكاة ، كما كان علىّ يقوم بكتابة الرسائل والنظر فى أمر الأسرى وفداء أسرى المسلمين ، كما كان يشرف آخرون على تعبئة الجيوش .

النظام الادارى :

الكاتب

ومن كبائر أعوان الخليفة « الكاتب » . فقد كان السواد الأعظم من العرب لايعرف القراءة والكتابة ؛ فكان الخليفة يختار كاتبه من بين الذين يجيدون الخط . وممن عرف الكتابة والقراءة فى صدر الاسلام من الصحابة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت ومعاوية ابن أبى سفيان ، فكانوا يكتبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم القرآن والكتب التى أرسلها إلى الملوك والأمراء . ولما ولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتباً له ليكتب إلى العمال والقواد .

ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية تعدد الكتاب لتعدد مصالح الدولة ، ومن ثم أصبح الكتاب خمسة : كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضى . وأهم هؤلاء الكتاب فى المرتبة كاتب الرسائل . وكان الخلفاء لايولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم ، وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين (١)

الحاجب :

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحدا من الدخول عليهم ، فيخاطبون الفقير والغنى ، والضعيف والقوى بلا حجاب . فلما جاء بنو أمية ، اتخذ معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع على ومعاوية وعمرو بن العاص ؛ وذلك خوفا على أنفسهم من شر الناس ، وتلافيا لازدحامهم على ابوابهم ، وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء فى أيامنا ؛ وكان يشغل منصبا ساميا فى البلاط ، ومهنته إدخال الناس على الخليفة حسبما تقضى الضرورة بالسماح لهم بالمثول بين يديه ، مراعيا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم (٢) . ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة فى أى وقت شاءوا ، فقد قال عبد الملك بن مروان لما ولى حاجبه : « لقد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة · المؤذن للصلاة فانه داعى الله ، وصاحب البريد فأمر ماجاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد » (٣) .

وقد أوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز واليه على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) فقال : أبسط بشرك وألن كنفك ، وآثر الرفق فى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥—٢٠٦

(٢) شرحه ص ٢٠٦

(٣) شرحه ص ٢٠٧

الأمور ، فانه أبلغ بك . وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك ، فانه وجُهك ولسانك؛ ولا يقفنَّ أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذنُ له أو تردُّه (١).

ولاة الاقاليم

بعد أن تم فتح جزيرة العرب عين الرسول صلى الله عليه وسلم أمراء أو ولاة على الأقاليم والمدن الكبرى. وقد أبقى عمر هذا النظام وزاد عليه؛ فقسم البـــلاد المفتوحة إلى أقسام إدارية ليسهل حكمها ويشرف على موارد ثروتها: وهى ولاية الأهواز والبحرين، وولاية سجستان ومكران، وكرمان وولاية طبرستان ، وولاية خراسان وجعل بلادفارس ثلاثة ولايات، بلاد العراق قسمين احدهما حاضرته « الكوفة » والآخر حاضرته « البصرة »؛ وقسم بلاد الشام قسمين أحدهما قاعدته حمص والثانى دمشق ، وجعل فلسطين قسما قائما بذاته. وقسم إفريقية ثلاث ولايات: مصر العليا ومصر السفلى وغرب مصر وصحراء ليبيا (٢).

وكان عمر أول من وضع النظام السياسى للدولة الاسلامية ونظم إدارتها. وكانت سياسته ترمى إلى تماسك بلادالعرب وإدماج القبائل بعضها فى بعض لتكون أمة واحدة هى الأمة العربية. وكان من سياسته عدم اختلاط العرب بأهالى البلاد التى فتحوها حتى لا تضيع قوميتهم. ويقول السيد أمير على (٣). « لو أن عمر عاش أطول مما عاش لاستطاع بما وهبه الله من قوة الشكيمة والشخصية البارزة أن يقوى من شأن الوحدة العربية ويحول دون قيام هذه الحروب الأهلية الطاحنة التى هدمت كيان الاسلام ».

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٥

(٢) Seyed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, pp. 60—61.

(٣) شرحه ص ٥٧

سلطة الوالى

وكان الوالى يعين من قبل الخليفة وينوب عنه فى حكم الولاية . وهو الرئيس للقضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة وما اليها من مهام الدولة .

اختيار الولاة

اختار عمر الولاة من العرب وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين . وبلغ من اهتمام الخلفاء باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب الكبير إلى أفراد من البيت المالك .

ويقول السيد أمير على (١) : إن هناك نقصاً قد تطرق إلى النظام الادارى فى عهد بنى أمية وجرّ إلى أسوأ العواقب فيما بعد ، وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الاقامة فى حواضر ولاياتهم . أما فى عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط ، فكانوا يبقون فى دمشق ويعينون من قبلهم رجالا يقومون بحكم الولايات نيابة عنهم .

وكان من أهم أغراض هؤلاء الاثراء على حساب بيت المال وإرضاء هؤلاء الولاة بما كانوا يدرون عليهم من الأموال .

وكان يستعين فى إدارة البلاد بطائفة من كبار الموظفين وأهمهم ثلاثة : عامل الخراج - أو صاحب بيت المال - والقاضى ، والقائد أو صاحب الشرطة . على أن عمر قد عين لفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين عمالا للصلاة بالناس وإقامة العدل بينهم .

عامل الخراج

كان عامل الخراج أهم العمال ؛ فكان الوالى يحتفظ بالخراج لنفسه وربما أسنده الخليفة لرجل من قبله ، فيعمل هذا مع الوالى جنباً إلى جنب : هذا يدير دفة السياسة وذاك يتولى شئون الولاية المالية . وكان بمثابة الرقيب على أعمال الوالى ، مما أدى إلى تنازع السلطة

(١) Sayed Ameer Ali, p. 190.

والمنافسة بين الرجلين ، الأمر الذى يعلل قصر عهد الولاة وعمال الخراج. وسنذكر موارد بيت المال عند الكلام عن الحضارة المادية.

القضاء :

كان القضاء للخلفاء ، لأن الخلافة مركز دينى ينوب صاحبها عن رسول الله . وقد كان عليه السلام قاضياً ، كما كان للشريعة مبلغاً . ولم يكن للمسلمين فى عهده ولا فى عهد أبى بكر قاض (سواهما) ، إذ كانت الأمة لاتزال على بساطتها وضيق رقعتها . وظلت على ذلك حتى انتشرت الفتوح الاسلامية فى عهد عمر ، وارتبط العرب بغيرهم من الأمم ، فدعت حالة المدنية الجديدة إلى إدخال نظام تشريعى لفض المشاكل التى تنشأ بين الأفراد من العرب وغيرهم . وقضى هذا النظام بتعيين قضاة ينوبون عن الخليفة فى فض هذه المشاكل ، طبقاً لأحكام الكتاب الكريم ، والحديث الشريف (السنة) ، والقياس فيما لم يرد فى كتاب ولا سنة ولا إجماع (١)

ويقصد بالقياس هنا أن القاضى إذا عُرضت عليه قضية لم يجد فيها حكما منصوصاً عليه فى القرآن الكريم ولا فى سنة رسول الله ، ولم تكن مما صدر فيها حكم باجماع الصحابة ، فعلى القاضى حينئذ أن يبحث عن مشكلة تشبه ما بين يديه من المشاكل يكون قد صدر فيها حكم من القرآن أو السنة أو الإجماع ؛ فاذا عثر على شىء من ذلك قضى به . وفى ذلك يقول الماوردى (٢) فى كلامه عن شروط القاضى « . . . والرابع علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها ، حتى يجد طريقاً إلى العلم بأحكام النوازل وتمييز الحق من الباطل » .

(١) هو اتفاق مجتهدى الأمة فى عصر من العصور على أى حكم من الأحكام ، بشرط أن يكون له مستند من الكتاب والسنة . وهذا يكفى من غير تعرف المستند .

(٢) الاحكام السلطانية ص ٦٣ .

وهذا ما حدا بتسمية هذا المصدر من مصادر الشريعة الاسلامية بالقياس ، كما يتبين ذلك من كتاب عمر إلى أبى موسى الأشعرى قاضيه على الكوفة . وفيه يقول : « .. القضاء فريضة محكمة وسُنة متبعة .... الفهمَ الفهمَ ، فيما تلجلج فى صدرك ، مما ليس فى كتاب ولا سنة ، فاعرف الأشباه وقس الامور عند ذلك . »

وكان القضاء يسند للوالى إذا كانت ولايته عامة ، بمعنى أن تكون إليه الصلاة والخراج والجند والشرطة والقضاء . وكان من مستلزمات القاضى أن يكون رجلا عفيفاً ، ورعاً تقياً ، عالما مجتهداً ، سليما من العيوب التى تحول دون معرفة الحقيقة كالعمى والصمم ، لا تأخذه فى الله لومة لائم .

أما مسألة اختيار القاضى وتعيينه ، فقد كانت خاضعة لنوع سلطة الوالى : فان كانت ولايته عامة ، قام الوالى بتعيينه ، وإن كانت ولايته خاصة ، كأن يكون عاملا على الخراج أو على الصلاة ، فاختياره يكون من قِبل الخليفة مباشرة .

وقد دعت سُنة التقدم والارتقاء إلى اتخاذ الشهود (المحلفين) حين فشت شهادة الزور ، إذ جرت العادة أن تقبل شهادة من يتقدم لأدائها ، سواء أكان ممن عرف بالخير أو بالشر . فقضى النظام الجديد بتعيين شهود عدول ، عرفوا بحسن السمعة والفقه ، فصاروا من هيئة المحكمة ، يعمل برأيهم القاضى فيما له علاقة بالمتقاضين .

وكان من اختصاصاتهم أيضا الشهادة على ما يصدره القاضى من الأحكام وأنه غير مخالف لأحكام الشريعة الاسلامية . وهذا النظام أشبه بنظام المحلفين فى العصور الوسطى ، ولا يزال فى انجلترا

الى اليوم ، وإن كانت أعمال المحلفين تختلف الآن بعض الاختلاف عما كانت عليه فى العصور الوسطى .

***

توزيع سلطات القضاء

وكانت سلطة القضاء موزعة بين القاضى وبين المحتسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض القضايا المرتبطة بالدين بوجه خاص . وللمحتسب حق النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفى الجنايات أحيانا ، مما يستدعى أمر الفصل فيها الى السرعة . ويفصل قاضى المظالم فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب . ولهذا اعتبرت الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم .

وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان الى رجل واحد ، مع مابين العملين من التباين ، لأن عمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وعمل المحتسب مبنى على الشدة والسرعة فى الفصل[1]

مرتبات القضاة :

كان مرتب القاضى لايقل ، على ماهو معروف من التاريخ ، عن عشرة دنانير فى الشهر . وبلغ بعد ذلك سبعة دنانير فى اليوم ، حتى لاينظر القاضى بعد هذا المرتب الى شيء . وكان يضاف الى القضاء أحيانا أعمال أخرى كالقَصص وبيت المال والمظالم ، فيتقاضى القاضى ماتخصص لكل وظيفة من هذه الوظائف مما أدى الى ضخامة مرتبه .

وقد عرف عن قاضى مصر عبد الرحمن بن حجيرة (٦٩ — ٨٣هـ) أنه كان يتناول ألف دينار فى العام : مائتان عن القضاء ، ومائتان عن القَصص ، ومائتان عن بيت المال . وكان عطاؤه مائتى دينار وجائزته مائتان .

(١) الاحكام السلطانية للماوردى (طبعة القاهرة) ص ٦١ - ٧٢

الحسبة :

كان للمحتسب النظر فى مراعاة أحكام الشرع ، والاشراف على نظام الأسواق ، والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور . وكان اليه ايقاف مضايقة الجمهور ، والاشراف على الموازين والمكاييل ، وعلى استيفاء الديون [1] .

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين ، فكان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق ، فيفتشون القدور واللحوم ، وأعمال الطهاة ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع ، ويشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ، ولبس السراويل بما لا ينافى الآداب العامة . ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب صغار الأولاد ضربا مبرحا ؛ ويحولون دون تغرير معلمى السباحة بالصغار .

وقصارى القول ، فالمحتسب هو الذى يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ؛ وهو المحافظ على الآداب وعلى الفضيلة والأمانة . وكانت سلطته من الاتساع بحيث كان له أن يستعين بالشرطة على تنفيذ أحكامه [2] .

النظر فى المظالم :

وكانت هناك سلطة قضائية أعلى من سلطة القاضى والمحتسب ، وهى سلطة قاضى المظالم . ولا غرو فقد كانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا فى عصرنا . تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضى عن تنفيذ حكمه فى قضية رجل من علية القوم

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٢٨ — ٢٣٠

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة بيروت سنة ١٩٠٠) ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤

وقد دعت الحاجة الى انشاء محكمة المظالم لايقاف تعدى ذوى الجاه والحسب (١). ولهذا كان يسند النظر فى المظالم الى رجل جليل القدر كثير الورع. وقد نظر الرسول عليه الصلاة والسلام فى الشّرْب الذى تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار لحضره بنفسه وقال للزبير: اسبق أنت يازبير ثم الأنصارى، فقال الأنصارى: انه لابن عمك يارسول الله. فغضب الرسول من قوله وقال: يازبير أجره على بطنه حتى يبلغ الماء الى الكعبين. وانما أمر بذلك تأديبا له.

النظر فى المظالم

ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين، لأن الناس كانوا فى الصدر الأول بين من يقوده التناصف إلى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم إلا عليا رضى الله عنه، فانه احتاج إلى النظر، ولم تكن فى الحقيقة كما صارت اليه بعد ئذ. على أنه لم يفرد لسماع الظلامات يوما معينا أو ساعة معينة؛ وإنما كان إذا جاءه متظلم أنصفه، ثم أفردوا يوما خاصا للنظر فى أحوال المتظلمين وتصفح قصصهم. وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان. لكنه كان إذا وقف منها على مشكل احتاج فيه إلى حكم رده إلى قاضيه ابن ادريس الأزدى؛ فكان ابن ادريس هو المباشر وعبد الملك الآمر. وهذه دلالة واضحة على حسن تصرف عبد الملك ومقدار عدالته واحتياطه فى أمور المسلمين.»

محكمة المظالم

وكانت تنعقد محكمة المظالم تحت رئاسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عنه.

وكان صاحب المظالم يعين يوما يقصده فيه المتظلمون، إذا كان من الموظفين، لكى يتفرغ لأعماله الاخرى بقية الأسبوع، إلا اذا كان من عمال المظالم المنفردين بها فيكون له النظر فى جميع الأيام.

وكانت محكمة المظالم تنعقد فى أحد المساجد - كغيرها من المحاكم

---

(١) أنظر De Slane's Trans. of Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, vol I. pp. 346—347.

التى يعقدها القضاة — وكان صاحب المظالم يحاط بخمس جماعات مختلفة ، لا ينتظم عقد جلساته الا بحضورهم .

(١) الحماة والاعوان ، وقد اختيروا بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ الى القوة والعنف ، أو الفرار من وجه القضاء .

(٢) القضاة والحكام ، ومهمتهم الاشارة على صاحب المظالم بأقوم الطرق لرد الحقوق الى أصحابها واعلامه بما يجرى بين الخصوم لالمامهم بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين .

(٣) الفقهاء ، واليهم يرجع قاضى المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية

(٤) الكتاب ، ويقومون بتدوين مايجرى بين الخصوم ، واثبات مالهم وماعليهم من الحقوق

(٥) الشهود ، ومهمتهم الشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لاينافى الحق والعدل .

اختصاصات قاضى المظالم

ومن اختصاصات قاضى المظالم النظر فى القضايا التى يقيمها الافراد والجماعات على الولاة اذا حادوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج اذا اشتطوا فى جميع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين اذا حادوا عن اثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة ، والنظر فى تظلم المرتزقة اذا نُقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها اليهم . وكان يستعان بشخصية صاحب المظالم ونفوذه وهيبته فى التأثير على الخصم حتى يعترف بالحق (فاذا اعترف حُكم عليه باعترافه) تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام ، ومراعاة اقامة العبادات كالجمع والاعياد والحج والجهاد [1]

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٧٣ — ٨١

من هذا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة ، وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة ، وما كان عليه النظام القضائى بشكله الذى وضحناه من الدقة والاتقان . ولا نبالغ اذا قلنا إنه بلغ الغاية . هذا اذا راعينا أن هذا النظام الذى ساد منذ نيف وعشرة قرون لا يقل كثيرا عن مثيله فى الوقت الحاضر .

هذا الى ما كان لهذا النظام القضائى فى العصور الوسطى من المكانة وما لصاحبه من الحرمة ونفاذ الكلمة حتى على الولاة وعمال الخراج . على أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى الخوف ، اذ روعى فى اختيار قاضى المظالم أن يكون رجلا مشهودا له بالورع والتقوى لا تأخذه فى الله لومة لائم .

نعم ! كان الخلفاء بالمرصاد لمن عرف من القضاة بسوء السيرة . ولقد حكى لنا الكندى أن هشام بن عبد الملك الأموى بلغه أن يحي ابن ميمون الحضرمى (١٠٥ — ١١٤ هـ) لم ينصف يتيما احتكم اليه بعد بلوغه . فلما علم الخليفة بهذا عظم ذلك عليه ، وكتب إلى عامله على مصر يقول : « اصرف يحي عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً ، وتخير لقضاء جندك رجلا عفيفاً ورعا تقيا سليما من العيوب ، لا تأخذه فى الله لومة لائم (١) . »

(٣) صاحب الشرطة

الشرطة هى الجند التى كان يعتمد عليها الخليفة أو الوالى على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الادارية التى تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . » وكان عمر أول من أدخل نظام العسس فى الليل . وفى عهد على بن أبى طالب نظمت الشرطة وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة . وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم وهو أشبه بالمحافظ فى هذا العصر . وكان له نفوذ عظيم على الجناة .

---

(٢) كتاب القضاة لأبى عمر الكندى ص ٤٢٣ — ٤٢٤

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر تقوم على الأحكام القضائية ويتولى صاحبها إقامة الحدود، ولكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء، وأصبح لصاحب الشرطة الاستقلال بالنظر فى الجرائم.

وقد أدخل هشام بن عبدالملك نظام «الاحداث»، وكان يقوم صاحبه بالأعمال العسكرية التى تعتبر وسطا بين أعمال صاحب الشرطة والقائد (١)

النظام الادارى :

ظل النظام الادارى للحكومة الاسلامية فى الجملة على ما كان عليه فى بلاد الفرس والروم. ولن يدهش لذلك من عرف حالة العرب النفسية. نعم قد كان من المنتظر أن يقلب العرب نظام الحكومة فى العراق وفارس ومصر وسورية وإفريقية رأساً على عقب. على أن شيئا من ذلك لم يكن. فقد وجد العرب أن هذه الأمم التى بنوا حضارتهم على انقاضها كانت ذات تاريخ مجيد عريق من حيث الحضارة والمدنية والنظم السياسية وغيرها. كما وجد العرب فى تلك البلاد التى فتحوها نظاما إداريا ثابتا. فلم يكن بدأ من قبول هذا النظام وابقائه على ما كان عليه من قبل، ثم إحداث ماعسى أن يتطلبه الاصلاح من التغيير الذى لاغنى للعرب عنه مما يتفق وعقائدهم الدينية، ويتمشى مع مصلحة الشعوب التى دانت للمسلمين. وقد بقى هذا النظام وسار عليه الولاة من العرب وغيرهم دون أن يدخل عليه تغيير يستحق الذكر. فكان بمصر المدير أو المحافظ، والمأمور أو نائب المدير، والخولى أو المفتش الزراعى. وهم لا يختلفون حتى اليوم فى مصر من جهة اختصاصهم عما كانوا عليه زمن الرومانيين، اللهم إلا فى الألفاظ الرومانية التى كانت تطلق على من كانوا يشغلون هذه المناصب قبل الفتح الاسلامى. (٢)

(١) Sayed Ameer Ali, p. 63

(٢) Stanley Lane-Pool, Hist. of Egypt in the middle Ages, p. 18.

بدء تدوين الدواوين

وكان القضاء والصلاة من الأمور الجوهرية التى تناولها التغيير فى النظم الادارية فى عهد الاسلام ، لارتباطهما ارتباطا وثيقا بالدين وهو أساس الحكومة الاسلامية . وقد كان النظام الادارى فى صدر الاسلام وفى عهد بنى أمية نظاماً بسيطاً أولياً ، فلم يتبع نظام توزيع الأعمال على الادارات المختلفة واختصاص كل إدارة بأعمال معينة كما فعل العباسيون .

كان المسلمون يحاربون ابتغاء مرضاة الله لا يريدون على ذلك مالا ولا جزاء إلا من عند الله ، كما كان منهم من بذل كثيراً من ماله فى وجوه البر والاحسان ؛ ولم يفرض لهم النبى صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر عطاء مقرراً . ولكن قد جرت العادة أنهم إذا غزوا أخذوا نصيبهم من الغنائم بحسب ما قررته الشريعة لهم . واذا ورد الى المدينة شىء قسمه النبى عليهم فى المسجد .

جرى الأمر على ذلك حتى كانت سنة ١٥ من الهجرة . وقد توالت الفتوح الاسلامية وأثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز الفرس ؛ فرأى عمر توزيع هذه الأموال على المسلمين مراعيا فى ذلك مراتبهم ومبلغ استحقاقهم ، ولكنه لم يعرف كيف يؤدى هذا العمل على أتم الوجوه وأضبطها ، فأشار عليه أحد مرازبة الفرس بادخال نظام الدواوين الذى سار عليه الفرس لضبط دخل الدولة وخرجها . فعمل عمر بمشورته ودوّن الدواوين وفرض العطاء ، فجعل لكل واحد من المسلمين عطاء مقرراً مراعياً فى ذلك السبق الى الاسلام وإلى نصرة الرسول فى حروبه ، كما فرض لزوجات النبى وأقاربه . واستخدم لذلك الكتاب فى الدواوين ، فرتبوا طبقات الناس مبتدئين بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ثم بنى هاشم ثم بمن بعدهم . وجرى الحال على ذلك مدة خلافته وخلافة عثمان الذى أدخل فى أيامه تعديلا يستحق الذكر .[1]

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٧٩ — ٨٠

التقسيم الاداري في عهد الامويين

بلغت الدولة الاسلامية أقصى اتساعها في عهد الأمويين ؛ وكانت مقسمة إدارياً إلى خمس ولايات كبرى وهي :

(١) الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب (٢) مصر بقسميها السفلى والعليا (٣) العراقان العربي (وهو عبارة عن بلاد بابل وآشور القديمة) والعجمي (وهو عبارة عن بلاد الفرس نفسها) وعمان والبحرين ، وكرمان وسجستان، وكابل وخراسان، وبلاد ما وراء النهر والسند ، وبعض أجزاء بلاد البنجاب. وكانت كل هذه الاقطار تكون ولاية كبيرة يتولى أمرها والي العراق وحاضرته الكوفة . وكان يلي خراسان وما وراء النهر عامل من قبل والي العراق ، ومركزه مدينة مرو عادة . وكانت بلاد البحرين وعمان تحت اشراف عامل البصرة من قبل والي العراق . وكان يلي بلاد السند والبنجاب عامل آخر من قبل والي العراق .

(٤) بلاد الجزيرة ويتبعها أرمينية وأذربيجان وبعض أراضي آسيا الصغرى .

(٥) والولاية الخامسة ـ وهي أهم هذه الولايات ـ كانت تشمل كل إفريقية الشمالية حتى غرب مصر وبلاد الأندلس وجزر صقلية وسردينية والبليار ومركزها القيروان . وقد أناب والي إفريقية ولاة من قبله لحكم طنجة وجزر البحر الأبيض المتوسط وبلاد الأندلس التي كانت حاضرتها مدينة قرطبة . (١)

نظام البريد

«البريد في الاصطلاح هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن . فاذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها ، وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرسا مستريحا . وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة . وأما معناه اللغوي ، فالبريد هو اثنا عشر ميلا . وأظن أن الغاية التي كانوا قدروها بين بريد وبريد هي هذا القدر . » وقال الصاحب علاء الدين :

---

(١) Sayed Ameer Ali. pp. 187—188

ومن جملة الأشياء وضعهم البريد بكل مكان طلبا لحفظ الأموال وسرعة وصول الأخبار ومتجددات الأحوال . » (١)

وقد ذكر القلقشندى (٢) أن البريد هو مسافة معلومة قدرها اثنا عشر ميلا، وقدره الفقهاء وعلماء المسالك بأنه أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال .

ويرجع هذا النظام إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم . على أن مقاديره أومسافاته لم تكن ثابتة ، بل كانت متفاوتة . وقد أضاف القلقشندى (٣) إلى ماتقدم أن نظام البريد قد أدخل فى الاسلام منذ أيام معاوية بن أبى سفيان ، وأن أمره لم يحكم إلا فى عهد عبد الملك ابن مروان . وذكر القلقشندى أيضا أنه كان يطلق على الرسول بريد . وقد قيل إن هذا اللفظ عربى . وذهب آخرون إلى أنه فارسى معرب . وأصله بالفارسية « بريد » دم ومعناه مقصوص الذنب ، وذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز بذلك عن غيره من الدواب الأخرى .

الجيش

كانت وحدات الجيش من القبائل العربية وبخاصة من أهل الحديبية والطائف وغيرهما من المدن .

وكان الخليفة فى أول الأمر يختار قائد الجيش ، وهذا يختار بدوره الموظفين الذين يعملون تحت إمرته .(٤) وكان القائد ينوب عن الخليفة

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠١ — ١٠٢

(٢) القلقشندى ج ١٤ ص ٣٦٦

(٣) شرحه ج ١٤ ص ٣٦٦ — ٣٦٨

Von Kremer, Culturgeschichte des Orients, trans. by Khuda Bukhsh, p. 206

(٤) Von Kremer, Culturgeschichte, p. 279.

فى إقامة الصلاة ، وإذا ما اجتمع أكثر من قائد فى مكان واحد ، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس ، فيصبح هذا القائد بمثابة قائد القواد.(١)

وكان الجيش يتألف من الفرسان والرجالة ، وكان الأولون يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح ، والآخرون بالدروع والحراب والسيوف والقسى والسهام .

الرماة

وكان العرب فى جاهليتهم يستعملون هذه الأسلحة . وكانت لهم بها عناية كبيرة ، لأنهم كانوا يحمون بها أعراضهم ويستجلبون بها معائشهم وخصوصا القسى التى كان لهم بها مهارة عظمى لحدة أبصارهم ولحاجتهم اليها فى الصيد . وقـــد بلغ من مهارتهم فى الرمى بالقوس مافاق حد التصور ، حتى إن الرامى إذا أراد أن يرمى أحد عينى الغزال دون الآخر رماها فلما جاء الاسلام ساعدتهم مهارتهم على غلبة الروم لأن هؤلاء لم يكونوا يحسنون رميها . ولذلك كان قادة المسلمين يدربون رجالهم على اتقان الرمى بالنبال . وكان عليه الصلاة والسلام يقول « اركبوا وارموا ؛ وان ترموا أحبُّ إلى من أن تركبوا » . ومن أقواله وهو قائم على المنبر « أعدوا لهم مااستطعتم من قوة ألا إن القوة الرمى ألا أن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى » . (٢)

وكان الرماة أهم عناصر الرجالة فى الجيش العربى . وكان الرجالة يقفون فى صفوف متزاحمة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان . وكان جند الجيش يتألفان عادة من الفرسان .

ويرجع فَوْقُ جناحا العرب على أعدائهـــم فى ميادين القتال إلى ماامتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة ، والمثابرة والصبر على تحمل الشدائد . واذاما أضفنا إلى هذه الصفات ماامتازوا به من الحماس

---

(١) Sayed Ameer Ali, p. 64

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٣٧ — ١٤٠

وبذل النفس فى نصرة الدين ، أمكننا الاهتداء إلى سر ذلك الفوز الذى أحرزه العرب فى حروبهم . وكانت الدولة العربية تسخو فى تموين الجند وامدادهم بما يحتاجون اليه من الزاد والسلاح .

وكان الجند يقطعون المسافات البعيدة على ظهور الابل . وكانوا يقيمون أول الأمر فى أكواخ مصنوعة من سعف النخل . ثم عدل عمر عن هذه الخطة وأمر باقامة الحصون والمعسكرات الدائمة . ومن ثم بنيت البصرة والكوفة فى العراق والفسطاط ، وفى مصر والقيروان وافريقية وهكذا . كما أقيمت حاميات فى أماكن أخرى مثل حمص وغزة والرها وأصفهان والاسكندرية لصد هجمات العدو المفاجئة .

الفرسان

وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور . وكان الرجالة يرتدون أقبية قصيرة متدلية إلى ماتحت الركبة ، وسراويل ونعالا تشبه النعال التى يلبسها أهل بلاد الأفغان اليوم .

وكان الجند يكبرون ويتلون الآيات القرآنية أثناء سيرهم للغزو والجهاد وأثناء المعارك الحربية ، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس فى نفوسهم .

النساء

وكانت النساء يصحبن الجيش ويخصص لهن أماكن فى المدن الحصينة والمعسكرات . (١)

وكان القواد يحافظون كل المحافظة على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على كل من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالى البلاد المفتوحة بسوء . ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر . وكان الجندى لا يقيم بالجيش أكثر من أربعة أشهر إذا كان بعيداً عن أسرته . (٢)

(١) Sayed Ameer Ali, p. 64

(٢) Sayed Ameer Ali, pp. 64—65.

البحرية

لم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية فى صدر الاسلام لبداوتهم وعدم تعودهم ركوب البحر وممارستهم أحواله . وكان أول من ركب البحر أبو العلاء الحضرمى والى البحرين فى عهد عمر ؛ فقد توجه لغزو بلاد فارس فى اثنى عشر ألفا من المسلمين من غير إذن من الخليفة ، وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التى عبروا بها إلى بلاد فارس . فلما علم بذلك عمر - وكان يكره ركوب البحر - غضب على أبى العلاء وعزله .

ولما فتحت الشام ألح معاوية على عمر فى أن يأذن له بغزو بلاد الروم لقربها منه ، فطلب الخليفة من عمرو بن العاص والى مصر أن يصف له البحر وراكبه فكتب إليه عمرو :

« إنى رأيت البحر خلقا كبيراً يركبه خلق صغير ، والماء إن ركد حزن القلوب ، وإن نزل أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود . إن مال غرق وان نجا برق » ، فعدل عمر عن ذلك وكتب الى معاوية يردعه عن ركوب البحر .

وقد علل ابن خلدون (١) سبب امتناع العرب فى أول عهدهم عن ركوب البحر فقال :

« والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التقلّب على أعواده مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خَوَلاً لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية ، أمما وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ — ٢٢٢

والشوانى(١) وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوْها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من عمالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والغرب والأندلس » .

البحرية فى عهد عثمان

ولما ولى عثمان الخلافة ألح عليه معاوية فى غزو الروم فأذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر ، فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس ؛ فغزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ، كما حارب عبد الله بن سعد ابن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان قسطنطين بن هرقل فى بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وانتصر عليه فى موقعة ذات السوارى التى اشتبك فيها ألف سفينة للبيزنطيين ومائتان للمصريين . وفى هذه السنة أيضا فتح العرب جزيرة قبرص ، كما جردوا حملة لغزو بلاد الدولة البيزنطية .

البحرية فى عهد معاوية

ومن ذلك الحين أخذت الحملات البحرية تترى على تلك البلاد . ولما ولى معاوية الخلافة عنى بانشاء السفن الحربية . وفى عهده غزا عقبة ابن عامر جزيرة رودس . وفى سنة ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧-٦٢هـ) وقتلوا عدداً كبيرا من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص . ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن فأنشئت لأول مرة سنة ٥٤ هـ داراً لبنائها فى جزيرة الروضة (٢)

أما إن العرب كانوا مدينين فى الأصل للبيزنطيين فى هذه الناحية من الفنون الحربية ، فهو أمر لا سبيل الى إنكاره . إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة ؛ وان تتلمذوا للبيزنطيين فى تلك الناحية فترة من الزمن ، فإنهم قد أصبحوا فيها بعد أساتذة أوربا

(١) الشونة — هى المركب المعد للجهاد فى البحر وجمعها شوانى

(٢) المقريزى خطط ج ٢ ص ١٩٠-١٩١

فى هذه الفنون . يدلنا على ذلك أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة فى أوربا لاتزال تحتفظ بعربيتها إلى اليوم .(١)

الدواوين

أخذ عمر عن الفرس نظام الدواوين ؛ فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء ، وديوان الخراج أو الجباية لتدوين مايرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء .

وقدانحصرت الأعمال الادارية فى عهد بنى أمية فى أربعة دواوين أو إدارات رئيسية وهى :

١ ـ ديوان الخراج

٢ ـ ديوان الرسائل وكان لصاحبه الاشراف على الولايات والرسائل التى ترد من الولاة .

٣ ـ ديوان المستغلات أو الايرادات المتنوعة .

ديوان الخاتم

٤ ـ ديوان الخاتم وقد أنشأه معاوية بن أبى سفيان (٢) وهو أكبر دواوين الحكومة . وكان فيه نواب مهنتهم نسخ أوامر الخليفة وايداعها هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع وتختم بخاتم صاحب هذا الديوان ، كما هو الحال اليوم فى قلم « الارشيف » أو السجلات .

ويرجع السبب فى انشاء هذ الديوان الى أن معاوية أحال رجلا على زياد بن أبيه عامله على بلاد العراق بمائة ألف درهم . فضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب ـ وكانت توقيعاتهم تصدر غيرمختومة ـ وجعل المائة مائتين . فلما رفع زياد حسابه الى معاوية أنكر هذا العدد وقال « ما أحلته إلا بمائةألف » ، ثم استعاد المائة ألف من الرجل ووضع

---

(١) Hell, Die Kultur der Araber. Khuda Bnkhsg p. 72.

(٢) Von Kremer. Culttrgeschichte des Orients. trans. by Khuda Bukhsh. p. 193

ديوان الخاتم . فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشمل عليه ولا هو يستطيع أن يغيرها فى شىء (١)

على أن ختم الرسائل والصكوك كان موجودا قبل ذلك . فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب الى هرقل امبراطور الروم قيل له ان العجم لا يقبلون كتابا إلا إذا كان مختوما . فاتخذ الرسول خاتما من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » ، وختم به أبو بكر وعمر وعثمان الى أن سقط من يد عثمان فى بئر أريس ، فصنع آخر مثاله (١) . أما فى الدولة العباسية فقد كان يختم على الرسائل بخاتم السلطان وكان هذا الخاتم يغمس فى طين أحمر مذاب بالماء — ويسمى طين الختم — ويطبع به على طرف السجل عند طيه وإلصاقه (٢).

وما زال ديوان الخاتم معدودا من الدواوين الكبرى من خلافة معاوية الى أواسط الدولة العباسية ، ثم ألغى لتحول الأعمال إلى الأمراء والوزراء والسلاطين وغيرهم . ولما أراد الرشيد أن يستوزر جعفر بن يحيى البرمكى بدل أخيه الفضل قال لأبيهما : يا أبت إنى أردت أن أحول الخاتم من يمينى الى شمالى » ، فكنى له بالخاتم عن الوزارة . وقد بلغ من أهمية الخاتم أن كان الوزير إذا تناوله ليختم به كتاباً وقف تعظيما للخلافة وإجلالا لاسم الخليفة .

وكان بجانب هذه الدواوين الأربعة مصالح أخرى أقل أهمية من هذه : منها ماهو خاص بصرف نفقات الشرطة وماهو خاص بنفقات الجند .

صبغ الادارة بالصبغة العربية

وكان ديوان الخراج (المالية) يكتب بالفارسية والرومية إلى عهد عبد الملك بن مروان ؛ فنقل عبد الملك ديوان فارس والشام إلى العربية ونقل ابنه الوليد ديوان مصر إلى العربية .

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٢

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠

(٣) شرحه ص ٢٠٦

ويقول السيد أمير على إن النظام الإدارى والسياسى للولايات الاسلامية فى عهد الدولة الأموية لم يكن من عمل معاوية ، وإن عبد الملك هو المؤسس الحقيق لهذا النظام ؛ فقد صبغ الادارة والمالية بالصبغة العربية ، وبتحويله الدواوين الى العربية تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدى المسلمين من العرب. وقد قام بتنفيذ سياسة عبدالملك الحجاج بن يوسف

الطراز

لما فتح المسلمون بلاد الفرس والروم واتسع ملكهم وعظمت دولتهم ، اقتدوا بالأكاسرة والقياصرة ، فاتخذوا الطراز عن الروم . ولكنهم لم يستحسنوا اتخاذ الصور لتحريمها فى الاسلام ، بل استعاضوا عنها بكتابة أسمائهم وكلمات أخرى تجرى مجرى الفأل والدعاء . وظلوا على ذلك الى أيام عبد الملك ؛ فنقله إلى العربية . وبدأ بالقراطيس — وكانت تنسج بمصر — وطرازها (باسم الأب والابن وروح القدس)، فأمر عبدالملك بترجمة هذه العبارة ؛ فلما وقف عليها أكبر أمرها وقال : ماأغلظ هذا فى أمر الدين والاسلام . وكتب الى أخيه عبد العزيز عامله على مصر بابطال هذا الطراز واستبدال تلك العبارة باحدى الشهادتين (لا إله إلا الله) ، ففعل . وظل هذا الطراز فى سائر الدولة الاسلامية ولم يغير شىء من جوهره . وكتب عبد الملك إلى عماله بابطال مافى أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومُعاقبة من يخالف ذلك .

وقد بنى الخلفاء فى قصورهم دوراً لنسيج أثوابهم ؛ فكان القائم عليها يسمى صاحب الطراز ينظر فى أمور الصياغ والحاكة ، ويجرى عليهم أرزاقهم ويشرف على أعمالهم . وبلغت هذه الدور أوج عظمتها فى أيام الدولتين الأموية والعباسية .

ولما حملت هذه القراطيس إلى بلادالروم وعلم الامبراطور بها ، أنكر مافيها واستشاط غيظاً ؛ فكتب الى عبد الملك : إن عمل

القراطيس بمصر وسائر مايطرز هناك للروم ، ولم يزل يطرز بطرازهم. فإن كان ماتقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأ؛ فاختبر احدى الحالتين . وبعث اليه بهدية يسترضيه بها للرجوع الى الطراز . فرد عبد الملك هديته وأخبر الرسول ألا رد عنده، فأعاد اليه أضعافها وطلب الجواب . فلما لم يرد عليه جواباً غضب الامبراطور وبعث يهدده بنقش سب النبي على النقود ؛ فكان ذلك داعياً الى تنبه عبد الملك الى ضرب النقود .

اصلاح السكة

وكان اصلاح العملة (١) من أهم أعمال عبد الملك التى تدل على حسن سياسته وبعد نظره ، إذ لم يكن فى الدولة العربية الى ذلك الحين عملة مقررة . وكان لكل ولاية دار ضرب خاصة بها تضرب ما تحتاج اليه من العملة . على أنها لم تف بالغرض المطلوب لعدم ضبطها وكثرة تزييفها . وكانت العملتان البيزنطية والفارسية هما المستعملتان عادة . وكان الصوليدى Solidi الرومانى أساس الدينار الذهبى (٢) ، والدرهم العمرى (المنسوب الى عمر بن الخطاب) أساس العملة الفضية .

فلما اتسعت رقعة الدولة العربية وارتقت التجارة، رأى عبدالملك أنه من الضرورى انشاء نظام رسمى ثابت للعملة . فبنى داراً رئيسية للضرب ، وأمر بسحب العملة المستعملة فى جميع أنحاء الدولة ، وضرب بدلها عملة جديدة مصنوعة من الذهب والفضة . وكان يعاقب من يزيف العملة عقابا صارما .

هذا وقد سار الوليد على سياسة أبيه فحول ديوان الخراج فى مصر الى العربية بعد أن كان باليونانية

---

(١) A short History of the Saracens, Sayed Ameer Ali, p. 189

(٢) Von Kremer, Orient Under the Caliphs, pp.199—200

لغة الديوان فى مصر الى عهد الوليد

ونستطيع أن نؤكد أن الخراج إنما كان يدون فى مصر باللغة اليونانية ، التى كانت اللغة الرسمية فى تلك البلاد إلى عهد الوليد بن عبد الملك (شوال ٨٦ - جمادى الثانية سنة ٩٦ هـ) ، وذلك استنادا إلى ما نجده فى أوراق البَرْدى العربية ذات الصبغة الرسمية التى عُثر عليها ، والتى يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن عبد الملك ؛ فقد دونت باليونانية والعربية معا .

محتويات بعض اوراق البردى

ولنأت بوصف لبعض هذه الوثائق نقلا عن كتاب أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولف جروهمان (١) . ففى صفحة ٢١ نجد الطراز رقم ٥ المؤرخ (٩٠ - ٩٦ هـ) ، وهو عبارة عن كتاب من أهل كورة أشْقوه (٢) (كوم أشقوه) الى الأمير قُرَّة بن شَريك صاحب الخراج والصلاة فى مصر .

مرسوم من الوالى عبدالله بن عبدالملك

ونجد فى صفحة ٢٥ الطراز رقم ٥٩ وهو بمثابة مرسوم صادر من عبد الله بن عبد الملك بن مروان صاحب الخراج والصلاة فى مصر (٨٦ - ٩٠ هـ) . وفيه بعد البسملة وعبارات التوحيد وذكر أمير المؤمنين الوليد (بن عبد الملك) هذه العبارة : هذا مما أمر به الأمير عبد الله بن عبد الملك فى سنة ست وثمانين .

وتدل هذه الوثيقة على أن اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين فى دواوين الحكومة : الأولى على أنها اللغة الرسمية التى كانت تدون بها الأعمال فى تلك الدواوين ، والثانية لأنها لغة الحاكم العربى ، وذلك لصدور هذه الوثيقة عن رجل له صفة رسمية وهو والى مصر . وكذلك نجد فى صفحة ٢٧ الطراز رقم ٦٧ وهو شبيه بهذا تماما . غير أنه مؤرخ بسنة ٨٩ هـ .

مراسيم من قرة بن شريك

وكذلك كانت الحال فى الوثائق التى صدرت عن الوالى الذى حل محله فى ولاية الصلاة والخراج فى مصر وهو قرة بن شريك ، فانها بمثل هاتين الصيغتين وفى نفس هذه المسائل الرسمية (٣)

---

(١) أنظر ترجمتنا العربية لهذا الكتاب (٢) كورة معناها اقليم

(٣) انظر الطرز رقم ٦٨ ، ٢٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٩ ، فى الصفحات ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤

يضاف إلى ذلك الطراز رقم ٦٨ الذى نجد به ثبتا فيه عدة أسماء أمام كل منها مقدار ما دفع . ولهذه الوثيقة أهمية كبيرة لتعلقها بمسألة الخراج مباشرة .

صكوك قبطية مدونة على ورق البردى

وقد يلاحظ أن فى بعض أوراق البردى كتابات باللغة القبطية إلى جانب اللغتين اليونانية والعربية . وربما دعا هذا إلى الاعتقاد بأن اللغة القبطية ربما كانت لغة رسمية . ولكننا نستطيع أن ندفع هذا الاعتقاد بما نلاحظه على هذه الكتابات القبطية من أنها قد دونت إما فى آخر الوثيقة (١) أو فى ظهرها (٢) ، مما يدل على أن هذه اللغة كانت لغة فى الدرجة الثالثة من الأهمية ، ومن ان هذه الكتابات كلها قد دونت بحبر مخالف لحبر النص الأصلى للوثيقة (٣) ؛ كما أننا نلاحظ أن هذه الكتابات القبطية يختلف موضوعها عن موضوع النص الأصلى اليونانى العربى ، فموضوعها فى الغالب من نوع واحد هو الصكوك . كما وجد فى بعض الوثائق صكوك باليونانية (٤) يضاف إلى ذلك كله أنه لم يعثر حتى الآن على وثيقة رسمية كتبت بالقبطية فى العهد العربى

ومما يدل على أن كتابة هذه الوثائق باليونانية والعربية كانت عامة

---

(١) يقول جروهمان فى وصف احدى هذه الأوراق : « ... وعرض الفراغ الذى بين السطر الأخير من الطراز والسطر الاول من الصك القبطى ٥ سم ... (ص ١٣) ويقول فى وصف الطراز رقم ٦ المؤرخ (٨٦ – ٩٦ هـ) وفى أسفل الطراز فراغ عرضه ٥ و١ سم وفى أسفله نص قبطى ، وكذلك رقم ٣ ص ٤٤ يوجد بين النص القبطى ومتن الطراز ٥ و٦ سم .

(٢) كما فى الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣ ، فان به سطرين من متن قبطى كتبا فى ظهر الطراز وكذلك الطراز رقم ٤ ص ٤٦ توجد أربعة أسطر قبطية فى ظهر الاصل

(٣) أنظر وصف جروهمان للطراز رقم ٦ فان اصله مكتوب بحبر بنى مائل للسواد بينما السطور القبطية الملحقة به مكتوبة بحبر أسود . وكذلك الحال فى الطراز رقم ٦١ ص ١٣ ثم الطراز رقم ٦٦ ص ٢٣ . وعلى العكس من ذلك الطراز رقم ٣ ص ٤٤ فان لون الحبر فى نصه الاصلى أسود ، ولونه فى النص القبطى بنى

(٤) أنظر الطرز رقم ٣١ ، ١٨ ، ٥٠ فى الصحفات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ على الترتيب

لسكان مصر يخاطب بها اليونان والأقباط وغيرهم ؛ ماورد فى صفحة ٥٤ عن الطراز رقم ٣٠ . ففيه ثبت على عمود ممتد ١١ سطرا يحتوى على أسماء من القبط . . . ويرجع خطه اليونانى المنمق إلى القرن الثامن الميلادى .

النظم المالية :

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها . وقد سارت الدولة الاسلامية على هذه السياسة منذ نشأتها ، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الاسلامية ؛ وهو بهذا يشبه وزارة المالية فى العصر الحاضر ، وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية .

بيت المال

والمال الوارد لبيت مال المسلمين إما أن يكون ضريبة عن الأرض أو عن أشياء أخرى غير الأرض :

موارده

فضريبة الأرض تسمى عُشرا وخراجا . ويؤخذ العشر من غلة الأرض التى أسلم أهلها بدون حرب أو التى فُتحت عُنوة ، فصارت غنيمة للمسلمين ثم قسّمها الخليفة على الفاتحين .

ضرائب الأرض

ويؤخذ الخراج — وهو مقدار معين من المال أو الحاصلات — عن الأرض التى فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد أن عَوّضَ المحاربين عن نصيبهم فيها أو استرضاهم كما فعل عمر بن الخطاب ، ويؤخذ عن الارض التى أفاء الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت مال المسلمين .

يضاف الى ذلك الزكاة التى يدفعها المسلمون عن أموالهم المنقولة

الزكاة

كالذهب والفضة ومتاجرهم وحيواناتهم التى يُرْعُونها فى الكلأ المباح (أى المراعى العامة ويقال لهذه الحيوانات السّوائم).

الضرائب الاخرى

وكان لبيت المال موارد أخرى كنصيبه من الفىء والغنائم والركاز وكجزية الرءوس التى يدفعها أهل الكتاب عن أشخاصهم، والعشر الذى يدفعه المشركون عن متاجرهم وسفنهم التى تدخل بلاد المسلمين وموانيهم، ويُسمى العُشور (وهو يقابل ما نسميه فى الوقت الحاضر بالضرائب الجمركية) كما كانت ترد إلى بيت المال الأموال التى لم يُعلم لها مستحق كاللُقطة وتركة مَن لا وارث له والأموال التى يصالح عليها المسلمون أعداءهم ونحو ذلك.

ويجمل بنا أن نأتى بكلمة إجمالية عن كل مورد من هذه الموارد التى تمد بيت المال بالأموال.

العشر

فالعشر هو ذلك النصيب الشائع من ثمرة الأرض ومحصولها ويؤخذ من الأرض التى أسلم أهلها وهم عليها، سواء أكانت من أرض العرب أم من أرض العجم. فانها كانت تترك لهم على أن يدفعوا عنها العشر زكاة لها، كما يزكون عن أنواع الأموال الأخرى. وكذلك يدفع العشر عن الأرض التى ملكها المسلمون من أهلها عنوة إذا قسمها الخليفة على المحاربين وملكهم إياها. والأرض العشرية تظل عشرية ولو ملكها ذمى

الخراج

الخراج هو الضريبة التى توضع على الأرض المزروعة التى ملكها المسلمون بالصلح أو بدون حرب لهرب أهلها منها خوفاً ورَهبة، أو الأرض التى ملكوها عنوة وتركوها فى أيدى أهلها على خراج يؤدونه لبيت مال المسلمين كأنه أجرة للأرض. ويؤخذ ممن يستغلها مسلماً كان أو ذمياً.

ما يدفع خراجاً

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غــلة كما صنع عمر

فى أرض السواد [١] واما حصة شائعة مما يخرج من الأرض ، وهو ما يسمى بالمعاملة أو المزارعة ، كما عامل النبى صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على نصف مايخرج من الأرض قليلا كان أو كثيراً .

مسحت أرض السواد فى زمن عمر بن الخطاب فبلغت ٣٦٠٠٠٠٠٠ جريباً ، فوضع عليها مقادير معينة من الدراهم تختلف باختلاف مقدار الأرض من درهمين إلى عشرة دراهم عن كل جريب . وقد بلغ ما جىء من خراج العراق فى عهد عمر ١٨٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، متوسط جباية الجريب ٥٫٥ درهما . فاذا كان الفدان يساوى ٣٫٥ من الأجربة فتكون ضريبة الفدان المزروع قمحاً ١٤ درهماً .

ولم يكن مقدار الخراج معروفا تماما فى عهد الخلفاء الراشدين .

مقدار الخراج

وقد اختلف المؤرخون فى الخراج ، فقصره بعضهم على جزية الرءوس التى كان مفروضاً أداؤها على أهل الذمة ، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض . وكل منهما يخالف عرف الرواة الذين تحدثوا عن مقدار الخراج فى الولايات . فهم يعنون بالخراج المال الآتى من إحدى ناحيتين : الأولى الضرائب الشخصية المعروفة بالجزية أو جزية الرءوس . الثانية ضرائب الأطيان . ولذلك اختلف تقدير المؤرخين للخراج . وقد شرح هذا يحيى بن سعيد الأنطاكى المتوفى سنة ٤٥٨ ﻫ (١٠٦٦م) فى كتابه (ذيل التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) لمؤلفه أوتيخا أو سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ ﻫ (٩٤٠ م)

---

(١) روى أنه لما فتح السواد فى زمن عمر بن الخطاب شاور الناس فى قسمة الأرضين التى فتحها المسلمون فأراد قوم قسمتها . فقال عمر فكيف بمن يأتى من المسلمين بعدكم فيجدون الأرض قد اقتسمت ودونت ؟ وبعد مناقشات كثيرة جمع عمر الناس وخطبهم خطبة جاء فيها « قد رأيت أن احبس الأرضين بعلوجها واضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم » . فوافقوه على ذلك . وقد طلبوا اليه ان يقسم أرض الشام كما قسم الرسول خيبر فقال عمر اذاً أترك من بعدكم من المسلمين لاشىء : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

ولم يكن الخراج إيراداً ثابتاً . فقد كانت ضريبة الأطيان تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان ونحوها ، كما أن جزية الرءوس كانت تتناقص بالتوالى لدخول أهل الولايات الاسلامية فى الاسلام .

يقول الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية « فاما الخراج فهو ماوضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها ، وفيه من نص الكتاب بينة خالفت نص الجزية . فلذلك كان موقوفا على اجتهاد الأئمة » ثم « يقول والأرضون كلها تنقسم أربعة أقسام : أحدها ما استأنف المسلمون إحياءه فهو أرض عشر (١) لايجوز أن يوضع عليها خراج ، والقسم الثانى ما أسلم عليه أربابه ، فهم أحق به . فتكون على مذهب الشافعى أرض عشر ، ولا يجوز أن يوضع عليها خراج ؛ والقسم الثالث ما ملك عن المشركين عنوة وقهرا ، فيكون على مذهب الشافعى رحمه الله غنيمة تقسم بين الفاتحين فيملكونها ويدفعون العشر من غلتها . وحينئذ تكون أرض عشر لا يوضع عليها خراج ؛ والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون من أرضهم فهى الأرض المختصة بوضع الخراج عليها »

ويقول (ص ١٣٢) « وأما الأرضون إذا استولى عليها المسلمون فتنقسم ثلاثة أقسام : أحدها ماملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو اسر أو جلاء ، فقد اختلف الفقهاء فى حكمها بعد استيلاء المسلمين : فذهب الشافعى رضى الله عنه إلى أنها تكون غنيمة كالأموال ، تقسم بين الفاتحين إلا أن يطيبوا نفسا بتركها فتوقف على مصالح المسلمين ؛ وقال مالك تصير وقفا على المسلمين حين غنمت ولا يجوز قسمتها بين الفاتحين ؛ وقال أبو حنيفة للامام فيها الخيار بين قسمتها بين الفاتحين

فتكون أرضا عشرية أو يعيدها إلى أيدى المشركين بخراج يضر به عليها فتكون أرض خراج . »

جباية الخراج

وكان الخلفاء يعينون عمالا مستقلين عن الولاة والقواد كان اليهم جباية الخراج، فيدفعون منه ارزاق الجند وما تحتاجه المصالح العامة، ويرسلون الباقى إلى بيت المال ليصرف فى مصارفه

على أننا إذا أنعمنا النظر فى نظام الضرائب الذى أدخله عمرو بن العاص فى مصر وسار عليه الولاة من بعده، فاننا نجد أن الضرائب فى العهد الاسلامى كانت اخف بكثير عما كانت عليه فى عهد الفرس والرومان . لأن الضرائب العادية التى كان مفروضا أداؤها على كل ذمى لم تتجاوز دينارين فى العام عن الشخص وهى جزية الرءوس ، ودينارين عن كل فدان وهى جزية الأرض . على أن جزية الرءوس كان يعفى منها الأطفال والنساء والشيوخ .

الخراج فى عهد الخلفاء الراشدين

وعلى الجملة فقد كان عهد الخلفاء الراشدين عهد عدل وتسامح لم يشتد فيه الولاة فى جمع الجزية ؛ وكانت الضرائب المفروضة على الأرض تقدر على حسب مساحة الأرض وجودتها ونوع المحصول . ولم تكن تدفع كلها نقدا بل كان بعضها يدفع عينا . وقد عنى الولاة بأمر الرى لضمان جباية الخراج ، فعنوا بمراقبة السدود وانشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها . وكانت الضريبة تخفض إذا قل المحصول لسبب من الأسباب .

نظام المقاسمة .

وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حسابا عسيراً . وقد بلغ من شدة مراقبة عمر لعماله أن كان يحصى أموالهم قبل توليتهم . فاذا ما انتهت ولايتهم أحصى ثروتهم من جديد ، وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ورده إلى بيت المال، ويعرف هذا بنظام المقاسمة ـ إلا اذا اتضح له أن هذه الزيادة قد أتت إلى العامل بطرق مشروعة .

العشور

وكانت هناك ضريبة أخرى وهي العشر فرضها عمر بن الخطاب على السفن التي تمر ببعض الثغور . ويرجع ذلك إلى أن أباموسى الأشعرى كتب الى عمر أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الحرب (أى بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) فيأخذون منهم العشر ، فكتب اليه عمر « خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين درهما من كل أربعين درهما . ولا تأخذ منهم فيما دون المائتين شيئا . فاذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم . »

الزكاة

الزكاة[1] والصدقة شيء واحد . وهي كل ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع بين فقرائهم . وكان للصدقة ديوان خاص بها فى مركز الخلافة له فروع فى سائر الولايات والبلدان . فكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع العشر (٢ ½ ٪) عما يمتلكونه من المال . وهذه هى زكاة النقد أو النقدين (الذهب والفضة) . أما زكاة الغنم ويلتحق

زكاة السوائم

بها العنز ، فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من أربعين فما فوق إلى مائة ، ثم يبتدىء من ١٠١ إلى ٢٠٠ بمقدار واحدة فى كل مائة . وفى الابل عن كل خمسة شاة إلى أربع وعشرين ؛ فان كانت خمسة وعشرين فعليها بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة أوأقل) . والجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة (بنت سنة) إلى ستين . فاذا بلغ العدد ستين ، كانت بمقدار واحدة بنت سنتين . والخيل ، إذا اعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها ، كل ذلك إذا كانت هذه الحيوانات تأكل من الكلأ المباح فان عَلَفَها صاحبها فلا زكاة فيها وإذا دخلت فى التجارة فتقوّم ويدفع عنها زكاة التجارة . [2]

---

(١) من أزكى الشيء يزكيه اذا نماه أو من زكاه تزكية اذا طهره ؛ وانما سميت بذلك للاشارة الى أن اخراج شيء من مال الانسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وانزال البركة فيه ، وأيضا لأن اخراج شيء من المال يطهره ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء ، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة . قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم)

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٠٨ — ١١٧

مصرف الزكاة

وكانت الزكاة تقسم على الأشخاص المذكورين فى قوله تعالى (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (١)

(ج) الجزية :

وهى قدر معلوم من المال يدفعه من توفرت فيه الشروط الآتى بيانها ؛ وهى تشبه الخراج فى أن كلا منهما جزء من الفىء يجبى فى أوقات معينة كل سنة ، ولكنهما يختلفان فى أن الجزية موضوعة على الرءوس وتسقط بالاسلام وفى أنها قد ثبتت بنص الكتاب الكريم . وأما الخراج فهو على الأرض ، ولا يسقط باسلام المالك . والخراج إنما ثبت بالاجتهاد .

الجزية على الذمى فى مقابل الزكاة على المسلم

وإنما وجبت الجزية على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان ـ وهما رعية لدولة واحـــدة ـ فى المسؤولية والأعباء ، كما تكافآ فى التمتع بالحقوق وتساويا فى الانتفاع بالمرافق العامة للدولة « إذ ليس فى مواشى أهل الذمه من الابل والبقر والغنم زكاة » . والرجال والنساء فى ذلك (أى فى عدم دفعهم الزكاة عن مواشيهم وغيرها) سواء (٢) »

فليست الجزية دينا على الذمى يستوفى منه بالوسائل التى تستوفى بها الديون . فمن وجبت عليه الجزية ومات أو أسلم قبل دفعها لم تؤخذ من تركته ولم يطالب بها ورثته (٣)

على من تجب الجزية

وإنما تجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين

(١) سورة التوبة ٩ : ٦٠

(٢) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٠

(٣) شرحه

على الدفع ، ولا تؤخذ جزية من مِسْكين يُتصدَّق عليه ولا ممن لا قدْرة له على العمل ، ولا من الأعمى أو المقعد والمجنون وغيرهم من ذوى العاهات ، ولا من المترهبين فى الأديرة وأهل الصوامع إلا إن كان واحد من هؤلاء ذا غنى ويسار .

ويلاحظ أن الشرع لم يفرض الجزية إلا على الأشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد ، وأنه أعفى من الجزية الأشخاص الذين يُعفيهم من القتال وفى ذلك يقول الماوردى (١) :

« ... واسمها مشتق من الجزاء ؛ فيجب على ولى الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليَقَرُّوا بها فى دار الاسلام ويلتزم لهم ببذلها بحقين : أحدُهما الكف عنهم والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين »

مقدار الجزية

أما مقدار الجزية فقد ذهب أبو حنيفة إلى تصنيفها ثلاثة أصناف :

١ — أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما

٢ — ومتوسطون يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما

٣ — وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهما

ولا شىء على غير المكسوب (٢) من الفقراء ؛ فحدد نهايتها الدنيا والعليا ، ومنع من اجتهاد الولاة فيها

جباية الجزية

اما جبايتها فقد أوصى صاحب الشرع وقادة الاسلام بالرفق والانصاف فى جباية الجزية من أهل الكتاب وصيانة أرواحهم وأموالهم من العدوان ، وعبث الجباة والولاة . وتقضى القاعدة الفقهية أو دستور الاسلام فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعيها بأنه « لا يضرب أحـــد من أهل الذمة فى استيدائهم الجزيه (أى لحملهم على دفع

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣٧

(٢) كتاب الخراج لابى يوسف ص ٦٩ — ٧٢ ، وتفسير البيضاوى سورة التوبة ٩ : ٢٩

الجزية) ، ولا يقاموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شىء من المكاره . ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم »

معاملة السلف لأهل الكتاب

والأخبار الواردة فى معاملة المسلمين فى صدر الاسلام لأهل الكتاب كثيرة تشهد بروح العدل والرفق والشعور النبيل نحوهم . روى أبو يوسف فى كتابه « الخراج » عن أبى ظبيان قال : « كنا مع سلمان الفارسى فى غزاة ، فمر رجل وقد جنى فاكهة فجعل يقسمها بين أصحابه ؛ فمر بسلمان فسبه ، فرد على سلمان وهو لا يعرفه . فقيل له هذا سلمان ؛ فرجع فجعل يعتذر اليه ثم قال له الرجل ما يحل لنا من أهل الذمة ياأباعبدالله ؟ قال : ثلاث : من عماك إلى هداك ، ومن فقرك إلى غناك ، وإذا صحبت الصاحب منهم تأكل طعامه ويأكل طعامك ويركب دابتك وتركب دابته فى أن لا تصرفه عن وجه يريده »

وروى أن عمر بن الخطاب مر على باب قوم عليه سائل يسأل شيخا كبيرا ضرير البصر ؛ فضرب عضده من خلفه وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ؛ فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه (وأشباهه) فوالله ما انصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين . وهذا من مساكين أهل الكتاب ؛ ووضع الجزية عنه وعن ضربائه (١)

وهذا أبو يوسف قاضى هرون الرشيد يكتب اليه والدولة العباسية فى أوج عزها وسلطانها وبطشها فيقول : قد ينبغى ياأمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يُظلموا ولا يُؤذوا ولا يُكلفوا فوق طاقتهم

(١) كتاب الخراج لابى يوسف ص ٧٢

ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم . فقد رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عند وفاته : أُوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

وروى عن نافع عن ابن عمر أنه قال : كان آخر ما تكلم به النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : احفظونى فى ذمتى (١) ؛ وعن ابن عباس أنه قال : ليس فى أموال أهل الذمة إلا العفو . (٢)

تاريخ الجزية

وليست الجزية من محدثات الاسلام بل هى قديمة . فرضها اليونان على سكان آسيا الصغرى حول القرن الخامس قبل الميلاد ، كما وضع الرومان الجزية على الأمم التى أخضعوها ؛ وكانت سبعة أمثال الجزية التى وضعها المسلمون .

ممن تؤخذ الجزية ؟

وإنما تؤخذ الجزية من غير المسلمين . قال الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾(٣) وأما عبدة الأوثان من العرب ومن ارتد عن الاسلام فانه لا يقبل منه إلا الاسلام أو السيف .

الفيء

والفيء هو كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب فهو كمال الهدنة والجزية والخراج .

---

(١) الاحكام السلطانية للماوردى ص ١٣٧

(٢) كتاب الخراج لابى يوسف ص ٧٠

(٣) سورة التوبة ٩ : ٢٩ . وقد روى صاحب الاحكام السلطانية عن بعض التفاسير فى قوله تعالى (عن يد) أى عن غنى وقدرة . وفى قوله تعالى (وهم صاغرون) أى قابلون أن تجرى عليهم أحكام الاسلام (ص ١٣٧)

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم خمس الفيء يقسم خمسة أسهم متساوية : كل سهم منها لأربابه عملا بقوله تعالى (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) . وبعد موت الرسول عليه السلام ردت الى بيت المال .

وكانت الأربعة الأخماس الباقية تقسم فى صدر الاسلام بين الجند فى الأعمال الحربية لشراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند .

وأهل الغنيمة غير أهل الفيء . فلا تصرف الصدقات لأهل الفيء ولا يصرف الفيء إلى أهل الصدقات . فان الغنيمة والفيء للمجاهدين فى سبيل الله وأهل الهجرة وأهل الصدقات من غير المقاتلة أو المهاجرين . (١)

الغنيمة

هى كل ماأصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال . وتشتمل على أربعة أقسام : وهى الأسرى والسبى والأرضين والأموال . فالأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار الذين يقعون فى الأسر . وأما السبى فهم النساء والأطفال الذين يقعون فى أيدى المسلمين ، فلا يجوز قتالهم ، وإنما يقسمون فى جملة الغنائم . وان كان النساء من غير أهل الذمة أو ممن ليس لهن كتاب ـ كالدهرية وعبدة الأوثان ـ وامتنعن عن الاسلام يقتلن أو يسترققن . ويجوز قبول الفدية عنهن . فان فودى بهم أسرى من المسلمين فى أيدى قومهم عوض عنهم من وقعوا فى نصيبه . وكذلك فى حالة المن عليهم . يدل على هذا مافعله النبى صلى الله عليه وسلم مع هوازن حينما أتوه مستعطفين . وقد قسم السبى على الجيش(٢) . وكانت الأرض التى تؤخذ فى الحرب عنوة يخرج أهلها منها لأنها غنيمة كالأموال . واختلفوا فى كيفية تصرف الامام فيها : هل يحبسها لمصالح

---

(١) الماوردى ص ١٢١

(٢) أنظر ص ١٨٣ — ١٨٤ من هذا الكتاب

المسلمين ؟ أم يقسمها على المحاربين ؟ فالشافعي يرى تقسيمها كما فعل أبو بكر على رأى الشافعي . وقال مالك إنها تصير وقفا كما فعل عمر ، وقال أبو حنيفة بالخيار بين قسمتها أو وقفها .

وأما الأموال المنقولة ، وهي مايمكن نقله كالماشية والمال ، فكانت تقسم بين المقاتلة . وكذلك الحال بالنسبة للأسلاب كثياب القتلى وأسلحتهم ودوابهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها حسبما يرى .

ولما اختلف الصحابة فى تقسيم غنائم بدر شرح القرآن طريقة قسمها فى هذه الآية (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) (١) فكان للامام مع من ذكر فى الآية الخمس وصارت الأربعة الأخماس الباقية حقا للفاتحين (٢)

مصارف بيت المال :

وكان المال الذى يأتى من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة بحسب مايراه الامام ، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين . ولا يصرف للولاة ولا للقضاة شيء من أموال الصدقة ، بخلاف والى الصدقة فانه يصرف رزقه منها . وكانت زيادة أرزاق القضاة والولاة ونقصها من حق الامام

أرزاق القضاة

أعطيات الجند : ويراد بها رواتبهم التى يستولون عليها فى أوقات معينة من العام . وكانت فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم غير محدودة ولا معينة ، وإنما كانوا يأخذون من أربعة أخماس الغنيمة ، وما يرد من خراج الأرض التى بقيت فى أيدى أهلها كما كانت تقسم بينهم بالسوية .

أعطيات الجند

(١) سورة الأنفال ٨ : ٤١

(٢) الاحكام السلطانية ص١٢٥ - ١٢٧

ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه سوّى بينهم فى العطاء قائلا « هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » . ولما ولى عمر رضى الله عنه جعل العطاء بحسب السبق الى الاسلام . فكانت الأرزاق كما يأتى :

لأزواج النبى عليه الصلاة والسلام ولعمه العباس ١٠٠٠٠ درهم إلا عائشة فقد أعطاها ١٢٠٠٠ لمكانتها ومكانة أبيها من الرسول (١) ؛ ولمن شهد بدرا والحسن والحسين ٥٠٠٠ درهم ؛ ولمن كان اسلامه كاسلام أهل بدر ولم يشهدوها ٤٠٠٠ درهم ؛ ولعبدالله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار ٣٠٠٠ درهم ؛ ولأبناء المهاجرين والأنصار ٢٠٠٠ درهم ؛ ولأهل مكة ٨٠٠ درهم ؛ ولسائر الناس مبالغ تتراوح بين ٣٠٠ ، ٤٠٠ درهما ؛ ولنساء المهاجرين والأنصار مبالغ تتراوح بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ ، ٦٠٠ درهما .

وكان يعطى أمراء الجيوش ٧٠٠٠ ، ٨٠٠٠ ، ٩٠٠٠ درهما بحسب الأعمال التى يقومون بها ؛ هذا فضلا عما كان يدفع لنسائهم وأولادهم ، وما فرض لكل منهم من الحنطة . وهو مايخرج من مساحة جريبين .

وقد ظلت أعطيات الجند على هذا النحو أيام الخلفاء الراشدين ؛ فلما طمع بنو أمية فى الملك واحتاج معاوية إلى استنجاد العرب زاد فى أعطيات جنده الذى كان يبلغ عدده ستين ألفا . وكان ينفق عليهم ستين مليون درهم فى العام . فلما صارت اليهم الخلافة وتوطدت دعائم دولتهم انقصوا ذلك المبلغ الضخم الى أقل من النصف

٣ ـ كرى الأنهار وإصلاح مجاريها :

---

(١) تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام لبدر الدين بن جماعة المنشور بالعدد الرابع سنة ١٩٣٤ من مجلة Islamica ص ٣٨٤ ؟

Von Kremer, Culturgeschichte des Orients, tran. by S. Rhuda Bukhsh. p. 57

وكان يصرف من بيت المال على كرى الترع الكبيرة والمجارى التى تأخذ من الانهار الضخمة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الاراضى البعيدة .

٤ - حفر الترع للزراعة وغيرها .

٥ - النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم . (١) .

٦ - المعدات الحربية .

٧ - العطايا والمنح للادباء والعلماء

العطاء

هذا ، ولا يفوتنا أن نذكر أن النظام الذى أقره عمر كان يفرض لكل مسلم دوّن اسمه فى سجلات الحكومة مكافأة سنوية عن خدماته الحربية ، عدا ما كان يمنحه من الأجر (فريضة) لأبنائه لافرق فى ذلك بين العرب والموالى .

على أن هناك أمراً آخر جديراً بالملاحظة ، ذلك أن عدد هؤلاء لم يكن كبيراً فى عهد هذا الخليفة . لذلك أصبح العطاء وقفاً على الدهاقين الذين ساعدوا العرب فى فتوحاتهم . وبذلك يمكننا أن نعلل ما ذهب إليه البلاذرى (٢) من أن العرب فى ذلك الوقت لم يكن يحفظهم أن يقاسمهم غيرهم ممن دخلوا فى الاسلام من غير العرب نصيبهم من الغنائم . وقد ذكر اليعقوبى (٣) أن علياً وحده هو الذى تمسك بالقواعد القديمة ؛ ولا نعلم إلى أى حد اتبع الأمويون الطريقة التى وضعها عمر فيما يتعلق بالأعطيات السنوية .

على أننا لا نشك فى أنهم قد أنقصوا نقصاً كبيرا أعطية هؤلاء الذين باءوا بسخطهم (كالعلويين مثلا) ، كما استبدوا بما فى بيت المال

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٩٤ — ١٩٦

(٢) فتوح البلدان ص ٤٦١

(٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٣

من الأموال يبذلونها لأفراد أسرتهم . ومع ذلك فقد كان الأمويون على جانب كبير من الحكمة وبعد النظر لتلافى ماعسى أن يجره عليهم ذلك النظام الذى كان يقضى بنقص عطاء رعاياهم من العرب عن القدر الذى فرضه لهم عمر بن الخطاب .

ولم يرض العرب أن يقاسمهم الموالى ثمرات مايفتحونه من البلاد . تلك المقاسمة التى كانت تنقص نصيبهم منها نقصا محسوسا .

وقد أجحف مؤرخو الغرب فى الحكم على هذه الاصلاحات التى قام بها عمر بن عبد العزيز ، والتى كان الغرض منها القضاء على ماقام به فى سبيل انتشار الاسلام من العقبات ، وذلك بمنحه الموالى الحقوق التى كان يستمتع بها المسلمون من العرب وحدهم ، واعفائهم من الجزية التى كان يدفعها الكفار ، ثم مقاسمتهم إخوانهم المسلمين من العرب نصيبهم من الأعطيات السنوية (١)

ولا ريب فى أن سياسة ذلك الخليفة لم توقظ إلا آمالا لم تستطع الحكومة تحقيقها ؛ فقد كانت الحال تتطلب علاجا آخر غير تلك السياسة التى سار عليها عمر بن عبدالعزيز . ففى العراق أنضب الأعطيات السنوية بيت المال ، بعد أن تأثرت موارده تأثيرا محسوساً من جراء إلغاء الجزية فى خراسان . وهكذا أعقبت تلك الفوضى فى الشئون المالية بعد موت عمر بن عبد العزيز سياسة خراجية جائرة

فان فلوتن واصلاحات عمر

« وعلى الرغم من ذلك ، فينبغى أن يتورع المؤرخ عن القسوة فى الحكم على تلك الاصلاحات التى قام بها عمر بن عبد العزيز . ومن

(١) Von Kremer, Culturgeschichte, vol, I. p. 174; Miller, Der Islam in Morgen-und-abendland, vol. I. p. 438 Suiv.

العدل أن أطالب الذين يشايعون الحجاج بن يوسف ضد ذلك الخليفة المصلح بالاجابة على هذين السؤالين : (١) ألم يكن خيرا للأمويين أنفسهم مساواتهم جميع العناصر فى الحقوق ، تلك السياسة التى لا يبعد أن يكون عدم الأخذ بها هو السبب الأول فى سقوط دولتهم ؟ (٢) وإذا لم تكن تلك المساواة فى مصلحة الخلفاء من بنى أمية ، ألم تكن من مصلحة الاسلام نفسه ؟ ليس ثمة أحد كائنا من كان يستطيع أن يشك فى صحة هذه الملاحظة الثانية ؛ فان النظام العسكرى الذى وضعه عمر بن الخطاب لم يعد يلائم حال الأمة العربية فى ذلك الحين . »

وكان عمر بن عبد العزيز أول من فطن من خلفاء بنى أمية إلى أن وقت التفرغ للاصلاحات الداخلية قد آن ، كما اقتنع بذلك عمر بن الخطاب من قبل . ومن ثم كان يحول جهده دون القيام بفتوحات جديدة . ولم تكن غلطة عمر بن عبد العزيز سوى رجعيته ومحافظته الدينية ، وتمسكه الشديد بالنظام الذى سنه عمر بن الخطاب لما كان يكنه لذلك الخليفة فى أعماق نفسه من الاحترام والاكبار ، والذى لم يكن إلا صورة صادقة منه رغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولا تاماً . فقد كان لزاماً أن تجد الحكومة أعمالا جديدة غير الغزو والفتح للمرابطين فى الولايات الاسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عالة على بيت المال

أثر هذه السياسة فى بيت المال

ولا غرو فقد كانت السياسة التى سار عليها عمر بن عبد العزيز تحول دون ملكية الجند للأرض ، بينما كانت الحالة تقضى بمنحهم إياها لاستغلالها واستثمارها ، كما كانت تسخو فى منح الأعطيات حتى للموالى من المسلمين فى الوقت الذى كانت تتطلب فيه مالية البلاد الغاء تلك الأعطيات حتى ما كان يمنح منها للعرب أنفسهم .

وهكذا حال ذلك التصرف الذى أنضب موارد الدولة ، وجر الخراب على بيت المال دون نجاح تلك السياسة التى كانت ترمى فى ذاتها إلى الاصلاح واعفاء الجدد فى الاسلام من الجزية . ومن ثم نرى أن سياسة عمر بن عبد العزيز كانت أبعد أثراً فى وهن العرش الأموى من سياسة الحجاج بن يوسف وسوء إدارته ، فان الآمال التى أثيرت فى النفوس لم تنطفىء جذوتها حتى أصبحت الشعوب من غير العرب تنتظر خلاصها من حكم بنى أمية ، بعد أن غدت تلك السياسة الخراجية فى نظرهم عبئاً ثقيلا لا قِبَل لهم باحتماله ، تلك السياسة التى فاجأهم بها الأمويون ولا سيما فى خلافة هشام بن عبد الملك (١) على أثر فشل ذلك الاصلاح الذى قام به عمر بن عبد العزيز . » (٢)

وهن العرش الاموى

نظام الضرائب فى عهد بنى أمية :

زادت الضرائب فى عهد بنى أمية عما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين. فلم يراع الخلفاء الأمويون القواعد التى قررها أسلافهم، بل تجاوزوا حدود الضرائب التى فرضوها . وقد كتب معاوية إلى وردان عامله على مصر : «أن زد على كل امرىء من القبط قيراطا » ، فكتب اليه وردان « كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم ؟ »

فى عهد معاوية (فى مصر)

وكانت الحال كذلك حتى فى الولايات العربية ؛ فقد صادر أحد اخوة الحجاج ببلاد اليمن أملاك الأهالى ، كما أثار حنقهم وسخطهم بفرضه عليهم ضريبة معينة (وظيفة) ، وذلك عدا العشر الذى قرره الاسلام (٣)

عهد عبد الملك (فى اليمن)

وفى عهد عبد الملك عُمل فى خراسان إحصاء جديد للسكان عامة ،

---

(١) انظر اليعقوبى ج ٢ ص ٣٧٦ لاستقصاء ما كتبه عن العراق

(٢) انظر كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٥٦ — ٦٠

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧٣

وكلف كل شخص بسداد مافرض عليه من الضريبة . وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير عما كانت عليه من قبل (١) . وكذلك كانت الحال فى العراق حيث كانت تزيد الضرائب الاستثنائية فى عبء ما كان يثقل الأهلين من الضرائب المقررة .

بين عمر بن عبد العزيز وعمر ابن الخطاب

وقد أمر عمر بن عبد العزيز جباة الخراج أن لا يأخذوا من الأهالى من الدراهم مازاد وزنه على أربعة عشر قيراطا ؛ وهو ما أمر به عمر ابن الخطاب . وقد رأى أن العمال كانوا يأخذون دراهم أثقل وزنا من تلك الدراهم التى فرضها عمر بن الخطاب ، مما كان يزيد زيادة فاحشة فى الضرائب التى كان يدفعها الأهالى . ويتبين لنا من ذلك النظام الذى أقره عمر بن الخطاب أن الأهلين كانوا يدفعون عدا الضريبة المقررة نفقات صك النقود وضربها ، وكذا نفقات العقود الرسمية ومرتبات عمال الادارة . هذا عدا هدايا النيروز والمهرجان (٢)

هدايا النيروز والمهرجان

ولا غرو فقد كانت تتخذ إمرة إحدى الولايات وسيلة للحصول على الثروة وجمع المال . يدل على ذلك أيضا ماشاع على الألسن فى تلك الولايات « أكل ولاية أوحلبها كما تحلب الناقة » ـ تلك العبارة التى طالما كانت تستعمل للدلالة على ذلك المنصب (٣) .

ولم يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يثرون على حساب بيت المال ؛ فقد كان هناك طائفة من صغار الموظفين لاهمّ لهم إلا الاثراء من أموال الدولة .

وكان من أثر تلك الصعوبات التى كانت تعترض الحكومة فى سبيل استرداد تلك الأموال أن فكر والى العراق (عبيد الله بن زياد) فى استبدال أولئك العمال من العرب بغيرهم من الفرس ؛ ومن ذلك الحين

استبدال العمال من العرب بغيرهم من الفرس

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٢٣

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٥٨

(٣) البلاذرى ص ١٩٤ - ٢١٦ و ٤١٤ ؟ الطبرى ج ٢ ص ٩ - ١٠

كان يعهد إلى الدهاقين (كبار ملاك الأراضى من هؤلاء) بجباية الخراج . ولا غرو فقد كان هؤلاء الدهاقين « أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة (١)

وفى عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة عند اعتزالهم أعمالهم الادارية ؛ وكانوا يرغمون على رد ماسلبوه من الأموال (٢)

العمارة :

كانت المبانى عند العرب فى غاية البساطة والسذاجة . فلم يكن فى مكة الا مبان قليلة أهمها « الكعبة » . وكانت منازل الأغنياء تبنى بالحجارة أو اللبن ، بينما كانت معظم مبانى المدينة من اللبن

وكانت المنازل فى الغالب طبقة واحدة ولها فناء ، وفى وسطها بئر . فلما اتسعت الفتوح الاسلامية فى عهد عمر بن الخطاب وزادت الثروة أقبل على المدينة عاصمة الدولة جموع المعماريين من الاجانب فارتقى فن العمارة ، وشيد مشاهير العرب فى مكة والمدينة الدور الواسعة من الحجارة والرخام . ويقال إن الدار التى بناها عثمان كانت غاية فى العظمة والبهاء . وقد هدم مسجد الرسول بالمدينة وأعاد بناءه بالحجارة والرخام .

ويقول المسعودى إن الصحابة فى عهد عثمان أقاموا لأنفسهم دوراً فاخرة . وقد شيد الزبير بن العوام دوراً فخمة فى المدينة والكوفة والفسطاط والأسكندرية .

ولما استولى العرب على بلاد الشام وفارس اتخذوا لأنفسهم طرازا للعمارة خاصا بهم يتناسب وطبيعتهم وحالة معيشتهم . وقد فاق هذا الطراز طراز الفن البيزنطى والفارسى من حيث الرقى وجمال التنسيق والاتقان . والعرب - كما لا يخفى - مولعون بالتقليد ،

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٤٥٨ ، ١٩٥

(٢) انظر كتاب السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٢٧ — ٣٣

كما أنهم معروفون بالابتكار المبنى على هذا التقليد . وهم فى ذلك أشبه بالأمة الانجليزية .

ومما تجب ملاحظته أن العمارة العربية (١) قد امتازت بالأعمدة والمنحنيات والمآذن والقباب . وهى تماثل النخيل الذى هو أعز شىء عند العرب ، كما أنهم اتبعوا فى تخطيط المدن ما يناسب حالتهم وميولهم الاجتماعية .

تأسيس المدن

وكانت المدن تحاط بأسوار منيعة للدفاع عنها . وكان لأصحاب كل حرفة حى خاص من أحياء المدينة يعرف باسمهم . وقد عُرف العرب ببغضهم للنظام المركزى ؛ فكانوا أينما حلوا تجمعوا قبائل وفرقا منفصلة لكل قبيلة حيها ومنازلها ومسجدها وسوقها ومقابرها . وهذا التقسيم يلائم ما درجوا عليه من حب الحرية والميل إلى عدم الخضوع إلى سلطة حكومية تقيد حريتهم (٢) . ولعدم ميلهم إلى الاندماج كان لكل حى أو قسم من المدينة أبواب منيعة تفصله عن الأقسام الأخرى يقوم عليها الحراس

وإذا ماقامت ثورة أو اضطراب فى المدينة كانت تغلق الأبواب فتنقطع المواصلات بين أجزاء المدينة المختلفة .

وقد عنى العرب بتخطيط المدن وشق المجارى لتوصيل الماء الصالح للشرب اليها .

تأسيس البصرة :

شرع العرب على أثر انتصارهم فى موقعة القادسية فى تخطيط مدينتى

---

(١) Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 194.

(٢) Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 194

البصرة والكوفة . وكان الباعث على انشائهما حاجة العرب إلى نقط عسكرية لتكون معاقل لجيوشهم ؛ فاختط عتبة بن غزوان (١) البصرة فى ربيع سنة ١٦ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب ؛ أما الكوفة فقد اختطها سعد بن أبى وقاص .

وكانت البصرة فى أول أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة ، فأنشىء بها أولا المسجد وبجواره دار الإمارة ، وحولها خطط لكل قبيلة خطة . وكان بكل منها مسجد ومقبرة . وقد اتخذ كل ذلك فى مبدأ الأمر من الغاب (٢) . ولما وجد العرب أن الغاب لا يقوى على مقاومة النار شرعوا فى بناء دورهم باللبن . فلما ازدادت ثروتهم بنوها بالآجر والحجارة .

ولم يكد يمضى عشرون سنة على انشاء البصرة حتى أصبحت من أهم مراكز العالم الاسلامى ، وخاصة فيما يتعلق بالتجارة حتى حلت محل مدينة الأبُلّة (٣) التى فتحها عُتبة بن غَزْوان (٤) ، وذلك لاتصالها عن طريق البحر بالهند والصين .

سكان البصرة

وكان معظم سكان البصرة من عرب الشمال (مضر وربيعة) . وقد وفد اليها عدة جاليات أجنبية من الهند والصين ، حتى أصبح سكانها خليطا من العرب وغير العرب ؛ وكان من أثر ذلك أن ظهرت بها حياة أدبية جديدة ، وتأثرت الحركة العلمية الاسلامية بالفلسفة القديمة .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٤٨

(٢) Von Kremer, Orient Under the Caliphs, trans. by S. Khuda Bukhsh, p. 100

(٣) وتقع على رأس الخليج الفارسى .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ١٥٠ – ١٥١

تأسيس الكوفة :

لم يطب للعرب المقام فى « المدائن » حاضرة بلاد الفرس لعدم تعودهم معيشة المدن الكبيرة ، ولأنهم فطروا على حب الصحراء ذات الفضاء المتسع والهواء النقى والكلأ والمرعى لغذاء إبلهم . ولما رأى عمر مااعترى العرب من سقم ، أمر سعد بن أبى وقاص أن يبعث رائدين يرتادان منزلا بريا لايحول بينه وبين جنده الماء اذا ماأراد القدوم عليهم ؛ فبعث سعد سلمان الفارسى وحُذَيفة لارتياد موضع تتوافر فيه هذه الشروط ، فوقع اختيارهما على مكان غربى الفرات . ولما أقر عمر هذا الاختيار غادر سعد بن أبى وقاص المدائن ونزل بجنده فى الكوفة ، وذلك فى المحرم سنة ١٧ هـ (يناير سنة ٦٣٨ م) ، وعسكر جند العرب ـ وعددهم أربعون ألفا ـ فى الخيام أولا ثم بنوا بيوتا من عيدان القصب . وسرعان ماأتت عليها النار . فأمر الخليفة عمر بأن تبنى الدور باللبن ؛ فاختط شوارعها وأزقتها أبو الهياج بن مالك الأسدى ، وأسس بها جامعا . وبنى فى مقدمته ظُلة مقامة على أساطين من الرخام . وجعل العرب المسجد فى وسط المدينة حيث تفرعت الطرق والدروب . وبنى فى نهاية أحد هذه الطرق دار سعد بن أبى وقاص ويبعد عن المسجد بمائتى ذراع ، واتخذ فيه بيت المال .

وقد قام ببناء المسجد ودار الامارة بناءون من الفرس على مثال مبانى الأكاسرة . وكانت الطرق فسيحة رحبة حتى لايحتجب عن العرب هواء البادية الذى ألفوه

وسرعان مازادت أهمية البصرة والكوفة حتى أصبحتا من أعظم المراكز السياسية والحربية والأدبية فى البلاد الاسلامية ، وغدت الكوفة قصبة العراق الأعلى بعد الفتح الاسلامى . فكان والى الكوفة

يعين من قبله الولاة على الباب وأذربيجان وهمذان والرى وأصبهان والموصل وقرقيسيا

اتخاذ على الكوفة حاضرة الخلافة

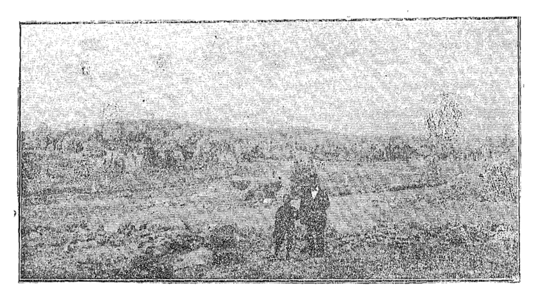
ولما ولى على بن أبى طالب الخلافة ترك المدينة واتخذ الكوفة حاضرة لخلافته لأن بها شيعته وأنصاره، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها، ووقوعها فى مكان متوسط سهل التواصل مع أجزاء الدولة الاسلامية. ومما دعا عليا إلى هذا الاختيار ماعول عليه من حرب معاوية الذى امتنع عن بيعته. ولكن الأيام قد برهنت على أن عليا لم يوفق فى اختيار تلك الحاضرة الجديدة، فان تركه المدينة قد هدم التوازن الذى كان بين القبائل العربية فى عهد الخلفاء من قبله. وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سرابا؛ فانه لم يستطع أن يقر النظام فى حاضرة ملكه الجديدة. وكان على يحب الكوفة ويؤثرها على المدينة حتى قال فيها: الكوفة كنز الايمان وحجة الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء. والذى نفسى بيده لينتصرن الله بأهلها فى شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز. وكان إذا أشرف عليها قال:

ياحبذا مقامنا بالكوفة تعرِفُها جِمَالُنا العلوفَة أرضٌ سوادٌ سَهْلَةٌ مَعْرُوفَة. (١)

تأسيس الفسطاط:

بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح الاسكندرية وإجلاء الروم عنها وطردهم من مصر، أراد أن يجعلها مقرا لولايته لما فيها من عمران وأبنية، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب؛ فسأل عمر الرسول الذى أحضر إليه

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٤١ ؟ الفخرى: الآداب السلطانية ص ٧٨ ؟ معجم البلدان: أنظر لفظ الكوفة - أنظر ص ٢٧٧ من هذا الكتاب.



بعض أطلال مدينة الفسطاط

كتاب عمرو : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت »

مزايا موقع الفسطاط

ولا شك أن مدينة الأسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الاسكندر ؛ فكان لزاما أن تكون العاصمة — على أثر انتقال مركز السيادة على مصر إلى بلاد العرب — إما على البحر الأحمر ، وإما على نقطة تسهل منها المواصلات البرية . ولما لم تكن العرب أمة بحرية لم ، يكن بد من أن يتخذوا حاضرتهم الجديدة فى نقطة برية سهلة الاتصال ببلاد العرب . أضف إلى هذا حكمة عمرو فى اختيار موقع الفسطاط ، لأنه كان يستطيع فيه أن يشرف على قسمى البلاد المصرية شمالا وجنوباً . هذا عدا قربه من الطريق إلى بلاد العرب .

وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم . ولم يكن

فى هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون حيث كانت ترابط فيه الحامية الرومية . وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم ؛ وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة . وقد عين موضعها الأستاذ يوسف أحمد فقال : إنها تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو ، والتى تمتد شرقا حتى قرب سفح جبل المقطم ، وشمالا حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر ، وغربا حتى النيل ، وجنوبا حتى ساحل أثر النبى .

تسمية الفسطاط

وقد قيل فى تسمية الفسطاط بهذا الاسم أقوال كثيرة . فقال بعضهم إن عمرو بن العاص لما أراد المسير الى الاسكندرية أمر بفسطاطه أن يُرفع ؛ فاذا بيمامة قد باضت فى أعلاه فقال : لقد تحرّمت بجوارنا ، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها فأقر فى موضعه . فبذلك سميت الفسطاط . وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط . أما « بطلر » فيقول : إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ Fossatum ومعناه « مدينة حصينة » ، أخذه العرب عن الروم أثناء حربهم فى الشام . وربما كان هذا أرجح الأقوال .

ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولىّ الخطط أربعة من قواد المسلمين ممن أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل [١]. لذلك لا يبعد أن يكون هؤلاء قد اختاروا النزول فى المكان الذى نزلوا فيه أولا لصلاحه وقربه من النيل .

---

(١) ذكر هؤلاء ابن دقاق فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الامصار (ج ١ ص ٣٢٢) فقال : معاوية بن حديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى وحويل ابن ناشر المعافرى .

وقد قال بطلر إن الذى قام بتنفيذ هذا الامر القبط لدرايتهم بفن العمارة التى كان يجهلها العرب . ونحن نستبعد ذلك لان الأبنية التى أقامها العرب هى من لبن من دور واحد لا تحتاج الى معمارى أو هندسة . ودليلنا على ذلك ما سيرد فى بناء جامع عمرو ؛ فانه بنى بسقف منخفض بدون نوافذ وبدون فراغ فى السقف حتى يتخلل الهواء داخله . وكان العرب يستظلون بفنائه وينتقلون بجوانبه تبعا للظل وذلك من شدة الحر بداخله

وكانت بيوت الصحابة بمدينة الفسطاط فى بادىء الأمر طبقة واحدة ، ثم أخذت الدور تزداد فى الاتساع والعلو شيئاً فشيئاً ، حتى صار ارتفاع أغلب الدور خمس طبقات وستاً وسبعاً وثمان ، وأصبح يسكنها المائتان من الناس بعد أن كان لا يسكنها إلا أسرة قليلة العدد .

هذا وقد ظلت مدينة الفسطاط قاعدة للديار المصرية ومقراً للامارة حتى بنيت مدينة العسكر [١] سنة ١٣٣ هـ ، فنزل فيها أمراء مصر وسكنوها .

تأسيس الجامع العتيق [٢] :

أسس هذا الجامع عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين من الهجرة على ما رواه ابن دقماق وأبو المحاسن [٣]. وكان على الأرض التى بنى عليها منزل لقيسبة بن كلثوم التجيبى . وقد سأل عمرو بن العاص حين عاد المسلمون من الاسكندرية قيسبة أن ينزل عن داره [٤] ليجعل مكانها مسجداً ، فأجابه إلى طلبه وتصدق بها على المسلمين . ومن ثمَّ شرع عمرو فى بنائه ؛ فكان طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين . ومن هنا يتضح أن هذا الجامع كان فى مبدأ أمره أصغر بكثير مما هو عليه الآن .

ولم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مُجوَّف . وأول من بناه قُرَّة بن شريك [٥] . وكان له بابان أمام دار عمرو وبابان فى الشمال .

---

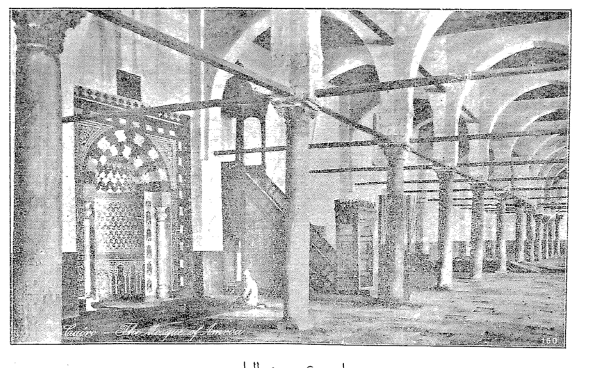
(١) جهة زين العابدين والمذبح والسيدة زينب والكبش

(٢) يطلق على هذا الجامع أيضا جامع عمرو ، وتاج الجوامع والمسجد الجامع (ابن دقماق ج ٤ ص ٥٩)

(٣) ذكر هذا اللفظ السيوطى وابن دقماق وذكره أبو المحاسن قتية وهو خطأ

(٤) ويقع الى الشمال من حصن بابليون

(٥) كان والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان من سنة ٩٠ الى سنة ٩٦



جامع عمرو بن العاص

وبابان فى الغرب . وكان الخارج من زقاق القناديل(١) يلقى ركن الجامع الشرقى محاذياً ركن جامع عمرو الغربى . وكان سقفه مخفضاً جداً ، كما أنه لم يكن للمسجد صحن ؛ فكان الناس يصلون بفنائه . وقد اتخذ عمرو منبراً ؛ فكتب إليه عمر بن الخطاب « أما يحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك » ؟ فكسره عمرو .

هذا هو أقدم جامع إسلامى بنى فى مصر . ولا يزال المسلمون من المصريين يعنون به عناية كبرى حتى اليوم . وترجع أهميته التاريخية إلى موضعه القديم الذى بناه فيه عمرو بن العاص (٢)

دمشق :

كانت دمشق قبل الفتح العربى مقر حكام الروم . وقد أصبحت حاضرة الدولة الاسلامية منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وغدت أكبر مدن الاسلام فى ذلك العصر ، وأفخمها فى الأبهة والعمارة ؛ كما امتازت على غيرها من المدن بكثرة الأنهار والينابيع . وقد قيل إن دمشق سميت كذلك لأنهم دمشقوا فى بنائها أى أسرعوا ، كما قيل إنها المقصودة بقوله تعالى (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) . والتين هو الجبل الذى عليه دمشق ، والزيتون هو الجبل الذى عليه بيت المقدس ، وطور سنين هو الشعب الحسن ، وهذا البلد الأمين هو مكة .

وقد ذكر ياقوت فى معجمه (٣) أن دمشق كانت حصينة ، أقيمت حولها أسوار منيعة بلغ ارتفاعها ثمانية أمتار وعرضها خمسة عشر قدما.

(١) دعى بهذا الاسم لأنه كان منازل الاشراف ، وكان على أبوابهم القناديل ، وقيل انما قيل له زقاق القناديل لانه كان برسمه قنديل يوقد على باب عمرو ، وهو من الخطط القديمة وله أربع مسالك .

(٢) Mme R. L. Devonshire, Quatre vingts mosquées du Caire, p. 10.

(٣) انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

أبواب دمشق

وكان لدمشق سبعة أبواب ، وكانت أبراجها العالية يراها القادم من بعد عظيم . وقد شيد بها معاوية قصر الخضراء (١) ؛ ولما تولى الوليد الخلافة جمّل دمشق وضواحيها بالمبانى العامة العديدة . وقد سارت كلفة الوليد بالعمارة سير الأمثال . قيل « إن الناس فى دمشق كانوا فى عهده يتكلمون عن العمارات وجمالها ، وفى عهد سليمان عن الطعام والنساء ، وفى عهد عمر بن عبد العزيز عن الدين والقرآن »

مجارى الماء بدمشق

ومن آثار الأمويين الخالدة فى دمشق مجارى الماء (٢) فنهر برى . لايزال يجلب الماء إلى المدينـــة . وقد بلغ نظام مجارى الماء من الدقة بحيث صار لكل دار فى دمشق نافورة خاصة . وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسيـــة التى شقها الأمويون لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة ، والقناطر الكثيرة المقامة على الأعمدة التى شيدوها لتوصيل ماء الشرب الى الدور .

قصر الخليفة

وكان قصر الخليفة بدمشق غاية فى الأبهة . وقد ازدانت جدرانه بالفسيفساء وأعمدته بالرخام والذهب ، وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر . وقد لطف جوه النافورات والمياه الجارية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارقة .

ولم يكن حب العمارة مقصورا على الحكام . فقد تنافس الأمراء وكبار رجال الدولة فى تجميل دمشق وغيرها من المدن العظيمة

فى الموصل

وقد شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم ـ وكان والياً على الموصل فى عهد هشام ـ داراً منيفة من الرخام الخالص والمرمر ، عرفت بالمنقوشة لما تمتاز به من النقش البديع ـ كما بنى خانات (فنادق) فى الموصل .

---

(١) سمى بهذا الاسم للون نقوشه وطلائه .

(٢) Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 193

وقد رأى الحر مايعانيه أهل الموصل من المشاق فى الحصول على ماء الشرب ، فشق قناة لاتزال باقية الى اليوم. وقد غرس الأشجار على ضفتها حتى أصبحت بمثابة متنزه عام لأهل المدينة

وصف دور الاغنياء

يقول السيد أمير على : (١) « لم يتغير طراز البيوت وترتيبها فى دمشق عما كان عليه فى عهد الأمويين على الرغم من مرور مئات السنين . فترى البواب واقفا على مقعد خشبى أمام الباب كما تراه الآن فى منازل الأغنياء ، وترى على باب بيوت الفقراء قطعة من المعدن أو الحديد تستخدم مطرقة للباب .

وفى داخل الدار فناء مستطيل على جوانبه أرومة من الأعمدة ، وأرضه من الحجارة أو الرخام ، وممشى مرصوفة بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة . وفى الفناء نافورة يحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية وتظلها أشجار البرتقال والليمون . وعلى جانب الفناء يقام الايوان وهو عبارة عن صالة قد رصفت بالرخام والبلاط الملون . وتستعمل قاعة الاستقبال وقت الحر . وقبالة الباب كانت تقام عادة كوة غير نافذة تزخرف بالأعمدة الرخامية ويوضع فوقها الطست والأبريق للوضوء . .

وكانت قصور الأغنياء مكونة من طابقين أحيانا . وعلى يمين وشمال الصالات أبواب تكسوها ستور كثيفة تؤدى إلى الصالات والحجرات الأخرى .

وفى الشتاء كانت تكسى أرض الايوان الرخامية وكذلك الحجرات بالسجاد الثمين وتدفأ الحجرات بالمنهل (الموقد) أما فى الصيف فكانت النافورات والنوافذ كفيلة بتلطيف حرارة الجو .

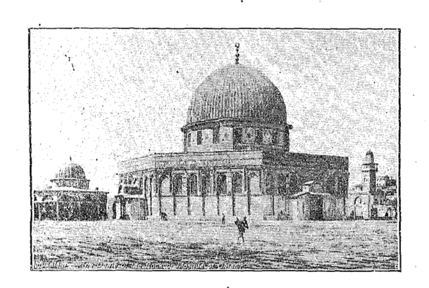
وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربى ومطلية

(١) Sayed Ameer Ali, p. 195.

بالذهب . ولم تكن هناك مقاعد . فاذا كان صاحب الدار من أصحاب المراكز السامية وضعت السجاجيد بعضها فوق بعض لتكون بمثابة مقعد مرتفع له .

مسجد دمشق :

يضرب بجامع دمشق المثل فى جماله وحسن نظامه . واول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح ؛ ثم بناه الوليد بن عبد الملك سنة ٩٧ . وكان



المسجد الأموى بدمشق

كلفا بالعمارة وبخاصة عمارة المساجد ؛ وكان هذا المسجد فى أول الأمر كنيسة القديس يوحنا . ولما عزم الوليد على بنائه جمع زعماء النصارى فى دمشق وعرض عليهم رغبته فى إدماج هذه الكنيسة فى مسجد المسلمين واستعداده لأن يعوضهم إياها بكنيسة أخرى فى أى مكان شاءوا وأن ينقدهم ثمنها مضاعفا ؛ فأبوا محتجين بالعهد الذى أخذه المسلمون على أنفسهم بألا يتعرضوا لكنائس النصارى بسوء .

على أن الوليد لم يأبه لقولهم وسارع إلى هدم الكنيسة وبنى

مكانها مسجد دمشق (١) ؛ وقد تأنق الوليد فى بناء هـذا المسجد حتى قيل إنه انفق على عمارته خراج دولته سبع سنين ؛ وماذلك إلا ليتقرب إلى الله بهذا العمل الدينى الجليل .

عبارة المسعودى عن مسجد دمشق

قال المسعودى : « وحكى عثمان بن مرة الخولانى قال : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وُجد فى حائط المسجد لوح من حجارة فيـه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهـل الكتاب فلم يقدروا على قراءته . فوجه به إلى وهب بن منبه فقال : هذا مكتوب فى أيام سليمان ابن داود عليهما السلام ، فقرأه فاذا فيـه « بسم الله الرحمن الرحيم ياابن آدم لو عاينتَ مابقى من يسير أجلك لزهدت فيما بقى من طول أملك وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وإنما تلقى ندمك إذا زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت إلى أهلك عائد ولا فى عملك زائد ، فاغتنم الحياة قبـل الموت والقوة قبل الفوت ، وقبـل أن يؤخذ منك بالكظم ويحال بينك وبين العمل ؛ وكتب زمن سليمان بن داود . فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد فى حائط المسجد : ربنا الله لانعبد إلا الله . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيـه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين ؛ وهذا الكلام مكتوب بالذهب فى مسجد دمشق إلى وقتنا هـذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة » (٢)

وقـد قيل ان السجلات المشتملة على نفقات البناء نقلت إلى قصر الوليد على ثمانية عشر بعيرا لبحثها وإقرارها ؛ فأقرها الخليفه الأموى

(١) Von Kremer, Cnlturgeschichte des Orients, trans. by Khuda Buckhsh, p. 146.

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٥٢

دون بحث أو مراجعة وقال : هو شيء أخرجناه لله ولا نرجو من ورائه شيئا . (١)

وفى الحق إن مسجد دمشق الذى يعرف الآن بالمسجد الأموى هو آية من آيات الفن العربى والبيزنطى ، ولا يزال حافظا لرونقه وبهائه إلى اليوم . وإن فى هذا الوصف الذى وصفه به أحد أهالى دمشق لمثلا حياً وبرهاناً ناطقاً على ما بلغه هذا المسجد من الرواء والاتقان :

عبارة ياقوت فى وصف المسجد

« هو جامع المحاسن كامل الغرائب ، معدود من إحدى العجائب . قد زور بعض فرشه بالرخام وألف على أحسن تركيب ونظام . وفوق ذلك مقصوص ، أقداره متفقة وصنعته مؤتلفة ، بساطه يكاد يقطر ذهباً ويشتعل لهباً . وهو مُنزهٌ عن صور الحيوان إلى صنوف النبات وفنون الأغصان ؛ لكنها لاتجنى إلا بالأبصار ، ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الأشجار والثمار ، بل هى باقية على طول الزمان مدركة بالعيان فى كل أوان ، لا يمسه عطش مع فقدان القطر ، ولا يعتريه ذبول مع تصاريف الدهر » .

نعم ! قد غلا الوليد فى بناء هذا المسجد ؛ فقد كان محرابه مرصعاً بالجواهر الثمينة ـ عليه قناديل الذهب والفضة ، محلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية ، حتى أخذ الناس يرمونه بقصر النظر والتبذير ، وأنه انما بناه من بيت مال المسلمين من غير مافائدة تعود عليهم من وراء هذا الاسراف . وسرعان ماوصلت هذه الأقوال الى مسامع الوليد فخطبهم فى المسجد فقال : بلغنى انكم تقولون وتقولون وفى بيت مالكم عطاء ثمانى عشرة سنة اذا لم يدخل لكم فيها حبة قمح .(٢)

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٧٦

(٢) أنظر لفظ دمشق فى معجم البلدان لياقوت

قال ياقوت فى معجمه : قالوا عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ، ومنارة الاسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق .

ولما رأى عمر بن عبد العزيز أن المال الذى بذل فى سبيل بناء المسجد الأموى لم يكن فى موضعه وأن بيت المال قد تأثر من وراء ذلك تأثيراً يذكر ، عزم على أن يتدارك هذه الخسائر فينزع الفسيفساء ويستغنى بالحبال عن السلاسل الذهبية التى علقت فيها المصابيح

وقد اتفق أن وصل الى دمشق سفراء من قبل أمبراطور الروم ورغبوا فى زيارة مسجد دمشق ؛ فسمح لهم عمر ووكل بهم رجلا يعرف لغتهم . حتى اذا مامروا بصحن المسجد واستقبلوا القبلة ، رفعوا رءوسهم الى المسجد وقد نكس رئيس الوفد رأسه واصفر وجهه ؛ فسأله من معه عما حل به فقال : انا معشر أهل رومة نقول ان بقاء العرب قليل ؛ فلما رأيت مابنوا علمت أن لهم مدة لابد أن يبلغوها » . ولما اتصل هذا القول بمسامع عمر بن عبد العزيز قال : انى أرى أن مسجدكم هذا غيظ على الكفار وترك ماعزم عليه :

العلوم والمعارف

الادب :

لم يكن للأدب حظ فى صدر الاسلام لاشتغال العرب بالفتوح وتنظيم دولتهم التى اتسعت أرجاؤها ثم لانشغالهم بالحروب الأهلية التى استنفدت كل مجهوداتهم .

وقد حافظت الروح الأدبية فى هذا العهد على ما كانت عليه فى الجاهلية ، فلم يتعد الأدب دائرة الشعر تقريبا ، إذ أصبح يمثل بعض مظاهر السلطة الاسلامية . وقد ظن بعض المستشرقين أن الدين قلل من أهمية الشعر حتى لايطغى على القرآن ؛ وهذا الزعم لا أساس له ، لأن القرآن ليس من الشعر فى شىء ولا يصح أن يكون نموذجا له : ولو أن القرآن الكريم قد غضّ من شأن بعض الشعراء فلأنهم كانوا

من أعداء الاصلاح ومن دعاة الفوضى . قال تعالى(وَالشُّعَرَاءِ يَتَّبِعَهُمُ الغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُون) (١). على أنه قد أعلى من قدر غيرهم ممن قاموا بنصرة المبادىء القويمة ودافعوا عنها ، فأحلهم المحل اللائق بهم من الشرف · كما شجعهم الرسول وأغدق عليهم العطايا ، واعتبر هذا نوعا من الجهاد فى سبيل الله والانتصار للحق . فقد قرب الشاعر المخضرم حسان بن ثابت

وليس أدل على احترام الاسلام للشعر من قوله عليه الصلاة والسلام « إن من من البيان لسحرا · وإن من الشعر لحكمة »

حالة الشعر فى عهد البعثة

وكان شعراء هذا العصر لايزالون على ماكان عليه من سبقهم فى الجاهلية رغم تأثرهم بالقرآن وأسلوبه . فاذا قرأت قصيدة لشاعر من أنصار الدعوة فى مدح الرسول أوهجاء المشركين ، أو قصيدة لشاعر ممن شايعوا قريشا فى مدح أحد زعمائها أو رثاء قتلاها ، أو فى هجاء المسلمين ، ألفيت هذه القصيدة أو تلك لاتكاد تخرج عما كان يمدح به الشعراء شيوخ القبائل فى الجاهلية أو يهجونهم به ؛ ولو أنه قد كثر فيها الحديث عن الجنة والنار والحساب والعذاب ، والبعث والنشور ، وما إلى ذلك من الأمور الدينية التى لم يُعْنَ بها العرب الجاهليون فى أشعارهم .

تأثر الشعراء الوثنيين بالاسلام

ومما ينبغى الاشارة اليه أن الشعراء المناهضين للرسول والمقاومين للدعوة لم يكونوا أقل من الشعراء المسلمين تأثرا بالقرآن وما جاء به من الفكر الدينية · فقد كانوا يقرءون القرآن ويعنون به لا لايمانهم بما فيه ، ولكن للرد على ماجاءهم به ومناقشته فى تلك المبادىء الجديدة التى فاجأهم بها (٢)

(١) سورة الشعراء ٢٦ : ٢٢٤ — ٢٢٦

(٢) معارضة القرآن هى الاتيان بكلام يشبهه فى بلاغته وخصائصه الفنية . وقد كان القرآن أولى معجزات الرسول وأقواها فى الدلالة على أنه رسول من عند الله ، لانه أتى بكلام لا يستطيع

كما كان يوجه هؤلاء الشعراء اهتمامهم - إذا أرادوا هجاء الرسول أو الغض من شأنه - الى تعرّف أقوال المسلمين ومعتقداتهم ، وما يقابل ذلك فى دينهم القديم ليستطيعوا دفع هجمات الرسول عن معبوداتهم وسخريته من طقوسهم الدينية وأوضاعهم الاجتماعية . فنالت هذه الناحية شيئا من اهتمام الخطباء والشعراء والمجادلين ، وكثر ورودها على ألسنتهم بعد أن كانت من الأمور التى كان لا يعرض لها العربى فى حياته العادية ولا يلم بها إلا إلماماً يسيرا .

وقد اشتهر من شعراء المسلمين حسان بن ثابت ، وعبدالله بن مالك ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ؛ ومن شعراء المشركين عبدالله بن الزّبَعْرَى ، وضرار بن الخطاب ، وكعب بن الأشرف وغير هؤلاء وهؤلاء .

هذا هو حال الأدب فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين .

حال الأدب فى عهد الأمويين

وأما فى عهد بنى أمية فقد تغير الحال تغيرا ظاهرا ؛ فقد ظهرت أحزاب مختلفة كلها يطاحن ويناضل بالسيف وبالقول للوصول إلى السيادة والحكم ، واتسعت صدور الخلفاء للشعراء المادحين والمشيدين بعظمة الملك وسطوة الخلفاء ، وقلدهم فى ذلك الحكام والولاة فى الأقاليم المختلفة ، كما تغيرت الحال الاجتماعية بما أفاء الله على العرب من أسلاب الجيوش فى البلاد المفتوحة ، فارتقت بذلك الحياة العربية وارتفع

أى انسان أن يأتى بمثله . وقد تحدى الرسول والقرآن العرب جميعا رغم فصاحتهم وتفننهم فى أساليب الكلام أن يأتوا بقرآن مثله فعجزوا . قال تعالى (قل لئن اجتمعت الجن والانس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (سورة الاسرى ١٧ : ٨٨) ، ثم تحداهم بعد ذلك أن يأتوا بعشر سور فقط فعجزوا ايضا . قال تعالى (ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (سورة هود ١١ : ١٣) ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة قال تعالى (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين) (سورة البقرة ٢ : ٢٣)

مستوى الحضارة والتمدن فى البيت العربى ، وتعددت مرافقه وضرورياته .
وكان للاماء الأعجميات أعمق الأثر وأبلغه فى تحوير البيت العربى والانتقال به من خشونة البداوة وشظفها إلى لين الحضارة ونضارتها ، فنشأت فى ظل هذه البيئة الجديدة فنون من الشعر لم تكن موجودة من قبل ، وظهرت فنون أخرى من الأدب لم يكن يعرفها العرب

تطور الادارة الحكومية

كما تطورت الادارة الحكومة وتعددت حاجاتها ، مما دعا إلى إنشاء الدواوين . وكان من بين هذه الدواوين وأقربها اتصالا بالحياة الأدبية ديوان الانشاء والرسائل الذى أوجد نوعا من النثر لم يعرفه العرب ولم يكن لهم به عهد ؛ وهو مايسمى النثر الفنى ، ويقصدون به تلك الرسائل التى كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاته وعماله فى الأقاليم فى شئون الدولة . وقد بدأ هذا النوع من النثر فى ذلك العصر

عبد الحميد الكاتب

ونما ، حتى ظهر فى آخر عهد الدولة الأموية عبد الحميد الكاتب الذى يعد بحق زعيم الكتاب وواضع أصول الكتابة وقواعدها .

الشعر والغناء فى مكة والمدينة :

أثر الغنى والثروة

كان للفتوح الاسلامية أكبر الأثر فى ظهور طبقة ارستقراطية ، بما كان من رخاء الأمة المادى ، وبخاصة فى الحجاز . وقد تجلت مظاهر هذا الرخاء فى حياة الطبقة المثرية . وكان لتلك المظاهر أثر محسوس فى الحركة الفكرية ، ولا سيما فى فنى الغناء والموسيقى وفى تهذيب الشعر . وليس معنى ذلك أن هـــذه الأنواع من الفنون الجميلة لم تكن مألوفة عند العرب قبل الاسلام ، فقد أدخلها مغنيات

احتراف بعض العرب الغناء

من غـــير العرب وخاصة من الفرس ؛ على أنه ظهر فى القرن الأول للهجرة مغنون من العرب فى مكة والمدينة نظموا قطعا من الشعر ولحنوها . ونبغ فى الموسيقى كثيرون من أمثال مَعبد ، وابن

شُرَيح ، وُطويس ؛ ثم اشتغلت هذه الطبقة بالشعر العربى ، فنبغ منهم كثيرون فى الغزل مثل عمر بن أبى ربيعة القرشى . وقد اعتقد كثيرون من العرب أن أشعـــاره كانت أبشع جناية اقترفت على الدين ، وزعم البعض أن كثيرا من الشعر الغزلى منسوب خطأ إلى بعض الشعراء كالأشعار التى تُنسب إلى مجنون ليلى ، حتى شك البعض فى وجود رجل بهذا الاسم . وان صح ذلك فانه من المحتمل أن يكون كثير من الشعر المنسوب اليه هو فى الحقيقة من شعر غيره . وممن نبغ فى الشعر الغزلى جميل صاحب القصائد المشهورة فى الغزل التى نظمها فى محبوبته بثينة (١) .

الغزل وصلته بالغناء

الشعر فى الولايات الاسلامية الاخرى :

وقد وجدت خارج الحجاز ضروب أخرى من الشعر ؛ فنبغ فى عهد الأمويين الفرزدق ، وجرير ، والأخطل ؛ وكلهم من أهل العراق مولدا ومنشأ . ونزح منذ أمام الفتح الاسلامى إلى الأقاليم العربية كالعراق والشام العناصر النشيطة ، فخلت جزيرة العرب منهم . وقدبلغت المنافسة أشدها بين جرير والفرزدق ، حتى إنك لترى ذلك فى ثنايا شعرهما المسمى بالنقائض الذى امتاز بالهجاء العنيف المقذع ، وان كان قد بلغ درجة عظيمة من حيث الاتقان والجودة ، وأصبح المعين الذى تغترف منه اللغة العربية فى عصرها الجديد .

النقائض

وكان لكل من جرير والفرزدق أنصار يتعصبون له ولشعره . وليس أدل على ذلك مما كان من انقسام جند المهلب بن أبى صفرة والى خراسان عند مسيره لحرب الأزارقة من الخوارج الى فريقين : فريق يحبذ جريرا ، وآخر يفضل الفرزدق .

عصبية القبائل لشعرائها

(١) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, pp. 237—238

الأخطل

وقد انضم الأخطل إلى هذا العراك - وكان مسيحياً هواه مع الفرزدق - واتخذه الأمويون شاعر شعرائهم وكبير مادحيهم ، وكان من المقربين الى عبد الملك بن مروان ؛ فكان يدخل عليه بلا استئذان ، وهو مرتد أفخر الملابس الحريرية ، وعليه صليب من ذهب متدل من رقبته بسلسلة ذهبية (١) .

شعراء الأحزاب الأخرى

كما كان للأحزاب السياسية الأخرى شعراء أبلوا بلاء حسناً فى نصرتهم وتوضيح مذاهبهم وآرائهم والدفاع عنها والدعوة إليها . نذكر منهم عمران بن حطّان وقَطرىّ بن الفجاءة من حزب الخوارج ، وعبيدالله بن قيس الرقيات من الزبيريين ، والكميت بن زيد الأسدى من شعراء الشيعة .

العلوم النقلية والعقلية :

عناية الاسلام بالعلم

عنى الدين الاسلامى بالعلم وتشجيعه والدعوة إلى تحصيله ؛ فقد حرص الرسول على تعليم الصحابة الكتابة ، إذ فرض على كل أسير من أسرى بدر أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين ؛ ثم حث الصحابة على تعلم اللغات عندما بعث دعاته ورسله إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية ، فنصح زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم (٢). كما كانت وسيلته صلى الله عليه وسلم فى الدعوة إلى دين الله تبصير الناس بما يحيط بهم من شواهد على وجود الله وقدرته ، وبما يعود عليهم من الخير فى قلب هذه الأوضاع الاجتماعية العتيقة الضارة أو تنقيحها ، وبما يعظهم

---

(١) Nicholson, Lit. Hist. of the Arabs, pp. 239—246

(٢) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين (ص ١٧١). وفيه عن زيد بن ثابت أيضا أنه قال : قال لى النبى صلى الله عليه وسلم إنى أكتب الى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا فتعلم السريانية فعلمتها فى سبعة عشر يوما

به من أحوال الأمم الغابرة ثم ، يفقههم فى دينهم ويعلمهم القرآن ويشرح لهم ما أتى به من تشريع .

حظ النساء أيضا

ولم يختص النبى صلى الله عليه وسلم الرجال بذلك ويؤثرهم به ، بل كان يحرص على أن يكون حظ المرأة من ذلك موفوراً

وكان الرسول يحث الرجال على أن يعلموا أهلهم وذويهم . فعن أبى بردة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مولاه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران . (١) »

وليس أدل على وفرة نصيب المرأة المسلمة من العلم من محاجة إحدى نساء المدينة لعمر بن الخطاب حين قام يخطب المسلمين ويحثهم على ألا يزيدوا فى مهور نسائهم عن مهور زوجات الرسول ، إذ قالت له تلك المرأة : وماذا تقول فى قوله تعالى (وَإِنْ آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً) ؟ فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

شغف الصحابة بالعلم

وكان الصحابة أنفسهم مشغوفين بسماع الرسول والأخذ عنه ، حتى كان الرجل إذا لم يستطع أن يذهب إلى مجلسه أناب عنه صديقا له ثم يتعلم منه آخر النهار ما قال الرسول . قال عمر : كنت أنا وجار لى من الانصار فى بنى أمية بن زيد — وهى من عوالى المدينة — وكنا نتناوب النزول ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوما وأنزل يوما فاذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره ، واذا نزل فعل مثل ذلك (٢).

أثر الدعاة فى غير جزيرة العرب

ولم ينفرد الرسول وأصحابه ببث الدعوة وتعليم الناس فى لمدينة ، بل كان يرسل دعاته ورسله إلى الجهات النائية من شبه الجزيرة ليعلموا الناس ويوضحوا لهم الطريق إلى ربهم ويقرئوهم القرآن الكريم .

---

(١) البخارى ج ١ ص ٣٠ (٢) شرحه ص ٢٨

ويعتبر الفقهاء أن من أوائل حقوق الامة على الخليفة « نشر العلوم والشريعة وتعظيم العلم وأهله ، ورفع مناره ومحله ، ومخالطة العلماء الاعلام النصحاء لدين الاسلام ومشاورتهم فى موارد الاحكام ومصادر النقض والابرام (١) »

نبوغ الصحابة فى بعض العلوم

وقد استفاد كثيرون من الصحابة من صحبتهم للرسول : فنبغ على فى القضاء حتى كان يقال إذا أشكل الأمر : قضية ولا أباحسن لها ؛ ونبغ معاذ بن جبل فى العلم بالحلال والحرام ، وزيد بن ثابت فى تقسيم المواريث والأنصبة فى الغنائم وما اليها ، وأبيّ بن كعب فى قراءة القرآن . روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ، وأفرضهم زيد بن ثابت (أى أعلمهم بعلم الفرائض وهى المواريث) ؛ وأقرأهم لكتاب الله أُبى بن كعب . ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

وقد تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة فى الأمصار الاسلامية فقاموا فيها بحركة علمية ، والتف حولهم تلاميذ يأخذون عنهم العلم وينشرونه بين الناس

ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان أكثرهم من الموالى . ولذلك كانوا فى حاجة إلى تعلم العربية لغة القرآن والحديث ؛ ومن هنا نشأت بعض الدراسات اللغوية كالنحو والصرف وما إلى ذلك

---

(١) بدر الدين بن جماعة: تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام المنشور فى المجلد الرابع لسنة ١٩٣٤ من مجلة Islamica الألمانية ص ٣٦١

وكانت عناية هذه البيئات العلمية مقصورة على العلوم الدينية وهى القرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل وما يعرض من أحداث .

ولذا نلاحظ ان ما انتشر من العلوم فى عهد بنى أمية كان مرتبطاً منها بالدين ، بعكس ما كانت عليه الحال فى أيام العباسيين الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية أو الكونية أيضاً كالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها .

السير والمغازى

اشتغل المسلمون بعد ذلك بتدوين السير والفتوح الاسلامية . وكان عبيد بن شَرْية اليمنى أول من ألبس هذا النوع من القصص ثوب التاريخ ، وجاء وهب ابن منبه – وهو من الفرس – فتصدى للمغازى « الفتوح الاسلامية » ووضع أساسها وعنه روى المؤرخون المتقدمون .

وقد روى أن عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ ﻫ هو أقدم من ألف فى السيرة النبوية ، وكذلك أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ ﻫ . فقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة كتابه فى سيرة الرسول . وكذلك رووا أن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ ﻫ جمع كتاباً فى المغازى ، ومثله موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ ﻫ . وقد عثر على قطعة من كتابه طُبعت سنة ١٩٠٤ م [١] . وممن اشتغل بالمغازى أيضاً ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ ﻫ ، وتلميذه ابن هشام صاحب سيرة النبى صلى الله عليه وسلم والمتوفى سنة ٢١٨ ﻫ . ومع ذلك لم يشجع الخلفاء من بنى أمية هؤلاء الكتاب على تدوين أخبار الاسلام ، لأنهم كانوا يفضلون عليها قراءة القرآن . فقد قيل

---

(١) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ١٨٩

إن عبـد الملك بن مروان رأى كتاباً لوهب بن منبه فى يد شخص ، فأمر بالكتاب فأحرق ، ثم أمر بقراءة القرآن بدلا منه ، وذلك بعكس معاوية بن أبى سفيان الذى كان مشغوفاً بقراءة الأخبار والسير والآثار كما تقدمت الاشارة إلى ذلك .[1]

الحديث

وكذلك كان للحديث أثر فى علم التاريخ والأخبار ، فان المحدثين لاهتمامهم بأمر الحديث وحرصهم على الوثوق من صحة روايته وأمانة راويه ، كانوا فى حاجة إلى تعرّف حال هؤلاء الرواة ودراسة تواريخهم وأخبارهم ، ومعرفة أنسابهم وقبائلهم . فكان ذلك نواة صالحة وثروة غزيرة لعلم التاريخ والأخبار . وقد اشتهر من رجال الحديث فى الدولة الأموية محمد بن مسلم بن شـهاب الزهرى (+ ١٢٤ هـ) ، وسعيد ابن المسيّب ، وشريح ، وسليمان بن يسار ، وربيعة الرأى (وهو شيخ الامام مالك) وعكرمة مولى ابن عباس .

أشعار الجاهلية

كما نشأ عن دراسة القرآن وتعرف معانيه الحاجة إلى الاستشهاد بأشعار الجاهلية ؛ لما أودع فيها من كنوز اللغة العربية . ولا غرو فان النثر لم يكن مألوفا عند العرب فى جاهليتهم . وقد ظهر من الرواة كثيرون مثل الأصمعى وحمّاد . ثم دعت الحاجة إلى فهم موضوعات هذه الأشعار لتعرف أنساب القبائل العربية ، فبدأت رواية القصص والتواريخ والروايات .

تحسين الحروف العربية

وفى عهد عبد الملك بن مروان أدخـل كثير من ضروب الاصلاح كان بعضها سياسيا بحتا ؛ بينما دفع به نفس هذا الشعور إلى إدخال ضروب أخرى من الاصلاح لها اتصال مباشر بالأدب . فقد جعل العربية اللغة الرسمية فى الادارة المالية بعد أن كانت بالاغريقية والفارسية ، وأخذ فى تحسين الحروف العربية . وكانت خلوا

(١) أنظر ص ٤١٦ من هذا الكتاب

من الحروف المنقوطة ـ ليستطيع الناس قراءة القرآن والتفسير ، والحديث ، وإن كان هذا لا يهم العربى كثيرا ، فان الأعجمى لا يستغنى عنه إذا ما تعلم العربية لغة الكتاب والسنة .

وقد أخذ الحجاج من هذه الحركة بأوفى نصيب ؛ فقد اشتغل فى مبدأ أمره بالتعليم . ولما ولى العراق أدخل تحسينا يذكر على علامات الوقف والشكل . وقد انصرف الناس ، لما كان يشمل البلاد من الهدوء فى عهده ، إلى الاشتغال بالعلم . فدرس أهل الكوفة والبصرة القرآن والحديث تحت رعايته وتعضيده . ومن هنا نشأت مدرسة البصرة لدراسة علم النحو .

العلوم العقلية

الكيمياء والطب

أما العلوم العقلية فكانت قليلة فى عهد الأمويين ؛ ولو أنه قد وجد فيهم من اشتغل بالكيمياء التى لا يبعد أن يكونوا قد أخذوها عن الاغريق الذين اشتغلوا بها منذ ألفى عام . ولا نستطيع أن نجزم أن العرب قد أخذوا الطب عن اليونان عقب الغارات التى قام بها الاسكندر فى الشرق . فقد ثبت أن العرب لم يدرسوا العلوم الطبية إلا بعد قيام الدولة الأموية ؛ وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من نقل العلوم الطبية والنجوم والكيمياء إلى العربية .

وكانت صناعة الكيمياء رائجة فى مدرسة الاسكندرية ؛ فاستدعى خالد مريانوس الكاهن المسيحى وطلب إليه أن يعلمه الطب وصناعة الكيمياء (١) . ولما تعلمها أمر بنقل كتب الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربية فنقلت له ؛ وكان ذلك أول نقل للعلوم فى الأمة العربية . وفضلا عن ذلك فان خالدا كان مشغوفا بعلم النجوم ؛ وقد

---

(١) Joseph Hell, The Arab Civilisation, p. 60

أنفق الأموال الضخمة فى طلبه واستحضار آلاته . ولعلهم ترجموا له شيئا لم يصلنا خبره ؛ لأن الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين يقول : كان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً فصيحاً جامعاً ، جيد الرأى كثير الأدب . وكان أول من ترجم النجوم والطب والكيمياء

بيد أن اشتغال العربى بالعلوم العقلية من كيمياء وطب ، وفلك وتاريخ ونحوها لم يكن له أثر كبير إلا فى صدر الدولة العباسية ، وعلى الأخص فى عهد المأمون الذى حمل لواء حركة الترجمة والنقل من اليونانية والفارسية والهندية ، فأخذها عنهم الغرب منذ عصر إحياء العلوم فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ولا زالت تتمثل فى الحضارة الأوربية اليوم. ولا شك أن العباسيين قد نشطوا لترقية العلوم العقلية فأولوها عنايتهم .

الحالة الاجتماعية

ادخال العادات الأجنبية

كان لاختلاط العرب بالروم وغيرهم من الأمم الأخرى أثر كبير فى تغيير عاداتهم وحياتهم الاجتماعية وبخاصة فى عهد الأمويين .

البلاط

فقد استفاد معاوية من نظم الحكم التى أدخلها الرومان فى بلاد الشام ، وابتكر ابتكارات لم يسبقه اليها أحد . فهو أول من اتخذ الحشم وأقام الحجاب على بابه ، ووضع المقصورة التى يصلى الخليفة بها فى الجامع منفرداً عن الناس ، وذلك لخوفه مما جرى لعلى رضى الله عنه . فاذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف . (١)

وكان من أقدس واجبات الخليفة ان يؤم الناس فى صلاة الجمعة والصلوات الخمس . وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدون ، ومعاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز من خلفاء بنى أمية . ولم يهتم غيرهم من

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠١

الخلفاء بأن يؤموا الناس فى الصلوات الخمس ، واقتصروا على إمامة الناس فى صلاة الجمعة . فكان الخليفة فى العهد الأموى يحضر الى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ، ويرقى المنبر لالقاء خطبة الجمعة ، وبيده الخاتم والعصا وهما شارتا الملك . وكثيرا ما كان بعض خلفاء بنى أمية لا يحضرون صلاة الجمعة وينيبون عنهم رئيس الحرس أو صاحب الشرطة . (١)

وقد تشبه خلفاء بنى أمية بالملوك وأبهتهم . ففى التشريفات العامة كان يجلس الخليفة على عرشه فى صالة الاستقبال الكبرى ، وعلى يمينه أمراء البيت المالك ، وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاط . ويقف أمامه من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم .

سباق الخيل

وكان سباق الخيل أهم تسلية الشعب على اختلاف طبقاته . ويقال إن هشام بن عبد الملك كان أول من أقام حلبات السباق لتحسين نتاج الخيل . وقد اشترك فى السباق فى عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الامراء . ويقول المسعودى انه لم يسبق هذا السباق مثيل . وكانت الاميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن فى السباق وكان الوليد الثانى مغرما بسباق الخيل أيضا

كلف الوليد بالخيل

قال المسعودى(٢) «كان الوليد مغرما بالخيل وحبها وجمعها وإقامة الحلبة ، وكان السندى فرسه جواد زمانه . وكان يسابق به فى أيام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد وربما ضاهاه ، وربما جاء مصليا . وهاك مراتب السوابق من الخيل إذا جرت : فأولها

Ameer Ali, A Short History of the Saracens, (١) p.196.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٨ - ١٨٩

السابق ثم المصلى ؛ وذلك أن رأسه عند صلا السابق ، ثم الثالث والرابع وكذلك إلى التاسع والعاشر السكيت مسددا . وما جاء بعد ذلك لم يعتد به . والفسكل الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل . وأجرى الوليد الخيل بالرُّصافة . وأقام الحلبة وهى يومئذ ألف قارح ، ووقف بها ينتظر الزائدة ومعه سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان له فيها جواد يقال له المصباح . فلما طلعت الخيل قال الوليد :

خيلى وربِّ الكعبةِ المحرمه سبقْنَ أفراسَ الرِّجال اللؤمه
كما سبقْناهم وحُزْنا المكرمة

فأقبل فرس ابن الوليد — ويقال له الوضاح — أمام الخيل ؛ فلما دنا صرع فارسه ، وأقبل المصباح فرس سعيد يتلوه وعليه فارسه ، وهو فيما يرى سعيد يعد سابقا ، فقال سعيد :

نحن سبقنا اليوم خيلَ اللُّومه وصرفَ الله إلينا المكرَّمه
كذاك كنا فى الدهورِ المقدمه أهلَ العلا والرتبِ المعظمه

فضحك الوليد لما سمعه وخشى أن تسبق فرس سعيد ؛ فركض فرسه حتى ساوى الوضَّاح ، فقذف بنفسه عليه ودخل سابقا . فكان الوليد أول من فعل ذلك وسنه فى الحلبة . ثم تلاه فى الفعل كذلك المهدى فى أيام المنصور والهادى فى أيام المهدى . ثم عرضت على الوليد الخيل فى الحلبة الثانية فمرَّ به فرس لسعيد ، فقال لا نسابقك أبا عنبسة وأنت القائل :

نحن سبقنا اليومَ خيلَ اللومه

فقال سعيد : ليس كذا قلت يا أمير المؤمنين وإنما قلت نحن ، سبقنا اليوم خيل اللومه . فضحك الوليد وضمه إلى نفسه وقال : لاعدمتْ قريش أخاً مثلك . وللوليد بن يزيد أخبار حسان فى جمعه الخيول فى الحلبة . فانه اجتمع له فى الحلبة ألف قارح ، وجمع بين الفرس المعروف

بالزائد والفرس المعروف بالسَّندى . وكانا قــد برزا فى الجرى على خيول زمانهما »

الغناء

وكان الخلفاء الأول من بنى أمية يستمعون فى أوقات فراغهم إلى أخبار الحروب وسير فرسان العرب فى الجاهلية ، كما كانوا يستمعون لقصائد الشعراء . ولم يلبث أن حل الغناء محل قصائد الشعراء . وفى عهد الوليد الثانى كلف الناس بالموسيقى والغناء ؛ وكانوا يسرفون فى ذلك كل الاسراف ، وينفقون ببذخ على المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الخليفة يدعوهم الى دمشق من أقاصى البلاد . وليس أدل على كلف الأمويين بالمغنين والانفاق عليهم عن سعة مما ذكره الطبرى (١) إذ يقول : حج يزيد بن عبد الملك فى خلافة سليمان بن عبـد الملك ، فاشترى حُبابة ـ وكان اسمها العالية ـ بأربعة آلاف دينار ، فقال سليمان : هممت أن أحجر على يزيد ، فرد يزيد حبابة فاشتراها رجل من أهل مصر . فلما ولى يزيد الخلافة قالت له زوجته سُعْدَة ياأمير المؤمنين ! هل بقى من الدنيا شىء تتمناه بعد ؟ قال : نعم ! حبابة . فأرسلت سعدة رجلا فاشتراها بأربعة آلاف دينار . فأراحتها حتى ذهب عنها كلال السفر ، ثم أتت بها يزيد ، فأجلستها من وراء الستر وقالت : ياأمير المؤمنين ! أبقى شىء من الدنيا تتمناه ؟ قال ألم تسأليني عن هـذا مرة فأعلمتك ؟ فرفعت الستر وقالت : هذه حبابة . فحظيت سعدة عند يزيد وأكرمها وحباها » . وقد أثر تدفق طبقات المغنين المحترفين على دمشق فى أخلاق الناس ، وكان له أثر فى حياة المجتمع حتى دب الترف فى الدولة .

أنواع اللهو

وكان لعب الشطرنج «والدومينو » والورق معروفا عند العرب . ومن الألعاب التى شاعت فى ذلك العصر قتال الديكة على الرغم من أن الوليد الأول وعمر الثانى قد حرما هذا النوع من الألعاب .

نظام الاسرة العربية

كانت المرأة العربية ـ ولا تزال ـ تتمتع بقسط وافر من الحرية . وكان

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٧٩.

النساء في عهد الخلفاء الراشدين يختلطن بالجمهور ويسمعن خطب الخلفاء ويحضرن المحاضرات التي كان يلقيها علي بن أبي طالب وعبد الله ابن العباس وغيرهما. وكان عرب الجاهلية يتزوجون بأكثر من واحدة. ويرجع السبب في ذلك الى قلة عدد الرجال بسبب الحروب التي لم تخمد جذوتها بين القبائل. فلما ظهر الاسلام نظّم القرآن الزواج، فجعل للعربي حرية التزوج بواحدة إلى أربع، فكان تعدد الزواج أمراً طبيعياً ومنطقياً، وذلك لقلة عدد الرجال بسبب اشتراكهم في الغزوات.

وقد أباح الاسلام الزواج بأكثر من واحدة حتى لا تترك الأرامل والبنات اللاتي لم يتزوجن عالة على المجتمع، فتفسد الأخلاق ويقل النسل. ومع كل فقد اشترط القرآن للزواج بأكثر من واحدة العدل والكفاءة. ومن هنا نشأ نظام الأسرة عند العرب

إلغاء الرق

وقد عمل الاسلام جهده على إلغاء الرق. فجعل مصدره الوحيد أسرى الحرب المشروعة التي يعلنها المسلمون على غيرهم لإعلاء كلمة الله. على أن الرق في الاسلام لم يكن كالرق عند الأمم الأخرى.

فقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم النخاسة حتى لا يحرم الآباء من أبنائهم، وأمر بأن يطعم الأرقاء ويكسون مما يأكله ويكتسي به أسيادهم، وأوصى بحسن معاملتهم، كما سمح لهم أن يفتدوا أنفسهم. وشجع العتق واعتبره من أكبر القُرب إلى الله تعالى. فكان الأرقاء في الحقيقة كأفراد أسرة السيد

الخصيان

وقد أخذ سليمان بن عبد الملك عن البلاط البيزنطي الاكثار من الخصيان في قصره. وكان أول من اتخذهم من بني أمية يزيد بن معاوية. وكان اتخاذ الخصيان أول مظهر من مظاهر الفساد في البلاط الأموي

الحريم

ويقول فون كريمر[١]: ويرجع اتخاذ الحريم الى عهد الوليد الثاني

(١) Von Kremer, pp. 171—172

الذى أدخل كثيراً من العادات البيزنطية فى البلاط ، واتخذ الخصيان أمناء فى السراى . وكان الاغريق أول من سن تلك السنة السيئة . وقد انتقد الجاحظ هذه العادة التى انتشرت فى القرن الثالث الهجرى انتقاداً مراً .

المرأة العربية

وكانت المرأة العربية متحجبة . وكان الحجاب منتشراً بين نساء الفرس منذ زمن بعيد . وقد حرصت المرأة العربية على بساطتها البدوية وعلى الحرية التى درجت عليها أيام الجاهلية رغم انتشار اللهو والترف فى عهد الأمويين . لذلك لا نعجب إذا فخر الآباء بأسماء بناتهن . فكان الرجل لا يتحرج عن أن يكنى بابنته أو زوجته أو أخته ، فينادى بأبى ليلى وأبى بثينة .

وكان نساء العرب يقابلن الرجال ويتحدثن إليهن بل ويقدن الجيوش أيضاً .

شهيرات النساء فى هذا العصر

وممن اشتهر من النساء فى هذا العصر عائشة أم المؤمنين التى ضربت بسهم وافر فى الفقه ورواية الحديث والفتيا ، والتاريخ والنسب وغير ذلك من العلوم ، والتى قادت جند المسلمين يوم الجمل ، وأختها أسماء بنت أبى بكر وأم عبدالله بن الزبير التى اشتهرت برواية الحديث والشجاعة والكرم [1] . أضف إلى ذلك عكرشة بنت الأطرش التى

عكرشة بنت الاطرش

اشتركت فى الحرب بين على ومعاوية . وإلى القارىء تلك الخطبة التى خطبتها فى جند العراق يوم صفين : « أيها الناس ! عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن الجنة لا يَحزُن من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها . فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوماً مستَبْصرين فى دينهم ، مستظهرين على حقهم . إن معاوية دَلف [2] إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الايمان ومايدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم

(١) أنظر ص ٢٢١ من هذا الكتاب

(٢) دلفت الكتيبة فى الحرب تقدمت

إلى الدنيا فلبوه . فالله َ الله َ عبادَ الله فى دين الله . وإياكم والتواكل فان ذلك ينقض عرى الاسلام ويطفىء نور الحق . هـذه بدرُ الصغرى والعقبة الأخرى . يامعشرَ المهاجرين والأنصار ! امضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيمتكم . فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهلَ الشام كالحُمُر الناهقة َتقصع قصْع (١) البعير » (٢)

أم البنين

ومن اشتهر من نساء العرب فى ذلك العصر بالبلاغة وقوة الحجة أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مروان بن الحكم . قال المسعودى : « وفد الحجاج بن يوسف على الوليد فوجده فى بعض نزهه ، فاستقبله . فلما رآه ترجل له وقبل يده وجعل يمشى وعليه درع وكنانة وقوس عربية ؛ فقال له الوليد : اركب ياأبامحمد ! فقال : دعنى ياأمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ، فان ابن الزبير وابن الأشعث شغلانى عنك ، فعزم عليه الوليد حتى ركب ، ودخل الوليد داره وتفضل فى غلالة ، ثم أذن للحجاج ، فدخل عليه فى حاله تلك وأطال الجلوس عنده . فبينما هو يحادثه إذ جاءت جارية فساررت الوليد ومضت ، ثم عادت فساررته ثم انصرفت ؛ فقال الوليد للحجاج أتدرى ماقالت هذه ياأبا محمد ؟ قال : لا والله . قال : بعثتها إلىَّ ابنة عمى أم البنين بنت عبد العزيز : مامجالستك لهذا الاعرابى المتسلح فى السلاح وأنت فى غلالة ؛ فأرسلت إليها أنه الحجاج . فراعها ذلك وقالت : والله ماأحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق ؛ فقال الحجاج : ياأمير المؤمنين ! دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فانما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة . فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك ، ولا تطعهن فى غير أنفسهن ، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن . وإياك ومشاورتهن فى

---

(١) قصع كمنع ابتلع الماء . والناقة بجرتها ردتها الى جوفها او مضغتها

(٢) صبح الاعشى للقلقشندى ج ١ ص ٢٥٣ — ٢٥٤

الأمور ، فان رأين إلى أفن وعزمهن إلى وهن . واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ولا تطل الجلوس معهن ، فان ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك . ثم نهض الحجاج فخرج ، ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج فقالت : ياأمير المؤمنين ! أحب أن تأمره غدا بالتسليم عليّ فقال : أفعل . فلما غدا الحجاج على الوليد قال له : ياأبا محمد ! سر إلى أم البنين فسلم عليها . فقال : أعفني من ذلك ياأمير المؤمنين ، فقال : لابد من ذلك . فمضى الحجاج إليها فحجبته طويلا ، ثم أذنت له فأقرته قائما ولم تأذن له فى الجلوس ، ثم قالت : إيه ياحجاج . أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟ أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ماابتلاك برمى الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد فى الاسلام (١). وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك ، فأغاثك بأهل الشام وأنت فى أضيق من القرن ، فأظلتك رماحهم وأنجاك كفاحهم . ولولا ذلك لكنتَ أذل من النقد . وأما ماأشرتَ به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه ، فان كن ينفرجن عن مثل ماانفرجتْ به عنك أمك ، فما أحقه بالأخذ عنك والقبول منك ، وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين ، فانه غير قابل منك ، ولا مصغ إلى نصيحتك . قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول :

أسَدٌ عَلَيَّ وفى الحروب نَعامَةٌ ... فَزْعاء تَفْزَعُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غَزَالة فى الوَغَى ... بَلْ كانَ قَلْبُكَ فى جَنَاحَيْ طَائِرِ

أخرِجْنه عنى ! فدخل إلى الوليد من فوره ، فقال ياأبا محمد ! ما كنتَ فيه ؟ فقال : والله ياأمير المؤمنين ماسكتَتْ حتى كان بطن الأرض أحبَّ

---

(١) تعنى عبد الله بن الزبير

الىّ من ظهرها . فضحك الوليد حتى فحص برجله ثم قال : يا أبامحمد إنها بنت عبدالعزيز . » (١)

اللابس

كان لباس البدو يتكون من قباء طويل مشقوق من الوسط ومتدل إلى العقب ومربوط من الوسط بحزام من الجلد . ولا يزال البدو من الرجال والنساء يستعملون هذا الرداء إلى اليوم .

وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ويصنعونها من وبر الجمل . وكانوا يرتدون فى الحرب أو فى ركوب الخيل أردية خاصة ، فيلبسون السروال عادة ورداء قصيرا بدلا من الثياب الفضفاضة المتدلية .

اما لباس الرأس فهو العمامة . وكان يختلف حجمها تبعاً للسن والمركز العلمى وغيره ، وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة ؛ وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقى الرقبة حرارة الشمس .

وكانت الأردية تختلف تبعاً لثروة الناس ومركزهم الاجتماعى ونوع عملهم . فكانت تختلف كسوة الفقيه أوالكاتب عن ثياب الجند وهكذا . وكان رؤساء القبائل وغيرهم من علية القوم يرتدون قباء يصل الى الركبتين يعلوه سروال ، ثم جلباب فضفاض يتدلى الى العقبين ، ويشده من الوسط حزام من الحرير . وفوق كل ذلك الجبة أوالقباء . وقد أخذها العرب عن الفرس أوالبيزنطيين .

وكان القباء نوعين : أحدهما له أكمام واسعة ، والثانى أكمامه ضيقة وله أزرار متقاربة . وهذا النوع الأخير هو الذى يرتديه كبار رجال الدولة فى إيران اليوم . كما كانوا يلبسون النعال أوالأحذية

ملابس النساء

أما ثياب المرأة فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يُلبس عادة فى البرد . وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدى ملاءة طويلة تغطى جسمها وتقى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٢ — ١٥٣

ملابسها من التراب والطين . وكانت تلف رأسها بمنديل يربط فوق الجبهة . وكانت النساء فى الجاهلية يلبسن قميصا مشقوقا إلى الصدر .(١)

الطعام

كانت معيشة العرب فى بادىء الأمر غاية فى البساطة . فكانوا فى صدر الاسلام يكتفون بالقليل من الطعام ؛ فلم يكد طعامهم يتجاوز اللون أو اللونين . وكان خير أدمهم اللحم . وكان سكان المدن أقرب إلى العناية بالطعام والتفنن فيه من سكان البوادى .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم وكثير من الصحابة مقلين فى الطعام ، لا لفقر أو شح ، ولكن زهدا فى الدنيا . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله . وكانوا إذا أكلوا لا يملئون بطونهم . فهذا النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه . حسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صُلبه

وقد بين لنا صاحب الفخرى مبلغ زهد الخلفاء الراشدين وتقشفهم إذ يقول :

زهد الخلفاء الراشدين وتقشفهم

« إعلم أنها دولة لم تكن من طرز دول الدنيا ؛ وهى بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه . والحق فى هذا أن زيَّها قد كان زى الانبياء ، وهديها هدى الأولياء ، وفتوحها فتوح الملوك الكبار . فأما زيها فهو الخشونة فى العيش ، والتقلل فى المطعَم والملبَس . كان أحدهم يمشى فى الأسواق راجلاً وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، وفى رجله تاسومة وفى يده درَّة . فمن وجب عليه حد استوفاه منه . وكان طعامهم من أدنى أطعمة فقرائهم . ضرب أمير المؤمنين عليه السلام المثل بالعسل والخبز النقى ، فقال فى بعض كلامه : ولو شئتُ لاهتديتُ إلى مُصفَّى هذا العسل بلباب هذا البر . وأعلم

(١) Sayed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, pp. 67—68

أنهم لم يتقللوا فى أطعمتهم وملبوسهم فقراً ولا عجزاً عن أفضل لباس وأشهى مطعم ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساةً لفقراء رعيتهم ، وكسرا للنفس عن شهواتها ، ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها . وإلا فكل واحد منهم كان صاحبَ ثروة ضخمة ونخل وحدائق وغير ذلك من الأسباب . ولكن أكثر خرجهم كان فى وجوه البر والقُرب (١) » .

وكانوا يراعون قواعد الصحة ، فلا يدخلون الطعام على الطعام ، ولا يسرفون فى الأكل . وقد ورد فى الحديث « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لانشبع » . كما كانوا يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، ويأكلون بأيديهم لعدم وجود الملاعق والشوك فى ذلك الوقت ، كما كانت الحال فى أوروبا إلى عهد قريب . ومع ذلك فقد ذكر الأمام احمــــد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستعمل السكين فى قطع اللحم .

وكانوا إذا أكلوا جميعاً بسطوا سماطاً على الأرض ثم جلسوا صفين من حوله كما نجلس نحن اليوم حول المائدة . (٢)

وكان العرب كرماء يجودون بطعامهم ، ولا سيما أهل البوادى . فقد كانوا يوقدون النار ليلا ليهتدى بها الضيفان . وقد يدل على ذلك قول الشاعر :

وَإِنِّى لَمُعْطٍ مَاوَجَدْتُ وَقَائِلٍ لِمُوقِدِ نَارِى لَيْلَةَ الرِّيحِ أَوقد

الطعام

وكان من أفضل أطعمتهم الثريد ، وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم . ومنه اللَّمزَة ، وهو الخبز يكسر على السمن ، والكوثان ، وهو الأرز والسمك ، والأطْرِية ، وهو طعام كالخيوط من الدقيق و « الشُعَيْرية » وهو طعام كالخيوط صغُر فتلها فى حجم الشعير ،

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٧٠ — ٧١

(٢) زاد المعاد ج ٤ ص ٢٠٨ لابن القيم

« والحشيش » وهو حنطة تطحن وتجعل فى قدر ويلقى فيها لحم أو تمر فيطبخ ، « والعُجَّة » وهو طعام متخذ من دقيق يعجن بسمن ثم يشوى . ويظهر أن الخضر لم تكن مستعملة فى طعامهم كثيراً كما هى مستعملة فى طعامنا اليوم ، لان بلادهم بلاد قفرة لانبات فيها . إلا أنه لا يغيب عنا أن العرب لما خالطوا الأمم الاخرى تغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها ، وصار لهم فيها طرق غير طرقهم الأولى . ففى عهد الأمويين استعمل العرب الفوط والملاعق . وكانت الملاعق تصنع من الخشب ، كما كانت تجلب ملاعق من الفخار من بلاد الصين . وكانوا يجلسون على الكراسى ، وأمامهم مائدة الطعام يكسوها مفرش من القماش .

ثبت بمصادر الكتاب

نورد فى الثبت الآتى مصادر هـــذا الكتاب . وقد رتبت أسماء المؤلفين جميعها حسب أحرف الهجاء .

ابن الاثير (+ ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبى الكرم .

(١ ، ٢) (١) « الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءا (بولاق سنة ١٢٧٤ هـ)

(ب) « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » (القاهرة سنة ١٢٨٠ هـ)

(٣) احمد امين : الاستاذ

فجر الاسلام (القاهرة سنة ١٩٢٨)

(٤) الأزرق (+ ٢٢٣ هـ) « أخبـار مكة وما جاء فيهـا من الآثار » طبعة وستنفلد (Cottingen ١٢٧٥ هـ و ١٨٥٨ م)

(٥) أيرفنج Irving, Washington : A History of the Lives of the successors of Mohamed, (London, 1912)

(٦ ، ٧) أرنولد : المرحوم السير توماس و .

Arnold : Prof. Sir Thomas W.

(1) «The Preaching of Islam» 2 nd ed. (London, 1913)

(2) «The Caliphate» (Oxford, 1924)

(٨) الاسحاق : أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٧٤)

(٩) الأصفهانى (+ ٣٥٦ هـ و ٩٦٧ م) : أبو الفرج

« كتاب الأغانى » ٢١ جزءا (القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ)

(١٠) الألوسى (+ ١٢٧٠ هـ) شهاب الدين السيد محمود

« تفسير روح المعانى » (المطبعة الأميرية سنة ١٣٠٠ هـ)

(١١) أمير على : Ameer Ali, Sayed, A Short History of the Saracens (London. 1921)

(١٢) أميل درمنجم Èmile Dermenghem, La vie de Mahomet (Paris, 1930)

(١٣) برادلى : هـ Bradley : Henry, The Goths (London, 1887)

(١٤) Browne : Edward G.
Literary History of Persia—from the Earliest Times until Firdawsi (London, 1909)

(١٥) برونو : Brünnow, Dei Charischiten unter den Ersten Omayyaden.

(١٦) بطلر ا. ج. : Butler, Alfred J : The Arab Conquest of Egypt (Oxford, 1902).

(١٧) البغدادي (+ ٤٢٩ هـ و ١٠٣٧) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر
« الفرق بين الفرق » (القاهرة ١٣٢٨ هـ و ١٩١٠ م)

(١٨) البغدادي (الشهير بالسويدى)
سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب(بغداد سنة ١٢٨٠ هـ)

(١٩) بلانيل وريبير : Planiol et Ripert, Traité élémentaire de Droit Civil. (12 éme éd, Paris, 1932)

(٢٠) البلاذرى (+ ٢٧٩ هـ ؟ ٨٩٢ م) أحمد بن يحي بن جابر :
فتوح البلدان (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ)

(٢١) البيضاوى (+ ٧٩١ هـ ؟ ١٣٨٩ م) : ناصر الدين عبد الله بن عمر :
أنوار التنزيل وأسرار التأويل . ومعه حاشية شيخ زاده (المطبعة العثمانية)

(٢٢) الترمذى « جامع الترمذى (طبعة الهند سنة ١٣١٠ هـ)

(٢٣) جبون : ادوارد Gibbon : Edward.
«The History of the Decline and Fall of the Roman Empire» 5 vols. ed. by Prof. J. B. Bury.

(٢٤) الدكتور جروهمان : أدولف Adolfe Grohmann
أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية (القاهرة سنة ١٩٣٥ م)
ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن

(٢٥) دى جوبينو .
De Gobineau, Religion et Philophie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865)

(٢٦، ٢٧) جولدتزيهر : Goldziher : Ignaz.

(1) «Vorlesungen über den Islams», 2 ed (Heidelberg 1910), translated into French by Félix Arin (Paris, 1920)

(2) Muhammedanische Studien (Heidelberg)

(٢٨، ٢٩) ابن حجر العسقلانى (+ ٨٥٣ هـ و ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن على

(أ) «الاصابة فى تمييز الصحابة» مصر سنة ١٣٢٣ هـ

(ب) «فتح البارى بشرح صحيح البخارى» (المطبعة الأميرية سنة ١٣٠٠ هـ)

(٣٠) ابن حزم (+ ٤٥٦ هـ و ١٠٦٤ م) : أبو محمد على بن أحمد.

«الفصل فى الملل والأهواء والنحل»

٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ)

(٣١) و(٣٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : (١) تاريخ عمرو بن العاص (القاهرة سنة ١٩٢٦) الطبعة الثانية

(٣٣) و(٣٤) (٢) الفاطميون فى مصر (عن الانجليزية) (المطبعة الاميرية سنة ١٩٣٢)

(٣) السيادة العربية والشيعة (عن الفرنسية) تأليف فان فلوتن (القاهرة سنة ١٩٣٣)

(٤) أوراق البردى العربية (عن الانجليزية) تأليف الدكتور أودلف جروهمان (القاهرة سنة ١٩٣٤)

(٣٥) الحلبى (+ ١٠٤٤ هـ) : على بن برهان الدين «انسان العيون فى سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية (القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ)

(٣٦) حمزة الأصفهانى (+ ٣٠٦ هـ) : «تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء

(٣٧، ٣٨) ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ و ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) : عبدالرحمن بن محمد.

(ا) مقدمة ابن خلدون (بيروت سنة ١٩٠٠ م)

(ب) تاريخ ابن خلدون

(٣٩) ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ و ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد ابن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى.

« وفيات الأعيان » جزءان (بولاق سنة ١٢٨٣ هـ)
ترجمه إلى الانجليزية دى سلان (De Slane) (باريس ١٨٤٢-١٨٤٨)
(٤٠) الخوارزمى (+ ٣٨٣ هـ و ٩٩٣ م) : أبو بكر محمد بن العباس .
« رسائل الخوارزمى » (القسطنطينية سنة ١٢٩٧ م)
(٤١) دحلان : أحمد زينى « السيرة النبوية والآثار المحمدية (المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٠) على هامش السيرة الحلبية
(٤٢) الدردير : الشرح الكبير (طبعة بولاق سنة ١٣١٩)
(٤٣) ابن الديبغ الشيبانى (+ ٩٤٤ هـ) : عبد الرحمن بن على : « تيسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول » (المطبعة السلفية سنة ١٣٤٦ »
(٤٤) ابن دقماق (+ ٨٠٩ هـ ؟ ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) : ابراهيم بن محمد المصرى « الانتصار لواسطة عقد الامصار » (جزء ٤، ٥)القاهرة سنة ١٣٠٩ هـ ؟ ١٨٩٣ م)
(٤٥) دوتى : Doughty, Charles M., Travels in Arabia Deserta. (Lond. 1930)
(٤٦، ٤٧) دوزى : ر . ب . ا . Dozy : R. P. A. , Moslems in Spain. (trans. by F. G. Stokes). (London, 1913).
Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845.)
(٤٨) الدّينورى (+ ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن داود أبو حنيفة « الأخبار الطوال » جزءان (ليدن سنة ١٨٨٨)
(٤٩) رفيق العظم بك : أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة : (مصر سنة ١٣٢١ هـ)
(٥٠) الزنجانى : أبو عبد الله الزنجانى : « تاريخ القرآن » (طبع بمطبعة لجنة الترجمة والتأليف سنة ١٩٣٥)
(٥١) السّرخسى : شمس الدين « كتاب المبسوط » (القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ)
(٥٢، ٥٣) السّيوطى (+ ٩١١ هـ و ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين .
(ا) « تاريخ الخلفاء » (القاهرة سنة ١٣٥١ هـ)
(ب) تفسير الجلالين (القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ ؟ ١٩٢٦ م)
(٥٤) سديو : ل . ب . Sédillot, L.B. Histoire Générale des Arabes, (Paris, 1877).

(٥٥) ابن سعد : (+ ٢٣٠ هـ) محمد بن سعد « كتاب الطبقات الكبير ٨ أجزاء
(ليدن سنة ١٣٢٢ هـ)
(٥٦) الشهرستانى (+ ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .
« الملل والنحل » ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ)
(٥٧) الشيبانى (+ ٩٤٤) : عبد الرحمن بن الديبغ « تفسير الوصول إلى جامع
الأصول لأحاديث الرسول » (القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ)
(٥٨) ابن طباطبا : محمد بن على المعروف بابن الطقطقى
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) .
(٥٩) الطبرى (+ ٣١٠ هـ و ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير
« تاريخ الأمم والملوك » (طبعة دى غويه — ليدن سنة ١٨٨١ — ١٨٨٣)
والقاهرة (المطبعة الحسينية)
(٦٠) طه حسين : الدكتور
حديث الأربعاء ـ الجزء الثانى (القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ ؟ ١٩٢٦ م)
(٦١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : طبع بمجلس المعارف الفرنساوى الخاص
بالعاديات الشرقية (القاهرة سنة ١٩١٤) .
(٦٢) ابن عبد ربه (+ ٣٤٩ هـ و ٩٤٠ م) : شهاب الدين أحمد
« العقد الفريد » ٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ ؟ ١٩٢٨ م)
(٦٣) عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة . (من عمله فى مؤتمر المستشرقين —
الجزائر سنة ١٩٠٥)
(٦٤، ٦٥) العينى (+ ٨٥٥ هـ) : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد .
(ا) عمدة القارى بشرح صحيح البخارى (المطبعة الميرية)
(ب) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (نسخة فتوغرافية بدار الكتب
المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ)
(٦٦) أبو الفدا (+ ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م) : اسماعيل بن على عماد الدين صاحب
حماه . « المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ)
(٦٧) ابو الفرج الملطى(+ ٦٨٥ هـ و ١٢٨٦ م) : جريجورى المسمى بارهبرايس
« مختصر الدول » ٣ أجزاء (أكسفورد سنة ١٦٧٣ م)
(٦٨) فريد ليندر : اسرائيل . Friedlaender, Israël.
«The Heterodoxies of ths Shi'ites in the Presentation
of Ibn Hazm», Journal of the American Oriemtal

Society, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).

(٦٩) فان فلوتن : ج
Vloten, J. Van.

«La Domination Arabe, Le Chütisme et les Croyances Messianiques sous le Khalifat des Omayades». (Amsterdam, 1894)

ترجمه إلى العربية الدكتور حسن ابراهيم حسن والشيخ محمد زكى ابراهيم (السيادة العربية والشيعةوالإسرائيليات فى عهدبنى أمية) (القاهرةسنة١٩٣٤)

Finlay, George : A History of Greece from its Conquet by the Romans to the Present Time (164B . C. to 1864) (Oxford, 1877)

٧١، ٧٢ ابن قتيبة (+ ٢٧٦ هـ)
(أ) كتاب المعارف (طبعة وستنفلد)
(ب) الامامة والسياسة

(٧٣) القلقشندى (+ ٨٢١ هـ و ١٤١٨ م) : أبو العباس احمد
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ١٤ جزءاً (القاهرة سنة ١٩١٣ - ١٩١٧ م)

(٧٤) القلقشندى (+ ٣٢١ هـ) : محمد بن عبد الله : « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٧٤.
كرد على : الأستاذ محمد بك
« الاسلام والحضارة العربية » (الجزء الأول) (القاهرة سنة ١٣٤٩)

(٧٥) كريمر : ألفرد فون .
Cremer, Alfred von.

«Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen. 2 vols. (Vienna, 1875), translated by Khuda Bukhsh (Calcutta, 1920— 1927.)

(٧٦) كوسان دى برسيفال :
Caussin de Perceval, A. P. : Essai de l'Histoite des Arabes avant L'Islamisme, et pendant L'epoque de Nohamet.

(٧٧) كيتانى : ليون
Caentani, Leone: Annali dell'Islam. (5 vols) (Milano. 1905—1913)

(٧٨) لامانس : الأب هنرى
P. Lammens Père Henri: Berceau de L'Islam, (Rome, 1914)

(٧٩) لينبول : ستانلى — Lane-Poole, Stanley.
«History of Egypt in the Middle Ages» (London, 1901)
«Coins and Medals» (London 1898).

(٨٠) ليبون : جستاف :
Le Bon, Justave : La Civilisation des Arabes (Paris, 1884).

(٨١) الماوردى (+ ٤٥٠ هـ و ١٠٥٧ م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى « الأحكام السلطانية » (القاهرة سنة ١٢٩٨هـ ولندن سنة ١٩٠١م)

(٨٢) أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ و ١٤٩٦ م) : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة »

(٨٣) محب الدين (+ ٦٩٤ هـ) : أحمد بن عبد الله الطبرى .
« السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين » (حلب سنة ١٣٤٦ م)

(٨٤) مرجوليوث : د . س — Margoliouth, Prof. D. S
Mohammed and the Rise of Islam, 3 rd ed. (London 1923)

(٨٥) المسعودى (+ ٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على .
«مروج الذهب ومعادن الجوهر» جزءان (القاهرة سنة ١٣٠٣هـ و ١٨٨٥م)

(٨٦) المقرى : « نفح الطيب » ٤ أجزاء (بولاق سنة ١٨٦٢ م)

(٨٧) الكلبى (+ ٢٠٤ هـ) : ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب
« كتاب الأصنام» (دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٣هـ ؟ ١٩٢٤ م)

(٨٨ ، ٨٩) المقريزى (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على .
(ا) «التاريخ الكبير المقفى» (مخطوط بمكاتب القاهرة ولندن وباريس وليدن)
(ب) «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» جزءان (بولاق سنة ١٢٧٠هـ)

(٩٠) ملن : Milne, J. Grafton : A History of Egypt under Roman Rule (London, 1913)

(٩١) ميور : Muir, sir William Temple : The Caliphate, its Rise; Decline and Fall (Oxford 1902)

(٩٢، ٩٣) نلدكه : (١) Theodor Noeldeke, Histarians' History of the World (27 vols.)
(٢) « أمراء غسان » نقلها إلى العربية الدكتور بندلى جوزى ؟ الدكتور قسطنطين زريق (بيروت سنة ١٩٣٣)

(٩٤) النويرى (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣٢ م) : أحمد بن عبد الوهاب .

« نهاية الأرب فى فنون الأدب » (مخطوط بالمكتبة الأهلية باريس رقم ١٥٧٦) . دار الكتب المكية ٧ أجزاء من هذا الكتاب .

(٩٥) النووى : (+ ٦٧٦ هـ ؟ ١٢٧٧ م) : أبو زكريا يحيى الدين بن شرف « تهذيب الأسماء واللغات » جزءان (طبعة ادارة الطباعة المنيرية بالقاهرة)

(٩٦) نيكلسون ا . رينلد : Nicholson, Prof. Reynold, A.
«Literary History of the Arabs», (London 1914).

(٩٧) (ابن هشام (+ ٢١٨ هـ و ٨٣٣ م) : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافرى الحميرى .
« كتـــاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ)

(٩٨) هل : يوسف : Hell, J. : Cultur der Araber; trans. by Khuda Bukhsh

(٩٩) هوبار: Huart : C.L. : Histoire des Arabes (Paris 1913)

(١٠٠) الواقدى : فتوح الشام : (مصر سنة ١٣٠٢ هـ)

(١٠١) وستنفلد : ف . Wüstenfeld F. von.
Genealogische Tabellen der Arabischen Stämme und Familien (Gottingen, 1852 — 1853).

(١٠٢) ولز: هـ . ج: H. G. Wells, Outline of History (2 vols.)

(١٠٣) فلهوزن : Wellhausen, Reste Arabischen Heidenthuns

(١٠٤) ياقوت (+ ٦٢٦ هـ و ١٢٢٩) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .
« معجم البلدان » ١٢ جزءا (القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ و ١٩٠٦ م)

(١٠٥) اليعقوبى (+ ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

(١٠٦) (١) « تاريخ اليعقوبى » جزءان (طبعة هوتسما) (ليدن سنة ١٨٨٣ م)

(١٠٧) (٢) « كتاب البلدان » ، طبعة دى غويه (ليدن سنة ١٨٩٢)

(١٠٨) أبو يوسف : (يعقوب بن ابراهيم) صاحب أبى حنيفة
« كتاب الخراج » (بولاق سنة ١٣٠٢ هـ)

مؤلفات ومترجمات المؤلف

١ ـ « تاريخ عمرو بن العاص » الطبعة الثانية سنة ١٩٢٦

٢ ـ « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » . (المطبعة الأميرية ببولاق) سنة ١٩٣٢ . وضعه المؤلف بالانجليزية وترجمه إلى العربية . وقد خفضت وزارة المعارف ثمنه الأصلى وقدره ٢١٢ مليم ١ ج إلى الثمن الذى يباع به الآن (يطلب من مخازن وزارة المعارف بالقاهرة والأقاليم) . يقول الأستاذ المرحوم السير توماس أرنولد عن الكتاب : « ولاريب فى أن الكتاب يعتبر أعظم وثيقة ظهرت فى هذا الموضوع إلى الآن . وتتجلى فيه قدرة المؤلف العلمية ومنزلته الأدبية اللتان امتاز بهما فى كل كتابه ، كما تظهر أحكامه السديدة بأجلى بيان فى كشف كثير من المسائل الخفية المعقدة »

٣ ـ « تاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب » للسنة الثانية الثانوية (بالاشتراك مع الاستاذ احمد صادق الطنطاوى ناظر مدرسة بورسعيد الأميرية . الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣ (ملتزمة طبعه ونشره المكتبة الأهلية الجديدة رقم ٦٥ شارع الفجالة بمصر) . وقد قررت وزارة المعارف تدريسه بمدارسها . ويمتاز الكتاب بدقة البحث وسهولة العبارة وارتباط الحوادث بعضها ببعض فى غير اسهاب . ويحليه كثير من الصور والمصورات التاريخية . ويقع فى ٢٣١ صفحة

٤ ـ « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف الدكتور أدولف جروهمان أستاذ الثقافة الاسلامية بجامعة براغ التشيكوسلوفاكية (طبعة دار الكتب المصرية) وترجمه الدكتور حسن ابراهيم حسن الى اللغة العربية وعلق عليه (القاهرة سنة ١٩٣٤)

٥ ـ « السيادة العربية والتشيع والاسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن . ترجمه المؤلف عن الفرنسية وعلق عليه بالاشتراك مع حضرة الشيخ محمد زكى ابراهيم خريج قسم التخصص للأزهر والمترجم بمصلحة المساحة (القاهرة سنة ١٩٣٤)

٦ ـ « تاريخ الاسلام السياسى » . يبحث فى تاريخ الاسلام والحضارة العربية منذ البعثة النبوية الى آخر العصر الأموى ويقع فى ٧٦٠ صفحة من القطع الكبير

٧ ـ « الدعاية الاسلامية » (Preaching of Islam) للمرحوم الأستاذ السير توماس أرنولد (تحت الطبع) بالاشتراك مع الأستاذ محمد مهدى علام المفتش بوزارة المعارف وستظهر الترجمة قريباً .

